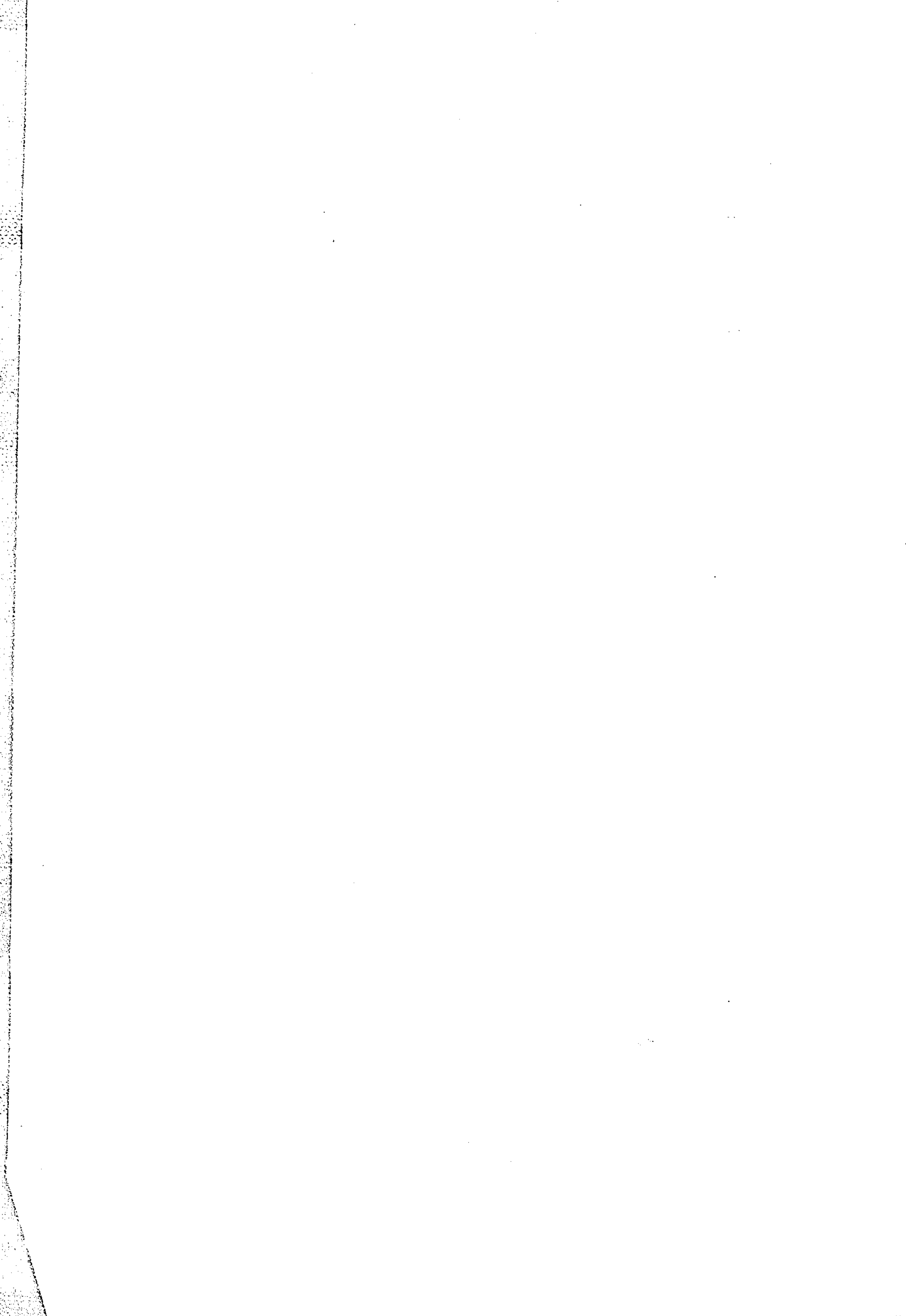
نصارى القرآن ومسيحيوه



نصارى القرآن

و

مسيحيّوه

(الجزء الاول)

أ. جوزف قزي

دار لأجل المعرفة
ديار عقل - لبنان
٢٠٠٢

سلسلة "الحقيقة الصعبة"

دار لأجل المعرفة، ديارعقل–لبنان. قياس (١٧×٢٤)

١. **قسّ ونبيّ**، بحث في نشأة الإسلام، أبو موسى الحريري، ٢٠٠١، ٣١٤ ص.

٢. **نبيّ الرحمة** ، بحث في مجتمع مكّة، أبو موسى الحريري، ١٩٨٥، ٢٠٨ ص.

٣. **عالم المعجزات**، بحث في تاريخ القرآن، أ. موسى الحريري، ١٩٨٦، ٢٥٠ ص

٤. **أعربيٌّ هو؟** بحث في عروبة الإسلام، أبو موسى الحريري، ١٩٩٠، ٢٥٤ ص

٥. **العلويّون النّصَيريّون**، بحث في العقيدة والتاريخ، أ.م. الحريري، ٢٧٢ ص

٦. **بين العقل والنبيّ**، بحث في العقيدة الدرزيّة، أنور ياسين، ١٩٨١، ٤٦٤ ص.

٧. **رسائل الحكمة**، (كتاب الدروز المقدّس)، حمزة بن عليّ، إسمعيل التميمي، بهاء الدّين السّموقي، طبعة ٥، ١٩٨٦، ٨٦٤ صفحة.

٨. **مصادر العقيدة الدرزيّة**، حامد بن سيرين، ١٩٨٥، ٥٧٦ صفحة.

٩. **السلوك الدرزي** أنور ياسين، ١٩٨٦، ٢١٨ صفحة.

١٠. **مذبحة الجبل**، (حسر اللّثام عن نكبات الشـام، تاريخ الحرب الأهليّة الدامية في لبنان سنة ١٨٦٠)، شاهين مكاريوس، ١٩٨٣، ٣١٠ صفحات.

١١. **المسيحيّة في ميزان المسلمين**، (ردّ على كتاب "الإسلام والمسيحيّة في الميزان" لـ شريف محمّد هاشم)، أبو موسى الحريري، ١٩٨٩، ٢٥٦ ص.

١٢. **نَزَعنا القناع**، (ردّ على كتاب "أنزعوا قناع بولس عن وجه المسيح"، لـ أحمد زكي)، ١٩٩٧، ٣٦٠ ص

١٣. **رغبات النفس والجسد**. (الحياة الجنسيّة في الإسلام)، أبو موسى الحريري، ٢٠٠٠، ٢٨٨ ص.

١٤. **موازين «الحقيقة الصعبة»**، (ردّ الحريري على ردود مسلمين)، ٢٠٠٠، ٢٣٦ صفحة.

١٥. **نصارى القرآن ومسيحيّوه**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ صفحة.

١٦. **المسيحيّة في ردود المسلمين**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ صفحة.

مقدمة

في القرآن آيات تتكلّم على النّصارى، وعلى عيسى وأمّه، وعلى المعتقدات المسيحيّة الأساسيّة. سنتناولها، بحسب ترتيبها في المصحف، لا بحسب ترتيبها الزمني، أي المكّيّ والمدنيّ، ولا بحسب أهمّيّة موضوعها؛ وذلك احتراماً لإجماع المسلمين على هذا الترتيب، وانسياقاً مع واقع الحال في القرآن.

ونعتمد، في فهمنا للقرآن، على معظم التفاسير، القديم منها والحديث. ونشير إلى مرجَعَين كبيرَين جمعا معظم هذه التفاسير، أصدرهما المعهد الملكي للدراسات الدينيّة في عمّان، هما : "**عيسى ومريم في القرآن والتفاسير**"(١)؛ و "**النصارى في القرآن والتفاسير**"(٢).

ما نقوم به من جمْعٍ للآيات القرآنيّة، مع تفاسيرها، نقدّمه من دون أيّ تدخّل منّا، أو أيّ رأي شخصي من عندنا، أو أيّ تأييد أو رفض. فنحن، في هذا الكتاب، نعرض ولا نناقش، ننقل ولا نؤيّد، نقبل ولا نرفض. ولكنّنا نختصر دفعاً للملل، ونوجز نيلاً لفائدة .

---

(١) تحرير رياض أبو وندي، علاء رشق، حسن البطوش، عوّاد علي، بإشراف يوسف قزما خوري، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٦؛ (٢٢×٣٠)؛ ٥٨٤ ص.

(٢) تحرير عواد علي، حسن البطوش، علاء الرشق، بإشراف يوسف قزما خوري، دار الشروق للنشر، عمّان، ١٩٩٨؛ (٢٢×٣٠)؛ ٦٠٤ ص.

وقصدنا واضح، وهو أن نلمّ بموقف القـرآن من النصرانيّة[٣] ومعتقداتها كما هي، بأسلوبه وتعابيره، ومنطقه، بحججه ودلائله.

وهدفنا ألاّ يُضلِّل مسلمٌ أو مسيحيٌّ، لا بمن يقول بالحوار بين الإسلام والمسيحيّة، ولا بمن يزعم بأنّ الصراع بينهما قائم.

ومصدرنا في البحث إثنان: ألقرآن وتفاسير المفسِّرين. وفي رأيي، أنّ هؤلاء هم أعظم طبقة في الفكر الإسلامي وأصدقها وأعلمها؛ لأنّهم عالجوا كلامَ اللّهِ ذاتَه، واكتشفوا فيه أغنى المعاني وأدقَّها.

أوّلاً – ألقرآن هو مرجع المسلمين في كلّ أمـرٍ من أمور الدِّين والدنيا. إنّه قـدْسُ أقداسِهم، لأنّه كتابُ الـلهِ المجيد[٤]، لا اختلاف فـيه (٤/٨٢)، ولا ينطقُ عن الهـوى (٥٣/٣). إنّه الحقّ اليقين (٦٩/٥١)، والقولُ الفَصْل (٨٦/١٣).وهو بُشرَى للمؤمنين[٥] ورحمةٌ للعالمين[٦].

---

(٣) لا تستـعمل المصـادر الإسلاميّـة لفظة "**مسيحيّة**". فالكلمـة المألوفة هي "**النصارانيّة**". والنّصارى، فـي تاريخ الكنيسـة، هم اليهود– المـتنصّرون، الذين اعتبروا المسيـحَ نبيّاً جاء يكمّل شريعة موسى. فيمـا المسيح، بالنسبة إلى "المسيحيّين"، هو إلهٌ جاء يخلّص الإنسانَ ويفتديه. هذا في الأصل. أمّا، في بدء الفتوحات، فـقد تعرّف المسلمون إلى هؤلاء المسيحـيّين، واعتبروهم مـشركين، مـثلهم مـثل سائر المـشركين. ولكنّ اسـمـهم بقي هو هو، رغم اختلافهم اختلافاً جوهرياً في عقيدتهم الدينيّة.

(٤) سـورة ق ٥٠/١؛ و ٨٥/٢١. إنّه القـرآن الكريم (٥٦/٧؛ ٢٧/٢٩)، الحكيم (٣٦/٢؛ ٣/٥٨؛ ١٠/١؛ ٣١/٢)، الـعظـيـم (١٥/٨٧؛ ٣٨/٦٧؛ ٧٨/٩٢، المُنير (٣/١٨٤؛ ٣٥/٢٥)، المُبين (١٥/١/ ٢٧/١؛ ٣٦/٦٩؛ ٥/١٥)...

(٥) ٢/٩٧، ٤٦/١٢، ١٦/١٠٣.

(٦) ١٠/٥٧، ٦/١٥٧، ٤١/٤٤.

ألقـرآن « هو الكتاب المقـدّس للمسلمين... فـيه أصـولُ دينهم، وشرائعُ حياتهم، ونبعُ إلهامـهم، ونبراسُ أخلاقهم، ونورُ هدايتهم في مُـخـتَلَف شؤونـهم الدينيـةِ والدنيـويّةِ، الروحيّـةِ والمادّيّةِ، العـامّـةِ والخـاصّةِ، السـياسـيّةِ والقـضائـيّةِ والاجـتمـاعيّـةِ والشـخـصيّـةِ والانسانيّـةِ... وَصَفَهُ نبـيُّهم بهذا الوصفِ الشـاملِ الرائعِ المأثورِ عن طريقِ عليٍّ بن أبي طالب... «فيه نَبَأُ مَا قَـبْلكم، وخَبَرُ ما بَعدكم، وحُكْمُ ما بَينكم »[٧]

هذا القـرآن «هو معجـزةُ المعجـزاتِ الألهيّـة. " ولَئِنِ اجْتَـمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أنْ يَأتُوا بمِثْلِ هَذا الـقُرْآنِ لا يَأتُونَ بمِثْلِه وَلَو كَـانَ بَعْضُـهُمْ لِبَـعْضٍ ظَهِيرًا " (١٧/٨٨). وبرهـانُ معـجزته أنه كلّه من عند اللّه، "وَلَو كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَبِيرًا " (٤/٨٢).

ثانياً – التفاسير، وهي التي يعتمد عليها المسلمون لفهم ما في القرآن عن النصـرانيّة وغيرها. هذه التفـاسير كثيـرة جداً. نقف على أهمّها، بحسب تسلسلها الزمني:

١. مـحمّـد بن جـرير **الطبري** (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م)، **جامع البيان في تفسير القرآن**، قال فيه السيوطي: " وكـتابه أجلّ التفاسير وأعظمها " . وقـال فيه النووي: " أجمـعت الأمّة على أنّه لم يصنَّف في التفسير مثل تفسير الطبري " . وقـال إبن تيميّة: " وأمّا التفاسير التي بأيدي الناس فأصحّـها تفسير مـحمّد بن جرير الطبري " . وقـال فيه الإسفراييني: " لو سـافر رجل إلى الصين حتّى يحصّل كتاب تـفسير محمد بن جرير، لم يكن ذلك كثيـراً " . وقال فيه نولدكيه: " لو حصلنا

(٧) محمّد عزّة دروزة، القرآن المجيد ص ٥ – ٦.

على هذا الكتاب لاستطعنا أن نستغني عن كلّ كتب التفسير المتأخّرة عليه". وقال فيه جولدزيهر: "لقد كان.. نبعاً لا ينضب، استمدّ منه المتأخّرون حكمتهم.. ولدينا فيه دائرة معارف غزيرة الثروة من التفسير المأثور"[٨]. وهو تفسير جمع بين العقل والنقل.

٢. **البغوي** (ت ٥١٦/١١٢٢). فقيه شافعي محدّث مفسّر. ملقّب بمحيي السنّة ركن الدين. كان تقيّاً ورعاً زاهداً قانعاً. له كتاب **معالم التنزيل**، وهو كتاب متوسّط. وصفه الخازن في مقدّمة تفسيره بأنّه "من أجمل المصنّفات في علم التفسير، وأعلاها، وأنبلها، وأسناها". وقال فيه إبن تيميّة: "والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي". طبع هذا التفسير مع تفسير الخازن[٩].

٣. **الزمخشري** (ت ٥٣٨/ ١١٤٤)، الملقّب بجار اللّه. له: **الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. إنّه نموذج للتفسير الاعتزالي، وهو "أحد الكتب الأساسيّة الأصيلة في التفسير"، بحسب ما قال جولدزيهر؛ وهو "من خير الكتب.. من ناحية البلاغة.. وقد بلغ الزمخشري الذروة في بيان إعجاز القرآن وإبراز جمال أسلوبه، وأبدع في كشف النقاب عن مزايا أسلوب القرآن، خصوصاً في النصف الأوّل منه، فقد اعتراه في النصف

---

(٨) أنظر : **تاريخ القرآن والتفسير**، دكتور عبداللّه محمود شحاته، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٧٢؛ (١٤×٢٠)؛ ٢٠٠ ص. وأنظر أيضاً: **التفسير والمفسّرون**، بحث تفصيلي عن نشأة التفسير و تطوّره وألوانه ومذاهبه. مع عرض شامل لأشهر المفسّرين، وتحليل كامل لأهم كتب التفسير، من عصر النّبيّ إلى عصرنا الحاضر، الدكتور محمّد حسين الذهبي، في جزئَين. لا دار نشر، سنة ١٩٧٦.

(٩) أنظر محمّد حسين الذهبي، المرجع السابق الذكر، ١/ ٢٣٤-٢٣٨.

الثانـي ملال.. ويمكن أن نقـول إنّ معظم التـفاسـير التي جـاءت بعد الكشاف قـد أخذت منه، واعـتمدت عليـه في بيان خـصائص إسلوب القرآن وبلاغته "[١٠]. ولقد اعتزّ الزمخشري بكتابه فقال فيه شعراً:

إنّ التفاسـيرَ في الدنيا بلا عـددٍ وليس فيها لَعَمري مثلُ كشّـافي
إنْ كنتَ تبغي الهدى فالزم قراءتَه فالجهلُ كالداءِ والكشّاف كالشافي[١١]

٤. **الطَّبَرسي** (ت ٥٤٨/١١٥٣)، **مجمع البيان لعلوم القرآن.** " أثبت في هذا التفسـير عقائد الشـيعة الإماميّـة الإثني عشريّة "[١٢].. ولكنّه معتدل في تشيّعه، مسـتنير، قويّ الحجة، مرّتب الأفكار، مهذّب العـبـارة، مـفيـد للـقارئ.. يتـمـيّـز بالتـبـحّـر في عـدد من العلوم والمعارف "[١٣].

٥. **ابن عربي** (ت ٦٣٨/ ١٢٤٠)، تفـسـيـر ابن عـربي، وهو تفسـير على طريق أهـل التصوّف النظـري، الذي " غالبه يقـوم على مذهب وحدة الوجود. ذلك المذهب الذي كان له أثره السيّء في تفسير القرآن الكريم "[١٤].

٦. **فـخـر الدين الرازي**، الشـافـعي (ت ٦٠٦/ ١٢٠٩). له: **مفاتيح الغيب**. " وهو تفسير أشبـه ما يكون بموسوعة في علم الكلام

---

(١٠) ألمرجع السابق نفسه، ص ١٦١.
(١١) أنظر محمّد حسين الذهبي، التفسير والمفسّرون، ١/ ٤٢٩-٤٨٢.
(١٢) يعتمـد الشيعة علـى كتاب **الكافي** للكليني (+٣٢٨هـ)، وهو يقابل صـحيح البخاري عند أهل السنّة.
(١٣) د. شـحاته، ألمرجع المذكـور آنفـاً، ص ١٨٦-١٨٧. أنظر أيضـاً: التفـسيـر والمفسّرين، ٢/ ٩٩-١٤٤.
(١٤) أنظر: التفسير والمفسّرون، ٢/ ٤٠٢.

وفي علوم الكون والطبيعة. وقد اعتنى فيه بإيراد آراء المعتزلة والردّ عليهم.. يتوسّع في ذكر مسائل العلوم الرياضيّة والفلكيّة.. وقد قيل عن تفسير الرازي: فيه كلّ شيء إلاّ التفسير "(١٥).

٧. أبو عبدالله **القرطبي** (ت ٦٧١/١٢٧٢)، **الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّنه من السنّة وأحكام الفرقان.**

٨. **البيضاوي** (ت ٦٩١/١٢٩١)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل.** "كتاب جليل دقيق، جمع بين التفسير والتأويل، على أصول أهل السنّة "(١٦).

٩. **النسفي** الحنفي (ت ٧١٠/١٣١٠)، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل.** "اختصره النسفي من تفسير البيضاوي ومن تفسير الكشّاف؛ غير أنّه ترك ما في الكشاف من آرائه الاعتزاليّة، وجرى فيه على مذهب أهل السنّة والجماعة. وهو تفسير وسط، ليس بالطويل المملّ ولا بالقصير المخلّ "(١٧).

١٠. **النّيسابوري** (ت ٧٢٨/١٣٢٧)، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان.** " وهو مختصر لتفسير الرازي "(١٨).

١١. **الخازن** (ت٧٤١/١٣٤٠)، **اللّباب في معاني التنزيل.** يُعنى بالمأثور، لا يذكر السند. وله ولوع بالتوسّع في الروايات والقصص "(١٩).

---

(١٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٢-١٦٣.
(١٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٩.
(١٧) المرجع نفسه، ص ١٦٣.
(١٨) المرجع نفسه، ص ١٥٨.
(١٩) المرجع نفسه، ص ١٥٩.

١٢. **ابن حيّان الأندلسي** الغرناطي (ت٧٤٥/ ١٣٤٤)، **البحر المحيط**. "أكثر مؤلّفه من مسائل النحو في كتابه مع توسّعه في مسائل الخلاف بين النحويّين، حتّى أصبح الكتاب أقرب إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير "[٢٠].

١٣. **ابن كثير** القرشي الدمشقي الشافعي (ت٧٧٤/ ١٣٧٢)، **تفسير القرآن العظيم**. "من أصح التفاسير بالمأثور، إنْ لمْ يكنْ أصحّها جميعاً. وقد التزم صاحبُه تفسيرَ القرآن بالقرآن "[٢١].

١٤. **الفيروزابادي** (ت ٨١٧/ ١٤١٤)، **تنوير المقياس في تفسير ابن عبّاس**. "منتحل على ابن عبّاس".

١٥. **المحلّي** (ت ٨٦٤/ ١٤٥٩)، **تفسير الجلالَين**.

١٦. **السيوطي** (ت ٩١١/ ١٥٠٥)، **تفسير الجلالَين**.

١٧. **الشّوكاني**، زَيدي (ت١٢٥٠/ ١٨٤٣)، له **فتح القدير**، "الجامع بين فنّي الرواية والدراية في التفسير".. يعتبر السوكاني عمدة المفسّرين في عصره وإمام المجدِّدين في القرن الثالث عشر الهجري.. كسر قيود التقليد وحارب المقلِّدين، ونادى بالاجتهاد والرجوع إلى الينابيع الأصليّة للشريعة "[٢٢].

١٨. **الألوسي** البغدادي مفتي بغداد (١٢٧٠/ ١٨٦٣)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. "من أجلّ التفاسير وأوسعها وأجمعها.. لخّص البيضاوي والرازي والسيوطي "[٢٣].

---

(٢٠) المرجع نفسه، ص ١٦٤.

(٢١) المرجع نفسه، ١٧٦-١٧٧.

(٢٢) المرجع نفسه، ص ١٩٣-١٩٥.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ١٦٠.

١٩. **الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧١-١٩٨٥.

٢٠. **الإمام محمّد عبده** (ت ١٣٢٣/ ١٩٠٥)، **تفسير جزء عمّ.**

٢١. **القاسمي** (ت١٣٣٢/ ١٩١٤)، **محاسن التنزيل**. كان "آية في المحافظة على الوقت والمواظبة على العمل والقدرة على المواءمة بين هدى السلف والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن.. والقاسمي شيعي مستنير يغلب عليه الطابع العلمي مع رغبة في التجديد "[(٢٤)].

٢٢. **محمّد رشيد رضا** (ت١٣٥٤/ ١٩٣٥)، تفسير القرآن الحكيم، المشتهر باسم **تفسير المنار**.

٢٣. **طنطاوي جوهري** (ت ١٣٥٨/ ١٩٤٠)، **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، من ٢٥ مجلّد، ألبابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣١.

٢٤. **المراغي** (ت١٣٦٢/ ١٩٤٥)، **تفسير المراغي**. وهو تفسير بعض آيات القرآن.

٢٥. **سيّد قطب** (ت ١٣٨٦/١٩٦٦م)، **في ظلال القرآن.**

٢٦. الشيخ **محمّد حسين فضل الله**، **من وحي القرآن**، دار الملاك، بيروت، ٢٥ مجلّداً، ط ٢، ١٩٩٨.

***

هذه هي مصادرنا. وسنعتمد عليها، مع ما فيها من ترداد مملّ. وبذلك، يكون لنا فكرةٌ واضحة كاملة شاملة عن موقف القرآن،

---

(٢٤) ألمرجع نفسه، ص ١٩٥.

وبالتـالي عن مـوقف الإسـلام والمسلمين، في القـديم والحـديث، من النصرانيّة والمسيحيّة ومعتقداتهما.

ومن الآن يجب أن نميّـز في موقف الـقرآن من مـسيـحيّـتَين: مسيحيّـةً، هي النصرانيّة، أخذ عنها، وعلّم تعاليمهـا، وتمّم شريعتها، وآمن بكتبها، وكرّم قسّيسيها ورهبانها...؛ ومسيحيّة غلتْ، في نظره، في عقيدتها، حتى لامست الشرك في نظرتها إلى اللّه.

لقد كان موقف القرآن من هاتَين المسيـحيّتَين واضحاً جدّاً. أمّا موقف المسلمين، من بعد القرآن، فاختلطتْ عليهم، إثر الفتوحات، هويّةُ هؤلاء النصـــارى. فـــبـتـنا لا نعلم مَن هــم "النصــــارى"، ومَن هم "المســيحيّـون"، ومَن هم "الأمّـة الوسط"، ومَن هم الذين "غَلوا في دينهم"، ومن هم أصحاب "الدِّين القـيّم"؟. ألكلّ أصبح، بسبب العداء السياسي، أعداء الإسلام.

لهذا الإلتبـاس اقتضى معالجة هذا الموضــوع. وسيكون بحثنا في ثلاثة فصول: فصل أوّل فيه نبحث في الآيات وتفاسيرها، بحسب تسلسلهـا في المصحف، تلك التي تشيـر، من بعيـد أو من قريب، إلى النصارى ومـعتقـداتهم؛ وفصل ثانٍ في النّصرانيّـة والإسلام المكّي؛ وفصل ثالث في المســيحيّـة والإسلام المدني. في الفصلين الأخـيرين، نتناول ما ورد في الفصل الأوّل بحسب الموضوعات

***

وأخيرا، لا بدّ من الإشارة إلى أمورٍ اعتمدناها في بحثنا:

١. تخفـيفاً عن متن النّص، آثرنا نقلَ مراجع القـرآن إلى حقل الهوامش؛ فيما الأصل غير ذلك.

٢. وأيضاً تخفيفاً عن النّص، آثرنا التخفيف من ألقاب التكريم والتبجيل للّه وأنبيائه. فأَرَحْنا اللّهَ من ألقابِه، مثل: سبحانه، وتعالى، عزّ وجلّ، جلّ ثناؤه، تعالى ذكره..؛ والنّبيَّ محمّد وسائرَ النبيّين والمرسَلين من صلوات اللّه عليهم...؛ وأمّهات المؤمنين والصحابة من رضوان اللّه عليهم وعليهنّ.. إلخ.

٣. نستشهد عادةً بذكر إسم السورة ورقمها ورقم الآية، يفصل بينهما خطّ منحنٍ. وقد يستعاض أحياناً عن اسم السورة برقمها، وذلك تخفيفاً للنّص أيضاً.

٤. إنّ الترداد والتكرار لا بدّ منهما. فليعذرنا القارئ، لأنّ هذا الترداد وهذا التكرار لمن التقليد المعتمد والمقصود عند المفسِّرين؛ وذلك للدلالة على أنّ المفسّرين هم في خطٍّ واحدٍ في فهمهم للقرآن.

هذا وإنّ بحثنا سيتناول أيضاً كلّ ما يعود إلى الألفاظ القرآنيّة عن المسيحيّة، مثل: **زكريّا**، و**يحيى**، و**عيسى**، و**مريم بنت عِمران**، و**الإنجيل**، و**النصارى**، و**الحواريّين**، و**أهل الكتاب**، وغير ذلك..

ويتناول كذلك بعض التعاليم النصرانيّة، والمسيحيّة، التي تشير، من قريب أو بعيد، إلى مقاربة ما بين القرآن والأناجيل، أكانتْ هذه أناجيل قانونيّة رسميّة أم أناجيل منحولة كانت متداولة في بيئة النبيّ وعصره.

هذا وإنّنا سنشير، بالاستناد إلى العلوم الحديثة للقرآن ، إلى أنّ آياتٍ كثيرة اعتبرها بعضُ المفسِّرين تعود إلى النّصارى، وهي، في الحقيقة، لا تمتّ إلى النصارى بصلة. أعني بذلك أنّ آياتٍ تعود، بحسب علْمِ "أسباب النزول"، إلى اليهود؛ ولا شأن للنصارى فيها.

سنشير إلى ذلك في حواشي بحثنا، وإنْ كان ذلك، على غير ما وَعَدْنا، تدخّلاً منّا. فالإشارة إلى الخطأ واجب أحياناً وإنْ في غير حينه.

بهذا نريدُ أن يطمئنّ القارئ بأنّنا نبغي الإلمام بكلّ ما يعود إلى موضوعنا؛ ذلك لأنّ موقف القرآن من النصرانيّة و المسيحيّة هو الأساس الذي نبني عليه. وسوف يليه بحثٌ آخر في موقف الإسلام من المسيحيّة.

يبقى علينا أن نشير إلى أنّ القرآن يميّز بين النّصرانيّة التي عنها يأخذ، والمسيحيّة التي يكفّر. وهذا واضح وضوحاً جليًا في كلامه على النصارى بأنّهم «أهل المودّة»، وكلامه على المسيحيّين بكونّهم كفّاراً مشركين، يقولون بأنّ اللّهَ ثالثَ ثلاثة، وبأنّ عيسى هو ابن اللّه.

أمّا المسلمون، بعد القرآن، فلم يعرفوا إلاّ المسيحيّين الذين كفّروهم وردّوا عليهم. ولكنّهم عرفوهم تحت اسم «نصارى». وهذا ما سوف نفرد له، بعد بحثنا هذا، بحثاً خاصًا. إن شاء اللّه.

الفصل الأوّل

نصارى القرآن ومسيحيّوه

بحسب ترتيبها في المصحف



(١)

«الضالّون»؟

١. بسمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ. ٢. الحَمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ. ٣. الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ. ٤. مَالكِ يومِ الدِّينِ. ٥. إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتعينُ. ٦. إهْدِنَا الصِّراطَ المُسْتقيمَ. ٧. صِراطَ الَّذِينَ أنْعَمْتَ عَليهم غَيرِ المغْضُوبِ عَليهم وَلا الضَّالِّينَ (الفاتحة ١/١-٧)[1].

أوّلاً - مقدّمة "الفاتحة"

١. آياتها: ٧؛ كلماتها: ٢٧؛ حروفها: ١٤٠.

٢. تؤلّف "الفاتحة" وحدةً أدبيّة متماسكة، تتميّز عن سائر السّور بوضوح. وهي ليست تحذيراً، أو توبيخاً، ولا صيغة عقائديّة أو قانونيّة. بل هي صلاة، أو كما يقول جولدزيهر "أبانا الإسلام"... يردّد المسلم هذه السورة سبع عشرة مرّة في اليوم على الحدّ الأدنى. ويردّدها ليلَ نهار. ولا تقوم صلاة من دونها، بحسبما ورد في الصّحيحَين عن رسول اللّه من حديث عبادة بن الصامت: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب".

٣. لها في كتب التّفسير أسماء عديدة. منها: فاتحة الكتاب، وأمّ الكتاب، وأمّ القرآن، والإمام، وذلك لاشتمالها على المعاني التي في

---

(١) نتوسّع في تفسير الفاتحة ومعطياتها البيبليّة؛ لأنّها تكوّن أساس الإيمان.

القرآن؛ وسورة الحمد، لابتدائها بكلمة "الحمد"؛ والوافية، لأنّها لا تقسَّم مثل غيرها في الصلاة؛ والكافية، لأنّها تكفي عن غيرها وغيرُها لا يكتفي إلاّ بها؛ والسبع المثاني، لأنّ آياتها سبع تتلى وتتكرّر في الصلاة[٢]؛ والشفاء، لأنها تشفي من كلّ داء.. وتسمّى أيضاً: سورة الكنز، والشكر، والدّعاء، والصلاة...إلخ.

٤. قال الفخر الرّازي: "إنّ هذه السّورة الكريمة يمكن أن يُستَنبطَ من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسئلة"[٣]. وفي المأثور عن عليّ بن أبي طالب قوله: "لو أردتُ استكشافَ ما في الفاتحة من معانٍ لكتبتُ حِمْلَ عشرين بعير". وعند آخرين: "مَن ينظر في الفاتحة يجد أسماء سلاطين بني عثمان كلّهم". وعند غيرهم: "لو أضعتُ عقالَ بعيرٍ لوجدتُّه في الفاتحة". وعند غيرهم: «كل العلوم موجود في القرآن. وكلّ القرآن في الفاتحة، وكلّ الفاتحة في البسملة، وكلّ البسملة في الـ"بسم"، وكلّ الـ"بسم" في حرف الـ"ب"».

٥. في هذه السورة فقط تؤلّف البسملة آيةً من آياتها، هي الأولى. أمّا في سائر السور فهي لا تُحسبُ في عداد الآيات. ثمّ إنّ السّور كلّها تبتدئ بالبسملة ما عدا السورة التّاسعة، أي "سورة التّوبة"، أو "البراءة". إلاّ أنّ هذه البسملة، في صيغتها "بسم اللّه الرّحمن الرّحيم"، لا توجد في صلب آيات القرآن إلا هنا في الفاتحة، وفي سورة النّمل (٢٧/ ٣٠).

---

(٢) من قوله: "ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم" (١٥/٨٧)، ومن قوله أيضاً: "ألله نزّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم" (٣٩/٢٣).

(٣) ألتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ١/ ١١.

ثانياً - "بِسْم"

١. "إسم الله"، في القرآن، هو موضوع ذكْرٍ دائم عند الإنسان: يذكره على ما يأكل من طعام[٤]، وعلى ما يذبحُ من بهيمة الأنعام[٥]، وفي المساجد والصوامع والبِيَع[٦]، ويُذكر أيضاً في بيوت يُرفع فيها اسمه (٢٤/٣٦)، وفي مجرى السّفن ومرساها (١١/٤١). ذكرُ اسم اللّه واجب "بكرةً وأصيلاً" (٧٦/٢٥)، وتسبيحه كذلك (٨٧/١)، وتبريكه (٥٥/٧٨)، وعند كلّ صلاة (٨٧/١٥)، وفي قراءة الكتاب (٩٦/١)، والانقطاع إليه انقطاعاً تامّاً (٧٣/٨).

٢. وما في القرآن من ذكرٍ لـ "اسم اللّه" هو من عقليّة الشرقيّين عامّة، حيث "اسمُ اللّه" يعني حضورَ اللّه نفسه. وتزخر البيبليا، بطريقة مألوفة، باستعمال "اسم اللّه"، إلى درجة أنّ اللّه، فيها، هو عديل اسمه. واسمه تعبير عن ماهيّته وحقيقته. هكذا، مثلاً، اختار اللّهُ مكاناً "ليسكن فيه اسمه"[٧]. "ولقد كان في قلب داود أن يبني بيتاً لاسمِ الرّبّ إلهِ إسرائيل"[٨]. وصاحبُ المزامير يُنشد ويُسبّح لاسم الرّبّ: "يا عبيد الرّبّ! سبّحوا لاسم الرّبّ. سبّحوا. ليكن اسمُ الرّبّ مباركاً.. إسم الربّ مسبّح"[٩]. إسمُه قدّوس[١٠]. "ومَن يشتم

---

(٤) راجع: ٥/٤؛ ٦/١١٨ و١١٩ و١٢١...

(٥) راجع: ٦/١٣٨؛ ٢٢/٢٨ و٣٤ و٣٦...

(٦) ٢٢/٤٠. "ومَن أظلمَ ممّن منع مساجد اللّه من أن يُذكرَ فيها اسمُه؟" (٢/١١٤).

(٧) أنظر: تثنية الاشتراع ١٢/٥ و١١ و٢١؛ ١٤/٢٣ و٢٤؛ ١٦/٢ و٦ و١١...

(٨) سفر الملوك الأوّل ٨/١٧.

(٩) مزمور ١١٣/١-٣.

(١٠) أشعيا ٢٩/٢٣؛ حزقيال ٣٦//٢٣.

اسَمَ الرَّبِّ فليُقتَل قتـلاً.. إذا جُدِّفَ على الاسـم يُقتل"[١١]. "لا تدنّسـوا اسمي القدّوس"[١٢]. و"لا تحلفوا باسمي كذباً فتُدنّسَ اسمَ إلهكَ"[١٣]. و"لا تلفظ باسم الرّبّ إلهك باطلاً"[١٤].

٣. وكذلك الأمر في العهد الجـديد، حيث "اسم اللّه" تعبير عن حقـيقـته وماهيّـته: فـيسوع يعـرّف عن اللّه أبيه بذكـر اسمـه فقط: "أظهرتُ اسـمَكَ للنّاس.. وعرّفتـهم اسمَك"[١٥]. وعلى المسيـحيّين أن يسبّـحوا اسم اللّه[١٦]. وألاّ يكونوا سـبباً لأنْ يُـجدَّفَ على اسـمه[١٧]. والتـلاميـذ كانوا يشـفون المرضى باسم يسـوع[١٨]. وباسمـه كانوا يُخرجون الـشياطين[١٩]. ويحقّـقون المعجزات على أنواعـها[٢٠]. ولا يتردّدون عن قبول كلّ اضطهاد في سبـيل اسمه، بل وجدوا فرحاً في ذلك، "لأنّهم وُجـدوا أهلاً لأنْ يَلقوا الهـوانَ من أجل الاسم"[٢١]. كما "أنّ رسـلاً خـــرجـوا للرّسـالـة من أجل الاسم"[٢٢]. بل أنّ الكرازة

---

(١١) أحبار ٢٤/١٥-١٦.
(١٢) أحبار ٢٢/٣٢؛ ٢١/٦؛ ٢٠/٣.
(١٣) أحبار ١٩/١٢؛ ١٨/٢١.
(١٤) خروج ٢٠/٧...
(١٥) إنجيل يوحنا ١٧/٦ و٢٦.
(١٦) عبرانيّين ١٣/١٥.
(١٧) راجع: روما ٢/٢٤؛ ٢ طيموتاوس ٦/١.
(١٨) أعمال الرسل ٣/٦؛ ٩/٣٤.
(١٩) راجع: مرقس ٩/٣٨؛ ١٦/١٧؛ لوقا ١٠/١٧؛ الرسل ١٦/١٨؛ ١٩/١٣.
(٢٠) متّى ٧/٢٢؛ أعمال الرسل ٤/٣٠.
(٢١) سفر أعمال الرسل ٥/٤١.
(٢٢) رسالة يوحنا الثالثة، آية ٧.

المسيحيّة الأولى كانت تهدف نشرَ اسم يسوع[٢٣]. وسيتعذّب المبشّرون من أجل هذا الاسم[٢٤]، كما سيكون لهم هذا الاسم مصدرَ فرح عظيم[٢٥].

٤. وبالنتيجة، يبقى القرآن، في ذكره "إسمَ اللّه" والتركيز عليه، في خطّ البيبليا، والعقليّة السّاميّة الشرقيّة، والتقليد اليهودي-النّصراني. واستعمالُه الكثير والمتنوّع لهذا التعبير ليس خاصّاً به.

ثالثاً - "ألله"

١. جاء في تفسير البيضاوي: "ألّله أصلُه إله. فحُذفت الهمزة، وعَوَّضَ عنها الألف واللاّم. ولذلك قيل: يا ألّله، بالقطع. إلاّ أنّه (أي اللّه) يختصّ بالمعبود بالحق؛ والإله في أصله لكلّ معبود. ثم غَلبَ على المعبود بالحق"[٢٦]. يرد إسم اللّه في القرآن: ٩٨٠ مرّة، وألّلهمّ: ٥ مرّات. والإله ومشتقاته: ١٥٧ مرّة. والمجموع: ١١٤٢ مرّة.

٢. ألّله هو الاسم السّامي في مختلف اللّغات، الكنعانيّة والفينيقيّة والأراميّة والعبرانيّة والعربيّة وغيرها. أصله من "إل" و"إيل" ومشتقاته "ألوهو"، "إلوهيم"... وهو يعني، في الأصل، الأوّل، كما يُشير إلى الكائن المعروف قبل أي كائن آخر، وهو يُعرِّفُ عن سواه. ومنه كانت "أل" التعريف. ومنه أيضاً إسم "إيلونو"، في الأراميّة، أي الشجرة. والشجرة نادرةٌ في صحراء قاحلة غير

---

(٢٣) لوقا ٤٦/٢٤-٤٧؛ رسل ١٧/٤-١٨؛ ٢٨/٥ و٤٠؛ ١٢/٨؛ ٤٣/١٠.
(٢٤) مرقس ١٣/١٣ وما يقابله في الإزائيّين.
(٢٥) متى ١١/٥؛ يوحنا ٢١/١٥؛ ١ بطرس ١٣/٤-١٦.
(٢٦) تفسير الفاتحة، ٢٢/١.

محدودة الأطراف، ولا علامة تحدّد المعالم غيرَها. هي «تعرّف» بالحدود الضائعة بين قبيلة وأخرى، وتشكّل حدّاً بين الجار وجاره.

٣. أللّه في القرآن هو نفسه في البيبليا، في اسمه، وطبيعته، وشخصيّته، وصفاته، ودوره، ومهامّه.. هو، في البيبليا، "الأوّل والآخِر"[٢٧]، وفي القرآن أيضاً، "هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن" (٥٧/٣). إله الإسلام هو نفسه إله بني إسرائيل. وقد توجّه القرآن إلى المسلمين قائلاً: "ولا تجادلوا أهلَ الكتاب... وقولوا: ... إلهنا وإلهكم واحد. ونحن له مسلمون" (٢٩/٤٦). ويتردّد هذا القول مراراً[٢٨].

٤. فـ"اللّه، إذاً، إنّما هو من تراث واحد مشترك بين السّاميّين كافّة. ويتّصف بالصفات نفسِها التي تصفه به البيبليا. وهذا دليل آخر على القرابة القائمة بين التراث اليهودي-النصرانيّ والإسلامي. والعالِمُ العارف بهذا التراث المشترَك يقرّ بوحدة الأصل والإيمان.

رابعاً - "الرّحمن الرّحيم"

١. ترد كلمة رحمن، بهذه الصيغة فقط، ٥٧ مرّة؛ وكلمة الرّحيم ومشتقاتها، ٢٦٣ مرّة. ألرحمن من رحم على وزن فعلان، كغضبان وسكران من غضب وسكر. والرّحيم من رحم أيضا على وزن فعيل، كمريض وسقيم من مرض وسقم. وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرّحيم؛ ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا فقط.

---

(٢٧) أنظر أشعيا ٤١/٤؛ ٤٤/٦؛ ٤٨/١٢.
(٢٨) أنظر أيضاً: ٢/١٣٦؛ ٣/٥١؛ ١٩/٣٦؛ ٤٣/٦٤...

٢. والرّحمن لا تُستعمل في غير اللّه؛ أمّا الرّحيم فتُستعمل في غير اللّه. لكأنّ الرحمن إسم للّه، فيما الرّحيم صفة للرحمن. من هنا نجد في القرآن: "عباد الرحمن" (٦٣/٢٥)، "أسجدوا للرّحمن" (٦٠/٢٥)، "يكفرون بالرحمن" (٣٠/١٣)، و"ادعوا الرّحمن" (١١٠/١٧)، و"أعوذ بالرّحمن" (١٨/١٩)، و"نذرتُ للرّحمن" (٢٦/١٩)، و"إنّ الشيطانَ كان للرّحمن عصيّاً" (٤٤/١٩)، و"عذاب من الرّحمن" (٤٥/١٩)، و"آيات الرّحمن" (٥٨/١٩)، و"وعَدَ الرّحمنُ عبادَه" (٦١/١٩)...

٣. أمّا الرّحيم فهي صفة تتعلّق بغفران اللّه، ورأفته، وعفوه، ومحبّته، وتوبته إلى الإنسان الخاطئ، وقبول توبة الإنسان الخاطئ. لهذا جاءتْ لفظةُ "الرّحيم" تابعةً، دائماً، لهذه المعاني. فاللّهُ، مثلاً، "رؤوف رحيم"[٢٩]، و"غفور رحيم"[٣٠]، و"توّاب رحيم"[٣١]، و"عزيز رحيم"[٣٢].

٤. وكثرة ألفاظ "الرّحمة" ومشتقاتها في القرآن تدلّ على حقيقة هذه الصفة في اللّه، بل على الأهمّيّة التي يعلّقها القرآن على هذه الرّحمة الإلهيّة. فاللّه "كتب على نفسه الرّحمة"[٣٣]. وفي الحديث: "إنّ رحمتي سبقتْ غضبي"[٣٤].

---

(٢٩) ١٤٣/٢؛ ١١٧/٩؛ ٧/١٦ و١٢٨؛ ٤٧/٢٢؛ ٦٥/٢٤؛ ٢٠/٥٧؛ ٩/٥٩؛ ١٠.
(٣٠) يرد هذا التعبير في القرآن: ٧٨ مرّة.
(٣١) يرد هذا التعبير في القرآن: ١١ مرّة.
(٣٢) يرد هذا التعبير في القرآن: ١٣ مرّة؛ إلاّ أنّ "العزيز الحكيم" هو المألوف.
(٣٣) ١٢/٦ و٥٤.
(٣٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن حنبل.

٥. هذه الرّحمة الإلهيّة هي من مميّزات إله البيبليا والتراث اليهودي-النّصراني. جاء في سفر الخروج: "مرّ الرّبُّ قدّامَ موسى (وهو على جبل سيناء)، فنادى موسى: "ألرّبّ، الرّبّ! إله رحيم رؤوف (في العبرية: رحوم وحنون)، طويل الأناة، كثير الرّحمة والوفاء (حِسدْ، أي رحيم غيور على مَن يُحبّ)، يحفظ الرّحمةَ لألوف، ويحتمل الإثمَ والمعصية"[٣٥]. فتعبير "رحوم حنون" البيبليا هو نفسه "رحمن رحيم" القرآن.

٦. إلاّ أنّ كثيراً من الباحثين والمستشرقين وجدوا، في آثار الجزيرة العربيّة القديمة، السبئيّة، والنّبطيّة، والحورّيّة، والفينيقيّة، والأراميّة، والحتّيّة، والأوساط الساميّة المشركة... أنّ اسمَ "رَحْمَانُنْ" واسم "رَحَامْ" هما إسمان لآلهة[٣٦]؛ وقد كانا معروفين، منذ القديم، عند هذه الشعوب، حتّى الغريبة منها عن التّوحيد[٣٧].

---

(٣٥) خروج ٣٤/٦-٧؛ أنظر تثنية الاشتراع ٧/١٢-١٣.

(٣٦) G.Ryckmans, Les noms propres sud-sémitiques, t. I, p. 31

(٣٧) Cf. R. Dussaud, La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, pp. 98, 174;

R. Blachère, Histoire de la littérature arabe, I, p. 53

وفي استعمال كلمة "رحيم" عند المسيحيّين السريان، راجع: F. Nau, Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VII° siècle, 1933, p. 26.

وفي استعمالها في الأوساط الساميّة المشركة، راجع: R. Dussaud, Les religions des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens, p. 405.

G. Ryckmans, Les religions arabes pré-islamiques, H.G.R. IV, pp. 314, 331;

J. Starcky, Palmyréniens, Nabatéens et Arabes du Nord avant l'Islam, Hist. des rel. IV, p. 224;

٧. وإنّنا، لا نجد، بعد هذا التّوضيح، أيّة ضرورة للقول بأنّ صيغةَ "بسم اللّه الرحمن الرحيم" هي صيغة ثالوثيّة، تشير إلى صيغة "بسم الآب والابن والرّوح القدس". ولئن كان ذلك صحيحاً أم لا فإنّ الإفادة الكبرى ليست في هذه المقاربة، بمقدار ما هي في استعمال القرآن لهذه الأسماء البيبليّة المألوفة.

خامساً - "الحمد لله"

١. ترد لفظة "الحمد" ومشتقاتها في القرآن: ٦٠ مرّة. و"الحمد، بحسب البيضاوي، هو الثناء على الجميل الاختياري من نعمة وغيرها"، وهو أيضاً "الشكر"، من قول النّبيّ "ألحمدُ رأسُ الشّكر. ما شكر اللّهَ مَن لم يحمدْه". والذّمّ نقيض الحمد[٣٨].

٢. وتشدّد البيبليا أيضاً على واجب المؤمن في "حمد اللّه". وهو الـ "هلّلويا" العبرانيّة، أي "احمدوا اللّه" المتردّدة دائماً في الطقوس الكنسيّة جميعها وفي مختلف اللّغات. وقد أخذتْها عن المزامير التي هي أنشودة "حمد" دائمة للّه: "إحمدوا الرّبَّ وادعوا باسمه. عرِّفوا في الشعوب مآثرَه. أنشدوا له واعزِفوا... إفتخروا باسمه القدّوس. ولتفرح قلوبُ مُلتمسي الرّبّ"[٣٩]...

A. Jamme, La religion sud-arabe pré-islamique, op. cit., p. 275.

وعن الـ"رَحمَن"، إله السبئيّين "الحنون"، راجع: الكاتب السابق ذكره في مقال بعنوان: Le Panthéon sud-arabe préislamique, d'après les sources épigraphiques, le Muséon, LV, 1947, p. 134;

T. Fahd, Le Panthéon de l'Arabie centrale à la veille de l'Hégire, pp. 140-141.

(٣٨) أنظر البيضاوي (ت ٦٩١هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** على ١/١.

(٣٩) مزمور ١٠٥/١-٣. أنظر أيضاً: ١٠٦/١؛ ١٠٧/١: "إحمَدوا الرّبَ لأنّه

٣. والتسبيح، مرادف لغةً للحمد. والخليقة كلّها تُسهم في حمد اللّه وتسبيحه: "له الحمد في السموات والأرض وعشيّاً وحين تُظهرون" (٣٠/١٧). "تسبّحُ له السموات السبع والأرض ومَن فيهنّ. وإنْ مِن شيء إلاّ يُسبّح بحمده. ولكن لا تَفقهون تسبيحَهم"[٤٠]. وتنتهي س. الجاثية ٤٥/٣٦-٣٧ هكذا: "فللّه الحمد. ربّ السموات والأرض، ربّ العالمين". وهي صدى لمزمور ١٩/٢: "ألسموات تحدّثُ بمجد اللّه والجَلَد يُخبرُ بما صنعت يداه".

٤. ويقوم الحمد أخيراً على الاعتراف بعظائم اللّه، وهو تسبيح دائم: "فسبحان اللّه حين تُمسون وحين تُصبحون" (٣٠/١٧). وفي المزمور ١٤٥/٢-٣: "في كلّ يومٍ أباركك، وأبد الدهور أسبّح اسمك"[٤١]. وهو شكرٌ لا ينقطع: في القرآن: "فاذكروني أذكركم. واشكروا لي ولا تكفرون" (٢/١٥٢)، و"اشكروا اللّه" (٢/١٧٢)، "واشكروا نعمةَ اللّه" (١٦/١١٤)[٤٢].

٥. فحمد اللّه، وتسبيحه، وشكره، والثناء على صنيعه مع العباد، هو موقف إنسان يعرف جميل اللّه. إنّه موقف كلّ إنسان، وإلى أيّ دين انتمى. ذاك أمرٌ يقرّه اللاّهوتي ويعترف به. إنّه موقف إنسان البيبليا وموقف إنسان القرآن سواء.

صالح"؛ ١١١/١: "أحمد الربّ بكل قلبي"؛ سفر الأخبار الأوّل ١٦/٣٤: "إحمدوا الربّ لأنّه صالح، لأنّ إلى الأبد رحمتَه".

(٤٠) ١٧/٤٤؛ رَ: ١٦/٤٩؛ ٥٩/١؛ ٦١/١؛ ٦٢/١؛ ٢٦٧/٢؛ ١٣١/٤؛ ١٤/٨؛ ٦٤/١.

(٤١) أنظر أيضاً: مزمور ١٤٦/١؛ ١٤٧/٢؛ أعمال الرسل ٤/٨...

(٤٢) يرد تعبير "شكر اللّه" ومشتقّاته في القرآن حوالي ٧٥ مرّة.

سادساً - "ربّ العالمين"

١. يرد تعبير "ربّ العالمين" في القرآن حوالي ٤٠ مرّة. يفتتحُ القرآن، في سورة الفاتحة، بإعلان اللّه "ربّ العالمين"، وينتهي، في سورة النّاس، بإعلانه اللّهَ "ربّ النّاس" (١١٤/١). والرّبّ، على ما يقول الخازن في تفسيره، "بمعنى المالك، كما يقال: ربّ الدار، وربّ الشيء... ويكون بمعنى التربية والإصلاح، يقال: ربَّ فلانٌ الضيعةَ، يُربّها، إذا أصلحها. فاللّه تعالى مالك العالمين ومربّيهم ومصلحهم. ولا يُقال الرّبّ للمخلوق معرّفاً، بل يُقال: ربّ الشيء مضافاً"[٤٣].

٢. والتعبير إيّاه في البيبليا: "إِلْ عُولَمْ"، أي "ربّ العالم"، "ربّ الدّهور"[٤٤]، و"ملك الدهور"[٤٥]. وكلمة "عُولَمْ"، تعني، في الأراميّة والعبريّة، "المكان والزمان" معاً. لهذا كان اللّه، في القرآن واللّغات السّاميّة، ربّ ثنائيّات متعدّدة. فهو مثلاً: "ربّ المشرق والمغرب"[٤٦]، "رب المشارق والمغارب" (٧٠/٤٠)، و"رب السموات والأرض"، و"ربّ اللّيل والنّهار"... إنها تعابير بيبليّة، تزخر بها الطقوس اليهوديّة-النّصرانيّة.

٣. وكلمة "ربّ" نفسها هي من الأراميّة "رَابُو"، أي "السيّد"، والعظيم. وقد ترجمها اليونانيّون بـ"كيريوس"، الذي أصبحَ إسماً للمسيح بعد قيامته، على ما جاء عند القديس بولس:

---

(٤٣) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تفسير الفاتحة، ١/٢٦.

(٤٤) أنظر: سفر طوبيا ١٣/١٣

(٤٥) أنظر: سفر طوبيا ١٣/٦ و١٠ ...

(٤٦) ٢٦/٢٨؛ ٧٣/٩. أنظر أيضاً: "وللّه المشرق والمغرب" (٢/١١٥ و١٤٢).

" ورفعه اللّه جدًا، ووهبَه الاسمَ الذي يعلو كلَّ اسم.. ويعترف كلّ لسانٍ أنّ يسوع المسيحَ هو الرّبُّ "[٤٧]. ولقد أكثر القرآن من استعمال كلمة "ربّ" بما يزيد على ٨٩٢ مرّة، للدلالة على سيادة اللّه على الكون وعظمته اللاّمحدودة.

٤. إنّ تعبير "ربّ العالمين" تعبير مألوف في البيبليا والقرآن، دلالة على أنّ الإثنَين ينتميان إلى تراث واحد مشترك. واللاّهوتي العارف بهذا التراث يقرّ ويعترف باستمراريّة هذا التراث في التقاليد اليهوديّة-النّصرانيّة وطقوسها، كما في القرآن وصلوات المسلمين.

سابعاً - "مالك"

١. بعضُ القرّاء يقرأ: "مالِك"، وبعضهم: "مَلِك" على السواء. لأنّ الجذر "م ل ك"، في العربيّة، كما في اللّغات الساميّة، يعني السيادةَ والامتلاك معاً. فاللّه هو "الملِك" و"المالك" على السواء. كلا الكلمتين يرد في القرآن: اللّه هو "مالك يوم الدين" (١/ ٤)، و"مالك الملك. يؤتي الملكَ مَن يشاء" (٣/ ٢٦)، وهو "الملِك الحقّ"[٤٨]، و"الملِك القدّوس"[٤٩]، و"ملك النّاس" (١١٤/ ٢). "له ملك السموات والأرض وما بينهما"[٥٠]، وليس له في ملكه شريك[٥١]، وبيده الملك (٦٧/ ١).

---

(٤٧) رسالة إلى أهل فيلبي ٢/ ٩-١١. والربّ هنا هو ترجمة يونانيّة في السبعينيّة لاسم اللّه "يهوه" في العبريّة (خر ٣/ ١٥)، وقد صار في العهد الجديد الدليل على ألوهة يسوع (رسل ٢/ ٢١ و٣٦؛ ٣/ ١٦). وقد تجلّت قدرة اللّه في الرّبّ يسوع، بإقامته من الموت، ربّاً وسيّداً على الجميع.

(٤٨) أنظر: ٢٠/ ١١٤؛ ٢٣/ ١١٦.

(٤٩) أنظر: ٥٩/ ٢٣؛ ٦٢/ ١).

(٥٠) أنظر: ٢/ ١٠٧؛ ٣/ ١٨٩؛ ٥/ ١٧ و١٨ و٤٠ و١٢٠؛ ٧/ ١٥٨؛ ٩/ ١١٦؛

٢. ملكيّة اللّه هذه تملأ صـفحات البيبليـا. فاللّه هو الملِك. يملك السموات والأرض. إنّه ملك أبدَ الدهور[٥٢]. وملك المجد (مز ٢٤/٧)، "ملك عظيم على جمـيع الأرض. يُخضعُ الشعـوبَ تحتنا والأمم تحت أقدامنا" (مز ٤٧/٣-٤). "إنّ الرّبَ إله عظيم. وعلى جميع الآلهة ملِك عظيم" (مز ٩٥/٣). و"صـهيون.. مدينة الملِك العظيم" (مز ٤٨/٣).

٣. فـملكيّـة اللّه، إذاً، في القـرآن، هي استـمـراريّة لملكيّـة إله البيبليـا. وليس واحدٌ من البيبليـا أو القرآن قصّر في اعتـبار اللّه ملكاً على جميع الأمم والشعوب. واللاّهوتي العارف بالأمور يقرّ بأنّ ملكيّة اللّه هي من التـراث المـشتـرك بـين البـيـبليـا والقـرآن، ويرضى عن توجّههما وصحّة قولهما في ما يقولانه عن ملكيّة اللّه.

ثامناً - "يوم الدّين"

١. "... وما أدراك ما يوم الدين؟ ثمّ ما أدراك ما يوم الدّين؟ ثمّ مـا أدراك مـا يوم الدّين" (٨٢/١٥-١٨). "يسـألونـك إيّان يوم الدّين؟" (٥١/١٢). والكـفّـار، عـادةً، "يكذّبون بيـوم الدّين"[٥٣]. ويقولون: "يا ويلَنا هذا يوم الدين" (٣٧/٢٠).. إلخ.

٢. يرد تعـبيـر "يوم الدين" ١٤ مرّة في القـرآن. ويرد تحت أسـمـاء عدّة. فـتـارة هو "اليـوم الآخِـر" (٢٨ مـرّة)، وطوراً "يوم

٢٤/٤٢؛ ٢٥/٢؛ ٣٩/٤٤؛ ٤٢/٤٩؛ ٤٣/٨٥؛ ٤٥/٢٧؛ ٤٨/١٤؛ ٥٧/٢ و٥؛ ٨٥/٩...

(٥١) أنظر: ١٧/١١١؛ ٢٥/٢...

(٥٢) مزمور ١٠/١٦؛ وللأبد ٢٩/١٠.

(٥٣) ٨٢/٩؛ ٧٤/٤٦.

القيامة" (٧٠ مـرّة)، وأخرى "يوم الفصل"[٥٤]، و"يوم الجمع"[٥٥]، وتعابير أخرى[٥٦]... وكلّها مألوفة في البيـبليا. وهو، فيها، في المعنى نفسه. فيه، يُحشر النّاس، يُبعثون للدينونة والحساب الأخير، حيث لا محاباة ولا شفاعة تُرجى.

٣. يوم الدين هذا سيـأتي بغتة[٥٧]، و"كلمح البصر"[٥٨]. وهو كذلك في الإنجيل: يأتـي "في ساعة لا تتوقّعـونها" (متى ٢٤/٤٤)، "في ساعـة لا يعلمها أحد" (٢٤/٥٠)، و"كـاللّص ليلاً" (٢٤/٣٤). واللّه وحـده، في القرآن، "عنـده علم الساعـة" الأخيـرة (٤٣/٨٥)، وهو كذلك في الإنجيل (متّى ٢٤/٣٦).

في مـثل هذا الـيـوم، عـلى مـا جـاء في الـقـرآن، "تـنشقّ السماء"[٥٩]، و"يخسف القمر" (٧٥/٨)، و"تنتثر الكواكب" (٨٢/

---

(٥٤) أنظر: ٣٧/٢١؛ ٤٤/٤٠؛ ٧٧/١٣ و١٤ و٣٨؛ ٧٨/١٧.

(٥٥) أنظر: ٦٤/٩؛ ٤٢/٧.

(٥٦) وأيضـاً: يـوم التـغـابن (٦٤/٩)، و"يوم الخـلود" (٥٠/٣٤)، و"يوم الوعـيـد" (٥٠/٢٠)، و"يوم التنادي" (٤٠/٣٢)، و"يوم التـلاقي" (٤٠/١٥)، و"يوم البـعـث" (٣٠/٥٦)، و"يوم الحـسـاب" (١٤/٤١؛ ٣٨/١٦و٢٦و٥٣؛ ٤٠/٢٧)، و"يوم الآزفة" (٤٠/١٨)، و"الـيوم الحقّ" (٧٨/٣٩)، و"اليـوم الموعود" (٨٥/٢)، و"يـوم الخروج" (٥٠/٤٢)، و"اليـوم المعلوم" (١٥/٣٨؛ ٢٦/٣٨و١٥٥؛ ٥٦/٥٠)، واليوم المشهود (١١/١٠٣)، ويوم الحسرة (١٩/٣٩)، و"الآخـرة" (١١٥ مرّة). وصفتـه: يوم عصيب (١١/٧٧) ويوم محيط (١١/٨٤) ويوم عقيم (٢٢/٥٥) ويوم كبير (١١/٣) ويوم أليم (١١/٢٦؛ ٤٣/٦٥)، ويوم عسير (٧٤/٩؛ ٥٤/٨).

(٥٧) ٦/٣١؛ ٧/١٨٧.

(٥٨) ٤٣/٦٦؛ ٤٧/١٨.

(٥٩) ٨٤/١؛ ٢٥/٢٥.

٢)، و "تتكوّر الشمس" (٨١/١)، و "تُفجّـر البحار"[٦٠]... وهو حاله في الإنجيل، حـيث "تظلم الشمس، ويفـقد القمـر ضوءه، وتتـساقط النجوم من السماء، وتتزعزع الكواكب" (متى ٢٤/٢٩)...

في ذلك اليـوم أيـضـاً، "ترتجف الأرض" (سـورة٧٣/ ١٤)، و "تزلزل زلزالهـا" (٩٩/١)، و "تمتدّ جبـالُها سـهولاً" (٨٤/٣)... وفي البيبليا كذلك، "تحدث زلازل هنا وهناك" (متى ٢٤/٧)، وتذوب الصـخور، وتصير رماداً"[٦١].

٤. ألكلام على "يوم الدّين" هو نفسه في المصـادر النّصرانيّة وفي القرآن. والفرق هو أنّ ما في النّصرانـيّة هو أسلوب أبوكاليبتيّ، رؤيوي، فيما أسلوب الـقرآن، بالنسبة إلى المسلمين، يعبّر عن حـقيقة. إلاّ أنّ العـالِم بالأمور الإلـهيّـة يرى الرّمـزيّة في الأثنين، وهو بذلك لا يتخطّى حدودَ العالَم المنظور في حكمه. وهو، بالتّالي، يرضى عن هذا النوع من الأسلوب، شرط أن تُعطى الرّمزيّة حقّها.

تاسعاً - "إيّاكَ نعبد"

١. معنى ذلـك، بحسب تفسـير الجـلالَين: "نخصّك بالعـبادة وحدَك دون الآلهة والبشر والملائكة وغـيرهم". في هذا، رفضٌ لعبادة الأوثان والأصنام والكواكب ولكلّ ما هو غـير اللّه: "قل: إنّي نُهيتُ أن أعبدَ الذين تدعون من دون اللّه"[٦٢]. "قل: إنّما أُمرتُ أن أعبد اللّه ولا

---

(٦٠) ٨١/٦؛ ٥٢/٦؛ ٨٢/٣.

(٦١) رؤيا يوحنا المنحـول، ٨١.. راجع في كلّ ذلك كتاب "قسّ ونـبيّ" والمقارنة بين القرآن والمصـادرالنّصرانيّة فـي موضـوع "الجنّة والنّار والمعـاد واليوم الأخير"، ص ١٥٨-١٦٣.

(٦٢) ٦/٥٦؛ ٤٠/٦٦.

أشـرك به" (١٣/٣٦). "ألله أمـــر ألاّ تعـبـدوا إلاّ إيّاه" (٢٢/٤٠). و"قضى ربّك ألاّ تعـبدوا إلاّ إيّاه" (١٧/٢٣). "ما تعـبدون من دونه إلاّ أسمــاء سمّيتـموها أنتم وآباؤكم" (١٢/٤٠). "إنّما تعـبدون من دون اللّه أوثاناً" (٢٩/١٧). "قال: أتعبدون ما تنحتون" (٣٧/٩٥). "تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ اللّه" (٣/٦٤).. إلخ.

٢. هكذا هي العبادة أيضــاً في البيبليا: إنّهـا عبادة للّه من دون سواه. جـاء في التفـاسير: "يُحظِّرُ العـهدُ القـديم بشدّة أيّ وضـع من أوضاع العـبادة لأيّ كـائن يمكن اعتـباره منافـساً للّه، كـالأصنام أو الكواكب[٦٣]، أو أيضاً كالآلهة الغريبة[٦٤].

٣. ثمّ إنّ تعبيـر "إيّاك نعبد" ليس إلاّ صدى لما جـاء في تثنية الاشتراع: "ألرّبّ إلهك تتّقي. وإيّاه تعـبد. وباسمه تحلف" (٦/١٣)، ولما جاء في المزامـير: "ولا تعبدون آلهـة غريبة" (٨١/١٠)[٦٥]، ولما قال يسوع للمجرِّب: "للّه ربّك تسجد. وإيّاه وحدَه تعبد" (متّى ٤/١٠)

٤. لا يشكّ أحدٌ بأنّ العبادة، في البيبليا كما في القرآن، هي للّه، وللّه وحـده. لا آلهـة أخرى، ولا بـشر، ولا مـلائكة، ولا كـواكب، ولا منحـوتات...، يمكن أن تكون موضـوع عـبادة الإنســان، مهـما عــلا شــأنها. والعــالِم بالأمـور اللاّهوتيّة يشـدّد أكـثر من سـواه على أنّ

---

(٦٣) "فتنبّهوا جدّاً... لئلاّ تفسدوا وتصنعوا لكم تمثالاً منحوتاً... أو ترفع عينَيك إلى السـماء فـترى الشـمس والقمـر والكواكب... فـتُجـتَذَب وتسـجد لهـا وتعبدها" (تثنية الاشتراع ٤/٥).

(٦٤) "فإنّك لا تسجـد لإله آخر... إلهاً مسبوكـاً لا تصنع لنفسك" (خروج ٣٤/١٤؛ أنظر: عدد ٢٥/٢).

(٦٥) أنظر أيضاً: أشعيا ٤٤/١٥؛ دانيال ١٤/٥ و٢٥).

العبادة هي للّه وحده. وإذا ما كـان للأنبياء أو للأولياء والقدّيسين من تكريم فلا يتعدّى ذلك كونهم جميعاً يستحقّون هذا التكريم بسبب قربهم من اللّه وعبادتهم له، وقبول شفاعتهم لديه.

عاشراً - "وإيّاكَ نستعين"

١. وردت في القرآن: "نستعين" مرّة واحدة. و٣ مرّات "استعينوا باللّه واصبروا"، و"استعينوا بالصبر والصلاة"[٦٦]. ومرّتين "أللّه المستعان"، و"ربّنا الرحمن المستعان"[٦٧]... والمعنى أنّنا، بحسب الخازن "منك نطلب المعونة على عبادتك وعلى أمورنا".

٢. هذه المعاني تتكرّر في البيبليا. وتركّز على أنّ كلّ "عَون" للإنسان هو من اللّه. ولا يجب على الإنسان أن يطلبَ العونَ إلاّ من اللّه: "إلهي أبي كان عوني وخلّصني"[٦٨]. وفي سفر المزامير: "إنّ عَوننا باسم الرّبّ" (١٢٤/٨)[٦٩]. وكذلك نصرنا ونجاحنا: "ألّلهمّ! أسرع إلى إنقاذي. يا ربّ إلى نصرتي" (مز ٧٠/٢)، و"أسرع إلى نصرتي أيّها السيّد خلاصي" (مز ٣٨/٢٣). وفي الرّسالة إلى العبرانيّين: "نقول واثقين: ألرّبّ عَونٌ لي. لن أخاف" (١٣/٦)[٧٠].

٣. عَون اللّه، إذاً، أكان في القرآن أم في البيبليا، هو للإنسان حاجة ضروريّة، لا بدّ منها ليحقّق حياتَه، وخلاصَه، وسعادتَه،

---

(٦٦) ٧/١٢٨؛ ٢/٤٥ و١٥٣.
(٦٧) ١٢/١٨؛ ٢١/ ١١٢.
(٦٨) خر ١٨/ ٤. وهو معنى "إليعازار"، من: "إلي= إلهي. وعازار= عَوني".
(٦٩) أنظر: مزمور ١٠٨/١٣؛ ٧٠/٢؛ ٣٨/٢٣...
(٧٠) أنظر: مزمور ٢٧/١-٣؛ ٢٨/٦...

ونصرَتَه على مصاعب الحياة ومتاعبها. واللاّهوتي يعترف بهذه الحقيقة الإنسانيّة، ويرضى كلّ الرّضى على ما جاءت به البيبليا والقرآن معاً. فهما، بسبب تقاربهما، يشتركان في تراث دينيّ واحد.

حادي عشر - "إهدنا الصراط المستقيم"

١. ألهداية، أكانت إلى الصراط المستقيم[٧١]، أم إلى الإيمان[٧٢]، أم إلى البصر (١٠/٤٣)، أم إلى غير ذلك.. هي دائماً من اللّه: ألله هو الذي يهدي، بل "إنّ هُدى اللّه هو الهدى" (٢/ ١٢٠). و"كفى ربّك هادياً ونصيراً" (٢٥/ ٣١). و"من يتّبع هداه لا خوف عليه" (٢/ ٣٨). وهداية اللّه الكبرى في كتبه الموحاة: فالقرآن هو هدى ونور[٧٣]، وكذلك التوراة[٧٤]، والإنجيل (٥/ ٤٣ و٤٦)، وكذلك شهر رمضان فيه هدى للنّاس (٢/ ١٨٥)، وبيت الكعبة (٣/ ٩٦)... إلاّ أنّ اللّه لا يهدي القومَ الظالمين، ولا الفاسقين، ولا الكافرين، أو الخائنين[٧٥].

٢. يرد لفظ "الصِّراط" في القرآن ٤٥ مرّة، ودائماً منعوتاً بـ"المستقيم"، وقليلاً بـ"السويّ"، وهو يعني: الطريق القويم الذي يلتمسه الإنسانُ من اللّه. وهو إيّاه في البيبليا، ومن مآثرها: "تضرّعْ

(٧١) أنظر القرآن: ١/ ٦؛ ٢/ ١٤٢ و٢١٣؛ ٣/ ١٠١؛ ٥/ ١٦؛ ٦/ ٨٧ و١٦١؛ ١٠/ ٢٥؛ ١٦/ ١٢١؛ ٢٠/ ١٣٥؛ ٢٢/ ٢٤؛ ٢٤/ ٤٦؛ ٣٤/ ٦؛ ٣٧/ ٢٣ و١١٨؛ ٣٨/ ٢٢؛ ٤٢/ ٥٢؛ ٦٧/ ٢٢؛ ٤/ ٦٨ و١٧٥؛ ١٩/ ٤٣؛ ٤٨/ ٢ و٢٠...

(٧٢) أنظر القرآن: ٤٩/ ١٧؛ ٣/ ٨٦؛ ١٠/ ٩...

(٧٣) أنظر: ٢/ ٢؛ ٢٧/ ٢ و٧٧.

(٧٤) أنظر القرآن: ٦/ ٩١؛ ٣/ ٤؛ ٥/ ٤٤؛ ١٧/ ٢؛ ٤٠/ ٥٣.

(٧٥) أنظر القرآن: ٥/ ١٠٨؛ ٩/ ٢٤؛ ٦١/ ٥؛ ٦٣/ ٦...

إلى العليّ ليهديك بالحقّ إلى الطريق المستقيم"[٧٦]. فاللّه هو الذي يثبّت خطوات الإنسان في الطريق المستقيم هذا: "ألرّبّ يثبّت خطوات الإنسان وعن طريقه يرضى"[٧٧].

٣. إنّ الهداية إلى الصراط المستقيم، في القرآن أم في البيبليا، هي مبادرة من اللّه، يلتمسها الإنسان في صلاته باستمرار. يطلبها بخشوع. ينتظرها بثقة. يرجوها بإيمان. يحصل عليها بالتأكيد، لأنّ من اللّه "الهدى" كلّه. هذا الطلب من اللّه هو من أسس التعاليم الدينيّة المشتركة بين القرآن والمصادر البيبليّة. بل هو من التراث الواحد الذي يقرّ به اللاّهوتيّ العارف بهداية اللّه وطرقه المستقيمة.

ثاني عشر - "صراط الذين أنعمت عليهم"

١. ترد "**النعمة**" ومشتقّاتها ٦٧ مرّة في القرآن. وهي، فيه، هبة من اللّه: "وما بكم من نعمة فمن اللّه" (١٦/٥٣). ونعم اللّه لا تُحصى: "وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ اللّه لا تُحصوها"[٧٨]. وهي، على البشر، في كلّ مجالات حياتهم: إنّها تطهّرهم (٥ /٦)؛ وتغفر ذنوبهم (٤٨/ ٢)؛ وتكمّل دينهم (٥/٣)؛ وتهديهم إلى الصراط المستقيم (٤٨/٢). واللّه لا يغيّر نعمةً أنعم بها على النّاس إلاّ بعد أن يغيّروا هم ما

---

(٧٦) إبن سيراخ ٣٧/١٥.

(٧٧) مزمور ٣٧/٢٣. أنظر: أمثال ٢٠/٢٤: "من الرّب خطوات الرّجل"؛ "يثبّت خطواته" (١٦/٩). وفي المزامير: "يا ربّ طرقك عرّفني وسبلك علّمني. إلى حقّك اهدني وعلّمني" (٢٥/٤-٥). وأيضاً: "الرّبُّ صالح ومستقيم. لذلك يرشد الخاطئين في الطريق. ويهدي الوضعاء إلى الحقّ. ويعلّم البائسين طرقه" (٢٥/٨)

(٧٨) ١٤/٣٤؛ أنظر أيضاً: ١٦/١٨.

بأنفسهم (٨/٥٣). ثمّ إنّ نعمة اللّه هي موضوع شكر دائم[٧٩]. تُذكرباستمرار، ويُتَحدّث عنها على الدوام[٨٠].

٢. هذا المفهوم القرآني للنعمة هو نفسه في البيبليا: فالنعمة، في العهد القديم، هبة من اللّه مجّانيّة، يُفيضها اللّه على كلّ إنسان بسخاء (سي ١/١٠)؛ ولا يستحقّها إنسانٌ من ذات نفسه وبسبب أعماله البارّة. فهي ليست نتيجة استقامة سلوكه (تث ١٩/٤)، ولا نتيجة "قدرة يده" (تث ٨/١٧)، ولا مكافأة لكثرة عدده (تث ٧/٧). ولكن محبة الرّب فقط هي التي عملت في جلب النعم[٨١]... ورمز هذه النّعمة "أرض ذات أنهار ماء وعيون" (تث ٨/٧)، وكذلك في القرآن "جنّات تجري من تحتها الأنهار"[٨٢]...

٣. أمّا في العهد الجديد وفي تعاليم المسيحيّة، فالمسيح نفسُه هو النّعمة، هو الـ "ملآن نعمةً وحقّاً" (يو ١/١٤). وليس نعمة إلاّ منه وبواسطته، لأنّنا "من ملئه نِلنا أجمعين، نعمةً تلو نعمة... وعلى يد يسوع المسيح صارت النّعمة والحق" (يو ١/١٦-١٧). "وبنعمة الرّب يسوع نِلنا الخلاص" (رسل ١٥/١١). و"ازدادت نعمة اللّه والعطيّة على الكثيرين بنعمة الإنسان الواحد يسوع المسيح" (رو ٥/١٥). والنعمة، في النتيجة هي "نعمة ربّنا يسوع المسيح"[٨٣].

---

(٧٩) أنظر: ١٦/١١٤؛ ٥/٦.

(٨٠) ٢/٤٠ و٤٧ و٢٣١؛ ٩٣/١١.

(٨١) أنظر: تثنية ٧/٨؛ ٤/٣٧.

(٨٢) يرد هذا التعبير ٦٩ مرّة في القرآن. أنظر حاشية (١٥) من المقدّمة.

(٨٣) أنظر: روما ١٦/٢٠ و٢٤؛ ١ قور ١٦/٢٣؛ ٢ قور ١٣/١٣؛ غل ١/٦؛ ٦/١٨؛ أف ٦/٢٤؛ فل ٤/٢٣؛ قول ٤/٨؛ ١ تسا ٥/٢٨؛ ٢ تسا ٣/١٨؛ ١

٤. ثمّ إنّ الذين أنعم اللّهُ عليهم بالإيمان والهداية والخلاص، في رأي مفسّري القرآن، هم الذين استجابوا لرسالة محمّد ولدعوة القرآن. فيما المعنى الحقيقي يشير إلى الذين اهتدوا بهدي أهل الكتاب وأصحاب الصراط المستقيم الذين سبقوا المسلمين. وعلى المسلمين أن يطلبوا النعمةَ نفسَها التي حلّت على مَن سبقهم وكانوا لهم هدايةً. وهو المعنى الصحيح الذي يقول به العالم بشؤون اللّه ويقرّه.

ثالث عشر – "لا المغضوب عليهم"

١. ترد لفظة "غضب" كإسم وفعل ١٧ مرّة؛ وكلمة "المغضوب عليهم" مرّة واحدة. أللّه، في القرآن، يغضب، ويلعن، ويُهلك في جهنم، ويعدّ للمغضوب عليهم عذاباً عظيماً[٨٤]. والكافرون يحلّ عليهم غضب اللّه باستمرار[٨٥]. هذا الغضب الإلهي يعني عدل اللّه. لهذا، فهو يطال الجميع.

٢. هذا المعنى هو نفسه في البيبليا. يعبّر عن ردّة فعل اللّه أمام تمرّد الإنسان وعصيانه. أللّه وحدَه يغضب. لأنّه وحدَه يعرف لماذا يغضب، ويعرف ما الذي يُغضبه، وما الغاية من غضبه. أمّا الإنسان فعليه أن يسمع لحكمة بولس: "لا تنتقموا. دعوا الأمرَ لغضب اللّه" (رو ١٢/١٩). فالغضب ليس من شأن الإنسان بل من شأن اللّه: "لي الانتقام. وأنا الذي يعاقب" (ألمرجع نفسه). إنّ غضب اللّه يحلّ

طيم ١/٤؛ ٦/٢١؛ ٢ طيم ٢/١؛ ٤/٢٢؛ طي ٣/٧ و١٥؛ ف ٢٥؛عب ١٣/ ٢٥؛رؤ ٢٢/٢١؛

(٨٤) أنظر: ٤/٩٣؛ ٥/٦٠؛ ٦/٤٨؛ ٥٨/١٤؛ ٦٠/١٣.

(٨٥) أنظر: ٢/٦١ و٩٠؛ ٣/١١٢؛ ٧/٧١ و١٥٢؛ ٨/١٦؛ ١٦/١٠٦؛ ٢٠/٨٦ ؛٢٤/٩؛ ٤٢/١٦؛ ٢٠/٨١.

على كلّ الأثمة المتحجّري القلوب، لأنّ يهوه هو إله كلّ الأرض (إر ١٠/١٠). والغضب الحقيقي هو "غضب اللّه". تعبير مألوف في البيبليا، في العهد القديم[٨٦] وفي العهد الجديد[٨٧].

٣. أللّه، في البيبليا وفي القرآن، يغضب. ينتقم. يثأر لرحمته ومحبته وقداسته ولخير شعبه... إلاّ أنّ المفسّرين المسلمين اعتبروا "المغضوب عليهم" هم اليهود. وهذا غير صحيح. إذ لم يكن يهودٌ في مكّة ليكونوا أعداء للنّبي وللمسلمين. فهو تفسير لاحق لمواقف عدائيّة لاحقة حدثت بين النّبي واليهود بعد هجرته إلى المدينة. والصحيح هو كلام عامّ يشمل الذين لم يهتدوا إلى "الصراط المستقيم".

٤. فالقرآن، إذاً، لا يزال، في كلامه على غضب اللّه، في خطّ البيبليا. يؤكّد ذلك أنّ الـ"غضب" الوارد في القرآن إنّما هو "غضب اللّه" لا غضب الإنسان. وهذا ما يجعل القرآن، مرّة أخرى، قريباً جدّاً من مفهوم البيبليا، وتفاسير المفسّرين في ضلال مبين. واللاّهوتي يقرّ بهذا التعبير البيبلي والقرآني على أنّه من تراث واحد مشترك.

رابع عشر – "ولا الضّالّين"

١. ترد لفظة "ضلالة" ومشتقّاتها ٢١٠ مرّات في القرآن. وعادة ما تتلازم مع "الهدى". فاللّه هو الذي يهدي، كما رأينا، واللّه

---

(٨٦) أنظر: خروج ٤/١٤؛ ٢٢/٣٢؛ ٢٣/١٠ و١١ و١٢؛ عدد ١١/١٠ و٣٣؛ ١٢/٩؛ ٢٢/٢٢؛ ٥٢/٣ و٤؛ ٣٢/١٠ و١٣ و١٤؛ تثنية الاشتراع ٦/١٥؛ ٧/٤؛ ٩/٨ و٢٠؛ ١١/١٧؛ ١٣/١٨؛ ٢٩/١٩ و٢٦...إلخ.

(٨٧) أنظر: رؤيا ١٤/١٩؛ ١٥/١ و٧؛ ١٦/١؛ ١٩/١٥؛ يو ٣/٣٦؛ روما ١/١٨؛ ٣/٥؛ ٩/٢٢؛ أفسس ٥/٦؛ قول ٣/٦؛ ١ تسا ٥/٩... إلخ.

هو الذي يُضلّ: "فيضلّ اللّهُ مَن يشاء. ويَهدي مَن يشاء"[٨٨]. و"من يضلل اللّه فلن تجد له سبيلاً"[٨٩]. و"من يضلل اللّه فلا هادي له"[٩٠]. و"مَن يشاء اللّه يضلله. ومَن يشاء يجعله على صراط مستقيم" (٦/٣٩).

٢. إلاّ أنّ هناك آياتٍ تجعل الضلالة مسؤوليّة الإنسان. وهي أيضاً كثيرة. وقد اتّخذَها القائلون بنظريّة "الجبر" حجّةً لهم ليقولوا بأنّ اللّه هو الذي يهدي، وهو الذي يُضلّ. والإنسان مُجبَرٌ على أعماله، لا حرّ؛ مسَيَّرٌ لا مُخَيَّر.

٣. وفي البيبليا أيضاً نجد هذه المفاهيم المختلفة، بل المتناقضة. إنّما ذهب المفسّرون، البيبليون والمسلمون، في تفسير هذا التناقض مذاهبَ شتّى، أدّت إلى اختلاف عميق عند الجميع. غير أنّ الباحث، في عمق "الضلالة" البيبليّة والقرآنيّة، يجد أنّ "الضلالةَ ليستْ معادلةً للجهل، ولا مرتهنة بانحرافات العقل. بل الضلالة البيبليّة والقرآنيّة معاً هي، قبل كلّ شيء، خيانةُ الإنسان للّه ورفضه الخلاص. فالضلالة معصيةٌ مسلكيّة عند الإنسان لا أمر شرّير يشاؤه اللّه. أن يَضلّ الإنسان يعني أنّه "يحيد بعيداً عن الطريق الذي رسمه اللّه"[٩١]؛ ويبتعد عن "الصراط المستقيم"؛ وينقاد إلى عبادة الأوثان. ويأخذ بالشرك باللّه[٩٢].

---

(٨٨) أنظر: ١٤/٤؛ ١٦/٩٣؛ ٣٥/٨؛ ٧٤/٣١.

(٨٩) أنظر: ٤/٨٨ و١٤٣؛ ٤٢/٤٦.

(٩٠) أنظر: ٧/٨٦؛ ١٣/٣٣؛ ١٨/١٧؛ ٣٩/٢٣ و٣٦؛ ٤٠/٣٣؛ ٤٢/٤٤ و٤٦.

(٩١) إنظر: تثنية الاشتراع ١٣/٦ و١١.

(٩٢) أنظر: أش ٤٤/٢٠؛ عا ٢/٤؛ حك ١٢/٢٤. و أش ٦٣/١٧؛ أم١٢/٢٦.

٤. مرّة أخرى لا يُشير القرآن إلى ما اعتاد المفسّرون المسلمون اعتبارَه بأنّ "الضّالين" هم النّصارى. ولا يمكن أن يكون النّصارى هم على ضلال، لأنّ النّصارى هم "أهل الكتاب"، وأهل الكتاب هم أصحاب "مودّة" وهدى، لا أهل غضب وضلالة. والقرآن نفسُه يدعو محمّداً بقوله: "إنْ كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك فاسألِ الذين يقرأون الكتاب من قَبلِك" (١٠/ ٩٤)[٩٣].

خامس عشر - خاتمة الفاتحة

هذه القراءة اللاّهوتيّة البيبليّة لفاتحة القرآن تؤكّد لنا أموراً أربعة:

أوّلاً - كلمات الفاتحة وتعابيرها هي كلمات وتعابير بيبليّة في جوهرها، وأبعادها، ومعانيها، وعمقها. وليست كلمة واحدة تشذّ عن ذلك.

ثانياً - أللاّهوتي البيبلي لا يسعه، والحالة هذه، أن يرفض كلمةً واحدةً ممّا جاء في الفاتحة. إنّها كلمات وتعابير من تراثه ومصادره.

ثالثاً - أمّا تفسير المسلمين اللاّحق فهو تفسير من زمن العداء السياسي، وهو، بالتالي، لا يُلزم الموقف العلمي الصحيح لمعطيات التاريخ.

---

(٩٣) أنظر: ٣/ ٤ و٩٣و١٦٤؛ ٤/ ٤٧ و١٣٦ و١٦٤؛ ٥/ ٥٩؛ ٦/ ٢٨؛ ٢/ ٢٨؛ ٢٣/ ٨٣؛ ٤١/ ٤٣؛ ٤٣/ ٤٥...

رابعاً - بوسع المسيحيّين اليوم أن يأخذوا بما جاء في الفاتحة؛ ويعتبروه من تراثهم ومقتنياتهم الرّوحيّة. وإذا ما كانوا يرفضون فمردّ رفضهم، لا إلى ما يقرأون، بل إلى أولئك الذين قرأوا لهم، وفسّروا تفسيراً غير علميّ وغير صحيح، تفسيراً ناتجاً عن عداء سياسيّ لاحق.

***

أمّا المسلمون فيُجمعون على إنّ "الذين أنعمتَ عليهم" هم المسلمون، و"ألمغضوب عليهم" هم اليهود، و"الضالّين" هم النصارى...

غير أنّ **الطبري**، يعتبر الضالّين والمغضوب عليهم سواء بسواء؛ لكنّ اللّه وسم كلَّ فريقٍ بما يُعرَف به، ويتميّز عن الآخر. ويقول أيضاً: جائز «أن يكون "غير المغضوب عليهم" نعتاً لـ"الذّين أنعمتَ عليهم"؛ و"لا الضّالّين" عطفاً على "غير المغضوب عليهم"».

أمّا **الزمخشري** فيؤكّد بأنّ «المغضوب عليهم هم اليهود لقوله: "مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عليه" (٥/ ٦٠)؛ والضالّون هم النّصارى لقوله: "وَقَد ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ" (٥/ ٧٧).

ويقول **الرازي**: «الأولى أن يُحمَل "المغضوب عليهم" على كلّ مَن أخطأ في الأعمال الظاهرة، وهم الفسّاق؛ ويُحمَل "الضالّون" على كلّ مَن أخطأ في الاعتقاد؛ لأنّ اللّفظ عامّ، والتقييد خلاف الأصل. ويُحتمل أيضاً أن يكون "المغضوب

عليـهم" هم الكفّـار؛ و"الضـالّون" هم المنافـقـون... وذلك لأنّه تعـالى بدأ بذكر المؤمنين، وهو قـوله "أنعمتَ عليـهم"؛ ثمّ أتبـعه بذكر الكفّار، وهو قـوله "غير المغضوب عليهم"؛ ثمّ أتبـعه بذكر المنافقين، وهو قوله "ولا الضـالّين".

ويجد **الألوسي** أنّ اليهود والنصارى هم المقصودون على الخصوص. فـ «اليهـود أشدّ في الكفر والعناد وأعظم في الخبث والفسـاد و"أشـدَّ الناس عـداوةً للّـذين آمنوا" (٥/ ٨٢)، ولذا ضـربت عليـهم الذلّة والمسكنة... والنصـارى دون ذلك وأقـرب للإسلام منهم؛ ولذا وُصفوا بالضلال، لأنّ الضالّ قد يهتدي.

وممّا يدلّ على أنّ اليـهـود أسوأ حـالاً من النصـارى أنّهم كفروا بنبيَّين محمّد وعـيسى، والنصارى كفروا بنبيٍّ واحد وهو نبيّنا ﷺ، وفضائحهم وفظائعهم أكثر ممّا عند النصارى..

وقول النصـارى بالتثليث ليس أفظع من قول اليـهود "إنّ اللّه فقيرٌ ونحن أغنياء" (٣/ ١٨١)، وقوله "وقالت اليهودُ يدُ اللّهِ مغلولةٌ" (٥/ ٦٤)، وقولهم "عُزَير ابنُ اللّه" (٩/ ٣٠)».

***

غير إنّ سورة الفاتحـة، في حقيقتها، لا تـتعرّض لأحد، لا تمدح المسلمين، ولا تسبّ باليهود، ولا تكفّر النصارى، كما أنّها لا تتوجّه لأيٍّ مشركٍ أو كافر.

(٢)

للنصارى أجرٌ على إيمانهم وعملهم الصالح

إنّ الّذين آمنوا والذيـن هادُوا والنّصـارى والصّـابئينَ مَن آمنَ باللّهِ واليـومِ الآخِرِ وعَمِلَ صـالحاً فلهمْ أجْرُهمْ عـندَ ربِّهِمْ ولا خوفٌ عليهمْ ولا هم يَحْزَنونَ (سورة البقرة ٢/ ٦٢)[1] .

إنَّ الّذينَ آمَنُوا (بالأنبـياء من أهل الكتـاب)، **وَالّذينَ هَادُوا** (أي اليهود)، **وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ** (طائفة من اليهود-المتنصّرين)[2]، **مَن آمَنَ** (منهم) **بِاللّهِ وَاليَومِ الآخِرِ** (في زمن محمّد)، **وعَمِلَ صَالِحاً** (مع الفقراء والمساكين)، **فَلَهُمْ أجْرُهُمْ** (أي: ثواب عملهم الصالح هذا)، **عندَ ربِّهِمْ ولا خَوفٌ عَلَيهِمْ** (عند أهوال القيامة)، **وَلا هُم يَحْزَنون** (على ما خلّفوا وراءهم من الدُّنـيا وعيشـها عند معـاينتهم مـا أعدّ اللّه لهم من الثواب والنعيم عنده).

غيـر أنّ اللّه، على ما قـال ابن عبّاس، نسخ ذلـك بقوله: " وَمَن يَبْتَغِ غَيرَ الإسْلامِ دِيـناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ " (٣/ ٨٥)... لكنّ الطبري يقول:

---

(١) هذه الآية مـقحـمة إقـحامـاً بيّناً. لا عـلاقة لهـا لا بما قـبلها ولا بما بعـدها. فالحديث كلّـه يدور على اليهود وعجائب اللّـه معهم وكفرهم باللّـه وبأعماله، وتحريفهم التوراة، ليخفوا البشارات بمحمّد.

(٢) اليهود-المتنصّـرون، هم طائفة تُقيم أحكام التوراة والإنجـيل معاً. تؤمن بأنّ عيـسى جاء ليتمّم التـوراة. فبالتالي هـو نبيّ جاء يكمّل نبوّة موسى. سُـمّوا صابئين أو صـابئة، أو مندائيّـة، أو مغـتسلة، لأنّهم يمارسـون الوضوء، أي الاغتـسال، قبل أي عملٍ ديني؛ ويمارسـون أيضاً المعمـوديّة بالماء على طريقة يوحنّا المعمدان، ولذلك سمّوا أيضاً معمدانيّين.

إنّ اللّه لم يخصّص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان بعضَ خَلقِه دون بعض.

المقصود في هذه الآية أنّ أصحاب الأديان الأربعة: الذين آمنوا، أي المسلمين، واليهود، والنصارى، والصابئة، إنْ آمنوا باللّهِ واليوم الآخِرِ، وعملوا الصالحات، فإنّهم يدخلون الجنّة، ويستحقّون ثوابَ اللّه، ولا يخافون عذابات جهنّم، ولا يعرفون حزناً ولا غمّاً.

يتوقّف معظم المفسّرين على معنى كلمة "نصارى"، لورودها للمرّة الأولى في المصحف. ويختلفون في أصلها ومعناها: قيل: «ألنصارى جمْع. واحدُهم: نَصْرَان، كما واحد السّكارى سكران، وواحد النّشاوى نَشوان. وقيل: "نَصران"، بطرح الياء؛ إذ هي للمبالغة كالتي في "أحمري". والأنثى: "نصرانة". وقيل: سُمُّوا "نصارى" لنصرة بعضهم بعضاً. وقيل: إنّهم سُمُّوا "نصارى" من أجل أنّهم نزلوا أرضاً يُقال لها "ناصرة"، وهي قرية عيسى ابن مريم الذي كان يقال له "الناصري". وقيل: سُمّوا نصارى من قوله: "مَن أنْصَاري إلى اللّه" (٦١/ ١٤).

وسمّى **الرازي** بعضَ كبار النصارى الذين عاصروا النبيّ، فقال: «والنصارى مثل قسّ بن ساعدة، وبَحِيرَى الرّاهب، وحبيب النّجّار، وزيد بن عُمرو بن نَفَيل، ووَرَقة بن نوفل، وسَلمان الفارسي، وأبي ذرّ الغفاري، ووفد النجَاشي».

ويعلّق **محمدّ عبده** على الآية بقوله: إنّ لجميع المؤمنين أجراً واحداً عند ربهم. «واللّه في حكمه عادل بين الجميع. فهو يعاملهم بسنّةٍ واحدة، لا يحابي فيها فريقاً ويظلم فريقاً»؛ أي إنّ المسلمين

واليـهـود والنصـارى والصـابئين، جـمـيـعـهم، إنْ كـانوا مـؤمنين ومحسنين، ينالون من اللّه أجرَهم في جنّات النعيم.

أمّا **سيِّد قطب** فيقول: إنّ «العبرة بحقيقـة العقيدة، لا بعصبيّة جنس أو قوم.. وذلك طبعـاً قبل البعثـة المحمّديّة، أمّا بعدها فـقد تحدّد شكلُ الإيمان الأخيـر». وهو قـولٌ ينسـجم مع نظريّةِ "أنّ الإسـلامَ ينسخُ ما قـبله"، وأنّ الإسلام وحـده، "الدّين القيّم"[٣]، و"الصراط المستقيم"[٤].

(٣)

عيسى كموسى آتاه اللّه البيّنات وأيّده بروح القُدُس

وَلَقَـدْ آتَينا مُوسَى الكتـابَ، وقَـفَّينا من بَعْـدِه بالرُّسُلِ، وآتَينا عيسَى ابنَ مريمَ البَيِّنَاتِ، وأيَّدْنَاهُ بِروحِ القُدُسِ. أفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رسولٌ بما لا تَهْوَى أنـفُسُكُمُ، استَكـبَرْتُمْ: فَفَـريقاً كَذَّبْتُمْ، وَفَريقـاً تَقْتُلُون (سورة البقرة ٢/٨٧)[٥].

يقول **الطبري**:

وَلَقَـدْ آتَينا مُوسَى الكتـابَ (أي التوراة)، **وقَـفَّينا من بَعْـدِه بالرُّسُلِ** (أي: أتبعناه بالرسل، بعضهم خلف بعض)، **وآتَينا عيسَى ابنَ**

---

(٣) أنظر السور: ٩/٣٦؛ ١٢/٤٠؛ ٣٠/٣٠ و٤٣؛ و"دين القيّمة": ٩٨/٥.

(٤) تعبيـر يرد، في القـرآن، ٣٧ مرّة. أنظر مـثلاً: ١/٦؛ ٢/١٤٢ و٢١٣؛ ٣/٥١ و١٠١؛ ٥/١٦؛ ٦/٣٩.. إلخ..

(٥) الكلام موجّه إلى اليهود، وهو توبيخ لهم. ولا شأن للنصارى هنا.

مريمَ البَيِّنَاتِ (أي: الحجج والمعجزات، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلقه من الطين كهيئة الطير، والإخبار بالغيب، ومعرفة ما يدّخر النّاس في بيوتهم)[٦].

وأيّدْنَاهُ (أي: قوّيناه فأعنّاه ونصرناه) **بِروحِ القُدُسِ**. (اختلف أهلُ التأويل في الـ" **رُوحِ القُدُس** ". فقال بعضهم: هو جبريل. وقال آخرون: هو الإنجيل. وقال آخرون: هو الاسم الذي كان عيسى يُحيي به الموتى.

وأولى التأويلات بالصواب، كما يقول الطبري، قول مَن قال: ألروح: جبريل. وإنّما سمّى اللّهُ تعالى جبريلَ روحاً، وأضافه إلى القدس، أي إلى نفسه، لأنّه كان بتكوين اللّه له روحاً من عنده، من غير ولادة والدٍ وَلَدَهُ؛ فسمّاه بذلك روحاً؛ كما سمّى عيسى روحاً من أجل تكوينه له من غير ولادة والدٍ وَلَدَه.

واختلف أهل التأويل أيضاً في معنى **القُدُسِ**: فقال بعضهم: الطهر؛ وبعضهم:البركة؛ وبعضهم: هو اللّه تعالى، لقوله: "هُوَ اللّهُ الّذِي لا إلَهَ إلاّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ" (٥٩/٢٣). والقدس والقدّوس واحد. وهو أولى).

أفَكُلَّمَا جاءَكُمْ رسولٌ بما لا تَهْوَى (أي: تحبّ) **أنْفُسُكُمْ** (من الحقّ)، **اسْتَكْبَرْتُمْ** (أي تكبّرتم عن اتّباعه)، **فَفَريقاً** (منهم) **كَذَّبْتُمْ** (كعيسى)، **وَفَريقاً تَقْتُلُون** (كزكريّا وابنه يحيى).

ويسمّي **الزمخشري** أسماء الرسل، فهم: يوشع، واشمويل (أي صموئيل)، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعيا، وأرميا، وعُزير

---

(٦) أنظر سورة آل عمران ٣/ ٤٩؛ وسورة المائدة ٥/ ١١٠.

(أي النبيّ عـزرا الذي اعتبـر ابن اللّه)، وحـزقيل، والياس، وإلـيسـع، ويونس، وزكريّا، ويحيى، وغيرهم»...

(٤)

محمّد يصدّق التوراة. والتوراة بشّرت بمحمّد

ولمّا جَاءَهم رَسولٌ مِن عندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِمـا مَعهمْ نَبَذَ فريقٌ مِنَ الّذينَ أُوتُوا الكتَابَ كتابَ اللّهِ وَراءَ ظهورِهم كأنَّهمْ لا يَعْلَمونَ (سورة البقرة ٢/ ١٠١)

يقول **الطبرسي**: «وقوله **"مصدِّق لما معهم"**، يعني أنّه مصدّق لكتبـهم من التوراة والإنجيل، لأنّه جـاء على الصفة التي تقـدّمت بها البشارة.. وفي هذا القول حجّة على اليهود..».

ويقول **محمّد عبده**: ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنّهم طرحوه برمّته، وتركوا التصـديق به في جملته وتفصيله، وإنّما المراد أنّهم طرحوا جزءاً منه، وهو ما يبشّر بالنبيّ، ويبيّن صفاته، ويأمرهم بالإيمان به واتّبـاعه.. وترك الجزء منه كـتركه كلّـه، لأنّ ترك البعض يذهب بحرمة الوحي من النفس، ويجرئ على ترك الباقي..

«ولا فرق في هذا الحـكم بين اليهود والـنصارى، فكلّ منهـما مبشّر بالنبيّ في كتابه، وكلّ منهما قد نبذ الكتاب فلم يعمل به»[7]...

---

(٧) نشير إلى أن لا دخل للنصارى في هذه الآية، كما في سورة البقرة كلّها.

(٥)

الجنّة لليهود أم للنصارى؟

وَقَالوا لَن يَدْخُلَ الجنَّةَ إلاّ مَن كانَ هُوداً -أو نَصارى- **تلكَ أمَانِيُهُمْ. قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (لبقرة ٢/ ١١١)[٨].

يقول **الطبري**: «إنْ قالَ قائلٌ: وكيف جمَعَ اليهودَ والنصارى في هذا الخبر، مع اختلاف مقالة الفريقَين؛ واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب اللّه نصيب، والنصارى تدفع اليهودَ عن مثل ذلك؟ قيل: إنّما عنى به: وقالت اليهود: لن يدخلَ الجنَّةَ إلاّ هوداً؛ وقالت النصارى: لن يدخل الجنَّةَ إلاّ النصارى»..

وكذلك يقول **الرازي**: «فكأنّه قال: وقالت اليهود: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هوداً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان نصارى. ولا يصح في الكلام سواه، مع علمنا بأنّ كلّ واحد من الفريقَين يكفّر الآخر»

(٨) **نقول:** لا شأن للنصارى في إطار هذه الآية، إذ الكلام كلّه يدور على اليهود، وبنوع خاص: كعب بن الأشرف الذي قصده القرآن في الآية السابقة، في قوله: "وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أهْلِ الكتاب" (٢/ ١٠٩). ثمّ إنّ الكلام، بحسب معظم المفسّرين، قاله يهود المدينة ونصارى نجران، لمّا تناظروا بين يدي النّبي. وهو من عام الوفود، أي في السنة ما قبل الأخيرة من حياة النّبيّ. وسورة البقرة هي من أواخر العهد المكّي وأوائل العهد المدني. فهو، إذاً في غير محلّه . ثمّ إنّ تعبير «أو نصارى» مقحم على النصّ إقحاماً بيِّناً. وتعبير «تلك أمانيُّهم» يعود إلى اليهود وحدَهم من دون سواهم.

(٦)

إختلاف اليهود والنصارى

وقالتِ اليهودُ: ليسَتِ النصَارى على شَيء. وقالتِ النَصَارَى: ليسَتِ اليَهودُ على شَيء. وهم يَتْلُونَ الكتابَ. كذلك قال الّذينَ لا يَعلَمونَ مِثْلَ قولِهِمْ. فاللّهُ يَحْكُمُ بينَهُمْ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ (سورة البقرة ٢/ ١١٣)[٩].

يقول **الطبري**: ذُكر أنّ هذه الآية نزلت في قَومٍ من أهل الكتابَين، تنازعوا عند رسول اللّه، فقال بعضهم لبعض ما جاء في القرآن.. وينقل عن ابن عبّاس قولَه: لمّا قدِمَ أهلُ نجران من النصارى على رسول اللّه، أتتْهم أحبارُ يهود، فتنازعوا عنده، فقال رافع بن حُرَيْمَلَة: ما أنتم على شيء! وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران من النصارى: ما أنتم على شيء! وجحد نبوّة موسى وكفرَ بالتوراة، فأنزل اللّه عزّ وجلّ في ذلك من قولهما...

«وأمّا قوله : "**وهم يتلون الكتاب**"، فإنّه يعني به كتاب اللّه، التوراةَ والإنجيل. وهما شاهدان على فريقَي اليهود والنصارى بالكفر... أي: كلٌّ يتلو في كتابه تصديق ما كفر به، أي يكفر اليهودُ بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ اللّهُ عليهم من الميثاق على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ممّا جاء به عيسى تصديقُ

---

(٩) من غير المعقول أن يكون نصارى نجران هم المقصودون في هذه الآية، لأنّ النّبيّ لم يلتقِ بنصارى نجران إلاّ قبل السنة الأخيرة من حياته. ومن المتّفق عليه أنّ سورة البقرة نزلت أواخر العهد المكّي وأوائل العهد المدني. فالآية التي نحن في صددها مقحمة على السورة. إنّها من عهد عام الوفود.

موسى وما جاء به من التوراة من عند اللهّ. وكلٌّ يكفر بما في يد صاحبه».

ويقول **الأندلسي**: «قيل: ألمراد يهود المدينة، ونصارى نجران، حيث تماروا عند الرسول وتسابّوا وأنكرت اليهود الإنجيل ونبوّة عيسى؛ وأنكرت النصارى التوراة ونبوّة موسى».

" **فاللّهُ يَحْكُمُ بينَهُمْ يومَ القيامةِ** "، مثلها ما جاء في سورة الحجّ: ".. إنّ اللّهَ يفصِلُ بينهم يومَ القيامة.. " (٢٢/١٧).

أمّا **سيّد قطب** فيقول: إنّ «القرآن يسجّل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض، عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى في ملكيّة الجنّة، ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى اللّه: " **فاللّهُ يَحْكُمُ بينَهُمْ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ** "، فهو الحكم العدل، إليه تصير الأمور».

(٧)

اللّه لا وَلَد له. سبحانه!

وَقالوا: اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً. سُبحانَه! بَلْ لَهُ ما في السَّمَوات والأرْضِ. كُلٌّ له قانِتُونَ. بَديعُ السَّمَواتِ والأرْضِ وَإذا قَضَى أمْراً فإنّمَا يَقولُ له كُنْ فَيَكُونُ (سورة البقرة ٢/١١٦)

أالطبري:

وَقَالُوا (أي اليهود والنّصارى): **اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً. سُبْحَانَه** (أي تنزيهاً له عنه)! **بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ والأرْضِ** (مُلكاً وخَلقاً وعبيداً.

ومعنى ذلك: كيف يكون للّه ولد، وهو لا يخلو أن يكون إمّا في السموات وإمّا في الأرض. وللّه ملك ما فيهما. ولو كان للّه ولدٌ، لما كان هذا الولد كسائر ما في السموات والأرض من خَلقِ اللّه وعبيده). **كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ** (أي: مطيعون، أو مقرّون للّه بالعبوديّة).

الرازي:

إعلم أنّ هذا هو النوع العاشر من مقابح أفعال اليهود والنصارى والمشركين.. فكلّ هؤلاء أثبتوا الولد للّه تعالى، لأنّ اليهود قالوا: "عُزَيرٌ ابن اللّه"، والنصارى قالوا: "المسيحُ ابن اللّه" (٩/ ٣٠)، ومشركي العرب قالوا: "الملائكة بنات اللّه"[١٠].

ووجه الاستدلال بهذا على فساد مذهبهم من وجوه:

الأوّل: إنّ كلّ ما سوى الموجود الواجب ممكنٌ لذاته. وكلّ ممكن لذاته محدَث. وكلّ محدَث فهو مخلوق لواجب الوجود. والمخلوق لواجب الوجود لا يكون وَلَداً... فثبت أنّ كلّ ما سوى اللّه محدَث مسبوق بالعدم، وهو عبده وملكه. وهذا البرهان إنّما استفدناه من قوله: "**بَلْ لَهُ ما في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ**"، أي: له كلّ ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع، لا على سبيل الولادة.

والثاني: إنّ هذا الذي أُضيف إليه بأنّه وَلَدُه، إمّا أن يكون أزليّاً، أو محدَثاً. فإنْ كان أزليّاً لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولداً والآخر والداً أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرّداً من غير دليل. وإنْ كان الولد حادثاً كان مخلوقاً لذلك الأزليّ وعبداً له، فلا يكون وَلَداً

---

(١٠) من قوله: "ويجعلون للّه البنات. سبحانه!.." (١٦/٥٧)؛ أنظر أيضاً: ٦/ ١٠٠؛ ٣٧/١٤٩ و١٥٣؛ ٤٣/١٦؛ ٥٢/٣٩

الثالث: إنّ الولد لا بدّ وأنْ يكون من جنس الوالد. فلو فرضنا له ولداً لكان مشاركاً له من بعض الوجوه، وممتازاً عنه من وجه آخر. وذلك يقتضي كون كلّ واحد منهما مركّباً ومحدَثاً. وذلك محال. فإذنْ ألمجانسة ممتنعة فالولديّة ممتنعة.

الرابع: إنّ الولد إنّما يُتَّخَذ للحاجة إليه في الكبر، ورجاءُ الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه. فعلى هذا، إيجاد الولد إنّما يصحّ على مَن يصحّ عليه الفقر والعجز والحاجة. فإذا كان كلّ ذلك محال على اللّه كان إيجاد الولد عليه سبحانَه محالاً.

واعلمْ أنّه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد، واحتجّ عليهم بهذه الحجّة، وهي أنّ كلّ ما في السموات والأرض عبدٌ له؛ وبأنّه، **إذا قضى أمراً فإنّما يقول له: كن فيكون**. وقال في سورة مريم: " ذلكَ عيسَى ابنُ مريمَ قولَ الحقِّ الذي فيه يَمْتَرون: ما كان للّهِ أنْ يَتَّخِذَ من وَلَدٍ. سُبحانَه. إذا قضى أمراً فإنّما يقول له: كُنْ فيكونُ " (١٩/ ٣٤).

وقال أيضاً: " وقالوا: اتّخذَ الرّحمَنُ وَلَداً. لقد جِئتُمْ شيئاً إدّاً. تكادُ السّموات يتفَطَّرْنَ منه، وتَنْشَقُّ الأرضُ، وتَخِرُّ الجبالُ هَدّاً: أنْ دَعَوا للرّحْمَانِ ولَداً. وما ينبغي للرَّحْمَانِ أن يتَّخِذَ وَلَداً. إنْ كلُّ مَن في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمانِ عَبْداً "[١١].

الطبرسي:

" **وَقَالوا: اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً. سُبحانَه!** " ، أي إجلالاً له عن اتّخاذ الولد، وتنزيهاً عن القبائح والصفات التي لا تليق به.

---

(١١) سورة مريم ١٩/٨٨-٩٢.

"**بَلْ لَهُ ما في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ**". هذا ردّ عليهم قولهم: اتّخذ اللّه ولداً، أي ليس الأمر كما زعموا، "بل له ما في السموات والأرض" مُلكاً. والولد لا يكون ملكاً للأب، لأنّ البنوّة والملك لا يجتمعان. فكيف يكون الملائكة الذين هم في السماء بنات للّه، والمسيح الذي هو في الأرض ولداً له. فنبّه بذلك على أنّ المسيح وغيره عبيدٌ له، مخلوقون مملوكون. فهم بمنزلة سائر الخلق..

أبو حيّان الأندلسي:

"**وَقَالوا: اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبحانَه**". نزلتْ في اليهود، إذ قالوا: عُزَير ابن اللّه؛ أو في النصارى، إذ قالوا: المسيح ابن اللّه؛ أو في المشركين، إذ قالوا: الملائكة بنات اللّه؛ أو في النصارى والمشركين معاً.

ولاختلافهم في سبب النزول، اختلفوا في الضمير في "**وَقَالُوا**" على مَن يعود. فقيل هو عائد على الجميع من غير تخصيص. فإنّ كلاً منهم قد جعل للّه وَلداً. ولمّا كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة، أتى باللّفظ الذي يقتضي التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا تجوز على اللّه.

ثمّ أخذ في إبطال تلك المقالة فقال: "**بَلْ لَهُ ما في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ**"، أي جميع ذلك مملوك له. ومن جملتهم من ادّعوا أنّه ولد اللّه. والولادة تتنافى مع الملكيّة، لأنّ الوالد لا يملك ولدَه..

ولمّا ذُكر أنّ الكلّ مملوك للّه تعالى ذُكر أنّهم كلّهم "**له قانِتُونَ**"، أي مطيعون خانعون له. وهذه عادة المملوك أن يكون طائعاً لمالكه، ممتثلاً لما يريده منه...

إبن كثير:

"**بَلْ لَهُ مـا في السّـمَـواتِ والأرْضِ**" ، أي: ليس الأمـر، كـمـا افتـروا، وإنّما له ملْك السمـوات والأرض ومَن فيهنّ، وهو المتـصرّف فيـهم، وهو خالقهم، ورازقـهم، ومقدّرهم، ومسـخّرهم، ومسـيّرهم، ومصرّفهم، كما يشاء. والجـميع عبيد له وملْك له. فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنّمـا يكون متـولّداً من شـيئين مـتناسبَين، وهو تبـارك وتعالى ليس له نظير ولا مـشارك في عظمته وكبيـريائه، ولا صاحبة له. فكيف يكون له ولد؟...

وقال تعالى: "وقـالوا: اتّخذَ الرّحمَنُ وَلَداً.." إلخ. (١٩/٨٨-٩٣)؛ وقال تعالى: "قُلْ هُوَ اللّهُ أحَدٌ. اللّهُ الصّمَدُ. لم يَلِدْ ولمْ يُولَدْ. ولمْ يكنْ له كُفواً أحَدٌ" (١١٢/١-٤).

فقرّر تعالى، فـي هذه الآيات الكريمة أنّه السيّد العظيم الذي لا نظير له، ولا شبيـه له، وأنّ جميع الأشياء غيره، مـخلوقة له، مربوبة. فكيف يكون له منهـا ولد؟. وفي الصحـيحين عن رسول الـلّه أنّه قال: "لا أحد أصـبر علـى أذىً سمـِعَه من اللّه إنّهم يجـعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم".

الآلوسي:

"**بَلْ لَهُ ما في السّمَواتِ والأرْضِ**". إبطال لما زعموه وإضراب عمّـا تقتضـيه مـقالتهم البـاطلة من التشـبيه بالمحـدثات في التناسل والتوالد، والحاجة إلى الولد في القيـام بما يحتاج الوالد إليه، وسرعة الفناء لأنّه لازم للتركـيب اللأزم للحاجة، ولأنّ الحكمـة في التوالد هو أن يبقى النوع محفوظاً بتوارد الأمثال فيما لا سبيل إلى بقاء الشخص

بعَـينه مدّة بـقاء الدهر. وكلّ ذلك يمـتنع على اللّه، فـإنّه الغني المطلق المنزّه عن مشابهة المخلوقات.

والمعنى: ليس الأمر كما افتـروا، بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها ما زعمـوه ولداً، والخالق لكلٍّ موجود لا حاجة له إلى الولد إذ هو يوجِد ما يشاء منزَّهاً عن الاحتياج إلى التوالد.

القاسمي:

"**وَقَالوا: اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً. سُـبحانَه!**". قال: والغرض في الولد للإنســان إنّما هــو لأنْ يبقى به نوعُــه، فــجعل لــه بذراً لحفظ نوعــه. ويقوّي ذلك أنّه لمْ يجـعل للشمس والقمــر وسائر الأجرام الســماويّة بذراً واستخـلافاً، لمّا لم يجعل لها فناءَ النبات والحـيوان. ولمّا كان اللّه تعـالى هو الباقي الدائم، بلا ابـتداء ولا انتـهاء، لم يكن لاتّخـاذه الولد لنفسه مـعنى. ولهذا قال: "سُبْـحَانَه أنْ يكونَ له وَلَدٌ" (٤/ ١٧١)، أي هو منزّه عن السبب المقتضى للولد.

ثمّ لمّا اقتناء الولد لفـقرٍ ما، وذلك لأنّ الإنسان افتـقر إلى نسلٍ يخلفه لكونه غير كامل إلى نفـسه، بيّن قوله تعالى بقوله: **بَلْ لَهُ ما في السَّمَوات والأرْض** أنّه لا يتوهّم له فقـر فيحتاج إلى اتّخــاذ ما هو سدٌّ لفقره، فصار في قوله: **لَهُ ما في السَّمَواتِ والأرْض**، دلالة ثانية.

ثم زاد حجّة بقوله: "**قَانِتُونَ**"، وهو أنّه، لمّا كـان الولد يُعتـقد فيــه خدمة الأب ومظاهرته، كـما قال: "وَجَـعَلَ لكمْ من أزْواجِكُمْ بَنينَ وَحَفَـدَةً" (١٦/ ٧٢)، بيّن أنّ كلّ ما فــي السموات والأرض، مـع كونه ملكاً له، قـانتٌ أيضاً، إمّا طائعـاً، وإمّا كـارهاً، وإمّا مســخَّراً، كـقوله: "يَسْجُدُ مَن في السّمَواتِ والأرضِ طَوْعاً وكَرْهاً" (١٣/ ١٥)، وقوله:

"وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه" (١٧/ ٤٤). وهذا أبلغ حجّة لمن هو على المحجّة.

محمّد عبده:

نزّه تعالى نفسَه بكلمة "**سُبْحَانَهُ**" التي تفيد التنزيه، مع التعجّب ممّا ينافيه.. فإنّهُ لا جنس له فيكون له ولد منه. وهذا الولد الذي نسبوه إليه تعالى لا بدّ أن يكون من العالَم العلوي، وهو السماء؛ أو من العالم السفلي، وهو الأرض. ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانِساً له عزّ وجل، لأنّ جميع ما في السموات والأرض ملك له، قانتٌ لعزّته، خاضع لقهره، مسخَّر لمشيئته. فإذا كانوا سواء في كونهم مسخّرين له بفطرتهم، منقادين لإرادته بطبيعتهم، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب إليه، وجعْل ولداً مجانساً له..

نعم إنّ له سبحانه أن يختصّ مَن شاء بما شاء، كما اختصّ الأنبياء بالوحي؛ ولكن، هذا التخصيص لا يَرقَى بالمخلوق إلى مرتبة الخالق، ولا يعرج بالموجود الممكن إلى درجة الوجود الواجب؛ وإنّما يودِع سبحانه في فطرة مَن شاء ما يؤهّله لِما شاء منه.

وليست شبهة الذين اتّخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتّخذوا بعض الكواكب آلهة، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلاً من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه، وقالوا هو ابن اللّه، أو هو اللّه.

سيّد قطب:

هذه المقولة الفاسدة : "**اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً**" ، ليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح، فهي كذلك مقولة اليهود في العُزَير، كما كانت

مقـولة المشركـين في الملائكة. ولم تفصل الآية هنا هذه المـقولات، لأنّ السياق سياق إجمالٍ للفِـرَق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذٍ في الجزيرة. ومـن عجبٍ أنّها لا تزال هي الـتي تناهضه اليـوم تماماً، ممثّلة في الصهيونيّة العالميّة، والصليبيّـة العالميّة، والشيوعيّة العالميّة. وهي أشدّ كفراً من المشركين في ذلك الحين.

(٨)

لا اليهود ولا النصارى براضين عن محمّد

ولن تَرضَى عنكَ اليَهودُ ولا النَّصَارى حتّى تَتَّبِعَ ملّتَهمْ. قلْ إنّ هُدَى اللّه هوَ الهُدَى. ولَئنِ اتّبَعْتَ أهواءَهمْ بعدَ الذي جَاءَكَ منَ العِلْمِ مَا لكَ منَ اللّهِ مِـنْ وَليٍّ ولا نَصـيـرٍ. ألّذينَ آتَـيناهُمُ الكتـابَ يَـتلُونَه حقَّ تِلاوَتِهِ. أولئكَ يُـؤمِنُونَ به. ومَن يَكْفُـرْ بِهِ فـأولـئكَ همُ الخـاسِـرونَ (سورة البقرة ٢/ ١٢٠-١٢١)[١٢].

الطبري:

ليست اليهود، يا محمّـد، ولا النصارى، براضيةٍ عنك أبداً. فدعْ طلبَ ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا اللّه.. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتّباع ملّتهم؛ لأنّ اليهوديّة ضد النصرانيّة، والنصرانيّة ضد اليهوديّة، ولا تجتمع النصرانيّة واليهوديّة في شخص واحد، في

(١٢) يدور الكلام على اليهود، ولا شأن للنصارى فـيه. ثمّ إنّ اليهود والنصارى، بحسب القرآن نـفسـه، لا يتّـفقـون على شيء، حـتّى يُقال عـنهم هنا بأنّهم متّفقون على معاداة محمّد.

حالٍ واحدة. واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلاّ أنْ تكونَ يهودياً نصرانياً. وذلك ممّا لا يكون منك أبداً، لأنّك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادّان في حالٍ واحدة. وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقتٍ واحدٍ سبيلٌ، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقَين سبيلٌ. وإذا لم يكن لكَ إلى ذلك سبيلٌ، فالزَمْ هُدى اللّه...

الخازن:

قال ابن عباس: هذا في أمْر القِبلة. وذلك أنّ يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبي حين كان يصلّي إلى بيت المقدس. فلمّا صرف اللّه القبلةَ إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل اللّه تعالى **ولن ترضى عنك اليهود** يعني إلاّ باليهوديّة، **ولا النصارى** يعني إلاّ بالنصرانيّة.

أبو حيّان الأندلسي:

روي أن اليهود والنصارى طلبوا من رسول اللّه الهدنة، ووعدوه أن يتّبعوه بعد مدّة، خداعاً منهم. فأطلعه اللّه على سرّ خداعهم، فنزلتْ. ويكون تنبيهاً من اللّه على أنّ اليهود والنصارى يخادعونكم بما يظهرون من الميل وطلب المهادنة والوعد بالموافقة، ولا يقع رضاهم إلاّ باتّباع ملّتهم.

سيّد قطب:

فتلك هي العلّة الأصيلة. ليس الذي ينقصهم هو البرهان؛ وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنّك على أنّ الذي جاءك من ربّك هو الحق. ولو قدّمتَ إليهم ما قدّمت؛ ولو تودّدت إليهم ما تودّدت، لن يُرى من هذا كلّ شيء إلاّ أن تتبع ملّتهم، وتترك ما معك من الحقّ.

إنّها العقـدة الدائمة التي نرى مصداقـها في كلّ زمان ومكان.. إنّها هي العقيدة. هذه حقيقة المعركة التي يشنّها اليهود والنصارى في كلّ أرض، وفي كلّ وقت، ضدّ الجمـاعة المسلمة.. إنّها معركـة العقيدة هي المشـبوبة بين المعـسكر الإسلامي وهـذين المعسكرَين اللّذين قـد يتخاصمان فـيما بينهما. وقد تتخاصم شيع الملّة الواحـدة فيما بينها، ولكنّها تلتقي دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين.

(٩)

إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً

وقالوا: كُـونُوا هُوداً -أو نصَارى-[١٣] **تَهْتَـدوا. قلْ: بلْ مِلّةَ إبراهيمَ حَنيفاً. وَما كَان من المشرِكِين** (سورة البقرة ٢/ ١٣٥).

الطبري:

إحتجّ اللّهُ لنبيّه مـحمّد أبلغ حجّة، وأوجزها، وأكـملها؛ وعلّمها محمّـداً نبيَّه، فـقال: قل يا محمّـد، لا نتّبع اليهوديّة والنصـرانيّة، ولا نتّـخذها ملّة، بل نتّـبع ملّة إبراهيم حنيـفاً. و "**الملّة**" هي الدين. وأمّا **الحنيف** فإنّه المستـقيم من كلّ شيء.. فيكون الحنيف حـينئذٍ حالاً من إبراهيم... والحنيف الحاجّ...

---

(١٣) تعبير «**أو نصارى**» مُقـحَم على الآية. فلا شيء قبلهـا أو بعدها يتكلّم على على النصارى. فلا دخـل للنصارى هنا. وتركيب الآية في لغتـها يدلّ على ما نقـول. وقد كـان الأصوب، لو كـان للنصـارى دورٌ، أن يُقال: "كـونوا هوداً تهتدوا، أو نصارى تَنصروا. قل: بل ملّة إبراهيم..." .

الخازن:

قال ابن عبّاس: نزلت في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف، ومالك بن السيف، ووهب بن يهودا، وأبي ياسر بن أخطب؛ وفي نصارى نجران: السيّد، والعاقب، وأصحابهما. وذلك أنّهم خاصموا المؤمنين في الدين. فكلّ فريق منهم يزعم أنّه أحق بدين اللّه.

حنيفاً: أصله من الحنف، وهو ميل واعوجاج يكون في القَدَم. وقال ابن عبّاس: ألحنيف المائل عن الأديان كلّها إلى دين الإسلام.. والعرب تسمّي كلّ مَن حجّ أو اختتن حنيفاً، تنبيهاً على أنّه على دين إبراهيم. وقيل: الحنيفيّة: ألختان وإقامة المناسك. **مسلماً**: يعنى أنّ الحنيفيّة هي دين الإسلام، وهو دين إبراهيم.

أبو حيّان الأندلسي:

"**وَقَالُوا**" : أي رؤساء اليهود الذين كانوا بالمدينة، ونصارى نجران. والمعنى: وقالت اليهود كونوا هوداً، وقالت النصارى كونوا نصارى. و**الحنيف** هو المائل عن الأديان كلّها، قاله ابن عبّاس. أو المائل عمّا عليه العامّة، قاله الزجّاج. أو المستقيم، قاله ابن قتيبة. أو الحاجّ، قاله ابن عبّاس أيضاً. وابن الحنفيّ، أو المتّبع، قاله مجاهد. أو المخلّص، قاله السدّي. أو المخالف للكلّ، قاله ابن بحر. أو المسلم، قاله الضحّاك... فإذا جُمع الحنيف مع المسلم فهو الحاج أو المختن، أو الحنف...

محمّد عبده:

قال في معنى **الحنيف**: قال بعض المشتغلين بالعربيّة من الإفرنج إنّ الحنيفيّة هي ما كان عليه العرب من الشرك، واحتجّوا على

ذلك بقول بعض النصارى في زمن الجاهليّة "إنْ فعلتُ هذا أكون حنيفيّاً". وإنّها لفلسفة جاءت من الجهل باللّغة[١٤].

(١٠)

المسلمون هم الذين لا يفرّقون بين الرسل

قُولُوا آمَنَّا باللهِ، وَمَا أُنْزِلَ إلَينا، وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْراهيم وإسماعيلَ وإسْحَقَ ويَعْقوبَ والأسْبَاطِ، وما أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى، وما أُوتيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ. لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإنْ آمَنوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا، وَإنْ تَوَلَّوا فَإنَّمَا هُمْ في شِقَاقٍ. فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَليم. صِبْغَةَ اللهِ! وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً! وَنَحنُ لَهُ عَابِدُونَ (البقرة ٢/١٣٦-١٣٨).

الطبري:

" **قُولُوا** "، أيّها المؤمنون، لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم: "كُونُوا هُوداً أو نَصارى تَهتَدوا": "**آمَنَّا باللهِ**"، أي: صَدَّقنا، "**وَمَا أُنْزِلَ إلَينا**"، أي: الكتاب الذي أَنزَلَ اللّهُ على نبيِّنا محمّد، وصدّقنا أيضاً وآمنّا بـ "**مَا أُنْزِلَ إلى إبْراهيم وإسماعيلَ وإسْحَقَ ويَعْقوبَ والأسْبَاطِ**"، وهم الأنبياء من ولد يعقوب.

(١٤) **نقول**: إنّ "الحنيف"، في السريانيّة والأراميّة، هو الذي مال عن دين آبائه. فإنْ كان آباؤه مؤمنين ومال إلى الكفر والجحود، كان حنيفاً. وإنْ كان آباؤه كافرين جاحدين ومال إلى الإيمان، كان أيضاً حنيفاً. فالحنيف، إذاً، من الأضداد. وهي لا تزال في السريانيّة تعني الكفر والجحود والوثنيّة والشرك؛ وفي العربيّة تعني الإيمان والإسلام والطاعة والتوحيد. وهذا هو الصواب.

وآمنّا أيضاً بـ" **ما أُوتِـيَ مُوسَى وعِيـسَى** "، يعني: بالتوراة التي آتاها اللّه مـوسى، وبالإنجيل الذي آتاه اللّه عـيسى، "**وما أُوتيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ**"، وأقررنا وصدّقنا أنّ ذلك كلَّه حقٌّ وهُدًى ونورٌ من عند اللّه، وأنّ جـمـيع مَن ذَكَرَ اللّـهُ من أنبيـاء كـانوا على حقٍّ وهدىً، يصدّق بعـضُهم بعـضاً على منهاجٍ واحـدٍ في الدعاء إلى توحـيد اللّه والعمل بطاعته.

"**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ**"، أي: لا نؤمن ببعض الأنبـياء ونكفر ببعض، ونتبرّأ من بعض، ونتولّى بعضاً، كما تبرّأت اليهود من عيسى ومحـمّد، وأقـرّت بغيـرهما من الأنبـياء، وكـما تبرّأت النّـصارى من محمّد، وأقرّتْ بغيره من الأنبيـاء. بل نشـهد لجميعهم أنّهم كانوا رسلَ اللّه وأنبياءه بُعثوا بالحق والهدى.

وأمّا قوله: "**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**"[١٥]، فإنّه يعني تعالى ذكره: ونحن له خاضـعون بالطاعة، مذعنون له بالعـبوديّة، **فَإنْ آمَنوا** (أي: اليهـود والنصارى) **بِمِـثْلِ ما آمَنْتُم بهِ فَـقَدِ اهْتَـدَوا، وَإنْ تَوَلَّوا** (أي: أعرضوا عن الإيمان به)، **فَإنّمَا هُـمْ في شِقاقٍ** (أي في خلاف معكم، وفي عصيان وفراق وحرب للّه ولرسوله ولكم). **فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ** (يا محمّد شـقاقهم ويسلّطك عليهم، حتّى إنّ محـمّـداً قتل بعضـهم وأجلى بعـضـهـم وأذلّ بعضـاً وأخـزاه بالجزيـة والصَّغـار) **وَهُوَ السَّـمِيعُ** (لأقوالهم) **العَلِيمُ** (بأحوالهم).

---

(١٥) المسلمون، في القـرآن، حيثـما وردت الكلمة، هم الذين لم يفـرّقوا بين رسل اللّه وأنبيائه وكتبه، أي هم المؤمنون بمحمّـد ورسالته وكتابه، أي الخاضعون المطيعون الساجدون للّه: "لا نفرّق بين أحد من رسله. ونحن له مسلمون".

صِبْغَةَ اللّهِ! وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً! (أي: صبغة الإسلام، وذلك أنّ النّصارى، إذا أرادتْ أن تُنَصِّرَ أطفالَهم جعلتهم في ماءٍ لهم، تزعم أنّ ذلك لها تقديس بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنّه صبغة لهم في النصرانيّة. واختلف أهل التأويل في **صِبْغَةَ اللّهِ**، فقال بعضهم: دين اللّه. وقال آخرون: فطرة اللّه التي فطر الناس عليها. **وَنَحنُ لَهُ عَابِدُون** (قال اليهود للمسلمين: نحن أهل الكتاب الأوّل، وقِبْلَتُنا أقدم، ولم تكن الأنبياء من العرب، ولو كان محمّد نبيّاً لكان منّا. فنزلت الآية التالية)....

الرازي :

إنْ قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأنّ شرائعهم منسوخة؟ قلنا: نحن نؤمن أنّ كلّ واحد من تلك الشرائع كان حقّاً في زمانه، فلا يلزم منّا المناقضة. أمّا اليهود والنصارى، لمّا اعترفوا بنبوّة بعض مَن ظهر المعجز عليه، وأنكروا نبوّة محمّد مع قيام المعجز على يده، فحينئذٍ يلزمهم المناقضة. فظهر الفرق.

(١١)

النصارى، كاليهود، كتموا أمر محمّد ونبوّته

قُلْ أتُحَاجُّونَنَا في اللهِ وَهُوَ ربُّنَا وَرَبُّكُمْ، ولنا أعمالُنا، ولكمْ أعمالُكمْ. وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ. أم تقُولُونَ إنّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوب والأسباطَ كانوا هُوداً -أو نصارى-[١٦] **؟ قلْ: أأنتمْ**

---

(١٦) **نقول**: لا شأن لتعبير «أو نصارى» هنا. فكلام القرآن يدور على اليهود.

أعلَمُ أمِ اللَّهُ؟ ومَن أظلمُ ممَّنْ كَتَمَ شهـادةً عندَه من اللَّهِ. وما اللَّهُ بغافلٍ عمَّا تَعْلَمونَ (سورة البقرة ٢/١٣٩-١٤٠).

الطبري:

"**قُلْ**" يا محمَّد لمعاشر اليهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك: "كُونُوا هُوداً أو نَصَارَى"، وزعموا أنّ دينهم خيرٌ من دينكم، وكتابهم خيرٌ من كتابكم، لأنّه كان قبل كتابكم، وزعموا أنّهم من أجل ذلك أولَى باللّه منكم: "**أَتُحَاجُّونَنَا**"، أي أتخاصمونَنا وتجادلوننا؟.. "**وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**"، أي مخلصو العبادة والطاعة، لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد غيره أحداً..

وهذا توبيخ لليهود الذين زعموا أنّ الأنبياء والأسباط كانوا هوداً أو نصارى.. لقد كتموا شهادة عندهم من اللّه، أي: كتموا أمرَ محمّد ونبوّته. وهم يعلمون ذلك ويجدونه في كتبهم.

أم (بل) **تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُوا هُوداً** -أو نَصَارَى-؟ **قُلْ** (لهم يا محمّد): **أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ** (الذي برّأ إبراهيم بقوله: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًا وَلا نَصْرَانِيًا")؟ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ** (أي: كتموا أمرَ محمّد ونبوّته. وهم يعلمون ذلك ويجدونه في كتبهم). **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْلَمُونَ** (من كتمانكم الحقّ فيما ألزمكم في كتابه بيانه للناس، من أمر الرسل والأنبياء).

ولم يذكر «عيسى» بين لائحة الأنبياء كما هي عادته في سائر الآيات المماثلة.

الرازي:

يقول في قـوله تعالى: "**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ**"، فـيه تقـديم وتأخـير. والتـقـدير: ومَن أظلم عند اللّه ممّن كـتم شـهادةً حصلتْ عنده.

أبو حيّان الأندلسي:

قيل في سبب النزول: إنّ اليهود والنصارى قالوا: يا محمّد إنّ الأنبياء كانوا منّا وعلى ديننا، ولم تكن من العرب، ولو كنتَ نبيّاً لكنتَ منّا وعلى ديننا. وقـيل أيضاً: إنّ اليهـود والنصارى حـاجّوا المسلمين فقالوا: "نحنُ أبناءُ اللّهِ وأحبَّـاؤه" (٥/١٨)، وأصحابُ الكتاب الأوّل، وقبلتُنا أقدم، فنحن أولى باللّه منكم.

إبن كثير:

"**قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ**"، أي تناظروننـا في توحـيـد اللّه، والإخلاص له، والانقـياد واتّباع أوامـره، وترك زواجره، "**وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**" المتصرّف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهيّة، له وحده، لا شريك له. "**وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**"، أي نحن براء منكم وممّا تعبدون، وأنتم براء منّـا، كما قال في موضعٍ آخـر: "وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَـمَلي، ولكمْ عـمَلُكُمْ. أنتمْ بريئـونَ ممّا أعـمَـلُ، وأنا بريءٌ ممّا تَعمَلُونَ" (١٠/٤١)، وقـال أيضاً: "فإنْ حَاجُّوكَ فـقلْ أسلمْتُ وجهي للّهِ ومَنِ اتّبَعَني" (٣/٢٠)، وقـال كذلك إخباراً عن إبراهيـم: "وحاجَّه قومُـه. قال: أتُحـاجُّوني في اللّه!" (٦/٨٠)، وقال أيـضاً: "ألمْ ترَ إلى الّذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّهِ!" (٢/٢٥٨).

محمّد عبده:

حاصل معنى الآية: إبطال معنى شبهة أهل الكتاب أنّهم أبناء اللّه وأحبّاؤه، وأنّه لا ينجو مَن كان على غير طريقتهم، وإنْ أحسنَ في عمله وأخلص في قصده، وأنّهم هم النّاجون الفائزون، وإنْ أساءوا عملاً ونيّةً، لأنّ أنبياءهم هم الذين ينجّونهم ويخلّصونهم. فالفوز عندهم بعمل سلفهم، لا بصلاح أنفسهم ولا أعمالهم. وهذا الاعتقاد هدْمٌ لدين اللّه الذي بَعث به جميع أنبيائه..

(١٢)

قِبلةُ محمّد غير قبلة اليهود والنصارى

قَد نَرَى تَقَلُّبَ وجْـهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَـرْضاها فَوَلِّ وَجهَكَ شَطْرَ المَسْـجِدِ الحَرَامِ. وحيثُ ما كُنتُمْ فَـوَلُّوا وُجُوهَكمْ شَطْرَهُ. وإنّ الّذين أُوتُوا الكتـابَ لَيَعْلَمـونَ أنّه الحقُّ من رَبِّهِمْ. وما اللّهُ بِـغافِلٍ عمّا يَعمَلون. ولئنْ أتَيْتَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ بكلِّ آيةٍ ما تَبِعُوا قِبلَتَكَ وما أنتَ بتابعٍ قِبلَتَهمْ وما بعـضُهُمْ بتابعٍ قِبلةَ بعضٍ. ولئنِ اتَّبعتَ أهواءهم من بَعْدِ ما جـاءَكَ منَ العِلمِ إنّكَ إذاً لَمِنَ الظّالمينَ. الذينَ آتيناهمُ الكتابَ يَعرفونَ أبـناءَهمْ وإنّ فريقاً منهمْ لَيكتُمـونَ الحقَّ وهمْ يَعلَمُونَ. الحقُّ مِنْ ربِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (سورة البقرة ٢/ ١٤٤-١٤٧).

الطبري:

عن ابن عبّاس: إنّ رسول اللّه، لمّا هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره اللّه أن يستقبل بيت المقدس، ففرحتِ اليهودُ، فاستقبلها رسول اللّه ستة عشر شهراً، فكان رسول اللّه يُحبُّ قِبلةَ

إبراهيم، فكان يدعـو وينظر إلى السمـاء، فأنزل اللّه: " **قَد نَرَى تَقَلُّبَ وجْهِكَ في السَّماءِ** ".

فأمّا قوله : " **فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا** "، فيعني: لنصرفنّك عن بيت المقدس، إلى قبلة "ترضاها"، أي : تهواها وتُحبّها.

وأمّا قوله : " **فَوَلِّ وَجْهَكَ** "، يعني: إصرف وجهك وحوِّلْه.

وقوله : " **شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ** "، يعني : تلقـاءه، ونحـوه، وقصده. والمسجد الحرام هو، كما يقول بعضهم: ألبيت كلّه قِبلة. وهو الكعبة. وهو حرام لأنّه حُرِّم على غير المؤمنين.

وقوله: " **وَحَيثُ ما كُنتُمْ فَـوَلُّوا وُجُوهَكمْ شَطْرَهُ** " يعني: أينما كنتم في الأرض، أيهّا المؤمنون، فـحوِّلوا وجوهكم في صـلاتكم نحو المسجد الحرام.

وقوله: " **وإنَّ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمَونَ أنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ** " يعني: أحـبـار اليهـود وعلمـاء النصـارى[١٧].. يعلمـون أنّ التوجُّـهَ نحوالمسجد، هو الحقّ الذي فرضه اللّه على إبراهيم وذرّيته.

وقوله: " **وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمّا يَعمَلون** " يعني: وليس اللّه بغافلٍ عمّـا تعملون، أيّها المؤمنون، في اتّبـاعكم أمرَه، وانتهائكم إلى طاعـته، فيما ألزمكم من فرائضـه، وإيمانكم به في صلاتكم نحو بيت المقدس، ثمّ صـلاتكم من بعـد ذلك شطرَ المسـجـد الحـرام، ولا هو سـاهٍ عنه، ولكنّه، جلّ ثناؤه، يُحـصيه لكم ويـدّخره لكم عنده، حتى يـجازيكم به أحسن جزاء، ويثيبكم عليه أفضل ثواب.

---

(١٧) لا شأن للنصارى في هذه الآية. فقِبلة بيت المقدّس هي لليهود لا للنصارى.

وقوله: " **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكتَابَ بكلِّ آيةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وما أنتَ بتابعٍ قِبلَتَهمْ** " يعني: إذا كان الأمرُ على ما وَصَفنا: لو أتيتَ الذين أوتوا الكتابَ بكلِّ آية ما تبعوا قبلتك.. وما لك من سبيل، يا محمّد، إلى اتّباع قبلتهم. وذلك أنّ اليهود تستقبل بيتَ المقدس بصلاتها، وأنّ النّصارى تستقبل المشرق. فأنّى يكون لكَ السبيلُ إلى اتّباعِ قبلتهم، مع اختلاف وجوهها؟

وقوله: " **وَمَا بعضُهُمْ بتابعٍ قِبلةَ بعض** " يعني: وما اليهود بتابعةٍ قبلةَ النصارى، ولا النصارى بتابعةٍ قيلة اليهود[١٨]. أي: إنّ اليهود والنصارى لا تجتمع على قبلة واحدة.. وإنْ اتّبعتَ، يا محمّد، قبلةَ اليهود أسخطتَ النصارى، وإنْ اتّبعتَ قبلةَ النصارى أسخطتَ اليهود. فدعْ ما لا سبيل إليه.

وقوله: " **وَلَئنِ اتّبعتَ أهواءهم من بَعْدِ ما جاءَكَ منَ العِلمِ إنّكَ إذاً لَمِنَ الظَّالِمينَ** "، أي : ولئنِ التمستَ، يا محمّد، رضا هؤلاء اليهود والنصارى.. من بعد ما وصل إليك من العلم، بإعلامي إيّاكَ أنّهم مقيمون على باطل، وعلى عنادٍ منهم للحقّ، ومعرفةٍ منهم أنّ القبلة التي وجّهتُك إليها، هي القبلة التي فرضتُ على أبيك إبراهيم وسائر وُلده من بعده، التوجُّه نحوها.. إذا فعلتَ ذلك، فأنتَ من عبادي الظلمة، المخالفين أمري، التاركين طاعتي[١٩]...

وقوله: " **الذينَ آتيناهمُ الكتابَ يَعرفونَ أبناءَهمْ** " يعني: أحبار

---

(١٨)ليس المقصود اليهود والنصارى؛ بل فرَق اليهود المختلفة حول القبلة.

(١٩) المقصود في «ولئنِ اتّبَعْتَ أهوَاءَهم»، أي اختلافات فرق اليهود بعضهم مع بعض. ولا شأن للنصارى هنا.

اليهود وعلماء النصارى يعرفون أنّ البيتَ الحرام قبلتهم وقبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك، كما يعرفون أبناءهم[٢٠].

وقوله: "**وإنّ فريقاً منهمْ ليَكتُمونَ الحقَّ وهمْ يَعلَمُونَ**"[٢١] يعني: إنّ طائفة من الذين أوتوا الكتاب، يكتمون الحقّ، أي القبلة،التي وجّه اللّهُ إليها نبيَّه محمّد.

وَهُمْ يَعلَمُونَ (هذا الذي أنتَ عليه). **الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** (أي: إعلم يا محمّد أنّ الحقّ ما أعلمَكَ ربُّكَ وأتاكَ من عنده، لا ما يقول لك اليهود والنصارى[٢٢] في شأن القبلة). **فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ** (أي: لا تكن في شكٍّ أنّها قبلتك وقبلة الأنبياء من قبلك).

(١٣)

بين اليهود –والنصارى– شِقاق كبير

ذَلِكَ بِأنَّ اللّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ، وَإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (سورة البقرة ٢/١٧٦).

الطبري:

ذَلِكَ (أي: هذا الذي فعلته أحبار اليهود بكتمانهم الناسَ ما كتموا من أمر محمّد) **بِأنَّ اللّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ** (أي: اختلفوا فيه،

---

(٢٠) ألمقصود في «الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ» هم اليهود، لا اليهود والنصارى.

(٢١) ألمقصود: «وإنّ فريقًا منهم» أي من اليهود الذين قيل عنهم، لا عن النصارى، بأنّهم «حرَّفُوا الكتاب»

(٢٢) لا شأن للنصارى هنا، وقد مدحهم القرآن مراراً في أمكنة عديدة.

حيث آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه)، **وإنّ الّذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتابِ** (وهم اليهود والنصارى[٢٣]، اختلفوا في كتاب اللّه، فكفرت اليهود بما قصّ اللّه فيه من قصص عيسى ابن مريم وأمّه، وصدقت النصارى ببعض ذلك وكفروا ببعضه، وكفروا جميعاً بما أنزل اللّه فيه من الأمر بتصديق محمّد. فقال لنبيّه: إنّ هؤلاء الذين اختلفوا فيما أنزلت إليك يا محمّد) **لَفي شِقَاقٍ بَعيدٍ** (أي: لَفي منازعة ومفارقة للحقّ بعيدة من الرشد والصواب[٢٤].

(١٤)

صِيام المسلمين كصيام النصارى

يا أيّها الّذينَ آمَنُوا! كُتِبَ عليكُم الصِّيَامُ كما كُتِبَ على الّذينَ من قَبْلِكمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (سورة البقرة ٢/١٨٣).

الطبري:

قال: اختلف أهلُ التأويل في الذين هم **قَبْل**. فقال بعضهم: إنّ الصوم الذي فرضَه اللّهُ علينا، كمثلِ الذي كان عليهم، أي: النّصارى.. والتشبيه هو لاتّفاق الفريقَين في الوقت والمقدار.

عن السدي قال: أمّا الذين من قَبلِنا فالنّصارى. كتب عليهم رمضان، وكتب عليهم أن لا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم، ولا ينكحوا

---

(٢٣) لا شأن للنصارى. فالكلام على اليهود. فهم في خلاف بعضهم مع بعض، وهم الذين حرّفوا الكلام، واختلفوا في الكتاب، وأخفَوا منه اسم محمّد...

(٢٤) أنظر: سورة البقرة ٢/١٣٧.

النساء شهرَ رمضان. فاشتدّ على النصارى صيامُ رمضان، وجعل يُقلَّبُ عليهم في الشتاء والصيف.. ثمّ زادوه خمسين يوماً. فلم يزل المسلمون على ذلك يصنعون ما تصنع النصارى، حتى كان من أمر ابن قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب، ما كان، فأحلّ اللّه لهم الأكل والشرب والجماع إلى طلوع الفجر؛ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** المعاصي.

الرازي:

ألصيام مصدر صام كالقيام، وأصله في اللّغة الإمساك عن الشيء والترك له، ومنه قيل للصمت صوم، لأنّه إمساك عن الكلام، كقول مريم : "إنّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوماً" (١٩/ ٢٦)، أي: صمتاً... وفي الشريعة، ألصيام هو الإمساك، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، عن المفطرات حال العلم بكونه صائماً مع اقتران النّيّة.

القرطبي :

ثمّة حديث عن النّبي، قال: "كان على النّصارى صومُ شهرٍ، فمرضَ رجلٌ منهم، فقالوا: لئن شفاه اللّهُ لنزيدنّ عشرة؛ ثم قال آخر فأكل لحماً فأوجعَ فاه، فقالوا: لئن شفاه اللّه لنزيدنّ سبعة. ثم كان ملك آخر فقالوا: لنتمنّ هذه السبعة الأيام، ونجعل صومنا في الربيع، قال: فصار خمسين" ...

القاسمي:

ألمماثلة إنّما هي في أصل الوجوب لا في الوقت والمقدار. وفيه دليل على أنّ الصوم عبادة قديمة[٢٥]. هذا، ومتى أطلق الصوم في كلّ

(٢٥) ويستشهد بعزرا ٢/ ٢١؛ وإشعيا ٨/ ٣؛ ويوئيل ١/ ١٤؛ ٢/ ١٢؛ وزكريا

شريعـة، فلا يُقصـد به إلاّ الامتناع عن الأكل كلّ النهـار إلى المساء، لا مجرّد إبدال طعامٍ بطعام.

(١٥)

إختلاف أهل الكتاب فيما بينهم

كان النّاسُ أمّـةً واحِدةً فَبَـعَثَ اللّهُ النّبِيِّينَ مُبَـشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ. وأنزلَ معهمُ الـكتابَ بالحقِّ، لِيَحْكُمَ بينَ النّاسِ فيـما اخْتَلَفوا فـيه. وما اختَـلَفَ فيهِ إلاّ الّـذينَ أُوتُوهُ مِنْ بعدِ مـا جاءتْهُمُ البَـيِّنَاتُ بَغْيـاً بينَهم. فهَدَى اللّهُ الّذينَ آمَنُو لِمَا اختَلَـفُوا فيهِ منَ الحقِّ بإذْنِهِ. واللّهُ يَهدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ (سورة البقرة٢/٢١٣).

الطبري :

"**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**" أي: مجتمـعة على ملّة واحدة، ودين واحد، فـاختلـفوا.. **فَـبَعَثَ اللّهُ النَّبِـيِّينَ مُـبَشِّـرِينَ ومُنْذِرِين**. وأصل "**الأمّة**" الجـماعـة تجـتمـع على دين واحد، ثـم يُكتفى بـالخبـر عن "الأمّة" من الخـبر عن "الدين"، لدلالتـها عليـه، كما قـال جلّ ثناؤه: "ولو شاء اللّه لجعلكم أمّـة واحدةً" (٥/٤٨) يُراد به: أهل دين واحد وملّة واحدة.

وقال آخـرون: كان آدم على الحقّ، إمـاماً لذرّيتـه، فبـعث اللّه النّبيّين في ولده. ووجّهوا مـعنى "الأمّة" إلى الطاعة للّه، والدعاء إلى

٨/١٩؛ ومتى ٦/١٧-١٨؛ و١٧/٢١؛ ٤/٢؛ و٢ قور ٦/٤-٥؛ ١١/٢٧..

توحيده واتّبـاع أمره، من قوله: "إنّ إبراهيم كان أمّةً قانتـاً للّه حنيفاً. ولمْ يَكُ منَ المشـركينَ" (١٦/ ١٢٠)، يعني بقـوله: "أمّـة"، إمامـاً في الخير يُقتدى به ويُتَّبع عليه.

"**الكتاب**" أي: التوراة، التي أنزلَتْ على اليـهود، "**بالحق**"، أي: بالصدق والاستقامة، لأنّ الكتابَ نفسَه، هو الذي "**يَحكم بين النّاس**"، دون النّبيين والمرسلين، إذْ كان منْ حُكمٍ من النّبيّين والمرسلين، إنّما هو حكم بما دلّهم عليه الكتاب الذي أنزله اللّه.

"**وما اختلف فيه**"، أي ما اختلف في الكتاب الذي أنزله، وهو التوراة، "**إلاّ الّذينَ أُوتُوه**"، يعني بذلك اليهود من بني إسرائيل، وهم الذين أوتوا التوراة والعلم بها.

"**من بعد ما جاءتهم البيّنات**"، يعني بذلك: من بعد ما جاءتهم حجج اللّه وأدلّته أنّ الكتـاب الذي اختلفوا فـيه وفي أحكامـه من عند اللّه، وأنّه الحق الذي لا يسعـهم الاختلاف فـيه، ولا العمل بخـلاف ما فيه..

وما أتوه من معصية ارتكبوهـا إنّما كان "**بغياً بينهم**"، أي: طغياناً واعتداءً وتجاوزاً للحدّ، وطلباً للرئاسة من بعضهم على بعض، وطلباً لملك الدنيا وزخرفها وزينتها..

وكان ممّا اختلفوا فيه أيضاً، ما قال ابن زيد في قوله: "**فهدَى اللّهُ الّذينَ آمنوا**" للإسلام.

واختلـفوا في الصـلاة. فـمنهم مَن يصلّي إلى بيت المقـدس، فهدانا اللّه للقبلة. واختلفـوا في الصيام. فمنهم مَن يصوم بعض يوم، وبعضهم بعض ليلة، فهدانا اللّه له. واختلفوا في يوم الجمعة، فأخذت

اليهود السبتَ، وأخذت النصارى الأحد، فهدانا اللّه له. واختلفوا في إبراهيم، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، فبرّأه اللّه من ذلك،وجعله حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين للذين يدَّعونه من أهل الشرك. واختلفوا في عيسى، فجعلته اليهود لِفَرْية، وجعلته النصارى ربّاً، فهدانا اللّه للحقّ فيه.

فهذا الذي قال جلّ ثناؤه: "**فهدى اللّهُ الذين آمنوا لِما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه**"، أي: بعلمه.. عن أبي هريرة قال: قال النّبي: "نحن الآخِرون الأوّلون يوم القيامة. نحن أوّل الناس دخولاً الجنّة. بيد أنّهم أُوتوا الكتابَ من قَبلِنا، وأوتيناه من بعدهم. فهدانا اللّه لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه. فهذا اليوم الذي هدانا اللّه له. والناس لنا فيه تبّع. غداً لليهود، وبعد غد للنصارى".

واللّهُ يَهدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ. أي: واللّه يسدّد مَن يشاء من خلقه، ويرشده إلى الطريق القويم على الحقّ الذي لا اعوجاج فيه، كما هدى الذين آمنوا بمحمّد لمّا اختلف الذين أوتوا الكتاب فيه بغياً بينهم، فسدّدهم لإصابة الحقّ والصواب فيه.

الرازي:

"**الأمّة**": القوم المجتمعون على الشيء الواحد يقتدي بعضهم ببعض، وهو مأخوذ من الائتمام.

"**وما اختلف فيه إلاّ الذين أُوتُوه**"، أي: وما اختلفوا في الحقّ إلاّ الذين أوتوا الكتاب. المراد بهؤلاء: اليهود والنصارى[٢٦]. واللّه

---

(٢٦) الطبري نفسه لم يذكر أنّ النصارى مقصودون في هذا النصّ.

تعالى، كثيراً ما يذكـرهم في القرآن بهذا اللّفظ، كقوله: "وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم" (٥/ ٥)؛ وقوله: "قـل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم" (٣/ ٦٤).

أبو حيّان الأندلسي:

"**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الّذينَ أُوتُوه**"، أي: أهو الدين؟ أم محمّد؟ أم دينه؟ أم هما؟ أم كتابه؟.. قيل: وما اختلف في الكتاب إلاّ الذين أوتوه، أي: أوتوا الكتاب.. وقيل: وما اختلف في النّبي الاّ الذين أوتوه، أي: أوتوا علم نبوّته.. وقيل: وما اختلفوا فيه مِن حكْم التوراة والقِبلة وغيرهما.. وقيل: عيسى.. وقيل: الدين..

وبالجملة: إنّ الذين اختلفوا فيه مفهومه كلّ شيء اختلفوا فيه.

والأحسن أن يُحمَل المختلف فيه، هنا، على **الدين والإسلام**. ويدلّ عليه قراءة عبداللّه "لمّا اختلفوا فيه من الإسلام". وقد حُمل هذا المختلَف فيه على غير هذا. وفي تعيينه خلاف:

أهو **الجمعة** جعلها اليهود السبت، والنصارى الأحد، وكانت فُرضتْ عليهم كما فرضت علينا..

أو **الصلاة**، فمنهم من يصلّي إلى المشرق، ومنهم من يصلي إلى المغرب، فهدى اللّه المؤمنين إلى القبلة..

أو **إبراهيم**، قالت النصارى: كان نصرانيّا؛ قالت اليهود: كان يهوديّاً. فهدى اللّه المؤمنين لدينه..

أو **عيسى**، جعلته اليهود لعنةً؛ وجعلته النصارى إلهاً، فهدانا اللّه لقول الحقّ فيه[٢٧]...

---

(٢٧) لا شأن لعيسى في ما اختلف فيه اليهود في هذه الآيات.

أو **الكتب** التي آمنوا ببعضها، وكفروا ببعضها،
أو **الصيام** اختلفوا فيه، فهدانا اللّه لشهر رمضان...
فهذه ستة أقوال.

«وقال الفرّاء: في الكلام قلب. وتقديره: فهدى اللّه الذين آمنوا للحق ممّا اختلفوا فيه. قال ابن عطيّة: ودعاه إلى هذا التقدير خوف أن يحتمل اللّفظ أنّهم اختلفوا في الحق، فهدى اللّه المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه.

وفي الختام، إنّ اللّه أنزل الكتابَ، أي: التوراة والإنجيل ليكونا حَكَماً بين النّاس، أي: بين اليهود والنصاري. ولكنّ الناس اختلفوا فيما بينهم على ما في التوراة والإنجيل. فأنزل اللّه عليهم القرآن، ليدلّهم على ما اختلفوا فيه، ويهديهم إلى الحقّ. ولكنّ بعضاً منهم آمن وبعضاً كفر. فهدى مَن آمن إلى صراط مستقيم، وهم الذين ارتضوا بالإسلام ديناً[٢٨].

(١٦)

عيسى والبيّنات والروح القدس واختلاف النصارى

تلكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بعْضَهم على بَعضٍ. منهمْ مَن كلّمَ اللّهُ ورَفَعَ بعضَهم دَرَجاتٍ. وآتَينا عيسَى ابنَ مريَمَ البيِّنَاتِ. وأيَّدْناهُ بروحِ القُدُسِ. ولو شاءَ اللّهُ ما اقْتَتَلَ الذينَ مِنْ بَعْدِهم من بعدِ ما جاءَتْهُمُ

---

(٢٨) إنّ النصّ لا يوحي اختلافَ اليهود والنصارى؛ لأنّ «الإسلام» هو دين النبيّين السابقين جميعهم؛ وبالتالي هو «النصرانيّة» نفسها، كما رأينا مراراً.

البيِّنَاتُ. وَلَكِنِ اخــتَلَفوا. فَمِنْهم مَن آمَنَ. ومنهُمْ مَن كَفَــر. ولو شاء اللّهُ ما اقْتَتَلُوا. وَلَكِنَّ اللّهَ يَفعَلُ ما يُرِيدُ (سورة البقرة ٢/٢٥٣).

الطبري:

" **وآتَينا عيسَى ابنَ مريَمَ البيِّنَاتِ** " ، أي: وآتينا عيسى بن مريم الحجج والأدلّة على نبـوّته من إبراء الأكمه والأبرص وإحـياء الموتى، وما أشــبه ذلك، مع الإنجيل الذي أنزلتُــه إليه، فبــيّنتُ فيه مــا فرضتُ عليه.. ويعني تعالى ذكره بقوله: " **وأيَّدْناهُ**، أي: وقوّيناه وأعنّاه، **بروحِ القُدُسِ** يعني: بروح اللّه، وهو جبريل. وقــد ذكرنا اختلافَ أهلِ العلم في معنى روح القدس..

الرازي:

سؤال: لِمَ خصّ موسى وعيسى من بــين الأنبياء بالذكر؟ وهل يدلّ ذلك على أنّهما أفضل من غيرهما؟

الجواب: سبــب التخــصيص أنّ معــجزاتهــما أبرّ وأقــوى من معــجزات غيــرهما. وأيضــاً فأمّتــهما مــوجودون حــاضرون في هذا الزمان، وأمم سائر الأنبــياء ليسوا موجودين. فــتخصيصهــما بالذكر تنبــيه على الطعــن في أمّتــهمــا، كأنّــه قيل: هذان الرســولان، مع علوّ درجتهما وكثرة معجزاتهما، لم يحصل الانقياد من أمّتهما، بل نازعوا وخالفوا، وأعرضوا عن طاعتهما.

سؤال: تخــصيص عــيسى ابن مــريم بإيتاء البــيّنات يدلّ، أو يوهم، أنّ إيتاء البيّنات ما حصل فــي غيره. ومعلوم أنّ بيّنات موسى كانت أقوى من بيّنات عيسى.

الجواب: ألمقصــود منه التنبيــه على قبح أفعــال اليهــود، حيث أنكروا نبوّة عيسى مع ما ظهر على يديه من البيّنات اللأئحة.

(١٧)

أمثال إنجيليّة

٢/ ٢٦١. مَثَلُ الّذينَ يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ في سـبيل اللّه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، في كلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّةٍ. واللّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يشاءُ. واللّهُ واسِعٌ عَليم .

(هذه الآية مردودة إلى قوله: "مَن ذا الّذي يُقـرِضُ اللّهَ قَرضاً حسَـنًا فَيُـضاعِـفَه له أضـعافًـا كثـيرةً. واللّهُ يَقـبِضُ ويَبْسُطُ وإليـهِ تُرجَعُونَ" (٢/ ٢٤٥).

٢/ ٢٦٢. الّذينَ يُنْفِقُـونَ أمْوالَهُمْ في سبيلِ اللّهِ، ثُمّ لا يُتْـبِعُونَ ما أنْفَقُوا مَنّاً ولا أذًى، لَهُمْ أجـرُهُمْ عندَ ربِّهِمْ، ولا خَوفٌ عليهمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ.

يعني بذلك: ألمعطي ماله المجـاهدين في سبيل اللّه مـعونة لهم على جـهـاد أعداء اللّه. أي: ألذيـن يعينون المجـاهدين في سـبـيل اللّه بالإنفاق عـليهم وفي حمـولاتهم، وغيـر ذلك من مؤنهم، ثمّ لم يـتبعْ نفقـته التي أنفقـها عليـهم مَنّاً عليهم بإنفاق ذلك عـليهم ولا أذى لهم؛ فامتنانه بـه عليهم بأن يظهر لهم أنّه قد اصطنع إليـهم بفعله، وعطائه الذي أعطاهموه، تقوية لهم على جهاد عدوّهـم معروفاً، ويبدي ذلك إمّا بلسـان أو فعل. وعن الضحّاك قـال: أنْ لا ينفق الرجل ماله خيرٌ من أن ينفقه ثم يتبعه منّا وأذىً.

٢/ ٢٦٣. قَولٌ معروفٌ ومغفِرَةٌ خيرٌ من صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أذًى. واللّهُ غنيٌّ حليمٌ .

(أي قولٌ جميلٌ وستر منه عليه لما علم من خلّته وسوء حالته خيرٌ عند اللّه من صدقة يتصدّقها عليه يشتكيه عليها ويؤذيه بسببها. واللّه، يستغني عن مثل هذه الصدقة التي يؤذي بها المتصدِّق عليه.

٢/ ٢٦٤. يا أيّها الّذينَ آمَنوا! لا تُبْطِلوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ والأذَى، كالّذي يُنْفِقُ مالَهُ رئاءَ النّاسِ، ولا يُؤْمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ. فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عليهِ تُرابٌ، فأصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً، لا يَقْدِرونَ على شيءٍ ممّا كَسَبوا. واللّهُ لا يَهدي القومَ الكافِرينَ.

يا أيّها الّذينَ آمَنوا! (أي: صدّقوا اللّهَ ورسولَه)، **لا تُبْطِلوا** (أجورَ) **صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ والأذَى كـ**(ما أبطل كفرُ)[29] **الّذي يُنْفِقُ مالَهُ رئاءَ النّاسِ**[30]، (وذلك أن ينفق ماله فيما يرى الناس في الظاهر أنّه يريد اللّه فيحمدونه عليه وهو مريد به غير اللّه. والنّاس لا يدرون ما هو عليه من التكذيب باللّه واليوم الآخر. لذلك زاد في قوله): **ولا يُؤْمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ.**

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ (أي: حجارة ملس)، **عليهِ تُرابٌ، فأصابَهُ وابِلٌ** (وهو المطر الشديد)، **فَتَرَكَهُ صَلْداً** (أي: صلباً لا شيء عليه من نبات ولا غيره)، **لا يَقْدِرونَ** (يومَ القيامة) **على** (ثواب) **شيءٍ ممّا كَسَبوا**(في الدنيا؛ لأنّهم لم يعملوا لمَعَادهم، ولكنّهم عملوه رئاء الناس وطلب حمدهم)[31]. **واللّهُ لا يَهدي القومَ الكافِرينَ** (أي: لا يسدّدهم لإصابة الحقّ في نفقاتهم.. ولكنّه تركهم في ضلالتهم يعمهون).

---

(٢٩) مقاربة بين هذه الآية وكلام القديس بولس في ٢ قور ٩/ ٧.

(٣٠) مقاربة مع إدانة يسوع لمَن يعمل صدقة ليراه الناس (متّى ٦/ ٢ و٥).

(٣١) قارن مع متّى ١٣/ ١-٢٣؛ ومرقس ٤/ ١-٢٠؛ ولوقا ٨/ ٤-١٥، حيث الكلام على الأرض الجيّدة والأرض الخبيثة.

٢/ ٢٦٥. ومَثَلُ الذينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللّهِ، وتَثْبيتاً منْ أنْفُسِهِمْ، كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصابَهَا وابِلٌ فآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ. فإنْ لم يُصِبْهَا وابِلٌ فَطَلٌّ. واللّهُ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ.

ومَثَلُ الّذينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُم (فيتصدّقون بها في سبيل اللّه، أي): **ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللّهِ، وَتَثْبِيتاً منْ أنْفُسِهِمْ** (أي: وتثبيتاً لهم على إنفاق ذلك في طاعة اللّه وتحقيقاً)، **كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ** (أي: ما ارتفع من الأرض)، **أصابَهَا وابِلٌ** (من المطر الشديد)، **فآتَتْ أُكُلَهَا** (أي: الشيء المأكول منها) **ضِعْفَيْنِ. فإنْ لم يُصِبْهَا وابِلٌ فَطَلٌّ** (وهو الندى واللّين من المطر، أو طشٌّ، أو رذاذ. والمعنى: فإنْ أخطأ هذا الوابل فالطلّ كذلك يضعف اللّه صدقة المتصدّق والمنفق ماله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من نفسه من غير مَنٍّ ولا أذىً)[٣٢]. **واللّهُ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ.**

٢/ ٢٧١. إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هيَ. وإنْ تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خيرٌ لكُمْ. ويُكَفِّرُ عَنْكمْ من سَيِّآتِكُمْ. واللّهُ بما تَعمَلونَ خبيرٌ.

إنْ تُبْدُوا (أي: تعطوا) **الصَّدَقَاتِ** (فتعطوها مَن تصدّقتم بها عليه)، **فَنِعِمَّا هيَ. وإنْ تُخْفُوهَا** (أي: تستروها فلم تعلنوها) **وتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ** (في السرّ)، **فَهُوَ خيرٌ لكُمْ.** (عن ابن عبّاس قال: قال رسول اللّه: جعل اللّه صدقة السرّ في التطوّع تفضل علانيّتَها بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيّتها أفضل من سرّها يقال بخمسة وعشرين ضعفاً) **ويُكَفِّرُ عَنْكمْ من سَيِّآتِكُمْ. واللّهُ بما تَعمَلونَ خبيرٌ.**

---

(٣٢) ثمّة مقاربة بين هذه الآية وبين إنجيل متّى ١٣/ ٤...؛ وإنجيل مرقس ٤/ ٣..

٢/ ٢٧٢. ليسَ عليكَ هُداهُمْ. ولـكنَّ اللّهَ يَهْدي مَـنْ يشاءُ. ومـا تُنْفِقُوا من خيرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ. وما تُنْفِقُونَ إلاَّ ابتِغَاءَ وَجْهِ اللّهِ. وما تُنْفِقُوا من خيرٍ يُوَفَّ إليكُمْ. وأنتُمْ لا تَظْلِمونَ.

ليسَ عليكَ (يا محـمّد) **هُداهُمْ** (هدى المشركـين إلى الإسلام، فتمنعهم صدقة التطوّع، ولا تعطيـهم منها ليدخلوا في الإسلام حاجة منهم إليـهـا)؛ **ولكنَّ اللّهَ يَهْـدي مَنْ يشـاءُ** (من خلقـه إلى الإسـلام فيوفّقهم له. فلا تمنعهم الصدقة). **وما تُنْفِقُوا من خيرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ** (أي: هو مردود عليك)؛ **وما تُنْفِقُونَ إلاَّ ابـتِغَاءَ وَجْهِ اللّهِ** (وهو من أجل نيل مرضاة اللّه)؛ **وما تُنْفِقُـوا من خيرٍ يُوَفَّ إليكُمْ** (أي: إنّ اللّه يجزيك). **وأنتُمْ لا تَظْلِمونَ.** (أي: ما لك ولهذا تؤذبه وتمنّ عليه!).

٢/ ٢٧٣. للفُقَراءِ الّذينَ أُحْصِرُوا في سَـبيلِ اللّهِ لا يَستَطيعُونَ ضَـرْباً في الأرْضِ. يَحْسَـبُهُمُ الجـاهِلُ أغْنيـاءَ من التَّعَـفُّفِ، تَعْرِفُـهُمْ بِسيمَـاهُمْ. لا يَسْألُونَ النّاسَ إلْحافـاً. وما تُنْفِقُوا من خيـرٍ فإنَّ اللّهَ بهِ عليمٌ.

للفُقَراءِ (أي: وما تُنفقـوا من خير فلأنفـسكم وللفقراء) **الّذينَ أُحْصِرُوا في سَبيلِ اللّهِ** (وهم فقراء المهاجرين الذين حـبسوا أنفسَهم عن التـصـرّف والـكسب، وحـصـروها في سـبـيل الـلّه للغـزو). **لا يَستَـطيعُونَ ضَـرْباً في الأرْضِ** (أي تقلّبـاً وسفراً فـي البلاد ابتـغاء المعاش وطلب المكاسب).

يَحْسَبُـهُمُ الجاهِلُ (بأمرهم وحالهم) **أغْنياءَ من التَّعَفُّفِ** (أي: من تعفّـفهم عن المسـألة وتركهم التـعرّض لما في أيدي الناس صـبراً منهم على البأسـاء والضرّاء)، **تَعْرِفُـهُمْ بِسيـمَاهُمْ** (أي: بعلامـتهم وآثارهم، من قـول اللّه: "سِيـماهُمْ في وُجُـوهِهمْ مِنْ أثَرِ السُّـجودِ"

(٤٨/ ٢٩)، **لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً** »(أي: إلحاحاً). **وما تُنْفِقُوا من خيرٍ فإنَّ اللّهَ بهِ عليمٌ** (فمجازٍ عيه).

٢/ ٢٧٤. الَّذينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ باللَّيلِ والنَّهارِ، سِرّاً وعلانيةً، فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ. ولا خوفٌ عليهمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ.

(١٨)

يفرِّق اليهودُ والنصارى بين الرّسل، أمّا المسلمون فلا

آمَنَ الرّسولُ بما أُنْزِلَ إليهِ من ربِّه. والمؤمنونَ كُلٌّ آمَنَ باللّه، وملائكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ. لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ من رُسُلِهِ. وقالوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا. غُفرانَكَ ربَّنا. وإليكَ المصيرُ (سورة البقرة ٢/ ٢٨٥).

الطبري:

ألكلّ يقرّون أنّ ما جاؤوا به كان من عند اللّه، وأنّهم دَعَوا إلى اللّه وإلى طاعته؛ ويخالفون في فعلهم ذلك اليهودَ الذين أقرّوا بموسى وكذّبوا بعيسى، والنصارى الذين أقرّوا بموسى وعيسى وكذّبوا بمحمّد، وجحدوا نبوّته، ومَن أشبههم من الأمم الذين كذّبوا بعضَ رسل اللّه وأقرّوا ببعضهم.

الرازي:

لا نفرّق.. هذا لا ينافي كونهم مفرِّقين بين بعض الرسل. والمقصود بالنفي هو هذا، لأنّ اليهود والنصارى ما كانوا يفرّقون بين كلّ الرسل، بل بين البعض، وهو محمّد.. معنى الآية: لا نفرّق بين أحد من الرسل، وبين غيره في النبوّة.

(١٩)

القرآن مصدِّق التوراة والإنجيل

نزَّلَ عليكَ الكتابَ بالحقِّ، مُصَدِّقاً لِما بينَ يدَيه. وأنزَلَ التَّوراةَ والإنجيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً للنّاس. وأنزَلَ الفُرقانَ. إنّ الّذينَ كَفَروا بآياتِ اللّهِ لَهُمْ عذابٌ شديدٌ. واللّهُ عزيزٌ ذو انتقامٍ (س. آل عمران ٣/٣-٤).

الطبري:

يقول جلّ ثناؤه: يا محمّد! إنّ ربَّكَ وربَّ عيسى وربَّ كلِّ شيء، هو الربّ الذي **نزَّلَ عليكَ الكتابَ**، يعني: القرآن،

بالحقِّ يعني: بالصدق فيما اختلف فيه أهلُ التوراة والإنجيل، وفيما خالفك فيه محاجّوكَ من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم.

مُصَدِّقاً لما بَينَ يَدَيه يعني بذلك: القرآن، إنّه مصدّق لما كان قبله من كتب اللّه التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقّق ما جاءت به رسل اللّه من عنده؛ لأنّ منزّل جميع ذلك واحد، فلا يكون فيه اختلاف. ولو كان من عند غيره كان فيه اختلاف كثير..

" **وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ** " يعني: أنزل الفصْلَ بين الحقّ والباطل فيما اختلفتْ فيه الأحزابُ وأهلُ الملل في أمر عيسى وغيره...، أو في أمر عيسى والأحزاب...، أو في أحكام الشرائع...، أو في الأحكام وشرائع الإسلام... والفُرقان إنّما هو " الفعلان " من قولهم: " فرّق اللّه بين الحقّ والباطل " ، فصلَ بينهما بنصرة الحقِّ على الباطل، إمّا بالحجّة البالغة، وإمّا بالقهر والغلبة بالأيْدِ والقوّة.

ألفـرقـان هو القرآن، أنـزله على مـحمّـد، وفـرّق به بين الحقّ والباطل، فـأحلّ فيه حلالَه، وحـرّم فيه حرامَـه، وشرّع فيه شـرائعه، وحدّ فيه حدودَه، وفرض فيه فـرائضه، وبيّن فيه بيانه، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته.

ألقول في تأويل قوله: "**إنّ الّذينَ كَفَـرُوا بآياتِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ. واللهُ عزيزٌ ذو انتقَامٍ**"، يعني بذلك: إنّ الذين جحدوا أعلامَ اللّه وأدلّته على توحيده وألوهته، وأنّ عيـسى عبد له، واتّخذوا المسيح إلهاً وربّاً، أو ادّعوه للّه ولداً، لهم عذاب من اللّه شديد يومَ القيامة.

ألرازي:

"**نَزَّلَ**".. خصّ القـرآن بالتنزيل، والتوراة والإنجـيل بالإنزال؛ لأنّ التنزيل للتكثيـر، واللّه تعالى نزّل القرآن نجماً نجـماً، فكان معنى التكثير حاصـلاً فيه؛ وأمّا التوراة والإنجيل فإنّه تعالى أنزلهـما دفعة واحدة. فلهذا خصّهما بالإنزال.

"**إنّ الّذينَ كَـفَروا بآياتِ اللهِ لَهُمْ عـذابٌ شديدٌ. واللهُ عـزيزٌ ذو انتقَامٍ**". بعض المفسّرين خصّص ذلك بالنصـارى، فقصّر اللّفظَ العام على سبب نزوله. والمحقّقون من المفـسّرين قالوا: خصوص السبب لا يمنع عموم اللّفظ. فهو يتناول كلّ من أعرض عن دلائل اللّه تعالى.

ألخازن:

ألفرقان، أي القرآن، لكونه فارقاً بين الحـقّ والباطل. وقيل إنّما أعاد ذكره ليـبيّن أنّه تعالى أنزله بعـد التوراة والإنجيل ليجـعلَه فارقاً بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى في أمر عيسى...

قال السدي: في الآية تقديم وتأخير. تقديره: وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس.

"**إنَّ الَّذينَ كَفَروا بآياتِ اللّهِ**" يعني: الكتب المنزلة وغيرها. وقيل: أراد بهم نصارى وفْد نجران كفروا بالقرآن وبمحمّد.

أبو حيّان الأندلسي:

"**بالحق**"، أي بالعدل فيما استحقّ عليك من حمل أثقال النبوّة؛ وبالعدل فيما اختلف فيه. وقيل "بالصدق" فيما اختلف فيه؛ وبالصدق فيما تضمّنه من الأخبار عن القرون الخالية؛ وبالصدق فيما تضمّنه من الوعد بالثواب على الطاعة ومن الوعيد بالعقاب على المعصية. وقيل: بالحقّ، أي: بالحجج والبراهين القاطعة.

"**الفرقان**"، أي القرآن فرّق بين الحقّ والباطل في أمر عيسى، الذي جادل فيه الوفد. وقيل: في أحكام الشرائع، وفي الحلال والحرام ونحوه. وقيل: كلّ أمر فرّق بين الحق والباطل فيما قدم وحدث. وقيل: الفرقان النصر. وقيل: المعجزات التي قرنها اللّه بإنزال هذه الكتب لأنّها تفرّق بين دعوى الصادق والكاذب. وقيل: فرّق بين الحقّ والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب وأهل الملل. وقيل: الفرقان هنا الأحكام التي بيّنها اللّه ليفرّق بها بين الحقّ والباطل.

"**إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**" هم نصارى وفد نجران، أي: كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وابن أخطب وغيرهم.

محمّد عبدو:

"**الفرقان**" مصدر كالغفران. وهو، هنا، ما يفرّق ويفصل به بين الحق والباطل. قال بعضهم: المراد به القرآن. وهو مردود، بقوله

في أوّل الآية: "نزّل عليك الكتاب". وقال غيرهم: هو كلّ ما يفرّق به بين الحق والباطل في كلّ أمر، كالدلائل والبراهين.. وقيل: هو خاص ببيان الحقّ في أمر عيسى.

وقال الإستاذ الإمام: إنّ الفرقان هو العقل الذي به تكون التفرقة بين الحقّ والباطل.. فإنّ العقل هو آلة التفرقة. ويؤيّد ذلك قوله تعالى في سورة الشورى: "أللّه الذي أنزل الكتابَ بالحقّ والميزان" (٤٢/١٧). وقد فسّروا الميزان بالعدل.

فاللّه قرن بالكتاب أمرين: أحدهما: الفرقان، وهو ما نعرف به الحق في العقائد فنفرّقه من الباطل؛ وثانيهما: ألميزان، وهو ما نعرف به الحقوق في الأحكام، فنعدل بين الناس فيها. وكلّ من العقل والعدل من الأمور الثابتة في نفسها. فكل ما قام عليه البرهان العقلي في العقائد وغيرها فهو حقّ منزل من اللّه؛ وكلّ ما قام به العدل فهو حكم منزل من اللّه، وإنْ لم ينصّ عليه في الكتاب. فإنّه تعالى، هو المنزل، أي المعطي للعقل والعدل، أو الفرقان والميزان، كما أنّه سبحانه هو المنزل، أي المعطي للكتاب. ولسنا نستغني بشيء من مواهبه المنزلة عن اخر.

سيّد قطب:

"**إنّ الّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ اللّهِ**". يقول: الذين كفروا بآيات اللّه هم الذين كذّبوا بهذا الدين الواحد بإطلاقه.. وأهل الكتاب الذين انحرفوا عن كتاب اللّه الصحيح المنزل إليهم من قبل، فقادهم هذا الانحراف إلى التكذيب بالكتاب الجديد -وهو فرقان واضح مبين- هم أوّل المعنيّين هنا بصفة الكفر. وهم أوّل مَن يتوجّه إليهم التهديد الرعيب بعذاب اللّه الشديد وانتقامه الأكيد.

(٢٠)

"إنَّ الدِّينَ عندَ اللّهِ الإسْلامُ"

إنَّ الدِّينَ عندَ اللّهِ الإسْلامُ. وَمَا اختَلَفَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إلاّ مِنْ بعْدِ ما جَاءَهم العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ. وَمَن يكْفُرْ بآياتِ اللّهِ فإنَّ اللّهَ سريعُ الحِسابِ. فإنْ حاجُّوكَ فَقُلْ: أسلَمتُ وجهيَ للّهِ ومَنِ اتَّبَعَنِ. وقُلْ للّذينَ أُوتُوا الكتابَ والأُمِّيِّين: أأسلَمْتُمْ؟ فإنْ أسلَموا فقدِ اهتَدَوا. وإنْ تَوَلّوا فإنّما عليكَ البلاغُ. واللّهُ بصيرٌ بالعباد(عمران ٣/١٩-٢٠)

الطبري:

"**الدِّين**"، في هذا الموضع، ألطاعة والذلّة.. ويعني بذلك: مطيعين على وجه الذلّ.. وكذلك "**الإسْلام**"، وهو الانقياد بالتذلّل والخشوع. والفعل منه: أسلم بمعنى: دخل في السلم، كما يقال: "أقحَطَ القوم"، إذا دخلوا في القحط، و"أربعوا"، إذا دخلوا في الربيع. فكذلك "أسلموا"، إذا دخلوا في السلم، وهو الانقياد بالخضوع وترْك الممانعة.

عن قتادة قال: والإسلام: شهادة أنْ لا إله إلاّ اللّه، والإقرار بما جاء به رسولُ اللّه من عند اللّه، وهو دين اللّه الذي شرع لنفسه، وبعث به رسلَه، ودلّ عليه أولياءَه، لا يُقبل غيره، ولا يُجزى إلاّ به.

عن أبي العالية قال: ألإسلام الإخلاص للّه وحده، وعبادته لا شريك له، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزّكاة، وسائر الفرائض لهذا تبعٌ.

عن ابن زيد قال: "أسْلمنا" (٤٩/١٤): دخلنا في السلم وتركنا الحرب.

فـإنْ كـان ذلك كـذلك، فــتــأويل قـوله: "**إنَّ الدِّينَ عندَ اللَّهِ الإسْلامُ**": إنّ الطاعة التي هي الطاعة عـنده، الطاعةُ له، وإقرار الألسن والقلوب له بالعبـوديّة والذلّة، وانقيادُها له بالـطاعة فيمـا أمر ونهى، وتذلُّلها له بذلك، من غير استكبار عليه، ولا انحراف عنه، دون إشراك غيره من خلقِه معه في العبوديّة والألوهة.

"**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ**"، أي: وما اختلف الذين أوتوا الإنجيل في أمر عيسى، وافترائهم على اللّه فـيما قالوه فيه من الأقوال التي كثر بها اختلافهم بينهم، وتشتّتتْ بها كلمتُهم، وباين بها بعضُهم بعضاً حتّى استحلّ بها بعضُهم دماءَ بعض.

"**إلاَّ مِنْ بعْـدِ مَا جَـاءَهم العِلْمُ**"، يعني: إلاّ من بعـد ما علمـوا الحقّ فيـما اختلفوا فـيه من أمره، وأيقنوا أنّهم فـيما يقولون فـيه من عظيم الفِرية مبطلون.

"**بَغْياً بَينَهُم**"، أي بغيـاً على الدنيا، طلباً لسلطانهـا، وملكها، وخزائنهـا، وزخرفتهـا، فقتل بعضُـهم بعضاً على الدنيا، من بـعد ما كـانوا علماء الناس. واخـتلف أهل التـأويل في مَن هم الذين اختلفـوا ممّن أوتوا الكتـاب، فـقـال بعضـهم: اليـهـود من بني إسـرائيل دون النصارى. وقال آخرون: ألنصارى الذين أوتوا الإنجيل.

"**فإنْ حَاجُّوكَ**" يعني بذلك: فإنّ حاجّك، يا مـحمّد، النفر من نصارى أهل نجران في أمـر عيسى، فخـاصموك فيه بالـباطل، فقلْ: انقدتُ للّه وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي.

"**فقلْ أسلمـتُ وجهي للّه**"، لأنّ الوجه أكـرم جوارح ابن آدم عليه، وفيه بهاؤه وتعظيمه. فإذا خضع وجهه خضع له ما هو دونه.

" **وَمَنِ اتَّبَعَنِ** " يعني: وأسلم مَن اتبعني أيضاً وجهُه للّه معي. " **وَمَن** " معطوف بها على " التاء " في " **أَسْلَمْتُ** " ..

" **وقل** " يا محمّد، " **لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب** " من اليهود والنصارى، " **والأُمِّيِّينَ** " الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب: " **أَأَسْلَمْتُمْ؟** " أي: هل أفردتم التوحيد، وأخلصتم العبادة والألوهة لربّ العالمين، دون سائر الأنداد والأشراك التي تشركونها معه في عبادتكم إيّاهم وإقراركم بربوبيّتهم، وأنتم تعلمون أنّه لا ربّ غيره ولا إله سواه. " **فإِنْ أَسْلَمُوا** " ، أي: فإن انقادوا لإفراد الوحدانيّة للّه وإخلاص العبادة والألوهيّة له، " **فَقَدِ اهْتَدَوا** " يعني: فقد أصابوا سبيل الحقّ.

الرّازي:

" **بَغْياً** " . قال الأخفش: وما اختلفوا بَغياً بينهم إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم. وقال غيره: ألمعنى: وما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم إلاّ للبغي بينهم، فيكون هذا إخباراً عن أنّهم إنّما اختلفوا للبغي. وقال القفال: وهذا أجود من الأوّل، لأنّ الأوّل يوهم أنّهم اختلفوا بسبب ما جاءهم من العلم، والثاني يفيد أنّهم إنّما اختلفوا لأجل الحسد والبغي.

" **أَسْلَمْتُ وَجْهِي للّه** " . قال الفراء: أي أخلصتُ عملي للّه. يقال: أسلمتُ الشيءَ لفلان أي أخلصتُه له، ولم يشاركْه غيرَه.. أو أيضاً: أسلمت نفسي للّه وليس في العبادة مقام أعلى من إسلام النفس للّه فيصير كأنه موقوف على عبادته، عادل عمّا سواه.

ألقرطبي:

قال: في الكلام تقديم وتأخير. والمعنى: وما اختلف الذين

أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلاّ من بعــد ما جاءهم العلم. وقال ابن الزبير: ألمراد بهــذه الآية النصارى. وهو توبيخ لنصــارى نجران. وقــيل: أي " **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِين أُوتُوا الكتابَ** " في أمر عــيسى وفرّقوا فيــه القول " **إلاَّ مِنْ بَعدِ مَا جَاءَهُمُ العِلمُ** " بأنّ اللّه إله واحد، وأنّ عيسى عبد اللّه.

" **وقُلْ للّذينَ أُوتُوا الكتابَ والأُمِّيّين: أأسْلَمْتُمْ؟ فَــإنْ أسْلَمُوا فقدِ اهتَدَوا** "، يعني اليــهود والنصارى والأمــيّين الذين لا كتــاب لهم وهم مشركو العرب.

محمّد عبده:

" **وَمَا اختَلَفَ الّذينَ أُوتوا الكتابَ** " .. إنّها عامّــة لا تخصّ فريقاً دون آخر. وهي بيان لسبب خــروج أهل الكتاب عن الإسلام الذي جاء به أنبياؤهم.. فصاروا مذاهب وشيعاً يقتتلون في الدين، والدين واحد لا تفرّق فيه، ولا مثار للاخــتلاف. وهذا السبب هو "البَغْي" وتجاوز الحدود من الرؤساء.. فلولا بغْي رؤســاء الدين والدين ونصر مذهب على مذاهــب لما تعصّب لكلّ مــذهب يشتقّ من الدين شــيعة تــنصره، وتؤيّده في كلّ مسألة، وتقاوم كلّ من يقاومــه، وتضللهم متوكئة على علْم الدين، ومستندة إلى نصــوصه بتفسير بعــضها بالرأي والهوى، وتأويل بعضها وتحريفه، أو يوافق المذهب المنتحل.

نحن المسلمين نعتقد أن دين المسيح هو الإسلام..، وإنّ أساسه التوحــيد والتنزيه، وأنّ الرؤساء الروحيّين وغــير الروحيّين، لا سيّــما الملوك والأحــبار الرومــانيّين، هم الذين، بتفــرّقهم، جــعلوا ذلك الدين الإلهي الواحد مذاهب ينقض بعضها بعضاً، وأهله شيعاً يفتك بعضهم ببعض. وإنّه، لولا بغــيهم، لما تمزّق شمل آريوس وأتباعــه الذين دعوا إلى التوحيد والتنزيه، بعد فشو الشرك والتشبيه...

(٢١)

اليهود والنصارى قَتلة أنبياء...

إنّ الّذين يَكْفُـرُونَ بـآيَاتِ اللّهِ ويَقْـتُلُونَ النَّبِـيِّينَ بغَـيـرِ حَقٍّ، ويَقتُلونَ الّذينَ يأمُـرونَ بالقِسْطِ منَ النّاسِ، فَبَشِّـرْهُمْ بِعَذَابٍ أَليم (آل عمران ٣/٢١).

الطبري:

"**إنّ الّذينَ يَكْفُـرُونَ بآيَاتِ اللّهِ**"، أي: يجـحـدون حـجج اللّه وأعلامه فيكذبون بها، من أهل الكتابَين التوراة والإنجيل.

"**ويَقْتُلُونَ النَّبِـيِّينَ بغَيرِ حَقٍّ**" يعني بذلك: أنّهم كـانوا يقتلون رسلَ اللّه الذين كانوا يُرسَلون إلـيهم بالنهي عمّا يأتون من مـعاصي اللّه.. نحو زكريا وابنه يحيى وما أشبههما من أنبياء اللّه.

"**الّذينَ يأمُرونَ بالقِسْطِ منَ الناسِ**". عن ابن جريج قال: كان ناس من بني إسـرائيل ممّن لم يقـرأ الكتاب، كـان الوحي يأتي إليـهم فيذكّرون قومهم فيُقتلون على ذلك. فهم الذين يأمرون بالقسط.

عن ابن الجـراح أيضاً: "قلت: يـا رسول اللّه! أي الناس أشـد عذاباً يوم القـيامة؟ قال: رجل قـتل نبيّاً أو رجلاً أمـر بالمعروف ونهى عن المنكر. ثم قرأ الآية. ثم قال: "يا أبا عبيدة! قَتَلتْ بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيّاً من أوّل النهـار في ساعة واحدة. فقـام رجل واثنا عشر رجلاً من عُبّاد بني إسرائيل، فأمروا مَن قتَلَهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقُتلوا جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم، وهم الذين ذكر اللّه عزّ وجلّ".

فتأويل الآية إذاً: إنّ الّذين يكفرون بآيات اللّه ويقتلون النّبيّين بغير حقّ، ويقتلون آمريهم بالعدل في أمر اللّه ونهيه، الذين ينهونهم عن قتل أنبياء اللّه وركوب معاصيه.

أبو حيّان الأندلسي:

ألآية هي في اليهود والنصارى. قاله ابن الزبير وغيره. وصف مَن تولّى عن الإسلام وكفر بثلاث صفات: إحداها: كفرُه بآيات اللّه وهم مقرّون بالصانع. جعلَ كفرَهم ببعضٍ مثلَ كفرِهم بالجميع.. ألثانية: قتلهم الأنبياء بغير الحق (٢/ ٦١). والثالثة: قتل مَن أمر بالعدل. فهذه ثلاث أوصاف، بدئ فيها بالأعظم فالأعظم، وبما هو سبب للآخر.

ألقاسمي:

هم اليهود. قَتلوا زكريّا وابنَه يحيى عليهما السلام، وقَتلوا حزقيال عليه السلام، قتَلَه قاضٍ يهوديٌّ لمّا نهاه عن منكَر فعَلَه. وزعموا أنّهم قَتلوا عيسى ابن مريم عليهما السلام...

سيّد قطب:

قَتْلُ الأنبياء بغير حقّ، وقتلُ الذين يأمرون بالقسْط من الناس.. ذكرُ هذه الصفات يوحي بأنّ التهديد كان موجَّهاً لليهود. فهذه سمتهم في تاريخهم.. ولكنّ هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجّهاً للنصارى كذلك..

(٢٢)

ولادة مريم وعناية الله بها

إذْ قَالتِ امرَأةُ عِمْـرانَ: رَبِّ! إنِّي نَذَرْتُ لكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً. فَتَـقَبَّلْ منِّي. إنَّكَ أنتَ السَّمِـيعُ العَليمُ. فَلمَّا وَضَـعَتْهـا قَالتْ: رَبِّ! إنِّي وَضَعْـتُهـا أُنْثَى. واللّهُ أعلَمُ بما وَضَـعَتْ. وليسَ الذَّكَرُ كـالأُنْثَى. وإنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ. وإنِّي أُعيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَـهَا مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَها ربُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ. وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً. وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا. كُلَّما دَخَلَ عَليها زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا. قَالَ: يَا مَرْيَمَ! أَنَّى لَكِ هَذا؟! قَالتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ. إنَّ اللّهَ يَرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسابٍ (٣/ ٣٥-٣٧).

الطبري:

"**امرأةُ عِمْرانَ**"، هي أم مريم ابنة عمـران أم عيسى ابن مريم. كان اسمها حنّة ابنة فاقوذ، أو فـاقود، بن قبيل. زوجها "عمران" بن ياشهم بن أمون.. بن أبيًا بن رحبعم بن سليمان بن داود بن إيشا.

"**رَبِّ! إنِّي نَذَرْتُ لكَ مَا في بَطْني مُـحَرَّراً**". معناه: إنّي جعلتُ لكَ يا ربِّ نَذراً أنّ لك الذي فـي بطني مـحـرّراً لعـبادتـك. يعني بذلك: حبستُه على خدمتك وخدمة قـدسك في الكنيسة، عتيقة من خدمة كلّ شيء سواك، مفرَّغة لك خاصّة.

"**فَتَقَبَّلْ منِّي**"، أي: فتقبّل منّي ما نذرتُ لكَ يا ربّ. "**إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ**"، يعني: أنّك أنت يا رب سميع لما أقول، وعليم لما أنوي في نفسي وأريد، لا يخفى عليكَ سرُّ أمري وعلانيتُه.

عن ابن إسحق قال: كان سـببُ نذْر حنّة امرأة عمران أنْ تزوّج

زكريّا وعمران أختَين، فكانت أم يحيى عند زكريّا. وكانت أم مريم عند عمـران. فهلك عـمران وأم مريم حـامل بمريم. فهي جنين في بـطنها. قال: وكانت، فيـما يزعمون، قد أمسك عنهـا الولد حتّى أسنّتْ، وكانوا أهلَ بيتٍ من اللّه بمكـان. فبـينا هي في ظلّ شـجـرةٍ نظرتْ إلى طائرٍ يُطعم فرخـاً له، فتـحرّكتْ نفسُـها للولد؛ فدعتِ اللّـهَ أن يهبَ لها ولداً. فحملتْ بمريم، وهلك عمران. فلمّا عرفتْ أنّ في بطنها جنيناً جعلتْه للّه نذيرةً. والنذيرة أنْ تُعَبِّدَه للّه، فتجعله حَـبساً في الكنيسة. لا يُنتفع به بشـيء من أمور الدنيا.

" **فَلمّا وَضَعَتْها قَالتْ: رَبِّ! إنّي وَضَعْتُها أُنْثَى** "، فكأنّها تعتذر إلى اللّه ممّا وضعت. " **واللّهُ أعلَمُ بما وَضَعَتْ. وليسَ الذَّكَرُ كالأُنْثَى** "، لأنّ الذَّكَـر أقوى عـلى الخدمـة وأقـوم بهـا، وأنّ الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمـة الكنيسة لِما يعتريها من الحيض والنفاس.

" **وإنّي سَمَّيْـتُها مَرْيَمَ. وإنّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَـهَا مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ** "، أي: إنّي أجعل معـاذَها ومعاذَ ذرّيّتها من الـشيطان الرجيم بك. وأصل المعاذ الموئل والملجـأ والمعقل. فاسـتجاب اللّه لها، فـأعاذها اللّه وذرّيتها من الشيطان الرجيم. فلم يجعلْ له عليها سبيلاً.

عن أبي هُريرة قال: قال رسـولُ اللّه: " ما من نفسٍ مولودٍ يولد إلاّ والشيطان ينـالُ منه تلك الطعنة. وبها يسـتهلّ الصبي، إلاّ مـا كان من مريم ابنة عمران. فإنّها، لمّا وضعتْها، قالت: " **ربِّ! وإنّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّـيطانِ الرَّجِيمِ** "، فضربَ دونها حـجاب فطَعَنَ فيه ". وعنه أيضاً قال: قـال رسول اللّه: " ما من مولود يولد إلاّ وقـد عصره الشيطان عصرة أو عصرتَين إلاّ عيسى ابن مريم ومريم ".

وعن ابن منبه قال: لمّا وُلد عيسى أتتِ الشياطين إبليسَ، فقالوا: أصبحتِ الأصنامُ قد نكستْ رؤوسَها. فقال: هذا في حادثٍ حدث. فقال: مكانكم. فطار حتّى جاء خافقَي الأرض. فلمْ يجدْ شيئاً. ثمّ جاء البحار. فلم يجد شيئاً. ثمّ طار أيضاً، فوجد عيسى قد وُلِدَ عند مذودِ حمار. وإذا الملائكة قد حفتْ حولَه. فرجع إليهم. فقال: إنّ نبيّاً قد وُلِدَ البارحة. ما حملتْ أنْثى قط، ولا وضعتْ إلاّ أنا بحضرتِها إلاّ هذه. فأيسوا أن تُعبد الأصنام بعد هذه اللّيلة. ولكن ائتوا بني آدم من قِبل الخفّة والعجلة..

وكان النبي يقول: "كلّ بني آدم طَعنَ الشيطانُ في جنبه إلاّ عيسى ابن مريم وأمّه، جُعل بينهما وبينه حجاب. فأصابت الطعنةُ الحجابَ ولم ينفذ إليهما شيء".

"**فَتَقَبَّلَها ربُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ**"، يعني بذلك: أنّ اللّه جلّ ثناؤه تقبّل مريم من أمِّها حنّة بتحريرها إيّاها للكنيسة وخدمتِها وخدمةِ ربّها بقبول حسن. "**وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً**"، أي: في غِذائه ورزقه نباتاً حسناً حتّى تمّت فكملت امرأة بالغة تامّة.

"**وَكَفَّلَها زَكَرِيّا**"، أي: وضمّها اللّهُ إليه، لأنّ زكريّا أيضاً ضمّها إليه بالقرعة التي أخرجها اللّه له. وذلك أنّ زكريّا وخصومه في مريم تنازعوا فيها أيّهم تكون عنده. وكان زكريّا أفضلهم يومئذٍ، وكان بينهم. وكانت خالة مريم تحته. فلمّا أتوا بها اقترعوا عليها. وقال لهم زكريّا: أنا أحقّكم بها. تحتي خالتها. فأبَوا فخرجوا إلى نهر الأردنّ، فألقَوا أقلامَهم التي يكتبون بها أيّهم يقوم قلمه فيكفلها. فجرتِ الأقلامُ. وقام قلمُ زكريّا على قرنتِه، كأنّه في طين. فأخذ الجارية. فجعلها معه في بيته وهو المحراب.

"**كُلَّما دَخَلَ عَليها زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً**"، يعني بذلك: أنّ زكريّا كان، كلّما دخل عليها المحراب، بعد إدخاله إيّاها المحراب، وجد عندها رزقاً لغذائها. فقيل: إنّ ذلك الرزق الذي كان يجده عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء.

قَالَ: يَا مَرْيَمَ! أَنَّى لَكِ هَذا؟!"، أي: من أيِّ وجهٍ لك هذا الذي أرى عندك من الرزق؟ "**قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّه**"، تعني أنّ اللّه هو الذي رزقها ذلك فساقه إليها وأعطاها. وإنّما كان زكريّا يقول ذلك لها لأنّه كان يُغلق عليها سبعةَ أبواب ويخرج ثمّ يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. فكان يعجب ممّا يرى من ذلك ويقول لها تعجّباً ممّا يرى: أنّى لكِ هذا؟!

"**إنّ اللّهَ يَرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسابٍ**"، أي: أنّ اللّه يسوق إلى مَن يشاء من خلقِه رزقَه بغير إحصاء ولا عدد يحاسِب عليه عبدَه.

الرّازي:

"**إذْ قَالتِ امرأةُ عِمْرانَ**". يقول الزّجاج: تقديره: واصطفى آلَ عمران على العالمين.. وقال ابنُ الأنباري: إنّ اللّه اصطفى آدم عند وجوده، ونوحاً عند وجوده، وآل عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام..

"**رَبِّ! إنّي نَذَرْتُ لكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً**". هذا التحرير لم يكن جائزاً إلاّ في الغلمان؛ أمّا الجارية فكانت لا تصلح لذلك، لِما يُصيبُها من الحيض والأذى.

ثمّ إنّ حنّةَ نذرتْ مُطلَقاً، إمّا لأنّها بنَتِ الأمرَ على التقدير، أو لأنّها جعلتْ ذلك النذرَ وسيلةً إلى طلبِ الذَّكَر..

"**فَتَقَبَّلْ مِنِّي. إنَّكَ أنتَ السَّميعُ**"، لتضرّعي ودعائي وندائي، "**العَليمُ**" بما في ضميري وقلبي ونيّتي.

فلمّا وَضَعَتْها قالتْ: رَبِّ! إنّي وَضَعْتُها أُنْثى"، خائفةً أنَّ نذرَها لم يقع الموقع الذي يعتدّ به، ومعتذرةً من إطلاقها النذر المتقدِّم. فذكرتْ ذلك على سبيل الإعلام للّه تعالى -تعالى اللّه عن أن يحتاجَ إلى إعلامها- بل ذكرتْ ذلك على سبيل الاعتذار. ولمّا خافتْ أن يُظنّ بها أنّها تُخبر اللّه، أزالت الشبهة بقولها: "**واللّهُ أعلَمُ بما وَضَعَتْ**". وثَبُتَ أنّها إنّما قالت ذلك للاعتذار لا للإعلام.. وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً، فلذلك تحسّرتْ:

"**وليسَ الذَّكَرُ كالأُنْثى**". إن المقصود من هذا الكلام ترجيح الأنثى على الذَّكَر؛ كأنّها قالت: ألذَّكَر مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبة اللّه. وليس الذَّكَر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة اللّه. وهذا الكلام يدلّ على أنّ تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال اللّه، عالمةً بأنّ ما يفعله الربُّ بالعبد خيرٌ ممّا يريده العبد لنفسه.

"**وإنّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ**". مريم، في لغتهم: ألعابدة؛ فأرادتْ بهذه التسمية أن تطلب من اللّه تعالى أن يعصمَها من آفات الدين والدنيا. والذي يؤكّد هذا قولها: "**وإنّي أُعيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ**"؛ وذلك لأنّه لمّا فاتها ما كانت تريد من أن يكون رجلاً خادماً للمسجد، تضرّعتْ إلى اللّه تعالى في أن يحفظَها من الشيطان الرجيم، وأن يجعلها من الصالحات القانتات.

"**فَتَقَبَّلَها ربُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ**". ألمقصود **أوّلاً**: أنّ حنّة، حين وَلَدتْ مريم، لفّتْها في خرقةٍ وحملتْها إلى المسجد، ووضعتْها عند الأحبار أبناء هارون.. وقالت: خذُوا هذه النذيرة... **ثانياً**: إنّ مريم

تكلّمتْ في صبـاها كما تكلّم المـسيح، ولم تلتقم ثدياً قط، وإنّ رزقَـها كان يأتيها من الجنّة. **ثالثاً**: إنّ المعتاد في تلك الشـريعة أنّ التحرير لا يجوز إلاّ في حقّ الغلام، حين يصـير عاقلاً قادراً على خدمـة المسجد. وههنا، لمّا علم اللّه تضـرّعَ تلك المرأة، قَبِلَ تلك الجـارية حالَ صـغرِها وعدمِ قدرتِها على خدمة المسجد.

"**وَأَنْبَتَـها نَبـاتاً حَسَناً**"، أي: أنّها كـانت، في الدنيا، تنبتُ في اليوم مثلَ مـا ينبتُ المولودُ في عامٍ واحد. وأمّا في الدين فـلأنّها نبتتْ في الصلاح والسداد والعفّة والطاعة..

"**وَكَفَّلَها زَكَرِيّا**"، أي: ضمّها اللّهُ تعالـى إلى زكريّا. أو: ضمّها زكـريّا إلى نفسـه. ولكنّهم اخـتلفـوا في الكفالة مـتى كـانت. فقـال الأكثرون: كان ذلك حالَ طفولتها. وقال بعضهم: بل إنّما كفلها بعد أن فطمتْ، بدليل ما قـال: "كُلَّما دَخَلَ عَليـها زَكَرِيّا المِحْـرَابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا". وهذا يدلّ على أنّها كانت قد فارقتِ الرضـاع وقت تلك الكفالة.

"**المحراب**": الموضع العـالي الشـريف.. يروى أنّها لمّا صـارت شابّة بنـى زكريّا لها غـرفةً في المسـجد، وجعل بابَهـا في وسطه، لا يصعد إليه إلاّ بسلّم. وكان إذا خرج أغلقَ عليها سبعةَ أبواب.

"**قَـالَ: يَـا مَـرْيَمُ! أَنّى لَكِ هَـذا؟! قَـالتْ: هُوَ مِنْ عِـنْدِ اللّهِ**". إنّ حصول ذلك الرزق عند مريم كان خارقاً للعادة:

أوّلاً: إنّ حـصول ذلك الرزق دلـيل على علوّ شـأنها وشـرف درجتها وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصيّة.

ثانياً: إنّه تعـالى قال بعـد هذه الآية: "هُنالِكَ دَعَا زَكَـرِيّا رَبَّهُ. قال: رَبِّ! هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّـبَةً" (٣/٣٨). والقرآن دلّ على أنّه

كان آيساً من الولد بسبب شيخوخته وشيخوخة زوجته. فلمّا رأى انخراق العادة في حقّ مريم طمع في حصول الولد؛ فيستقيم قوله: "هُنالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّه"..

ثالثاً: إنّ التنكّر في قوله "وَجَدَ عندَها رِزْقاً" يدلّ على تعظيم حالِ ذلك الرزق، كأنّه قيل: رزقاً غريباً عجيباً..

رابعاً: إنّ قوله تعالى: "وَجَعَلْنَاهَا وابنَهَا آيَةً للعالَمِين" (٢١/ ٩١) يفيد ظهورَ الخوارق عليها، وإلاّ لم يصح ذلك.

خامساً: ما تواترت الروايات به أنّ زكريّا كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء. فثبتَ أنّ الذي ظهر في حقّ مريم كان فعلاً خارقاً للعادة.

"**إنّ اللّهَ يَرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسابٍ**"، أي بغير تقدير لكثرته، أو من غير مسألة سألها على سبيلٍ يناسب حصولها. وهذا كقوله: "وَيَرْزُقْهُ منْ حيْثُ لا يَحْتَسِبُ" (٦٥/ ٣).

إبن عربي:

"**وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا**". يجوز أن يراد به الرزق الرّوحاني، من المعارف والحقائق والعلوم والحكم الفائضة عليها من عند اللّه، إذ الاختصاص بالعنديّة يدلّ على كونها من الأرزاق اللّدنيّة.

الآلوسي:

"**رَبِّ! إنّي نَذَرْتُ لكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً**". وهذا في الحقيقة استدعاء للولد الذَّكَر لعدم قبول الأنثى، فيكون المعنى: ربِّ! إنّي نذرتُ لكَ ما في بطني، فاجعلْه ذَكَراً لخدمة بيتك. والمحرّر مَن لا يعمل للدنيا

ولا يتـزوّج، ويتفـرّغ لعـمل الآخرة، ويعـبد الـلّه، ويكون في خدمـة الكنيسـة.. وأيضاً: ألخـالص الذي لا يخالطه شيء من أمـر الدنيا؛ أو: عتيقـاً خالصاً لطاعتك؛ أو: من لا يجري عليـه حكم السبي، ولا تتملّكه الأخلاق الرديئة والرذائل الدنيويّة.

" **واللّهُ أعلَمُ بما وَضَعَتْ** ". ألجملة إعـتراضيّة سيـقتْ لتعظيم المولود الذي وضعتْـه، وتفخيمِ شأنه، والتجهـيل لها بقدره. أي: واللّه أعلم بالشيء الذي وضـعتْـه، وما عـلق به من عظائم الأمور ودقـائق الأسرار وواضح الآيات. وهي غافلة عن ذلك كلّه...

وعن عاصم ويعـقوب قالا: كلامـها هذا قالته اعـتذاراً إلى اللّه حيث وضعتْ مـولوداً لا يصلح للغرض، أو تسليةً لنفـسها، أي: ولعلّ للّه تعـالى في ذلك سـرّاً وحكمـةً. ولعلّ هذه الأنثى خـيرٌ من الذَّكَـر. فالجملة حينئذٍ لنفي العلم لا للتجهيل، لأنّ العبد ينظر إلى ظاهر الحال ولا يقف على ما في خلاله من الأسرار.

" **وليسَ الذَّكَرُ كالأُنثَى** ". إعتراض آخـر مُبيِّنٌ لما اشتـمل عليه الأوّل من التـعظيم... ثمّ إنّ مـرادَ أمِّ مريم لـيس تفضـيلَ الذَّكَـر على الأنثى، بل العكس، تعظيماً لعطيّـة اللّه تعالى على مطلوبها. أي: وليس الذَّكَر الذي هو مطلوبي كالأنثى التي وهبهـا اللّه لي؛ عِلماً منها بأنّ ما يفعله الربّ خير ممّا يريده العبد.

" **المِحْرَاب** ": إسم مكان، وسمّي به لأنّه محلّ محاربة الشيطان فيه؛ أو لتنافس الناس عليه...

" **قَالتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ** ". قيل: تكلّمت بذلك صغيـرةً كعيسى. وقد جمع مَن تكلّم كذلك فبلغوا أحد عشر نفساً.

وقد نظمهم الجلالُ السيوطي فقال:

تكلّمَ في المهد النّبي **محمّـــــد،** **ويحيى، وعيسى، والخليلُ، ومريمُ**
ومبرى **جريج،** ثمّ **شاهدُ يوسف،** **وطـفلٌ لذي الأخدود،** يرويه مسلمُ
وطــفلٌ عليه مرّ بالأمّة الــــتي يقال لها تزني ولا تتكلّـــــــمُ
وماشطة في عهد فرعون **طـفلُها** وفي زمن الهادي **المبارك** يخــتمُ.

محمّد عبده:

يقول: ألمسيـحيّون لا يعترفون بأنّ أبا مـريم يدعى عِمران، ولا ضير في ذلك، فإنّه لا يلزم أن تكون كلّ حقيقة معروفة عندهم. وليس لهم سند لنسب المسيح يُحتجّ به.. وأقول: إنّ نسب المسيح في إنجيلَي مـتّى ولوقا مـختلف. ولو كُـتب عن علْمٍ لَمـا وقع فيـه الخلاف بهـذا القدر...

وهذا ما يشاغب به دعـاةُ النصرانيّة عوامَ المسلمين، مـستدلّين بالحديث عـلى تفضيل عـيسى على مـحمّـد، أو على أنّه فوق البـشر. فالجواب أنّ كـتابَ هؤلاء الدعاة حجّةٌ عليهم. فـفي إنجيل مرقص عن تجـارب إبليس ليسـوع[١] نصّ صـريح في أنّ إبليس كان يوسـوس للمسيح حتى يحـمله ويأخذه من مكان إلى مكان.. لكنّ المسيح لم يكن يطيعه.. بل كـان يرفض تجاربه بالاعتمـاد على التوراة، ممّا يدل على أنّه كان متّبعاً للتوراة.

وخلاصــة القول: إنّ في القرآن مـثلاً، منهـا قصّة مـريم. فإنّ أمّها، إذا كانت قد ولدتْها وهي عاقـر، على خلاف المعهود، كما نُقل؛ أو يقال: إذا كان قبول الأنثى محـرّرة لخدمة بيت اللّه على خلاف المعهود

(١) ينقل عن مرقص نصّ التجربة.

عندهم، وقد تقبّله اللّه؛ فلماذا لا يجوز أن يُرسِلَ اللّهُ محمّداً من غير بني إسرائيل على خلاف المعهود عندهم؟ ومثل هذا يُقال في قصّة زكريّا عليه السلام.. من ذلك كلّه، يُعلَم أنّ أعماله تعالى لا تأتي دائماً على ما يعهد الناس ويألفون.

(٢٣)

بشارة زكريّا بيَحيَى

هُنالِكَ دَعَا زَكريّا ربَّهُ قالَ: رَبِّ! هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً. إنّك سَمِيعُ الدُّعاءِ. فَنَادَتْهُ الملائكةُ، وَهُوَ قائِمٌ يُصَلّي في المِحْرَابِ: أنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى، مُصَدِّقاً بِكَلِمةٍ منَ اللّهِ، وسَيِّداً، وحَصُوراً، ونَبيّاً مِنَ الصّالِحِينَ. قالَ: رَبِّ! أنّى يَكُونُ لي غُلامٌ، وَقَدْ بَلَغَنيَ الكِبَرُ، وامْرَأتي عاقِرٌ؟! قال: كذلكَ اللّهُ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ. قال: رَبِّ! اجْعَلْ لي آيَةً. قالَ: آيتُكَ ألاّ تُكَلِّمَ النّاسَ ثَلاثَةَ أيّامٍ إلاّ رَمْزاً. واذْكُرْ رَبَّكَ كَثيراً. وسَبِّحْ بالعَشِيِّ والإبْكارِ (سورة آل عمران ٣/٣٨-٤١).

الطبري:

هُنالِكَ (أي: عند رؤية زكريّا ما رأى عند مريم من رزق اللّه الذي رزقها، طمع في الولد، مع كبر سنّه من المرأة العاقر، فرجا أن يرزقه اللّه منها الولد) **دَعَا زَكريّا ربَّه** (لمّا دخل المحراب للصلاة جوف اللّيل). **قال: رَبِّ! هَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً** (أي: مباركة. وذلك أنّ أهلَ بيت زكريّا كانوا قد انقرضوا في ذلك الوقت). **إنّك سَمِيعُ** (مجيب) **الدُّعاءِ.**

فَنَادَتْهُ الملائكةُ، (وهو جبريل)[٢]، **وَهُوَ قائِمٌ يُصَلّي في المِحْرَابِ** (وهو مُقدَّم المسجد): **أنّ اللّهَ يُبَشِّـرُكَ بِيَحْيَى** (سمّي كذلك لأنّ اللّه أحياه بالإيمان)، **مُصَدِّقـاً بِكَلِمةٍ منَ اللّهِ** (أي: بعيسى. وهو أوّل رجل صدّق عيسى، وشهد أنّه كلمة من اللّه. وكانت أم يحيى تقول لمريم: إنّي أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك. فذلك تصديقه بعيسى، سجوده في بطن أمّه)، **وَسَيِّداً** (شريفاً متبوعاً)، **وَحَصُوراً** (أي: ممتنعاً من جماع النساء)[٣]، **ونَبِيّاً** (أي: رسولاً لربّه إلى قومه) **مِنَ الصَّالِحِين** (رُوي أنّه لم يعمل خطيئةً ولم يهمَّ بها).

قَـالَ: رَبِّ! أنَّى (كيف) **يَكُونُ لي غُـلامٌ، وَقَـدْ بَلَـغَنيَ الكِبَـرُ، وامْرَأتي عـاقِرٌ؟!** (لا تلد؟!)[٤]. **قَالَ** (الأمْر): **كذلكَ الـلّهُ يَفْعَلُ مـا يَشَاءُ**

---

(٢) ولكن، كيف جاز أن يكون جبريل، والملائكة جمع لا واحد؟ قيل: ذلك جائزٌ في كلام العرب بأن تخبر عن الواحد بمذهب الجمع. عن الطبري في تفسيره.

(٣) عن ابن العاص قال إنّه سمع رسول اللّه يقول: "كلُّ بني آدمَ يَأتي يومَ القيامةِ ولهُ ذَنْبٌ إلاّ ما كان مِن يَحيَى بنِ زكريّا". قال: ثمّ دلّى رسول اللّه يده إلى الأرض، فأخذ عويداً صغيراً، ثمّ قال: "وذلكَ أنّه لم يكنْ له ما للرّجالِ إلاّ مِثْلَ هذا العودِ. وبذلك سمّاه اللّه سيّداً وحصوراً".

(٤) إنْ قال قائل: وكيف قال زكريا هذا الكلام، وهو نبيّ اللّه، وقد بشّرته الملائكة بما بشّرته به؟ أشكّاً في صدقهم؟ فذلك ما لا يجوز أن يوصف به أهل الإيمان باللّه، فكيف الأنبياء والمرسلون؟ أم كان ذلك منه استنكاراً لقدرة ربّه؟ فذلك أعظم في البليّة!.. قال عكرمة والسدي: لمّا سمع زكريّا النداء، جاءه الشيطان فقال له: يا زكريّا! إنّ الصوتَ الذي سمعتَ ليس هو من اللّه، إنّما هو من الشيطان يسخر بك. ولو كان من اللّه أوحاه إليك، كما يوحى إليك في غيره من الأمر. فشكّ وقال ما قال. ومن أيّ وجهٍ يكون الولد الذي بُشّر به؟ أمن زوجته فهي عاقر؟ أم من غيرها من النساء؟ فيكون ذلك على غير الوجه الذي قاله السدي وعكرمة.

(لأن اللّه لا يتعذّر عليه خلقُ شيءٍ أراده، ولا يمتنع عليه فعل شيء شاءه). **قَالَ** (زكريّا): **رَبِّ!** (إنْ كان هذا النداء الذي نوديته، والصوت الذي سمعته صوت ملائكتك، وبشارة منك لي، فـ) **اجْعَلْ لِي آيَةً** (أي: علامةً، لتزول عنّي الشكوك). **قَالَ: آيتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النّاسَ ثَلاثَةَ أيّامٍ إلاَّ رَمْزاً** (أي: بالإشارة والإيماء بالرأس أو اليدين أو العينين أو الشفتين، دون الكلام). **وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً. وسَبِّحْ بالعَشِيِّ والإبْكارِ.**

(٢٤)

بشارة مريم بمولد عيسى. وعيسى في حياته ومعجزاته

وإذْ قَالتِ الملائكةُ: يا مَريمُ! أنَّ اللّهَ اصطفاكِ وطهَّرَكِ واصطفاكِ على نساء العَالَمينَ. يا مريم! اقْنُتي لِرَبِّكِ، واسْجُدي، وارْكَعي مَعَ الرّاكِعِينَ.

ذلكَ من أنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إليكَ. وما كنتَ لَديهِم إذْ يُلْقُونَ أقْلامَهم، أيُّهُمْ يَكْفُلُ مريَمَ. وما كنتَ لديهِمْ إذ يَختَصِمونَ.

إذ قالتِ الملائكةُ: يا مريمُ! إنَّ اللّه يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ منْهُ اسْمُهُ المسيحُ عِيسَى ابنُ مريمَ، وَجيهاً في الدُّنْيا والآخِرَةِ ومِنَ المُقَرَّبِينَ. ويُكلِّمُ النّاسَ في المَهْدِ وكَهْلاً ومنَ الصّالِحينَ.

قالتْ: أنَّى يكونُ لي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟ قال: كذلكَ اللّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ. إذا قضَى أمراً فإنّما يقولُ له: كُنْ فَيَكُونُ. ويُعَلِّمُهُ الكتابَ والحِكْمَةَ والتّوراةَ والإنجيلَ، ورسولاً إلى بني إسرائيلَ:

أنّي قد جِئْتُكُم بآيَةٍ مِنْ ربِّكُمْ: أنّي أخْلُقُ لكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ

الطَّيْـرِ. فَأَنْفُخُ فيـه فَيَكونُ طَيـراً بإذْنِ اللَّهِ. وأُبْرِئُ الأَكْـمَهَ والأبْرَصَ. وأُحيي بإذْنِ اللَّهِ. وأُنَبِّئُكُمْ بما تأكُلُونَ وما تَدَّخِرونَ في بيوتِكُمْ. إنَّ ذلكَ لآيَةً لكمْ إنْ كنتُمْ مُؤمنينَ. وَمُـصَدِّقاً لِمَـا بينَ يَدَيَّ من التوراةِ، وَلأُحِلَّ لكمْ بعضَ الـذي حُـرِّمَ عليكمْ. وجِـئْـتُكُمْ بآيةٍ من ربِّـكُمْ. فـاتَّقُـوا اللَّهَ وأطيعونِ. إنَّ اللَّهَ رَبِّي وربُّكمْ فاعبُدوهُ. هذا صراطٌ مستقيمٌ.

فلمَّا أحسَّ عيسَى منهُمُ الكُفْـرَ، قالَ: مَنْ أنْصاري إلى اللَّهِ؟ قالَ الحَوَارِيُّونَ: نحـنُ أنْصارُ اللَّهِ. آمَنَّا باللَّهِ واشْـهَدْ بأنَّا مُسْلِـمون. رَبَّنا! آمَنَّا بما أنْزَلْتَ. واتَّبَعْنا الرَّسولَ. فاكْتُبْنا معَ الشاهِدينَ. ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ. واللَّهُ خيرُ الماكِرينَ.

إذ قالَ اللَّهُ: يا عـيسَى! إنِّي مُتَوَفِّيكَ ورَافِـعُكَ إليَّ، ومُطَهِّرُكَ من الَّذينَ كَفَروا، وجاعِلُ الَّذينَ اتَّبَعُوكَ فـوقَ الَّذينَ كَفَروا إلى يومِ القيامةِ. ثمَّ إليَّ مَرْجِعُكُم، فأحْكُمُ بينَكُمْ فيما كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفونَ.

فأمَّا الَّذين كَفروا فَأُعَذِّبُهمْ عَذاباً شديداً في الدُّنيا والآخرةِ. وما لهمْ منْ ناصِـرينَ. وأمَّـا الَّذين آمَنوا وَعَـمِلوا الصَّالِـحاتِ فَـيُـوَفِّيـهِمْ أُجُورَهم. واللَّهُ لا يُحبُّ الظَّالِمين.

ذلكَ نتلوهُ عليكَ منَ الآياتِ والذِّكْرِ الحكيمِ. إنَّ مَـثَلَ عيسَى عندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَـهُ من تُرابٍ. ثمَّ قال له كُنْ فيكُونُ (سورة آل عمران ٣/٤٢-٥٩).

الطبري:

وإذْ قـالتِ الملائكةُ: يا مَـريمُ! أنَّ اللَّهَ اصْطَفَـاكِ (أي: اختـارك واجتباكِ لطاعته ومـا خصّك به من كرامته)، **وطهَّرَكِ** (أي: طهّر دِينَكِ من الريب والأدناس التي في أديان نسـاء بني آدم)، **واصْطَفَـاكِ عَلى**

نسَاءِ العَالَمِينَ (أي: اختارك على نساء العالمين في زمانك بطاعتك إيّاه، ففضّلكِ عليهم، كما روي عن رسول الله أنّه قال: "خيرُ نساء الجنّة مريم بنت عمران، وخير نساء الجنّة خديجة بنت خويلد". وكان يقول أيضاً: "حسبك بمريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد من نساء العالمين".

يا مريم! اقْنُتي لِرَبِّكِ، واسْجُدي، وارْكَعي مَعَ الرّاكِعِينَ (أي: أخلصي عبادة ربِّك لوجهه خالصاً، واخشعي لطاعته وعبادته مع من خشع له من خلقه شكراً له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتطهير من الأدناس والتفضيل على نساء عالم دهرك).

ذلكَ من أنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إليكَ (يا محمّد حجّةً على نبوّتك، وتحقيقاً لصدقك، وقطعاً منه به عذرَ منكري رسالتكَ من كفّار أهل الكتابَين الّذين يعلمون أنّك لم تصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها، ولم تدرك معرفتها مع خمولها عند أهلها إلاّ بإعلام الله ذلك إيّاك. إذ كان معلوماً عندهم أنّ محمّداً أمّي لا يكتب فيقرأ الكتب، ولا يأخذ علمه من أصحاب الكتب[٥].

وما كنتَ (يا محمّد) **لَديهِم** (أي عندهم) **إذْ يُلْقُونَ أقْلامَهم، أيُّهُمْ يَكْفُلُ مريَمَ** (أي: إنّ مريم، لمّا وُضِعَتْ في المسجد، اقترع عليها أهلُ المصلَّى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيّهم يكفلها). **وما كنتَ لديهِمْ إذ يَختَصِمونَ** (أي: وما كنتَ يا محمّد عند قومِ مريمَ إذ يختصمون فيها أيّهم أحقّ بها وأولى.. هذا توبيخ منه تعالى للمكذِّبين

---

(٥) «والإيحاء، كما يقول الطبري، إلقاء الموحِي إلى الموحَى إليه، وذلك قد يكون بكتاب وإشارة وإيماء وإلهام ورسالة».

من أهل الكتاب. يقول: كيف يشكّ أهلُ الكفر بكَ منهم، وأنتَ تنبئهم هذه الأنبياء، ولم تشهدْها، ولم تكنْ معهم يومَ فعلوا هذه الأمور، ولستَ ممّن قرأ الكتب فعلم نبأهم، ولا جالس أهلها فسمع خبرَهم.

وما كنتَ لديهم أيضاً **إذ قالتِ الملائكةُ: يا مريمُ! إنّ اللّه يُبَشِّرُكِ** (والتبشير إخبار المرء بما يسرّه من خبر) **بكَلِمَةٍ منْهُ** (أي: برسالةٍ من اللّه وخبرٍ من عنده. وقيل: ألكلمة هي قوله "كنْ". وقيل: سمّاه اللّه كلمتَه لأنّه كان عن كلمتِه. وقيل: ألكلمة هي إسم لعيسى سمّاه اللّه بها كما سمّى سائر خلقه بما شاء من الأسماء. وأقرب الوجوه إلى الصواب عندي القول الأوّل) **اسْمُهُ** (لم يقل اسمها في حين أنّ الكلمة مؤنّثة، لأنّ الكلمة غير مقصود بها الاسم بل البشارة)

المسيحُ عِيسَى ابنُ مريمَ (نُسب إلى أمّه مريم، فنفى بذلك عنه ما أضاف إليه الملحدون في اللّه من النصارى من إضافتهم بنوّته إلى اللّه)، **وَجِيهاً في الدُّنْيا والآخِرَةِ ومنَ المُقَرَّبِينَ** (أي: ذا وجه ومنزلة عالية عند اللّه وشرف وكرامة... وممّن يقرّبه اللّه يومَ القيامة فيُسكنه في جواره ويدنيه منه).

ويُكَلِّمُ النّاسَ في المَهْدِ وكَهْلاً ومنَ الصّالِحينَ (أي: ويكلّم الناس طفلاً في المهد، دلالةً على براءة أمّه ممّا قذفها به المفترون عليها، وحجّةً له على نبوّته، ويكلّمهم كبيراً. وهو من عداد الصالحين).

قالتْ: أنّى يكونُ لي وَلَدٌ وَلمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟ قال: كذلكَ اللّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ. إذا قضَى أمراً فإنّما يقولُ له: كُنْ فَيَكُونُ (أي: من أيّ وجهٍ يكون لي ولد؟ أمِن قِبَلِ زَوجٍ أتزوّجُه، وبعلٍ أنكحه؟ أو يبتدئ فيّ خلقُه من غير بعل ولا فحل؟ ومن غير أن يمسّني بشر؟ فقال اللّه:

هكذا يخلق اللّه منك ولداً لك من غير أن يمسّك بشر، فيجعله آيةً للناس وعبرة. فـإنّه يَخلق ما يشاء، ويصنع ما يريد، فـيُعطي الولدَ من يشاء من غير فحل ومن فحل، ويحـرم ذلك من يشاء من النساء، وإنْ كانت ذاتَ بعل، لأنّه لا يتعذّر عليه خلقُ شيء أراد خلقَه، إنّما هو أن يأمر إذا أراد شيئاً ما أراد، فيقول له "كن فيكون".

ويُعَلِّمُه الكتابَ والحِكْمَةَ والتَّوراةَ والإنجيلَ (هذا ابتداء خبر من اللّه لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشّـرها به من الكرامة ورفعة المنزلة والفضيلة. فقال: كذلك يخلق منك ولداً من غـير فحل ولا بعل، فيعلّمه الكتـابَ، وهو الخط الذي يخطّه بيـده، والحكمـة، وهي السـنّة التي نوحيـها إليه في غيـر كتاب، والتـوراة، وهي التي أنزلتْ على موسى، والإنجيل، إنجيل عيسى).

و(نجعلُه) **رسولاً إلى بني إسرائيلَ** (بأنّه نبيٌ وبشير ونذير. وحـجّتي على صـدقي على ذلك) **أنّي قـد جِئْـتُكُم بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** (أي: بعلامـة من ربّكم تحقّق قولـي، وتصدّق خبـري أنّي رسول من ربّكم إليكم. والآية هي): **أنّي أخْلُقُ لكُمْ مِنَ الطِّينِ كَـهَيْئَـةِ الطَّيْرِ. فَأنْفُخُ فـيهِ فَيَكونُ طَيراً بإذْنِ اللّهِ.**

عن ابن اسـحق قـال: إنّ عـيسى جلس يومـاً مع غلمـان من الكتّـاب، فأخـذ طيناً، ثم قال: أجـعلُ لكم من هذا الطين طائراً؟ قـالوا: وتستطيع ذلك؟ قال: نعم بإذن ربّي. ثمّ هيّأه، حـتّى إذا جعله في هيئة الطائر، نفخ فـيـه، ثم قال: "كن طـائراً بإذن اللّه"؛ فخـرج يطيـر بين كفّـيه. فخـرج الغلمان بذلك من أمـره فذكروه لمعلّـمهم، فأفْـشَوه في الناس، وترعرع. فهمّتْ بنو إسرائيل. فلمّـا خافتْ أمّه عليه حملتْه على حمير لها، ثمّ خرجتْ به هاربةً.

وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ (اختلف أهلُ التأويل في معنى الأكْمَه. فقال بعضهم هو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار.. وقال آخرون هو الأعمى الذي ولدتْه أمّه كذلك. وقال الطبري: بل هو الأعمى الذي لا يبصر شيئاً لا ليلاً ولا نهاراً) **والأَبْرَصَ** (مرض لا علاج منه يَضرب الجلد). **وأُحْيِ المَوتَى بإِذْنِ اللّهِ. وأُنَبِّئُكُمْ بما تأْكُلونَ** (أي: وأخبركم بما تأكلون ممّا لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكموه)، **وما تَدَّخِرونَ في بيوتِكُمْ** (أي وما ترفعونه فتخبّؤونه).

عن ابن إسحق قال: لمّا بلغ عيسى تسع سنين أو عشراً، أو نحو ذلك، أدخلتْه أمّه الكتّابَ فيما يزعمون، فكان عند رجل من المكتِّبين يعلّمه كما يعلّم الغلمان، فلا يذهب يعلّمه شيئاً ممّا يعلّمه الغلمان إلاّ بدَرَه إلى علمه قبلَ أن يعلّمه إيّاه، فيقول: ألا تعجبون لابن هذه الأرملة! ما أذهبُ أعلمّه شيئاً إلاّ وجدتُه أعلمَ به منّي!..

وعن السدّي: لمّا كبر عيسى أسلمتْه أمّه يتعلّم التوراة. فكان يلعب مع غلمان القرية التي كان فيها. فيحدِّث الغلمانَ بما يصنع آباؤهم، وبما يرفعون لهم، وبما يأكلون. ويقول للغلام: إنطلق فقد رفع لك أهلك كذا وكذا، وهم يأكلون كذا وكذا. فينطلق الصبي فيبكي على أهله حتّى يعطوه ذلك الشيء، فيقولون له: مَن أخبرك بهذا. فيقول عيسى.. فحبسوا صبيانهم عنه، وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر. فجمعوهم في بيت، فجاء عيسى يطلبهم، فقالوا: ليس هم ههنا. فقال: ما في البيت؟ فقالوا: خنازير. قال عيسى: كذلك يكونون. ففتحوا عنهم فإذا هم خنازير.

إنّ ذلكَ لآيَةً لكمْ (أي: إنّ في خلقي من الطينِ الطيرَ بإذن اللّه، وفي إبرائي الأكمه والأبرص، وإحيائي الموتى، وإنبائي إيّاكم بما

تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم، إبتداء من غير حساب وتنجيم، ولا كهانة ولا عرافة، لَعبرةٌ لكم ومتفكّراً تتفكّرون في ذلك، فتعتبرون به أنّي محقّ في قولي لكم: "إنّي رسول من ربكم إليكم"، وتعلمون به أنّي فيما أدعوكم إليه من أمر اللّه ونهيه صادق، **إنْ كنتُمْ مُؤمِنينَ** (أي: إن كنتم مصدِّقين حجج اللّه وآياته، مقرّين بتوحيده، ونبيّه موسى، والتوراة التي جاءكم بها).

وَمُصَدِّقاً لِما بينَ يَدَيَّ من التوراةِ (لأنّ عيسى كان مؤمناً بالتوراة، مقرّاً بها، وأنّها من عند اللّه. وكذلك الأنبياء كلّهم يصدِّقون بكلّ ما كان قبلهم من كتب اللّه ورسله، وإنِ اختلف بعض شرائع أحكامهم لمخالفة اللّه بينهم في ذلك؛ مع أنّ عيسى كان، فيما بلَغَنا، عاملاً بالتوراة، لم يخالف شيئاً من أحكامها، إلاّ ما خفّف اللّه عن أهلها في الإنجيل ممّا كان مشدّداً عليهم فيها).

وَلِأُحِلَّ لكمْ بعضَ الذي حُرِّمَ عليكمْ (قال قتادة والربيع: كان الذي جاء به عيسى ألْيَنَ ممّا جاء به موسى، وكان قد حرّم عليهم فيما جاء به موسى من لحوم الإبل والثروب فأحلّها لهم على لسان عيسى؛ وحرّمت عليهم الشحوم، وأحلّت لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير ممّا لا صيصيّة له، وفي أشياء حرّمه عليهم وشدّدها عليهم فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل)...

وجِئْتُكُمْ بآيةٍ من ربِّكُمْ (أي: وجئتكم بحجّة وعبرة من عند ربِّكم تعلمون بها حقيقةَ ما أقول لكم).

فاتَّقُوا اللّهَ (يا معشر بني إسرائيل فيما أمركم به، ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه)،

وأطيعونِ (فيما دعوتُكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم) **رَبِّي وَرَبُّكُمْ، فَاعْبُدُوهُ.** (فإنّه بذلك أرسلني إليكم وبإحلال بعض ما كان محرَّماً عليكم في كتابكم. وذلك هو الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه. **هذا صِراطٌ مستقيمٌ.**

فلمّا أحسّ عيسَى منهُمُ الكُفْرَ (أي: فلمّا وجد عيسى، من بني إسرائيل الذين أرسله اللّه إليهم، جحوداً لنبوّته، وتكذيباً لقوله، وصدّاً عمّا دعاهم إليه من أمر اللّه)، **قالَ: مَنْ أنْصاري إلى اللّهِ؟** (أي: مَن أعواني على المكذِّبين باللّه، والمولِّين عن دينه، والجاحدين نبيِّه) **قالَ الحَوَارِيُّونَ** (سمّوا بذلك لبياض ثيابهم، لأنّهم كانوا غسّالين): **نحنُ أنْصارُ اللّهِ** (أي أعوانه). **آمَنّا باللّهِ** (أي صدّقنا باللّه)، **واشْهَدْ** (أنتَ يا عيسى) **بأنّا مُسْلِمون.** (وهذا خبر من اللّه أنّ الإسلامَ دِينُه الذي ابتعث به عيسى والأنبياء قبْلَه، لا النصرانيّة ولا اليهوديّة، وتبرئة من اللّه لعيسى ممّن انتحل النصرانيّة، ودان بها، كما برّأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام).

رَبَّنا! آمَنّا (أي: صدّقنا) **بما أنْزَلْتَ** (على نبيِّك عيسى من كتابك). **واتَّبَعْنا الرّسولَ** (أي: صرنا أتباعَ عيسى على دينك الذي ابتعثته به، وأعوانَه على الحقّ). **فاكْتُبْنا معَ الشاهِدينَ** (أي: فأَثْبِتْ أسماءَنا مع أسماء الذين شهدوا بالحقّ، وأقرّوا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلَك، واتّبعوا أمرَك ونهيك. فاجعلْنا في عدادهم ومعهم فيما تكرّمهم به من كرامتك، وأحلّنا محلّهم، ولا تجعلنا ممّن كفر بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالفَ أمرَك ونهيك).

ومَكَرُوا ومَكَرَ اللّهُ. واللّهُ خيرُ الماكِرينَ. (قال السدّي: وأمّا مكر اللّه ببني إسرائيل فإنّه إلقاؤه شَبَهَ عيسى على بعض أتباعه حتّى قتلَه

الماكرون بعيسى، وهم يحسبونه عيسى. وقد رفع اللّه عيسى قبلَ ذلك.. ثمّ إنّ بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريّين في بيت، فقال عيسى لأصحابه: مَن يأخذ صورتي فيُقتل، وله الجنّة؟ فأخذها رجلٌ منهم، وصعد بعيسى إلى السماء.. فلمّا خرج الحواريّون أبصروهم تسعة عشر، فأخبروهم أنّ عيسى قد صعد به إلى السماء، فجعلوا يعدّون القوم فيجدونهم ينقصون رجلاً من العدّة، ويرون صورة عيسى فيهم فشكّوا فيه. وعلى ذلك قتلوا الرجل، وهم يرون أنّه عيسى، وصلبوه. فذلك قول اللّه عزّ وجلّ: "ومَا قَتَلوه وَمَا صَلَبوه. ولكِنْ شُبِّهَ لهم" (٤/١٥٧).

إذ قالَ اللّهُ: يا عيسَى! إنّي مُتَوَفّيْكَ ورَافِعُكَ إليَّ، ومُطَهِّرُكَ من الّذينَ كَفَروا. (يعني بذلك: ومكر اللّهُ بالقوم الذين حاولوا قتلَ عيسى مع كفرهم باللّه، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربّهم، إذ قال: إنّي متوفّيك.. يعني: ومكر اللّه بهم حين قال اللّه لعيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ. فتوفّاه ورفعه إليه.

ثمّ اختلف أهلُ التأويل في معنى "الوفاة".

فقال بعضهم: "هي وفاة نوم". ورفعه اللّه في منامه..

وقال آخرون: معنى ذلك أنّي قابضك من الأرض فرافعك إليّ.

ومعنى الوفاة ألقبض، كما يقال: "توفيتُ من فلان مالي عليه"، بمعنى قبضته واستوفيته.

فيكون معنى الآية: إنّي قابضك من الأرض حيّاً إلى جواري، وآخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك.

في ذلك قال الورّاق: ليس بوفاة موت..

وقال الحسن: متوفيك من الأرض..

وقال كعب الأحبار: ما كان اللّه عزّ وجل ليُميتَ عيسى ابن مريم.. وليس من رفعتِه عندي ميتاً، إنّي سأبعثك على الأعور الدجّال فتقتله، ثم تعيش بعد ذلك أربعاً وعشرين سنة، ثمّ أُميتُك ميتةَ الحيّ.

وذلك يصدِّق حديث رسول اللّه حيث قال: "كيف تهلك أمّةٌ أنا في أوّلها وعيسى في آخرها؟".

وقال آخرون: معنى ذلك إنّي متوفّيك وفاة موت.

عن ابن عبّاس قال: إنّي مميتك..

وعن وهب بن منبه اليماني قال: توفّى اللّه عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتّى رفعه إليه..

وعن ابن إسحق قال: والنّصارى يزعمون أنّه توفّاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه اللّه.

وقال آخرون: معنى ذلك : ومتوفّيك بعد إنزالي إيّاك إلى الدنيا..

أمّا الطبري فيقول: وأولى هذه الأقوال بالصحّة عندنا قول من قال: إنّي قابضك من الأرض ورافعك إليّ؛ وذلك لتواتر الأخبار عن رسول اللّه أنّه قال: "ينزل عيسى ابنُ مريم فيقتل الدجّال، ثم يمكثُ في الأرض مدّة. ثم يموت فيُصلّي عليه المسلمون ويدفنونه".

عن أبي هُريرة قال: قال رسول اللّه: "ألأنبياء إخوة لعلاّت. أمّهاتهم شتّى ودينهم واحد. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنّه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ، وإنّه خليفتي على أمّتي، وإنّه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: فإنّه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر كأنّ شعره يقطر وإنْ لم يصبْه بلل بين مُمَصَّرَتَين، يدقُّ الصليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويُفيضُ المالَ، ويقاتلُ الناسَ على الإسلام،

حـتّى يُهلك اللّهُ في زمـانه المللَ كلَّهـا، ويُهلك اللّـه في زمانه مـسـيحَ الضلالة الكـذّاب الدجّال. وتقع في الأرض الأمنةُ، حـتى تَرتعَ الأسودُ مع الإبل، والنّمرُ مع البقر، والذئابُ مع الغنم، وتلعبَ الغلمانُ بالحيّات، لا يضرّ بعـضُهم بعضـاً، فيثبت فـي الأرض أربعين سنة، ثمّ يتوفّى. ويُصلّي المسلمون عليه ويدفنونه.

ومعلوم، يقـول الطبري، أنّه لو كـان قد أماته الـلّه عزّ وجل لم يكن بالذي يميته مـيتة أخرى فيجـمع عليه ميتتين، لأنّ اللّه إنّمـا أخبر عباده أنّه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم (٣٠/ ٤٠).

فتـأويل الآية إذاً: قال اللّه لعيـسى: يا عيـسى إنّي قابضك من الأرض، ورافعك إليّ، ومطهّرك من الذين كفروا فجحدوا نبوّتك.

وجاعِلُ الّذينَ اتّبَعُوكَ فوقَ الّذينَ كَـفَروا إلى يَومِ القِيَامَةِ. (أي: وجاعل الذين اتّبـعوك على منهاجك وملّتك من الإسـلام وفطرته فوق الذين جحـدوا نبوّتك وخـالفوا بسبـيلهم جمـيع أهل الملل، فكذّبوا بما جئت به وصـدّوا عن الإقرار به، فـمصيـرهم فوقهم ظاهريـن عليهم. وقال آخـرون: معنى ذلك: وجاعل الذيـن اتّبعوك من النصـارى فوق اليهود).

ثمّ إليّ مَرْجِعُكُم (أي: مصـيركم يوم القيـامة)، **فأحْكُمُ بينَكُمْ** (أي: فأقضـي حينئذ بين جميعكم في أمر عيسى بالحقّ) **فيما كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفونَ** (من أمره).

فأمّا الّذين كَفروا (أي الذين جحدوا نبوّتك يا عيسى، وخالفوا ملّتك، وكذّبوا بما جئـتَهم به من الحقّ، وقالوا فيك البـاطل، وأضافوك إلى غيـر الذي ينبغي أن يضيفـوك إليه من اليهود والنصـارى وسائر

أصناف الأديان، فإنّي) **أُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَديداً في الدُّنيا** (بالقتل والسباء والذلّة والمسكنة) **وفي الآخِرةِ** (بنار جهنّم خالدين فيها أبداً). **وما لهُمْ منْ ناصِرينَ** (أي: من عذاب الله مانع، ولا عن أليم عقابه لهم دافع بقوّةٍ ولا شفاعةٍ، لأنّه العزيز ذو الانتقام).

وأمّا الّذين آمَنوا (بك يا عيسى، فأقرّوا بنبوّتك وبما جئتَهم به من الحق من عندي، ودانوا بالإسلام الذي بعثتُك به)، **وَعَمِلوا الصّالِحاتِ** (أي: عملوا بما فرضتُ من فرائضي على لسانك، وشرعتُ من شرائعي، وسننتُ من سنني) **فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهم** (أي: يعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملاً، لا يبخسون منه شيئاً ولا ينقصونه). **واللّهُ لا يُحبُّ الظّالِمينَ** (أي: والله لا يحبّ مَن ظلم غيرَه حقّاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه).

ذلكَ (أي: هذه الأنباء التي أنبأ بها نبيَّه عن عيسى وأمّه مريم وأمّها حنّة وزكريّا وابنِه يحيى، وما قصّ من أمر الحواريّين واليهود من بني إسرائيل)، **نتلوهُ عليكَ منَ الآياتِ** (أي العبر والحجج على مَن حاجّك من نصارى نجران، واليهود الذين كذّبوك وكذّبوا ما جئتَهم به من الحقّ)، **والذِّكْرِ** (القرآن) **الحكيمِ** (أي ذي الحكمة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وبينك وبين ناسبي المسيح إلى غير نسبه).

إنّ مَثَلَ عيسَى عندَ اللّـهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ من تُرابٍ (أي: إنّ شِبْهَ عيسى في خلقي إيّاه من غير فحل كشِبهِ آدم الذي خلقتُه من تراب. ثمّ قلتُ له: **كُنْ**. فكان من غير فحل ولا ذكر ولا أنثى. يعني: ليس خلقي عيسى من أمّه من غير فحل بأعجب من خلقي آدم من غير ذكَر ولا أنثى، وأمري إذ أمرتُه أن يكون فكان لحماً، يقول: فكذلك خلقي عيسى، أمرتُه أن يكون فكان.

الرازي:

وإذْ قـالتِ الملائكة (وهو جـبـريل وحـده)**: يا مَـريمُ! أنّ اللّهَ اصطفاكِ وطهَّرَكِ واصطفاكِ على نساء العَالَمينَ.**(إنّ مريم ما كانت من الأنبيـاء لقوله: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاّ رِجَـالاً نُوحِي إليهِم" (١٢/ ١٠٩). ثمّ إنّ اللّه مـيـّزها بثـلاث : ألإصـطفـاء الأوّل، والتطهـيـر، والاصطفاء على نساء العالمين.

١) النوع الأوّل من الاصطفاء فهو أمور:

أحدها: أنّه تعالى قبِلَ تحريرَها مع أنّها كانتْ أُنثى، ولم يحصل مثلُ هذا المعنى لغيرها من الإناث.

وثانيها: إنّ أمّها، لمّا وضعتْها ما غذّتها طرفةَ عين، بل ألقتْها إلى زكريّا، وكان رزقُها يأتيها من الجنّة.

وثالثها: أنّه تعالـى فرّغهـا لعبـادته، وخصّهـا في هذا المعنى بأنواع اللّطف والهداية والعصمة.

ورابعها: أنّه كفاها أمرَ مـعيشتها، فكان يأتيـها رزقها من عند اللّه تعالى.

وخامسها: أنّه تعالى أسمَـعها كلامَ الملائكة شَـفاهاً، ولم يتّفق ذلك لأنثى غيرها.

٢) أمّا التطهير ففيه وجوه:

أحدها: أنّه تعالى طهّرها عن الكفر والمعصية..

وثانيها: أنّه تعالى طهّرها عن مسيس الرجال.

وثالثها: طهّرها من الحيض..

ورابعها: وطّهرها من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة.

وخامسها: وطّهرها عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم.

٣) وأمّا الاصطفاء الثاني فالمراد أنّه تعالى وهب لها عيسى من غير أب. وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتّى شهد بما يدلّ على براءتها عن التهمة. وجعلها وابنَها آيةً للعالمين.

إذ قالتِ الملائكةُ (يفيد الجمع إلاّ أنّ المشهور أنّ ذلك المنادي كان جبريل):

بكَلِمَةٍ منْهُ. ثمّة وجهان:

الأوّل: لمّا لم يكن لعيسى أبٌ، فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أكمل وأتم. فجُعل بهذا التأويل كأنّه نفس الكلمة؛ كما أنّ مَن غلب عليه الجود والكرم والإقبال، يقال فيه، على سبيل المبالغة، إنّه نفس الجود، ومحض الكرم، وصريح الإقبال. فكذا ههنا.

والثاني: أنّ السلطان العادل قد يوصف بأنّه ظل اللّه في أرضه، وبأنّه نور اللّه، لِما أنّه سببٌ لظهور ظلّ العدل ونور الإحسان؛ فكذلك كان عيسى سبباً لظهور كلام اللّه بسبب كثرة بياناته وإزالة الشبهات والتحريفات عنه؛ فلا يبعد أن يسمّى بكلمة اللّه تعالى على هذا التأويل.

اسْمُهُ المسيحُ (إسم مشتق وعليه الأكثرون. وفيه وجوه:

الأوّل: قال ابن عبّاس: إنّما سُمّي عيسى مسيحاً، لأنّه ما كان يمسح بيده ذا عاهة إلاّ برئ من مرضه.

الثاني: قال أحمد بن يحيى: سمّي مسيحاً لأنّه كان يمسح الأرض، أي يقطعها. ومنه مساحة أقسام الأرض. وعلى هذا المعنى

يجوز أن يقال لعيسى: مسّيح، كما يقال للرجل: فسّيق وشرّيب.

الثالث: أنّه كان مسيحاً، لأنّه كان يمسح رأس اليتامى للّه تعالى. فعلى هذه الأقوال: هو فعيل بمعنى فاعل، كرحيم بمعنى راحم.

الرابع: أنّه مسح من الأوزار والآثام.

الخامس: سمّي مسيحاً لأنّه ما كان في قدمه خمص، فكان ممسوح القدمَين.

السادس: سمّي مسيحاً لأنّه كان ممسوحاً بدهنٍ طاهرٍ مبارك، يُمسح به الأنبياء، ولا يمسح به غيرهم. ثمّ قالوا: وهذا الدهن يجوز أن يكون اللّه تعالى جعله علامة حتى تعرفَ الملائكةُ أنّ كلّ من مُسح به وقت الولادة فإنّه يكون نبيّاً.

السابع: سمّي مسيحاً لأنّه مسحَه جبريل بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مسّ الشيطان.

الثامن: سمّيّ مسيحاً لأنّه خرج من بطن أمّه ممسوحاً بالدهن..

وأمّا **المسيح الدجّال** فإنّما سمّي مسيحاً لأحد وجهين: **أحدهما:** لأنّه ممسوح العينَين؛ و**الثاني**: أنّه يمسح الأرض، أي: يقطعها في المدّة القليلة).

ويُعَلِّمُه الكتابَ (أي: الخط والكتابة) **والحِكْمَةَ** (أي: العلوم وتهذيب الأخلاق) **والتّوراةَ والإنجيلَ. ورسولاً إلى بني إسرائيلَ** (أي ونبعثه ويكلّم الناسَ رسولاً).

ومَكَرُوا ومكَرَ اللّهُ. واللّهُ خيرُ الماكِرينَ (أي: إنّ مكرهم بعيسى هو أنّهم همّوا بقتْله. وأمّا مكر اللّه بهم ففيه وجوه:

الوجــه الأوّل: مكر اللّه تــعــالى بهم هو أنّه رفع عـــيــسى إلى السماء. وذلك أنّ يَهُودَا، ملكَ اليهود، أراد قــتلَ عيسى، وكان جبريل لا يفارقــه ساعــة. وهو معنى قوله: "وَأَيَّـدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (٢/٨٧). فلمّا أرادوا ذلــك أمره جبـريل أن يدخل بيتــاً فيه روزنة. فلــمّا دخلوا البيتَ أخرجه جبريل من تلك الروزنة. وكان قد ألقى شَبَهَه على غيره. فأُخذ وصُلب. فتفرّق الحاضرون ثلاثَ فرق: فرقة قالت: كان اللّه فينا فــذهب. وأخرى قــالت: كان ابن اللّه. والأخــرى قالت: كــان عبــد اللّه ورســوله فأكــرمه بأن رفــعه إلى الــسمــاء. وصار لكلّ فــرقة جــمْعٌ فظاهرتِ الكافــرتان الفــرقــةَ المؤمنة إلى أن بَعث اللّــه محــمّــداً. وفي الجملة، فــالمراد من مكر اللّه بهم أنْ رفع اللّه عيــسى إلى السمــاء وما مكّنهم من إيصال الشرّ إليه.

الوجه الثاني: إنّ الحواريّين كانوا اثني عشر، وكانوا مجتمعين في بيت. فنافق رجلٌ منهم، ودلّ اليهــودَ عليه. فألقى اللّه شَبَــهَه عليه. ورَفع عيسى. فــأخذوا ذلك المنافقَ الذي كان فيــهم. وقتلوه وصلبوه، على ظنٍّ أنّه عيسى. فكان ذلك هو مكر اللّه بهم.

الوجه الثالث: ذكر محمّد بن إسحق أنّ اليهود عذّبوا الحواريّين بعد أن رُفع عيــسى. فشمّســوهم وعذّبوهم. فلقوا منهم الجــهد. فبلغ ذلك ملكَ الروم. وكان ملكُ الــيهود من رعيّــته، فقــيل له: إنّ رجلاً من بني إسرائــيل ممّن تحت أمرك، كان يُــخبرهم أنّه رســول اللّه. وأراهم إحياءَ الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. فقُتل. فقال: لو علمتُ ذلك لحُلْتُ بينه وبينهم.

ثم بعث إلى الحــواريّين، فــانتزعــهم من أيديهم، وســألهم عن عيسى. فأخبروه. فتابــعهم على دينهم. وأنزل المصلوب. فغيَّبَه. وأخذ

الخشـبة فأكـرمها وصـانها. ثم غـزا بني إسرائيل. وقَتل مـنهم خَلقاً عظيـماً. ومنه ظهـر أصلُ النّصـرانيّة في الروم. وكـان إسم هذا الملك طباريس، وهو صـار نصرانياً. إلاّ أنّـه ما أظهر ذلك. ثمّ إنّه جـاء بعدَه ملكٌ آخر، يقال له: مطليس. وغزا بيتَ المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحوٍ من أربعين سنة. فقتَلَ وسبَى ولم يتـركْ في مدينةِ بيت المقدس حجراً على حجر. فخرج عند ذلك قريظة والنضـير إلى الحجاز. فهذا كلّه ممّا جازاهم اللّه على تكذيب المسيح وألهم بقتله.

الوجـه الرابع: إنّ اللّه تعـالى سلّط عليـهم ملكَ فـارس حـتّى قتلهم، وسباهم، وهو قوله: "بَعَـثْنا عليكم عِبَاداً لنا أُولِي بأسٍ شديدٍ" (١٧/ ٥). فهذا هو مكر اللّه تعالى.

الوجه الخامس: يحتمل أن يكون المراد أنّـهم مكروا في إخفاء أمـره، وإبطال دينه. ومكر اللّه بهم حـيث أعلى دينَه وأظهر شـريعتـه وقهر بالذلّ والدناءة أعداءه، وهم اليهود. واللّه أعلم.

إذ قالَ اللّهُ: يا عـيسَى! إنّي مُتَوَفّيْكَ ورَافـعُكَ إليَّ، ومُطَهِّرُكَ من الّذينَ كَفَروا، وجاعِلُ الّذينَ اتّبَعُوكَ فـوقَ الّذينَ كَفَروا إلى يومِ القيامةِ. ثمَّ إليَّ مَرْجِعُكُم، فأحْكُمُ بينَكُمْ فيما كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفونَ.

في هذه الآية شرّف اللّه عيسى بصفات:

الصفة الأولى: "إنّي متوفّيك". وفيها وجوه:

الأوّل: أي مـتمّم عـمرك، فـحينئـذ أتوفّاك، فـلا أتركهم حـتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقرّبك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكّنوا من قتلك. وهذا تأويل حسن.

الثاني: متوفّيك، أي مميتك.. والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله. ثمّ إنّه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء. ثمّ اختلفوا على ثلاثة أوجه: **أحدها**: قال وهب: توفّي ثلاث ساعات، ثم رفع. و**ثانيها**: قال محمّد بن إسحق: توفّي سبع ساعات، ثم أحياه اللّه ورفعه. و**الثالث**: قال الربيع بن أنس: إنّه تعالى توفّاه حين رفعه إلى السماء، نظير قوله: "اللّهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حينَ مَوتِها والّتي لمْ تَمُتْ في مَنامِها" (٣٩/٤٢)

الثالث...[٦].

الرابع: ثمّ إنّ معنى الوفاة والرَّفْع موقوف على الدليل. وقد ثبت الدليل أنّ عيسى حيٌّ. وورد الخبر عن النّبيّ: "إنّه سينزل ويقتل الدجّال". ثمّ إنّ اللّه يتوفّاه بعد ذلك.

الخامس: المراد "إنّي مُتَوَفِّيكَ" عن شهواتك وحظوظ نفسك. ثم قال "وَرَافِعُكَ إلَيَّ"، وذلك لأنّ مَن لمْ يصرْ فانياً عمّا سوى اللّه لا يكون له وصول إلى مقام معرفة اللّه. فعيسى، لمّا رُفع إلى السماء، صار حالُه كحالِ الملائكة في زوال الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة.

السادس: إنّ التوفّي أخذُ الشيء وافياً. ولمّا علم اللّه أنّ من الناس مَن يخطر بباله أنّ الذي رفَعَه الله هو رُوحُه، لا جسده، ذكر هذا الكلام ليدلّ على أنّه عليه الصلاة والسلام رُفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده. ويدلّ على صحّة هذا التأويل قوله تعالى: "وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيءٍ" (٤/١١٣).

---

(٦) ألوجه الثالث ناقص من النصّ الأصلي.

السابع: "إنّي متوفّيكَ"، أي أجعلك كالمتوفّي، لأنّه، إذا رفع إلى السماء وانقطع خبرُه وأثرُه عن الأرض، كان كالمُتوفّي، وإطلاق إسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

الثامن: إنّ التوفّي هو القبض. يقال: وفّاني فلان دراهمي، وأوفاني وتوفّيتُها منه، كما يقال: سلّم فلان دراهمي إليّ وتسلّمتها منه. وقد يكون أيضاً توفّي بمعنى استوفى. وعلى كلا الاحتمالَين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفّياً له. فإنْ قيل: فعلى هذا الوجه كان التوفّي في عين الرّفع إليه، فيصير قوله "ورافعك إلى" تكراراً. قلنا: قوله "إنّي متوفّيك" يدلّ على حصول التوفّي. وهو جنس تحته أنواع؛ بعضها بالموت، وبعضها بالإصعاد إلى السماء. فلمّا قال بعده "ورافعُكَ إليّ" كان هذا تعيينا للنوع، ولم يكن تكراراً.

التاسع: أن يقدَّر فيه حذف المضاف والتقدير: متوفّي عملك بمعنى مستوفي عملك. "ورَافعُكَ إليّ"، أي: ورافع عملك إليّ. وهو كقوله: "إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ" (٣٥/ ١٠)، والمراد من هذه الآية أنّه تعالى بشّره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره، ولا يهدم ثوابه.

فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يُجري الآية على ظاهرها).

الصفة الثانية(٧).

---

(٧) وقد سمّاها الرازي: "الطريق الثاني". وفيها يتكلّم على أنّ في الآية تقديم وتأخير. «والمعنى: إنّي رافعك إليّ، ومطهّرك من الذين كفروا، ومتوفّيك بعد

الصفة الثالثة: قوله: **وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**. (أي: ومخرجك من بينهم، ومفرق بينك وبينهم. وكما عظّم شأنَه بلفظ الرّفْع إليه، أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير. وكلّ ذلك يدلّ على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى).

الصفة الرّابعة: قوله: **وجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فوقَ الَّذِينَ كَفَروا إلى يومِ القيامةِ**. فيها وجهان:

الأوّل: إنّ الذين اتّبعوا دين عيسى هم فوق الذين كفروا به، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة. فيكون ذلك إخباراً عن ذلّ اليهود، وإنّهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة. فأمّا الذين اتّبعوا المسيح فهم الذين كانوا يؤمنون بأنّه عبد الله ورسوله. وأمّا بعد الإسلام فهم المسلمون. وأمّا النصارى فهم، وإنْ أظهروا من أنفسهم موافقته، فهم يخالفونه أشدّ المخالفة من حيث أنّ صريح العقل يشهد أنّه عليه السلام ما كان يرضى بشيء ممّا يقوله هؤلاء الجهّال. ومع ذلك، فإنّا نرى أنّ دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود، فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكاً يهودياً، ولا بلدة مملوءة من اليهود. بل يكونون أين كانوا بالذلّة والمسكنة. وأمّا النصارى فأمرهم بخلاف ذلك.

الثاني: إنّ المراد من هذه الفوقيّة الفوقيّة بالحجّة والدليل.

واعلم أنّ هذه الآية تدل على أنّ رفعه في قوله "ورافعك إليّ" هو الرفعة بالدرجة والمنقبة، لا بالمكان والجهة؛ كما أنّ الفوقيّة في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة).

إنزالي إيّاك في الدنيا. ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن».

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُم، فَأَحْكُمُ بينَكُمْ فيما كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفونَ، (أي: أنّه تعالى بشّر عيسى، عليه السلام، بأنّه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة، والدرجات الرفيعة العالية؛ وأمّا في القيامة فإنّه يحكم بين المؤمنين به وبين الجاحدين برسالته. وكيفيّة ذلك الحكم ما ذكره في الآية التي بعد هذه الآية.

وبقي من مباحث هذه الآية موضع شكل، وهو أنّ نص القرآن دلّ على أنّه تعالى، حين رفعه، ألقى شَبَهَه على غيره، على ما قال: "وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ" (٤/ ١٥٧). والأخبار أيضاً واردة بذلك. إلاّ أنّ الروايات اختلفت: فتارة يُروى أنّ اللّه تعالى ألقى شَبَهَه على بعض الأعداء الذين دلّوا اليهودَ على مكانه حتّى قتلوه وصلبوه؛ وتارة يُروى أنّه عليه السلام رغّب بعضَ خواصّ أصحابِه في أن يُلقي شَبَهه حتّى يُقتَلَ مكانه.

فكيفما كان ففي إلقاء شَبَهِه على الغير إشكالات:

الإشكال الأوّل: إنّا، لو جوّزنا إلقاء شَبَهَ إنسانٍ على إنسانٍ آخر، لزم السفسطة. فإنّي، إذا رأيتُ وَلَدي، ثمّ رأيتُه ثانياً، فحينئذٍ أجوّز أن يكون هذا الذي رأيتُه ثانياً، ليس بوَلدي، بل هو إنسانٌ ألقي شَبَهُه عليه. وحينئذٍ يرتفع الأمان على المحسوسات. فالصحابة الذين رأوا محمّداً يأمرهم وينهاهم، وجب أن لا يعرفوا أنّه محمّد، لاحتمال أنّه ألقى شبهه على غيره. وذلك يقضي إلى سقوط الشرائع. وأيضاً، فمدار الأمر في الأخبار المتواترة على يكون المخبر الأوّلُ إنّما أخبر عن المحسوس؛ فإذا جاز وقوع الغلط في المبصرات، كان سقوط خبر المتواتر أولى. وبالجملة ففتحُ هذا الباب أوّله سفسطة وآخره إبطال النبوّات.

الإشكال الثاني: وهو أنّ اللّه تعالى كان قد أمر جبريل بأن يكون معه في أكثر الأحوال. هكذا قاله المفسّرون في تفسير قوله: "إذْ أيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ" (٥/ ١١٠). ثمّ إنّ طرَفَ جناحٍ واحدٍ من أجنحةِ جبريل كان يكفي العالَم من الشر، فكيف لم يكفِ في منع اليهود عنه؟ وأيضاً، إنّه عليه السلام، لمّا كان قادراً على إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فكيف لم يقدرْ على إماتة أولئك اليهود الّذين قصدوه بالسوء، وعلى إسقامهم، وإلقاء الزمانة والفلج عليهم، حتّى يصيروا عاجزين عن التعرّض له؟

الإشكال الثالث: إنّه تعالى كان قادراً على تخليصه من أولئك الأعداء بأنْ يرفعه إلى السماء. فما الفائدة في إلقاء شبهه على غيره؟ وهل فيه إلاّ إلقاء مسكين في القتل من غير فائدة إليه؟

الإشكال الرابع: إنّه إذا ألقي شبهه على غيره، ثمّ إنّه رُفع بعدَ ذلك إلى السماء، فالقوم اعتقدوا فيه أنّه هو عيسى، مع أنّه ما كان عيسى. فهذا كان إلقاء لهم في الجهل والتلبيس. وهذا لا يليق بحكمة اللّه تعالى.

الإشكال الخامس: إنّ النصارى، على كثرتهم في مشارق الأرض ومغاربها، وشدّة محبّتهم للمسيح، وغلوِّهم في أمره، أخبروا أنّهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً. فلو أنكرنا ذلك كان طعناً فيما ثبت بالتواتر. والطعن في التواتر يوجب الطعنَ في نبوّة محمّد، ونبوّة عيسى، بل في وجودهما، ووجود سائر الأنبياء. وكل ذلك باطل.

الإشكال السادس: إنّه ثبت بالتواتر أنّ المصلوب بقي حَيّاً زماناً طويلاً. فلو لم يكن ذلك عيسى، بل كان غيرُه، لأظهر الجزع، ولقال: إنّي لستُ بعيسى، بل إنّما أنا غيره.

فهذه جملة ما في الموضع من السؤالات.

و**الجواب عن الأوّل:** إنّ كلّ مَن أثبت القادر المختار، سلّم أنّه تعالى قادرٌ على أن يخلق إنساناً آخر على صورة زيد مثلاً. ثمّ إنّ هذا التصوير لا يوجب الشكّ المذكور. فكذا القول فيما ذكرتم.

و**الجواب عن الثاني:** إنّ جبريل، لو دفع الأعداء عنه، أو أقدر اللّه عيسى على دفع الأعداء عن نفسه، لبلغتْ معجزتُه إلى حدّ الإلجاء. وذلك غير جائز.

وهذا هو **الجواب عن الإشكال الثالث:** فإنّه تعالى، لو رفعه إلى السماء، وما ألقي شبهه على الغير، لبلغت تلك المعجزة إلى حدّ الإلجاء.

و**الجواب عن الرابع:** إنْ تلامذة عيسى كانوا حاضرين، وكانوا عالمين بكيفيّة الواقعة، وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس.

و**الجواب عن الخامس:** إنّ الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين. ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز. والتواتر، إذا انتهى في آخر الأمر إلى الجمع القليل، لم يكن مفيداً للعلم.

و**الجواب عن السادس:** إن بتقدير أن يكون الذي ألقى شبه عيسى كان مسلماً وقبل ذلك عن عيسى جائز أن يسكت عن تعريف حقيقة الحال في تلك الواقعة.

وبالجملة فالأسئلة التي ذكروها أمور تتطرّق الاحتمالات إليها من بعض الوجوه، ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمّد في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع. واللّه وليّ الهداية.

إبن كثير:

فلمّا أحسّ عيسَى منهُمُ الكُفْـرَ، قالَ: مَنْ أنْصاري إلى اللّهِ؟ قالَ الحَوَارِيُونَ: نحـنُ أنْصارُ اللّهِ. آمَنّا باللّهِ واشْـهَدْ بأنّا مُسْلِـمون. رَبّنا! آمَنّا بما أنْزَلْتَ. واتّبَعْنا الرّسولَ. فاكْتُبْنا معَ الشاهِدينَ.

وهكذا وقع. فإنّ المسيح، عليه السلام، لمّا رفعه اللّه إلى السماء، تفرّقت أصـحابه شِيعـاً بعده. فمنهم من آمن بما بعـثه اللّه به على أنّه عـبد اللّه ورسـوله وابن أَمَتِـه. ومنهم من غـلا فيـه فجـعله ابن اللّه. وآخرون قـالوا هو اللّه. وآخرون قالوا هو ثالث ثـلاثة. وقد حكى اللّه مقالتهم في القرآن وردّ على كلّ فريقٍ.

فاستمرّوا على ذلك قريباً من ثلثمائة سنة. ثمّ نبغ لهم ملكٌ من ملوك اليـونان، يقال له قـسطنطين، فـدخل في دين النّصـرانيّة، قـيل حيلةً، ليـفسده، فـإنّه كان فيلسـوفاً. وقيل جـهلاً منه. إلاّ أنّه بدّل لهم دين المسـيح وحـرّفه وزاد فـيـه ونقص منه، ووضـعت له القـوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة.

وأحل في زمـــانه لحم الخـنزير، وصلّـوا له إلى المشــــرق، وصوّروا له الكنائس والمـعابد والصوامع، وزاد في صـيامهم عـشرة أيّام من أجل ذنبٍ ارتكبـه فـيمـا يزعـمون. وصــار دين المسـيح دينَ قسطنطين. إلاّ أنّه بنى لهم من الكنائس والمعـابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألفَ معبـد. وبنى المدينة المنسوبة إليه. وأتبعه طائفة الملَكيّة منهم.

وهم في هذا كلّه قاهرون لليهود أيّده اللّه عليهم، لأنّه أقرب إلى الحق منهم؛ وإن كان الجميع كفّاراً. عليهم لعائن اللّه.

فلمّا بعث اللّه محمّداً فكان مَن آمن به يؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحقّ، فكانوا هم أتباع النبيّ على وجه الأرض. إذ قد صدّقوا الرسول النّبيَّ الأمّي العربي خاتم الرسل، وسيّد ولد آدم على الإطلاق، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكلّ نبيّ من أمّته الذين يزعمون أنّهم على ملّته وطريقته ممّا قد حرّفوا وبدّلوا. ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ اللّه شريعة جميع الرسل بما بعث اللّه به محمّداً من الدين الحق الذي لا يُغَيّر ولا يُبَدّل إلى قيام الساعة. ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كلّ دين. فلهذا فتح اللّه لأصحابه مشارق الأرض ومغاربَها. واجتازوا جميع الممالك. ودانت له جميعُ الدول. وكسروا كسرى، وقصّروا قيصرَ، وسلبوهما كنوزَهما وأنفقت في سبيل اللّه.

فلهذا، لمّا كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقّاً، سلبوا النصارى بلاد الشام، وألجأوهم إلى الروم. فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينيّة. ولا يزال الإسلام وأهلُه فوقَهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق، صلّى اللّه عليه وسلّم، أمّتَه بأنّ آخرَهم سيفتحون القسطنطينيّة ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلةً عظيمة جدّاً لم يرَ الناسُ مثلها ولا يرون بعدها نظيرَها.

القاسمي:

وَلِأُحِلَّ لكمْ بعضَ الذي حُرِّمَ عليكمْ... أقول: قد اتّفقوا (النصارى) على أنّ المسيح أقام شرائع التوراة كلّها. ثم جاء بولس ومَن بعدَه من الرهبان، فادّعوا أنّ المسيح فعل ذلك كلّه ورفعه عنهم، إذ أكمله وأتمّه بفعله إيّاه. وكفاهم مؤونة العمل بشيء منه. وأغناهم بشريعته الروحانيّة. فنقضوا الناموسَ الذي جاء لإكماله المسيح.

فمـا نقضوه إباحـةَ كثيرٍ من الحـيوانات المحرَّمـة في الناموس الموسويّ، فنُسخـتْ حرمتُها في الشـريعة العيسويّـة، وثبتت الإباحة العـامّة بفـتوى بولس، إذ قـال لهم: "لا شيء نجس العين"، كمـا في رسالته إلى أهل رومية.

وممّا نقضوه تعظيم السبت. فقـد كان حكماً أبديّاً في الشريعة الموسويّة. وما كان لأحـد أن يعمل فيه أدنى عمل. وكان مَـن عمل فيه عملاً واجب القتل.

ومنه أحكام الأعياد المشروعة في التوراة.

ومنه حكم الختان الذي كـان أبديّاً في شريعة إبراهيم وأولاده إلى شريعة موسى. وقد خُتن عيسى، فنسخ حكمَه الرهبانُ بعده، كما نسخوا جميع الأحكام العمليّة للتوراة، إلاّ الزنى..

ودعـا عيـسى تلاميـذه وبعـثهم إلى الإسـرائيليّين الضـالّين، يدعـونهم إلى الحقّ الذي جـاء به. فبـذلوا الجهـدَ في بثّـه وانتشـاره وإقامتـه، إلى أن جاء بولس فسلبَـهم بخداعه، دين المسيح الصـحيح، فلم يسمعوا له بعد من خبر، ولا وقفوا له على أثر، وطمس لهم رسوم التوراة، وحلّل لهم كلّ محرّم..

"**ومَكَرُوا**"، أي: الذين أحس عـيـسى منـهم الكفـر بأنْ همّـوا بالفتك به وإرادته بالسوء، حـيث تمالؤوا عليه، ووشَوا به إلى ملكهم؛ "**ومَكَرَ اللّهُ**"، أي: بهم بعد ذلك فـانتقم منهم وأورثهم ذلّة مسـتمرّة، وأباد ملكهم. "**واللّهُ خيرُ الماكِرينَ**"، أي: أقواهم مكراً، وأنفذهم كيداً، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب.

وقال البقاعي، كغـيره، في قوله تعالى: "**وَمَكَرَ اللّهُ**"، أي: بأنْ رفعَـه إليه. وشُبِّـه ذلك عليهم حـتّى ظنّوا أنّهم صلبوه. وإنّمـا صلبوا

أحدهم. ويُقال إنّ الذي دلّهم. وأمّا هو، فصانه عنده بعد رفعه إلى محلّ أوليائه وموطن قدسه، ليُنزله في آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضربتْ عليه الذلّة بعد قصدهم له بالأذى الذي طلبوا به العزّ إلى آخر الدهر. فكان تدميرهم في تدبيرهم.

ثم أخبر تعالى ببشارته بالعصمة من مكرهم بقوله: "**إذ قالَ اللّهُ: يا عيسَى! إنّي مُتَوَفّيْكَ**"، أي: مستوفي مدّة إقامتك بين قومك. والتوفّي، كما يُطلق على الإماتة، كذلك يطلق على استيفاء الشيء. **ورَافِعُكَ إليّ**، أي: يبيّن سبحانه في بشارته بالرفعة إلى محلّ كرامته وموطن ملائكته ومعدن النزاهة عن الأدناس. **ومُطَهِّرُكَ من الّذينَ كَفَروا**، أي: من مكرهم وخبث صحبتهم.

محمّد عبده:

"**ذلكَ من أنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إليكَ**". قال الإستاذ الإمام: أمّا المجاحدون من أهل الكتاب، لا سيّما دعاة النّصرانيّة في هذا الزمان، فهم يقولون فيما وافق القرآن به كتبهم أنّه مأخوذ منها بدليل موافقته لها، وفيما خالفها أنّه غير صحيح بدليل أنّه خالفها، وفيما لم يوافقها ولم يخالفها به أنّه غير صحيح لأنّه لم يوجد عندنا. وهذا منتهى ما يكابر به مناظر مناظراً، وأبطل ما يردّ به خصم على خصم...

"**إذ قالتِ الملائكةُ**". والمراد بالملائكة هنا: الروح جبريل، لقوله تعالى في سورة مريم: "فأرْسَلْنا إليها رُوحَنا، فَتَمَثَّلَ لها بشراً سويّاً" (١٩/١٧).

"**بكَلِمَةٍ منْهُ**". في لفظ "كلمة" **أربعة** وجوه: **أحدها**: أنّ المراد بالكلمة كلمة التكوين، لا كلمة الوحي.. فكلمة "**كن**" (٣٦/٨٢) هي

كلمة التكوين. يُقال: إنّ كلّ شيء قد خُلق بكلمة التكوين، فلماذا خُصّ المسيح بإطلاق الكلمة عليه؟ وأجيب عن ذلك بأنّ الأشياء تُنسب في العادة والعرف العام في البشر، إلى أسبابها. ولمّا فُقِدَ، في تكوين المسيح وعلوقِ أمّه به، ما جعلَه اللّهُ سبباً للعلوق، وهو تلقيح ماء الرّجل لِما في الرّحم من البيوض التي يتكوّن منها الجنين، أُضيفَ هذا التكوين إلى كلمة اللّه، وأُطلقتِ الكلمةُ على المكَوَّنِ إيذاناً بذلك، أو جُعِلَ كأنّه نفسُ الكلمة مبالَغةً. وهذا هو الوجه المشهور.

الوجه الثاني: أنّه أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارة الأنبياء به. فهو قد عُرف بكلمة اللّه، أي بوحيه لأنبيائه. والكلمة تُطلق على الكلام، كقوله: "ولَقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لعِبادِنا المرسَلين" (٣٧/ ١٧١).

الوجه الثالث: أنّه أُطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد إيضاحه لكلام اللّه الّذي حرّفه قومُه اليهودُ حتّى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين مادّياً محضاً.. فكذلك كان عيسى سبباً لظهور كلام اللّه بسبب كثرة بياناته له وإزالة الشبهات والتحريفات عنه.

الوجه الرّابع: أنّ المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمّه. فقوله بكلمة منه، معناه بخبرٍ من عنده، أو بشارة. وهو كقول القائل: "ألقى إلى فلان كلمةً سرّني بها"، بمعنى: أخبرني خبراً فرحتُ به... هذا المبشَّر به "**إسْمُهُ المَسيْح عيسَى**".

"قالتْ: أنّى يكونُ لي وَلَدٌ وَلمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟ قال: كذلكَ اللّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ. إذا قضَى أمراً فإنّما يقولُ له: كُنْ فَيَكُونُ".

يقول الإمام: ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متّفقين على إمكان التولّد الذاتي، أي تولّد الحيوان من غير حيوان، أو من الجماد.

وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك بتجاربهم. وإذا كان تولّد الحيوان من الجماد جائزاً فتولّد الحيوان من حيوان أولَى بالجواز وأقرب إلى الحصول. ونحن نستدلّ على وقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليلُ على صدقه. ويمكن تقريب هذه الآية من السنن المعروفة في نظام الكائنات بوجهَين:

أحدهما: إنّ الاعتقاد القوي الذي يستولي على القلب، ويستحوذ على المجموع العصبي، يُحدث في عالم المادّة من الآثار ما يكون على خلاف المعتاد. فكم من سليمٍ اعتقد أنّه مصابٌ بمرضٍ كذا، وليس في بدنه شيءٌ من جراثيم هذا المرض، فولّد له اعتقادُه تلكَ الجراثيم الحيّة، وصار مريضاً! وكم من امرئ سُقي الماء القراح، أو نحوه، فشربه معتقداً أنّه سمٌّ ناقعٌ، فمات مسموماً به! والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب.

إذا اعتبرنا بها في أمر ولاد المسيح، نقول: إنّ مريم، لمّا بُشِّرتْ بأنّ اللّه سيهب لها ولداً بمحض قدرته، وهي على ما هي عليه من صحّة الإيمان وقوّة اليقين، انفعل مزاجُها بهذا الاعتقاد انفعالاً فعلَ في الرحم فعْلَ التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القويّ في مزاج السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ. وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة أخرى متمّماً لهذا التأثير.

الوجه الثاني: وهو أقرب إلى الحقّ، وإنْ كان أخفى وأدقّ. وبيانه يتوقّف على مقدّمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح... واللّطيف في الكثيف.. فإنّ اللّه المسخِّر للأرواح المنبثّة في الكائنات، وقد أرسلَ روحاً من عنده إلى مريم، فتمثّل لها بشراً، ونفخ فيها، فأحدثتْ نفختُه التلقيحَ في رحمها، فحملت بعيسى. وهل حملتْ إليها

تلك النّفخة مادّةً أم لا؟ ألله أعلم. أما البحث في تمثّل لهذه الأرواح التي تسمّى بلسان الشرع الملائكة، فهو كذلك من قوله: "فَأَرْسَلْنَا إِلَيها روحَنا فَتَمَثَّلَ لها بَشَراً سَوِيّاً" (١٩/ ١٧).

"**أنّي أخْلُقُ لكُمْ**". ألخلق التقدير والترتيب، لا الإنشاء والاختراع. ويَقرب أن يكون هذا إجماعاً من المفسّرين.

"**أنّي قد جِئْتُكم بآيَةٍ مِنْ ربِّكُمْ: أنّي أخْلُقُ لكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيْرِ. فَأَنْفُخُ فيهِ فَيَكونُ طَيراً بإذْنِ اللهِ. وأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ. وأُحْيي المَوتَى بإذْنِ اللهِ. وأُنَبِّئُكُمْ بما تأكُلُونَ وما تَدَّخِرونَ في بيوتِكُمْ**".

يقول الإمام: «مقتضى مذهب الصوفيّة أنّ روحانيّة عيسى كانت غالبة على جثمانيّته أكثر من سائر الروحانيّين، لأنّ أمّه حملتْ به من الروح الذي تمثّل لها بشراً سويّاً، فكان تجرّده من المادة الكثيفة للتصرّف بسلطان الروح من قبيل الملكة الراسخة فيه. وبذلك كان، إذا نفخ من روحه في صورةٍ رطبةٍ من الطين حلّها الحياة حتّى تهتزّ وتتحرّك. وإذا توجّه بروحانيّته إلى روحٍ فارقتْ جسدَها أمكنه أن يستحضرها ويعيد اتّصالَها ببدنها زمناً ما.

ولكنّ روحانيّة البشر لا تصل إلى درجة إحياء مَن مات فصار رميماً. ويؤيّد ذلك ما ينقله النصارى من إحياء المسيح للموتى. فإنّهم قالوا: إنه أحيا بنتاً قبل أن تدفن، وأحيا أليعازر قبل أن يبلى. ولم يُنقل أنّه أحيا ميتاً كان رميماً. وأمّا إبراء الأكمه والأبرص بالقوّة الروحانيّة فهو أقرب إلى ما يعهد الناس، لا سيّما مع اعتقاد المريض... وأمّا الأخبار ببعض المغيّبات فقد أوتيه كثيرون من الأنبياء، وممّن دونهم.

"**ومكَرُوا ومكَرَ اللّهُ. واللّهُ خيرُ الماكِرينَ**". المكرُ في نفسه شرّ؛ وإنْ كان في الخير مكر فمكره سبحانه وتعالى موجّه إلى الخير، ومكْرهم هو الموجّه إلى الشرّ.

لقد مكر اللّه بهم، "**إذ قالَ اللّهُ: يا عيسَى! إنّي متَوَفّيْكَ ورَافِعُكَ إليّ**". فإنّ هذه بشارة بإنجائه من مكرهم، وجعْل كيدهم في نحرهم، قد تحقّقتْ، ولم ينالوا منه ما كانوا يريدون بالمكر والحيلة.

والتوفّي، في اللّغة، أخذ الشيء وافياً تامّاً. ومن ثمّ استُعمل بمعنى الإماتة[٨].

والرّفع، كما قال تعالى في إدريس: "وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً" (١٩/٥٧). واللّه تعالى يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده، كما قال في الشهداء: "أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِم" (٣/١٦٩)، وقال: "إنّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عندَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ" (٥٤/٥٤-٥٥).

"**ومُطَهِّرُكَ من الّذينَ كَفَروا**"، أي إنْجاؤه ممّا كانوا يرمونه به، أو يرمونه منه، ويريدونه به من الشرّ.

وهذه المعاني لا تذهب إلى ما قاله المفسِّرون في «كون عيسى رُفع إلى السماء بجسده. وهاك ما قال الأستاذ الإمام في ذلك:

إنّ التوفّي، على معناه الظاهر المتبادر، وهو الإماتة العاديّة، وإنّ الرفع يكون بعده، وهو رفْع الروح. ولا بدْع في إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه. فإنّ الروح هي حقيقة الإنسان، والجسد

---

(٨) أنظر سورة الزّمر ٣٩/٤٢؛ وسورة السجدة ٣٢/١١.

كالثـوب المستعار، فـإنّه يزيد وينقص ويتغيّر. والإنســان إنسان لأنّ روحه هي هي.

سيّد قطب:

" وإذْ قــالتِ الملائكةُ: يا مَــريمُ! أنّ اللّهَ اصطـفـاكِ وطهَّــرَكِ واصطفاكِ على نسَاء العَالَمينَ. " .

وأي **اصطفاء**؟! وهو يخـتارها لتلقّي الـنفخـة المباشـرة، كمـا تلقّاها أوّل هذه الخلـيقة آدم؟ وعرض هـذه الخارقة على البـشريّة من خلالها وعن طريقها؟ إنّه الاصطفـاء للأمر المفرد في تاريخ البشريّة.. وهو بلا جدال أمر عظيم..

ولكنّها، حتّى ذلك الحين، لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم!

والإشارة إلى **الطهر** هنا إشــارة ذات مغزى. وذلك لِـما لابس مولد عيسى من شبهات لم يتورّع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معـتمـدين على أنّ هذا المولد لا مثـال له في عالم النّاس فـيزعـموا أنّ وراءه سرّاً لا يشرِّف.. قبّحهم اللّه!

وهنا تظهـر عظمة هذا الدين. ويتـبيّن مـصدره عن يقين. فــها هوذا مـحـمّـد رسول الإسـلام الذي يلقـى من أهل الكتـاب -ومنهم النصارى- ما يلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات.. ها هوذا يحدّث عن ربّه بحقيقة مـريم العظيمة وتفضيلها على "**نساء العالمين** " بهذا الإطلاق الذي يرفـعها إلى أعلى الآفاق. وهو في مــعرض مناظرة مع القوم الذين يعـتزّون بمريم، ويتّخذون من تعظيـمها مبـرِّراً لعدم إيمانهم بمحمّد وبالدين الجديد!

أيّ صدقٍ! وأيّة عظمة! وأيّة دلالة على مصدر هذا الدين، وصدق صاحبه الأمين؟ أنّه يتلقّى الحقّ من ربّه، عن مريم وعن عيسى، فيعلن هذا الحقّ في هذا المجال.. ولو لم يكن رسولاً من اللّه الحقّ ما أظهر هذا القول في هذا المجال بحال!

يا مريم! اقْنُتي لِرَبِّكِ، واسْجُدي، وارْكَعي مَعَ الرّاكِعِينَ، طاعة وعبادة وخشوع وركوع وحياة موصولة باللّه، تمهيداً للأمر الخطير.

" **فلمّا أحسَّ عيسَى منهُمُ الكُفْرَ، قالَ: مَنْ أنْصاري إلى اللّهِ؟ قالَ الحَوَارِيُّونَ: نحنُ أنْصارُ اللّهِ. آمَنّا باللّهِ واشْهَدْ بأنّا مُسْلِمون.**

" **رَبَّنا! آمَنّا بما أنْزَلْتَ. واتَّبَعْنا الرّسولَ. فاكْتُبْنا معَ الشاهِدينَ.**

هنا فجوة كبيرة في السياق. فإنّه لم يذكر أنّ عيسى قد ولد بالفعل، ولا أنّ أمّه واجهتْ به القوم فكلّمهم في المهد، ولا أنّه دعا قومه وهو كهل، ولا أنّه عرض عليهم هذه المعجزات التي ذُكرت في البشارة لأمّه، كما جاء في سورة مريم. وهذه الفجوات ترد في القرآن.

ثمّ عبارة تلفت النظر في قول الحواريّين: " **فاكْتُبْنا معَ الشاهِدين** ". فأيّ شهادة؟ وأي شاهدين؟ إنّ المسلم المؤمن بدين اللّه مطلوبٌ منه أن يؤدّي شهادة لهذا الدين. شهادة تؤيّد حقّ هذا الدين في البقاء، وتؤيّد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر.

فهؤلاء الحواريون يدعون اللّه أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه. أي أن يوفّقهم ويعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حيّة لهذا الدين، وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة، وإقامة مجتمع يتمثّل فيه هذا المنهج. ولو أدّوا ثمن ذلك حياتهم.

يا عيسَى! إنّي متوَفّيْكَ ورَافِعُكَ إليّ، ومُطَهِّرُكَ من الّذينَ كَفَروا. فأمّا كيف كانت وفاته؟ وكيف كان رفـعه؟ فهي أمور غيبيّة تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلهـا إلاّ اللّه. ولا طائل وراء البحث فيها، لا في عقـيدة ولا في شريعـة. والذين يجرون وراءَها، ويجعلونهـا مادّة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء، وإلى التـخليط، وإلى التعقيد، دون ما جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمرٍ موكولٍ إلى علم اللّه.

وجاعِلُ الّذينَ اتّبَعُوكَ، أي : آمنوا بدين اللّه الصحيح، الإسلام الذي عرف حـقيقـته كلّ نبيّ ورسول، وآمن به كلّ من آمن حـقّاً بدين اللّه. هؤلاء هم فوقَ الّذينَ كَفَروا إلى يومِ القيامةِ في ميزان اللّه.

(٢٥)

ما أخبر القرآن عن عيسى هو الحقّ

الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَـقُلْ: تَعَالَوا نَدْعُ أبنَاءَنا وأبنَاءكُم ونِسَـاءَنَا ونِساءَكُم، وأنْفُسَنَـا وَأنْفُسَكُمْ. ثُمّ نَبْـتَهِلْ فَنَجْعَـل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكاذِبِين. إنّ هذا لَهُوَ الـقَصَصُ الحَقُّ. ومَـا مِنْ إلهٍ إلاّ اللّهُ. وإنّ اللّهَ لَهُوَ العَـزيزُ الحكيمُ. فَإنْ تَوَلّوا فإنّ اللّهَ عَلِيمٌ بالْمُفْسِدِينَ (سورة آل عمران ٣/ ٦٠-٦٣).

الطبري:

الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَـلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَـرِينَ (أي: الذي أنبأتُكَ به مِن خَبَـرِ عيسى، هو الحقّ من ربّك، فـلا تكن من الشاكّين في ذلك). **فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ،** (أي: مَن جادلك في عـيسى)، **مِنْ بَعْدِ مَـا جَاءَكَ مِنَ العِلْم**

(الذي قد بيّنتُه لك في أنّ عيسى عبد الله). **فَقُلْ** (لهم): **تَعَالَوا نَدْعُ أبنَاءَنا وأبنَاءكُم ونِسَاءَنَا ونِساءَكُم، وأنْفُسَنَا وأنْفُسَكُمْ. ثُمّ نَبْتَهِلْ** (فنجمعهم ثمّ نتضرّع في الدّعاء، أو: نلتعن)[9]. **فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللّهِ عَلى الكاذِبين** (منّا ومنكم).

إنّ هذا، (الذي أنبأتُكَ به من أمر عيسى بأنّه عبدي ورسولي وكلمتي ألقَيتُها إلى مريم وروح منّي)، **لَهُوَ القَصَصُ** (النبأ) **الحَقّ** (الذي لا شكّ فيه). **وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاّ اللّهُ. وإنّ اللّهَ لَهُوَ العَزِيزُ** (في انتقامه ممَّن عصاه، وخالف أمره، وادّعى معه إلهاً غيره، أو عبدَ ربّاً سواه)، **الحَكِيمُ** (في تدبيره).

فَإنْ تَوَلّوا، (أي: فإنْ أدبروا وأعرضوا عن الإيمان في عيسى وغيره)، **فَإنّ اللّهَ عَلِيمٌ بالْمُفْسِدِينَ** (أي: بالذين يعصون ربّهم، فهو عالم بهم وبأعمالهم، يُحصيها عليهم ويحفظها حتّى يجازيهم عليها).

يعني: إنّ هذا الذي أنبأتُكَ به، يا محمّد! من أمر عيسى، فقصصتُه عليكَ من أنبائه، وأنّه عبدي ورسولي وكلمتي ألقَيتُها إلى مريم وروح منّي، لهو القصص والنبأ الحقّ. فاعلم ذلك. واعلم أنّه ليس للخلق معبود يستوجب عليهم العبادة بملكه إيّاهم إلاّ معبودك الذي تعبده، وهو اللّه العزيز الحكيم.

وقال ابن زيد: "إنّ هذا القصص الحقّ في عيسى، ما ينبغي لعيسى أن يتعدّى هذا ولا يجاوزه: أن يتعدّى أن يكون كلمة اللّه ألقاها إلى مريم، وروحاً منه، وعبد اللّه ورسوله.. فلمّا فصل جلّ ثناؤه بين نبيّه محمّد وبين الوفد من نصارى نجران، بالقضاء الفاصل والحكم

---

(٩) يُقال في الكلام: ما له بَهَلَهُ اللّهُ! أي لَعَنَهُ اللّه.

العادل، أمره، إنْ هم تولّوا عمّا دعاهم إليه من الإقرار بوحدانيّة اللّه، وأنّه لا ولد له ولا صاحبة، وأنّ عيسى عبده ورسوله، وأبوا إلاّ الجدل والخصومة، أن يدعوهم إلى الملاعنة. ففعل ذلك رسول اللّه.

فلمّا فعل ذلك رسول اللّه، انخزلوا فامتنعوا من الملاعنة، ودعوا إلى المصالحة.. فأمر النّبي بملاعنتهم، يعني بملاعنة أهل نجران، بقوله: "فَمَن حاجّكَ فيهِ مِن بعدِ ما جاءَكَ من العلم" (٣/ ٦١)، فتواعدوا أن يلاعنوه وواعدوه الغدَ. فانطلقوا إلى السيّد والعاقب، وكانا أعقلهم، فتابعاهم. فانطلقوا إلى رجل منهم عاقل، فذكروا له ما فارقوا عليه رسولَ اللّه فقال: ما صنعتم! وندَّمهم. وقال لهم: إنْ كان نبيّاً ثم دعا عليكم لا يغضبُه اللّه فيكم أبداً. ولئن كان مَلَكاً فظهر عليكم لا يستبقيكم أبداً. قالوا: فكيف لنا وقد واعدنا! فقال لهم: إذا غدوتم إليه فعرض عليكم الذي فارقتموه عليه، فقولوا: "نعوذُ باللّه"! فإنْ دعاكم أيضاً فقولوا له: "نعوذُ باللّه"! ولعلّه أن يعفيكم من ذلك.

فلمّا غدَوا غدَا النّبيّ محتضِناً حسَناً آخذاً بيد الحسين، وفاطمة تمشي خلفه. فدعاهم إلى الذي فارقوه عليه بالأمس، فقالوا: "نعوذ باللّه"! ثم دعاهم فقالوا: "نعوذ باللّه"! مراراً قال: فإنْ أبيتم فأسلِموا ولكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين، كما قال اللّه عزّ وجلّ، فإنْ أبيتم فأعطوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، كما قال اللّه عزّ وجلّ. قالوا: ما نملك إلاّ أنفسنا! قال: فإنْ أبيتم فإنّي أنبذ إليكم على سواء، كما قال اللّه عزّ وجلّ. قالوا: ما لنا طاقة بحرب العرب، ولكن نؤدّي الجزية. قال: فجعل عليهم في كلّ سنة ألفي حلّة: ألفاً في رجب، وألفاً في صفر. فقال النّبيّ: لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران، حتّى الطير على الشجر -أو: العصافيرُ على الشجر- لو تمّوا على الملاعنة.

وفي خبـر آخر، قـالوا: يا أبا القاسم! دعْنا ننظر فـي أمرنا، ثمّ نأتيك بما نُريد أن نفـعل فيمـا دعوتَنا إليـه. فانصرفـوا عنه. ثم خلَوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم. فقالوا: يا عـبد المسيح! ما ترى؟ قال: والله يا معـشرَ النصارى! لـقد عرفـتم أنّ محمّـداً لنبيٌّ مرسَل. ولقـد جاءكم بالفصل من خبـر صاحبكم. ولقد علمـتم ما لاعنَ قومٌ نبيّـاً قط فبقي كبيرُهم ولا نبتَ صغيرهم. وإنّ للاستئصال منكم إنْ فعلتم. فإنْ كنتم قـد أبيتـم إلاّ إلْفَ دينكم، والإقـامةَ على مـا أنتم عليـه من القـول في صاحبكم، فوادِعوا الرجلَ، ثم انصرِفوا إلى بلادكم.

فأتوا رسول الله فقالوا: يا أبا القاسم! قد رأينا أن نلاعنك، وأن نتـركك على دينـك، ونرجع على ديننا. ولكن، ابـعثْ مـعنا رجـلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا. فإنّكم عندنا رِضىً.

الرازي:

وإنّ اللهَ لَهُـوَ العـزيزُ الحكيم، فـيـه إشـارة إلى الجـواب عن شبهات النصارى، وذلك لأنّ اعتمادهم على أمرين:

أحدهما: أنّه قـدر على إحيـاء الموتى وإبراء الأكمـه والأبرص، فكأنّه تعـالى قال: هذا القدر من الـقدرة لا يكفي في الإلهـيّة، بل لا بدّ وأن يكون عزيزاً غالباً لا يدفع ولا يمنع، وأنتم قد اعـترفتم بأنّ عيسى ما كان كذلك، وكيف وأنتم تقولون إنّ اليهود قتلوه؟

والثاني: أنّهم قالوا: إنّه كان يخبر عن الغـيوب وغيرها فيكون إلهاً، بل لا بدّ وأن يـكون حكيماً، أي عـالماً بجمـيع المعلومات وبجـميع عواقب الأمر..

القاسمي:

" **وما من إله إلاّ اللّه** " تأكيداً للردّ على النصارى في تثليثهم. و " **إنّ اللّه لهو عزيز حكيم** " فلا يشاركه أحد في العزّة والحكمة، ليشاركه في الألوهيّة.

(٢٦)

معاهدة بين محمّد وأهل الكتاب

قُلْ: يا أهْلَ الكِتابِ! تَعَالَوا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألاّ نَعْبُدَ إلاّ اللّهَ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ. فَإنْ تَوَلّوا فَقُولُوا: اشْهَدُوا بِأنّا مُسْلِمُونَ (آل عمران ٣/ ٦٤).

الطبري:

قُلْ (يا محمّد): **يَا أهْلَ الكِتَابِ!** (أهل التوراة والإنجيل): **تَعَالَوا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ** (أي: إلى كلمة عدْل) **بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**. (وهي أن نوحّد اللّه فلا نَعْبُدُ غيرَه، ونبرأ من كلّ معبود سواه، فـ) **لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ**. (أي: ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة، ويعظّمه بالسجود له، كما قال: " اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهمْ أربَاباً مِنْ دونِ اللّهِ " (٩/ ٣١). **فَإنْ تَوَلّوا**، (فإنْ أعرضوا عمّا دعوتهم إليه من الكلمة السواء، فلم يجيبوك إليها)، **فَقُولُوا** (أيّها المؤمنون للمتولّين عن ذلك): **اشْهَدُوا بِأنّا مُسْلِمُون**، (أي: خاضعون للّه به متذلّلون له بالإقرار بذلك).

واختلف أهل التأويل في مَن نزلتْ فيه هذه الآية.

فقال بعضهم: نزلتْ في يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالي مدينة رسول اللّه، وهم الذين حاجّوه في إبراهيم، كما قال قتادة.

وقال آخرون: بل نزلت في الوفد من نصارى نجران.

أمّا الطبري فيقول: عنى بذلك أهلَ الكتابَين، ولم يُخصّص بعضاً دون بعض..

(٢٧)

ما كان إبراهيم يهوديًا -ولا نصرانيًا-

يَا أَهْلَ الكِتَابِ! لِمَ تُحَاجُّونَ في إبْرَاهِيمَ؛ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوراةُ والإنْجيلُ إلاّ مِنْ بَعْدِه. أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟ هَا أَنْتُمْ هَؤلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؛ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟ واللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ* ما كَانَ إبْرَاهيمُ يَهُودِيّاً -وَلاَ نَصْرَانِيّاً- وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً. وَما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* إنّ أَوْلَى النّاسِ بِإبْرَاهيمَ لَلّذينَ اتّبَعُوهُ وَهَذا النّبيُّ والّذينَ آمَنُوا. واللّهُ وَلِيُّ الْمُؤمِنينَ* وَدّتْ طَائِفَةٌ من أهلِ الكتَابِ لَو يُضِلُّونَكُمْ. وَما يَضِلُّونَ إلاّ أَنفُسَهُمْ. ومَا يَشْعُرُونَ (آل عمران ٣/ ٦٥-٦٩).

الطبري:

يَا أَهْلَ الكِتَابِ، لِمَ تُحَاجُّونَ، (أي: تجادلون) **فِي إبْرَاهِيمَ،** (وتخاصمون فيه. وكان حجاجهم فيه: ادّعاء كلّ فريق من أهل هذين الكتابَين أنّه كان منهم. وهذان الكتابان لم ينزلا إلاّ بعد مَهْلَكِ إبراهيم ووفاته! فكيف يكون منكم)؟ **أفَلاَ تَعْقِلُونَ** (ذلك)؟

هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْم (من أمر دينكم)؛ **فَلِمَ تُحَاجُّونَ**، (أي لِمَ تُجادلون وتُخاصمون) **فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**؟ (من أمر إبراهيم ودينه). **واللَّهُ يَعْلَمُ** (ما غابَ عنكم من أمر إبراهيم)، **وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ** (من ذلك إلاّ ما عاينتم وشاهدتم في أمر إبراهيم. ثمّ قال في تبرئةٍ لإبراهيم): **مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً** -وَلاَ نَصْرَانِيّاً-[١٠]، **وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً**، (أي: متّبعاً أمر اللّه وطاعته، مائلاً عن الأديان كلّها إلى الدّين القيّم)، **مُسْلِماً**، (أي: خاشعاً للّه بقلبه، مُتذلّلاً له بجوارحه، مذعناً لما فرض عليه وألزمه من أحكامه)، **وَما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**، (الذين يعبدون الأصنام).

إنّ أَوْلَى، (أي: أحقَّ) **النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ**، (ونصرته وولايته) **لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ**، (أي الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، فوحّدوا اللّه، مخلصين له الدين، وسنّوا سننه، وشرّعوا شرائعه، وكانوا للّه حنفاء مسلمين غير مشركين به). **وَهَذا النَّبيُّ والَّذِينَ آمَنُوا**، (أي: صدّقوا محمّداً، وبما جاءهم به من عند اللّه) . **واللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**، (أي: ناصرهم وحافظهم).

وَدَّتْ (أي: تمنّتْ) **طَائفَةٌ** (أي: جماعةٌ) **مِنْ أهلِ الكتَابِ**، أي: من اليهود، والنّصارى[١١]): **لَو يُضِلُّونَكُمْ**، (أي: لو يصدّونكم عن الإسلام، ويردّونكم عنه إلى ما هم عليه من الكفر). **وَما يَضِلُّونَ إلاّ أنفُسَهُمْ. ومَا يَشْعُرُونَ** (أي: وما يدرون).

---

(١٠) تعبير «أو نصرانيًا» مُقحَم على النصّ من زمن الفتوح. وإبقاؤه يُفسد المعنى الحقيقي؛ بل يناقضه، لأنّ النصرانيّة هي الحنيفيّة والإسلام.

(١١) كلمة في غير موقعها عند الطبري.

(٢٨)

أهلُ الكتاب يكتمون الحقّ الذي جاء به محمّد

يَا أهْلَ الكتابِ! لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَـاتِ اللّه، وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ؟ يَا أهْلَ الكتابِ! لِمَ تَلْـبِسُونَ الحَقَّ بالبـاطِلِ، وتَكْتُمُونَ الحَقَّ، وأنـتُمْ تَعْلَمُونَ؟ وَقَالَتْ طائفةٌ منْ أهلِ الكتـابِ: آمِنُوا بالّذي أُنْزِلَ عَلى الّذينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ، وَاكْفُرُوا آخِـرَه. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ! وَلا تُؤْمِنُوا إلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ. قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللّهِ أنْ يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ مَـا أُوتِيتُمْ، أو يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ. قُلْ: إنَّ الفَـضْـلَ بِيَـدِ اللّهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشَـاءُ. واللّـهُ واسِعٌ عَلِيمٌ. يَخْـتَصُّ بِرَحْـمَـتِـهِ مَنْ يَشَـاءُ. وَاللّهُ ذُو الـفَـضْلِ العَظِيمِ (سورة آل عمران ٧٠-٧٤).

الطبري:

يَا أهْلَ الكتابِ! (من اليهـود والنّصـارى[١٢])، **لِمَ تَكْفُرُونَ**، (أي: تجحدون) **بِآيَاتِ اللّهِ**، (التي أنزله إليكم)، **وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ** (أنّه حقّ من عند ربّكم. وإنّمـا هذا من اللّه توبيخ لأهـل الكتابَين (؟) عـلى كفـرهم بمحمّد وجحودهم نبوّتَه، وهم يَجدونـه في كتبهم مع شهادتهم أنّ ما في كتبهم حقّ، وأنّه من عند اللّه)؟

يَا أهْلَ الكتابِ! (أي: أهلَ التوراة والإنجيل(؟)، **لِمَ تَلْبِسُونَ** (أي: تخلطون) **الحَقَّ بالباطِلِ؟** (أي: بالتحريف والتزوير)، **وتَكْتُمُونَ الحَقَّ،** (أي: ما في كتبهم من نعت محمّد ومبعثه ونبوّته)؛ **وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (أنّ الذي تكتمونه من الحقّ حقّ، وأنّه من عند اللّه).

---

(١٢) كلمة في غير موقـعها عند الطبري. المقصود اليهود فـهم الذين كتموا الحقّ؛ وسيكون الكلام عليهم في الآيات التالية مباشرة.

وَقَالَتْ طائفةٌ منْ أهلِ الكتابِ (أي: أحبارُ اليهود لليهود): **آمِنُوا بالّذي أُنْزِلَ عَلى الّذينَ آمَنُوا** (القرآن)، **وَجْهَ النَّهَارِ** (أي: أوّل النّهار)، **وَاكْفُرُوا** (به) **آخِرَه** (أي آخر النهار). **لعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ!** (عن دينهم).

وَلا تُؤْمِنُوا، (أي: ولا تُصدِّقوا، أيّها اليهود)، **إلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ،** (فكان يهوديّاً مِثْلكم) . **قُلْ** (لهم يا محمّد): **إنَّ الهُدَى هُدَى اللّهِ.** (أي الإسلام. ولا تُؤْمِنوا) **انْ يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ** (من الهدى)، **أو يُحَاجُّوكُمْ** (بإيمانكم) **عِنْدَ رَبِّكُمْ.** (قل لهم يا محمّد): **إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ،** (فمن أين لكم، أيّها اليهود، أنّه لا يؤتَى أحدٌ مثل ما أوتيتم)! **واللّهُ واسِعٌ** (بفضله على من يشاء أن يتفضّل عليه)، **عَلِيمٌ** (أي: ذو علم بمن هو منهم للفضل أهل).

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِه مَنْ يَشَاءُ (أي: يختصّ بالإسلام والقرآن والنبوّة مَن يشاء) . **وَاللّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ،** (أي يتفضّل به على مَن أحبَّ وشاء من خَلقه).

(٢٨)

مِن أهل الكتاب مَن يخونُّ العهد والأمانة[١٣]

وَمِنْ أهلِ الكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إليكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إليكَ إلاّ مَا دُمْتَ عَلَيهِ قَائماً. ذَلكَ بأنَّهُمْ قَالُوا: لَيسَ عَلَينا في الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ. وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ. وَهُمْ يَعلَمُونَ. بَلَى.

---

(١٣) لا شأن للنصارى في هذه الآيات . فهي تتوجّه إلى اليهود. وقد أثبتناها لأنّ بعض المسلمين يجدون فيها توجّهاً إلى النصارى.

مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ، وَاتَّقَى. فإنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ. إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمـانِهِمْ ثَمَناً قَليلاً، أولئكَ لا خَـلاَقَ لَهُمْ في الآخِرَةِ، ولا يُكَلِّـمُهُمُ اللهُ، ولا يَنْظُرُ إليهِمْ يَومَ القِيامَةِ، ولا يُزَكِّيهِمْ. وَلَهُمْ عَذابٌ أليمٌ (سورة آل عمران ٣/ ٧٥-٧٧).

الطبري:

وَمِنْ أهلِ الكتابِ، (وهم اليهود) **مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ،** (يا محمّد على) **قِنْطَارٍ** (أي: مال كـثيـر)، **يُؤَدِّهِ إلَيكَ،** (ولا يخنك فـيه). **وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ** (على) **دِينَارٍ،** (يخنك فـيـه، فـ) **لا يُؤَدِّهِ إلَيكَ إلاّ مَا دُمْتَ عَـلَيهِ قائماً،** (أي: قائماً على رأسه، لا تُفارقه). **ذَلِكَ بأنَّهُمْ** (أي اليهود) **قَالُوا: لَيسَ عَلَينا في الأُمِّيِّينَ** (أي العرب) **سَبيلٌ** (أي: ليس على اليهود حرج في أموال العـرب، قد أحلّها اللّه لهم). **وَ** (هم بهذا) **يَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ** (في نسبـة ذلك إليه). **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (ادّعاءهم أنّهم وجدوا في كتابهم قولهم: "لَيسَ عَلَينا في الأُمِّيّينَ سَبيل").

بَلَى (عليهم في مـال العرب سـبيل. ولكن) **مَنْ أَوْفَى بِعَـهْدِهِ،** (أي: بعهـد اللّه)، **وَاتَّقَى** (ما نهـاه اللّه عنه من الكفر)، **فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ** (أي الذين يخافون عقابه، ويحذرون عذابه).

إنَّ الَّذِينَ يَشْـتَرُونَ (أي: إنّ الّذين يسـتـبـدلون) **بِعَهْـدِ اللهِ،** (باتّباع مـحمّـد وتصديقـه، والإقرار به، ومـا جاء به، وبـ) **أَيْمانِهِمْ** (الكاذبة التي يستـحلّون بها ما حرّم اللّه عليـهم من أموال الناس التي اؤتمنوا عليها) **ثَمَناً** (أي: عوضاً وبدلاً) **قَليلاً،** (أي: خسيساً من عرض الدنيا وحطامها)؛ **أولئكَ لا خَلاقَ لَهُمْ في الآخِرَةِ،** (أي: لا حظّ لهم في خيـرات الآخرة، ولا نصـيب لهم من نعيم الجنّـة، وما أعدّ اللّهُ لأهـلها

فيهـا، دون غيرهـم)؛ **ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ** (بما يسرُّهم)، **ولا يَنْظُرُ إِلَيهِمْ**، (أي: ولا يعطف عليهم بخـيرٍ)، **يَومَ القِيـامَةِ، ولا يُزَكِّـيهِمْ**، (أي: ولا يُطهّرهم من دنسِ ذنوبهم وكفرهم). **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (أي مؤلم).

(٢٩)

من أهل الكتاب مَن يُحرِّف الكتاب[١٤]

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَـرِيقـاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُـمْ بالكِتَابِ، لِتَـحْـسَبُـوهُ مِنَ الكِتابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَـابِ. وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّه. ومَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّه. ويَقُولُونَ عـلَى اللّه الكَذِبَ. وَهُمْ يَعْلَمُونَ. مَـا كانَ لِبَشَـرٍ أنْ يُؤتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُـولُ للنَّاسِ: كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللّه. وَلكِنْ كُـونُوا رَبّانِيِّينَ بِمَـا كُنْتُـم تُعَلِّمُـونَ الكِتـابَ، وَبِـمَـا كُنْتُمْ تَدْرُسُـون. وَلا يَأمُرَكُمْ أنْ تَتَّـخِذُوا الملائِكَـةَ وَالنَّبِيِّينَ أرْبَاباً. أيَأمُـرُكُمْ بالكُفْرِ بَعْدَ إذْ أنْتُمْ مُسْلِمونَ؟ (سورة آل عمران ٣/٧٨-٨٠).

الطبري:

وَإِنَّ مِنْهُمْ، (أي من أهل الكتاب) **لَفَرِيقاً**، (أي: جماعـة من يهود المدينة)، **يَلْوُونَ أَلْسِنَتَـهُمْ بالكِتَابِ**، (أي: يُحـرِّفون)، **لِتَـحْسَبُـوهُ مِنَ الكِتَـابِ**، (أي: لتظنّوا أنّ الـذي يحـرّفـونه بكلامـهم مـن كـتـاب اللّه وتنزيله)، **وَمَا هُوَ مِنَ الـكِتَابِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْـدِ اللّه. ومَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ**، (لكنّه من قِـبَل أنفسـهم). **ويَقُـولُونَ علَى اللّهِ الكَذِبَ. وَهُمْ**

---

(١٤) هنا أيضاً لا شـأن للنصارى في هذه الآيات. فاليهـود، في القرآن، هم الذين «يلوُون ألسنتهم بالكتاب»، لا النصارى

يَعْلَمُون، (أي: يتعمّدون قولَ الكذب على اللّه، والإلحاق بكتابه ما ليس منه).

مَا كانَ لِـبَشَرٍ (أي: ما ينبغي لأحـدٍ من البشر) **أنْ يُؤْتِيَهُ اللّهُ الكِتابَ وَالحُكْمَ** (أي: الفهم للشريعة، وَيُعطيه) **النُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولُ للنَّاسِ: كُـونُوا عِـبَـاداً لِي مِنْ دُونِ اللّهِ، وَلَكِنْ** (يقول): **كُـونُوا رَبَّانِيِّينَ** (أي: حكماء عـلماء فقـهاء أتقـياء) **بِمَا كُنْتُـمْ تُعَلِّمُونَ** (الناسَ) **الكِتَابَ**، (أي القرآن)، **وَبِمَا كُنْـتُمْ تَدْرُسُونَ** (فيـه من حلال وحرام، وفـرائض وما حواه من المعاني).

وَلا يَأْمُرَكُمْ أنْ تَـتَّخِذُوا الملائكَةَ والنَّبِـيِّينَ أرْبَاباً (كمـا اتّخذت الصابئة الملائكةَ، واليهودُ عُزَيراً، والنصارى عيسى). **أيَأْمُرُكُمْ** (نبيُّكم محـمّد) **بالكُفْرِ** (أي: بجحود وحـدانيّة اللّه)، **بَعْدَ إذْ أنْتُمْ مُـسْلِمونَ؟** (أي: بعد إذْ أنتم له مـنقادون بالطاعة مـتذلّلون له بالعـبوديّة. إنّ ذلك غير كائن منه أبداً).

(٣٠)

على أهل الكتاب أن يَشهدوا بأنّ محمّداً هو خاتم النّبيّين

وإذْ أخذَ اللّهُ مـيثَاقَ الـنَّبيّينَ لَمَا آتَيـتُكمْ منْ كتـابٍ وحكمةٍ. ثمّ جَاءَكم رسولٌ مُصَدِّقٌ لِما مـعكمْ لَتُؤْمِنُنَّ بهِ. وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَال: أأقْرَرْتُمْ وَأخَذْتُمْ على ذلِكُمْ إصْـري؟ قالوا: أقْرَرْنا. قـال: فاشْهَـدوا. وأنَا معكمْ منَ الشّاهدِينَ. فمَنْ تَوَلّى بعدَ ذلكَ، فأولَئكَ هُمُ الفـاسِقونَ. أفَغيرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُـونَ؟ وله أسْلَمَ مَن في السّمواتِ والأرضِ طَوْعاً وَكَـرْهاً. وإليهِ يُرْجَعُونَ (آل عمران ٣/ ٨١-٨٣).

الطبري:

"و" اذكروا، يا أهلَ الكتاب، "**إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ**"، أي: حين أخذ اللّه ميثاق النّبيّين. و"الميثاق"، ما وثقوا به على أنفسهم طاعة اللّه فيما أمرهم ونهاهم...

عن قتادة قال: هذا ميثاق أخذه اللّه على النّبيين أن يصدِّقَ بعضُهم بعضاً، وأنْ يبلِّغوا كتاب اللّه ورسالاته، فبلّغتِ الأنبياءُ كتابَ اللّه ورسالاته إلى قومهم، وأخذ عليهم -فيما بلّغتهم رُسلهم- أن يؤمنوا بمحمّد ويصدّقوه وينصروه.

وقال السدي: لم يبعث اللّه نبيّاً قطّ من لدُنْ نوح، إلاّ أخذ ميثاقَه ليؤمننّ بمحمّد ولينصرنّه إن خَرَج وهو حيّ، وإلاّ أخذ على قومه أن يؤمنوا به ولينصرُنّه إن خرَج وهم أحياء.

"**ثُمَّ جاءكم رسولٌ مُصَدِّقٌ لِما** (بمعنى: بِمَا) **معكمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ**": قال بعضهم: هم الأنبياء، أُخِذَتْ مواثيقُهم أن يصدِّق بعضُهم بعضاً وأن ينصروه.. وقال آخرون: هم أهل الكتاب، أُمِرُوا بتصديقِ محمّد إذا بعثه اللّه بنصرته، وأخذَ ميثاقهم أن يؤمنوا بمحمّد ويصدّقوه في كتبهم.

"**أأقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلِكُمْ إصْري؟**. يعني بذلك: وإذ أخذ اللّهُ ميثاقَ النّبيّين بما ذُكر، فقال لهم: أأقررتم بالميثاق الذي واثقتموني عليه: من أنّكم مهما أتاكم رسولٌ من عندي مصدّق لما معكم "لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنصُرُنَّه"، وأخذتُم على ذلكم إصْري، يعني عهدي ووصيّتي؟ "**قالوا: أقْرَرْنا**"، أي: أقررنا بما ألزمْتَنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدّقين لما معنا من كتبك، وبنصرتهم.

ألقول في تأويل قوله: "**فاشْــهَدوا وأنَا معكــمْ منَ الشّاهدِينَ.**
يعني بذلك: فاشهدوا، أيّها النّبيّون، بما أخذتُ به ميثاقَكمم من الإيمان بتصديق رسلي الـتي تأتيكم بتصديق ما معكم مـن الكتاب والحكمة، ونُصرتهم على أنفسكم وعلى أتباعكم من الأمم إذا أنتم أخذتم ميثاقهم على ذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم بذلك.

"**فــمَنْ تَوَلّى** (أي: فـمــن أعـرض عن الإيمان بـرسلي، وعن نصرتهم، فأدبر ولم يؤمن، ولم ينصر، ونكث عـهدَه وميثاقه). "**بعدَ ذلكَ**" (أي: بعد العهد والميـثاق الذي أخذه اللّه عليه)، "**فأولَئكَ**"، (أي: المتولّون عن الإيمان بالرسل) "**هُمُ الفاسِقونَ**"، (أي: الخارجون من دين اللّه وطاعة ربّهم).

"**أفَغَيـرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ؟**" (أي: أفغـير طاعة اللّه تلتمـسـون وتريدون)؟

"**وله أسْلَمَ مَن في السّـمـواتِ والأرضِ**" (أي: وله خـشـع مَن في السموات والأرض، فخضـع له بالعبوديّة، وأقرّ له بإفراد الربوبيّة، وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهيّة)، **طَوْعاً وَكَرْهاً.**

"**وإليهِ**" (أي: وإليه، يا معشر مَن يبـتغي غيرَ الإسلام ديناً من اليهود والنصارى وسائر الناس، "**يُرْجَعُونَ**" (أي: إليه تَصيرون بعد مماتكم، فـمجـازيكم بأعـمالـكم، المحسن منكم بـإحسـانه، والمسيء بإساءته).

الرازي:

إعلمْ أنّ المقصودَ من هذه الآيات تعديد تقـرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتـاب ممّا يدل على نبـوّة محـمّد قطعـاً لعذرهم، وإظهـاراً

لعنادهم. ومن جملتها ما ذكره اللّه تعالى في هذه الآية، وهو أنّه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنّهم، كلّما جاءهم رسولٌ مصدّق لما معهم آمنوا به ونصروه. وأخبر أنّهم قبِلوا ذلك، وحكَم تعالى بأنّ من رجع عن ذلك كان من الفاسقين. فهذا هو المقصود من الآية. فحصل الكلام أنّه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكلّ رسول جاء مصدّقاً لما معهم.

أبو حيّان الأندلسي:

... إنّه تعالى، لمّا نفى عن أهل الكتاب قبائح أقوالهم وأفعالهم.. وما يؤول أمرهم إليه في الآخرة، وإنّ منهم مَن بدّل في كتابه، وغيّر وصف رسول اللّه (محمّد)، ونزّه رسولَه عن الأمر.. أخذ تعالى يقيم الحجّة على أهل الكتاب وغيرهم ممّن أنكر نبوّته ودينه، فذكر أخْذَ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان برسول اللّه (محمّد)، والتصديق له، والقيام بنصرته، وإقرارهم بذلك، وشهادتهم على أنفسهم وشهادته تعالى عليهم بذلك.

وهذا العهد مذكور في كتبهم وشاهد بذلك أنبياؤهم..

محمّد عبده:

المسألة التي تقرّرها هذه الآية من الحجج الموجهة إليهم، (أي إلى أهل الكتاب)، لدحض مزاعمهم، وهي أنّ اللّه تعالى أخذ الميثاق على جميع النّبيّين وعلى أتباعهم بالتبع لهم بأن ما يعطونه من كتاب وحكمة وإن عظم أمره.

فالواجب عليهم أن يؤمنوا بمن يرسل من بعدهم مصدّقاً لما معهم منه وأن ينصروه.

المراغي:

... ذكر لهم وقت أخذ اللّه الميثاق من النّبيّين أنّهم كلّما جاءهم رسول من بعدهم مصدّق لما معهم آمنوا به ونصروه مهما كانوا قد أوتوا من كتاب وحكمة، لأنّ القصد من إرسال الأنبياء واحد. فيجب أن يكونوا متكافلين ومتناصرين. فإذا جاء واحد منهم في زمن نبيّ آخر آمن به السابق ونصره بما استطاع ذلك نسخ شريعة الأوّل، إذ المقصود تصديق دعوته، ونصره على من يؤذيه ويناوئه.

فإنْ تضمّنت شريعة الثاني نسخ شيء من شريعة الأوّل وجب التسليم له، وإلاّ صدّقه في الأصول التي هي واحدة في كلّ دين، ويؤدّي كلّ منهما مع أمّته العبادات والمناسك التفصيليّة. ولا يعدّ هذا اختلافاً وتفرّقاً في الدين..

وفي الآية إيماء إلى أنّه لا ينبغي أن يكون الدين مصدر العداوة والبغضاء، كما فعل أهل الكتاب حين عادوا (محمّداً)، وكادوا له بعد أن دعاهم إلى كلمةٍ سواء، ولم يكن منهم إلاّ الصدّ والإعراض والكيد.

وصفوة القول: إنّكم يا أهلَ الكتاب ملزمون باتّباع محمّد والتصديق بشريعته بمقتضى الميثاق الذي أخذ على كلٍّ من موسى وعيسى، أنّه إذا جاء نبيّ بعهد، وصدّق بما معه يؤمن به وينصره. وإيمانكم بموسى أو عيسى يقتضي التصديق بكلّ ما يؤمن به كلّ منهما.. فأهل الكتاب الذين جحدوا نبوّة محمّد، خارجون عن ميثاق اللّه، ناقضون لعهده، وليسوا من الدين الحقّ في شيء.

وبعد أن بيّن أنّ دين اللّه واحد، وأنّ رسله متّفقون فيه، ذكَرَ حالَ منكري نبوّة محمّد، فقال: " **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ؟ وله أَسْلَمَ مَن**

في السّموات والأرضِ طَوْعاً وَكَرْهاً؟ "، (أي: أيتولّون عن الحق بعد ما تبيّن؟ ويبغون غيرَ دين اللّه وهو الإسلام والإخلاص له في العبادة في السرّ والعلن، وقد خضع للّه تعالى وانقاد لحكمه أهل السموات والأرض، ورفضوا طائعين مختارين لما يحلّ بهم من تصاريف أقداره)؟

وصفوة القول: إنّ الدين الحقّ هو إسلام الوجه للّه تعالى والإخلاص له، وأنّ الأنبياء جميعاً كانوا على ذلك، وقد أخذوا بذلك ميثاقهم على أممهم ولكنّهم نقضوه إذ جاءهم النبيّ الموعود به يدعوهم إليه فكذّبوه.

سيّد قطب:

... يبدو الذين يتخلّفون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرسول الأخير (محمّد)، ومناصرته، وتأييده، تمسكاً بدياناتهم -لا بحقيقتها، فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته، ولكن باسمها تعصباً لأنفسهم في صورة التعصّب لها!- مع أنّ رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الديانات قد قطعوا على أنفسهم عهداً ثقيلاً غليظاً مع ربّهم في مشهد مرهوب جليل...

في ظلّ هذه الحقيقة يبدو أولئك الذين يتخلّفون فسقة عن تعليم أنبيائهم. فسقة عن عهد اللّه معهم. فسقة كذلك عن نظام الكون كلّه المستسلم لبارئه، الخاضع لناموسه، المدبّر بأمره ومشيئته...

(٣١)

المسلمون المسلمون لا يفرّقون بين نبيّ ونبيّ

قُلْ آمَنَّا باللَّهِ، ومَا أُنْزِلَ عَلَينا، ومَا أُنْزِلَ على إبْـراهيمَ وإسمَعيلَ وإسحَقَ ويَعقوبَ والأسْباطِ، وَمـا أُوتِيَ مُوسَى وعيسَى والنَّبِيّونَ مِنْ رَبِّهِمْ. لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِـنْهُمْ. ونحنُ له مُسْلِمـون. وَمَنْ يَبْـتَغِ غيـرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ منه. وَهُوَ في الآخِرَةِ منَ الخاسِرينَ (سورة آل عمران ٣/ ٨٤-٨٥).

الطبري:

قُلْ (لهم يا محـمّد): **آمَنَّا باللَّهِ**، (أي: صدّقنا أنّه ربّنا وإلهنا، لا إله غيره، ولا نعـبد أحداً سواه)، **وَمَا أُنْزِلَ عَلَينا** (من وحيه وتنزيله، فأقـررنا به)، **وَمَـا أُنْزِلَ على إبْراهيمَ وَإسْمَـعيلَ وَإسْـحَقَ وَيَعْقُـوبَ وَالأسْبَاطِ** (أولاده)، **وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيّونَ مِنْ رَبِّهِمْ.**

"**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَـدٍ مِنْهُمْ**"، (أي: لا نصـدّقُ بعضَـهم ونكذّبُ بعضَـهم، ولا نؤمنُ ببعـضِهم ونكفُـرُ ببعضِـهم، كما كـفرتِ اليـهود والنصارى ببعضِ أنبياء اللّه، وصدّقتْ بعضاً؛ ولكنّا نؤمن بجميعهم).

"**ونحنُ له مُسْلِمون**"، (أي: ندين للّه بالإسلام، لا ندين بغيره. بل نتبرّأ إليه من كلّ دين سواه، ومن كلّ ملّة غيره. ونحن له مسلمون، أي: منقـادون بالطاعـة، مـتذلّلون بـالعبـوديّة، مـقـرّون له بالألوهة والربوبيّة، وأنّه لا إله غيره).

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ. وَهُوَ في الآخِرَةِ منَ الخاسِـرينَ. (ذُكر أنّ أهـلَ كلِّ ملّةٍ ادّعوا أنّهم المسلمـون لمّا نزلتْ هذه

الآية، فأمرهم اللّهُ بالحجّ إنْ كانوا صادقين، لأنّ من سنّة الإسلام الحجّ، فامتنعوا، فأدحض اللّه بذلك حجّتهم. عن عكرمة قال: قالت اليهود: فنحن المسلمون. فأنزل اللّه لنبيّه: قل لهم: إنّ "لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" (٣/ ٩٧).

الرازي:

اختلف العلماء في أنّ الإيمان بهؤلاء الأنبياء الذين تقدّموا ونُسختْ شرائعهم، كيف يكون؟ وحقيقة الخلاف أنّ شرعه، لمّا صار منسوخاً. فهل تصير نبوّته منسوخة؟ فمن قال إنّها تصير منسوخة قال: نؤمن أنّهم كانوا أنبياء ورسلاً، ولا نؤمن بأنّهم الآن أنبياء ورسل. ومَن قال إنّ نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوّة، قال: نؤمن أنّهم أنبياء ورسل في الحال. فتنبّه لهذا الموضوع.

"**وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ منه**". بيّن أنّ الدين ليس إلاّ الإسلام، وأنّ كلّ دين سوى الإسلام فإنه غير مقبول عند اللّه، لأنّ القبول للعمل هو أن يرضى اللّه ذلك العمل، ويرضى عن فاعله ويُثيبه عليه. لذلك قال: "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" (٥/ ٢٧).

"**وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ**". أي بعد ذلك، بيّن تعالى أنّ كلّ مَن له دينٌ سوى الإسلام، فكما أنّه لا يكون مقبولاً عند اللّه، فكذلك يكون من الخاسرين. والخسران في الآخرة يكون بحرمان الثواب، وحصول العقاب. ويدخل فيه ما يلحقه من التأسّف والتحسّر على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح، وعلى ما تحمّله من التعب والمشقّة في الدنيا في تقريره ذلك الدين الباطل.

الخازن:

" **قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ** (قدّم الإيمان باللّه على غيره لأنّه الأصل)، **وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا** (وقدّم ذكر القرآن لأنّه أشرف الكتب، وأنّه لم يحرَّف ولم يبدَّل، وغيرُه حرِّف وبدِّل)، **وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى** (إنّما خصّ هؤلاء الأنبياء بالذكر لأنّ أهل الكتاب يعترفون بوجودهم، ولم يختلفوا في نبوّتهم. ثمّ جمع جميعَ الأنبياء، فقال: " **وَالنَّبِيُّونَ**".

" **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**" (ذلك أنّ أهل الكتاب يؤمنون ببعض النّبيّين ويكفرون ببعض. فأمر اللّهُ نبيَّه محمّداً أن يخبر عن نفسه وعن أمّته أنّه يؤمن بجميع الأنبياء)...

محمّد عبده:

قدّم الإيمانَ بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على مَن قبلنا، مع كونه أنزل قبله في الزمن، لأنّ ما أنزل علينا هو الأصل في معرفة ما أنزل عليهم والمثبت له، ولا طريق لإثباته سواه لانقطاع سند تلك، وفَقْدِ بعضها، ووقوعِ الشكّ فيما بقي منها.

فما أثبتَه كتابُنا من نبوّة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصّل، وما أثبته لهم من الكتب كذلك...

فكما أنّ الإيمان باللّه أصل للإيمان بما أنزل علينا، كذلك ما أنزل علينا أصل للإيمان بما أنزل عليهم. فقُدِّمَ عليه.

(٣٢)

أهل الكتاب كافرون بآيات الله وبرسوله

قُلْ يا أهلَ الكتابِ! لِمَ تَكفُرونَ بآياتِ اللهِ، واللهُ شهيدٌ على ما تَعْمَلونَ. قُلْ يا أهلَ الكتابِ! لِمَ تَصُدُّونَ عن سَبيلِ اللهِ مَن آمَنَ، تَبْغُونَها عِوَجاً وأنتمْ شُهَداءُ. وما اللهُ بغَافِلٍ عمّا تَعْمَلونَ. يا أيّها الّذينَ آمَنوا! إنْ تُطيعُوا فَريقاً مِنَ الّذينَ أُوتُوا الكتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكمْ كافِرينَ (صورة آل عمران ٣/٩٨-١٠٠).

الطبري:

" **قُلْ يا أهلَ الكتابِ! لِمَ تَكفُرُونَ بآياتِ اللهِ، واللهُ شهيدٌ على ما تَعْمَلونَ** " (أي: يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر مَن ينتحل الديانة بما أنزل اللّه من كتبه، ممّن كفر بمحمّد وجحد نبوّته): " **لِمَ تَكفُرُونَ بآياتِ الله** "؟ (يقول: لِمَ تجحدون حُجج اللّه التي آتاها محمّداً في كتبكم وغيرها، التي قد ثبتتْ عليكم بصدقه ونبوّته وحُجّته، وأنتم تعلمون. يقول: لِمَ تجحدون ذلك من أمره، وأنتم تعلمون صدقه؟ فأخبر جلّ ثناؤه عنهم أنّهم متعمّدون الكفر باللّه وبرسوله على علم منهم، ومعرفة من كفرهم)...

" **قُلْ يا أهلَ الكتابِ!** " (أي: يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم ممّن ينتحل التصديق بكتب اللّه): " **لِمَ تَصُدّونَ عن سَبيلِ اللهِ** " (أي: لِمَ تُضلّون عن طريق اللّه ومحجّته التي شرعها لأنبيائه وأوليائه وأهل الإيمان)، " **مَنْ آمَنَ** " (أي: من صدّق باللّه ورسوله وما جاء به من عند اللّه)، " **تَبْغُونَها عِوَجاً** " (أي: تبغون السبيل إلى اللّه ميلاً وضلالاً عن الهدى. معناه: لم تصدّون عن دين اللّه مَن صدّق اللّه

ورسولَه تبغون دين اللّه اعوجاجاً عن سننه واستقامته)؟ "**وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ**" (أي: شهداء على أنّ الذي تصدّون عنه من السبيل حقٌّ تعلمونه وتجدونه في كتبكم).

"**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**" (أي: وليس اللّه بغافل عن أعمالكم التي تعملونها ممّا لا يرضاه لعباده وغير ذلك من أعمالكم، حتّى يعاجلكم بالعقوبة عليها معجّلة، أو يؤخّر ذلك لكم حتّى تلقوه فيجازيكم عليها).

عن قتادة قال: لمَ تصدون عن الإسلام وعن نبيّ اللّه، من آمن باللّه، وأنتم شهداء فيما تقرأون من كتاب اللّه: أنّ محمّداً رسول اللّه، وأنّ الإسلامَ دين اللّه الذي لا يُقبل غيرُه ولا يُجزى إلاّ به، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل.

"**يا أيّها الّذينَ آمَنوا! إنْ تُطيعُوا فَريقاً مِنَ الّذينَ أُوتُوا الكتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكمْ كافِرينَ**". نزلت في ثعلبة بن عَنمة الأنصاري، كان بينه وبين أناسٍ من الأنصار كلام، فمشى بينهم يهوديٌّ من قينُقاع، فحمل بعضهم على بعض.

فتأويل الآية: يا أيها الّذين صدّقوا اللّه ورسوله، وأقرّوا بما جاءهم به نبيّهم من عند اللّه، إنْ تطيعوا جماعة ممّن ينتحل الكتاب من أهل التوراة والإنجيل، فتقبلوا منهم ما يأمرونكم به، يُضلّوكم فيردّوكم بعد تصديقكم رسول ربّكم، وبعد إقراركم بما جاء به من عند ربّكم، كافرين، يقول: جاحدين لما قد آمنتم به وصدّقتموه من الحقّ الذي جاءكم من عند ربّكم. فنهاهم جلّ ثناؤه: أن ينتصحوهم ويقبلوا منهم رأياً أو مشورةً، ويعلّمهم تعالى ذكرُه أنّهم لهم منطوون على غِلٍّ وغِشٍّ وحسدٍ وبغضٍ... لقد تقدّم اللّه إليكم فيهم كما

تسمعون، وحذّركم وأنبأكم بضلالتهم، فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تنتصحوهم على أنفسكم، فإنّهم الأعداء الحسدة الضُّلّال. كيف تأتمنون قوماً كفروا بكتابهم، وقتلوا رسلهم، وتحيَّروا في دينهم، وعجزوا عن أنفسهم؟ أولئك واللّه هم أهل التُّهمة والعداوة!...

الزمخشري:

لِمَ تكفرون بآيات اللّه التي دلّتكم على صدق محمّد؟ والحال أنّ اللّه شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها. وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته.

الرازي:

فإنْ قيل: لِمَ خصَّ أهلَ الكتاب بالذكر دون سائر الكفّار؟ قلنا لوجهين: **الأوّل**: أنّه تعالى أورد الدليل عليهم من التوراة والإنجيل على صحّة نبوّة محمّد، ثمّ أجاب عن شبههم في ذلك.. **الثاني**: أنّ معرفتهم بآيات اللّه أقوى لتقدّم اعترافهم بالتوحيد وأصل النبوّة، ولمعرفتهم بما في كتبهم من الشهادة بصدق الرسول والبشارة بنبوّته.

"**وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ**"، وفيه وجوه:

الأوّل: قال ابن عبّاس: يعني أنتم شهداء أنّ في التوراة أنّ دين اللّه الذي لا يقبل غيره هو الإسلام.

الثاني: وأنتم شهداء على ظهور المعجزات على نبوّة محمّد.

الثالث: وأنتم شهداء أنّه لا يجوز الصدُّ عن سبيل اللّه.

الرابع: وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم، ويعوّلون على شهادتكم في عظام الأمور وهم الأحبار...

الطبرسي:

وسمّاهم "**أَهْلَ الكِتَابِ**"، وإنْ لم يعملوا به. ولم يجز ذلك في أهل القرآن لوجهين: **أحدهما**: أنّ القرآن إسم خاص لكتاب اللّه تعالى، وأمّا الكتاب فلا ينبئ عن ذلك، بل يجوز أن يراد به يا أهل الكتاب المحرَّف عن وجهته. **والثاني**: الاحتجاج عليهم بالكتاب لإقرارهم به، فكأنّه قيل: يا من يقرّ بأنّه من أهل كتاب اللّه! لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ؟.. "**واللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلونَ**"، أي حفيظ على أعمالكم، محصٍ لها ليجازيكم عليها. وقيل: معناه مطّلع عليها، عالِم بها مع قيام الحجّة عليكم فيها..

أبو حيّان الأندلسي:

قال الحسن وقتادة والسدي: نزلتْ في أحبار اليهود الذين كانوا يصدّون المسلمين عن الإسلام، بأنْ يقولوا لهم: إنّ محمّداً ليس بالموصوف في كتابنا.

إبن كثير:

هذا تعنيف من اللّه تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحقّ، وكفرهم بآيات اللّه، وصدّهم عن سبيل اللّه مَن أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأنّ ما جاء به الرسول حقّ من اللّه، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين، صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين، وما بشّروا به ونوّهوا به من ذلك النّبيِّ الأمّيِّ الهاشميِّ العربيِّ المكّيِّ سيِّدِ وُلدِ آدمَ، وخَاتَمِ الأنبياء، ورسولِ ربِّ الأرضِ والسماء، وقد توعّدهم اللّه على ذلك، وأخبر بأنّه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومعاملتهم

الرسولَ المبشَّرَ به بالتكذيبِ والجحودِ والعناد، فأخبر تعالى أنّه ليس بغافلٍ عمّا يعملون، أي وسيجزيهم على ذلك.

" **يا أيّها الّذينَ آمَنوا! إنْ تُطيعُوا فَريقاً مِنَ الّذينَ أُوتُوا الكتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكمْ كافِرينَ** " ، يحذّر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم اللّه من فضله: وما منحهم من إرسال رسوله كما قال: " وَدَّ كثيرٌ من أهلِ الكتاب لو يَرُدّونكم من بعد إيمانكم كُفّاراً حَسَداً من عندِ أنفسهم " (٢/ ١٠٩).

(٣٣)

أهل الكتاب متفرّقون مختلِفون. فلهم عذاب عظيم

وَلا تَكُونُوا كَالّذينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ. وَأولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (سورة آل عمران ٣/ ١٠٥).

الطبري:

يعني بذلك جلّ ثناؤه: " **وَلا تَكُونُوا** " (يا معشر الذين آمنوا)، " **كَالّذينَ تَفَرَّقُوا** " (من أهل الكتاب)، " **وَاخْتَلَفُوا** " (في دين اللّه وأمره ونهيه)، " **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ** " ، (من حجج اللّه فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحقّ فيه فتعمّدوا خلافه، وخالفوا أمرَ اللّه، ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على اللّه). " **وَأولَئِكَ لَهُمْ** " ، (أي: ولهؤلاء الذين تفرّقوا واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم)، " **عَذَابٌ** " (من عند اللّه) " **عَظِيمٌ** " .

يقول جلّ ثناؤه: فلا تتفرّقوا، يا معشر المؤمنين، في دينكم، تفرُّقَ هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنّوا في دينكم بسنّتهم، فيكون لكم من عذاب اللّه العظيم مثل الذي لهم. قال الربيع: هم أهل الكتاب. نهى اللّه أهل الإسلام أن يتفرّقوا ويختلفوا كما تفرّق واختلف أهل الكتاب. قال: وهم اليهود والنصارى.

الرازي:

يعني: "**وَلا تَكُونُواْ**" أيّها المؤمنون، عند سماع هذه البيّنات، "**كَالّذينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا**" من أهل الكتاب، "**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم**" في التوراة والإنجيل من تلك النصوص الظاهرة.

البيضاوي:

"**وَلا تَكُونُوا كَالّذينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا**"، كاليهود والنصارى، اختلفوا في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة، "**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَات**"، أي: الآيات والحجج المبيِّنة للحقّ الموجِبة للاتّفاق عليه.

الخازن:

يعني: ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالّذين تفرّقوا، يعني أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى في قول أكثر المفسّرين، واختلفوا في دين اللّه وأمره ونهيه..

الألوسي:

أخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك، قال: قال رسول اللّه: افترقتِ اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنّة وسبعون في النار؛ وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى

وسبعـون في النّار، وواحدة في الجنّة. والذي نفسي بيده، لتـفترقنّ أمّتي على ثلاث وسبـعين فرقة، فواحدة في الجنّة واثنتان وسـبعون في النّار. قيل: يا رسول اللّه! مَن هم؟ قال: ألجماعة ".

(٣٤)

من أهل الكتاب فاسقون كافرون قتلة أنبياء

... وَلَو آمَنَ أهْلُ الـكِتـابِ لكـانَ خَـيـراً لَهُمْ. مِنْهُـمُ المُؤمِنُونَ، وَأكْـثَرُهُمُ الفَـاسِـقون. لَنْ يَضـُرُّوكُم إلاّ أذىً، وَإنْ يُقَـاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدْبَارَ. ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ. ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَ مـا ثُقِفُوا إلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النّاسِ، وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّه. وَضُرِبَتْ عَليهِمُ المَسْكَنَةُ. ذلكَ بِأنَّهُمْ كانُوا يَكْفُـرُونَ بآيَاتِ اللّه، وَيَقْتُلُونَ الأنْبِياءَ بغَـيرِ حَقٍّ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوا. وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (آل عمران ٣/ ١١٠ب-١١٢).

الطبري:

وَلَو آمَنَ أهْلُ الكِتابِ، (أي: ولو صدّق أهلُ التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى بمحمّد وما جاءهم به من عند اللّه)، **لَكانَ خَيراً لَهُمْ**، (عند اللّه في عاجل دنياهم وآجل آخرتهم). **مِنْهُم** (أي: من أهل الكتاب من اليهـود والنصارى)، **المُؤمِنُونَ**، (أي: المصدِّقـون رسولَ اللّه فيـما جاءهم به من عند اللّه)، **وَأكْثَـرُهُمُ الفَاسِـقون**، (أي: الخارجـون عن دينهم، وعن تصديق ما في التوراة والإنجيل من صفـة محمّد، ونعته، ومبعـثه، ونبوّته). **لَنْ يَضُرُّوكُمْ**، (هؤلاء الفاسقـون من أهل الكتاب بكفرهم، وتكذيبـهم نبيّكم محمّداً، شـيئاً) **إلاّ أذىً**، (باللسان من سبٍّ

ولعن)؛ **وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ** (أي منهزمين) **. ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ،** (أي: ثمّ لا ينصرهم اللّه عليكم لكفرهم باللّه ورسوله، وإيمانكم بما آتاكم نبيّكم محمّد).

ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ، (أي: ألزموا الذلّ) **أَيْنَ مَا ثُقِفُوا،** (أي: حيثما لُقوا، لا عزّ لهم ولا عصمة)، **إلاَّ** (أنْ يَعتصموا) **بِحَبْلٍ مِنَ اللّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ،** (أي: بعهدٍ من اللّه وعهدٍ من النّاس المؤمنين). **وَبَاءُوا** (أي: ورجعوا) **بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ. وَضُرِبَتْ عَلَيهِمُ المَسْكَنَةُ،** (أي: ذلّ الفاقة والفقر وخشوعهما) **. ذلكَ بأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللّهِ،** (أي: بأدلّته على صدق أنبيائه)، **وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بغَيرِ حَقٍّ،** (أي: ظلماً واعتداءً،وجراءةً على اللّه بالباطل). **ذَلِكَ بِمَا عَصَوا** (أمر اللّه)**، وَكَانُوا يَعْتَدُونَ،** (أي: يتجاوزون الحلال إلى الحرام).

(٣٥)

أهل الكتاب ليسوا سَوَاء: منهم مؤمن ومنهم كافر

لَيسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكتَابِ: أُمَّةٌ قَائمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاءَ اللّيلِ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ باللّهِ واليَومِ الآخِرِ، وَيأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَينْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ. وَأُولئكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ. وَاللّهُ عَليمٌ بالمُتَّقِينَ. إنَّ الّذينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللّهِ شَيئاً. وأولئك أَصْحَابُ النَّارِ. هُمْ فيها خَالِدونَ (سورة آل عمران ٣/١١٣-١١٦).

الطبري:

لَيسُوا سَوَاءً مِنْ أهْلِ الكتَابِ، (أي: ليس أهل الكتاب متساوين متعادلين، ولكنّهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشرّ. منهم المؤمنون ومنهم الكافرون. وابتدأ الخبر عن صفة الفرقة المؤمنة، فهم) **أُمَّةٌ قَائمَةٌ**، (أي: جماعة ثابتة على الحقّ، مستقيمة على الهدى وكتاب اللّه وفرائضه وشرائع دينه بالعدل والطاعة). **يَتْلُونَ آيَاتِ اللّه**، (أي: في ساعاته، أو جوفه)، **وَهُمْ يَسْجُدُونَ** (أي: يصلّون ساجدين).

يُؤْمِنُونَ باللّهِ واليَومِ الآخِرِ، (أي: يصدّقون باللّه وبالبعث بعد الممات، ويعلمون أنّ اللّه مُجازيهم بأعمالهم). **وَيأمُرُونَ بالمَعْرُوف** (أي: الإيمان باللّه ورسوله وتصديق محمّد وما جاءهم به). **وَينْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ**، (أي: وينهون الناسَ عن الكفر باللّه، وتكذيب محمّد، وما جاءهم به من عند اللّه). **وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَات** (أي: ويبتدرون فعلَ الخيرات خشيةَ أن يفوتهم ذلك قبل معاجلتهم مناياهم). **وَأولئكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** (أي: إنّ هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب هم من عداد الصالحين، لأنّ مَن كان منهم فاسقاً قد باء بغضب من اللّه).

وَمَا يَفعَلُوا مِنْ خَيْرٍ (أي: وما تفعل هذه الأمّة من أهل الكتاب من خير) **فَلَنْ يُكْفَرُوهُ** (أي: فلن يُعدموا ثوابه. بل يجازون عليه). **وَاللّهُ عَلِيمٌ بالمُتَّقِينَ** (أي: واللّه ذو علم بمن اتّقاه بطاعته، واجتنب معاصيه).

إنّ الّذينَ كَفَرُوا، (أي: جحدوا نبوّةَ محمّد، وكذّبوا به، وبما جاءهم به من عند اللّه)، **لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أمْوَالُهُمْ وَلا أوْلادُهُمْ مِنَ اللّهِ شَيَئاً** (أي: لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا، وأولادُه الذين ربّاهم فيها، شيئاً من عقوبة اللّه يوم القيامة، إنْ أخّرها لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا، إنْ عجّلها لهم فيها). **وأولئكَ أصْحَابُ النّارِ** (لأنّهم أهلها

الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها). **هُمْ فِيها خَالِدُونَ** (أي: صحبتهم إيّاها صحبةً لا انقطاع لها).

(٣٦)

أهل الكتاب يؤذون المسلمين ويكتمون الحقّ

لَتُبْلَوُنَّ في أَمْوالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ. وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذينَ أَشرَكُوا أذىً كثيراً، وإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ. وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاسِ، ولا تَكتُمُونَهُ. فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ واشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً. فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (سورة آل عمران ٣/١٨٦-١٨٧).

الطبري:

لَتُبْلَوُنَّ (أي: لتختبرنّ بالمصائب) **في أَمْوالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ** (أي: وبهلاك الأقرباء والعشائر من أهل نصرتكم وملّتكم) . **وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** (أي من اليهود، لقولهم: "إنَّ اللّهَ فَقيرٌ ونَحنُ أغْنياءُ" (٣/ ١٨١)، وقولهم: "يَدُ اللّهِ مَغْلُولةٌ" (٥/ ٦٤)، **وَمِنَ الذينَ أشرَكُوا** (أي: النصارى، لقولهم: "ألمَسِيحُ ابنُ اللّه" (٩/ ٣٠)، وما أشبه ذلك من كفرهم باللّه) **أذىً كثيراً** (من اليهود والنصارى سواء)، **وإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا** (اللّهَ في ما أمركم ونهاكم، فتعملوا في ذلك بطاعته)، **فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ** (أي: فإنّ ذلك الصبر والتقوى ممّا عزم اللّه عليه وأمركم به).

وإذْ أخَذَ اللّهُ ميثاقَ الّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ (من اليهود والنصارى) **لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاسِ** (أي: تبيّن للناس أمرَك بأنّك رسول اللّه مرسَل بالحقّ)، **ولا تَكتُمُونَهُ. فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ** (فتركوا أمرَ اللّه وضيّعوه، ونقضوا ميثاقه)، **واشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً. فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ.**

يعني بذلك تعالى ذكرُه: واذكرْ أيضاً من أمر هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب منهم، يا محمّد، إذا أخذ اللّه ميثاقهم ليبيننّ للناس أمرك الذي أخذ ميثاقهم على بيانه للناس في كتابهم الذي في أيديهم، وهو التوراة والإنجيل...

الطبرسي:

الذينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ، يعني اليهود والنصارى، **ومِنَ الذينَ أشرَكوا**، يعني كفّار مكّة وغيرهم. **أذىً كثيراً**، يعني ما سمعوه من تكذيب النّبي ومن الكلام الذي يغمّه.

وإنْ تَصْبِرُوا وَتتّقوا، يعني إنْ صبرتم على ذلك، وتمسّكتم بالطاعة، ولم تجزعوا عنده جزعاً يبلغ الإثم، **فإنَّ ذلكَ منْ عَزْمِ الأمورِ**، أي ممّا بان رشده وصوابه ووجب على العاقل العزم عليه.

إبن كثير:

وَلَتَسْمَعُنَّ منَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ ومِنَ الذينَ أشرَكوا أذىً كثيراً. يقول تعالى للمؤمنين، عند مقدمهم المدينة، قبل وقعة بدْر، مسلّياً لهم عمّا ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتّى يفرج اللّه. فقال: **وإنْ تَصْبِرُوا وَتَتّقوا فإنَّ ذلكَ منْ عَزْمِ الأمورِ.**

سيِّد قطب:

حفلتِ السورةُ بصور من مكايد أهل الكتاب والمشركين، وصور من دعايتهم للبلبلة والتشكيك، أحياناً في أصول الدعوة وحقيقتها، وأحياناً في أصحابها وقيادتها. وهذه الصور تتجدّد مع الزمان، وتتنوّع بابتداع وسائل الدعاية الجديدة، وتُوجَّه كلّها إلى الإسلام في أصوله الاعتقاديّة، وإلى الجماعة المسلمة والقيادة الإسلاميّة. فلا تخرج على هذه القاعدة التي كشفها اللّه عنها للجماعة المسلمة الأولى، (في هذه السورة)، وهو يكشف لها عن طبيعة الطريق، وطبيعة الأعداء الرّاصدين لها في الطريق... ويبثّ في قلبها الطمأنينة لكلِّ ما تلقاه من وعدِ اللّه ذاك؛ فتعرف حين تتناوشها الذئاب بالأذى، وحين تعوي حولها بالدعاية، وحين يصيبها الابتلاء والفتنة.. أنّها سائرة في الطريق، وأنّها ترى معالم الطريق.

ومن ثمّ تستبشر (هذه الجماعة المسلمة).. لأنّها تستيقن أنّها ماضية في الطريق التي وصفها اللّه لها مِن قَبْلُ، وتستيقن أنّ "الصبر والتقوى" هما زاد الطريق. ويبطل عندها الكيد والبلبلة، ويصغر عندها الابتلاء والأذى...

ثمّ يمضي السياق القرآني يفضح موقف أهل الكتاب في مخالفتهم عن عهد اللّه معهم يوم آتاهم الكتاب، ونبذِهم له، وكتمانِهم لما ائتمنهم عليه منه.. وقد تضمّن سياقُ السورة الكثير من أفاعيل أهل الكتاب وأقاويلهم -وبخاصّة اليهود-. وأبرزُ هذه الأفاعيل والأقاويل كتمانُهم للحقّ الذي يعلمونه، ولبسه بالباطل، لإحداث البلبلة والاضطراب في مفهوم الدين، وفي صحّة الإسلام، وفي وحدة الأسس والمبادئ بينه وبين الأديان قبله، وفي تصديقه لها وتصديقها

له.. وكانت التوراة بين أيديهم يعلمون منها أنّ ما جاء به محمّد حقٌّ، وأنّه من ذات المصدر الذي جاءتهم منه التوراة...

(٣٧)

ثمّة طائفة من أهل الكتاب آمنت بالقرآن

وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ باللَّهِ، ومـا أُنْزِلَ إليكُمْ، وما أُنْزِلَ إلَيـهِمْ، خَـاشِعِـينَ للَّه، لا يَشْتَـرُونَ بآيَاتِ اللَّـهِ ثَمَنَاً قَلِيـلاً. أولئكَ لهمْ أجْرُهمْ عِندَ رَبِّهِمْ. إنّ اللّهَ سَرِيعُ الحِسابِ (سورة آل عمران ٣/ ١٩٩).

الطبري:

قال: اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية. فقال بعضهم: عنى بها أصْحمة النجاشي. وفيه أنزلت. عن جابر أنّ النّبيَّ قال: "أُخرجوا فصلّوا على أخٍ لكم". فصلّى بنا. فكبّر أربع تكبيرات، فقال: "هذا النجاشي أصْحمة". فقال المنافقون: أنظروا إلى هذا يصلّي على عِلْجٍ نَصْرَانِيٍّ لمْ يرَه قط! فأنزلَ اللّه: "**وإنَّ منْ أهلِ الكتابِ لَمَن يُؤْمِنُ باللّهِ**".

عن قتادة أيضاً أنّ النّبيَّ قال: إنّ أخاكم النجاشي قد مات فصلّوا عليه. قالوا: يُصلّى على رجل ليس بمسلم! قال: فنزلت... وعن قتادة أيضاً قال: ذُكر لنا أنّ هذه الآية نزلتْ في النّجاشي، وفي ناسٍ من أصحابه آمَنوا بنبيّ اللّه وصدّقوا به.

أمّا مجاهد فيعتبر "**أهْلَ الكِتَاب**" في هذه الآية هم اليهود والنصارى، وهم مسلمة أهل الكتاب.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله مجاهد. وذلك أنّ اللّهَ عمّ بقوله أهلَ الكتاب جميعاً، فلم يخصّصْ منهم النّصارى دون اليهود، ولا اليهود دون النصارى.

ولئن صحّ أنّها نزلت في النجاشي، -وذلك خبرٌ في إسنادِهِ نَظَرٌ- "فإنّ اللّه تبارك وتعالى قد جعل الحكم الذي حكم به للنجاشي حكماً لجميع عباده الذين هم بصفة النجاشي في اتّباعهم رسولَ اللّه، والتصديق بما جاءهم به من عند اللّه..

"**لا يشْتَرونَ بآيات الله ثمَناً قليلاً**"، أي : لا يحرّفون ما أنزل إليهم في كتبه من نعت محمّد فيبدِّلونه، لعَرَض من الدنيا خسيس يُعطونه على ذلك التبديل، وابتغاء الرياسة على الجهّال، ولكن ينقادون للحقّ، فيعملون بما أمرهم اللّه به فيما أنزل إليهم من كتبه، وينتهون عمّا نهاهم عنه فيها، ويؤثرون أمر اللّه على هوى أنفسهم

"**أولئكَ**" (أي: هؤلاء الذين يؤمنون باللّه وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم)، "**لهمْ أجْرُهمْ**" (أي: لهم عوض أعمالهم التي عملوها، وثواب طاعتهم ربَّهم فيما أطاعوه فيه) "**عندَ رَبِّهِم**" (يعني: مذخور ذلك لهم لديه، حتى يصيروا إليه في القيامة، فيوفِّيهم ذلك). "**إنّ اللّهَ سَريعُ الحِساب**" (وسرعة حسابه أنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم قبل أن يعملوها وبعد ما عملوها. فلا حاجة به إلى إحصاء عدد ذلك، فيقع في الإحصاء إبطاء. فلذلك قال: "إنّ اللّهَ سريعُ الحِساب").

الزمخشري:

عن مجاهد قال: نزلتْ في عبدالـلّه بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب. وقيل: في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من

الحبشة، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى فأسلموا. وقيل في أصحمة النجاشي ملك الحبشة. ومعنى أصحمة: عطيّة بالعربيّة، وذلك أنّه لمّا مات نعاه جبريل إلى رسول اللّه، فقال عليه الصلاة والسلام: أخرجوا فصلّوا على أخٍ لكم مات بغير أرضكم. فخرج إلى البقيع، ونظر إلى أرض الحبشة، فأبصر سريرَ النجاشي، وصلّى عليه، واستغفر له. فقال المنافقون: أنظروا إلى هذا يصلّي على عِلْجٍ نصراني لم يرَه قط، وليس على دينه. فنزلت.

الرازي:

عن مجاهد قال: نزلتْ في مؤمني أهل الكتاب كلّهم. وهذا هو الأولى، لأنّه، لمّا ذكر الكفار بأنّ مصيرهم إلى العقاب، بيّن فيمن آمن منهم بأنّ مصيرهم إلى الثواب.

واعلم أنّه تعالى وصفهم بصفات:

أوّلها: الإيمان باللّه؛

ثانيها: الإيمان بما أنزلَ اللّهُ على محمّد؛

ثالثها: الإيمان بما أنزَل على الأنبياء الذين كانوا قبل محمّد؛

ورابعها: كونهم خاشعين للّه..؛

وخامسها: أنّهم لا يشترون بآيات اللّه ثمناً قليلاً، كما يفعله أهلُ الكتاب ممّن كان يكتم أمرَ الرسولِ وصحّة نبوّته[١٥].

(١٥) يتوسّع محمّد عبده بهذه الصفات التي نقلها عن الرازي.

ألقاسمي:

(هذه الآية) جملة مستأنفة سيقتْ لبيان أنّ أهلَ الكتاب ليس كلّهم كمن حُكِيَتْ هناتهم من نبذ الميثاق، وتحريف الكتاب وغير ذلك. بل منهم طائفة يؤمنون بالله حقّ الإيمان، ويؤمنون بما أنْزل على النّبيّ (محمّد) مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدّمة، وأنّهم خاشعون للّه، أي مطيعون له، خاضعون متذلّلون بين يديه، لا يشترون بآيات اللّه ثمناً قليلاً، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمّد.

وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى.

(٣٨)

ليس الدين بالتمنّي بل بالعمل الصالح

لَيسَ بِأمَانِيِّكُمْ وَلا أمَاني أهْلِ الكِتَابِ. مَنْ يَعمَلْ سُوءاً يُجْزَ بهِ، ولا يَجِدْ له مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (سورة النساء ٤/١٢٣).

الطبري:

"**لَيسَ بِأمَانِيِّكُمْ**"، أي: ليس الأمر بأمانيكم، يا مشركي قريش، معشر أولياء الشيطان وحزبه، التي يمنّيكموها وليُّكم عدوّ اللّه، من إنقاذكم ممّن أرادكم بسوءٍ، ونصرتكم عليه وإظفاركم به؛ ولا أماني أهل الكتاب الذين قالوا اغتراراً باللّه وبحلمه عنهم: "لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدُودَةً" (٢/ ٨٠)، و"لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَن كَان هُوداً أو نَصَارى" (٢/ ١١١)، فإنّ اللّه مجازي كلِّ عاملٍ منكم جزاءَ عمله، "**مَنْ يَعمَلْ**" منكم "**سُوءًا**"، ومن غيركم، "**يُجْزَ بِهِ**"، "**ولا يَجِدْ له مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً**"، ومَن يعمل الصالحات من ذَكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة...

الزمخشري:

قيل إنّ المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبل نبيّكم، وكتابنا قبل كتابكم. وقال المسلمون: نحن أولى منكم، نبيّنا خاتم النّبيّين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله. فنزلتْ.

محمّد عبده:

يقال في سبب النزول أنّه اجتمع نفرٌ من المسلمين واليهود والنصارى، وتكلّم كلٌّ في تفضيل دينِه، فنزل قوله تعالى: "**لَيسَ**

بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِي أَهْلِ الكِتَابِ " . والمعنى، بناءً على ذلك: ليس شرفُ الدين وفضلُه، ولا نجاةُ أهله به أن يقول القائل منهم: إنّ ديني أفضل وأكمل، وأحقّ وأثبت؛ وإنّما عليه إذا كان موقناً به أن يعمل بما يهديه إليه. فإنّ الجزاء إنّما يكون على العمل، لا على التمنّي والغرور. فلا أمر نجاتِكم، أيّها المسلمون، منوطاً بأمانيّكم في دينكم، ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطاً بأمانيّهم في دينهم؛ فإنّ الأديان ما شرّعتْ للتفاخر والتباهي، ولا تحصل فائدتها بمجرّد الانتماء إليها والتمدّح بها بلوكِ الألسنة والتشدّق في الكلام، بل شرّعت للعمل.

(٣٩)

وصيّة الله إلى أهل الكتاب أنِ اتَّقُوا اللّهَ

وَلِلّهِ مَا في السَّمَوَاتِ ومَا في الأرْضِ. وَلَقَدْ وَصَّيْنا الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكمْ وإيَّاكمْ أنِ اتَّقُوا اللّهَ. وإنْ تَكفُروا فإنَّ لِلّهِ مَا في السَّمواتِ ومَا في الأرْضِ. وكان اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً (النساء ٤/ ١٣١).

الطبري:

لقد أمرنا أهلَ الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل، وأمرناكم، وقلنا لكم: إحذروا اللّهَ أن تعصوه وتخالفوا أمرَه ونهيَه. وإنْ تجحدوا وصيَّتَه إيّاكم، أيّها المؤمنون، فتخالفوها، فإنّكم لا تضرّون بخلافكم وصيّتَه غيرَ أنفسِكم، ولا تَعْدُونَ في كفركم ذلك أن تكونوا أمثالَ اليهود والنصارى، في نزول عقوبته بكم، وحلول غضبه عليكم، كما حلّ بهم إذ بدّلوا عهدَه ونقضوا ميثاقَه، فغيّر بهم ما كانوا فيه من

خَفض العيش وأمن السِّرب[١]، وجعل منهم القردة والخنازير. وذلك أنّ له ملك جميع ما حوته السموات والأرض، لا يمتنع عليه شيء أراده بجميعه وبشيء منه، من إعزاز من أراد إعزازه، وإذلال من أراد إذلاله، وغير ذلك من الأمور كلّها، لأنّ الخلقَ خلقه، بهم إليه الفاقة والحاجة. وبه قواهم وبقاؤهم، وهلاكهم وفناؤهم. وهو الغني الذي لا حاجة تحلّ به إلى شيء، ولا فاقة تنزل به تضطرّه إليكم، أيها الناس، ولا إلى غيركم..

الزمخشري:

إنّ "**لِلّهِ**" الخلق كلّه، وهو خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلّها، فحقّه أن يكون مطاعاً في خلقه، غير معصي، يتّقون عقابه ويرجون ثوابه. "**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذينَ أُوتُوا الكِتابَ**" من الأمم السالفة، ووصّيناكم "**أنِ اتَّقُوا اللّهَ**". وهي وصيّة قديمة ما زال يوصي اللّه بها عباده. لستم بها مخصوصين، لأنّهم بالتقوى يسعدون عنده، وبها ينالون النّجاة في العاقبة. وقلنا لهم ولكم: "**وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للّه**" في سمواته وأرضه من الملائكة والثقلين مَن يوحّده ويعبده ويتّقيه. "**وَكَانَ اللّه**"، مع ذلك، "**غَنِيًا**" عن خلقه، وعن عبادتهم جميعاً، مستحقّاً لأن يُحمد لكثرة نعمه، وإنْ لمْ يحمدْه أحدٌ منهم...

الطبرسي:

"**ولقَدْ وَصَّيْنا الذينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكمْ**" من اليهود والنصارى وغيرهم. "**وإيّاكمْ**"، أي: وأوصيناكم أيّها المسلمون في

---

(١) خفض العيش: لينه وخصبه. والسِّرْب: النفس والمال والأهل والولد.

كتابكم: "**أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ** "، أي: إتّقوا عقابَه باتقاء معاصيه، ولا تخالفوا أمره ونهيَه. "**وإنْ تَكفُروا** "، أي تجحدوا وصيّتَه إيّاكم وتخالفوها، "**فإنَّ للّهِ ما في السّموات وما في الأرضِ** " لا يضرّه كفرانكم وعصيانكم.. "**وكان اللّه غنيّاً حميداً** ".

محمّد عبده:

"**وللّهِ ما في السّمَوات وما في الأرضِ** " ملكاً وخلقاً وعبيداً، فبأمره وحده قام نظام الأكوان، وله وحده التدبير والتكليف الذي ينتظم به أمر الإنسان.

"**ولقَدْ وَصَّيْنا الذينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكمْ وإيّاكمْ أنِ اتَّقُوا اللَّهَ**" في إقامة سننه، وإقامة دينه وشريعته. فبإقامة السنن تعلو معارفكم الإلهيّة، وترتقي مرافقكم الدنيويّة، وبإقامة الأحكام والآداب الدينيّة تتزكّى أنفسكم وتنتظم مصالحكم المدنيّة والاجتماعيّة.

"**وإنْ تَكفُروا** " نعمه عليكم وتتركوا تقواه في ذلك، "**فإنَّ للّهِ ما في السّموات وما في الأرضِ** " لا يُنقص كفرُكم من ملكه شيئاً، وإنّما ضرره عليكم، كما أنّ منفعة الشكر خاصّة بكم.

"**وكان اللّه غنيّاً حميداً** ": غنيّاً عن كلّ شيء بذاته لذاته، ولأنّ كلّ شيء له ومنه، محموداً بذاته لذاته وكمال صفاته، محموداً على جميع أفعاله، لأنّه أحسن كلّ شيء خلقه. فهو لا يحتاج إلى شكركم لتكميل نفسه، ولا إلى حمدكم لتحقيق حمده..

وفي الحديث القدسي المروي عن النّبيّ عن ربّه عزّ وجلّ: "يا عبادي! إنّكم لم تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو انّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب،

رجلٌ واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي! لو انّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب، رجلٌ واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي! لو انّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيت كلّ واحد مسألته، ما نقص ذلك ممّا عندي إلاّ كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثمّ أوفيكم إيّاها. فمن وجد خيراً فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه". رواه مسلم.

(٤٠)

أهل الكتاب كافرون، لأنّهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض

إنّ الذينَ يكفُرونَ باللّهِ ورُسُلِه، ويُريدونَ أن يُفرِّقُوا بينَ اللّهِ ورُسُلِه، ويقولونَ نُؤمِنُ ببعضٍ ونَكْفُرُ ببعضٍ، ويُريدونَ أن يَتَّخِذوا بينَ ذلكَ سبيلاً. أولئكَ هُمُ الكافِرُون حَقّاً، وأَعْتَدْنا للكافِرينَ عَذاباً مُهيناً. والذينَ آمَنُوا باللّهِ ورُسُلِه، ولَمْ يُفَرِّقُوا بينَ أحدٍ منهمْ أولئكَ سوفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهمْ. وكان اللّهُ غَفوراً رَحيماً (سورة النساء ٤/ ١٥٠-١٥٢).

الطبري:

"**إنّ الذينَ يكفُرونَ باللّهِ ورُسُلِهِ**"، (من اليهود والنصارى)؛ **ويُريدونَ أن يُفَرِّقُوا بينَ اللّهِ ورُسُلِه**، (بأن يكذّبوا رسلَ اللّه الذين أرسلهم إلى خَلقه بوحيه، ويزعموا أنّهم افتَرَوا على ربّهم).. "**ويقولونَ نُؤمِنُ ببعضٍ ونَكْفُرُ ببعضٍ**"، (أي: يقولون: "نصدِّق بهذا

ونكذّب بهذا"، كما فعلت اليهود من تكذيبهم عيسى ومحمّداً، وتصديقهم بعيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم)، "**ويُريدُونَ أن يَتَّخِذوا بينَ ذلكَ سبيلاً**"، (أي: ويريد المفرِّقون بين اللّه ورسلِه، الزاعمون أنّهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، أن يتّخذوا "**سَبِيلاً**"، أي: ديناً يدينون به اللّه، أي طريقاً إلى الضلالة التي أحدثوها، والبدعة التي ابتدعوها، يَدعون أهلَ الجهل من النّاس إليه).

فقال جلّ ثناؤه لعباده، منبِّها لهم على ضلالتهم وكفرهم: "**أولئكَ هُمُ الكَافِرُون حَقّاً**". (يقول: أيّها النّاس! هؤلاء الذين وصفتُ لكم صفتَهم، هم أهل الكفر بي، المستحقّون عذابي والخلود في ناري حقّاً. فاستيقنوا ذلك، ولا يُشكّكنّكم في أمرهم انتحالُهم الكذب، ودعواهم أنّهم يقرّون بما زعموا أنّهم به مقرّون من الكتب والرسل، فإنّهم في دعواهم ما ادّعوا من ذلك كَذَبَةٌ. وذلك أنّ المؤمن بالكتب والرسل، هو المصدّق بجميع ما في الكتاب الذي يزعم أنّه به مصدّق، وبما جاء به الرسول الذي يزعم أنّه به مؤمن.

"**وَأعْتَدْنا للكافِرينَ** (أي: الجاحدين باللّه ورسوله) "**عَذاباً**" (في الآخرة) "**مُهيناً**" (أي: يهين من عُذِّبَ به بخلوده فيه). عن قتادة قال: أولئك أعداء اللّه: أليهود والنصارى. آمنتِ اليهود بالتوراة وموسى، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وآمنتِ النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بالقرآن وبمحمّد، فاتّخذوا اليهوديّة والنصرانيّة، وهما بدعتان ليستا من اللّه، وتركوا الإسلام وهو دين اللّه الذي بَعَثَ به رُسُلَهُ.

"**والذينَ آمَنُوا باللّهِ ورُسُله**". (أي: والذين صدّقوا بوحدانيّة اللّه، وأقرّوا بنبوّة رسله أجمعين، وصدّقوهم فيما جاؤوهم به من عند

اللّه من شرائع دينه)، "**وَلَمْ يُفَرِّقُـوا بينَ أحدٍ منهمْ**"، (أي: ولم يكذّبوا بعضَهم ويصدّقوا بعـضـهم، ولكنّهم أقرّوا أنّ كلّ ما جاؤوا به من عند ربّهم حقّ)، "**أولئكَ**"، (أي: هؤلاء الذين هذه صفتهم من المؤمنين باللّه ورسله)، "**ســوفَ يُؤْتِـيـهِمْ**"، (أي: يعطيـهم)، "**أُجُـورَهمْ**"، (أي: جزاءَهم وثوابهم على تصديقهم الرّسل في توحيد اللّه وشرائع دينه، وما جاءت به من عند اللّه).

"**وكان اللّهُ غفوراً**"، (أي: يغفر لمن فعل ذلك من خلقه ما سلف له من آثامه، فيستـر عليه بعفوه له عنه، وتركه العـقوبة عليه، فإنّه لم يزل لذنوب المذنبين إليه من خلقـه غفوراً)، "**رَحيـماً**"، (أي: ولم يزل بهم رحيماً، بتفضّله عليهم بالهداية إلى سبيل الحقّ، وتوفيقه إيّاهم لما فيه خلاص رقابهم من النار).

الزمخشري:

"**ويُريدونَ أن يَتَّخِذوا بينَ ذلكَ سـبيلاً**". أي: أنْ يتّخذوا ديناً وسطاً بين الإيمان والكفـر. كقوله: "وَلا تَجْـهَرْ بِصَـلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهـا. وابْتَـغِ بينَ ذلِكَ سَـبـيـلاً" (١٧/ ١١٠)، أي: طريقـاً وسَطاً في القراءة، وهو ما بين الجهر والمخافـتة، وقد أخطئوا، فإنّه لا واسطة بين الكفـر والإيمان. ولذلك قـال: "**أولئكَ هُمُ الكَافِـرُون حَـقّـاً**"، أي: هم الكاملون في الكفر.. أي: هم الذين كفروا كفراً حقّاً ثابتاً يقيناً.

الرازي:

من أباطيل اليـهود والنصـارى: إيمانهم ببعض الأنبـياء دون البعض. فقال: "**إنّ الذينَ يكفُرونَ باللّهِ ورُسُلِه**"، (أي: إنّ اليهود آمنوا بموسى والتوراة وكفروا بعيسى والإنجيل، والنصارى آمنوا بعيسى

والإنجيل وكفروا بمحمّد والقرآن، " **ويُريدونَ أن يُفرِّقُوا بينَ اللّهِ ورُسُلِه** "، (أي: يريدون أن يفرّقوا بين الإيمان بالله ورسله)... " **ويُريدونَ أن يَتّخِذوا بينَ ذلكَ سبيلاً** "، (أي: بين الإيمان بالكلّ وبين الكفر بالكلّ سبيلاً، أي واسطة، وهي الإيمان بالبعض دون البعض). " **أولئكَ هُمُ الكافرون حَقّاً** "، (أي: أولئك هم الكافرون كفراً كاملاً ثابتاً حقّاً يقيناً).

إبن كثير:

يتوعّد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى، حيث فرّقوا بين اللّه ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء، وكفروا ببعض، بمجرّد التشهّي والعادة، وما ألِفوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادهم إلى ذلك. فإنّه لا سبيلَ لهم إلى ذلك، بل بمجرّد الهوى والعصبيّة. فاليهود، عليهم لعائن اللّه، آمنوا بالأنبياء إلاّ عيسى ومحمّد؛ والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمّد؛ والسامرة لا يؤمنون بنبيّ بعد يوشع خليفة موسى بن عمران؛ والمجوس يُقال إنّهم كانوا يؤمنون بنبيّ لهم يقال له زرادشت، ثم كفروا بشرعه فرُفِعَ من بين أظهرهم..

والمقصود أنّ مَن كفرَ بنبيّ من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء. فإنّ الإيمان واجب بكلّ نبيّ. فمَن ردّ نبوّتَه للحسد، أو العصبيّة، أو التشهّي، تبيّن أنّ إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعيّاً، إنّما هو عن غرضٍ وهوًى وعصبيّة. ولهذا قال تعالى: " " **إنّ الذينَ يَكفُرونَ باللّهِ ورُسُلِه** "، (فوسمهم بأنّهم كفّار باللّه ورسله)، " **ويُريدونَ أن يُفرِّقُوا بينَ اللّهِ ورُسُلِه** (في الإيمان). **ويقولونَ نُؤمِنُ ببعضٍ ونَكفُرُ ببعضٍ، ويُريدونَ أن يَتّخِذوا بينَ ذلكَ سبيلاً** ".

ثمّ أخبر تعالى: "**أولئكَ هُمُ الكَافِرُون حَقّاً**" (أي: كفرهم محقّق لا محالة بمن ادّعوا الإيمان به، لأنّه ليس شرعيّاً. إذ لو كانوا مؤمنين به، لكونه رسول اللّه، لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً، وأقوى برهاناً منه، أو نظروا حقّ النظر في نبوّته).

وقوله: "**وَأَعْتَدْنا للكافِرينَ عَذاباً مُهيناً**"، (أي: كما استهانوا بمن كفروا به، إمّا لعدم نظرهم فيما جاءهم به من اللّه وإعراضهم عنه، وإقبالهم على جمع حطام الدنيا ممّا لا ضرورة بهم إليه، وإمّا بكفرهم به بعد علمهم بنبوّته، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود، في زمان رسول اللّه (محمّد)، حيث حسدوه على ما آتاه اللّه من النبوّة العظيمة، وخالفوه، وكذّبوه، وعادوه، وقاتلوه، فسلّط اللّهُ عليهم الذلّ الدنيوي الموصول بالذلّ الأخروي. "وَضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ. وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ" (٢/ ٦١)، في الدنيا والآخرة).

الآلوسي:

"**ويقولونَ نُؤمِنُ ببعضٍ ونَكْفُرُ ببعضٍ**"، (أي: نؤمن ببعض الأنبياء، ونكفر ببعضهم، كما فعل أهلُ الكتاب. وما ذلك إلاّ كفرٌ باللّه وتفريقٌ بين اللّه ورسله، لأنّه عزّ وجلّ قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء. وما من نبيٍّ إلاّ وقد أخبر قومَه بحقّيّةِ دينِ نبيِّنا. فمن كفرَ بواحدٍ منهم فقد كفر بالكلّ، وباللّه تعالى أيضاً من حيث لا يشعر).

"**ويُريدون**" (بهذا القول) "**أن يَتَّخِذوا بينَ ذلكَ**"، (أي: بين الإيمان والكفر) "**سبيلاً**" (أي: طريقاً يسلكونه مع أنّه لا واسطة بينهما قَطعاً، إذ الحقّ لا يختلف، وما بعد الحقّ إلاّ الضلال). "**أولئكَ**" (أي: الموصوفون بالصفات القبيحة)، "**هُمُ الكَافِرُون حَقّاً**" (أي: الكاملون في الكفر لا عبرة بما يدعونه ويسمّونه إيماناً أصلاً).

محمّد عبده:

هذا القول منهم تفسيرٌ لتفرقتهم بين اللّه ورسله، أي: يؤمنون باللّه ولا يؤمنون برسله. وهم فريقان:

منهم من لا يؤمن بأحدٍ من الرسل لإنكارهم الوحي وزعمهم أنّ الأنبياء قد أتَوا بما أتَوا به من الهدى والشرائع من عند أنفسهم؛ وأكثر كفّار هذا العصر من هذا الفريق.

ومنهم مَن يؤمن ببعض الرّسل دون بعض، بل يقولون ذلك بأفواههم، ويدعونه بألسنتهم، كقول اليهود: نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمّد، وإنْ لمّ يسمّوهما رسولَين، "**ويُريدونَ أن يَتّخِذوا بينَ ذلكَ سبيلاً**" (أي: طريقاً بين الإيمان باللّه ورسله يفصل أحدهما عن الآخر). "**أولئكَ هُمُ الكافِرُون حَقّاً**".

وأمّا الذين يقولون إنّهم يؤمنون ببعض الرسل، ويكفرون ببعض، كأهل الكتاب، فلا يعتدّ بقولهم، ولا يُعَدُّ ما هم عليه من التعصّب، وحفظ بعضِ المأثور عنهم من الأحكام والمواعظ، إيماناً صحيحاً. وإنّما تلك تقاليد اعتادوها، وعصبيّة جنسيّة أو سياسيّة جرَوا عليها.. ومَن فهم هذا، لا يمكن أن يؤمن بموسى وعيسى، ويكفر بمحمّد. فإنّ صفات الرسالة قد ظهرت في محمّد بأكمل ممّا ظهرت في غيره، والهداية به كانت أكبر من الهداية بمَن قبلَه، وحجّته كانت أنهض، وطرق العلم بها أقوى، والشبهة عليها أضعف.

فقد نشأ موسى في بيت الملك، ومهد الشرائع والعلم. ونشأ عيسى في أمّة ذات شريعة، ودولة ذات علم ومدنيّة، وبلاد انتشرتْ فيها كتب الآداب والحكمة. فلا يظهر البرهان على كون ما جاء به كلٌّ

منهما وَحياً إليهاً لا كسب له فيه، كما يظهر البرهان على ما جاء به محمّد، وهو الأمّيّ الذي نشأ بين الأمّيّين، ونقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعي، والأسانيد المتّصلة دون دينهما.

وأمّا جعلُ النصارى نبيَّهم إلهاً في الشكل الذي أظهره فيه الملك قسطنطين الوثني، وخلفه من الرومانيّين، فذلك طور آخر لم يعرفه المسيح وحواريّوه، وتشكيل لدينهم بشكل من أشكال وثنيّتهم السابقة مؤلّف من تقاليد وثنيّي الهند والصين والمصريّين والأوروبّيّين وغيرهم، كما بيّن ذلك علماءُ أوربّة الأحرار.

سيّد قطب:

لقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم، وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمّد. كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى -فضلاً عن تأليهه-، وينكرون رسالة محمّد كذلك. وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء؛ ويقرّر التصوّر الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله، بدون تفريق بين الله ورسله، وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً..

إنّ الإيمان وحدة لا تتجزّأ.. ألإيمان بالله إيمانٌ بوحدانيّته؛ ووحدانيّته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلّها على أساسه؛ ويقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده، ووحدة الموقف تجاههم جميعاً. ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلاّ بالكفر المطلق...

(٤١)

وما قتلوه. وما صلبوه.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَولِهِم عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً. وَقَولِهِم إنّا قَتَلْنا المسيحَ عيسَى ابنَ مَريمَ رسولَ اللهِ. وما قَتَلُوهُ. وما صَلَبُوهُ. وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ. وَإِنَّ الّذينَ اخْتَلَفُوا فيهِ لَفي شَكٍّ مِنْهُ. مَا لَهمْ بهِ منْ علمٍ إلاّ اتّبَاعَ الظَّنِّ. ومَا قَتَلُوه يَقيناً. بل رَفَعَهُ اللّهُ إليهِ. وكانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكيماً. وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بهِ قَبْلَ موتهِ. ويومَ القيامةِ يكونُ عليهمْ شَهيداً (ألنساء ٤/١٥٦-١٥٩)[1]..

ألطبري:

" **وَبِكُفْرِهِمْ وَقَولِهِم عَلى مريمَ بُهْتَاناً عَظِيماً** ". (أي: بفريّتهم عليها ورميهم إيّاها بالزنا، وهو "البهتان العظيم". وهي، ممّا رموها به بغير ثبت ولا برهان، بريئة، فبهتوها بالباطل من القول).

وَقَولِهم (مفتخرين) **إنّا قَتَلْنا المسيحَ عيسَى ابنَ مَريمَ رسولَ اللّهِ** (في زعمهم. فقال تعالى تكذيباً لهم): **وما قَتَلُوهُ. وما صَلَبُوهُ. وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ** " (أنّ المقتول هو عيسى؛ فيما هو، في الحقيقة، شخصٌ آخر، مُختَلَفٌ فيه، شَبيهٌ بعيسى)..

اختلف أهل التأويل في صفة التشبيه الذي شُبِّه لليهود في أمر عيسى:

---

(١) يعلّق بلاشير Blachère على هذه الآيات (٤/١٥٦-١٥٩) بأنّها مقحمة على النّص إقحاماً واضحًا. فهي تقطع المعنى؛ بل تزيد عليه معنى آخر ليس منها ولا يتحمّلها.

١. فقال بعضهم: لمّا أحاطتِ اليهود به وبأصحابه أحاطوا بهم وهم لا يثبتون معرفة عيسى بعينه. وذلك أنّهم جميعاً حُوِّلوا في صورة عيسى فأُشكِل على الذين كانوا يريدون قتل عيسى من غيره منهم، وخرج إليهم بعضُ مَن كان في البيت مع عيسى، فقتلوه وهم يحسبونه عيسى.

٢. عن وهب بن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريّين في بيت، وأحاطوا بهم. فلمّا دخلوا عليهم صوّرهم اللّه كلّهم على صورة عيسى. فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزَنَّ لنا عيسى أو لنقتلنّكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه: مَن يشتري نفسه منكم اليوم بالجنّة؟ فقال رجل منهم: أنا. فخرج إليهم فقال: أنا عيسى، وقد صوّره اللّه على صورة عيسى. فأخذوه فقتلوه وصلبوه. فمن ثمّ شبّه لهم، وظنّوا أنّهم قد قتلوا عيسى. وظنّتِ النصارى مثلَ ذلك أنّه عيسى. وَرَفَعَ اللّهُ عيسى من يومه ذلك.

٣. عن وهب أيضاً قال: إنّ عيسى ابن مريم، لمّا أعلمه اللّهُ أنّه خارجٌ من الدنيا، جزع من الموت وشقّ عليه. فدعا الحواريّين، وصنع لهم طعاماً. فقال: أحضروني اللّيلة، فإنّ لي إليكم حاجة. فلمّا اجتمعوا إليه من الليل عشّاهم، وقام يخدمهم. فلمّا فرغوا من الطعام، أخذ يغسل أيديهم ويوضِّئُهُمْ بيده، ويمسح أيديهم بثيابه. فتعاظموا ذلك وتكارهوه. فقال: ألا مَن ردَّ عليَّ شيئاً اللّيلة ممّا أصنع فليس منّي، ولا أنا منه. فأقرّوه، حتّى إذا فرغ من ذلك، قال: أمّا ما صنعتُ بكم الليلةَ ممّا خدمتكم على الطعام، وغسلتُ أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة. فإنّكم ترَونَ أنّي خيركم. فلا يتعظّم بعضكم على بعض. وليبذل بعضكم لبعض نفسَه، كما بذلتُ نفسي لكم.

وأمّا حاجتي التي استعنتكم عليها، فتدعون لي اللّهَ، وتجتهدون في الدعاء أن يؤخِّرَ أجَلي. فلمّا نصبوا أنفسَهم للدعاء، وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النّومُ حتّى لم يستطيعوا دعاء. فجعل يوقظهم ويقول: سبحانَ اللّه! أما تصبرون لي ليلةً واحدة تُعينوني فيها؟ قالوا: واللّه! ما ندري ما لنا. لقد كنّا نسمُر فنكثر السّمر، وما نطيق اللّيلةَ سمراً، وما نريد دعاءً إلاّ حِيلَ بيننا وبينه! فقال: يُذْهَبُ بالرّاعي وتتفرّق الغنم. وجعل يأتي بكلامٍ نحو هذا ينعَى به نفسَه. ثم قال: ألحقَّ ليكفرنّ بي أحدُكم قبل أن يصيح الدّيكُ ثلاثَ مرّات. ولَيَبيعني أحدُكم بدراهمَ يسيرة. ولَيأكلنّ ثمني! فخرجوا وتفرّقوا.

وكانت اليهود تطلبه. فأخذوا شمعون. فقالوا: هذا من أصحابه. فجحد. وقال: ما أنا بصاحبه. فتركوه. ثم أخذه آخرون. فجحد كذلك. ثم سمع صوتَ ديكٍ. فبكى وأحزنه.

فلمّا أصبح أتى أحدُ الحواريّين إلى اليهود. فقال: ما تجعلون لي إنْ دللتُكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً. فأخذها. ودلّهم عليه. وكان شُبِّه عليهم قبل ذلك. فأخذوه، فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل. فجعلوا يقودونه ويقولون له: أنتَ كنتَ تحيي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون؟ أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون عليه. ويلقون عليه الشوك. حتّى أتوا به الخشبةَ التي أرادوا أن يصلبوه عليها. فرفعَه اللّهُ إليه، وصلبوا ما شُبِّه لهم. فمكث سبعاً.

ثمّ إنّ أمّه والمرأة، التي يداويها عيسى فأبرأها اللّهُ من الجنون، جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب. فجاءهما عيسى. فقال: علامَ تبكيان؟ قالتا: عليك. فقال: إنّي قد رفعني اللّهُ إليه. ولم يصبْني إلاّ

خيرٌ. وإنْ هذا شيء شُبِّه لهم. فَأُمُرا الحواريّين أن يَلْقَوني إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفُقِدَ الذي كان باعه، ودلّ عليه اليهود. فسألَ عنه أصحابَه. فقالوا: إنّه ندم على ما صنع. فاختنق. وقتَلَ نفسه. فقال: لو تاب لتابَ اللّه عليه! ثم سألهم عن غلامٍ يتبعهم يقال له: يُحَنّا. فقال: هو معكم. فانطلِقوا. فإنّه سيصبح كلُّ إنسان منكم يحدّث بلغة قومٍ. فلينذرْهم وليدْعهم».

٤. وقال آخرون: بل سأل عيسى مَن كان معه في البيت أن يُلْقَى على بعضهم شبهه. فانتدب لذلك رجلٌ. فأُلقي عليه شبهه. فقُتل ذلك الرجل. ورُفع عيسى ابن مريم عليه السلام.

٥. عن محمّد بن إسحق قال: «كان اسمُ ملكِ بني إسرائيل الذي بعثَ إلى عيسى ليقتلَه، رجلاً منهم، يُقال له: داود. فلمّا أجمعوا لذلك منه لم يَفْظَعْ عبدٌ من عباد اللّه بالموت فيما ذُكر لي فَظَعُه، ولم يَجزَع منه جزعه، ولم يَدْعُ اللّه في صرفه عنه دعاءه؛ حتّى إنّه لَيقول فيما يزعمون: أللّهمّ! إنْ كنتَ صارفاً هذه الكأس عن أحدٍ من خَلقك، فاصرفْها عنّي! وحتّى إنّ جِلدَه، من كرْبِ ذلك، ليتفصّدُ دَماً.

فدخل المدخلَ الذي أجمعوا أن يُدخلَ عليه فيه لِيقتلوه هو وأصحابه. وهم ثلاثة عشر بعيسى. فلمّا أيقن أنّهم داخلون عليه، قال لأصحابه من الحواريّين، وكانوا اثني عشر رجلاً: بطرس، ويعقوب بن زَبْدي، ويُحَنَّس أخو يعقوب، وأَنْدَرَاوس، وفيلِبُّس، وأَبْرَثَلْمَا، ومتّى، وتوماس، ويعقوب بن حَلقيا، وتُدّاوس، وفتاتيا، ويُودُسف زَكَريّا يُوطا.

وكان فيهم، فيما ذُكر لي، رجلٌ اسمه سرجس، فكانوا ثلاثةعشر رجلاً سوى عيسى، جحدتْه النّصارى، وذلك أنّه هو الذي

شُبِّه لليهود مكان عيسى. قال: فلا أدري ما هو مِن هؤلاء الإثني عشر، أم كانوا ثلاثة عشر. فجحدوه حين أقرّوا لليهود بصلب عيسى، وكفروا بما جاء به محمّد من الخبر عنه.

فإنْ كانوا ثلاثة عشر، فإنّهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر. وإنْ كان اثنَي عشر، فإنّهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى ثلاثة عشر»...

٦. عن ابن إسحق أيضاً قال: «حدّثني رجلٌ كان نصرانيّاً فأسلم: أنّ عيسى، حين جاءه من اللّه: "أنّي رافعك إليّ"، قال: يا معشر الحواريّين! أيّكم يحبّ أن يكون رفيقي في الجنّة، حتّى يشبَّهَ للقوم في صورتي فيقتلوه مكاني؟ فقال سرجس: أنا يا روح اللّه. قال: فاجلس في مجلسي. فجلس فيه. ورُفع عيسى. فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه فكان هو الذي صلبوه وشبّه لهم به.

وكانت عدّتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة. قد رأوهم وأحصوا عدّتهم. فلمّا دخلوا عليه ليأخذوه، وجدوا عيسى فيما يرون وأصحابه. وفقدوا رجلاً من العدّة، فهو الذي اختلفوا فيه. وكانوا لا يعرفون عيسى حتّى جعلوا ليودس زكريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدلّهم عليه ويعرّفهم إيّاه. فقال لهم: إذا دخلتم عليه فإنّي سأقبّله. وهو الذي أقبّل. خذوه. فلمّا دخلوا عليه، وقد رُفع عيسى، رأى سرجس في صورة عيسى، فلم يشكّ أنّه هو عيسى. فأكبّ عليه فقبّله. فأخذوه وصلبوه.

ثمّ إنّ يودس زكريا يوطا ندم على ما صنع، فاختنق بحبلٍ حتى قتل نفسه. وهو ملعون في النصارى. وقد كان أحد المعدودين من أصحابه.

وبعض النصارى يزعم أنّ يودس زكريّا يوطا هو الذي شبّه لهم، فصلبوه وهو يقول: "إنّي لست بصاحبكم. أنا الذي دللتكم عليه". والله أعلم أيّ ذلك كان.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب ما قاله وهب بن منبه من أنّ شَبَهَ عيسى أُلقيَ على جميع مَن كان في البيت مع عيسى حين أحيط به وبهم. وذلك ليُخزي اللّهُ بذلك اليهودَ، ويُنقذ به نبيَّه عليه السلام من مكروهِ ما أرادوا به من القتل، ويبتلي به مَن أراد ابتلاءَه من عباده في قيله في عيسى وصدق الخبر عن أمره.

"**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ**"، (أي: اليهود الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حين أرادوا قتله.. فلمّا دخلوا البيت فقَدوا واحداً منهم.. "**لَفِي شَكٍّ مِنْهُ**" (أي: قتلوا من قتلوا على شكّ منهم في أمر عيسى.. فشكّوا في الذي قتلوه هل هو عيسى أم لا؟). "**ما لَهم بِهِ مِنْ عِلْمٍ**"، (أي: أنّهم قتلوا من قتلوه من غير أن يكون لهم بمن قتلوه علم، من هو؟ هو عيسى أم هو غيره؟)؛ "**إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**"، (أي: ما كان لهم بمن قتلوه من علم. ولكنّهم اتّبعوا ظنَّهم فقتلوه، ظنّاً منهم أنّه عيسى، وأنّه الذي يريدون قتله. ولم يكن به).

"**ومَا قَتَلُوه يَقِيناً**"، (أي: وما قتلوا يقيناً أنّه عيسى ولا أنّه غيره؛ ولكنّهم كانوا منه على ظنّ وشبهة. فالهاء عائدة على "الظنّ").

"**بل رَفَعَهُ اللّهُ إليهِ**"، (أي: بل رفع اللّهُ المسيحَ إليه. يقول: لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكنّ اللّهَ رفعه إليه، فطهّره من الذين كفروا)..

"**وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بهِ قَبْلَ موتهِ**". اختلف أهل التأويل في معنى ذلك :

فقال بعضهم: يعني: عيسى قبل موته؛ أي: أنّ جميع أهل الكتاب يصدّقون به إذا نزل لقتل الدجّال، فتصير الملل كلّها واحدة، وهي ملّة الإسلام الحنيفيّة دين إبراهيم.. عن الحسن قال: قبل موت عيسى. واللّه إنّه الآن لحيٌّ عند اللّه، ولكن، إذا نزل، آمنوا به أجمعون.

وقال آخرون: يعني بذلك "**وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بهِ**" (أي: بعيسى)، "**قَبْلَ موتهِ**"، (أي: قبل موت الكتابي. يعني بذلك: أنّ الكتابيّ، إذا عاين، عَلِم الحقَّ من الباطل؛ لأنّ كلّ مَن نزل به الموتُ لم تخرجْ نفسُه حتّى يتبيّن له الحقّ من الباطل في دينه... عن ابن عبّاس قال: لا يموت يهوديّ حتّى يؤمن بعيسى.. وعنه أيضاً قال: لو ضربتْ عنُقُه لم تخرج نفسه حتّى يؤمن بعيسى.. وعنه أيضاً قال: لا يموت اليهودي حتّى يشهد أنّ عيسى عبد اللّه ورسوله، ولو عُجّل عليه بالسلاح... عن الضحّاك قال: ليس أحد من اليهود يخرج من الدنيا حتّى يؤمن بعيسى)...

وقال آخرون: معنى ذلك وإنّ مِنْ أهْلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بمحمّد قبل موت الكتابي.. عن عكرمة قال: لا يموت النصراني واليهودي حتّى يؤمن بمحمّد.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال: "وإنّ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بعيسى قبل موت عيسى.

"**ويومَ القيامةِ يكونُ عليهمْ شَهيداً**" (أي: ويوم القيامة يكون عيسى على أهل الكتاب "شهيداً"، يعني: شاهداً عليهم بتكذيب من كذّبه منهم، وتصديق من صدّقه منهم، فيما أتاهم به من عند اللّه بإبلاغه رسالة ربّه).

الزمخشري:

"**وَقَولِهم إنّا قَتَلْنا المسيحَ عيسَى ابنَ مَريمَ رسولَ اللّهِ. وما قَتَلُوهُ. وما صَلَبُوهُ. وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ**" .. (قال عيسى لأصحابه: أيّكم يرضى أن يُلقى عليه شَبَهي فيُقتل ويُصلب ويَدخل الجنّة؟ فقال رجل منهم: أنا. فألقى اللّهُ عليه شبهه فقُتل وصلب.

وقيل: كان رجلٌ ينافق عيسى، فلمّا أرادوا قتلَه، قال: أنا أدلّكم عليه. فدخل بيتَ عيسى، فرُفع عيسى وأُلقي شَبَهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنّون أنّه عيسى.

ثمّ اختلفوا. فقال بعضهم: إنّه إله لا يصحّ قتله. وقال بعضهم: إنّه قد قتل وصُلب. وقال بعضهم: إنْ كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإنْ كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم: رُفع إلى السماء. وقال بعضهم: ألوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا.

فإنْ قلتَ "**شُبِّهَ**" مسند إلى ماذا؟ إنْ جعلته مسنداً إلى المسيح فالمسيح مشبَّه به وليس بمشبَّه؛ وإنْ أسندته إلى المقتول، فالمقتول لم يجر له ذكر؟ قلت: هو مسند إلى الجار والمجرور، وهو "**لَهُمْ**" .. ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول، لأنّ قوله: "**إنّا قَتَلْنا**" يدلّ عليه كأنّه قيل: ولكن شبّه لهم مَن قتلوه.

الرازي:

"**وما قَتَلُوهُ. وما صَلَبُوهُ. وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ**" : اختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضع، وذكروا وجوهاً. منها : قال كثير من المتكلّمين: إنّ اليهود، لمّا قصدوا قتلَه، رَفعه اللّه إلى السماء، فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم، فأخذوا إنساناً وقتلوه وصلبوه

ولبّسوا على النّاس أنّه المسيح. والناس ما كانوا يعرفون المسيح إلاّ بالاسم، لأنّه كان قليل المخالطة للناس.

"**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ**"، فيه قولان:

ألأوّل: إنّهم هم النصارى، وذلك لأنّهم بأسرهم متّفقون على أنّ اليهود قتلوه. إلاّ أنّ كبار فرق النصارى ثلاثة: النسطوريّة والملكانيّة واليعقوبيّة. أمّا النسطوريّة فقد زعموا أنّ المسيح صلب من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته... وأمّا الملكانيّة فقالوا: ألقتل والصلب وصلا إلى اللاّهوت بالإحساس والشعور، لا بالمباشرة. وقالت اليعقوبيّة: ألقتل والصلب وقعا بالمسيح الذي هو جوهر متولّد من جوهرين...

والقول الثاني: إنّ المراد بالذين اختلفوا هم اليهود. وفيه وجهان: **ألأوّل**: أنّهم، لمّا قتلوا الشخص المشبَّه به، كان الشبَه قد أُلقي على وجهه، ولم يلق عليه شبه جسد عيسى. فلمّا قتلوه ونظروا إلى بدنه قالوا: ألوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره. **ألثاني**: قال السدّي: إنّ اليهود حبسوا عيسى مع عشرة من الحواريّين في بيت، فدخل عليه رجل من اليهود ليخرجه يقتله، فألقى الله شبه عيسى عليه ورفع إلى السماء. فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على أنّه عيسى. ثم قالوا: إنْ كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإنْ كان صاحبنا فأين عيسى؟ فلذلك اختلافهم فيه.

"**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**": واتّباع الظنّ مذموم في كتاب الله، بدليل أنّه إنّما ذكرَه في معرض الذمّ. ألا ترى أنّه تعالى وصف اليهود والنصارى ههنا في معرض الذمّ؟ وقال في سورة الأنعام في مذمّة الكفّار: "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ"

(٦/ ١١٦)؛ وقال في آية أخرى: "إنّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيئاً" (١٠/ ٣٦). وكلّ ذلك يدلّ على أنّ اتّباع الظنّ مذموم.

"**ومَا قَتَلُوه يَقِيناً. بل رَفَعَهُ اللّهُ إليهِ**": رفْعُ عيسى إلى السماء ثابت بهذه الآية. ونظير هذه الآية قوله في آل عمران: "إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الّذينَ كَفَروا" (٣/ ٥٥). واعلم أنّه تعالى، لمّا ذَكرَ عَقيبَ ما شرح، أنّه وصلَ إلى عيسى أنواع كثيرة من البلاء والمحنة، أنّه رفعه إليه، دلّ ذلك على أنّ رفعه إليه أعظم في باب الثواب من الجنّة، ومن كلّ ما فيها من اللّذات الجسمانيّة. وهذه الآية تفتح عليك باب معرفة السعادات الروحانيّة.

"**وكانَ اللّهُ عَزيزاً حكيماً**": نبّه بهذا على أنّ رفْعَ عيسى من الدنيا إلى السموات، وإنْ كان كالمتعذّر على البشر، لكنّه لا تعذّر فيه بالنسبة إلى قدرتي وإلى حكمتي.

"**وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بهِ قَبْلَ موتهِ. ويومَ القيامةِ يكونُ عليهمْ شَهيداً**". واعلمْ أنّه تعالى، لمّا ذكرَ فضائحَ اليهود وقبائحَ أفعالهم، وشرح أنّهم قصدوا قتْلَ عيسى، وبيّنَ أنّه ما حصل لهم ذلك المقصود، وأنّه حصل لعيسى أعظم المناصب، وأجلّ المراتب، بيّن تعالى أنّ هؤلاء اليهود، الذين كانوا مبالغين في عداوته، لا يَخرُجُ أحدٌ منهم من الدنيا إلاّ بعد أنْ يؤمنَ به. فقال: "**وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بهِ قَبْلَ موتهِ**".

"**قَبْلَ موتهِ**"، أي قبل موت عيسى. والمراد أنّ أهل الكتاب، الذين يكونون موجودين في زمان نزوله، لا بدّ وأنْ يؤمنوا به. قال بعض المتكلّمين: إنّه لا يمنع نزوله من السماء إلى الدنيا إلاّ أنّه إنّما

ينزل عند ارتفاع التكاليف، أو بحيث لا يُعرف. إذْ لو نزل، مع بقاء التكاليف على وجهٍ يُعرَف أنّه عيسى، لكان إمّا أن يكون نبيّاً، ولا نبيّ بعد محمّد، أو غير نبيّ، وذلك غير جائز على الأنبياء. وهذا الإشكال عندي ضعيف، لأنّ انتهاء الأنبياء إلى مبعث محمّد. فعند مبعثه انتهتْ تلك المدّة. فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تبعاً لمحمّد.

الطبرسي:

"**وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً**". قال الكلبي: مرّ عيسى برهْطٍ. فقال بعضهم لبعض: قد جاءكم الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة. فقذفوه بأمِّه. فسَمِعَ ذلك عيسى فقال: ألّلهمّ! أنتَ ربّي. خلقتَني ولم أتّهم من تلقاء نفسي. ألّلهمّ! إلعَنْ مَن سبّني وسبَّ والدتي. فاستجاب اللّهُ دعوتَه. فمَسَخَهُمْ خنازير.

"**وما قَتَلُوهُ. وما صَلَبُوهُ. وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ**". اختلفوا في كيفيّة التشبيه. فروي عن ابن عبّاس أنّه قال: لمّا مسخ اللّه تعالى الذين سبّوا عيسى وأمَّه بدعائه، بلغ ذلك يهوذا، وهو رأس اليهود. فخاف أن يدعوا عليه. فجمع اليهود فاتّفقوا على قتله، فبعث اللّه جبريل يمنعه منهم، ويعينه عليهم. وذلك معنى قوله: "وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ" (٢/ ٨٧)، فاجتمع اليهود حول عيسى فجعلوا يسألونه، فيقول لهم: يا معشر اليهود! إنّ اللّه يبغضكم. فساروا إليه ليقتلوه. فأدخله جبريل في خوخة البيت الداخل لها روزنة في سقفها. فرفعه جبريل إلى السماء. فبعث يهوذا رأس اليهود رجلاً من أصحابه إسمه طيطانوس ليدخل عليه الخوخة فيقتله. فدخل فلم يره. فأبطأ عليهم. فظنّوا أنّه يقاتله في الخوخة. فألقى اللّه عليه شبه عيسى. فلمّا خرج على أصحابه قتلوه وصلبوه. وقيل: ألقي عليه شبه وجه عيسى ولم يلق

عليه شبـه جسده. فقال بعـض القوم إنّ الوجه وجه عيـسى والجسد جسد طيطانوس. فاشتبه الأمر عليهم.

وقال وهب بن منبّه: أتى عيسى ومعه سبعة من الحواريّين في بيت فأحـاطوا بهم. فلمّا دخلوا عليـهم صيّرهم اللّه كـلَّهم على صورة عيسى. فقالوا لهم: سحرتمونا. ليبرزنّ لنا عيسى، أو لنقتلنّكم جميعاً. فقـال عيسى لأصـحابه: مَن يشري نفـسه منكم اليوم بالجنّة؟ فـقال رجل منهم إسمه سرجس: أنا. فخرج إليـهم فقال: أنا عيسى. فأخذوه وقتلوه وصلبوه. ورفعَ اللَّهُ عيسى من يوم ذلك.

وقال أبو علي الجبائي: إنّ رؤساء اليهود أخذوا إنساناً فقتلوه وصلبوه على مـوضـعٍ عالٍ، ولم يمكِّنوا أحداً من الدنـو إليه. فتغـيّرتْ حليتـه، وقالوا: قد قـتلنا عيسى، ليـموّهوا بذلك على عـوامهم، لأنّهم كانوا أحاطوا بالبيت الذي فيه عيـسى. فلمّا دخلوه كان عيسى قد رفع من بينهم. فخافـوا أن يكون ذلك سبباً لإيمان اليهـود به، ففعلوا ذلك. والذين اختلفوا فيه هم غير الذين صلبوه، وإنّما باقي اليهود.

وقيل: إنّ الذي دلّهم عليه، وقال: هذا عـيسى، أحدُ الحواريّين. أخذ على ذلك ثلاثين درهماً. وكان منافقاً. ثمّ إنّه ندم على ذلك واختنق حتّى قتل نفسه. وكان اسمه بودس زكريّا يوطا. وهو ملعون.

وبعض النصارى يقـول إنّ بودس زكريا يوطا هو الذي شـبّه لهم فصلبوه. وهو يقول لستُ بصاحبكم. أنا الّذي دللتكم عليه.

وقيل: إنّم حـبسـوا المسيح مع عـشرة من أصحـابه في بيت. فدخل رجل من اليـهود، فألقى اللّه عليه شَـبَهَ عيسى، ورفَـعَ عـيسى. فَقَتلوا الرجل. عن السدي.

"**وإنْ مِنْ أهلِ الكتــابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَــبْلَ موتهِ**". اختلف فــيه على أقوال:

أحدها: إنّ كلا الضميـرين يعودان إلى المسيح. أي: ليس يبقى أحدٌ من أهل الكتــاب، من اليهود والنصارى، إلاّ ويؤمنّن بالمســيح قبل موت المســيح إذا أنزله الله إلى الأرض في آخـر الزمان لقتـلِ الدجّال، فـتصـير الملل كـلُّها أمّــةً واحدة، وهي ملّة الإســلام الحنيـفيّــة، دين إبراهيم..

وثانيها: إنّ الضمير في "**بِهِ**" يعود إلى المسيح، والضمير في "**مَوْتِهِ**" يعـود إلى الكتــابي. ومــعناه: لا يكون أحــد من أهل الكتــاب يخـرج من دار الدنيا إلاّ ويؤمن بعــيسى قبل مــوته، إذا زال تكليفُــه، وتحــقّق الموت. ولكن، لا ينفــعه الإيمــان حينئــذٍ. وإنّمــا ذكـر اليهـود والنصارى لأنّ جميعهم مبطلون: أليهود بالكفر به، والنصارى بالغلوّ في أمره.. (والكتابي) لو ضربتَ رقبتَه لم تخرجْ نفسُه حتّى يؤمن.

وثالثها: أن يكون المعنى: ليؤمننّ بمحــمّد، قبل مــوت الكتابي.. وهذا ضعيف.

ألقرطبي:

"**ومَا قَــتَلُوه يَقِيناً**". ألمعنى: مــا قتلوا ظنَّــهم يقيناً.. قــال أبو عبــيد: ولو كان المعنى ومــا قتلوا عيــسى يقيناً، لقال: ومــا قتلوه قط. وقيل: ألمعنى ومــا قتلوا الذي شُبِّــه لهم أنّه عيسى يقــيناً.. ويقيناً نعت لمصدر محذوف. وفيه تقــديران: أحدهما: أي: قالوا هذا قولاً يقيناً؛ أو قال الله هذا قولاً يقيناً. والقول الآخر: أن يكون المعنى: وما علموه عِلْماً يقيناً...

الآلوسي :

"**المسيحَ عيسَى ابنَ مَريمَ رسولَ اللّهِ**" . قال الآلوسي: قال الرّاغب: سُمّي عيسى بالمسيح لأنّه مسحتْ عنه القوّة الذميمة، من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة. كما أنّ الدّجّال مسحت عنه القوّة المحمودة من العلم والعقل والحلم والأخلاق الحميدة. وقال شمر: لأنّه مسح بالبركة، وهو قوله تعالى: "وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ" (١٩/ ٣١)، أو لأنّ اللّه مسح عنه الذنوب. وذكر المجد في كتابه البصائر في اشتقاقه ستة وخمسين قولاً.

محمّد عبده :

ألشك في صلب المسيح هو التردّد فيه. أكان هو المصلوب أم غيره؟ فبعض المختلفين في أمره الشاكّين فيه يقول: إنّه هو. وبعضهم يقول إنّه غيره. وما لأحدٍ منهما علم يقينيّ بذلك. وإنّما يتبعون الظنّ..

وفي الأناجيل المعتمدة عند النصارى أنّ المسيح قال لتلاميذه: "كلّكم تشكّون فيّ في هذه اللّيلة"، أي التي يُطلب فيها للقتل[٢]. فإذا كانت أناجيلهم لا تزال ناطقة فإنّه أخبر أنّ تلاميذه، وأعرفَ النّاس به، يشكّون فيه في ذلك الوقت. وخبره صادق قطعاً. فهل يُستغرب اشتباه غيرهم وشكّ مَن دونهم في أمره! وقد صارت قصّته رواية تاريخيّة منقطعة الإسناد؟!

... وهذه الأناجيل المعتمدة عند النّصارى تصرّح بأنّ الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الإسخريوطي، وأنّه جعل لهم علامةً: إنّ

---

(٢) متى ٢٦/ ٣١؛ مرقس ١٤/ ٢٧.

مَن قبِلَه يكون هو يسوع المسـيح. فلمّا قبِله قبضوا علـيه. وأمّا إنجيل برنابا فيصرّح بأنّ الجنود أخذوا يهـوذا الإسخريوطي نفسَه، ظنّاً أنّه المسيح، لأنّه ألقي عليـه شبهـه. فالذي لا خلاف فيـه هو أنّ الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينيّة...

حاصل المـباحث والشك في وجـود المسيح.. أنّ قصّـة الصلب ليس لهـا سند متّـصل إلى الأفراد الذين رويت عنهم. وأولئـك الأفراد الذين رووها غير معروفين معرفة يقينيّة...

وأنّ أوّل من وضع هذه العقـيدة النصرانيّة المعـروفة الآن هو بولس اليـهودي الذي كـان أشد أعداء المـسيح، وألدّ خـصوم أتبـاعه خصاماً. ثمّ رأى أنّه لا يتمكّن من نكايتـهم، وإفساد أمرهم، إلاّ بدخوله فيهم، ففعل.

سيّد قطب:

يعتـمد على إنجيل برنابا في قـصّة القتل والـصلب، ويتبنّاها، وينقلها:

ولمّا دنتِ الجنودُ، مع يهـوذا، من المحلِّ الذي كان فـيه يسـوع، سمع يسـوعُ دنوَّ جمعٍ غفيـر. فلذلك انسحب إلى البيت خائـفاً. وكان الأحد عـشر نـيامـاً. فلمّا رأى (اللّه) الخطر على عـبده، أمـر جبـريل وميخائيل ورفائيل وأوريل، سفراءَه.. أن يأخذوا يسوع من العالم.

فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسـوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحـملوه، ووضعوه في السمـاء الثالثة، في صحـبة الملائكة التي تسبّح إلى الأبد..

«ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلّهم نياماً. فأتى اللّهُ العجيبَ بأمرٍ عجيبٍ، فتغيّر يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبيهاً بيسوع؛ حتّى إنّنا اعتقدنا أنّه يسوع. أمّا هو، فبعد أن أيقظنا، أخذ يفتّش لينظر أين كان المعلّم. لذلك تعجّبنا وأجبنا: أنت يا سيّدي معلّمنا! أَنَسِيتنا الآن؟.. إلخ».

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة التي حدثت في ظلام اللّيل قبل الفجر. ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجّح رواية على رواية.

"**وَمَا قَتَلُوه يَقِيناً. بل رَفَعَهُ اللّهُ إليهِ**". لا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرّفْع، أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة؟ وأين؟

"**وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بهِ قَبْلَ موتهِ. ويومَ القيامةِ يكونُ عليهِمْ شَهيداً**". قد اختلف السلف في مدلول هذه الآية، باختلافهم في عائد الضمير في "**مَوتِهِ**"، فقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلاّ يؤمن بعيسى قبل موته، أي موت عيسى؛ وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة. وقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلاّ يؤمن بعيسى قبل موته، أي موت الكتابي؛ وذلك على القول بأنّ الميت، وهو في سكرات الموت، يتبيّن له الحقّ، حيث لا ينفعه أن يعلم!

ونحن، أي السيّد قطب، أميل إلى هذا القول الثاني.

(٤٢)

أوحى الله إلى محمّد كما أوحى إلى مَن قَبله

إنَّا أوْحَينَا إليكَ كَمَا أوْحَينَا إلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِه. وَأوحَينَا إلَى إبْرَاهِيمَ وإسْمَعِيلَ وإسْحَقَ ويَعْقُوبَ والأسْبَاطِ، وعيسَى وأيّوبَ ويونُسَ وهَارُونَ وسُلَيمَانَ. وآتَينَا دَاوُدَ زَبُوراً (سورة النساء ٤/ ١٦٣)[٣].

الطبري:

"**إنَّا أوْحَينَا إليكَ**" (أي: أرسلنا إليك، يا محمّد، بالنبوّة)، **كما أوحَينا** (أرسلنا) **إلى نوحٍ والنّبيّين** (ألذين سمّيتُهم لكَ) **من بعده** (والذين لم أسمّهم لك). **وأوحَينا إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباطِ، وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسُليمانَ. وآتَينا داوُدَ زَبُوراً**" (ألزبور: كتاب مفرد. وهو إسم الكتاب الذي أُوتيه داود؛ كما سمّى الكتاب الذي أوتيه موسى التوراة؛ والذي أوتيه عيسى الإنجيل؛ والذي أوتيه محمّد الفرقان. أمّا الزُّبُور: جمعها: زُبُر، وهي الكتب المزبورة أي المكتوبة).

---

(٣) لائحة هؤلاء النّبيّين لا تتضمّن أسماء النّبيّين العرب، هود، وصالح وشُعَيب. ثمّ إنّها تبتدئ بتسمية النّبيّين بحسب ترتيبهم الزمني، وتنتهي كيفما كان.. ممّا جعل غايجر Geiger يستنتج بأنّ محمّداً لم يكن يعرف الكتاب المقدّس معرفةً مباشرة.. هذا وإنّ الآية لا محلّ لها حيث هي. بل هي مقحمة على النصّ، لا تلتحم معه لا من حيث المعنى ولا من حيث الأسلوب. أنظر تعليق بلاشير.

(٤٣)

المسيح رسول الله. وكلمته. وروح منه.

يا أهلَ الكتابِ! لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ. ولا تَقُولوا علَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ. إنّما المسيحُ عيسَى ابنُ مريمَ رَسُولُ اللهِ، وكَلِمَتُهُ ألْقاها إلى مريمَ، ورُوحٌ مِنهُ. فَآمِنوا باللهِ ورُسُلِه. ولا تَقولوا ثَلاثَةٌ. انْتَهُوا. خَيراً لكم. إنّما اللهُ إلهٌ واحِدٌ. سُبْحانَهُ أنْ يكونَ لهُ وَلَدٌ. لَهُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ. وكَفَى باللهِ وَكِيلاً. لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أنْ يكونَ عبداً لله، ولا الملائكةُ المُقَرَّبُونَ. وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عن عِبَادَتِه وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ جَميعاً (سورة النساء ٤/ ١٧١-١٧٢).

الطبري:

"**يا أهلَ الكتابِ!**" (أي: يا أهل الإنجيل من النصارى) "**لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ**" (أي: لا تجاوزوا الحقّ في دينكم فتفرطوا فيه. ولا تقولوا في عيسى غيرَ الحقّ. فإنّ قيلكم في عيسى إنّه ابن اللّه، قولٌ منكم على اللّه غير الحقّ؛ لأنّ اللّه لم يتّخذْ ولداً فيكون عيسى، أو غيرُه من خلقه، له ابناً). "**ولا تَقُولوا علَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ**" (من تنزيهه عن الشريك والولد والصاحبة والأبناء والبنات).

"**إنَّمَا المَسِيحُ عيسَى ابنُ مريمَ**" (وأصل "المسيح": الممسوح. صُرف من مفعول إلى فعيل. وسمّاه اللّه بذلك لتطهيره إيّاه من الذنوب. وقيل: مُسح من الذنوب والأدناس التي تكون في الآدميّين، كما يمسح الشيء من الأذى الذي يكون فيه فيطهّره منه. وقد زعم بعض النّاس أن أصل هذه الكلمة عبرانيّة أو سريانيّة "مَشيحَا" فعُرِّبتْ. وقال الطبري: ليس لاسم المسيح نظير؛ وذلك أنّ إسماعيل

وإسحاق وما أشبه ذلك، أسماء لا صفات، والمسيح صفة. غير أنّه، لو كان المسيح من غير كلام العرب ولم تكن العرب تعقل معناه، ما خوطبت به..

والمعنى: ما المسيح، أيّها الغالون في دينهم، من أهل الكتاب، بابن اللّه، كما تزعمون؛ ولكنّه عيسى ابن مريم، دون غيرها من الخلق، لا نسب له غير ذلك. هو) "**رَسُولُ اللّهِ**"، (أرسله اللّه بالحقّ إلى من أرسله إليه من خلقه). "**وكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مريمَ**" (يعني بالكلمة: الرسالة التي أمرَ اللّهُ ملائكتَه أن تأتي مريم بها، بشارة من اللّه لها التي ذكر في قوله: "إذْ قَالَتِ الملائكةُ: يا مريمَ! إنّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بكَلِمَةٍ منه" (٣/ ٤٥).. وقال قتادة: "**وكلمته**" (هو قوله: كن فكان)، "**ألقاها**" (يعني: أعلَمها بها وأخبرها وأوصلها اللّه) "**إلى مريم**".

"**ورُوحٌ مِنه**". إنّ أهل العلم اختلفوا في تأويلهم: فقال بعضهم: ونفخة منه، لأنّه حدث عن نفخة جبريل في دِرْع[٤] مريم بأمر اللّه إيّاه بذلك، فنسب إلى أنّه روح من اللّه، لأنّه بأمره، كان. قال: وإنّما سُمِّي النفخ روحاً لأنّها ريح تخرج من الرّوح..

وقال بعضهم: "**ورُوحٌ مِنه**" أنّه كان إنساناً بإحياء اللّه له بقوله: "كن"، قالوا: وإنّما معنى قوله: "**ورُوحٌ مِنه**" وحياة منه، بمعنى إحياء اللّه إيّاه بتكوينه.

وقال بعضهم: معنى قوله "**ورُوحٌ مِنه**" ورحمة منه، كما قال في موضع آخر: "وَأَيَّدَهُم برُوحٍ مِنه" (٥٨/ ٢٢). قال: ومعناه في

---

(٤) درع المرأة: قميصها الذي يحميها من أعين الناظرين، كما تحمي الدرعُ لابسَها.

هذا الموضع: ورحمة منه. قال: فجعل اللّهُ عيسَى رحمةً منه على مَن اتّبعه وآمن به وصدّقه، لأنّه هداهم إلى سبيل الرّشاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: وروح من اللّه خَلَقها فصوّرها، ثمّ أرسَلها إلى مريم، فدخلتْ في فِيها، فصيّرها اللّه تعالى روحَ عيسى.

وقال آخرون: معنى "الرّوح" ههنا، جبريل. قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها أيضاً إليها روحٌ من اللّه، ثمّ من جبريل.

قال أبو جعفر: ولكلٍّ هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيد من الصواب.

"**فَآمِنوا باللّهِ ورُسُلِه**" (أي: فصدِّقوا، يا أهلَ الكتاب، بوحدانيّة اللّه وربوبيّته، وأنّه لا ولد له، وصدِّقوا رسلَه فيما جاؤوكم به من عند اللّه، وفيما أخبرتُكم به أنّ اللّه واحد لا شريك له، ولا صاحبة له، ولا ولد له). "**ولا تَقولوا**" (الأرباب هم) **ثَلاثَةٌ**(٥). **انْتَهُوا** (أيها القائلون: اللّه ثالث ثلاثة، عمّا تقولون من الزور والشرك باللّه. فإنّ الانتهاء عن ذلك يكون "**خَيراً لكم**" من قِيله، لما لكم، عند اللّه من العقاب العاجل لكم، على قِيلكم ذلك، إنْ أقمتم عليه، ولم تنيبوا إلى الحق الذي أمرتكم بالإنابة إليه، والآجِل في معادكم).

"**إنّمـا اللّهُ إلهٌ واحِدٌ**" (أي: ما اللّه، أيّها القائلون: اللّه ثالث ثلاثة، كما تقولون، لأنّ من كان له ولد، فليس بإله. وكذلك مَن كان له

---

(٥) رُفعتْ "ثلاثةٌ" بمحذوف دلّ عليه الظاهر، وهو "هم"؛ نظير قوله: "سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ"، أي: هم ثلاثةٌ؛ إنظر سورة الكهف ١٨/ ٢٢.

صاحبة، فغير جائز أن يكون إلهاً معبوداً. ولكن اللّه الذي له الألوهة والعبادة، إله واحد معبود، لا ولد له، ولا والد، ولا صاحبة، ولا شريك).

"**سُبْحانَهُ أَنْ يكونَ لهُ وَلَدٌ**" (أي: علا اللّه وجلّ وعزّ وتعظّم وتنزّه عن أن يكون له ولدٌ أو صاحبة. إنّ عيسى وأمّه، ومَن في السموات ومَن في الأرض، عبيدُه وملكه وخلقُه، وأنّه رازقهم وخالقهم، وأنّهم أهل حاجة وفاقة إليه، إحتجاجاً منه بذلك على مَن ادّعى أنّ المسيح ابنه، وأنّه، لو كان ابنه، كما قالوا، لم يكن ذا حاجة إليه، ولا كان له عبداً مملوكاً).

"**لهُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ**" (أي: للّه ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلّها، ملكاً وخلقاً، وهو يرزقهم ويَقُوتهم ويدبِّرهم. فكيف يكون المسيح ابناً للّه، وهو في الأرض أو في السموات، غير خارج من أن يكون في بعض هذه الأماكن)؟ "**وكَفَى باللّهِ وَكِيلاً**" (أي: وحسب ما في السموات والأرض باللّه قيّماً ومدبِّراً ورازقاً، من الحاجة معه إلى غيره).

"**لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ** (أي: لن يأنف، ولن يستكبر المسيح من) **أَنْ يكونَ عبداً للّهِ، ولا الملائكةُ المُقَرَّبُونَ. وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عن عِبَادَتِه وَيَسْتَكْبِرْ** (أي: من يتعظّم عن عبادة ربّه، ويأنف من التذلّل والخضوع له بالطاعة من الخلق كلّهم، ويستكبر عن ذلك)، "**فَسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ جَمِيعاً**" (أي: فسيبعثهم يوم القيامة جميعاً، فيجمعهم لموعدهم عنده).

الرازي:

"**ورُوحٌ مِنهُ**". قول فيه وجوه:

الأوّل: أنّه جرت عادة الناس أنّهم، إذا وصفوا شيئاً بغاية الطهارة والنظافة، قالوا: إنّه روح. فلمّا كان عيسى لم يتكوّن من نطفة الأب، وإنّما تكوّن من نفخة جبريل، لا جرم، وصف بأنّه روح. والمراد من قوله "**مِنْهُ**" ألتشريف والتفضيل، كما يُقال: هذه نعمة من اللّه. والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة.

الثاني: أنّه كان سبباً لحياة الخلق في أديانهم. ومَن كان كذلك وصف بأنّه روح. قال تعالى في وصف القرآن: "**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً من أَمْرِنا**" (٤٢/٥٢).

الثالث: روح منه، أي رحمة منه. قيل في تفسير قوله تعالى: "**وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ**" (٥٨/٢٢)، أي برحمة منه... فلمّا كان عيسى رحمة من اللّه على الخلق، من حيث أنّه كان يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم، لا جرم سمّي روحاً.

الرابع: أنّ الروح هو النفخ في كلام العرب. فإنّ الروح والريح متقاربان. فالروح عبارة عن نفخة جبريل. وقوله: "**مِنْهُ**" يعني أنّ ذلك النفخ من جبريل كان بأمر اللّه وإذنِه، فهو منه. وهذا كقوله: "**فَنَفَخْنَا فِيها مِن رُوحِنا**" (٢١/٩١).

الخامس: قوله: "**رُوح**" أدخل التنكير في لفظ "روح"، وذلك يفيد التعظيم. فكان المعنى: وروحٌ من الأرواح الشريفة القدسيّة العالية. وقوله: "**مِنْهُ**" إضافة لذلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتعظيم.

"**ولا تَقولوا ثَلاثَةٌ. انْتَهُوا. خَيراً لكم**". (يعلّق الرازي: لا نرى مذهباً في الدنيا أشدّ ركاكةً وبعداً عن العقل من مذهب النصارى).

"**لَهُ ما في السَّمَوات وما في الأرضِ**". (أي: مَن كان مالكاً لكلّ السموات والأرض ولكلّ ما فيها كان مالكاً لعيسى ولمريم؛ لأنّهما كانا في السموات وفي الأرض، وما كانا أعظم من غيرهما في الذات والصفات. وإذا كان مالكاً لما هو أعظم منهما فبأن يكون مالكاً لهما أولى. وإذا كانا مملوكين له، فكيف يعقل مع هذا توهّم كونهما له ولداً وزوجة!).

"**وكَفَى باللّهِ وَكِيلاً**". (أي: إنّ اللّه سبحانه كافٍ في تدبير المخلوقات وفي حفظ المحدثات، فلا حاجة معه إلى القول بإثبات إله آخر.. ولو فرضنا إلهاً آخر معه لكان معطَّلاً لا فائدة فيه. وذلك نقص. والناقص لا يكون إلهاً).

ثم قال: "**لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ** (أي: لن يأنف، لن يتنغّص ولن يمتنع. وأصله، في اللّغة، من: نَكَفْتَ الدمعَ، إذا نحيّته بإصبعك عن خدّك).

الطبرسي:

"**ورُوحٌ مِنهُ**". وفيه أقوال:

أحدها: أنّه إنّما سمّاه روحاً لأنّه حدث عن نفخة جبرائيل في درع مريم بأمر اللّه تعالى، وإنّما نسبُه إليه كان بأمر، وقيل: إنّه إضافة إلى نفسه تفخيماً لشأنه.. وقد يسمّى النفخ روحاً.

والثاني: أنّ المراد به يُحيي به الناسَ في دينهم كما يحيون بالأرواح. فيكون المعنى أنّه جعله نبيّاً يُقتدى به ويُستنّ بسنّته ويُهتدَى بهداه.

والثالث: أنّ معناه إنسان أحياه اللّه بتكوينه بلا واسطة من جماع أو نطفة، كما جرت العادة بذلك.

والرابع: أنّ معناه "ورحمة منه" كما قال في موضع آخر: "وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ" (٥٨/٢٢)، أي برحمة منه. فجعل اللّه عيسى رحمة على من آمن به واتّبعه، لأنّه هداهم إلى سبيل الرشاد.

والخامس: أنّ معناه روح اللّه من اللّه خلقها، فصوّرها، ثمّ أرسلها إلى مريم، فدخلتْ في قلبها، فصيّرها اللّه تعالى عيسى. عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعب.

والسادس: أنّ معنى الروح هاهنا جبرائيل، فتكون عطفاً على ما في ألقاها من ضمير ذكر اللّه، وتقديره ألقاها اللّه إلى مريم وروح منه، أي من اللّه، أي جبرائيل ألقاها أيضاً إليها.

"**وكَفَى باللّهِ وَكِيلاً**"، أي: حسب ما في السموات وما في الأرض باللّه قيّماً ومدبّراً ورازقاً. وقيل: معناه: وكفى باللّه حافظاً لأعمال العباد حتّى يجازيهم عليها.

البيضاوي:

"**ورُوحٌ مِنهُ**"، يعني أنّه كسائر الأرواح التي خلقها اللّه تعالى، وإنّما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم، كما يقال بيت اللّه وناقة اللّه. وهذه نعمة من اللّه يعني أنّه تفضّل بها.

وقيل: الروح هو الذي نفخ فيه جبريل في جيب درع مريم فحملت بإذن اللّه، وإنّما أضافه إلى نفسه بقوله: "**مِنْهُ**"، لأنّه وُجد بأمر اللّه.

قال بعض المفسّرين: إنّ اللّه تعالى لمّا خلق أرواح البشر جعلها في صلب آدم، وأمسك عنده روحَ عيسى. فلمّا أراد اللّه أن يخلقه أرسل بروحه مع جبريل إلى مريم، فنفخ في جيب درعها، فحملت بعيسى.

وقيل: إنّ الروح والريح متقاربان في كلام العرب. فالروح عبارة عن نفخ جبريل، وقوله "**مِنْهُ**" يعني إنّ ذلك النفخ كان بأمره وإذنه.

وقيل: أُدخل النكرة في قوله: "**وَرُوحٍ**" على سبيل التعظيم. والمعنى: روح من الأرواح القدسيّة العالية المطهرة. وقوله: "**مِنْهُ**" إضافته تلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والكريم.

"**لَهُ ما في السَّمَوَاتِ وما في الأرضِ**" .. (أي: إنّ جميع ما في السموات والأرض خلقه وملكه. فكيف يكون بعض ملكه جزء منه؟ لأنّ التجزئة إنّما تصحّ في الأجسام. واللّه تعالى منزّه عن صفات الأعراض والأجسام).

"**وكَفَى باللّهِ وَكِيلاً**" ، (أي: إنّه تعالى كاف في تدبير جميع خلقه، فلا حاجة له إلى غيره. وكلّ الخلق محتاجون إليه، وفقراء إليه، وهو غنيّ عنهم).

"**ولا الملائكةُ المُقَرَّبُونَ**" ، (يعني: ولن يستنكف الملائكة المقرّبون، وهم حملة العرش، والكروبيون، وأفاضل الملائكة، مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، أن يكونوا عبيد اللّه، لأنّهم في ملكه، ومن جملة مَن خلقه).

القرطبي:

"**ابنُ مريمَ**": **الأولى:** مَن كان منسوباً بوالدته كيف يكون إلهاً؟ وحقُّ الإله أن يكون قديماً لا مُحدَثاً.

الثانية: لم يذكر اللّهُ امرأةً، وسمّاها باسمها، في كتابه، إلاّ مريم ابنة عمران. فإنّه ذكر اسمها في نحوٍ من ثلاثين موضعاً، لحكمة ذكرها بعضُ الأشياخ. فإنّ الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ، ولا يبتذلون أسماءهنّ، بل يكنون عن الزوجة بالعرْس والأهل والعيال، ونحو ذلك؛ فإنْ ذكروا الإماءَ لم يكنوا عنهنّ، ولم يصونوا أسماءهنَّ عن الذّكر والتصريح بها. فلمّا قالت النصارى في مريم ما قالت، وفي ابنها، صرّح اللّهُ باسمها، ولم يَكْنِ عنها بالأموّة والعبوديّة التي هي صفة لها. وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمائها.

الثالثة: إعتقاد أنّ عيسى، لا أب له واجب. فإذا تكرّر ذكره منسوباً للأمّ استشعرتِ القلوبُ ما يجب عليها اعتقادُه من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم اللّه. واللّه أعلم.

"**وكَلِمَتُهُ**": أي هو مكوّن بكلمة "كُنْ"، فكان بشراً من غير أب. والعرب تسمّي الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه. وقيل: "كَلِمَتُهُ" بشارة اللّه تعالى مريم عليها السلام، ورسالته إليها على لسان جبريل. وذلك قوله: "إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ اللّهَ يبشّرك بكلمة منه" (٣/ ٤٥). وقيل: "الكلمة" ههنا بمعنى الآية، نظيره قوله: "وصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ ربِّها" (٦٦/ ١٢)، "مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ" (٣١/ ٢٧). وكان لعيسى أربعة أسماء: المسيح، وعيسى، وكلمة، وروح. وقيل: غير هذا ممّا ليس في القرآن. ومعنى "**ألقاها إلى مريمَ**"، أمرَ بها مريمَ.

"**ورُوحٌ مِنهُ**". هذا الذي أوقع النصارى في الإضلال، فقالوا: عيسى جزء منه، فجهلوا وضلّوا. وعنه أجوبة ثمانية:

١. قال أُبَيّ بن كعب: خلق اللّه أرواح بني آدم لمّا أخذ عليهم الميثاق، ثمّ ردّها إلى صُلْب آدم، وأمسك عنده روحَ عيسى. فلمّا أراد خلقَه أرسلَ ذلك الروحَ إلى مريم، فكان منه عيسى. فلهذا قال: "وَرُوحٌ مِنْهُ".

٢. وقيل: هذه الإضافة للتفضيل، وإن كان جميع الأرواح من خلقه. وهذا كقوله: "وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ" (٢٢/٢٦).

٣. وقيل: قد يُسمَّى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً. وتضاف إلى اللّه، فيقال: هذا روح من اللّه، أي من خلقه، كما يقال في النعمة إنّها من اللّه. وكان عيسى يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى، فاستحق هذا الإسم.

٤. وقيل: يُسمَّى روحاً بسبب نفخة جبريل. ويُسمَّى النّفخ روحاً لأنّه ريح يخرج من الروح... (هذه ٤ لا ثمانية).

"**فَآمِنوا باللّهِ ورُسُلِه. ولا تَقولوا ثَلاثَةٌ**":

قيل: إنّ النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رُفع عيسى، يُصلُّونَ إلى القبلة، ويصومون شهر رمضان، حتّى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب. وكان في اليهود رجلٌ شجاع يقال له **بولس**، قتلَ جماعةً من أصحاب عيسى فقال: إنْ كان الحقّ مع عيسى فقد كَفَرنا وجحدنا والنار مصيرنا. ونحن مغبونون إنْ دخلوا الجنّة ودخلنا النّار، وإنّي أحتال فيهم فأضلّهم فيدخلون النار.

وكان له فرس، يقال له العُقاب، فأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب، وقال للنصارى: أنا بولس عدوُّكم. قد نوديتُ من السماء أنْ ليستْ لك توبةٌ إلاّ أن تتنصّر. فأدخلوه في الكنيسة بيتاً، فأقام فيه سنة، لا يخرج ليلاً ولا نهاراً، حتّى تعلّم الإنجيل. فخرج وقال: نوديتُ من السماء أن اللّه قد قَبِل توبتك. فصدّقوه. وأحبّوه. ثمّ مضى إلى بيت المقدس، واستخلف عليهم نسْطوراً، وأعلمه أنّ عيسى ابن مريم إله. ثمّ توجّه إلى الروم وعلّمهم اللاّهوت والنّاسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس، فتأنّس ولا بجسم فتجسّم. ولكنّه ابن اللّه.

وعلّم رجلاً يقال له يعقوب ذلك. ثمّ دعا رجلاً يقال له الملك فقال له: إنّ الإله لم يزل ولا يزال لعيسى. فلمّا استمكن منهم، دعا هؤلاء الثلاثة، واحداً واحداً، وقال له: أنت خالصتي، ولقد رأيتُ المسيح في النوم ورضي عنّي. وقال لكلّ واحد منهم: إنّي غداً أذبح نفسي وأتقرّب بها. فادع الناس إلى نحلتك. ثمّ دخل المذبح فذبح نفسه. فلمّا كان يومٌ ثالث دعا كلّ واحد منهم الناس إلى نحلته، فتبع كلّ واحد منهم طائفة. فاقتتلوا واختلفوا إلى يومنا هذا.

فجميع النصارى من الفرق الثلاث. فهذا كان سبب شركهم فيما يقال. واللّه أعلم. وهذا معنى قوله تعالى: "فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ" (٥/ ١٤).

"لَهُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ"، فلا شريك له، وعيسى من جملة ما في السموات والأرض، وما فيهما مخلوق. فكيف يكون عيسى إلهاً وهو مخلوق! وإنْ جاز ولدٌ فليجز أولاد، حتّى يكون كلّ من ظهرت عليه معجزة ولداً له.

"**لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ**"، أي: لن يأنف ولن يحتشِم، من "**أنْ يكونَ عبداً للهِ**"، **ولا الملائكةُ المُقَرَّبُونَ**، من رحمة الله ورضاه.

أبو حيّان الأندلسي:

"**ورُوحٌ مِنهُ**"، (أي: صادرة، لأنّه ذو روح. وُجد من غير جزء من ذي روح، كالنطفة المنفصلة من الأب الحيّ؛ وإنّما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته. وقال أبيّ بن كعب: عيسى روح من أرواح الله تعالى الذي خلقها واستنطقها بقوله: "ألَسْتُ بِرَبِّكُم؟ قالُوا: بَلى" (٧/ ١٧٢)، بعثه الله إلى مريم فدخل.

وقيل: "وروح منه"، أي: نفخة منه، إذ هي من جبريل بأمره.. وسمّي روحاً لأنّه حدث عن نفخة جبريل.

وقيل: ومعنى "وروح منه"، أي: رحمة، ومنه "وأيّدهم بروح منه" (٥٨/ ٢٢).

وقيل: سمّي روحاً لإحياء الناس به، كما يحيون بالأرواح. ولهذا سمّي القرآن روحاً.

وقيل: ألمعنيّ بالروح هنا ألوحي، أي: أوحي إلى جبريل بالنفخ في درعها، أو إلى ذات عيسى أنْ "كن".

ونكر "وروح" لأنّ المعنى على تقدير صفة لا على إطلاق روح، أي: وروح شريفة نفيسة من قِبَلِه تعالى.

و"**مِنه**" هنا لابتداء الغاية، وليست للتبعيض، كما فهمه بعض النصارى، فادّعى أنّ عيسى جزء من الله تعالى. فردّ عليه علي بن الحسين بن واقد المروزي، حين استدلّ النصراني بأنّ في القرآن ما

يشهد لمذهبه، وهو قوله: "وروحٌ منه"، فأجابه ابن وافد بقوله: "وَسَخَّرَ لكُمْ مَا في السَّمَوَاتِ ومَا في الأرضِ جميعاً **مِنْه**" (٤٥/ ١٣). وقال: إنْ كان يجب بهذا أن يكون عيسى جزءاً منه، وجب أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزءاً منه. فانقطع النصراني وأسلم.

ابن كثير:

"**إنّما المسيحُ عيسَى ابنُ مريمَ رَسُولُ اللّهِ، وكَلِمَتُهُ ألْقاها إلى مريمَ، ورُوحٌ مِنهُ**"، أي: إنّما هو عبد من عباد اللّه، وخلق من خلقه، قال له كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقَه بالكلمة التى أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربّه، فكان عيسى بإذنه، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتّى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم. والجميع مخلوق للّه. ولهذا قيل لعيسى إنّه كلمة اللّه ورح منه، لأنّه لم يكن له أب تولّد منه، وإنّما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، والروح التي أرسل بها جبريل.

عن شاذ بن يحيى يقول في قول اللّه "**وَكَلِمَتُهُ ألْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ**"، قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى. هذا أحسن ممّا ادّعاه ابن جرير في قوله: "ألقاها إلى مريم"، أي: أعلمها بها.. ألصحيح أنّه الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن اللّه فكان عيسى..

"**وَرُوحٌ مِنْهُ**"، أي: من خلقه، ومن عنده. وليست "**من**" للتبعيض، كما تقوله النصارى، عليهم لعائن اللّه المتتابعة، بل هي لابتداء الغاية. وقد قال مجاهد في قوله: "ورح منه"، أي: ورسول

منه. وقال غيره: ومحبّة منه. والأظهر الأوّل، وهو أنّه مخلوق من روح مخلوقة. وأضيفت الروح إلى اللّه على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى اللّه في قوله: "هذه ناقة اللّه" (٧/ ٧٣)، وفي قوله: "وطهِّرْ بيتي للطّائفين" (٢٢/ ٢٦).

"فَآمِنوا باللّهِ ورُسُلِه. ولا تَقولوا ثَلاثةٌ. انْتَهُوا. خَيراً لكم. إنّما اللّهُ إلهٌ واحِدٌ. سُبْحانَهُ أنْ يكونَ لهُ وَلَدٌ"، نظيرها قوله: "لَقَد كَفَرَ الّذينَ قالوا إنّ اللّهَ هُوَ المسيحُ ابن مريمَ" (٥/ ١٧). والنصارى، عليهم لعائن اللّه من جهلهم، وليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حدّ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر. فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً. وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وأقوال غير مؤتلفة. وقد أحسن بعض المتكلّمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً.

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم، وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندريّة، في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبويّة، أنّهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنّما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وأنّهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر. فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً، فكانوا أحزاباً كثيرة. كلّ خمسين منهم على مقالة. وعشرون على مقالة. ومائة على مقالة. وسبعون على مقالة. وأزيد من ذلك وأنقص. فلمّا رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفر، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك، ونصرها وأيّدها. وكان فيلسوفاً داهية، ومحقَ ما عداها من الأقوال، وانتظم دسْتُ أولئك الثلثمائة والثمانية عشر، وبنيتْ لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين،

وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقّنونها الولدان من الصغار، ليعتقدها، ويعمِّدونهم عليها. وأتباع هؤلاء هم الملكانيّة.

ثمّ إنّهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبيّة. ثمّ مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطوريّة. وكلّ هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح. ويختلفون في كيفيّة ذلك، وفي اللاّهوت والناسوت على زعمهم هل اتّحدا، أو ما اتّحدا، أو امتزجا، أو حلّ فيه على ثلاث مقالات. وكلّ منهم يكفّر الفرقة الأخرى. ونحن نكفّر الثلاثة...

ألقاسمي:

" **وروحٌ منه** "، أي: بتخليقه وتكوينه، كسائر الأرواح المخلوقة. وإنّما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم.

وقيل: ألروح هو نفخ جبريل في جيب درع مريم، فحملتْ بإذن اللّه. سمّي النفخ روحاً لأنّه ريح تخرج من الروح. وإنّما أضافه إلى نفسه لأنّه وُجد بأمره تعالى وإذنه...

وقيل: سمّي روحاً لإحيائه الموتى بإذن اللّه.

وقيل: لإحيائه القلوب، كما سمّي به القرآن..

وقيل: أريد بالروح الوحي الذي أوحْي إلى مريم بالبشارة.

وقيل: جرت العادة بأنّهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة، قالوا: إنّه روح. فلما كان عيسى متكوِّناً من النفخ، لا من النطفة، وصف بالروح..

محمّد عبده:

" **يا أهلَ الكتاب! لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ** " فتتجاوزوا الحدود التي حدّها اللّه لكم... **ولا تَقُولوا علَى اللّهِ إلاّ الحَقّ**، أي الثابت المتحقّق في نفسه، إمّا بنصّ ديني متواتر، وإمّا ببرهان عقلي قاطع. وليس لكم على مزاعمكم في المسيح شيء منهما، **إنّما المسيحُ عيسَى ابنُ مريمَ رَسُولُ اللّه** إلى بني إسرائيل، أمرَهم بأن يعبدوا اللّه وحدَه، ولا يشركوا به شيئاً، وأن يرجعوا عن الإيمان بالجبت والطاغوت، وعن اتّباع الهوى وعبادة المال، وإيثار شهوات الأرض على ملكوت السماء، وزهدهم في الحياة الدنيا، وحثّهم على حقّ التقوى. وبشّرهم بالنبي الخاتم الذي يبيّن لهم كل شيء، ويقيمهم على صراط الاعتدال، ويهديهم إلى الجمع بين حقوق الأرواح وحقوق الأجساد...

وأمّا قوله: " **ورُوحٌ مِنهُ** " ففيه وجهان:

أحدهما : أنّ معناه أنّه مؤيّد بروح منه تعالى. ويوضحه قوله فيه "وأيّدْنَاهُ بروحِ القُدُس" (٢/ ٢٥٣). وقال في صفات المؤمنين الذين لا يوادّون مَن حادّ اللّه ورسولَه ولو كان من ذوي القربى: "أولئكَ كتبَ في قلوبِهِمُ الإيمانَ وأيّدَهُمْ بروحٍ منه" (٥٨/ ٢٢).

وثانيهما : أنّ معناه أنّه خلق بنفخ من روح اللّه وهو جبريل. ويوضحه قوله تعالى في أمّه: "والتي أحْصَنَتْ فَرْجَها فنَفَخْنَا فيها مِنْ رُوحِنا" (٢١/ ٩١)، وقال تعالى فيها: "فأرسَلْنا إليها رُوحَنا فتمثَّلَ لها بَشراً سَوِيّاً" (١٩/ ١٧)، كما قال في خلق الإنسان بعد ذكر بدئه من طين: "ثمَّ جعلَ نسلَه من سُلالةٍ من ماءٍ مَهينٍ. ثمّ سَوّاهُ ونَفَخَ فيه من روحِهِ، وجَعَلَ لكمُ السّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ. قليلاً ما

تَشكُرونَ" (٣٢/ ٨-٩). وقال بعضهم: إنّ المراد بالروح هنا النفخ، أي نفْخ الملك بأمر اللّه في مريم. فإنّه استُعمل بمعنى النّفخ والنّفس الذي ينفخ.

والروح الذي يحيا به الإنسانُ مأخوذ من اسم الريح.. كما أنّ اسم النّفْس من النَّفَس.

ويجوز أن يراد بقوله تعالى: "وروحٌ منه" الأمران معاً، أي: أنّه خلق بنفخ الملك المعبر عنه بالروح وبروح القدس في أمّه نفخاً كان كالتلقيح الذي يحصل باقتران الزوجيّة، وكان مؤيّداً بهذا الروح مدّة حياته. ولذلك غلبت عليه الروحانيّة، وظهرت آيات اللّه فيه زمن الطفوليّة وزمن الرجوليّة: "إذْ قالَ اللّهُ: يا عيسَى ابنَ مريمَ! اذْكُرْ نعمَتي عليكَ وعلى والدتِكَ إذ أيَّدْتُكَ بروحِ القُدُسِ. تُكلِّمُ النّاسَ في المَهدِ وكَهلاً" (٥/ ١١٠). فلمّا كان كذلك أطلق عليه أنّه "روح"، كأنّه هو عين ذلك الملك الذي جعله اللّهُ سبب ولادته، وأيّده به مدّة حياته، كما يقال "رجل عدل" على سبيل المبالغة. والمراد ذو عدل.

وقال بعض المفسِّرين: إنّ المراد بالروح هنا: الرحمة، كقوله تعالى في المؤمنين: "وأيَّدَهُم بروحٍ منه" (٥٨/ ٢٢)، ويقوّيه قوله تعالى فيه: "وَلِنَجْعَلَه آيَةً للناسِ ورحمةً منّا" (١٩/ ٢١). ويمكن إدخال هذا المعنى في الوجه الأوّل لأنّه من فروعه.

والمعنى الجامع: أنّ الروح ما به الحياة. والحياة قسمان: حسّيّة ومعنويّة. فالأولى ما به يشعر الإنسان ويدرك ويتفكّر ويتذكّر؛ والثانية ما به يكون رحيماً حكيماً فاضلاً محبّاً محبوباً نافعاً للخلق. وقد سمّى اللّهُ الوحيَ روحاً، فقال لخاتم رسله: "وكذلك

أوحينا إليكَ روحاً من أمرِنا" (٤٢/ ٥٢)، وقال: "يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرّوحِ من أمرِه على مَن يشاءُ من عبادِه" (١٦/ ٢). وكلا المعنيين متحقق في عيسى على وجه الكمال. فلهذا جوّزنا الوجهين في المسألة.

وأخيراً يجمل الإمام الشيخ محمّد عبده قوله في النصارى ومعتقداتهم، ويركّز على دور بولس فيها، فيقول:

إنّ النصارى «نقلوا عن عيسى أنّه ما جاء لينقض شريعة موسى، وإنّما جاء ليتمّمها. ولكن مقدسهم **بولس** نقضها حجراً حجراً ولبنةً لبنة، إلاّ ذبيحة الأصنام والدم المسفوح والزنا الذي لا عقاب عليه عندهم، فأراحهم ومهّد لهم السبيل لتأسيس دين جديد، لا يتّفق مع دين المسيح في عقائده، ولا في أحكامه، ولا في آدابه. وأبعد النّاس عن دين المسيح الإفرنج الذين بذلوا الملايين من الدنانير لتنصير البشر كلّهم باسم المسيح. وغرضهم من ذلك استعباد جميع البشر بإزالة ملكهم وسلب أموالهم لتكون جميع لذّات الدنيا وشهواتها وزينتها وعظمتها خالصة لهم. فهل جاء المسيح لهذا؟ وبهذا أمر أم بضده؟

واللّه! إنّني لا أرى من عجائب أطوار البشر، وقلبِهم للحقائق، ولبسهم الحق بالباطل، أعجب وأغرب من وجود الديانة النصرانيّة في الأرض:

ديانة بنيت على أساس التوحيد الخالص المعقول، جعلوها ديانة وثنيّة بتثليث غير معقول...

ديانة شريعة سماويّة، نسخوا شريعتها برمّتها وأبطلوها، واستبدلوا بها بدعاً وتقاليد غريبة عنها.

ديانة زهد وتواضع وتقشّف وإيثار وعبوديّة، جعلوها ديانة طمع وجشع وكبرياء وترف وأثرة واستعباد للبشر.

ديانة أصولها التي هم عليها مقتبسة من الوثنيّة الأولى لم يرد كلمة تدلّ على عقيدتها عن أنبياء بني إسرائيل، ولكنّهم زعموا أنّها مستمدّة من جميع كتب أنبياء بني إسرائيل.

ديانة نسبوها إلى المسيح وليس عندهم نصّ من كلامه في أصول عقيدتها التي هي التثليث، وإنّما بقي عندهم نصوص قاطعة من كلامه في حقيقة التوحيد والتنزيه وإبطال التثليث وعدم المساواة بين الآب والابن الذي أطلق لفظه مجازاً عليه وعلى غيره من الأبرار، على أنّه كان يعبّر عن نفسه في الأكثر بابن الإنسان...

سيّد قطب:

"**وكلمَتُه ألْـقَاها إلى مَريمَ**": أقرب تفسير لهذه العبارة، أنّه سبحانه، خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر، الذي يقول عنه في مواضع شتّى من القرآن: إنّه "**كُنْ فَيَكُونُ**" (٣/ ٥٩). فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب، كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم. والكلمة التي تخلق كلّ شيء من العدم، لا عجب في أن تخلق عيسى في بطن مريم من النفخة التي يعبّر عنها بقوله: "**وَرُوحٌ مِنْهُ**". وقد نفخ اللّه في طينة آدم من قبل من روحه. فكان "إنساناً، كما يقول تعالى عن خلق آدم: "فإذا سَوَّيتُه **وَنَفَخْتُ فيه من روحي**" (٣٨/ ٧٢)؛ وكذلك قال في قصّة عيسى: "والتي أحصنتْ فرجَها **فَنَفَخْنَا فيها من روحِنا**" (٢١/ ٩١). فالأمرُ له سابقة.. والروح هنا هو الروح هناك.. ولم يقل أحدٌ من أهل الكتاب أنّ

آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله، كما قالوا عن عيسى مع تشابه الحال من حيث قضيّة الروح والنفخة، ومن حيث الخلقة كذلك. بل إنّ آدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق مع وجود أم.

ويعجب الإنسان -وهو يرى وضوح القضيّة وبساطتها- من فعل الهوى ورواسب الوثنيّة التي عقّدت قضيّة عيسى هذا التعقيد كله، في أذهان أجيال وأجيال هي، كما يصوّرها القرآن، بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة... وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التي لا تنتهي عن ألوهيّة المسيح، لمجرّد أنّه جاء من غير أب، وعن ألوهيّة الأقانيم الثلاثة كذلك!..

محمّد حسين فضل الله :

«وَكَلِمَتُهُ" : هي كلمة "كن" التكوينيّة التي أُلقيتْ إلى مريم البتول المذكورة في قوله تعالى: «إنَّ مَثَلَ عيسَى عندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرابٍ ثمّ قَالَ له كُنْ فيَكُونُ» (٣/ ٥٩). وتمثِّل مظهرَ قدرةِ اللّهِ تعالى وتعبّر عن إرادته من دون تخلل الأسباب الطبيعيّة.

«وَرُوحٌ مِنْهُ": كناية عن قدرة اللّه التي بها يخلق ما يخلق ويبدع ما يبدع فهو روح «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّي» (١٧/ ٨٥).

أطلق (القرآن) النداءَ إلى أهل الكتاب الذين انحرفوا في تصوّرهم العقيدي للّه وللمسيح، فابتعدوا عن التوحيد بما استحدثوه من عقيدة التثليث، سواء في الفكرة التي تعتقد بالتثليث الإلهي بشكلٍ مباشر، أو في الفكرة التي تعتقد بالتثليث في نطاق الوحدة، كما هو الشائع لدى النصارى من أهل الكتاب.

ودعاهم إلى عدم الغلوّ في المسيح باعتقـاد صفة الألوهيّة فيه. وأراد منهم أن يبتـعدوا عن أيٍّ خطٍّ لا يلـتقـي بالحقّ. وأوضح لهم شخـصيّة المسـيح بكلٍّ بساطة. فـهو لا يحمـل في داخل ذاته أسراراً غيـبيّة معـقّدة، أو أجزاءً إلهيّـة مقدّسـة. فهو بشر كـبقيّة البـشر في تكوينه الجسدي وفي طاقاته الإنسانيّـة. وقد ميّزه اللّهُ عنهم برسالته التي كلّفـه بها، كـما مـيّز سـائر الرسل بذلك؛ ولكن له مـيزة أخـرى يختـلف بها عن سـائر الناس والأنبيـاء. فهو لـم يولد كما ولـد سائر الأنبياء والرسل والناس بالطريقة البشريّة الطبـيعيّة الخاضعة لنظام التناسل الطبـيـعي؛ بل كـان كلمة اللّه ألقاها إلى مـريم، وروحـاً منه أفاضـهـا عليها، كمـا أفاضها على آدم مُظهرا لقـدرته تعالى في ولادة إنسان من غير أبٍ أو أمّ..

وليستِ الكلمةُ، أو الروح، في الآية، تعبيراً عن الجزء الإلهي، أو الحقيـقة الإلهيّة؛ لأنّ طبيـعة اللّه لا تتجزّأ، فهي بسـيطة كلّ البساطة، ولا يمكن أن تنتقل من مكان إلى آخـر، بل المراد بهما مظهـر قدرة اللّه وسرّ إبداعه، فـي ما أفاضه على جـسد آدم الهامد الجامـد الخالي من الروح، كما أفـاضـها على مريم الخاليـة عن أسباب الولادة الطبيـعيّة. ولهذا التقت الكلمات القرآنيّة في التعبير عنهما..

أمّـا وصف عـيسى بالكـلمة، فـلأنّ وجـودَه انطلق من كلمـة الإيجاد المتمثّلة في قوله تعالى : "كُنْ" المعبّر عن إرادته سبحانه، من دون تخلّل الأسبـاب الطبيعيّـة خلافاً للناس الآخرين، مع أنّ الجـميع خاضعون لإرادة اللّه وقدرته التكوينيّة.

أمّـا قصّـة ولادته (عيـسى) الخارجـة عن نواميس الطبـيعـة العاديّة، وما قـام به من معاجز وخـوارق، فلا يمكن اعتبـارهما دليلاً

على الجانب الإلهي فيه، لأنّ موضوع الولادة غير المألوفة كان متمثّلاً في آدم قبله، بصورة أكثر من ذلك، إذ ليس لآدم ولادة بالمعنى الطبيعي للولادة. أمّا الخوارق فقد حدثتْ على أيدي الأنبياء باعتراف كتب العهدَين، من دون أن يكون في هذا أو ذاك ما يوجب اعتبار آدم إلهاً، أو القول بألوهيّة الأنبياء.

ويؤكّد القرآن هذه الحقيقة من خلال الحياة العاديّة للمخسيح، فيعلن أن «**لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أنْ يكونَ عبداً للّهِ**» من خلال الالتزام والممارسة؛ لأنّها الحقيقة الواضحة التي تفرض نفسها على كيانه. وقد كانت سيرته في حياته، في الدعوة إلى اللّه الواحد، وفي خضوعه العملي له، دليلاً على ذلك، «**ولا الملائكةُ المُقَرَّبون**» سيستنكفون من ذلك، بل يؤكّدون هذه العبوديّة بكلّ ما لديهم من وسائل التعبير المتنوّعة في مظاهر العبادة، بكلٍّ ما لديهم من مشاعر الانسحاق أمام عظمة اللّه...

ولا تتوقّف هذه الآية عند حدود هذا التقرير للحقيقة في حياة السيّد المسيح والملائكة المقرّبين، بل تواجه الموقف بالتهديد الإلهي لكلٍّ الذين يعيشون حياتهم بعيداً عن ذلك، من خلال ابتعادهم عن عبادة اللّه استنكافاً وتكبّراً، ليواجه المتعبّدون والمستكبرون حركة هذه الحقيقة في مصيرهم، عندما يحشرون إلى اللّه، ليروا أنّ القوّة للّه، وأنّ العزّة له. فله الملك وله السلطة المطلقة في كلّ خلقه، وبيده الأمر كلّه. «فأمّا الذينَ آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ فيُوَفّيهم أجورَهم ويَزيدُهم من فضله»، جزاءً لإخلاصهم ولعملهم؛ «وأمّا الذينَ استَنْكفوا واستكبروا فيعذِّبُهم عذاباً أليماً» لأنّهم لم يستسلموا للإيمان الذي يفرض نفسه على فكرهم وشعورهم؛ ولكنّهم يتمرّدون عليه..

(٤٤)

مشاركة محدودة بين المسلمين وأهل الكتاب

اليَومَ أُحِلَّ لكمُ الطَّيِّباتُ. وطَعَامُ الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لكمْ، وطَعَامُكمْ حِلٌّ لهمْ. والمُحْصَنَاتُ مِنَ المؤمناتِ والمُحْصَنَاتُ من الذينَ أُوتوا الكتابَ من قَبْلِكمْ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غيرَ مُسافِحِينَ ولا مُتَّخِذي أَخْدانٍ. ومَن يكفُرْ بالإيمانِ فقد حَبِطَ عملُهُ وهُوَ في الآخرةِ من الخاسِرِينَ (سورة المائدة ٥/ ٥).

الطبري:

"**اليَومَ أُحِلَّ لكمُ الطَّيِّباتُ**" (أي: أليوم أحلّ لكم، أيّها المؤمنون، الحلالُ من الذبائح والمطاعم دون الخبائث منها). "**وطَعَامُ الَّذينَ أُوتُوا الكتَابَ**" (أي: وذبائح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم الذين أوتوا التوراة والإنجيل وأنزل عليهم، فدانوا بهما أو بأحدهما)، "**حِلٌّ لكمْ**" (أي: حلالٌ لكم أكله دون ذبائح سائر أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وعبدة الأوثان والأصنام. فإن من لم يكن منهم ممّن أقرّ بتوحيد اللّه، ودان دين أهل الكتاب، فحرام عليكم ذبائحهم).

ثمّ اختلف في مَن هم "أهل الكتاب"؟

فقال بعضهم: عنى اللّه بذلك ذبيحة كلِّ كتابيّ ممن أنزل عليه التوراة والإنجيل؛ أو ممن دخل في ملّتهم فدانَ دينَهم وحرّم ما حرّموا وحلّل ما حلّلوا منهم ومن غيرهم من سائر أجناس الأمم. عن الحسن وعكرمة أنّهما كانا لا يريان بأساً بذبائح نصارى بني تغلب وبتزوّج نسائهم. ويتلوان: "وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ" (٥/ ٥١).

وقـال آخـرون: إنّما عنـي بالذين أوتوا الكتـاب في هذه الآية، الذين أنزل عليـهم التوراة والإنجيل مـن بني إسرائيل وأبنائهم؛ فـأمّا مَن كان دخـيلاً فيـهم من سائر الأمم ممّن دان بدينهم، وهم من غـير بني إسـرائيل، فلم يُعْنَ بهـذه الآية؛ وليس هو ممّن يحلّ أكلُ ذبائحـه، لأنّه ليس ممّن أوتي الكـتاب من قَـبْل المسـلمين.. قـال علي: لا تأكلوا ذبائح نصارى بني تغلب، فإنّهم إنّما يتـمسّكون من النصرانيّة بشرب الخمر.. وعـن ابن عبّاس قال: لا تأكلوا ذبائح نصـارى العرب وذبائح نصارى أرمينية.

" **والمُحْـصَنَاتُ منَ المؤمِناتِ** "، (أي: أحلّ لكم، أيّهـا المؤمنون، ألمحـصـنات من المؤمـنات وهنّ الحـــرائر منهـنّ أن تنكحـــوهنّ)، " **والمُحْـصَنَاتُ من الذينَ أوتوا الكتابَ من قَـبْلِكمْ** " (أي: والحرائر من الذين أعطوا الـكتـاب، وهم اليـهـود والنصـارى الـذين دانوا بما في التوراة والإنجـيل من قبلكم، أيّها المـؤمنون بمحمّد من العـرب وسائر الناس، أن تنكحـوهنّ أيضـا)، "**إذا آتَيـتُمُـوهُنَّ أُجُـورَهُن** "، (أي: إذا أعطيتم من نكحتـم من محصناتكم ومحصناتهم، مـهورُهنّ. والأجر: ألعوض الذي يبذله الزوج للمرأة للاستمتاع بها، وهو المهر).

وإحصان اليـهوديّة والنصرانيّة: أن لا تزني، وأن تـغتسِل من الجنابة... هنّ الحـرائر، فاجـرةً كانت أو عـفيـفة، حـرّةً كانت أوأمَـةً، حربيّةً كانتْ أو ذمّيّةً... فنكاح الحـرائر اليهود والنصارى جائز، ومن أيٍّ أجناس اليهـود والنصارى كانتْ. وهذا قـول جماعة من المتـقدّمين والمتأخّرين.

" **مُحْصِنِينَ** " (أي: أعفّاء)، " **غيرَ مُسافِحِينَ** " (أي: لا معالنين بالسفاح بكلّ فاجرة)، " **ولا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ** "، (أي: ولا منفردين ببغيّة

واحدة، قد خادنها وخادنته، واتّخذها لنفسه صديقة يفجر بها).

عن ابن عبّاس قال: محصنين غير مسافحين، يعني: ينكحوهنّ بالمهر والبيّنة، غير مسافحين متعالنين بالزنا، ولا يسرّون بالزنا. " ذات الخدن "، أي ذات الخليل الواحد.

" **ومَن يكفُرْ** (من أهل الكتاب)، **بالإيمانِ** (باللّه، أو بالتوحيد، أو بشرائع الإسلام، ويمتنع من الطاعة له فيما أمره به ونهاه عنه، ومَن يجحد ما أمر اللّه بالتصديق به، ولا يقرّ بنبوّة محمّد وبما جاء به من عند اللّه)، **فقد حَبِطَ عملُهُ**، (أي: بطل ثواب عمله الذي كان يعمله في الدنيا؛ وكان يرجو أن يدرك به منزلة عند اللّه). **وهُوَ في الآخرةِ من الخاسرينَ** " (الهالكين، الذين غَبَنوا أنفسَهم حظوظها من ثواب اللّه بكفرهم بمحمّد، وعملهم بغير طاعة اللّه).

الزمخشري:

" **وَطَعَامُ الّذينَ أوتُوا الكِتَابَ** "، قيل هو ذبائحهم، وقيل هو جميع مطاعمهم. ويستوي في ذلك جميع النّصارى. واستثنى عليٌّ نصارى بني تغلب، وقال: " ليسوا على النصرانيّة، ولم يأخذوا منها إلاّ شرب الخمر.. وسئل ابن عبّاس عن ذبائح نصارى العرب فقال: لا بأس.

" **وَطَعَامُكُمْ حِلٌ لَهُمْ** "، فلا عليكم أن تطعموهم لأنّه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم.

" **وَالْمُحْصَنَاتُ**، أي: الحرائر، أو العفائف.. واختلفوا في الإماء الكتابيّات، فعند أبي حنيفة هنّ كالمسلمات، وخالفه الشافعي. وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتابيّات، ويحتجّ بقوله " ولا تَنكِحوا المشركات

حتّى يُؤمِنَّ" (٢/٢٢١)، ويقول: لا أعلم شِركاً أعظم من قولها إنّ ربَّها عيسى...

الرازي:

... **إذا آتيتُموهنّ أجورَهنّ،** (ومهر الأمة لا يُدفع إليها، بل إلى سيّدها.. ونكاح الأمة إنّما يَحلّ بشرطين: عدم طَول الحرّة، وحصول الخوف من العنت.. لأنّه اجتمع في حقّها نقصان: الكفر والرقّ... ثمّ إنّ التحصّن في حقّ الحرة أكثر ثبوتاً منه في حقّ الأمة.. فثبت أنّ تفسير المحصنات بالحرائر أولى من تفسيرها بغيرها (أي بالعفائف).

الخازن:

يعني: وذبائح أهل الكتاب حِلّ لكم، وهم اليهود والنصارى، ومَن دخل في دينهم بعد مبعث النّبيّ. فأمّا مَن دخل في دينهم بعد مبعث النّبيّ، وهم متنصّرو العرب من بني تغلب فلا تحلّ ذبيحته.. ومذهب الشافعي: أنّ من دخل في دين أهل الكتاب، بعد نزول القرآن، فإنّه لا تحلّ ذبيحته... وأجمعوا على تحريم ذبائح المجوس وسائر أهل الشرك من مشركي العرب، وعبدة الأصنام، ومَن لا كتاب له... واختلف العلماء فيما لو ذبح يهودي أو نصراني على غير اسم اللّه، فقال ابن عمر: لا يحلّ ذلك.. وذهب أكثر أهل العلم إلى أنّه يحلّ..

أبو حيّان الأندلسي:

.. ذهب الجمهور: إبن عبّاس والحسن وعكرمة وابن المسيب والشعبي وعطاء وابن شهاب والحاكم وقتادة وحماد ومالك وأبو حنيفة وأصحابه: أنّه لا فرق بين بني إسرائيل والنصارى، ومن تهوّد، أو تنصّر من العرب أو العجم، في حلّ أكلِ ذبيحتهم..

المُحْصَنَاتُ.. الإحصان يكون بالإسلام وبالتزويج، وبالحرّيّة وبالعفّة. قال عمر بن الخطاب ومجاهد ومالك وجماعة: الإحصان هنا الحريّة. فلهذا، لا يجوز نكاح الأمة الكتابيّة؛ وقال آخرون: ألإحصان هنا العفّة. فلهذا، يجوز نكاح الأمة الكتابيّة... أمّا الكتابيّات الحرائر فلا خلاف بين السلف وفقهاء الأمصار في إباحة نكاحهنّ.

سيِّد قطب:

هنا نطلع على صفحة من صفحات السماحة الإسلاميّة؛ في التعامل مع غير المسلمين، ممّن يعيشون في المجتمع الإسلامي "في دار الإسلام"، أو تربطهم به روابط الذمّة والعهد، من أهل الكتاب.

إنّ الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حرّيتهم الدينيّة، ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوّين معزولين أو منبوذين، إنّما يشملهم بجوّ من المشاركة الإجتماعيّة والمودّة والمجاملة والخلطة، فيجعل طعامهم حِلاً للمسلمين، وطعامَ المسلمين حِلاً لهم كذلك، ليتمّ التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظلّ المجتمع كلّه في ظلّ المودّة والسماحة..

وكذلك يجعل العفيفات الحرائر طيّباتٍ للمسلمين، ويَقرُنُ ذكرَهنّ بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات. وهي سماحة لم يشعر بها إلاّ أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات والنِحل. فإنّ الكاثوليكي المسيحي ليتحرّج من نكاح الأرثوذكسيّة، أو البروتستانتيّة، أو المارونيّة المسيحيّة. ولا يقدم على ذلك إلاّ المتحلّلون عندهم من العقيدة!

وهكذا يبدو أنّ الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام

مجتمع عـالمي، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحـاب الديانات الكتابيّة؛ ولا حواجـز بين أصحـاب العقـائد المختلفة، الـتي تظلّها راية المجـتمع الإسلامي... وشرط حلّ المحصنات الكتابيّات هو شرط حلّ المحصنات المؤمنات.

محمّد حسين فضل الله :

«اليَومَ» : قيل إنّ المراد به يوم عرفـة. وقيل هو اليوم الذي تلا فتحَ خَيبر. وذهب بعض المفـسّرين المتأخّرين إلى أنّه يوم (غدير خم) باعتـبار أنّه اليـوم الذي برز الإسلام فيـه كقوّة تمتلك الـسيطرة على أوضـاع المجتـمع وتسـتطيع -بفـعل ذلك- إصـدار مـثل هذا الحكم لمصلحة أتباعه دون أن يساوره أي قلق بسبب الأعداء..

" **أُحِلَّ لكمُ الطَّيِّباتُ**" : حيث أكد اللّهُ حلّيتـها امتناناً على الناس وبيانـاً للطابع التشـريعي السمح للإسـلام الذي ينطلق من مصـلحة الإنسـان في حاجـاته الطبـيعـيّة، ومن فطـرة الإنسان في اسـتطابة الطيِّبات من الطعام واستخبـاث الخبائث، والإقبال على ما يصلح بدنه ممّا تستطيبه عناصر الجسد فـي المنافع الموجودة فيه حتّى لو كان مرّ المذاق في الطعام.

" **وطَعَـامُ الَّذينَ أُوتُوا الكتَـابَ حِلٌّ لكُمْ**" ممّا يحلّ لكم منه في التشـريع الإلهي العام. فـلا يجوز لكم أكل الطعـام الذي صدر الحكم بتحريمه، وهو " المَيْتَـةُ وَالدَّمُ ولَحْمُ الخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيرِ اللّهِ بِهِ "[١]، أو ممّا لم يذكر اسم اللّه عليه.

---

(١) سورة المائدة ٥/٣؛ أنظر: ٢/١٧٣؛ ٦/١٤٥؛ ١٦/١١٥.

أمّا خصوصيّة أهل الكتاب فقد تتمثّل في نقطتَين:

النقطة الأولى: مسألة النجاسة والطهارة، فقد يتوقّف الناس في أمر الطعام الذي يلامسونه بأيديهم لاحتمال نجاسته بمباشرتهم إيّاه، فكانت هذه الآية إعلاناً تشريعيًا بطهارتهم. فتكون الآية دالّة على أنّه لا مانع من أكل طعام أهل الكتاب الذي يباشرونه بأيديهم من هذه الجهة، لأنّهم طاهرون في ذواتهم..

ولعلّ هذا ما نستوحيه من الأحاديث الكثيرة الواردة عن أئمّة أهل البيت بأنّ المراد بالطعام الحبوب وأشباهها، في مقابل القول بأنّ المراد به الذبائح. فليس المقصود الحبوب اليابسة لتحمل على مسألة التعاطي بالبيع والشراء؛ لأنهّ مثل هذه المسألة لم تكن واردةً في حساب التحريم ولم تكن مشكلةً في الواقع الإسلامي الذي كان المسلمون يتعاملون فيه مع أهل الكتاب في المدينة بشكلٍ طبيعي؛ بل المقصود به الطعام المطبوخ الذي يقدِّمونه للنّاس..

النقطة الثانية: وهي مسألة حليّة ذبائحهم بلحاظ اشتراط إسلام الذابح في حليّة الذبيحة، كما هو المشهور الذي كاد أن يكون إجماعاً لدى فقهاء الشيعة. وربّما استوحى البعض ذلك من الأحاديث الواردة عن أئمّة أهل البيت في تفسير الطعام بالحبوب وأشباهها، وفي مقابل التفسير المعروف عند أهل السنّة بأنّ المراد به ذبائحهم.

... إنّ مسألة ذبائح أهل الكتاب ليست محرّمة بقول مطلق؛ بل بلحاظ أنّه لا بدّ في حلّ الذبيحة من إحراز التسمية -التي هي الشرط الأساس كما في القرآن- ولا مجال لإحرازها في ذبيحة الكتابي الذي لا يرى شرطيّته، فلا يوثق بتوفّرها لديه في الذبح. فلو أحرزنا التسمية مع شروط التذكية كانت الذبيحة حلالاً..

"**وطَعَامُكمْ حِلٌّ لهمْ**": فلا يحرّم عليكم إطعامهم من طعامكم، لأنّ اختلاف الانتماء الديني لا يؤدّي إلى اختلافٍ في العلاقات الاجتماعيّة الإنسانيّة في تبادل الدعوات إلى الطعام من خلال الروابط الخاصّة والمتعلّقة بالقربى والجوار ونحوهما. وليست المسألة كمسألة التزاوج بين المسلمات والكفّار في قوله تعالى: «فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكفّار لا هنَّ حِلٌّ لهمْ ولا هم يَحِلُّونَ لهنَّ» (١٠/٦٠) حيث يرتفع الحلُّ من الجانبين.

"**والمُحْصَنَاتُ منَ المؤمِناتِ**": وأحلّ اللّه لكم الزواج بالعفيفات من المؤمنات، "**والمُحْصَنَاتُ من الذينَ أُوتوا الكتابَ من قَبْلِكمْ**" فيجوز الزواج بهنّ لأنّهنّ يؤمنّ باللّه واليوم الآخِر وبالتوراة والإنجيل، ممّا يجعل هناك قاعدة للعلاقة الزوجيّة باعتبار أنّ المسلم يؤمن بذلك كلّه أيضاً، خلافاً للكوافر اللاتي لا يؤمنّ باللّه، بل يلتزمن الشرك..

"**إذا آتَيتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**" أي مهورهنّ. ولعلّ التعبير عن المهور بالأجور باعتبار انتفاع الرجل بالمرأة من حيث المنفعة الجنسيّة واللذة الغريزيّة التي يحصل عليها منها، فأشبه حالُ الزواج حالَ الإجارة التي يدفع فيها المستأجر مالَه في قبال المنفعة...

"**مُحْصِنِينَ**" في العلاقة المذكورة بهنّ بمعنى ارتكازها على العفّة باعتبار العلاقة الزوجيّة المحلّلة الي هي عنوان العفّة في ارتباط الرجل بالمرأة؛ "**غيرَ مُسافِحِينَ**" بالزنى، بأن تكون العلاقة بينهما علاقة الزاني بالزانية لعدم شرعيّة العلاقة؛ "**ولا مُتَّخِذي أخْدانٍ**"، فلا تكون الرابطة بينهما رابطة الصديق بصديقته التي يستمتع بها سرًّا عن طريق الاستمتاع الجنسي بعيداً عن الارتباط الزوجي.

"**ومَن يكفُرْ بالإيمانِ**" بالتمرّد عليه والابتعاد عن السير على خطّه المستقيم في الالتزام بحلال الله وحرامه، فسيقع في هوّة الكفر في نهاية المطاف، لأنّ السير مع المعصية يضعف الإيمان في النفس. فإذا امتدّ في كلّ مواقعها زال كلّيًا من الذات، "**فقد حَبِطَ عملُهُ**" كما يحبط عمل الكافر، فلا ينتفع من الإيمان بشيء، لأنّ عمله لن يكون صورةً لإيمانه، بل يكون وجهاً من وجوه الكفر، وهو الوجه العملي له، "**وهُوَ في الآخرةِ من الخاسرينَ**" (٣/ ٨٥)، «الذين خَسِروا أنفسَهم وأهليهِمْ يَومَ القيامة» (٤٢/ ٤٥).

(٤٥)

نسيان النصارى لعهدهم مع الله وخلافاتهم فيما بينهم. ومحمّد يبيّن لهم ما كانوا يخفون

ومِنَ الّذينَ قَالُوا: إنَّا نَصارى، أخَذْنا ميثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً ممَّا ذُكِّروا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وسَوفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانوا يَصْنَعُونَ. يَا أهلَ الكتَابِ! قد جَاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لكُمْ كَثيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ، ويَعفُو عَن كَثيرٍ. قد جَاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ وكتَابٌ مُبينٌ (سورة المائدة ٥/ ١٤-١٥).

الطبري:

"**ومِنَ الّذينَ قالوا: إنّا نصارى، أخَذْنا ميثاقَهمْ فَنَسُوا حَظّاً ممّا ذُكِّروا به**"، (أي: وأخذنا من النصارى الميثاق على طاعتي وأداء فرائضي، واتّباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقي الذي

أخذتُه عليهم منهاج الأمّة الضالّة من اليهود، فبدّلوا كذلك دينهم، ونقضوه، وتركوا حظّهم من ميثاقي الذي أخذته عليهم بالوفاء بعهدي، وضيّعوا أمري)..

" **فَأَغرَينا بَينَهمُ العَداوَةَ والبَغضاءَ إلى يومِ القيامةِ** "، (أي: لمّا ترك هؤلاء النصارى، الذين أخذتُ ميثاقَهم بالوفاء بعهدي، حظَّهم ممّا عهدتُ إليهم من أمري ونهيي، أغريت بينهم العداوة والبغضاء. وعداوة النصارى بينهم إنّما هي باختلافهم في قولهم في المسيح، وذلك أهواء، لا وحي من اللّه)...

" **وسوفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بما كانوا يَصنَعونَ** "، (يقول جلّ ثناؤه لنبيّه محمّد: أعفُ عن هؤلاء الذين همّوا ببسط أيديهم إليك وإلى أصحابك، واصفح. فإنّ اللّه من وراء الانتقام منهم، وسيُنبِّئُهُمُ اللّه عند ورودهم عليه في معادهم، بما كانوا في الدنيا يصنعون، من نقضهم ميثاقه، ونكثهم عهده، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم أمره ونهيه، فيعاقبهم على ذلك حسب استحقاقهم).

" **يا أهلَ الكتابِ! قد جاءَكمْ رسُولُنا يُبيِّنُ لكمْ كثيراً مِمّا كُنتُمْ تُخْفُونَ منَ الكِتابِ** "، (أي: " يا أهل الكتاب " من اليهود والنصارى، قد جاءكم محمّد يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تكتمونه الناس، ولا تبيّنونه لهم ممّا في كتابكم، مثل رجم الزانيين المحصنين). " **ويَعفُو عن كثيرٍ** " (أي: ويترك أخذكم بكثير ممّا كنتم تخفون من كتابكم الذي أنزله اللّه إليكم، وهو التوراة، فلا تعملون به حتّى يأمره اللّه بأخذكم به).

" **قد جاءكم من اللّهِ نورٌ وكتابٌ مُبينٌ** ". (قال جلّ ثناؤه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: " قد جاءكم "، يا أهل التوراة والإنجيل، " من اللّه نور "، يعني بالنور محمّداً الذي أنار اللّه به الحق، وأظهر به

الإسلام، ومحق به الشرك. فهو نور لمن استنار به يبيّن الحق. ومن إنارته الحق تبيينه لليهود كثيراً ممّا كانوا يخفون من الكتاب).

الرازي:

"**أخذنا ميثاقهم**"، (أي: مكتوب في الإنجيل أن يؤمنوا بمحمّد)، "**فنسوا حظاً**" (تنكير "الحظ" في الآية يدل على أنّ المراد به حظّ واحد، وهو الذي ذكرناه من الإيمان بمحمّد. وإنّما خصّ هذا الواحد بالذكر مع أنّهم تركوا الكثير ممّا أمرهم اللّه به، لأنّ هذا هو المعظم والمهم).

إعلم أنّه تعالى لمّا حكى عن اليهود وعن النصارى نقضهم العهد وتركهم ما أُمروا به، دعاهم عقيب ذلك إلى الإيمان بمحمّد في، فقال: "**يا أهلَ الكتاب!**"، (والمراد بهم اليهود والنصارى.. ثمّ وصف الرسول بأمرين: **الأوّل:** أنّه **يبيّن** لهم **كثيراً ممّا** كانوا **يُخفُون**: أخفوا صفة محمّد، وأخفوا أمر الرجم. ثمّ إنّ الرسول بيّن ذلك لهم.. **الثاني:** قوله: "**وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**"، أي لا يظهر كثيراً ممّا تكتمونه أنتم، وإنّما لم يظهره لأنّه لا حاجة إلى إظهاره في الدين. والفائدة في ذكر ذلك أنّهم يعلمون كون الرسول عالماً بكلّ ما يخفونه، فيصير ذلك داعياً لهم إلى ترك الإخفاء لئلاً يفتضحوا.

القرطبي:

"**ومِنَ الّذينَ قَالُوا: إنّا نَصَارى، أَخَذْنا مِيثَاقَهُمْ**"، (أي: في التوحيد والإيمان بمحمّد؛ إذ هو مكتوب في الإنجيل)، "**فَنَسُوا حَظّاً**"، (وهو الإيمان بمحمّد، أي لم يعملوا بما أُمروا به)، "**فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ**"، (أي: هيّجنا، أو: ألصقنا بهم الكراهيّة والافتراق)

إلَى يَومِ القيَامَةِ، وسَوفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ (وهو تهديد لهم بما سيلقون جزاء نقض الميثاق).

"**ويَعفُو عَن كَثيرٍ**"، (أي: يتجاوز محمّد عن كثير فلا يخبركم به. وذُكر أنّ رجلاً من أحبارهم جاء إلى النّبي فسأله فقال: يا هذا! عفوتَ عنّا؟ فأعْرَضَ عنهِ رسول اللّه، ولم يبيّن. وإنّما أراد اليهودي أن يظهر مناقضة كلامه. فلمّا لم يبيّن له رسول اللّه، قام من عنده فذهب. وقال لأصحابه: أرى أنّه صادقٌ فيما يقول؛ لأنّه كان وجد في كتابه أنّه لا يبين له ما سأله عنه.. وهو معنى قوله: "**قد جَاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ وكتَابٌ مُبينٌ**".

الآلوسي:

"**ومِنَ الّذينَ قَالُوا: إنَّا نَصَارى، أخَذْنا ميثَاقَهُمْ**"، (شروع في بيان قبائح النصارى وجناياتهم إثر بيان قبائح وجنايات إخوانهم اليهود.. وذكر إحدى الطائفتَين ممّا يوقع في ذهن السامع أنّ حال الأخرى ماذا؟ كأنّه قيل: ومن الطائفة الأخرى أيضاً "**أخَذْنَا ميثَاقَهُمْ**").

فَنَسَوا (على إثر أخذ الميثاق) **حَظّاً** (نصيباً وافراً) **مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** (في تضاعيف الميثاق، من الإيمان باللّه، وغير ذلك من الفرائض. وقيل: هو ما كُتب عليهم في الإنجيل من الإيمان بمحمّد، فنبذوه وراء ظهورهم، واتَّبَعوا أهواءهم، وتفرّقوا إلى إثنتَين وسبعين فرقةْ). **فَأغْرَيْنَا** (أي: ألزمنا وألصقنا) **العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ** (كائنةً بينهم).

"**وسَوفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بمَا كَانوا يَصْنَعُونَ**" (في الدنيا من نقض الميثاق، ونسيان الحظّ الوافر، ممّا ذُكِّروا به)

"**يَا أهلَ الكتَـابِ!**" (أي: اليـهـود والنصـارى) "**قـد جَـاءَكمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لكُمْ كَثيراً مِمّا كُنتُمْ تُخْـفُونَ مِنَ الكِتابِ، ويَعفُو عَن كَثيرٍ. قـد جَـاءَكمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ**" (عظيم، وهو نور الأنوار، والنّـبيّ المختـار، محمّد)، "**وكتَابٌ**" (القرآن) **مُبينٌ**" (لكشفه وإظهاره طرق اليقين).

محمّد عبده:

"**ومِنَ الّذينَ قالوا: إنّا نصارى، أخَذْنا ميثاقَهمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمّا ذُكّروا به**"، (أي: وكذلك أخذنا ميثاق الذين سمّوا أنفسهم نصارى من أهل الكتاب الأوّل، وهم الذين قالوا إنّهم اتّبعـوا المسيح ونصروه، وقد صـاروا طائفـة مسـتقلّة مؤلّفـة من الإسرائيليّين وغـيرهم، فنقـضوا ميثاقهم، ونسوا حظّاً ونصيباً ممّا ذُكّروا به على لسان المسيح عيسى بن مريم، كما فعل الذين من قبلهم).

"**فَأغـرَينا بينهمُ العداوَةَ والـبَغضـاءَ إلى يومِ القيـامةِ**"، (أي: فكان نسيان حظّ عظيم من كتابهم سبباً لوقوعهم في الأهواء والتفرّق في الدين الموجب بمقتضى سنّتنا في البشر للعـداوة والبغضاء.. فهذا جزاؤهم في الدنيا)، "**وسوفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بما كانوا يَصنَعونَ**"، (أي: عندما يحاسبـهم في الآخرة، ينبّئهم بحقيقـة ضـلالهم ويجزيهم عليه بعد ذلك ليعلموا أنّه حكم عدل لا يظلم مثل ذرّة).

بيّن اللّهُ لنا أنّ النصـارى نسـوا حظّاً ممّا ذُكِّروا به كـاليهـود. وسبب ذلك أنّ المسيح لم يكتب ما ذكّـرهم به من المواعظ، وتوحيد اللّه وتمجيـده، والإرشاد لعبادته. وكـان مَن اتّبعوه من العـوام، وأمثلهم حـواريه، وهم من الصـيّاديـن؛ وقـد اشـتـدّ اليـهـود في عـداوتهم ومطاردتهم، فلم تكن لهـم هيأة إجـتمـاعيّـة ذات قوّة وعلمٍ تدوّن مـا حفظوه من إنجيل المسيح وتحفظه.

ويظهر من تاريخهم وكتبهم المقدّسة أنّ كثيراً من الناس كانوا يبثّون بين الناس، في عصرهم، تعاليم باطلة عن المسيح. ومنهم مَن كتب في ذلك، حتّى أنّ الذين كتبوا كتباً سمّوها الأناجيل، كثيرون جدّاً، كما صرّحوا به في كتبهم المقدّسة وتواريخ الكنيسة.

وما ظهرت هذه الأناجيل الأربعة المعتمدة عندهم الآن إلاّ بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح عندما صار للنصارى دولة بدخول الملك قسطنطين في النصرانيّة، وإدخاله إيّاها في طور جديد من الوثنيّة. وهذه الأناجيل عبارة عن تاريخ ناقص للمسيح، وهي متعارضة متناقضة مجهولة الأصل والتاريخ، بل وقع الخلاف بينهم في مؤلّفيها واللّغات التي ألّفوها بها...

ألحاجة تدفعنا إلى بعض التفصيل في إثبات نسيان النصارى وإضاعتهم حظّاً عظيماً ممّا جاء به المسيح، وتحريف الكتب التي في أيديهم، لأنّهم أسرفوا في التعدّي على الإسلام والطعن فيه، فكان مَثَلُهم كَمَثَلِ مَن بنَى بيتاً من الزجاج على شفا جرْفٍ من الرمل، وحاول أن ينصب فيه المدافع ليهدم حصناً حصيناً مبنيّاً على جبل..

ونذكر بعض المسائل:

١. إنّ الكتب التي يسمّونها الأناجيل الأربعة هي تاريخ مختصر للمسيح لم يُذكر فيها إلاّ شيء قليل من أقواله وأفعاله في أيّام معدودة.. وحسبنا هذا حجّة عليهم في إثبات قول اللّه: "**فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**".

٢. ألإنجيل في الحقيقة واحد، وهو ما جاء به المسيح.. وسمّيتْ تلك التواريخ أناجيل لأنّها تتكلّم عن إنجيل المسيح، وتجيء

بشيء منه.. والإنجيل الذي أمر الناس أن يؤمنوا به ليس هو أحد هذه التواريخ الأربعة ولا مجموعها...

٣. كانت الأناجيل، في القرون الأولى للمسيح، كثيرة جداً حتّى قيل إنّها بلغت زهاء سبعين إنجيلاً.. وقد فات الجميع معرفة الموضع والعهد اللّذين كتبت فيهما.. ثمّ "إنّ نقص الأناجيل ظاهر لأنّها، كما يشهد الدكتور بوست البروتستاني، مضادّة لروح المخلّص وحياته. ونحن نقول إنّا قد اطّلعنا على واحد منها وهو إنجيل برنابا فوجدناه أكمل من مجموع الأربعة في تقديس اللّه وتوحيده، وفي الحث على الآداب والفضائل..

٤. بدئ تحريف الإنجيل من القرن الأوّل.. فالمسيح كان له إنجيل واحد. وبيّن بولس أنّه كان في عصره من القرن الأوّل أناسٌ يَدْعُونَ المسيحيّين إلى إنجيل غيره بالتحويل، أي بالتحريف.. وبيّن بولس أنّ الناس كانوا ينتقلون سريعاً إلى دعاة الإنجيل المحرّف المحوّل عن أصله الذي جاء به المسيح...

٥. اختلف علماء الكنيسة، وعلماء التاريخ، في الأناجيل الأربعة التي اعتمدوها في القرن الرابع: مَن هم الذين كتبوها؟ ومتى كتبوها؟ وبأيّ لغة كُتبت؟ وكيف فُقدت نسخها الأصليّة؟..

٦. علمنا ممّا تقدّم أنّ النصارى ليس عندهم أسانيد متّصلة ولا منقطعة لكتبهم المقدّسة، وإنّما بحثوا ونقّبوا في كتب الأوّلين والآخرين، وفلّوها فلياً لعلّهم يجدون فيها شبهَ دليل على أنّ لها أصلاً كان معروفاً في القرون الثلاثة الأولى للمسيح، ولكنّهم لم يجدوا شيئاً صريحاً يُثبت شيئاً منها، وإنّما وجدوا كلماتٍ مجملة أو مبهمة، فسّروها كما شاءت أهواؤهم، وسمّوها شهادات، ونظّموها في سلك

الحجج والبيّنات، وإنْ كانتْ هي أيضاً غير منقولة عن الثُّقات، ثمّ استنبطوا مِن فحواها ومضامينها مسائلَ متشابهة زعموا أنّ كلاً منها يؤيّد الآخر ويشهد له...

٧. إنّ أحد فلاسفة الهنود.. نظر في الإسلام فعرف أنّه الدين الحقّ فأسلم، وألّف كتابا باللّغة الإنكليزيّة "لماذا أسلمتُ" بيّن فيه ما ظهر له من مزايا الإسلام على جميع الأديان، وكان أهمّها عنده أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي له تاريخ صحيح محفوظ...

"**ويَعفُو عن كثيرٍ**" ... (ممّا كنتم تخفونه فلا يفضحكم ببيانه. وهذا النّص حجّة عليهم أيضاً لأنّهم يعلمون أنّهم يُخفُون عن المسلمين وعن عامّتهم كثيراً من المسائل، لئلاً يكون حجّةً عليهم إذ هم لا يعلمون به، كدأب علماء السوء في كلّ أمّة: يكتمون من العلم ما يكون حجّة عليهم، كاشفاً عن سوء حالهم، أو يحرّفونه تحريفاً معنوياً يحمله على غير معناه المراد.

"**قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مُبينٌ**"، (في المراد بالـ"نُور" هنا ثلاثة أقوال: أحدها أنّه النّبيّ، ثانيها أنّه الإسلام، ثالثها أنّه القرآن...

فلولا النور لما أدرك البصر شيئاً من المبصرات. ولولا ما جاء به النّبي مِن القرآن والإسلام لما أدرك ذو البصيرة من أهل الكتاب، ولا من غيرهم، حقيقةَ دين اللّه، وحقيقة ما طرأ على التوراة والإنجيل من ضياع بعضها ونسيانه، وعبْثَ رؤساء الدين بالبعض الآخر بإخفاء بعضه وتحريف البعض الآخر، ولظلّوا في ظلمات الجهل والكفر لا يُبصرون).

سيّد قطب:

" **ومِنَ الَّذينَ قَالُوا: إنَّا نَصَارَى، أَخَذْنا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وسَوفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** " . لقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد اللّه. وهنا كانت نقطة الانحراف الأصيلة في خطّ النصرانيّة التاريخي. وهذا هو الحظّ الذي نسَوهُ ممّا ذُكِّروا به. ونسيانه هو الذي قاد، بعد ذلك، إلى كلّ انحراف؛ كما أنّ نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفِرَق، التي لا تكاد تُعَدّ، في القديم وفي الحديث. وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا اللّهُ سبحانَه أنّه باقٍ فيهم إلى يوم القيامة.. ويبقى جزاء الآخرة عندما يُنبِّئُهم اللّهُ ممّا كانوا يصنعون، وعندما يجزيهم وفْقَ ما ينبِّئُهم به ممّا كانوا يصنعون!

ولقد وقع بين الذين قالوا: "**إنَّا نَصَارَى**" من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصّه اللّه سبحانه في كتابه الصادق الكريم؛ وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسلْ من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كلّه، سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينيّة حول العقيدة، أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينيّة، أو بسبب الخلافات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات، ولم تخمد هذه الحروب والجراحات.. وهي ماضية إلى يوم القيامة، كما قال أصدقُ القائلين، جزاءً على نقضهم ميثاقهم، ونسيانهم حظّاً ممّا ذُكِّروا به من عهد اللّه، وأوّل بندٍ فيه هو بند التوحيد، الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح.

"يَا أهلَ الكتَابِ! قَد جَاءَكمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لكُمْ كَثيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ، ويَعفُو عَن كَثيرٍ"، فهو رسول اللّه إليكم. ودوره معكم أن يبيّن لكم ويوضح ويكشف ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب اللّه الذي معكم.. سواء في ذلك اليهود والنصارى.. وقد أخفى النصارى الأساس الأوّل للدين.. التوحيد.. وأخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة، كرجم الزاني، وتحريم الربا كافّة. كما أخفوا جميعاً خبر بعث النّبيّ الأمّي "الّذي يَجِدونَه مكتُوباً عندَهم في التوراةِ والإنجيل".. كما أنّه (أي محمّد) يعفو عن كثير ممّا أخفوه أو حرّفوه، ممّا لم يردْ به شرعه. فقد نسخ اللّه من أحكام الكتب والشرائع السابقة ما لم يعد له عمل في المجتمع الإنساني، ممّا كانت له وظيفة وقتيّة في المجتمعات الصغيرة الخاصّة، التي بُعث إليها الرسل من قبل ولفترة محدودة من الزمان، قبل أن تجيء الرسالة الشاملة الدائمة، وتستقرّ وقد أكملها اللّه، وأتمّ بها نعمته، ورضيها للناس ديناً، فلم يعد فيها نسخ ولا تبديل ولا تعديل.

محمّد حسين فضل اللّه :

وربّما يستوحي البعض من هذه الآية مسألةَ تحريف الإنجيل، بحيث يكون النسيان كنايةً عن التحريف الذي ينطلق من العصبيّة ضد الفكر الآخر، ممّا يؤدّي إلى تأويل الآيات النازلة التي تؤكّده، أو حذفها أو تحريفها حذراً من الاحتجاج بها عليهم، وذلك من جهة أنّ تاريخَ تدوين الأناجيل المعروفة الآن يوحي بأنّها لم تدوّن في زمن السيّد المسيح؛ بل كتبتْ بعده بمدّة بعيدة بأيدي بعض المسيحيّين. ولهذا اختلف رؤساء الكنيسة فيما بينهم في من كتب الإنجيل، ومتى كُتبتْ، وبأيّة لغة، وكيف فُقدت نسخها الأصليّة، وغير ذلك...

ونلاحظ أنّ الآية ليست ظاهرةً في ذلك -وإنْ كان ذلك حقيقة- لأنّها واردةٌ في مقام الحديث عن الواقع المضاد للالتزام بآيات الإنجيل من خلال إنكار بعض الحقائق والانحراف عن خطّ الاستقامة في الدين.

"فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"، وذلك من خلال المنازعات العقيديّة التي تحوّلت في التاريخ إلى أنهارٍ من الدماء من خلال الحروب المذهبيّة، التي كانت أشدّ قساوة من حروبهم مع غيرهم من أتباع الأديان الأخرى، والمنازعات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تحوّلت إلى أكثر من لونٍ من ألوان الأوضاع المعقدة والآثار السلبيّة على مجمع علاقاتهم مع بعضهم البعض، بحيث لم تعد النصرانيّة موقع وحدة، بل تحرّكت لتكون موقع خلاف يوحي بالتعقيدات النفسيّة والشعوريّة والثقافيّة التي تثير العداوة والبغضاء، لتمتدّ بهم امتداد الزمان إلى يوم القيامة؛ لأنّ المذاهب المختلفة قد تحوّلت إلى ما يشبه الأديان المتنوّعة، ولأنّ الحواجز القوميّة والعرقيّة والإقليميّة والسياسيّة والاقتصاديّة قد أصبحت حواجز واقعيّة في كلّ القضايا والأوضاع.

"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ. قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ":

وهذا نداء إلى أهل الكتاب مُشْبَعٌ بعتابٍ هادئٍ يسجّل الملاحظات بهدوء، ويتحدّث عن أسلوب الرسول في نقد الانحراف ومواجهته. فاليهود كانوا يعملون على إخفاء بعض الحقائقِ الكتابيّة التي تنزلت بها التوراة والإنجيل، ولا سيّما في ما يتعلّق بنبوّة النبيّ

محمّد، والنّبي كان ينبّه المسلمين إلى ذلك، ويبيّن لهم معرفته بخطوط اللعبة التحـريفيّة والتجهيليّة عنـد بعض أهل الكتاب، من خلال إعلان وفضح الوسائل الخـبيثة التي يلجأون إليـها في التضليل من أجل أن يكشف أمرهم للناس، ثمّ يعـرض عنهم بعد ذلك، ويعفو عن كـثيرٍ من التفصيلات الدقيقة في شـؤون العقيدة والتشريع ممّا انحرفوا به عن الخط السليم، لأنّه لا يريد الدخول معهم في جدلٍ عقيم، وهو ألاّ يعمل على الإكثار من تسـجيل النقاط عليهم.. بل كـان همّه -كنبيّ مرسل- أنْ يُفقدَهم الثقـة الاجتماعيّة التي كانوا يستـغلّونها من أجل الحصول على مكاسب مـاديّةٍ طارئة، ويترك الأمـر، بعد ذلك، للظروف المحـيطة بالساحة لتتفاعل القضايا معه في عمليّة كشفٍ وفضْحٍ لكلّ المخططات والأهداف الشريرة.

"**يَا أهلَ الكتَـابِ!** " من اليـهـود والنصـارى! "**قـد جَـاءَكمْ رَسُولُنا**" الذي أرسلناه إلى النـاس كافّـة من أجل بيـان الحـقيـقـة الإيمانيّة لهم -بكلّ تفاصيلها ومفرداته- ليكون لديهم وضوح الرؤية لكلّ ما أوحى به للرسل من قبله، "**يُبَيِّنُ لكُمْ كَـثيراً مِمَّا كُنتُـمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ**" الذي احتفظتم به، ولم تطرحوه للناس ليقرأوه ويتعرّفوا إليه، فلم يعرف الناسُ مـا فيه إلاّ من خلالكم، فأخفيـتم بعض حقائقه ممّا لا يتناسب مع أوضـاعكم ومصالحكم وتأثيـر المتغـيّرات الفكريّة والعمليّة عليكم، فقد كان الرسولُ مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، ولذلك فإنّكم تعرفـونه، كما تعرفون أبناءَكم، ولـكنّكم أنكرتم رسالتَه، وحاربتم دعوته، وقد أنزل في الكتاب طهـارة الأنبياء، وتحريم الخمر والربا، ولكنّكم حللتم ذلك..

(٤٦)

كفر من قال إنّ اللّه هو المسيح

لَقَدْ كَفَرَ الّذينَ قَالُوا إنّ اللّهَ هُوَ المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ. قُلْ: فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئاً إنْ أرَادَ أنْ يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وأمَّهُ، وَمَنْ في الأرْضِ جَميعاً. ولِلّهِ مُلْكُ السّمَواتِ والأرْضِ وما بينَهُما. يَخلُقُ ما يَشاءُ. واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ (سورة المائدة ٥/١٧).

الطبري:

"**لَقَدْ كَفَرَ الّذينَ قَالُوا إنّ اللّهَ هُوَ المَسيحُ ابنُ مريَمَ**" . هذا ذمّ من اللّه للنصارى والنصرانيّة الذين ضلّوا عن سبل السلام، واحتجاج منه لنبيّه محمّد في فريتهم عليه بادّعائهم له ولداً.

"**قُلْ**" (يا محمّد للنصارى الذين افتروا عليّ وضلّوا عن سواء السبيل بقيلهم أنّ اللّه هو المسيح ابن مريم): "**فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئاً**" (أي: مَن الذي يطيق أن يدفع من أمر اللّه شيئاً فيردّه إذا قضاه)، "**إنْ أرَادَ أنْ يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مَريَمَ وأمَّهُ، وَمَنْ في الأرضِ جَميعاً**" (أي: من ذا الذي يقدر أن يردّ من أمر اللّه شيئاً إنْ شاء أن يهلك المسيح ابن مريم بإعدامه من الأرض، وإعدام أمّه مريم، وإعدام جميع من في الأرض من الخلق جميعاً. قل لهؤلاء الجهلة من النصارى: لو كان المسيح، كما يزعمون، هو اللّه، وليس كذلك، لقدر أن يردّ أمر اللّه إذا جاءه بإهلاكه وإهلاك أمّه. وقد أهلكَ أمّه فلم يقدر على دفع أمره فيها إذ نزل ذلك...

"**ولِلّهِ مُلْكُ السّمَواتِ والأرضِ وما بَينَهُما**" . يعني: واللّه له تصريف ما في السموات والأرض وما بينهما. يُهلك من يشاء من ذلك

ويُبقي ما يشاء منه، ويُوجد ما أراد ويُعدم ما أحبّ. لا يمنعه من شيء أراد من ذلك مانع، ولا يدفعه عنه دافع. يُنفذ فيهم حكمَه ويُمضي فيهم قضاءَه. لا المسيح الذي إنْ أراد ربُّه إهلاكَه وإهلاكَ أمّه، لم يملك دفع ما أراد به ربّه من ذلك.

يقول جلّ وعزّ: كيف يكون إلهاً يُعبد مَن كان عاجزاً عن دفع ما أراد به غيره من السوء، وغير قادر على صرف ما نزل به من الهلاك. بل الإله المعبود الذي له ملك كلّ شيء، وبيده تصريف كلّ من في السماء والأرض وما بينهما.

"**يَخلُقُ ما يَشاءُ**" . (أي: ينشئ ما يشاء، ويوجده، ويخرجه من حال العدم إلى حال الوجود. ولن يقدر على ذلك غير اللّه الواحد القهّار... فليس ذلك لأحد سواي. فكيف زعمتم، أيّها الكذبة، أنّ المسيح إله، وهو لا يطيق شيئاً من ذلك. بل لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه، ولا عن أمّه، ولا اجتلاب نفع إليها إلاّ بإذني).

"**واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ**" (أي: ألله المعبود هو القادر على كلّ شيء، والمالك كلّ شيء الذي لا يعجزه شيء أراده، ولا يغلبه شيء طلبه، المقتدر على هلاك المسيح وأمّه ومَن في الأرض جميعاً، لا العاجز الذي لا يقدر على منع نفسه من ضرٍّ نزل به من اللّه، ولا منع أمّه من الهلاك.

الزمخشري:

"**يَخلُقُ ما يَشاءُ**" ، أي يخلق من ذكرٍ وأنثى؛ ويخلق من أنثى من غير ذكر، كما خلق عيسى؛ ويخلق من غير ذكر وأنثى، كما خلق آدم؛ أو يخلق ما يشاء، كخلق الطير على يد عيسى، معجزة له، وكإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك.

الآلوسي:

"**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**". قال الراغب: إنّ أحداً لم يقل: اللّه تعالى هو المسيح، وإنْ قالوا: المسيح هو اللّه تعالى.. يصح أن يقال: ألإنسان هو حيوان. ولا يصحّ أن يقال: ألحيوان هو الإنسان... غير أنّك تستطيع أن تقول: ألكريم زيد، أي حقيقة الكرم في زيد. وعلى هذا قولهم: إنّ اللّه تعالى هو المسيح.

"**يَخْلُقُ ما يَشاءُ**" : تارة يخلق من غير أصل، كخلق السموات والأرض مثلاً؛ وأخرى من أصل، كخلق بعض ما بينهما، وذلك متنوّع أيضاً؛ فطوراً ينشئ مِن أصل ليس من جنسه، كخلق آدم وكثير من الحيوانات؛ وتارة من أصل يجانسه، إمّا من ذَكَرٍ وحدَه، كخلق حوّاء؛ أو من أنثى وحدَها، كخلق عيسى؛ أو منهما، كخلق سائر النّاس. ويخلق بلا توسّط شيء من المخلوقات، ككثير من المخلوقات؛ وقد يخلق بتوسّط مخلوق آخر، كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص. فينبغي أن ينسب كلّ ذلك إليه تعالى، لا مَن أُجري على يده.

محمّد عبده:

"**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**" .. إعلم أنّ أمثال الزمخشري والبيضاوي والرازي لا يعتدّ بما يعرفون عن النصارى. فإنّهم لم يقرأوا كتبهم، ولم يناظروهم فيها وفي عقائدهم إلاّ قليلاً. وإنّما يأخذون ما في كتب المسلمين عنهم قضايا مسلّمة...

... يوجد الآن في نصارى أوربّة، وغيرهم كثير من الموحِّدين، الذين يعتقدون أنّ المسيح نبيّ رسول لا إله. ولعلّه لم يبقَ في

النصارى من يقول بتلك الفلسفة (التثليث)، لأنّهم، في كلّ عصر، يغيّرون في دينهم ما شاؤوا أن يغيّروا في فلسفته. وكان أكبر تغيير حدث بعد هؤلاء المفسّرين مذهب "البروتستانت"، أي إصلاح النصرانيّة. حدث منذ أربع قرون، وصار هو السائد في أعظم الأمم مدنيّة وارتقاءً، كالولايات المتّحدة، وأنكلترّة، وألمانية. نسف هذا المذهب أكثرَ التقاليد والخرافات النصرانيّة التي كانت قبله، ثمّ استبدل بها تقاليد أخرى، فصار عدّة مذاهب في الحقيقة. ومع هذا، ترى هؤلاء المصلحين الذين زعموا أنّهم أعادوا النصرانيّة إلى أصلها، لم يستطيعوا أن يُرجعوها إلى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح وسائر أنبياء بني إسرائيل ورسل الله أجمعين... فجميع فرق نصارى هذا العصر تقول إنّ الله هو المسيح ابن مريم، وأنّ المسيح ابن مريم هو الله. تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً...

ومن غريب تهافت هؤلاء الناس أنّهم قالوا إنّ شرّ نوع من أنواع الإهلاك، وهو الصلب، نزل بالمسيح، الذي هو الكلمة، والله هو الكلمة بزعمهم، ولم يستطع أن يدفعَه من نفسه، وأنّه استغاث بربّه خائفاً وَجِلاً ضارعاً خاضعاً ليصرف عنه ذلك الكأس، فلم يجبْه إلى ما طلب!! وهم يكابرون أنفسهم في دفع هذا التهافت بمثل قولهم: إنّه كان له طبيعتان ومشيئتان: إثنتان منهما إلهيّتان، وإثنتان بشريّتان.

وليت شعري، إذا كان هذا ممكناً فهل يمكن معه أن يجهل المسيح بطبيعته البشريّة طبيعتَه الإلهيّة، فيعترض عليها بمثل قولهم عنه في متّى: "إلهي إلهي لماذا تركتني"[٢]، ويستنجدها غير عالم بما

---

(٢) إنجيل متى ٢٧/٤٦.

يمكن وما لا يمكن لـها بمثل ما قـالوه عنه: " ثمّ تقدّم قليـلاً وخرّ على وجهه وكـان يصلّي قائلاً: يا أبتاه! إنْ أمكن فلتعـبر عنّي هذه الكأس.. إلى أن قال: " فـمضى أيضاً ثانيـة وصلّى قائلاً: إنْ لم يمكن أن تعـبر عنّي هذه الكأس إلاّ أن أشربها فلتكن مـشيئتك "[٣]. وهذا أعظم حجّة عليهم مصدّقة لحجّة القرآن. فإنّ مشيئة الله لا يردّها شيء.

" **ولله مُلْكُ السَّمَوات والأرضِ وما بَيْنَهُما** " . أي: فمن يملك من الله شيئاً إنْ أراد هلاكَ المسيح وأمّه وأهل الأرض قاطـبةً. والحال أنّه هو صاحب الملك المطلق والتـصرف الاستقلالي الكـامل في السموات والأرض وما بينهما.

وهذا الملك والتصرّف ممّا تعترف به النصـارى، ولكنّهم زعموا أنّ صـاحب هذا الملك العظيم والتـصـرّف المطلق والكمـال الأعلى قـد عـرض له، بعد خلقِ آدم -الذي ندم وتأسّـف من كلّ قلبه أنّه خلقَـه- أمرٌ عظيم، وهـو أنّ آدم عصاه. فـاقتضى عـدلُه أن يعذّبه، واقـتضتْ رحمتُه أن لا يعـذّبَه. فوقع التناقض والتعارض بين مقـتضى صفاته. فلم يجد لذلك مـخرجاً يجمع به بين مـقتضى العدل والـرحمة، إلاّ أنّ يحلّ في بطن امـرأةٍ من ذرّيّة آدم، ويتكوّن جنيناً فـيـه، فتلده إنسـاناً كاملاً وإلهاً كاملاً!

ثمّ يعرّض نفـسَه لشرّ قتلة، وهي الصلب، فـداءً لآدم وذرّيته، وجمـعاً بين عـدله بتعذيـب واحدٍ منهم هو وحده البـريء من الذنب، ورحمةِ الآخرين إنْ آمنوا بهذه العقيدة ولو بغير عقل.

---

(٣) إنجيل متى ٢٦/ ٣٩.

ثمّ إنّه لم يتمّ له هذا الجمع، لأنّ أكثر البشر لم يؤمنوا بها! فهو لا بدّ أن يعذّبهم في الآخرة. على أنّه عذّب كثيراً من الناس بمثل ما عذّبه به وبغير ذلك ومنهم المؤمنون بتلك العقيدة. فلماذا لم يكن تعذيبهم في الدنيا فداء لهم؟ وهل هذا هو الجمع بين العدل والرحمة؟!

محمّد حسين فضل الله :

ليس الكفر -في مفهوم القرآن- أن تُنكر وجودَ اللّه كمبدأ فحسب، بل قد تحقّق بالانحراف في التصوّر، كمن يؤمن بوجود اللّه، ولكنّه يعتقد تجسّده في شخصيّة بشر؛ لأنّ الصورة التي في ذهنه ليست هي اللّه، بل غيره، فيكون الإيمان بها إيماناً بغير اللّه حقيقة.. مثل هذا الاتّجاه في تصوّر اللّه -كجسم- يشبه أن يكون كفراً، أو هو الكفر بعينه.

وعلى هذا الأساس، أطلق القرآن على النصارى الذين قالوا: "**إنّ اللّهَ هُوَ المسيحُ ابنُ مَريمَ**" صفةَ الكفّار، مهما كانت الأساليب التي اتّبعوها في صياغة هذه العقيدة.

ثمّ ناقشهم ببساطة الفكر وعفويّته: فإذا كان المسيح هو اللّه، فكيف عجز عن الدفاع عن نفسه، مع أنّ طبيعة الألوهيّة تفرض القدرة المطلقة؟! والمسيح لم يستطع دفْعَ الموت عن نفسه وعن أمّه عندما أراد اللّهُ إهلاكَه، -على فرْض أنّه مات كما يعتقد النصارى- وبذلك لم يعد هناك أيّ فرْق بينه وبين كلّ مَن في الأرض الذين يموتون بإرادة اللّه من دون أن يتمكّنوا من الدفاع عن أنفسهم، مهما كانت وسائل الدفاع التي يملكونها، وليس ذلك إلاّ انطلاقاً من الحقيقة التي تؤكّد أنّ للّه ملْك السموات والأرض وما بينهما، فكلّ ما فيهما، ومَن فيهما، ملْك للّه، فكيف يمكن نأن يدفعوا عن أنفسهم قدَرَ اللّه وقضاءَه؟ فهو الذي

يخلق ما يشاء ويتصرّف في خلقه بما يشاء، من خلال القدرة المطلقة على كلّ شيء، مهما كان كبيراً وعظيماً.

"**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**" فإنّ اللّه لا يمكن أن يتجسّد في أيّ بشرٍ مهما كانت صفته، لأنّه مخلوقٌ للّه خاضعٌ لما يخضع له أيّ مخلوق في نقاط ضعفه، ممّا يمتنع عليه في ذاته أن يتّصف بصفات الألوهيّة فضلاً عن أن يكون هو اللّه، مهما كانت الصورة التي صوّرنا بها هذه الوحدة بين اللّه والمسيح التي تتحوّلت إلى عقيدةٍ شاملةٍ للنصارى في تعبيراتهم الحاليّة مثل قولهم: «ربّنا يسوع المسيح» مع التزامهم بالتثليث الذي لا يعتبرونه تثليثاً مادّيّاً بالمعنى العددي المنفصل. وهذا ما لم يقم عليه دليل إلاّ بما يتصورونه من تفسير الإنجيل..

ولمّا كانت هذه العقيدة بعيدةً عن معنى اللّه في وحدانيّته ذاته بحيث لا تقبل التجسّد والتماثل في أيّ مخلوقٍ أو أيّ بشرٍ، اعتبرها القرآن كفراً وجحوداً بالحقيقة الإلهيّة، تماماً كما لو كانت المسألة الاعتقاد بإله غير اللّه، لأنّ للتصوّر دوره في تأصيل تفكرة اللّه في وجدان المؤمن..

وربّما كان انتماء المسيح إلى مريم في الحديث عن الموضوع، بعض الإشارة إلى أنّ هذه البنوّة والأمومة تعني خضوعه لما يخضع له المخلوق من مرحلة الجنينيّة في الحمل ومرحلة الولادة وما يستتبع ذلك من حاجته إلى النموّ واستقراره في محيط صغير وهو الرحم، وتعرّضه للتحوّلات التي ينتقل بها من حالةٍ إلى حالة، وللحاجات الجسديّة الطبيعيّة، كالغذاء ونحوه، ممّا لا يتناسب مع معنى الألوهيّة، فكيف تلتقي مع القول بأنّه هو اللّه؟

(٤٧)

جاء محمّد اليهودَ والنصارى بشيراً ونذيراً

وقَالتِ اليَهـودُ والنَّصَارى: نحـنُ أبناءُ اللّهِ وأحِبَّـاؤُهُ. قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكمْ بذنُوبِكم؟ بل أنتمْ بشرٌ ممَّنْ خَلَقَ. يَغْـفِرُ لِمَن يشـاءُ، ويُعذِّبُ مَن يشاء. وللّهِ مُلْكُ السّـموات والأرضِ وما بينَهما. وإليـهِ المصيرُ. يا أهلَ الكتاب! قد جاءكمْ رسولُنا يُبيِّنُ لكمْ على فَتْرَةٍ من الرُّسُلِ أنْ تَقُولوا ما جـاءَنا من بشيـرٍ ولا نذيرٍ. فقـد جَاءَكـم بشيـرٌ ونذيرٌ. واللّهُ على كلِّ شيءٍ قدير (سورة المائدة ٥/١٨-١٩).

الطبري:

"**وقالتِ اليهودُ والنصارى: نحنُ أبناءُ اللّهِ وأحبّاؤه**". (عن ابن عبّاس قـال: أتى رسولَ اللّه يهودٌ، فكلّموه، فكلّمـهم ودعاهم إلى اللّه، وحذّرهم نقـمته، فقالـوا: "ما تُخوّفنا، يا محـمّد! نحن والله أبناء اللّه وأحبّاؤه! كقول النصارى. فأنزل الآية...

يقول اللّه لنبيّه محمّد "**قُلْ**" لهؤلاء الكذبة المفترين على ربّهم: "**فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ**" ربُّكم بذنوبكم، إن كان الأمـر كما زعـمتم أنّكم أبناؤه وأحبّاؤه؟ فإنّ الحبيب لا يعذِّب حبيبه، وأنتم مقرُّون أنّه معذّبكم؟..

"**يا أهلَ الكتاب! قـد جاءكمْ رسولُـنا يُبيِّنُ لكمْ**"، أي: يعرّفكم الحقَّ، ويوضـح لكم أعـلام الهدى، ويرشـدكم إلى دين اللّه المرتضى.. جاءكم بـالفرقان الذي فـرق اللّهُ به بين الحقّ والبـاطل، فيه بيـان اللّه ونوره وهداه، وعصمةٌ لمن أخذ به.

"**على فَـتْـرَةٍ من الرُّسُلِ**"، أي: انقطاع مـن الرسل، أو هدأة وسكون، أي: سكون مجيء الرسل، وذلك انقطاعها.

"**أنْ تَقُولوا**" (أي: لا تقولوا، وكـي لا تقولوا) **ما جـاءَنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ. فقد جَاءَكم بشيرٌ ونذيرٌ. واللّهُ على كلِّ شيءٍ قدير**".

الرازي:

"**وقالتِ اليـهودُ والنصارى: نحنُ أبناءُ اللّهِ وأحبّاؤه**". وفيه سـؤال: وهو أنّ اليهـود لا يقـولون ذلك البتـة، فكيف يجـوز نقل هذا القول عنهم؟ وأمّا النصارى فـإنّهم يقولون ذلك في حقّ عيسى لا في حقّ أنفسـهم، فكيف يجوز هذا النقل عنهم؟

أجاب المفسِّرون عنه من وجوه:

الأوّل: أنّ هذا من باب حـذْف المضـاف. والتـقـدير: نحن أبناء رسل اللّه، فأُضيف إلى اللّه ما هو في الحقـيقة مضاف إلى رسل اللّه، ونظيره قوله: "إنّ الذينَ يُبَايِعُونَكَ إنّما يُبَايِعُونَ اللّه" (٤٨/ ١٠).

الثاني: أنّ لفظ الابن، كـما يُطلق علـى ابن الصلْب، فقـد يُطلق أيضاً على من يُتّخذ ابناً، واتّخاذه ابناً بمعنى تخصيصه بمزيد الشفقة والمحبّة. فالقوم، لمّا ادّعـوا أنّ عناية اللّه بهم أشدّ وأكمل من عنايته بكلّ ما سـواهم، لا جرم عـبّر اللّهُ عن دعـواهم كمـال عناية اللّه بهم بأنّهم ادّعوا أنّهم أبناء اللّه.

الثالث: أنّ اليـهود، لمّا زعـموا أنّ عُـزَيراً ابن اللّه، والنصـارى زعمـوا أنّ المسيحَ ابن اللّـه، ثمّ زعموا أنّ عُـزَيراً والمسيح كـانا منهم، صـار ذلك كـأنّهم قـالوا نحن أبنـاء اللّه. ألا ترى أنّ أقـارب المَلِك، إذا فاخـروا إنساناً آخر، فـقد يقولون: نحن ملوكُ الدنيـا، ونحن سلاطينُ العالم. وغرضُـهم منه كونهم مختـصّين بذلك الشخص الذي هو المَلِك والسلطان. فكذا هـهنا.

والرابع: قال ابن عبّاس: إنّ النّبيّ دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام وخوّفهم بعقاب اللّه، فقالوا: كيف تخوّفنا بعقاب اللّه ونحن أبناء اللّه وأحبّاؤه! فهذه الرواية إنّما وقعت عن تلك الطائفة؛ وأمّا النصارى فإنّهم يتلون في الإنجيل الذي لهم أنّ المسيح قال لهم: أذهبُ إلى أبي وأبيكم.

وجملة الكلام أنّ اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلاً على سائر الخلق بسبب أسلافهم الأفاضل من الأنبياء حتّى انتهو في تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا: "**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**".

"**قلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكمْ بذنوبكمْ**"؟ يعني: أنّهم، لو كانوا أبناء اللّه وأحبّاءه، لَما عذّبهم؛ لكنّه عذّبهم. فهم ليسوا أبناء اللّه ولا أحبّاءه. والإشكال عليه أن يقال: إمّا أن تدّعوا أنّ اللّه عذّبهم في الدنيا، أو تدّعوا أنّه سيعذّبهم في الآخرة. فإنْ كان موضع الإلزام عذاب الدنيا، فهذا لا يقدح في ادّعائهم كونهم أحبّاء اللّه، لأنّ محمّداً كان يدّعي أنّه هو وأمّته أحباء اللّه، ثمّ إنّهم ما خلوا عن محن الدنيا. أنظروا إلى وقعة أُحُد، وإلى قتْل الحَسَن والحُسَين. وإنْ كان موضع الإلزام هو أنّه تعالى سيعذّبهم في الآخرة، فالقوم ينكرون ذلك. ومجرّد إخبار محمّد ليس بكافٍ في هذا الباب. إذ لو كان كافياً لكان مجرّد إخباره بأنّهم كذّبوا في ادّعائهم أنّهم أحبّاء اللّه كافياً، وحينئذٍ يصير هذا الاستدلال ضائعاً... وقد يكون موضع الإلزام عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة معاً.

ثمّ قال: "**بل أنتمْ بشرٌ ممّنْ خَلَقَ. يَغفِرُ لِمَن يشاءُ، ويُعذِّبُ مَن يشاء**"، يعني: أنّه ليس لأحد عليه حقّ يوجب عليه أن يغفر له. وليس لأحد عليه حقّ يمنعه من أن يعذّبه. بل المَلِكُ له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

قوله تعالى: "**يا أهلَ الكتاب! قد جاءكمْ رسولُنا يُبيِّنُ لكم**"، الدِّين والشرائعَ، أو ما كنتم تُخفون، **على فَتْرَةٍ من الرُّسُلِ**، أي على انقطاعٍ من الأنبياء بين عيسى ومحمّد.

والفائدة في بعثة محمّد عند فترة من الرسل هي أنّ التغيير والتحريف قد تطرّقا إلى الشرائع المتقدّمة لتقادم عهدها وطول زمانها. وبسبب ذلك اختلط الحقّ بالباطل، والصدق بالكذب، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات، لأنّ لهم أن يقولوا: يا إلهنا! عَرَفنا أنّه لا بدّ من عبادتك، ولكنّا ما عَرَفنا كيف نعبد. فبعث اللّه تعالى في هذا الوقت محمّداً، إزالةً لهذا العذر، وهو "**أنْ تقولوا ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ**". ثمّ قال تعالى: "**فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ**"، فزالتْ هذه العلّة، وارتفع هذا العذْر.

ثمّ قال: "**واللّهُ على كلِّ شيءٍ قَدير**"، أي: إنّ حصول الفترة يوجب احتياج الخلق إلى بعثة الرسل، واللّه قادر على كلّ شيء. فكان قادراً على البعثة. ولمّا كان الخلق محتاجين إلى البعثة، والرحيم الكريم قادراً على البعثة، وجب، في كرمه ورحمته، أن يَبعث الرسلَ إليهم.

الطبرسي:

"**وقالتِ اليهودُ والنصارى: نحنُ أبناءُ اللّهِ وأحبّاؤه**". قيل: أنّ اليهود قالوا نحن في القرب من اللّه بمنزلة الابن من أبيه. والنصارى، لمّا قالوا للمسيح إبن اللّه، جعلوا نفوسهم أبناء اللّه وأحبّاءه، لأنّهم تأوّلوا ما في الإنجيل من قول المسيح: أذهبُ إلى أبي وأبيكم.."

ثمّ قال تعالى لنبيّه محمّد: "**قلْ**" لهؤلاء المفترين على ربّهم: "**فَلِمَ يُعَذِّبُكمْ بذنوبكمْ**"؟ أي: فلأيّ شيء يعذّبكم بذنوبكم إنْ كان

الأمر على ما زعمتم؟ فإنّ الأب يشفق على ولده والحبيب على حبيبه، فلا يعذّبه. وهم يقرّون بأنّهم يُعذَّبون، لأنّهم، لو لم يقولوا به، كّذبوا كتابهم. وقد أقرّت اليهود بأنّهم يُعذَّبون أربعين يوماً عدد الأيّام التي عبدوا فيها العجل.. وعذّبكم بأنْ جعل منكم القردة والخنازير، وخلّى بينكم وبين بختنصر، حتّى فعل بكم ما فعل. والحبيب لا يعذّب حبيبَه.

فلو كنتم أحبّاءه لَمَا عذّبكم. "**بل أنتمْ بشرٌ ممّنْ خَلَقَ**"، أي: ليس الأمر، على ما قلتم، أنّكم أبناء اللّه وأحبّاؤه، بل أنتم خلق من بني آدم، إنْ أحسَنتم جوزيتم على إحسانكم، وإنْ أسأتم جوزيتم على إساءتكم، كما يجازي غيركم. وليس لكم عند اللّه إلاّ ما لغيركم من خلقه...

الآلوسي:

"**وقالتِ اليهودُ والنصارى: نحنُ أبناءُ اللّهِ وأحبّاؤه**"، أي قال كلّ من الطائفتَين هذا القول الباطل، ومرادهم بالأبناء المقرّبون، أي: نحن مقرّبون عند اللّه تعالى قرب الأولاد من والدهم.

فردّ سبحانه عليهم ذلك، وقال لرسول اللّه: "**قلْ**" إلزاماً لهم وتبكيتاً: "**فَلِمَ يُعَذِّبُكمْ بذنوبكم**"؟ أي: إنْ صحّ ما زعمتم فلأيّ شيء يعذّبكم يوم القيامة بالنار أيّاماً بعدد أيّام عبادتكم العجل.. وهذا ينافي دعواكم القرب ومحبّة اللّه تعالى لكم، أو محبّتكم له المستلزمة لمحبّته لكم.. أو فلأي شيء أذنبتم بدليل أنّكم ستعذّبون، و"أبناء اللّه" إنّما يُطلق إنْ أطلق في مقام الافتخار على المطيعين كما نطقت به كتبكم. أو إنْ صحّ ما زعمتم فلِمَ عذّبكم بالمسيح الذي لا يسعكم إنكاره؟ وعدّ بعضهم من العذاب البلايا والمحن كالقتل والأسر.. وقوله تعالى: "**بل أنتمْ بشرٌ**"، أي: ليس الأمر كذلك، بل أنتم بشر...

محمّد عبده:

" **قلْ فَلِمَ يُعَـذِّبُكمْ بذنوبِكم؟ بل أنتمْ بشـرٌ ممَّنْ خَلَقَ. يَغفِـرُ لِمَن يشاءُ، ويُعذِّبُ مَن يشاء** "، أي: قل لهم أيّها الرسول: إذا كان الأمر كما زعمـتم فلِمَ يعـذّبكم اللّه تعالى بـذنوبكم في الدنيا كـما تعلمـون من تاريخكم الماضي، وكما ترون في تاريخكم الحـاضر. ومن هذا العذاب لليهود ما كان من تخريب الوثنيّين لمسجدهم الأكبر، ولبلدهم المرّة بعد المرّة، ومن إزالة ملكهم من الأرض؛ وللنصارى مـا اضطهدهم به الأمم ومـا نكل به بعضـهم ببـعض. وهو شرّ من تنكيلـهم وتنكيل الوثنيّين باليهـود، أي أنّ الأب لا يعذّب ابنه والمحبّ لا يعذّب حـبيبـه، فلستم إذاً أبناء للّه ولا أحبّـاءه، بل أنتم بشر من جـملة مَن خلَقَ اللّهُ، وهو الحكَم العدْل لا يـحابي أحداً، وإنّـما يغفـر لمن يعلم أنّه مـستـحقّ للمغـفرة، ويعذّب من يعـلم أنّه مستـحقّ للعذاب، فـهو يجزيكم بأعـمالكم، كـما يجزي سائر البشر أمثـالكم، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم، فإنّما العبرة بالإيمـان الصحيح والأعمال الصالحات، لا بمن سلف من الآباء والأمّهات.

والنصارى فـقد أربوا على اليهود في الغـرور، وإنْ كان النّبي الذي يدعون اتّباعَه قـد جاهد غرور اليهود جهاداً عظيـماً، فهم يدعون أنّ المسيح قـد فداهم بنفـسه، وأنّهم أبناء اللّه بولادة الـروح، والمسيح ابنه الحقيقي، ويخاطبون اللّه تعالى دائماً بلقب الأب. وقد كانت جميع فرقـهم في زمن بعثة النّبي أشـدّ من اليهود فسـاداً وإفساداً وفسـقاً وفـجوراً وظلمـاً وعـدواناً، بشـهادة مـؤرّخي الأمم كلّهـا منهم ومن غيرهم. ومع هذا كلّه كانوا يدعون أنّـهم أبناء اللّه وأحبّاؤه، وأنّهم غير محتـاجين إلى إصلاح في دينهم ولا دنياهم. ولهذا رفضـوا ما دعاهم إليـه النّبيّ من التوحـيد الخـالص والفضـائل الصحـيحـة والأعمـال

الصالحة، وردّوا ما جاءهم به من كون مـرضاة اللّه تعالى ومثوبته لا تنالان إلاّ بتزكية النفس وإصلاحها بالتوحيد والعمل.

هذا حاصل ما كان عليه اليـهود والنصارى من الغرور بدينهم وبأنفسهم وبأنبيائهم الذين تركوا هديهم وضلّوا طريقهم.

وحاصل ردّه عليـهم: أنّكم من نوع البشـر الذي هو من جنس مخـلوقات اللّه تعـالى، وأنّه ليس لكم ولا لغيـركم من طوائف البـشر امتياز ذاتي خاص ولا نسبة ذاتيّة إليه تعالى، لأنّ جميع خلقه بالنسبة إليه سواء... فإذا كـان لكم إمتياز ذاتي على جميع البـشر فلِمَ يعذّبكم بذنوبكم في هذه الدنيـا كما يعـذّب غيركم بذنوبهم؟.. فـلو كانوا أبناء اللّه وأحبـاؤه ولو مجـازاً.. لما حلّ بهم ما حلّ بغيـرهم. أو لم تكن لهم ذنوب يعذّبون بها كما قال يوحنا[٤].

ثمّ إنّ الجـزاء إنّـمـا يكون على الأعـمـال، لا على الأسـمـاء والألقـاب.. فتكون ذنوبهم التي يعـاقبـون بها مـوعظة يتّعظون بـها، وتمحـيصـاً يكمل نفـوسهم بالعـبر ويعـلي شأنهـا، وأن يكونوا من المتّـقين.. وبهذا يكونون من أحـبّاء اللّه، ويكون مـا حلّ بهم من قبـيل تربيـة الوالد لولده، ولا يحسـن أن يسمّى تعـذيباً، لأنّ مـرارة الدواء الذي يشفيك من السقم، ليس كالسوط الذي لا يصيبك منه إلاّ الألم...

محمّد حسين فضل اللّه :

يزعم اليهود والنصارى أنّهم أولياء اللّه وأحبّاؤه، وأنّهم شعب اللّهِ المختـار، وأنّهم أقرب النّاس إليه من دون غيـرهم، وأنّ الآخرة لهم

---

(٤) أنظر ١ يوحنّا ٣/٩.

وحدهم. ويثير القرآن هذه النقطة المتأصّلة في تفكيرهم، واضعاً إيّاها على طاولة النقاش الهادئ، فيُطالبهم، أوّلاً، بالبرهان على صدق دعواهم هذه، ويؤكّد، ثانياً، على المقياس الذي جعله اللّه أساساً للقرب والبعد عنه، وبالتالي لغضبه ورضاه، وذلك بالعمل بأوامره، وترك نواهيه، من دون فرق بين اليهود والنصارى وغيرهم، فليس للّه أيّة علاقة خاصّة بأيّ أحدٍ من خلقه، بل النّاس كلّهم عبيد له لا يفضّل إنساناً على إنسان إلاّ بالتقوى والعمل الصالح، مهما كانت درجته أو كان نسبُه.

(٤٨)

عيسى والإنجيل يصدّقان التوراة

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بينَ يَدَيهِ منَ التوراةِ. وآتَيناهُ الإنجيلَ، فيهِ هُدًى ونورٌ. ومُصَدِّقاً لِما بَينَ يديهِ منَ التَّوراةِ. وهُدًى وموعظةً للمُتَّقِينَ (سورة المائدة ٥/٤٦).

الطبري:

وَقَفَّيْنَا (أي وأتبعنا) **عَلَى آثَارِهِم** (أي النّبيّين) **بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ** (الذي بعثناه نبيّاً) **مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَيه** (أي: لكتابنا الذي أنزلناه إلى موسى من قبله)، **وَآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ فِيهِ هُدًى**، (من الضلالة)، **وَنُورٌ**، (أي: وضياء من عمى الجهالة)، **وَمُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يدَيهِ مِنَ التَّوراةِ** (أي: لما فيها من الأحكام)، **وَهُدًى وَمَوعِظَةً لِلمُتَّقِينَ** (الذين يخافون اللّه).

الرازي:

معنى كون عيسى مصدّقاً للتوراة أنّه أقرّ بأنّه كتاب منزل من عند اللّه، وأنّه كان حقّاً واجب العمل به قبل ورود النسخ..

سؤال: لِمَ كرّر قوله: "وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ"؟ ألجواب: ليس فيه تكرار، لأنّ في الأوّل أنّ المسيح يصدّق التوراة، وفي الثاني ألإنجيل يصدّق التوراة.

ثمّ إنّه تعالى وصف الإنجيل بصفات خمس، فقال: "فيه **هدًى، ونور، ومصدِّقاً** لما بين يديه من التوراة، **وهدًى، وموعظة** للمتّقين".. ألإنجيل **هدًى** بمعنى أنّه اشتمل على الدلائل الدالّة على التوحيد والتنزيه، وبراءة اللّه تعالى عن الصاحبة والولد والمثل والضدّ، على النبوّة وعلى المعاد.. وأمّا كونه **نوراً**، فالمراد به كونه بياناً للأحكام الشرعيّة ولتفاصيل التكاليف. وأمّا كونه **مصدِّقاً** لما بين يديه، فيمكن حمله على كونه مبشِّراً بمبعث محمّد وبمقدمه. وأمّا كونه **هدًى** مرّة أخرى فلأنّ اشتماله على البشارة بمجيء محمّد سبب لاهتداء الناس إلى نبوّة محمّد.. وأمّا كونه **موعظة** فلاشتمال الإنجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكّدة. وإنّما خصّها بـ**المتّقين** لأنّهم هم الذين ينتفعون بها.

محمّد عبده:

... والحكمة في هذا النوع من الهدى والموعظة فقهُ أسرار الشريعة، ومعرفة حكمتها، والمقصد منها، والعلم بأنّ، وراء تلك التوراة وهذا الإنجيل، هداية أتمّ وأكمل، وديناً أعم وأشمل. وهو الذي يجيء به النّبيّ الأخير "البارقليط" الأعظم. ولولا زلزال الإنجيل، في

جملته، لتلك التقاليد، وزعزعته لذلك الغرور، وأنسُ الناس بما حُفِظ من تعاليمه عدّة قرون، لَمّا انتشر الإسلام بين أهل الكتاب في سورية ومصر وبين النّهرَين بتلك السرعة.

محمّد حسين فضل اللّه :

"**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابنِ مَريَمَ**" الذي جاء ليكمّل المسيرة الرساليّة في خطّ الرسالات الإلهيّة، لا ليهدم الخطّ الذي سار عليه الرسل، لا سيّما موسى الذي جاء بالتوراة وحياً من اللّه، فكان "**مُصَدِّقاً لِمَا بينَ يَدَيه منَ التوراةِ**" فأكّد للنّاس أنّها الحقيقة الإلهيّة التي لا بدّ لهم من أن يؤمنوا بها ويلتزموها في أفكارهم وشرائعهم، لأنّها كتاب اللّه الذي «لا يأتيهِ الباطلُ مِن بينِ يدَيه ولا مِن خَلْفِهِ» (٤١/٤٢).

وهكذا كانت النبوّات تتتابع ليصدق بعضها بعضاً، تأكيداً لتآخي الرسل والرسالات، لأنّ النّور لا ينقلب إلى ظلمة، ولأنّ الهدى لا يتحوّل إلى ضلال.

"**وآتَيناهُ الإنجيلَ**" الذي أنزلناه على عيسى، "**فيهِ هُدًى**" ممّا يرفع عن الناس غشاوة الضلال، ويفتح لهم آفاق الهدى، "**ونورٌ**" يضيء لهم ظلمات الطريق، فلا يترك مشكلةً إلاّ ولها حلّ عنده، ولا شبهة إلاّ ولها مزيل لديه. وهكذا رأينا التوراة الرساليّة تشمل الكتب الإلهيّة، فالتوراة نور والإنجيل نور والقرآن نور.

"**ومُصَدِّقاً لِما بَينَ يديهِ منَ التَّوراةِ**" وهكذا كان الإنجيل مصدِّقاً بالتوراة، كما كان عيسى مصدِّقاً بها، فالتقى الرسول بالرسالة في هذا الجانب، وربّما كان في التكرير إشارة إلى أنّ

الإنجيل تابع لشريعة التوراة، فلم يكن في الإنجيل إلاّ الإمضاء لشريعة التوراة والدعوة إليها..

"**وهُدًى**" يهدي به اللّه من اتبعه إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم، "**وموعظةً للمُتّقِينَ**"، تليّن القلب بذكر اللّه، وترقّق الشعور بآياته، وتفتح العقل على آفاق القرب منه، فتدفع الناس إلى الطاعة، وتبعدهم عن المعصية، وتقرّبهم منه، وتبعدهم عن الشيطان.

(٤٩)

ليحكم أهل الإنجيل بما فيه عن مجيء محمّد

وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنْزَلَ اللّهُ فيهِ وَمَن لمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللّهُ فأولئكَ هُمُ الفاسِقُونَ (سورة المائدة ٥/٤٧).

الطبري:

يقول: جوّز المفسّرون قراءة "**وَلْيَحْكُمْ**" بقراءة ثانية: "**وَلِيَحْكُمَ**". إنّهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى. فبأيّ ذلك قرأ قارئ فمصيبٌ فيه الصواب.

إذا قرئ بكسر "اللاّم" يكون المعنى: وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل، فيه هدى ونور، ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظة للمتّقين، وكي يحكم أهلُ الإنجيل بما أنزلنا فيه، فبدّلوا حكمَه وخالفوه، فضلّوا بخلافهم إيّاه، إذ لم يحكموا بما أنزل اللّه فيه وخالفوه. "**فأولئكَ هُمُ الفاسِقون**"، أي الخارجون عن أمر اللّه فيه، المخالفون له فيما أمرهم ونهاهم في كتابه.

وإذا قرئ بتسكين "اللاَّم" فتأيله: وآتينا عيسى الإنجيل، فيه هدى ونور، ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة، وأمَرْنا أهلَه أن يحكموا بما أنزلنا فيه، فلم يُطيعونا في أمْرنا إيَّاهم بما أمرناهم به فيه. ولكنّهم خالفوا أمْرَنا. فالذين خالفوا أمرنا الذي أمرناهم به فيه، "**هُمُ الفَاسِقون**"، أي الكافرون.

الرازي:

يقول: فإنْ قيل: كيف جاز أن يُؤمَروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن؟ قلنا: ألجواب عنه من وجوه: **الأوّل:** إنّ المراد ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل اللّه فيه من الدلائل الدالّة على نبوّة محمّد. **والثاني:** "وليحكم أهل الإنجيل بما أنزلَ اللّه فيه"، ممّا لم يصر منسوخاً بالقرآن. **والثالث:** ألمراد به زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره مثل ما فعله اليهود من إخفاء أحكام التوراة.

فالمعنى بقوله: "**وَلْيَحْكُمْ**"، أي وليقرّ أهلُ الإنجيل بما أنزل اللّه فيه على الوجه الذي أنزله اللّه فيه من غير تحريف ولا تبديل.

القرطبي:

"**وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنْزَلَ اللّهُ فيهِ**"، أي في ذلك الوقت؛ فأمّا الآن فهو منسوخ. وهذا أمرٌ للنصارى الآن بالإيمان بمحمّد. فإنّ في الإنجيل وجوب الإيمان به. والنسخ إنّما يتصوّر في الفروع لا في الأصول.

أبو حيّان الأندلسي:

والمعنى: وليقرأه أهل الإنجيل على الوجه الذي أُنزِل، لا يغيّرونه ولا يبدّلونه.

الآلوسي:

" **وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيـلِ بما أنْزَلَ اللّهُ فيهِ** " . أمرٌ مبـتدأ لهم بأن يحكمـوا ويعملوا بما فـيه من الأمـور التي من جملتـها دلائل رسـالة محمّـد، وما قـرّرته شريعـته الـشريفـة من أحكامه. وأمّـا الأحكام المنسوخـة فليس الحكم بها حكمـا بما أنزل اللّه، بل هو إبطال وتعطيل له، إذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقـت العمل بها، لأنّ شهادته بصحّة ما ينسخـها من الشريعة الأحمـديّة شاهدة بنسخهـا، وأنّ أحكامه ما قرّرته تلك الشريعة التي تشهد بصحّتها..

" **وَمَن لمْ يَحْكُمْ بمـا أنْزَلَ اللّهُ فـأولَئكَ هُمُ الفـاسِـقُـونَ** "، أي المتمرّدون الخارجون عن حكمه، أو عن الإيمان.

والآية تدلّ على أنّ الإنجيل مشتـمل على الأحكام، وأنّ عيسى كان مـستـقلاً بالشـرع، مأموراً بالعـمل بما فيـه من الأحكام قلّتْ أو كثرتْ..

في هذه المناسبـة يذكر الألوسي قولاً للشـهرستـاني، نجد له مكاناً هنا. قال: " في الملل والنحل للشـهرستاني، جمـيع بني إسرائيل كـانوا متـعـبّـدين بشريـعة مـوسى، مكلّفين التـزام أحكام التـوراة؛ والإنجيل النازل على المسـيح لا يحتضن أحكاماً، ولا يسـتبطن حلالاً وحـراماً، ولكنّه رمـوز وأمـثال ومـواعظ، ومـا سواها من الشـرائع والأحكام محال على التوراة. ولهذا لم تكن اليهود لتنقاد لعيسى "..

القاسمي:

" **وَلْيَحْكُـمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنْزَلَ اللّهُ فـيه** ". قال: " قال بعض المحقّقين: وإنّمـا خصّ أهلَ الإنجيل بالذكر، لبيـان أنّ الإنجيل لم ينزّله

اللّه للأمم كافّةً، وأنّ شريعته ليست باقـيةً لكلّ زمان، لأنّ بعثة عيسى كانت خاصّة بالأمّة اليهوديّة.

ومع هذا، وإنْ نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، فليست مختصّة بهم. بل هي عامّة لكلّ من لم يحكم بما أنزل اللّه، إعـتباراً بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب. ويدخل فيه السبب دخولاً أوّلياً..

الطباطبائي:

وقد أنزل فيـه تصديق التوراة في شرائعها إلاّ مـا استثني من الأحكام المنسـوخة التي ذكرت في الإنجـيل النازل على عيسى، فإنّ الإنجيل لمّا صـدّق التوراة في ما شرّعـتْه، وأحلّ بعض ما حرّم فـيها، كان العمل بما في التوراة في غير ما أحلّها الإنجيل من المحرّمات عملاً بما أنزل اللّه في الإنجيل وهو ظاهر.

محمّد حسين فضل اللّه :

قد أثار المفسِّرون حـديثاً أنّ الآية لا تأمر أهـلَ الإنجيل –وهم النصارى– أن يواصلوا العمل بأحكام الإنجيل في عصر الإسلام؛ لأنّ ذلك مناقض لآيات القرآن الأخـرى، ولوجود القرآن نفـسه الذي أعلن نسْخَ الدين القديم بالإسلام.

ولذلك فإنّ المراد –حسب قولهـم– أنّ الآية تتحدّث عن مرحلة نزول الإنجيل، فقد أمر اللّه الناس آنذاك أن يعملوا به وأن يحكّموه في جميع قضاياهم. ولهذا قالوا: «وقلنا: وليحكم أهل الإنجيل... إلخ».

وليس من المعلوم أنّ الإنجـيل قـد تعـرّض للنسخ في آياته، لا سيّـما أنّ مضـمونه ليس مـتضمّناً للشـريعة المفـصّلة، بل هو أخلاقٌ ومبـادئٌ وقيمٌ عـامّةٌ في البعـد الروحي والإنساني، فـلا مانع من أن

يتوجّه القرآن إليهم بالحكم بما في الإنجيل، لأنّه يلتقي بالحكم بما في القرآن، الأمر الذي يشدّهم -من مواقع اللقاء- إلى ما في القرآن على أساس "الكلمة السواء". والله أعلم.

(٥٠)

على محمّد أن يحكم بين أهل الكتاب

وأنْزَلْنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصَدِّقاً لِما بينَ يدَيهِ من الكِتاب، ومُهَيْمِناً عليهِ. فاحْكُمْ بَينَهم بما أنزَلَ اللّهُ. ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهمْ عمّا جاءَكَ منَ الحَقِّ. لكلٍّ جَعَلْنا منكمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً. ولو شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً. ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ. فاسْتَبِقُوا الخَيراتِ إلى اللّهِ مَرجِعُكُمْ جميعاً فيُنَبِّئُكُمْ بما كُنتُمْ فيهِ تَختَلِفُونَ (س. المائدة ٥/٤٨).

الطبري:

"**وأنْزَلْنا إليكَ الكتابَ** (أيث القرآن) **بالحقِّ مُصَدِّقاً لِما بينَ يدَيهِ من الكِتاب** (أي: بالصدق ولا كذب فيه، ولا شكّ أنّه من عند اللّه.. ثم يقول: أنزلناه بتصديقِ ما قبله من كتب اللّه التي أنزلها إلى أنبيائه)، "**ومُهَيْمِناً عليهِ**" (أي شهيداً عليها أنّها حقّ من عند اللّه، أميناً عليها، حافظاً لها).

"**فاحْكُمْ بَينَهم بما أنزَلَ اللّهُ. ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهمْ عمّا جاءَكَ منَ الحَقِّ**". قال: وهذا أمرٌ من اللّه لنبيِّه محمّد أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزله إليه، وهو القرآن الذي خصّه بشريعته.

" **لكلٍّ جَعَلْنا مـنكمْ شِرْعَةً ومِنْهـاجاً** ". قال: "**لكلٍّ**"، أي لأهل الملل المخـتلفة؛ أو أيضاً مـلّة الإسلام. و "**الشـرعة**" هي "الشـريعة" بعينها.. وأمّا "**المنهاج**" فإنّ أصله: الطريق البـيِّن الواضـح... فمعنى الكلام: لكلِّ قومٍ منكم جـعلنا طريقاً إلى الحقّ يؤمُّه، وسبيـلاً واضحاً يَعمل به. عن قتـادة قال: الشريعة مختلفـة، ولكنّ الدين واحد لا يُقبل غيره، وهو التوحيدُ والإخلاص للّه، الذي جاءت به الرسل.

" **ولو شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً. ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ** (ليختبرَكم) **في مـا آتاكُمْ** (أُنزِلَ عليكم مـن الكتب) ". قـال: لو شـاء ربُّكم لجـعل شرائعَكم واحـدة. ولم يجعل لكلِّ أمّـة شريعة ومنهـاجاً غيـر شرائع الأمم الأخر ومناهجهم، فكنتم تكونون أمّـة واحدة لا تختلف شرائعكم ومناهجكـم، ولكنّه تعـالى ذكـرُه يعلم ذلك. فـخـالـف بين شـرائعكم ليخـتبركم، فـيعـرف المطيع منكم من العاصـي، والعـامل بما أمره في الكتاب الذي أنزله إلى نبيّه من المخالف.

الزمخشري:

"**ومهـيمِناً**"، أي: ورقـيبـاً على سائر الكتب، لأنّه يشـهد لهـا بالصحّة والثبات.

الرازي :

"**ومُهَيْـمِناً عليهِ**"، إذا كان رقـيباً على الشـيء، وشـاهداً عليه حافظاً.. أو أيضـاً: أميناً على الكتب الـتي قبله. والقرآن مـهيـمناً على الكتب لأنّه الكتـاب الذي لا يصـير منـسوخـاً البتـة، ولا يتطرّق إليـه التبديل والـتحريف. "**فاحْكُمْ بَينَهم بما أنزَلَ اللّهُ**"، يعني: فاحكم بين اليهود بالقرآن والوحي الذي نزّله اللّه عليك.

" **ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهمْ عمَّا جاءَكَ منَ الحَقِّ** "، أي: ولا تنحرف عمّا جاءك من الحقّ متّبعاً أهواءهم. روي أنّ جماعة من اليهود قالوا: نذهب إلى محمّد لعلّنا نفتنه عن دينه. ثمّ دخلوا عليه وقالوا: يا محمّد! قد عرفتَ إنّا أحبار اليهود وأشرافهم، وإنّا إنِ اتّبعناك اتّبعك كلُّ اليهود، وإنّ بينَنا وبين خصومنا حكومة فنحاكمهم إليك. فاقضِ لنا ونحن نؤمن بك. فأنزلَ اللّه تعالى هذه الآية..

" **لكلٍّ جَعَلْنا منكمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً** "؛ يدلّ على أنّه يجب أن يكون كلُّ رسول مستقلاً بشريعة خاصّة. وذلك ينافي كون أمّة أحد الرسل مكلَّفة بشريعة الرسول الآخر.. ولكن، وردتْ آياتٌ دالّة على عدم التباين في طريقة الأنبياء والرسل، وآيات دالّة على حصول التباين فيها. أمّا الآيات الدالّة على عدم التباين ففي مثل قوله: "شَرَعَ لكم من الدِّينِ ما وصَّى به نوحاً" (٤٢/١٣)، وقوله: "أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقْتَدِه" (٦/٩٠). وأمّا الآيات الدالّة على حصول التباين ففي مثل هذه الآية التي نحن في صددها. وطريق الجمع أن نقول: ألنوع الأوّل من الآيات مصروف إلى ما يتعلّق بأصول الدين، والنوع الثاني مصروف إلى ما يتعلّق بفروع الدين.

" **ولو شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أمَّةً واحِدَةً** "، أي جماعة متّفقة على شريعة واحدة، أي دين واحد لا اختلاف فيه. " **ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ** " من الشرائع المختلفة. هل تعملون بها منقادين للّه خاضعين لتكاليف اللّه، أم تتّبعون الشبه وتقصّرون في العمل.

ابن كثير:

" **ومُهَيْمِناً** "، أي: شهيداً، وحاكماً على ما قبله من الكتب. واسم المهيمن فهو أمين وشاهد وحاكم على كلّ كتاب قبله، جعل اللّهُ هذا

الكتاب العظيم الذي أنزله آخرَ الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره. لهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلّها. وتكفّل تعالى حفظَه بنفسه الكريمة.

الآلوسي:

" **ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً** "، أي جماعة متّفقة على دين واحد في جميع الأعصار، أو ذي ملّة واحدة من غير اختلاف بينكم في وقت من الأوقات في شيء من الأحكام الدينيّة ولا نسخ ولا تحويل.

والمعنى : لو شاء اللّه تعالى إجتماعكم على الإسلام لأجبركم عليه. والمعنى أيضاً: لو شاء اللّه تعالى لم يبعث إليكم نبيّاً فتكونون متعبّدين بما في العقل، وتكونون أمّة واحدة... ولكن، لم يشأ ذلك الجعل بل شاء غيره ليعاملكم سبحانه معاملة مَن يبتليكم " في ما آتاكم" من الشرائع المختلفة لحكمٍ إلهيّةٍ يقتضيها كلُّ عصر. هل تعملون بها مذعنين لها، معتقدين أنّ في اختلافها ما يعود نفعه لكم في معاشكم ومعادكم، أو تزيغون عنها. وتبتغون الهوى. وتشترون الضلالة بالهدى...

القاسمي:

" **لكلٍّ جَعَلْنا منكمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً** ". والمعنى: لكلّ أمّة كائنة منكم شرعة ومنهاجاً خاصّين بتلك الأمّة، لا تكاد أمّة تتخطّى شرعتها التي عيّنت لها... وفي "الإكليل"، استدلّ بهذه الآية مَن قال: إنّ شرع مَن قبلنا ليس بشرعٍ لنا.. إنّه شرع لنا ما لم يرد ناسخ...

محمّد عبده:

"**ومُـهَـيـمِناً عَلَيـهِ**" : إنّ المهـيـمن على الشيء هو من يقـوم بشؤونـه، ويكون له حقّ مراقـبته، والحكـم في أمره بحقّ.. والقـيام بالأمر يستلزم المراقبة والائتمان والشهادة عليه.

عن جابر قـال: نسخ عمر كتـاباً من التوراة بالعربيّة، فـجاء به إلى النّبيّ، فـجعل يقـرأ ووجهُ الـنّبيّ يتغـيّر، فـقال رسـول اللّه: "لا تسألوا أهلَ الكتاب عن شيء فإنّهـم لن يهدوكم وقد ضلّوا، وإنّكم إمّا أن تكذبوا بحقّ أو تصدّقوا بباطـل. واللّه! لو كان موسى بين أظهركم ما حلّ له إلاّ اتّباعي".

وسببه ما هو ظاهر من السياق، وهو أنّهم، لنسيانهم بعض ما أنزل إليهم وتحـريفهم لبعـضه، بطلتِ الثقـة برواياتهم. فالمصـدّق لها عـرضة لتـصـديق الباطـل، والمكذِّب لها عـرضـة لتكذيب الحقّ، إذ لا يتيـسّر لنا أن نمـيز فيـما عندهم بـين المحفوظ السـالم من التـحريف وغيره.

فـالاحتـياط أن لا نـصدّقـهم ولا نكذّبهم، إلاّ إذا رووا شـيئـاً يصدّقه القرآن أو يكذّبه. فإنّا نصـدق ما صدّقه، ونكذّب ما كذّبه، لأنّه مهيمن على تلك الكتب وشهيـد عليها، وشهادته حقّ، لأنّه نزل بالحق، وحـفظه اللّه من التـحريف والتـبـديل، بتوفـيق المسلمين لحـفظه في الصدور والسـطور، من زمن النبيّ إلى اليوم، وسـيحفظـه كذلك إلى آخر الزمـان: "إنّا نَحْنُ نَزّلنا الذّكْرَ وإنّا لَـهُ لَحَافظونَ" (١٥/٩)، ولا يعارض هذا قـوله تعالى: "فاسـألوا أهلَ الذِّكْرِ" (١٦/٤٣)، لأنّ ذلك ورد في السـؤال عن أمر متـواتر قطعي، وهو أنّ الرسل كـانوا رجالاً يوحَى إليهم...

"**لكلٍّ جَعَلْنا منكمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً**"، أي: لكلّ رسول أو كلّ أمّة منكم، أيّها المسلمون والكتابيّون، أو أيّها الناس، جعلنا شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها، وطريقاً للهداية، فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم وإصلاحها، لأنّ الشرائع العمليّة، وطرق التزكية الأدبيّة، تختلف باختلاف أحوال الاجتماع واستعداد البشر. وإنّما اتّفق جميع الرسل في أصل الدين، وهو توحيد اللّه وإسلام الوجه له بالإخلاص والإحسان..

والآية نصّت في أنّ شرع مَن قبلنا ليس شرعاً لنا مطلقاً.. وقوله: "أنْ أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه" (١٣/٤٢)، فهذه وصيّة اللّه إلى الأمم على ألسنة جميع الرسل، فهي لا تدلّ على اتّحاد شرائعهم، بل على حظر الاختلاف في الدين، لأنّ الدين نزل لإزالة الخلاف الضار وإصلاح الأمّة. فالاختلاف فيه يجعل الإصلاح إفساداً والدواء داء...

ولو كانت الآية عامّة في الدين والشريعة لكان معناها أنّ ما شرعه اللّه لنا هو عين ما شرعه لنوح والنّبيّين من بعده، ولم يكن معناها إنّنا مخاطبون بالأحكام العمليّة التي شرعها اللّه لقوم نوح ومن بعده. وكون ما شرعه لنا هو عين ما شرعه لهم مناقض لقوله: "لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً". وكيف يتصوّر عاقل أنْ يكون المراد من الآية أنّ كلّ ما شرعه اللّه لقوم نوح هو شرعٌ لنا إذا لم يرد في شريعتنا ما ينسخه؟ وهو خبر لا فائدة فيه، إذ لا علم لنا بما شرعه تعالى لقوم نوح، وكلام اللّه منزّه عن العبث؟.

"**ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ**"، أي: أعطاكم من الشرائع والمناهج، فتظهر حكمته في تمييزكم على غيركم من أنواع الخلق في

أرضكم، وهو كـونكم جامـعين بين الحيـوانيّة والمَلَكيّـة.. فاليـهوديّة شريعة مبنيّة على الشدّة في تربيـة قومٍ أَلِفوا العبوديّة والذلّ، وفقدوا الاستقلال في الإرادة والرأي. فهي مـادّة جسديّة شديدة ليس لأهلها فيها رأي ولا اجتهاد. فالقائم بتنفيذها كالمربي للطفل العارم الشكس.

والمسيحيّة يهوديّة من جهة، وروحانيّة شديدة من جهة أخرى. فهي تأمر أهلَها بأنّ يسلّموا أمورَهم الجسـديّة والاجتماعيّة للمتغلّبين من أهل السلطة والحكم، مـهمـا كانوا عليـه من الفسـاد والظلم، وأن يقبلوا كلّ مـا يسلّمون به من الخـسف والذلّ، ويجعلوا عنايتـهم كلّها بالأمور الروحيّة، وتربية العواطف والوجـدانات النفسيّة. فهي تربية للنوع في طور التمييز عند ما كان كالغلام اليافع الذي تؤثر في نفسه الخطابيّات والشعريّات.

وأمّا الإسلامـيّة فهي القائمـة على أساس العقل والاسـتقلال، المحقّـقة لمعنى الإنسانيّـة بالجمع بين مـصالح الروح والجسـد. وبهذا يصدق عليها قوله تعالى: "وكذلكَ جَعَلناكم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَدَاءَ على النّاس" (٢/١٤٣)، وقـوله: "كُنتمْ خـيرَ أمّـةٍ أُخْـرِجَتْ للنّاس" (٣/١١٠). فهي مـبنيّة على أساس الاسـتقلال البـشري اللائق بسنّ الرشد، وطور ارتقاء العقل. ولذلك كانـت الأحكام الدنيويّة في كتابها قليلة، وفرض فيهـا الاجتهاد، لأنّ الراشد يفوَّض إليه أمـرُ نفسه، فلا يقيَّـد إلاّ بما يمكن أن يعقلَه من الأصول القطعيّـة، ومن مقوّمـات أمّته المليّة، التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان..

فمن منع الاجتهادَ فقـد منع حجّة اللّه تعالى، وأبطل مزيّة هذه الشريعـة على غيرها، وجعلهـا غير صالحـة لكلّ الناس في كلّ زمان. فما أشدّ جناية هؤلاء الجهّال على الإسلام!

محمّد حسين فضل الله :

"**وَمُهَيمِنًا عليهِ**" أي أميناً وشاهداً عليه، وحافظاً له. فهو الذي يرتفع بالقيمة الأخلاقيّة والروحيّة إلى المستوى الأعلى الذي يصل بالإنسان -من خلالها- إلى درجة الكمال...

"**فَاحكُمْ بَينَهُمْ بِما أنْزَلَ اللّهُ**" من الكتاب عليك لشموليّته لما في الكتب السماويّة، فلا يشعر اليهودي بغرابة الحكم الشرعي الذي يصدره الحاكم المسلم عليه، لأنّ التوراة ليست غريبة عنه، ولا يجد النصراني أيَّ إشكالٍ في القضاء الإسلامي في القضايا التي يتحاكم فيها إليه، لأنّها لا تبتعد عن أجواء المفاهيم العامّة في الإنجيل.

(٥١)

المسلم لا يوالي أحداً من اليهود والنصارى

يا أيُّها الّذينَ آمَنوا! لا تَتَّخِذوا اليهودَ والنَّصارَى أوْلِياءَ بعْضُهُمْ أولياءُ بعضٍ. ومَن يَتَولَّهُمْ مِنْكمْ فإنّه مِنهمْ. إنّ اللّهَ لا يَهْدي القومَ الظّالِمينَ (سورة المائدة ٥/ ٥١).

الطبري:

قال: اختلف أهل التأويل في المعنيّ بهذه الآية، وإنْ كان مأموراً بذلك جميع المؤمنين... والصواب من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: إنّ اللّه تعالى ذكرُه نهى المؤمنين جميعاً أن يتّخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان باللّه ورسوله وغيرهم. وأخبر أنّه مَن اتّخذهم نصيراً وحليفاً ووليّاً من دون اللّه ورسوله

والمؤمنين، فإنّه منهم في التحزُّب على اللّه وعلى رسوله والمؤمنين، وأنّ اللّه ورسولَه منه بريئان.

وقد يجوز أن تكون الآية نزلتْ في شأن عبادة بن الصامت، وعبد اللّه بن أبي ابن سلول (من الخزرج) وحلفائهما من اليهود. ويجوز أن تكون نزلتْ في أبي لبابة (من الأوس) بسبب فعله في بني قريظة. ويجوز أن تكون نزلتْ في شأن الرّجلَين اللّذين ذكر السدي أنّ أحدهما همَّ باللحاق بدهْلك اليهودي، والآخر بنصرانيّ بالشام. ولم يصحّ بواحدٍ من هذه الأقوال الثلاثة خبرٌ تَثْبُتُ بمثله حجّة، فيسلم لصحّته القول بأنّه كما قيل...

غير أنّه لا شكّ أنّ الآية نزلتْ في منافق كان يوالي يهوداً أو نصارى، خوفاً على نفسه من دوائر الدهر، لأنّ الآية التي بعد هذه تدلّ على ذلك، وذلك قوله: "فَتَرَى الّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمِ يَقُولُون نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ" (٢/ ٥٢).

وأمّا قوله: "**بَعْضُهُم أَولِيَاءُ بَعضٍ**" فإنّه عنى بذلك: أنّ بعض اليهود أنصار بعضهم على المؤمنين، ويد واحدة على جميعهم، وأنّ النّصارى كذلك، بعضهم أنصار بعض على مَن خالف دينَهم وملّتهم، معرِّفاً بذلك عباده المؤمنين: أنّ من كان لهم أو لبعضهم وليّاً، فإنّما هو وليُّهم على مَن خالف ملّتَهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حرب.

فقال للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضاً بعضكم أولياء بعض، ولليهوديّ والنصراني حرباً كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أولياء، لأنّ من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحرب، ومنهم البراءة، وأبان قطع ولايتهم.

" **ومَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكمْ فإنّه مِنهم** "، يعني: مَن تولاّهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملّتهم، فإنّه لا يتولّى متولٍّ أحداً إلاّ وهو به وبدينه وما هو عليه راضٍ. وإذا رضيه ورضي دينه، فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه، ولذلك حكم من حكم من أهل العلم لنصارى بني تغلب في ذبائحهم ونكاح نسائهم وغير ذلك من أمورهم، بأحكام نصارى بني إسرائيل، لموالاتهم إيّاهم، ورضاهم بملّتهم ونصرتهم لهم عليها، وإنْ كانت أنسابهم لأنسابهم مخالفة، وأصل دينهم لأصل دينهم مفارقاً.

الرازي:

" **ومَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكمْ فإنّه مِنهمْ** "، يريد: كأنّه مثلهم. وهذا تغليظ من اللّه وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين.

" **إنَّ اللّهَ لا يَهْدي القومَ الظّالِمينَ** "، روي عن أبي موسى الأشعري أنّه قال: قلتُ لعمر بن الخطّاب: إنّ لي كاتباً نصرانيّاً. فقال: مالك قاتلكَ اللّه! ألا اتخذتَ حنيفاً! أما سمعتَ قول اللّه تعالى: " **يا أيُّها الّذينَ آمَنوا! لا تَتَّخِذوا اليهودَ والنَّصَارَى أوْلِياءَ** "، قلتُ: له دينه ولي كتابته. فقال: لا أُكرمهم إذ أهانهم اللّه، ولا أُعزّهم إذ أذلّهم اللّه، ولا أُدنيهم إذا أبعدهم اللّه. قلت: لا يتمّ أمر البصرة إلاّ به. فقال: مات النصراني والسلام. يعني: هب أنّه قد مات، فما تصنع بعده، فما تعمله بعد موته، فاعمله الآن واستغنِ عنه بغيره.

الطبرسي:

" **يا أيُّها الّذينَ آمَنوا! لا تَتَّخِذوا اليهودَ والنَّصَارَى أوْلِياءَ** "، أي لا تعتمدوا على الاستنصار بهم متودِّدينَ إليهم. وخصّ اليهود

والنصارى بالذكر لأنّ سائر الكفّار بمنزلتهما في وجوب معاداتهم. "**بعْضُهُمْ أولياءُ بعضٍ**". وفي هذه دلالة على أنّ الكفر كلّه كالملّة الواحدة في أحكام المواريث لعموم قوله بعضهم أولياء بعض. وقال الصادق: لا تتوارث أهلُ ملّتَين، ونحن نَرثهم ولا يورثوننا.

"**ومَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ**"، أي من استنصر بهم، واتّخذهم أنصاراً، "**فإنّه مِنهمْ**"، أي هو كافر مثلهم، وأنّه محكوم له حكمهم في وجوب لعنه والبراءة منه، وأنّه من أهل النار. "**إنّ اللّهَ لا يَهْدي القومَ الظّالِمينَ**"، أي طريق الجنّة لكفرهم واستحقاقهم العذاب الدائم، بل يضلّهم عنها إلى طريق النار..

القرطبي:

"**ومَن يَتَولَّهُمْ مِنْكُمْ**"، أي: يعضدهم على المسلمين، "**فإنّه مِنهمْ**"، أي: بيّن أنّ حكمه حكمهم، وهو يمنع إثبات الميراث للمسلم من المرتدّ. ثمّ هذا الحكم باق إلى يوم القيامة في قطع الموالاة. وقد قال تعالى: "ولا تَرْكَنُوا إلَى الّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ" (١١/١١٣)، وقال: "لا يَتَّخِذِ المؤمِنُونَ الكافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المؤْمِنين" (٣/٢٨)، وقال: "لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُم" (٣/١١٨).

أبو حيّان الأندلسي:

"**ومَن يَتَولَّهُمْ مِنْكمْ فإنّه مِنهمْ**"، في حكم الكفر، أي: ومن يتولّهم في الدين. أو أيضاً: ومَن يتولّهم في الدنيا فإنّه منهم في الآخرة. وقيل: ومن يتولّهم منكم في العهد فإنّه منهم في مخالفة الأمر. ومَن تولاّهم في المعتقد فهو منهم في الكفر..

محمّد عبده:

هذه الآيات نصّ صريح في كون النّهي عن الولاية لأجل العداوة، وكون القوم حرباً، لا لأجل الخلاف في الدين لذاته. فإنّ النّبيّ، لمّا حالف اليهودَ، كتب في كتابه: "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"، كما أمره اللّه أن يقول لجميع المخالفين: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ" (١٠٩/ ٦).

سيّد قطب:

إنّ الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماويّة، يُخطئون فهمَ معنى الأديان، كما يُخطئون فهم معنى التسامح. فالدين هو الدين الأخير وحده عند اللّه. والتسامح يكون في المعاملات الشخصيّة، لا في التصوّر الاعتقادي، ولا في النظام الاجتماعي...

إنّهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأنّ اللّه لا يقبل د يناً إلاّ الإسلام، وبأنّ عليه أن يحقّق منهج اللّه الممثّل في الإسلام، ولا يقبل دونه بديلاً. ولا يقبل فيه تعديلاً، ولو طفيفاً. هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرّر: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقبَلَ مِنْهُ" (٣/ ٨٥).. "وَاحْذَرْهُمْ أنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أنْزَلَ اللّهُ إليكَ" (٥/ ٤٩).. "يَا أيُّهَا الّذينَ آمَنُوا! لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصَارى أوْلِيَاءَ. بعضُهم أوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإنَّهُ مِنْهُمْ"..

وفي القرآن كلمة الفصل.. ولا على المسلم من تميع المتميّعين وتمييعهم لهذا اليقين!.

ثمّ إنّ هذه القضيّة ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة. هي: أنْ ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلاّ مع المسلم. وليس للمسلم ولاء إلاّ للّه ولرسوله وللجماعة المسلمة..

على أنّ اللّه، وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعدة العامّة الحازمة الصارمة، كان علمه يتناول الزمان كلّه، لا تلك الفترة الخاصّة من حياة رسول اللّه وملابساتها الموقوتة..

وقد أظهر التاريخ الواقع، فيما بعد، أنّ عداء النصارى لهذا الدِّين وللجماعة المسلمة، في معظم بقاع الأرض، لم يكن أقلّ من عداء اليهود.. وإذا نحن استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسلام، فإنّنا نجد الرقعة النصرانيّة في الغرب، قد حملت للإسلام في تاريخها كلّه منذ أن احتكّت به من العداوة والضغن، وشنّت عليه من الحرب والكيد، ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيدهم في أيّ زمان. حتّى الحبشة التي أحسن عاهلُها استقبالَ المهاجرين المسلمين واستقبال الإسلام، عادت فإذا هي أشدّ حرباً على الإسلام والمسلمين من كلّ أحد، لا يجاريها في هذا إلاّ اليهود..

وما يزال الإسلام والذين يتّصفون به يلقون من عنت الحرب المشبوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كلّ مكان على سطح الأرض، ما يصدق قول اللّه تعالى: "بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ"..

إنّ الإسلام يكلّف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعاً على أساس العقيدة. فالولاء والعداء لا يكونان في تصوّر المسلم وفي حركته على السواء إلاّ في العقيدة...

ومن ثمّ لا يمكن أن يقوم الولاء -وهو التناصر- بين المسلم وغير المسلم؛ إذ أنّهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة.. ولا حتّى أمام الإلحاد مثلاً -كما يتصوّر بعض السذّج منّا وبعض من لا يقرأون القرآن!- وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه؟

إنّ بعض مَن لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون حقيقة الإسلام، وبعض المخدوعين أيضاً.. يتصوّرون أنّ الدين كلّه دين! كما أنّ الإلحاد كلّه إلحاد! وأنّه يمكن إذن أن يقف "التديّن" بجملته في وجه الإلحاد، لأنّ الإلحاد ينكر الدين كلّه، ويحارب التديّن على الإطلاق..

ولكنّ الأمرَ ليس كذلك في التصوّر الإسلامي، ولا في حسّ المسلم الذي يتذوّق الإسلام. ولا يتذوّق الإسلام إلاّ من يأخذه عقيدة، وحركة بهذه العقيدة، لإقامة النظام الإسلامي.

إنّ الأمر في التصوّر الإسلامي وفي حسّ المسلم واضح محدّد.. الدين هو الإسلام.. وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام.. لأنّ اللّه يقول: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الإِسْلامُ" (٣/١٩). ويقول: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ منه" (٣/٨٥).. وبعد رسالة محمّد لم يعد هناك دين يرضاه اللّه ويقبله من أحد إلاّ هذا "الإسلام".. في صورته التي جاء بها محمّد. وما كان يقبل قبل بعثة محمّد من النصارى لم يعد الآن يُقبل. كما أنّ ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته..

ووجود يهود ونصارى، من أهل الكتاب، بعد بعثة محمّد ليس معناه أنّ اللّه يقبل منهم ما هم عليه، أو يعترف لهم بأنّهم على دين إلهي.. لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير، أمّا بعد بعثته فلا دين،

في التصوّر الإسلامي وفي حسّ المسلم، إلاّ الإسلام.. وهذا ما ينصّ عليه القرآن نصّاً غير قابل للتأويل..

إنّ الإسلام لا يُكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام، لأنّه "لا إكْرَاه في الدين"، ولكن هذا ليس معناه أنّه يعترف بما هم عليه "ديناً"، ويراهم على "دين".

ومن ثمّ فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هناك "دين" هو الإسلام، وهناك "لا دين" هو غير الإسلام. ثمّ يكون هذا اللاّدين عقيدة أصلها سماوي ولكنّها محرّفة، أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنيّتها، أو إلحاداً ينكر الأديان، تختلف فيما بينها كلّها، ولكنّها تختلف كلّها مع الإسلام، ولا حلف بينها وبين الإسلام، ولا ولاء..

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء، وهو مطالب بإحسان معاملتهم، كما سبق، ما لم يؤذوه في الدين. ويباح له أن يتزوّج المحصنات منهن.. وحتّى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامّة، فإنّ حسن المعاملة وجواز النكاح، ليس معناها الولاء والتناصر في الدين، وليس معناها اعتراف المسلم بأنّ دين أهل الكتاب، بعد بعثة محمّد، وهو دين يقبله الله، ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة!

إنّ الإسلام قد جاء ليصحّح إعتقادات أهل الكتاب، كما جاء ليصحّح إعتقادات المشركين والوثنيّين سواء. ودعاهم إلى الإسلام جميعاً، لأنّ هذا هو الدّين الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعاً. ولمّا فهم اليهود أنّهم غير مدعوّين إلى الإسلام، وكبر عليهم أن يدعوا إليه، جابههم القرآن الكريم بأنّ اللّه يدعوهم إلى الإسلام، فإنْ تولّوا عنه فهم كافرون!

والمسلم مكلّف أن يدْعو أهلَ الكتاب إلى الإسلام، كما يدعو الملحدين والوثنيّين سواء. وهو غير مأذون في أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام، لأنّ العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه. فالإكراه في الدين فوق أنّه منهيّ عنه، وهو كذلك لا ثمرة له.

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأنّ ما عليه أهل الكتاب، بعد بعثة محمّد، وهو دين يقبله اللّه، ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام!.. إنّه لا يكون مكلّفاً بدعوتهم إلى الإسلام إلاّ على أساس واحد، هو أنّه لا يعترف بأنّ ما هم عليه دين، وأنّه يدعوهم إلى الدين.

وإذا تقرّرت هذه البديهيّة، فإنّه لا يكون منطقيّاً مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض، مع من لا يدين بالإسلام. إنّ هذه القضيّة في الإسلام قضيّة إعتقاديّة إيمانيّة، كما أنّها قضيّة تنظيميّة حركيّة!

من ناحية أنّها قضيّة إيمانيّة إعتقاديّة نحسب أنّ الأمر قد صار واضحاً بهذا البيان الذي أسلفناه، وبالرجوع إلى النصوص القرآنيّة القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسلمين وأهل الكتاب.

ومن ناحية أنّها قضيّة تنظيميّة حركيّة، ألأمر واضح كذلك. فإذا كان سعي المؤمن كلّه ينبغي أن يتّجه إلى إقامة منهج اللّه في الحياة، وهو المنهج الذي ينصّ عليه الإسلام كما جاء به محمّد بكلّ تفصيلات وجوانب هذا المنهج، وهي تشمل كلّ نشاط الإنسان في الحياة.. فكيف يمكن أذن أن يتعاون المسلم في السعي مع من لا يؤمن بالإسلام ديناً ومنهجاً ونظاماً وشريعةً. ومن يتّجه في سعيه إلى أهداف أخرى -إنْ لمْ تكنْ معاديةً للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام- إذ الإسلام لا يعترف بهدف ولا عمل لا يقوم

على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحاً: "مَثَلُ الّذينَ كَفَروا بربِّهِمْ، أعمالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يومٍ عَاصِفٍ" (١٤/١٨).

والإسلام يكلّف المسلم أن يخلص سعيه كلّه للإسلام، ولا يتصوّر إمكان انفصال أيّة جزئيّة في السعي اليومي في حياة المسلم عن الإسلام. لا يتصوّر إمكان هذا إلاّ مَن لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامي. ولا يتصوّر أنّ هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الإسلام، أو لا يرضى من المسلم إلاّ أن يترك إسلامه، كما نصّ اللّه في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسلم ليرضوا عنه!.. إنّ هناك استحالة اعتقاديّة كما أنّ هناك استحالة عمليّة على السواء..

محمّد حسين فضل اللّه :

يفرض الإسلام على المسلم أن يؤمن بالرسل أجمعهم وبالرسالات كلّها، ولكنّه يريد له أن يكون واقعيًا في علاقته بالذين ينتمون إليها، وذلك من موقع السلوك العدواني الذي التزموه في علاقتهم (اليهود والنصارى) بالمسلمين، لأنّهم يعتقدون بطلان عقيدة المسلمين.. ولهذا أراد الإسلام للمؤمنين أن يعيشوا في داخل حياتهم وخارجها الخطوطَ الفاصلة العازلة، بين المواقع المتنوّعة والمواقف المختلفة، من أجل الحفاظ على الجانب الفكري للعقيدة، فلا يتأثّر بالانحراف الذي قد يأتي من المجاملات التي تساهم في تمييع الموقف، من أجل التأكيد على سلامة المسيرة، فلا تهتزّ أمام الأوضاع العاطفيّة والعلاقات الذاتيّة البعيدة عن التركيز.

«.. **اليهودَ والنَّصَارَى أَوْلِياءَ بعْضُهُمْ أولياءُ بعضٍ**" فقد نلاحظ نوعاً من أنواع الإيحاء الخفي بوجود محوريّة داخليّة بين هؤلاء،

سواء أريد من كلمة "البعض"، اليهود في ما بينهم، أو النصارى في ما بينهم... أو أريد منهم اليهود والنصارى فيما بينهم، لأنّهم إذا افترقوا في خلافاتهم الذاتيّة، فإنّهم يتّفقون عندما يكون المسلمون الهدف المشترك الذي يتوحّدون حوله...

ويبقى للمسلمين الدرس العملي المتحرّك في الواقع الذي يبعث فيهم روحَ الوعي والحذَر للفئات الأخرى التي تختلف معهم في الدِّين والقضايا الحيويّة المتّصلة بالعلاقات العامّة، فلا يستسلمون للسذاجة العاطفيّة التي قد تجعلهم يسقطون تحت تأثير الخوف من المستقبل، الذي قد يدفع الآخرين إلى الواجهة من السلطة ويرجع المسلمين إلى الخلف، فيحاولون الارتباط بهم لحماية أنفسهم، فيفقدون الكثير من صلابة الموقف واستقامة الخطّ، في الوقت الذي لا يحصلون فيه على شيء ممّا قصدوه، بل قد يحصلون على العكس من ذلك إذا انتصر المسلمون وانهزم الكافرون.

إنّ الارتباط السياسي والاقتصادي والديني بالأجانب أمر مرفوض من الإسلام نفسه، لأنّه قد يعرّض المسلمين للوقوع في التهلكة السياسيّة والاقتصاديّة والأمنيّة، ويؤدّي بهم إلى فقدان استقلالهم وقدرتهم على تقرير مصيرهم. وهذا ما نلاحظه في هذه الأيّام من تحوّل المسلمين إلى وجودٍ منسيٍّ في الواقع السياسي العالمي الذي يقوده المستكبرون في الأرض، فلا يسمحون لهم بحرّيّة الحركةِ في سياستهم واقتصادهم وأمنهم في قليلٍ أو كثير.

(٥٢)

لا موالاة للمسلم مع أهل الكتاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ، والكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ. واتَّقُوا اللَّهَ. إنْ كنتُمْ مُؤْمِنِينَ (سورة المائدة ٥/٥٧).

الطبري:

" **يا أيّها الّذينَ آمَنوا** " ، أي صدَّقوا اللّهَ ورسولَه، " **لا تَتَّخِذوا الّذينَ اتَّخَذوا دِينَكمْ هُزُوًا وَلَعِبًا منَ الّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** "، يعني اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء، وأنزلتْ عليهم الكتب من قبلِ بَعْثِ نبيّنا (محمّد)، ومن قبل نزول كتابنا (القرآن)، " **أولياء** " . أي: لا تتّخذوهم، أيّها المؤمنون، أنصاراً أو إخواناً أو حلفاء، فإنّهم لا يألونكم خَبالاً، وإنْ أظهروا لكم مودّةً وصداقة..

وكان اتّخاذ هؤلاء اليهود دينَهم هزواً ولعبا بالدين، إنّ أحدَهم كان يظهر للمؤمنين الإيمان، وهو على كفره مقيم؛ ثمّ يراجع الكفر بعد يسير من المدّة بإظهار ذلك بلسانه قَولاً، بعد أن كان يُبدي بلسانه الإيمان قولاً، وهو للكفر مستبطن تلعُّباً بالدين واستهزاءً به، كما أخبر تعالى ذكرُه عن فعل بعضهم ذلك بقوله: " وَإِذَا لَقُوا الّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا. وَإِذَا خَلَوا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إنَّا مَعَكُم. إنّما نَحنُ مُسْتَهزِئُون. أللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ " (٢/ ١٤-١٥).

" **والكُفّارَ** " ، فإنهم المشركون من عبدَة الأوثان. نهى اللّه المؤمنين أن يتّخذوا من أهل الكتاب ومن عبدة الأوثان وسائر أهل الكفر، أولياءَ دون المؤمنين.

القرطبي:

ألموصوف بالهزؤ واللّعب في هذه القراءة أليهود لا غير. والمنهي عن اتّخاذه أولياء أليهود والمشركون.. وقيل: ألمعنى: لا تتّخذوا المشركين والمنافقين أولياء، بدليل قولهم: "إنّمَا نَحنُ مُستَهزئُونَ" (٢/ ١٤). والمشركون كلّهم كفّار، لكن يطلق في الغالب لفظ الكفّار على المشركين. فلهذا فصَل ذكرَ أهل الكتاب من الكافرين.

هذه الآية، مثل ما سبقها (٥/ ٥١)، ومثل قوله: "لا تَتَخِذُوا بِطانَةً منْ دُونكمْ" (٣/ ١١٨).. تضمّنت المنع من التأييد والانتصار بالمشركين ونحو ذلك.

أبو حيّان الأندلسي:

يقول: لمّا نهى تعالى المؤمنين عن اتّخاذ الكفّار والنصارى أولياء، نهى عن اتّخاذ الكفّار أولياء، يهوداً كانوا أو نصارى، أو غيرهما. وكرّر ذكرَ اليهود والنصارى بقوله: "**مِنَ الّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**"، وإنْ كانوا مندرجِين في عموم الكفّار.. لأنّهم أوغلُ في الاستهزاء، وأبعدُ انقياداً للإسلام، إذ يزعمون على أنّهم على شريعة إلهيّة.. فأهل الكتاب يؤمنون بالله وببعض الأنبياء. والمنافقون يؤمنون بألسنتهم.

ومعنى الآية: إنّ مَن اتّخذ دينكم هزواً ولعباً لا يناسب أن يُتّخذ وليّاً، بل يُعادَى، ويُبغَض، ويُجَانَب. واستهزاؤهم قيل: بإظهار الإسلام وإخفاء الكفر؛ وقيل: بقولهم للمسلمين: إحفظوا دينكم ودوموا عليه فإنّه الحقّ؛ وقول بعضهم لبعض: لَعِبنا بعقولهم وضحكنا عليهم.. فـ"**اتّقُوا اللّهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**" في موالاة الكفّار.. ومَن كان مؤمناً حقّاً يأبى موالاة أعداء الدين.

ابن كثير:

هنا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيّين والمشركين الذين يتّخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهَّرة المُحْكَمة المشتمِلة على كلّ خيرٍ دنيويٍّ وأخرَويٍّ، يتّخذونها هزواً يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنّها نوع من اللّعب في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد.

المراغي:

قد نهج الإسلامُ مع أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركي العرب، فأباح أكلَ طعامهم، ونكاح نسائهم، وشرع قبول الجزية منهم وإقرارَهم على دينهم، وخصّهم هنا بلقب أهل الكتاب. ولقّب المشركين بالكفّار، لأنّهم لوثنيّتهم، عريقون في الشرك والكفر، أصَلاء فيه. أمّا أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضاً، وليس من أصل دينهم.

محمّد حسين فضل الله :

... إنطلاقاً من السلوك العدواني الذي يمارسه هؤلاء من أهل الكتاب والمشركين ضدّ المسلمين، فقد كان من طريقتهم أن لا يدخلوا مع المسلمين في حوارٍ قائمٍ على الاحترام المتبادل كما يأمر الإسلامُ أتباعَه به؛ بل كانوا يعملون على إثارة أجواء السخريّة والاستهزاء واتّباع أساليب العبث واللّعب بالمفاهيم والأحكام والشعارات الدينيّة.

فإذا قام المسلمون إلى الصلاة ليعبدوا اللّه بذلك، واجهوهم بأساليب االسخريّة واللّعب، ليسيئوا بذلك إلى نفسيّتهم ويحطّموا معنويّاتهم وروحيّتهم.. وعلى هذا الأساس، جاءتْ هاتان الآيتان من

أجل تنبيه المسلمين لهذه الروحيّة العدوانيّة التي يحملها هؤلاء أداةً ضدهم وضد الإسلام، ممّا يجعل من الموقف الذي يُراد من المسلمين القيام به في رفض موالاتهم، موقفاً يرتبط بالاحترام الذي يحمله المسلمون لأنفسهم ولدينهم.

(٥٣)

على أهل الكتاب أن يُقيموا التوراة والإنجيل والقرآن

وَلَو انَّ أهْلَ الكتابِ آمَنوا واتَّقوا لَكَفَّرْنا عنهمْ سَيِّئاتِهِمْ، وَلأَدْخَلْناهمْ جَنّاتِ النَّعيم. ولو انَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنْزِلَ إليهم مِن ربِّهِمْ لأكَلوا من فَوقِهِمْ ومن تحتِ أرجُلِهِمْ. منهمْ أمّةٌ مُقْتَصِدَةٌ. وكَثيرٌ منهم ساءَ ما يَعمَلُونَ.

يا أيّها الرَّسولُ! بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ. وإنْ لمْ تَفعَلْ فما بَلَّغْتَ رسالتَه. واللّهُ يَعصِمُكَ مِنَ الناسِ. إنّ اللّهَ لا يَهدِي القَومَ الكافِرِينَ.

قلْ: يا أهلَ الكتابِ! لَستُمْ على شيءٍ حتّى تُقيموا التَّوراةَ والإنْجيلَ وما أُنْزِلَ إليكمْ من ربِّكمْ. وَلَيَزيدَنَّ كَثيراً مِنهُمْ ما أُنْزِلَ إليكَ من ربِّكَ طُغْياناً وكُفْراً. فلا تَأْسَ على القَومِ الكافِرِينَ.

إنّ الّذينَ آمَنُوا والّذينَ هَادُوا والصّابِئونَ والنّصَارى مَنْ آمَنَ باللّهِ واليَومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوفٌ عليهمْ ولا هُمْ يَحْزَنون (سورة المائدة ٥/ ٦٥-٦٩)[٥].

---

(٥) الآية الأخيرة تناقض معنى الآية التالية. وهي إعادة للآية ٢/ ٦٢ حيث

الطبري:

"**وَلَو أنَّ أهلَ الكتابِ**"، وهم اليهود والنصارى، "**آمَنُوا**" بالله ورسولِه محمّدٍ، فصدّقوه واتّبعوه وما أنزل عليه، "**وَاتَّقُوا**" ما نهاهم الله عنه فاجتنبوه، "**لَكَفَّرْنَا عنهمْ سَيِّئَاتِهِمْ**"، أي: محوْنا عنهم ذنوبَهم فغطّينا عليها، ولم نفضحْهم بها، "**وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**"، أي: وَلأدْخلناهم بساتينَ ينعَمون فيها في الآخرة.

"**وَلَو أنَّهُمْ أقَامُوا التَّورَاةَ والإنْجِيلَ**"، أي: ولو انّهم عملوا بما في التوراة والإنجيل، "**وَمَا أُنْزِلَ إلَيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ**"، أي: وعملوا بما أُنزل إليهم من ربّهم من الفرقان الذي جاءهم به محمّد، "**لأكَلُوا مِن فَوقِهِمْ ومِن تَحْتِ أرجُلِهِمْ**"، أي: لأنزل الله عليهم من السماء مطرها، فأنبتتْ لهم به الأرض حبَّها ونباتها، فأخرجَ ثمارها، وأكلوا من بركَة ما تحت أقدامِهم من الأرض.

"**مِنهُمْ أُمَّةٌ**"، أي: جماعة، "**مُقْتَصِدَةٌ**" في القول في عيسى ابن مريم، قائلةٌ فيه الحقّ أنّه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، لا غاليةٌ قائلةٌ: إنّه ابن الله، تعالى الله عمّا قالوا من ذلك، ولا مقصِّرةٌ قائلةٌ: هو لغير رشدة. "**وَكَثِيرٌ منهمْ**"، أي: من بني إسرائيل من أهل الكتاب اليهود والنصاري. "**سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**"، أي: كثيرٌ منهم سيّء عملهم، وذلك أنّهم يكفرون بالله، فتكذِّب النصارى بمحمّد، وتزعم أنّ المسيح ابن الله، وتكذِّب اليهود بعيسى وبمحمّد. فقال الله تعالى فيهم ذامّاً لهم.. عن مجاهد قال: "**منهم أمّة مقتصدة**"، وهم مسلمة أهل الكتاب.

مكانها الأنسب. أنظر تعليق بلاشير أنظرها في مكانها من هذا البحث.

" **يا أيّها الرســولُ بَلّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ من ربِّكَ. وإنْ لمْ تَفعَلْ فـما بَلّغْتَ رسالتَه. واللّــهُ يَعصِمُكَ من الناسِ.** هذا أمر من اللّه تعالى ذكرُه نبيَّــه محمّد، بإبــلاغ هؤلاء اليهود والنصــارى من أهل الكتابَين الّذين قصّ تعالى ذكــرُه قصــصهم في هذه السورة، وذكــر فيهــا معــايبهم وخُــبثَ أديانهم، واجــتــراءهم على ربّهــم، وتوثبــهم على أنبــيــائهم، وتبديلهم كتــابه، وتحريفهم إيّاه، ورداءة مطاعمــهم ومآكلهم، وسائر المشركين غــيرهم، ما أنزل عليــه فيهــم من معايبــهم، والإزراء عليهم، والتــقصــير بهم، والتــهجين لهم، ومــا أمرهم به ونهــاهم عنه، وأن لا يشعر نفــسه حذراً منهم أن يصيــبوه في نفسه بمكروهٍ ما قــام فيهم بأمر اللّه، ولا جزعــاً من كثرة عددهم وقلّة عدد من مــعه، وأن لا يتّقي أحداً في ذات اللّه، فإنّ اللّه تعالى ذكره كافيه كلَّ أحد من خلقه، ودافعٌ عنه مكروهَ كلّ من يبغي مكروهه.

وأعلمه تعالى ذكره أنّه إنْ قــصّر عن إبلاغ شــيء ممّا أنزل إليه إليهم، فهو في تركه تبليغ ذلك.. فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذَّنب بمنزلته لو لم يبلِّغ من تنزيله شيئاً.

" **إنّ اللّهَ لا يَهدي القومَ الكافرينَ**" ، أي: إنّ اللّه لا يوفِّق للرُّشْد مَن حاد عن سبيل الحقّ، وجــار عن قصد السبيل، وجحد مــا جئته به من عند اللّه، ولم ينتهِ إلى أمر اللّه وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه.

"**قلْ**" ، يا محمّد، لهؤلاء اليهود والنصارى: " **يا أهلَ الكتابِ** " ، أي: التوراة والإنجيل، "**لستُمْ على شيءٍ**" ، ممّا تدّعون أنّكم عليه ممّا جاءكم به مــوسى، معشــرَ اليهود، ولا ممّا جاءكم بــه عيسى، معــشر النصارى، "**حتّى تُقيمُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنْزِلَ إليكمْ من ربِّكمْ**" ، أي: ممّا جاءكم به محمّد من الفــرقان، فتعملوا بذلك كلّه، وتؤمنوا بما

فيـه من الإيمان بمحمّـد وتصديقه، وتقـرّوا بأنّ كلّ ذلك من عند اللّه، فـلا تكذّبوا بشيء منه، ولا تفـرّقـوا بين رسل اللّه فـتـؤمنوا ببـعض وتكفروا ببـعض، فإنّ الكفر بواحدٍ من ذلك كـفرٌ بجميعـهم، لأنّ كتب اللّه يصدّق بعضها بعضاً. فمن كذّب ببعضها فقد كذّب بجميعها..

" **وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنْزِلَ إلـيكَ من ربِّكَ طُغْياناً وكُفْراً. فلا تَأْسَ على القومِ الكافرين** "، يعني: أقسم اللّه: ليزيدنّ كثيراً من هؤلاء اليهود والنصارى الذين قصّ قـصصهم في هذه الآيات، الكتابُ الذي أنزلته إليك، يا مـحمّد، " **طغياناً** "، أي: تجـاوزاً وغلوّاً في التكذيب لك، على مـا كانوا عليـه لك من ذلك قـبل نزول الفرقـان، " **وكفـراً** "، أي: وجحوداً لنبوّتك..

الزمخشري:

" **وَلَو انَّ أهلَ الكتـابِ** "، مع مـا عـددنا من سـيّـئـاتهم، **آمَنوا** برسول اللّه، وبما جاء به، " **وَاتَّقَوا** "، أي: قرنوا إيمانهم بالتقوى التي هي الشـريطة في الفـوز بالإيمان، " **لَكَفَّـرْنا عنهمْ سَـيِّئَـاتِهمْ** "، ولم نؤاخذهـم بها، " **وَلأدْخَلْناهمْ** " مع المسلمين " **جَنَّاتِ النَّعيم** ". وفيـه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصـارى وكثرة سيّئاتهم، ودلالة على سـعـة رحمـة اللّه وفـتـحـه باب التـوبة على كلّ عـاصٍ، وإنْ عظمت معـاصيـه وبلغتْ مبالغَ سـيّئـات اليهود والـنّصارى، وأنّ الإيمان لا ينجّي ولا يسـعد إلاّ مـشفـوعاً بالتـقوى. " **ولو انّهم أقامـوا التوراةَ والإنجيلَ** "، أقاموا أحكامـهما وحدودهمـا وما فيهمـا من نعت رسـول اللّه، " **وما أُنْزِلَ إليـهم من ربِّهمْ** " من سـائر كتب اللّه لأنّهم مكلّفـون الإيمان بجمـيعها فكأنّهـا أنزلتْ إليهم. " **لأكَلُوا من فَوقِهمْ ومن تحتِ أرجُلِهمْ** ".

"**مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ**"، أي: طائفة حالها أمم في عداوة رسول الله، وقيل هي الطائفة المؤمنة عبد الله ابن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى، "**وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعمَلون**". فيه معنى التعجّب كأنّه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم..

الرازي:

إعلم أنّه تعالى، لمّا بالغ في ذمّهم وفي تهجين طريقتهم، بيّن أنّهم، لو آمنوا واتّقوا، لَوجدوا سعادات الآخرة والدنيا. أمّا سعادات الآخرة فهي محصورة في نوعين: أحدهما: رفع العقاب؛ والثاني: إيصال الثواب. أمّا رفع العقاب فهو المراد بقوله: "**لَكَفَّرْنَا عَنْهم سيِّئَاتِهم**"؛ وأمّا إيصال الثواب فهو المراد بقوله: "**وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جنّاتِ النّعيم**".

ثمّ قال: "**ولو انّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ**". واعلمْ أنّه تعالى، لمّا بيّن، في الآية الأولى، أنّهم لو آمنوا، لفازوا بسعادات الآخرة، بيّن، في هذه الآية أيضاً، أنّهم، لو آمنوا، لفازوا بسعادات الدنيا، ووجدوا طيِّباتها وخيراتها.

وفي إقامة التوراة والإنجيل ثلاثة أوجه: **أحدها:** أن يعملوا بما فيها من الوفاء بعهود الله فيها، ومن الإقرار باشتمالها على الدلائل الدالّة على بعثة محمّد. **وثانيها:** إقامة التوراة إقامة أحكامها وحدودها وحقوقها وشرائطها. **وثالثها:** أقاموها نصب أعينهم لئلاّ يزلّوا في شيء من حدودها. وهذه الوجوه كلّها حسنة. لكنّ الأوّل أحسن.

وأمّا قوله: "**وما أُنْزِلَ إليهم**" ففيه قولان: **الأوّل:** أنّه القرآن، **والثاني:** أنّه كتب سائر الأنبياء: مثل كتاب شعياء، ومثل كتاب

حبقوق، وكتاب دانيال، فإنّ هذه الكتب مملوءة من البشارة بمبعث محمّد.

وفي قوله: "**لأكلوا من فوقهمْ ومن تحتِ أرجُلِهمْ**" وجوه: **الأوّل:** أنّ المراد منه المبالغة في شرح السعة والخصب، لا أنّ هناك فوقاً وتحتاً، والمعنى: لأكلوا أكلاً متّصلاً كثيراً.. **والثاني:** أنّ الأكل من فوق نزول المطر، ومن تحت الأرجل حصول النبات، كما قال تعالى: "وَلَو انّ أهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ" (٧/ ٩٦). **الثالث:** الأكل من فوق كثرة الأشجار المثمرة، ومن تحت الأرجل الزروع المغلّة. **والرابع:** المراد أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار، فيجتنون ما تهدّل من رؤوس الشجر، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم. **والخامس:** يشبه أن يكون هذا إشارة إلى ما جرى على اليهود من بني قريظة وبني النضير من قطْع نخيلهم، وإفساد زروعهم، وإجلائهم عن أوطانهم.

ثمّ قال تعالى: "**مِنْهُمْ أمّةٌ مُقْتَصِدَةٌ**". الاقتصاد، في اللّغة، الاعتدال في العمل من غير غلوّ ولا تقصير. وأصله القصد، وذلك، لأنّ مَن عرَف مطلوبَه فإنّه يكون قاصداً له على الطريق المستقيم من غير انحرافٍ ولا اضطراب. أمّا مَن لمْ يعرف موضعَ مقصوده فإنّه يكون متحيّراً، تارةً يذهب يميناً وأخرى يساراً. فلهذا السبب جعل الاقتصاد عبارة عن العمل المؤدّي إلى الغرض.

ثمّ في هذه الأمّة المقتصدة قولان: **أحدهما:** أنّ المراد منها الذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد اللّه بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، فهم على القصد من دينهم، وعلى المنهج المستقيم منه، ولم يميلوا إلى طرفي الإفراط والتفريط. **والثاني:** المراد منها الكفّار من

أهل الكتاب الّذينَ يكونون عدولاً في دينهم، ولا يكون فيهم عناد شديد ولا غلظة كاملة، كما قال: "وَمِنْ أهلِ الكتابِ مَن إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إليكَ" (٣/ ٧٥).

ثمّ قال: "**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**"، وفيه معنى التعجّب كأنّه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم. والمراد: منهم الأجلاف المذمومون المبغَضون الذين لا يؤثّر فيهم الدليل ولا ينجع فيهم القول.

وقوله: "**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ**": أُمِر الرسول بأنْ لا ينظر إلى قلّة المقتصِدين وكثرة الفاسقين، ولا يَخشى مكروههم، فقال: "بلِّغْ"، أي واصبر على تبليغ ما أنزلته إليك من كشف أسرارهم وفضائح أفعالهم، فإنّ اللّه يعصمك من كيدهم ويصونك من مكرهم.

ثمّ قال: "**وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**". أي: أنّه تعالى آمَنَ النّبيَّ من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم..

ثم قال: "**قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ**"، من اليهود والنصارى: "**لَسْتُمْ عَلَى شَيءٍ**"، مِنَ الدِّين، ولا في أيديكم شيء من الحقّ والصواب، "**حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**"..

ثمّ قال: "**فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ**"، وفيه وجهان: **الأوّل:** لا تأسف عليهم بسبب زيادة طغيانهم وكفرهم، فإنّ ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك، ولا إلى المؤمنين. **الثاني:** لا تتأسّف بسبب نزول اللّعن والعذاب عليهم، فإنّهم من الكافرين المستحقّين لذلك.

ابن كثير:

" **قلْ يا أهلَ الكتابِ! لَستُمْ عَلَى شَيءٍ** "، أي من الدين " **حتّى تُقيمُوا التوراةَ والإنجيلَ** "، أي حتّى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من اللّه على الأنبياء، وتعملوا بما فيها. وممّا فيها: الإيمان بمحمّد والأمر باتّباعه، والإيمان بمبعثه، والاقتداء بشريعته. ولهذا قال: " **وما أُنْزِلَ إليكمْ من ربِّكمْ** "، يعني القرآن العظيم.

القاسمي:

" **حتّى تُقيمُوا التوراةَ والإنجيلَ** "، أي تعملوا طبق الواجب بأحكامهما، وتحيوا شرائعهما، وتطيعوا أوامرهما، وتنتهوا بنواهيهما. فإنّ الإقامة هي الإتيان بالعمل على أحسن أوجهه، كإقامة الصلاة مثلاً، أي فعلها على الوجه اللائق بها. ولا يدخل في ذلك القصص التي فيهما، ولا العقائد ونحوها، فإنّها ليست عمليّة.

والمراد أنْ يعملوا بما بقي عندهم من أحكام التوراة والإنجيل على علاّته، وعلى ما به من نقص وتحريف وزيادة. فإنّ شرائع هذه الكتب وأوامرها ونواهيها هي أقل أقسامها تحريفاً. وأكثر التحريف في القصص والأخبار والعقائد وما ماثلها، وهي لا تدخل في الأمر بالإقامة. ولا شكّ أنّ أحكام التوراة والإنجيل وما فيهما من شرائع ومواعظ ونصائح ونحوها، لا تزال فيهما أشياء كثيرة لا عيب فيها، ونافعة للبشر، وفيها هداية عظمى للناس. فهي ممّا يدخل تحت قوله تعالى: " وأَنْزَلَ التّوراةَ والإنْجيلَ منْ قَبْلُ هُدًى للنّاس " (٣/٣-٤).

فإذا أقام أهلُ الكتاب أحكامهما على علاّتها كانوا لا شكّ على شيء يعتد به ويصحّ أن يسمّى ديناً. وإذا لم يقيموهما وجرَوا على

خلافهما، كانوا مجـرّدين من كلّ شيء يستحقّ أن يسمّى ديناً. وكانوا مشاغبين معاندين، وبدينهم غير مؤمنين إيماناً كاملاً.

ثم قال: "**لَسْتُمْ على شيءٍ حتّى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ**" الحقيقيَّين. وذلك يستلزم البحث والتنقيب والجدّ والاجتهاد في نقد ما عندهم منهما نقداً عقليّاً تاريخيّاً صحيحاً، حتّى يستخلصوا حقّهما من باطلهما بقدر الإمكان. ونتيجة ذلك العناء كلّه، أن يكونوا على شيء من الدين الحقّ. وهذا أمر لا شبهة فيه. ولو اتّبعوا القرآن لأراحوا واستراحوا. ولكنّهم -كما أخبر تعالى عنهم- لا يزيدهم القرآن إلاّ طغياناً وكفراً وحسداً وعناداً فلا يؤمنون به. ولا يهتمّ جمهورهم بإصلاح دينهم من المفاسد وتنقيته من الشوائب.

فكأنّ الآية تريهم أنّهم، إذا لم يتّبعوا القرآن، يجب عليهم القيام بعبءٍ ثقيل جدّاً من البحث والتمحيص. وبعد ذلك يكونون على شيءٍ من الحقّ، لا على الحقّ كلّه، ولو أقاموا التوراة والإنجيل الحقيقيّين غاية الإقامة، فما بالك إذا كان ذلك مستحيلاً لعدم وجودهما على حقيقتهما؟ فهم ليسوا على شيء مطلقاً، ولا يمكن أن يكونوا عليه، فإنّ كتبهم قد صارت خرقةً بالية، لذلك قال رسول اللّه لعمر، حينما رأى ورقةً من التوراة بيده: ألمْ آتكمْ بها بيضاء نقيّة؟ واللّهِ لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلاّ اتّباعي.

وإنْ قيل: وكيف يحثّهم اللّه على العمل بأيّ شيءٍ من دينهم، ومنه ما جاء القرآن ناسخاً له؟ قلتُ: لا شكّ عند كلّ عاقل أنّه خيرٌ لأهلِ الكتاب أن يعملوا بشرائع دينهم الأصليّة، فإنّهم حينئذٍ يتجنّبون الكذب والتحريف والعناد والأذى والإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل والزنى، وغير ذلك ممّا يعمله النّاس.

فمراد القرآن حثّهم، إنْ أصرّوا على عدم الإيمان به، على العمل بدينهم على الأقل ليستريح النّبيّ وأتباعُه من أكثر شرورهم ورذائلهم. ولكن، بعد العمل بدينهم لا يكونون على الدين الحقّ الكامل، بل الذي يُفهم من الآية أنّهم يكونون على شيء من الدين، وهو -ولا شك- خيرٌ من لا شيء. ولا يُفهم أنّهم يكونون على الحقّ كلّه وعلى الدين الكامل الذي لا غاية أعظم منه، فإنّ ذلك لا يكون إلاّ بالإسلام: "أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ ولَهُ أسْلَمَ مَنْ في السّمَوَاتِ والأرضِ طَوعاً وكَرْهاً وإليهِ يُرجَعُونَ" (٣/ ٨٣).

ولا يخفى أنّهم، إذا أقاموا التوراة والإنجيل، آمنوا بمحمّد، لما تتقاضى إقامتُهما الإيمان به، إذ كثر ما جاء فيهما من البشارات به والتنويه باسمه ودينه. فإقامتهما على وجوههما تستدعي الإسلامَ البتّة، بل هي هو.

محمّد عبده:

"**وَلَو انَّ أهلَ الكتابِ آمَنوا واتّقوا لَكَفَّرْنا عنهمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلأَدْخَلْناهمْ جَنّاتِ النَّعيم**"، أي: لو انّهم **آمنوا** بخاتم النّبيّين والمرسلين، **واتّقوا** باتّباعه تلك المفاسد التي جَرَوا عليها، **لكفّرْنا عنهم** تلك السيّئات، لأنّ هذا الإيمان يجب ما قبله، والتقوى التي تتبعه تزكّي النفس وتطهّرها من تأثير تلك السيّئات فيمحى أثرها، ويكون ذلك كفّارة لها، فيستحقّون **جنّات النعيم** التي لا بؤس فيها.

"**ولو انّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنْزِلَ إليهم من ربِّهمْ لأَكَلوا من فَوقِهِمْ ومن تحتِ أرجُلِهِمْ**": إقامةُ التوراة والإنجيل ألعملُ بهما على أقوم الوجوه وأحسنها، سواء فيه عمل النفس وهو الإيمان والإذعان، وعمل القوى والجوارح. أي: لو أقاموا ما في التوراة

والإنجيل المنزلَين من قَبلُ بنورِ التوحيد والفضائل، المبشِّرَين بالنّبي الذي يأتي من أبناء أخيهم إسماعيل، كما قال موسى، والبارقليط روح الحقّ الذي يعلّمهم كلّ شيء، كما قال عيسى، وأقاموا، بعد ذلك ما أنزل إليهم من ربّهم على لسان هذا النّبي الذي بشّرتْ به كتبُهم، وهو الفرقان الذي أكمل اللّه به الدين.

لو أقاموا جميع ذلك ولم يفرّقوا بين رسل اللّه وكتبه، لوسع اللّه عليهم بالتبع لذلك ما يهمّهم من موارد الرزق، فأكلوا من الثمرات والبركات التي تنتج من أمطار السماء ونبات الأرض، وتمتّعوا بما وعد اللّه به هذا النّبيّ وأمّتَه من سعة الملك.

وقيل إنّ المراد بما أنزِلَ إليهم من ربّهم سائر ما أوحاه اللّه تعالى إلى أنبيائهم من أمر الدين وآدابه، والبشارة بالنّبي الأخير، كزبور داود وحِكَم سليمان وكتب دانيال وأشعيا وغيرهما.. وإقامة هذه الكتب من أسباب الصلاح والإصلاح. فلو أقامها قبل البعثة المحمّديّة أهلُ الكتاب، لما غلب عليهم، ما عزاه المؤرّخون إليهم من الطغيان والفساد، ولما عاندوا النّبي المبشَّرة به ذلك المناد. ذلك بأنّهم لم يقيموها ولا تدبّروها، وإنّما كان الدين عندهم أماني يتمنّونها، وبدعاً وتقاليد يتوارثونها. فهم بين غلو وتقصير، وإفراط وتفريط. والمراد أنّ دهماءهم وسوادهم الأعظم كان كذلك كما يعلم من تواريخهم وتواريخ غيرهم.

ومن دقّة القرآن وعدله، تمحيص الحقيقة في ذلك بقوله: "**منهمْ أمّةٌ مُقتصدَةٌ. وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعملون**"، أي منهم جماعة معتدلة في أمر الدين، لا تغلو بالإفراط، ولا تهمل بالتقصير. قيل هم العدول في دينهم، وقيل هم الذين أسلموا منهم. والمعتدلون لا تخلو

منهم أمّة، ولكنّهم يكثرون في طور صلاح الأمّة وارتقائها، ويقلّون في طور فسادها وانحطاطها..

(تنبيه) إنّ الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال في هذه الآية له نظائر في آيات أخرى، كقوله تعالى: "وَمِن قَومِ موسى أُمَّةٌ يَهدُونَ بالحقِّ وبه يَعْدِلون" (٧/١٥٩)، وقوله: "ومن أهلِ الكتابِ مَنِ إنْ تَأمَنْهُ بقِنطارٍ يُؤَدِّه إليكَ، ومنهم مَن إنْ تأمَنْه بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليكَ إلاّ ما دُمْتَ عليه قائماً ذلكَ بأنّهم قالوا: ليس علينا في الأُمِّيِّين سبيلٌ. ويَقُولُونَ علَى اللّهِ الكَذِبَ وهُم يَعلَمون" (٣/٧٥). وغير ذلك.

ولولا أنّ هذا القرآن وحي من اللّه لما وجدتَ فيه مثلَ هذه الشهادة، لأنّ الإنسانَ، مهما كان عادلاً فاضلاً، لا يرى الفضيلة المستترة في خصومه الذين يناوئونه ويحاربونه فيشهد لهم بها، بل أكثر الناس يعمى عن محاسن عدوّه الظاهرة المستفيضة، وإنْ رأى شيئاً منها يظنّ أنّه نفاق وخداع...

"قلْ يا أهلَ الكتابِ! لَستُمْ على شيءٍ حتّى تُقيمُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنْزِلَ إليكمْ من ربِّكمْ"، أي "**قُلْ**" لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلِّغُهم عن اللّه تعالى: "**لَستُمْ عَلَى شَيْءٍ**" يعتدّ به من أمر الدين، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنّبيّين، "**حَتَّى تُقِيمُوا التَّورَاةَ وَالإنْجِيلَ**" فيما دَعيا إليه من التوحيد الخالص، والعمل الصالح، وفيما بشّرا به من بعثة النّبي الذي يجيء من ولد إسماعيل، الذي عبّر عنه المسيح بروح الحق وبالبارقليط، "**وَمَا أُنْزِلَ إلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**" على لسانه، وهو القرآن المجيد. فإنّه هو الذي أكمل به دين الأنبياء والمرسلين، على حسب سنّته في النشوء والارتقاء بالتدريج..

وأهل التوراة والإنجيل لم يكونوا مقيمين لتلك الكتب قبل هذا الخطاب، ولا في وقته، ولا كان في استطاعتهم أن يقيموها في عهده، كما أنّهم لا يستطيعون أن يقيموها الآن. فهذا تعجيز لهم، وتفنيد لدعواهم الاستغناء عن اتّباع خاتم النّبيّين، باتّباعهم لأنبيائهم السابقين، ولا يتضمّن الشهادة بسلامة تلك الكتب من التحريف، ومثله أن نقول الآن لدعاة النصرانيّة من الأمريكان والألمان والإنكليز:

يا أيّها الدّاعون لنا إلى اتّباع التوراة والإنجيل، نحن لا نعتد بكم، ولا نرى إنّكم على إيمان وثقة بدينكم، وصدق وإخلاص في دعوتكم، حتّى تقيموا أنتم وأهل ملّتكم التوراة والإنجيل اللّذين في أيديكم، فتحبّوا أعداءكم، وتباركوا لاعنيكم، وتعطوا ما لقيصر لقيصر، وتخضعوا لكلّ سلطة، لأنّها من اللّه. وإذا اعتدى عليكم أحد فلا تعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، بل أديروا له الخدّ الأيسر، إذا ضربكم على الخد الأيمن. واتركوا التنافس في إعداد آلات الفتك الجهنّميّة، ليكون للناس السلام في الأرض. واخرجوا من هذه الأموال الكثيرة والثروة الواسعة، لأنّ الغني لا يدخل ملكوت السموات، حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط. ولا تهتموا برزق الغد، إلخ

ونحن نراكم على نقيض كلّ ما جاء في هذه الكتب، فأنتم لا تخضعون لكلّ حاكم، بل ميّزتم أنفسكم، واستعليتم على الشرائع والحكّام من غيركم. وإذا اعتُدي على أحد منكم في بقعة من بقاع الأرض، تجرّدون سيوف دولتكم وتصوّبون مدافعها على بلاد المعتدي ودولته، لا عليه وحده، حتّى تنتقموا لأنفسكم بأضعاف ما اعتدي به عليكم. ولا همَّ لأممكم ودولكم إلاّ امتلاك ثروة العالم وزينته ونعيمه، وتسخير غيركم من الأمم لخدمتكم بالقوّة القاهرة،

والاستعداد لسحق من ينافسكم في مجد هذا العالم الفاني، لعدم اهتمامكم بمجد الملكوت الباقي.

فنحن لا نصدّق بأنّكم تدينون اللّه بهذه الكتب التي تدعوننا إليها، حتّى تقيموها على وجهها. فهل يعدّ دعاة النصرانيّة مثل هذا الخطاب لهم اعترافاً منّا بسلامة كتبهم من التحريف والزيادة والنقصان؟ أم يفهمون أنّه حجّة مبنيّة على التسليم الجدلي لأجل الالتزام؟ نعم يفهمون هذا ولكنّهم يقولون لعوام المسلمين، إنّ هذه الآية شهادة للتوراة والإنجيل بالسلامة من التحريف!!

"وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنْزِلَ إليكَ من ربِّكَ طُغْياناً وكُفْراً". هذه الآية تُثبت أنّ الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي أكمل اللّهُ به الدين، المنزل على محمّد خاتم النّبيّين، إلاّ طغياناً في فسادهم، وكفراً على كفرهم؛ ذلك بأنّهم ما كانوا على إيمان صحيح باللّه ولا بالرسل، ولا على عمل صالح ممّا تهدي إليه تلك الكتب، وإنّما كان أكثرهم على تقاليد وثنيّة، وعصبيّة جنسيّة، وعادات وأعمال رديّة. فهم، لهذا، لم ينظروا في القرآن نظر إنصاف، وليس لهم من حقيقة دينهم الحقّ ما يقرّبهم من فهم حقيقة الإسلام، ليعلموا أنّ دين اللّه واحد فما سبق بدء وهذا إتمام، بل ينظرون إليه بعين العصبيّة والعدوان، وهذا سبب زيادة الكفر والطغيان.

وأمّا غير الكثير، وهم الذين حافظوا على التوحيد، ولم تحجبهم عن نور الحق تلك التقاليد، فهم الذين يرون القرآن بعين البصيرة فيعلمون أنّه الحقّ من ربّهم، وأنّ من أنزل عليه هو النّبي الأخير المبشّر به في كتبهم، فيسارعون إلى الإيمان، على حسب حظّهم من العلم وسلامة الوجدان.

سيّد قطب:

يمضي هذا الدرس في بيان حال أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، وكشف الانحراف فيما يعتقدون، وكشف السوء فيما يصنعون. في تاريخهم كلّه، وبخاصّة اليهود، كما يمضي في تقرير نوع العلاقة بينهم وبين الرسول والجماعة المسلمة. وواجب الرسول في تعامله معهم وواجب المسلمين.. ذلك إلى تقرير حقائق أساسيّة ضخمة في أصول التصوّر الاعتقادي، وفي أصول النشاط الحركي للجماعة المسلمة، تجاه المعتقدات المنحرفة وتجاه المنحرفين..

ومن هذا الذي كلّف الرسول تبليغه أن يجابه أهل الكتاب بأنّهم ليسوا على شيء حتّى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم.. هكذا قاطعة جازمة صريحة جاهرة.. وأن يعلن كذلك كفر اليهود بنقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء، وكفر النصارى بقولهم: إنّ اللّه هو المسيح عيسى ابن مريم، وقولهم: إنّ اللّه ثالث ثلاثة. كما يعلن أنّ المسيح أنذر بني إسرائيل عاقبة الشرك، وتحريم اللّه الجنّة على المشركين.. وأن بني إسرائيل لُعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم بعصيانهم وعدوانهم.

وينتهي الدرس بكشف موقف أهل الكتاب من مظاهرة المشركين على المسلمين، وإعلان أنّ هذا ناشئ من عدم إيمانهم باللهّ والنّبيّ، وأنّهم مدعوّون إلى الإيمان بما جاء به محمّد وإلاّ فما هم بالمؤمنين...

" **قلْ يا أهلَ الكتابِ! لستُمْ على شيءٍ حتّى تُقيمُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنْزِلَ إليكمْ من ربِّكُمْ** " . وحينما كُلّف الرسول أن يواجههم بأنّهم ليسوا على شيء من الدين والعقيدة والإيمان.. بل

ليسوا على شيء أصلاً يرتكن عليه! حينما كلّف الرسول بمواجهتهم هذه المواجهة الحاسمة الفاصلة، كانوا يتلون كتبهم. وكانوا يتّخذون لأنفسهم صفة اليهوديّة أو النصرانيّة. وكانوا يقولون: إنّهم مؤمنون..

ولكنّ التبليغ الذي كُلّف رسول الله أن يواجههم به، لم يعترف لهم بشيء أصلاً ممّا كانوا يزعمون لأنفسهم، لأنّ "الدِّين" ليس كلمات تقال باللسان، وليس كتباً تُقرأ وترتّل، وليس صفة تورث وتدّعى. إنّما الدين منهج حياة. منهج يشمل العقيدة المستترة في الضمير، والعبادة الممثّلة في الشعائر، والعبادة التى تتمثّل في إقامة نظام الحياة كلّها على أساس هذا المنهج.. ولمّا لم يكن أهل الكتاب يقيمون الدين على قواعده هذه، فقد كُلّف الرسول أن يواجههم بأنّهم ليسوا على دين، وليسوا على شيء أصلاً من هذا القبيل.

وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم، مقتضاها الأوّل الدّخول في دين الله الذي جاء به محمّد فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكلّ رسول ويعزروه وينصروه، وصفة محمّد وقومه عندهم في التوراة وعندهم في الإنجيل -كما أخبر الله وهو أصدق القائلين- فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم -سواء كان المقصود بقوله: "وما أنزلَ إليكم من ربّكم" هو القرآن، كما يقول بعض المفسّرين، أو هو الكتب الأخرى التي أنزلتْ لهم كزبور داود-.. نقول إنّهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم إلاّ أن يدخلوا في الدين الجديد، الذي يصدّق ما بين يديهم ويهيمن عليه.. فهم ليسوا على شيء، بشهادة الله سبحانه، حتّى يدخلوا في الدين الآخر.. والرسولُ قد كُلّف أن يواجههم بهذا

القرار الإلهي في شأنهم، وأن يبلّغهم حقيقة صفتهم وموقفهم؛ وإلاّ فما بلّغ رسالةَ ربّه.. ويا له من تهديد!

وكان اللّه، سبحانه، يعلم أنّ مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة، وبهذه الكلمة الفاصلة، ستؤدّي إلى أن تزيد كثيراً منهم طغياناً وكفراً، وعناداً ولجاجاً.. ولكن هذا لم يمنع من أمر الرسول أن يواجههم بها، وألاّ يأسى على ما يصيبهم من الكفر والطغيان والضلال والشرود بسبب مواجهتهم بها، لأنّ حكمته سبحانه تقتضي أن يصدع بكلمةالحق، وأن تترتّب عليها آثارها في نفوس الخلق، فيهتدي من يهتدي عن بيّنة، ويضلّ من يضلّ عن بيّنة، ويهلك من يهلك عن بيّنة، ويحيا من يحيا عن بيّنة : " **وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنْزِلَ إليكَ من ربِّكَ طُغْياناً وكُفْراً. فلا تَأْسَ على القومِ الكافرين** " .

فإذا نحن اعتبرنا كلمة اللّه في هذه القضيّة هي كلمة الفصل، كما هو الحقّ والواقع، لم يبقَ هنالك موضع لاعتبار أهل الكتاب.. أهل دين.. يستطيع "المسلم" أن يتناصر معهم فيه للوقوف في وجه الإلحاد والملحدين؛ كما ينادي بعض المخدوعين وبعض الخادعين! فأهل الكتاب لم يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم، حتّى يعتبرهم المسلم "على شيء" وليس للمسلم أن يقرّر غير ما قرّره اللّه: "وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ، إذا قضَى اللّهُ ورسولُه أمراً أن يكونَ لهم الخِيرةُ مِنْ أمرِهم" (٣٣/ ٣٦).. وكلمة اللّه باقية لا تغيّرها الملابسات والظروف!

وإذا نحن اعتبرنا كلمة اللّه هي كلمة الفصل، كما هو الحق والواقع، لم يكن لنا أن نحسب حساباً لأثر المواجهة لأهل الكتاب بهذه الحقيقة، في هياجهم علينا، وفي اشتداد حربهم لنا، ولم يكن لنا أن

نحاول كسب مودّتهم بالاعتراف لهم بأنّهم على دينٍ نرضاه منهم ونقرّهم عليه، ونتناصر نحن وإيّاهم لدفع الإلحاد عنه، كما ندفع الإلحاد عن ديننا الذي هو الدين الوحيد الذي يقبله اللّه من الناس..

إنّ اللّه، سبحانه، لا يوجّهنا هذا التوجيه، ولا يقبل منّا هذا الاعتراف، ولا يغفر لنا هذا التناصر، ولا التصوّر الذي ينبعث التناصر منه. لأنّنا حينئذٍ نقرّر لأنفسنا غير ما يقرّر؛ ونختار في أمرنا غير ما يختار؛ ونعترف بعقائد محرّفة أنّها "دين" إلهي يجتمع معنا في آصرة الدين الإلهي.. واللّه يقول: إنّهم ليسوا على شيء، حتّى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم.. وهم لا يفعلون!

.. والذي يريد أن يكون مسلماً يجب عليه -بعد إقامة كتاب اللّه في نفسه وفي حياته- أن يواجه الذين لا يقيمونه بأنّهم ليسوا على شيء حتّى يقيموه، وأن دعواهم أنّهم على دين، يردّها عليهم ربّ الدين. فالمفاصلة في هذا الأمر واجبة؛ ودعوتهم إلى الإسلام من جديد هي واجب المسلم الذي أقام كتاب اللّه في نفسه وفي حياته. فدعوى الإسلام باللّسان أو بالوراثة دعوى لا تفيد إسلاماً، ولا تحقّق إيماناً، ولا تعطي صاحبها صفة التديّن بدين اللّه، في أيّ ملّة، وفي أيّ زمان!

وبعد أن يستجيب هؤلاء أو أولئك، ويقيموا كتاب اللّه في حياتهم، يملك المسلم أن يتناصر معهم في دفع غائلة الإلحاد والملحدين، عن الدين وعن المتديّنين.. فأمّا قبل ذلك فهو عبث، وهو تمييع، يقوم به خادع أو مخدوع!

.. وصاحب الدعوة لا يكون قد بلّغ عن اللّه، ولا يكون قد أقام الحجّة للّه على الناس، إلاّ إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة، ووصف لهم

ما هم عليه كما هو في حقيقته، بلا مجاملة ولا مداهنة.. فهو قد يؤذيهم إنْ لمْ يبيّنْ لهمْ أنّهمْ ليسوا على شيء، وأنّ ما هم عليه باطل كلّه من أساسه، وأنّه هو يدعوهم إلى شيء آخر تماما غير ما هم عليه.. يدعوهم إلى نقلة بعيدة، ورحلة طويلة، وتغيير أساسي في تصوّراتهم وفي أوضاعهم وفي نظامهم وفي أخلاقهم.. فالناس يجب أن يعرفوا مَن الداعية، أين هم من الحق الذي يدعوهم إليه..

.. وقد ينظر بعضُنا اليوم، مثلاً، فيرى أنّ أهلَ الكتاب هم أصحاب الكثرة العدديّة وأصحاب القوّة المادّيّة، وينظر فيرى أصحاب الوثنيّات المختلفة يعدّون بمئات الملايين في الأرض، وهم أصحاب كلمة مسموعة، في الشؤون الدوليّة، وينظر فيرى أصحابَ المذاهب المادّيّة أصحاب أعداد ضخمة وأصحاب قوّة مدمّرة، وينظر فيرى الذين يقولون: إنّهم مسلمون ليسوا على شيء لأنّهم لا يقيمون كتاب اللّه المنزل إليهم.. فيتعاظمه الأمر، ويستكثر أن يواجه هذه البشريّة الضالّة كلّها بكلمة الحقّ الفاصلة، ويرى عدم الجدوى في أن يبلّغ الجميع أنّهم ليسوا على شيء! وأن يبيّن لهم الدين الحقّ!

(٥٤)

كفر مَن قال: اللّه هو المسيح، واللّه ثالث ثلاثة

"لَقد كَفرَ الّذينَ قالُوا إنّ اللّهَ هوَ المسيحُ ابنُ مريمَ. وقالَ المسيحُ: يا بَني إسرائيلَ! اعبُدوا اللّهَ رَبّي وربَّكمْ. إنّه مَن يُشْرِكْ باللّهِ فقدْ حرّمَ اللّهُ عليهِ الجَنّةَ. ومأواهُ النّارُ. وما للظّالمينَ من أنصارٍ.

لقد كفر الذينَ قالوا إنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثلاثةٍ. وما مِنْ إلهٍ إلاَّ إلهٌ واحدٌ. وإنْ لم يَنتَهُوا عـمَّا يقولونَ ليَمَسَّنَّ الَّذينَ كَفَـروا منهمْ عَذابٌ اليمٌ. أفَلا يَتُوبونَ إلى اللّهِ ويَستَغفِرونَهُ. واللّهُ غَـفُورٌ رحيمٌ. ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا ياكُلانِ الطَّعَامَ.

انظُرْ كيفَ نُبَيِّنُ لهمُ الآياتِ. ثمَّ انظرْ أنّى يُؤْفَكُونَ. قلْ أتَعبُدُونَ مِن دونِ اللّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً. واللّهُ هوَ السَّميعُ العليمُ.

قُلْ يا أهلَ الكتـابِ! لا تَغْلُوا في دينِكُمْ غـيرَ الحقِّ. ولا تَتَّـبِعُـوا أهْواءَ قَومٍ قد ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ، وَأضَلُّوا كثيراً، وَضَلُّوا عن سَوَاءِ السَّبيلِ.

لُعِنَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ بني إسرائيلَ على لسانِ داوُدَ وعيسَى ابنِ مريَمَ. ذلِكَ بمَا عَصَوا وكانوا يَعتَدُونَ" (سورة المائدة ٥/ ٧٢-٧٨).

الطبري:

"لقد كَفرَ الَّذينَ قـالُوا إنَّ اللّهَ هوَ المسيحُ ابنُ مريمَ". هذا خبر من اللّه عن بني إسرائيل الذين نقـضوا ميثاقي، وغيّـروا عهدي، الذي كنتُ أخذتُه عليهـم، بأن لا يعبدوا سواي، ولا يتّخـذوا ربّاً غيري، وأن يوحِّدوني، وينتـهوا إلى طاعة عـبدي عيـسى. فإنّي خلقتـه، وأجريتُ على يده نحو الذي أجريتُ على يد كثيـرٍ من رسلي، فقالوا كفراً منهم، هو اللّه. وهذا قول اليعقوبيّة من النصارى، عليهم غضب اللّه.

يقول اللّه: "فلمّا اخـتبرتهم وابتليتهم بما ابتليتُـهم به، أشركوا بي، وقالوا لخَلقٍ من خَلقي، وعبدٍ من عبـيدي، وبشرٍ نحوهم معروفٌ نسـبُه وأصله، مـولود من البشـر، يدعوهم إلى توحـيدي، ويأمـرهم بعـبـادتي وطاعـتـي، ويقـرّ لهم بأنّي ربّه وربّهـم، وينهـاهم عن أن

يُشركوا بي شيئاً، هو إلههم، جهلاً منهم بالله، وكفراً به. ولا ينبغي لله أن يكون والداً ولا مولوداً".

"**وقالَ المسيحُ: يا بَني إسرائيلَ! اعْبُدوا اللهَ رَبّي وربَّكمْ**". أي: يقول: إجعلوا العبادة والتذلل للّذي له يذلّ كلّ شيء، وله يخضع كلّ موجود. "**رَبّي وربَّكم**"، أي: مالكي ومالككم، وسيّدي وسيّدكم، الذي خلقني وإيّاكم. "**إنّه مَنْ يُشْرِكْ باللّهِ فَقَد حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ**"، أي: أن يسكنها في الآخرة، "**وَمَأوَاهُ النَّارُ**"، أي: ومرجعه ومكانه الذي يأوي إليه. ويصير في معاده من جعل لله شريكاً في عبادته نار جهنّم. "**وَمَا للظَّالِمينَ**"، أي: وليس لمن فعل غير ما أباح الله له وعبد غير الذي له عبادة الخلق "**مِنْ أنْصَارٍ**" ينصرونه يوم القيامة من الله، فينقذونه منه إذا أورده جهنّم.

"**لَقَد كَفَرَ الَّذينَ قَالوا إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثة**". وهذا أيضاً خبر من الله عن فريق آخر من الإسرائيليّين الذين وصف صفتهم في الآيات قبل أنّه لمّا ابتلاهم بعد حسبانهم أنّهم لا يُبتلون ولا يُفتنون، قالوا كفراً بربّهم، وشركاً: "**اللّهُ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**". وهذا قول كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبيّة والملكانيّة والنسطوريّة. كانوا، فيما بلَغنا، يقولون: ألإله القديم جوهر واحد، يعمّ ثلاثة أقانيم: أباً والِداً غير مولود، وابناً مولوداً غير والد، وزوجاً متتبعة بينهما.

يقول الله مكذّباً لهم فيما قالوا من ذلك: "**وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاّ إلهٌ واحدٌ**"، أي: ما لكم معبود، أيّها النّاس، إلاّ معبود واحد، وهو الذي ليس بوالد لشيء، ولا مولود، بل هو خالق كلّ والد ومولود. "**وَإنْ لم يَنتَهُوا**"، قائلو هذه المقالة، "**عمَّا يَقولونَ**"، من قولهم الله ثالث ثلاثة، "**لَيَمَسَّنَّ الَّذينَ كَفَرُوا مِنهُمْ عَذابٌ أليمٌ**"، أي من الفريقَين: الذين قالوا

إنّ الله هو المسيح ابن مريم، والذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، وأيضاً كلّ كافر سلك سبيلهم.

"**أَفَلا يَتُوبونَ إلى اللهِ**" عمّا قالوا، "**وَيَسْتَغْفِرونَهُ**" عن كفرهم؟ "**واللَّهُ غَفُورٌ**" لذنوب التائبين بعد معصيتهم، "**رحيمٌ**" بهم في قبوله توبتهم فيصفح عن فعلهم عمّا سلف من إجرامهم.

"**مَا المسيحُ ابنُ مَريَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَد خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأكُلانِ الطَّعَامَ**". وهذا من الله احتجاجاً لنبيّه محمّد على فرق النصارى في قولهم في المسيح. يقول مكذِّباً لليعقوبيّة في قيلهم هو الله، والآخرين في قيلهم هو ابن الله. ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة في المسيح. ولكنّه ابن مريم، ولدتْه ولادةَ الأمّهات أبناءَهنّ. وذلك من صفة البشر، لا من صفة خالق البشر.

وإنّما هو للّه رسول كسائر رسله الذين كانوا قبله، فمضَوا وخلوا. أُجري على يده ما شاء أن يجريه عليها من الآيات والعبر حجّةً له على صدقه، وعلى أنّه للّه رسول إلى مَن أرسله إليه من خلقه، كما أجرى على أيدي مَن قبله من الرسل من الآيات والعبر حجّة لهم على حقيقة صدقهم في أنّهم للّه رسل.

"**وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ**"، لصدقِها، ولتصديقها. "**كَانَا يأْكُلانِ الطَّعَامَ**"، أي: خبر عن المسيح وأمّه أنّهما كانا أهلَ حاجة إلى ما يغْذوهما، وتقوم به أبدانُهما من المطاعم والمشارب، كسائر البشر من بني آدم. فإنّ مَن كان كذلك فغير كائن إلهاً، لأنّ المحتاج إلى الغذاء قوامُه بغيرِه، وفي قوامه بغيره وحاجته إلى ما يُقيمه دليلٌ واضح على عجزه. والعاجز لا يكون إلاّ مربوباً لا ربّاً.

"**انْظُرْ كَيفَ نُبَيِّنُ لهمُ الآياتِ. ثمَّ انظرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**"، أي: أنظر، يا محمّد، كيف نبيّن لهؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى، الآيات، وهي الأدلّة والأعلام والحجج على بطول ما يقولون في أنبياء اللّه، وفي فريتهم على اللّه، وادّعائهم له ولداً، وشهادتهم لبعض خلقه بأنّه لهم ربّ وإله. ثمّ لا يرتدعون عن كذبهم وباطل قيلهم، ولا ينزجرون عن فريتهم على ربّهم وعظيم جهلهم مع ورود الحجج القاطعة عذرهم عليهم.. ثم انظر، يا محمّد، مع تبييننا لهم آياتنا على بطول قولهم، أنَّى يُؤفَكُون، أي أيّ وجه يصرفون عن بياننا الذي بينتُه لهم، وكيف عن الهدى الذي نهديهم إليه من الحقّ يضلّون!.

"**قلْ أتَعبُدُونَ مِن دونِ اللّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرَاً ولا نَفْعاً**". أي: قل، يا محمّد، لهؤلاء الكفرة من النصارى الزاعمين أنّ المسيح ربّهم والقائلين إنّ اللّه ثالث ثلاثة: أتعبدون سوى اللّه الذي يملك ضرّكم ونفعكم، وهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو يحييكم ويميتكم، شيئاً لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً؟! إنّ المسيح، الذي زعم مَن زعم من النّصارى، أنّه إله، والذي زعم من زعم منهم، أنّه للّه ابن، لا يملك لهم ضرّاً يدفعه عنهم أن أحلّه اللّه بهم، ولا نفعاً يجلبه إليهم إنْ لم يقضه اللّه لهم. يقول تعالى ذكرُه: فكيف يكون ربّاً وإلهاً مَن كانت هذه صفته. بل الربّ المعبود الذي بيده كلّ شيء، والقادر على كلّ شيء، فإيّاه فاعبدوا وأخلِصوا له العبادة دون غيره ممّن لا ينفع ولا يضرّ.

وأمّا قوله: "**وَاللّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ**"، فإنّه يعني بذلك: واللّه هو السميع لاستغفارهم لو استغفروه من قيلهم ما أخبر عنهم أنّهم يقولونه في المسيح، ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه، ألعليم بتوبتهم لو تابوا منه وبغير ذلك من أمورهم.

"**قُلْ**" يا محمّد لهؤلاء الغالية من النصارى في المسيح: "**يا أَهْلَ الكتاب**"، أي: الإنجيل! "**لا تَغْلُوا في دِيْنِكُمْ**"، أي: لا تفرّطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه "**الحقَّ**" إلى الباطل، فتقولوا فيه هو اللّه، أو هو ابنه. "**ولا تَتَّبِعُوا أهْوَاءَ قَومٍ قَد ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ، وَأَضَلُّوا كَثيراً**"، أي: ولا تتّبعوا أيضاً في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلّوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا: هو لغير رشدة، وتبهتوا أمّه كما يبهتونها بالفريّة، وهي صدّيقة. وأضلّوا كثيراً، أي: وأضلّ هؤلاء اليهود كثيراً من الناس فحادوا بهم عن طريق الحقّ، وحملوهم على الكفر باللّه والتكذيب بالمسيح. "**وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**"، أي: وضلّ هؤلاء اليهود عن قصد الطريق، وركبوا غير محجّة الحقّ. وإنّما يعني تعالى ذكرُه بذلك: كفرهم باللّه وتكذيبهم رسله عيسى ومحمّداً، وذهابهم عن الإيمان، وبعدهم منه. وذلك كان ضلالهم الذي وصفهم اللّه به.

"**لُعِنَ الّذينَ كَفَرُوا مِنْ بني إسرائيلَ على لسانِ داوُدَ وعيسَى ابنِ مريَمَ**"، أي لُعن اليهودُ بكلّ لسان: لعنوا على عهد موسى في التوراة؛ ولعنوا على عهد داود في الزبور، فصاروا قردة؛ ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، فصاروا خنازير؛ ولعنوا على عهد محمّد في القرآن.. "**ذلِكَ بِمَا عَصَوا**" اللّهَ فخالفوا أمره، "**وكانوا يَعتَدُونَ**"، أي يتجاوزون حدوده.

الرازي:

"**لَقد كَفَرَ الّذينَ قَالُوا إنّ اللّهَ هُوَ المسِيحُ ابنُ مَريَمَ**". وهذا هو قول اليعقوبيّة لأنّهم يقولون: إنّ مريم ولدت إلهاً. ثمّ حكى تعالى عن المسيح أنّه قال: "**يا بَني إسرائيلَ! اعْبُدوا اللّهَ رَبّي وربَّكُمْ**"، أي: لم

يفرّق بين نفسه وبين غيره: "**إنّه مَن يُشْرِكْ باللّهِ فقدْ حرّمَ اللّهُ عليهِ الجنّةَ. ومأواهُ النّارُ. وما للظّالمينَ من أنصارٍ**". في هذا الكلام أعظم أنواع الوعيد والتهديد في حقّ المشركين، وهو أنّ اللّه حرّم عليهم الجنّة، وجعل مأواهم النّار، وأنّه ليس لهم ناصر ينصرهم، ولا شافع يشفع لهم. فلو كان حال الفسّاق من المؤمنين كذلك لما بقي لتهديد المشركين على شركهم بهذا الوعيد فائدة.

"**لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قَالوا إنّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**". يقول الرازي: في تفسير قول النّصارى: "**ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**" طريقان:

الطريق الأوّل: قول بعض المفسّرين، وهو أنّهم أرادوا بذلك أنّ اللّه، ومريم، وعيسى، آلهة ثلاثة. والذي يؤكّد ذلك قوله تعالى للمسيح: "أَأَنْتَ قُلْتَ للنّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ؟" (٥/ ١١٦). فقوله: "**ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**"، أي: أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة. والدليل على أنّ المراد ذلك قوله في الردّ عليهم: "**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلاّ إِلَهٌ وَاحِدٌ**". وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار. إلاّ أنّه حذف ذكر الآلهة لأنّ ذلك معلوم من مذاهبهم. قال الواحدي: ولا يكفر مَن يقول: إنّ اللّه ثالث ثلاثة، إذا لم يُرِدْ به ثالث ثلاثة آلهة. فإنّه ما من شيئَين إلاّ واللّهُ ثالثهما بالعلم، لقوله تعالى: "**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلاّ هُوَ رَابِعُهُمْ، ولا خَمْسَةٍ إلاّ هُوَ سَادِسُهُمْ**" (٥٨/ ٧).

الطريق الثاني: أنّ المتكلّمين حكوا عن النصارى أنّهم يقولون: إنّ اللّه جوهر واحد، ثلاثة أقانيم: أب، وإبن، وروح القدس. وهذه الثلاثة إله واحد؛ كما أنّ الشمس إسم يتناول القرص والشعاع والحرارة. وعنوا بالآب الذّات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة. وأثبتوا الذات.. وقالوا: إنّ الكلمة التي هي كلام اللّه اختلطت بجسد

عيسى اختلاط الماء بالخمر، واختلاط الماء باللّبن؛ وزعموا أنّ الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكلّ إله واحد. واعلم أنّ هذا معلوم البطلان ببديهة العقل. فإنّ الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة. ولا يُرَى في الدنيا مقالة أشدّ فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى.

" **وإنْ لم يَنتَهُوا عمّا يَقولونَ لَيَمَسَّنَّ الّذينَ كَفروا منهمْ عَذابٌ أليمٌ** ". قال الزّجاج: معناه: ليمسّنّ الذين أقاموا على هذا الدين، لأنّ كثيراً منهم تابوا عن النصرانيّة.

" **ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ** "، أي: ما هو إلاّ رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من اللّه كما أتوا بأمثالها. فإنْ كان اللّه أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده، فقد أحيا العصا وجعلها حيّةً تَسعَى، وفلق البحر على يد موسى، وإن كان خلقه من غير ذَكَر، فقد خلق آدم من غير ذَكر، ولا أنثى.

" **وأمُّهُ صِدِّيقَةٌ** "، وفي تفسير ذلك وجوه: **أحدها**: أنّها صدّقتْ بآيات ربِّها وبكلّ ما أخبر عنه ولدها. قال تعالى في صفتها: " وصَدَّقَتْ بكلماتِ ربِّها وكُتُبِهِ ". و**ثانيها**: أنّه تعالى قال: " فَأَرْسَلْنَا إليها رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لها بَشَراً سَوِيّاً " (١٩/ ١٧)، فلمّا كلّمها جبريل وصدّقتْه وقع عليها اسم الصدّيقة. و**ثالثها**: أنّ المراد بكونها صدّيقة غاية بعدها عن المعاصي وشدّة جدّها واجتهادها في إقامة مراسم العبوديّة. فإنّ الكامل في هذه الصفة يسمّى صدّيقاً. قال تعالى: " فأولئكَ مَعَ الذينَ أنعمَ اللّهُ عليهم من النّبيّينَ والصِّدِّيقينَ " (٤/ ٦٩).

" **كانا يأكُلانِ الطّعَامَ** ". إعلم أنّ المقصود من ذلك الاستدلال على فساد قول النصارى. وبيانه من وجوه: **الأوّل**: إنّ كلّ مَن كان له

أمْ فقد حدث بعد أنْ لمْ يكنْ. وكلّ من كـان كذلك كان مخلوقـاً لا إلهاً.
والثاني: أنّهما كـانا محتاجَين، لأنّهمـا كانا محتـاجَين إلى الطعام أشدّ الحاجة. والإله هو الذي يكون غنيّاً عن جـميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهاً! **والثالث:** إنّ الإله هو القادر على الخلق والإيجـاد، فلو كان إلهاً لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب. فلمّا لم يقدر علـى دفع الضرر عن نفـسه، كيف يعـقل أن يكون إلهاً للـعالمين.
وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل.

" انْظُرْ كَـيفَ نُبَـيِّنُ لهـمُ الآياتِ. ثمَّ انظُرْ أنّى يُـؤْفَكُونَ "، أي يُصـرَفـون عن الحقّ. والإفـك الكذب، لأنّه صـرف عن الحق. وكلّ مصروف عن الشيء مأفوك عنه..

" قلْ أتَعـبُدُونَ مِن دونِ اللهِ مـا لا يَمْلِكُ لكُمْ ضَـرّاً ولا نَفْعـاً ".
وهذا دليل آخـر على فسـاد قول النـصارى. وهو يحـتمل أنواعـاً من الحجّة:

الأوّل: إنّ اليهود كـانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فـما قدر على الإضرار بهم؛ وكـان أنصاره وصحابتـه يحبّونه، فمـا قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم. والعاجز عن الإضرار والنفع، كيف يعقل أن يكون إلهاً!

الثاني: إنّ مذهب النصارى أنّ اليهود صلبوه ومزّقوا أضلاعه، ولمّا عطش وطلب الماء منـهم صبّـوا الخلّ في منخـرَيه. ومن كـان في الضعف هكذا، كيف يعقل أن يكون إلهاً!

الثـالث: إنّ إله العـالَم يجب أن يكون غنيّـاً عن كلّ مـا سـواه، ويكون كلّ ما سواه محـتاجاً إليه. فلو كان عيـسى كذلك لامتنع كونه

مشغولاً بعبادة الله تعالى، لأنّ الإله لا يَعبد شيئاً، إنّما العبد هو الذي يعبد الإله. ولمّا عُرف بالتواتر كونه كان مواظباً على الطاعات والعبادات علمنا أنّه إنّما كان يفعلها لكونه محتاجاً في تحصيل المنافع ودفع المضار إلى غيره. ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضار عنهم. وإذا كان كذلك كان عبداً كسائر العبيد. وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم، حيث قال لأبيه: "لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْني عنكَ شيئاً" (١٩/ ٤٢)

"**واللّهُ هوَ السّميعُ العليمُ**". يعني: سميع بكفرهم، عليم بضمائرهم.

"**قُلْ يا أهلَ الكتابِ! لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ غيرَ الحقِّ**". ألغلو نقيض التقصير. ومعناه الخروج عن الحدّ، وذلك لأنّ الحقّ بين طرفَي الإفراط والتفريط. ودين الله بين الغلوّ والتقصير. وقوله: "غير الحقّ"، أي: لا تغلوا في دينكم غلوّاً غير الحقّ، أي غلوّاً باطلاً..

"**ولا تَتَّبِعُوا أهْواءَ قَومٍ قد ضلُّوا مِنْ قَبْلُ، وأَضلُّوا كَثيراً، وَضلُّوا عن سَوَاءِ السَّبيلِ**". إنّه تعالى وصفهم بثلاث درجات في الضلال. فبيّن أنّهم كانوا ضالّين من قبل. ثم ذكر أنّهم كان مضلّين لغيرهم. ثمّ ذكر أنّهم استمرّوا على تلك الحالة حتّى أنّهم الآن ضالّون كما كانوا... ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأوّل الضلال عن الدين، وبالضلال الثاني الضلال عن طريق الجنّة.

"**لُعِنَ الّذينَ كَفَرُوا مِنْ بني إسرائيلَ على لسانِ داوُدَ**" (يعني أصحابَ السبت)، **وعيسَى ابنِ مريَمَ** (يعني أصحاب المائدة). "**ذلِكَ بمَا عَصَوا وكانوا يَعتَدُونَ**"، أي: أنّ ذلك اللّعن كان بسبب أنّهم يعصون ويبالغون في ذلك العصيان.

إبن كثير:

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى ممّن قال منهم بأنّ المسيح هو اللّه، تعالى اللّه عن قولهم، وتنزّه وتقدّس. هذا وقد تقدّم لهم أنّ المسيح عبد اللّه ورسوله. وكان أوّل كلمة نطق بها، وهو صغير في المهد، أن قال: إنّي عبد اللّه. ولم يقل إنّي أنا اللّه، ولا ابن اللّه، بل " قَالَ إنّي عَبْدُ اللّه. آتَانيَ الكتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً " (١٩/ ٣٠)، إلى أنْ قال " إنّ اللّهَ رَبِّي وربُّكُمْ فاعْبُدُوهُ. هَذا صِراطٌ مسْتَقيمٌ " (٣/ ٥١).

وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبّوته آمراً لهم بعبادة اللّه ربّه وربِّهم وحده لا شريك له. ولهذا قال تعالى: " **وقالَ المسيحُ: يا بَني إسرائيلَ! اعْبُدوا اللّهَ رَبّي وربّكمْ. إنّه مَن يُشْرِكْ باللّهِ** "، أي فيعبد معه غيرَه، " **فقدْ حرّمَ اللّهُ عليهِ الجنّةَ. ومأواهُ النّارُ** "، أي: فقد أوجب له النّار وحرّم عليه الجنّة، كما قال: "إنّ اللّهَ لا يَغْفرُ أنْ يُشْرَكَ به. وَيَغْفِرُ مَا دونَ ذلكَ لِمَن يَشاءُ" (٤/٤٨)، وقال: "وَنَادَى أصْحابُ النّارِ أصحابَ الجَنّةِ أنْ أفيضوا علينا مِنَ الماءِ، أو مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ. قالوا: إنّ اللّهَ حرَّمَهما على الكَافِرين " (٧/ ٥٠).

" **وما للظّالِمينَ مِن أنْصَارٍ** "، أي: وما له عند اللّه ناصر ولا معين ولا منقذ ممّا هو فيه.

" **لقد كفر الذينَ قالوا إنّ اللّهَ ثالِثُ ثلاثةٍ** ". قال السدّي وغيره: نزلت في جعل النصارى المسيحَ وأمّه إلهَين مع اللّه، فجعلوا اللّه ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار. قال السدّي، وهو كقوله تعالى في آخر السورة: " **وإذْ قالَ اللّهُ: يا عيسى ابنَ مريمَ! أأنْتَ قُلْتَ للنّاسِ اتّخِذُوني وأُمّيَ إلَهَيْنِ مِن دونِ اللّهِ؟ قال: سُبْحانَكَ** " (٥/ ١١٦). وهذا القول هو الأظهر. واللّه أعلم.

وقال: "**وما مِنْ إلـهٍ إلاّ إلهٌ واحدٌ**"، أي: ليس متعدِّداً، بل هو وحده، لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات.

ثمّ قال تعالى متوعِّداً لهم ومتهدِّداً: "**وإنْ لم يَنتَهُوا عمَّا يَقولونَ**"، أي: من هذا الافتراء والكذب، "**لَيَمَسَّنَّ الّذينَ كَفروا منهمْ عَذابٌ أليمٌ**"، أي في الآخرة من الأغلال والنكال. ثمّ قال: "**أفَلا يَتُوبونَ إلى اللهِ ويَستَغْفِرونَهُ. واللهُ غَفورٌ رحيمٌ**". وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفْك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكلّ مَن تاب إليه تاب عليه.

"**ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ**"، أي: له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدّمين عليه، وأنّه عبد من عباد اللّه، ورسول من رسله الكرام، كما قال: "إنْ هُوَ إلاّ عبْدٌ أنْعَمْنَا عليهِ وَجَعَلنَاه مَثَلاً لبني إسرائيلَ" (٤٣/٥٩).

وقوله: "**وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ**"، أي مؤمنة به، مصدِّقة له. وهذا أعلى مقاماتها. فدلّ على أنّها ليست بنبيّة، كما زعمه ابن حزم وغيرُه ممّن ذهب إلى نبوّة سارة أمِّ إسحق، ونبوّةِ أمِّ موسى، ونبوّة أمّ عيسى، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم بقوله: "وَأَوحَينَا إلَى أمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيْهِ" (٢٨/٧). وهذا معنى النبوّة والذي عليه الجمهور: إنّ اللّه لم يبعثْ نبيّاً إلاّ من الرِّجال. قال: "وَمَا أرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاّ رِجالاً نُوحِي إليهم من أهلِ القُرَى" (١٢/١٠٩).

"**كانا يأكُلانِ الطَّعَامَ**"، أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما. فهما عبدان كسائر الناس. وليسا بإلهين، كما زعمت فرق النصارى الجهلة. عليهم لعائن اللّه المتتابعة إلى يوم القيامة.

ثمّ قال تعالى: "**انْظُرْ كيفَ نُبَيِّنُ لهمُ الآياتِ**"، أي: نوضحها ونظهرها. "**ثمَّ انظُرْ أنّى يُؤْفَكُونَ**"، أي ثمّ انظر، بعد هذا البيان والوضوح والجلاء، أين يذهبون، وبأيّ قولٍ يتمسّكون، وإلى أيّ مذهب من الضلال يذهبون...

"**قلْ**"، يا محمّد. والكلام موجّه إلى عبدة الأصنام: "**أتَعبُدُونَ مِن دونِ اللّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً. واللّهُ هوَ السّميعُ**" لأقوال عباده، "**العليمُ**" بكلّ شيء. فَلِمَ عدلتم عنه إلى عبادة جمادٍ لا يسمع، ولا يبصر، ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضرّاً ولا نفعاً لغيره، ولا لنفسه.

ثمّ قال: "**قُلْ يا أهلَ الكتابِ! لا تَغْلُوا في دينِكُمْ غيرَ الحقِّ**" أي: لا تجاوزوا الحدّ في اتّباع الحقّ، ولا تطروا مَن أُمرتم بتعظيمه، فتبالغوا فيه حتّى تُخرجوه عن حيّزِ النّبوّة إلى مقام الإلهيّة، كما صنعتم في المسيح، وهو نبيّ من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون اللّه. وما ذاك إلاّ لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممّن ضلّ قديماً. "**وَأضَلُّوا كثيراً، وَضَلُّوا عن سَوَاءِ السَّبيلِ**"، أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال.

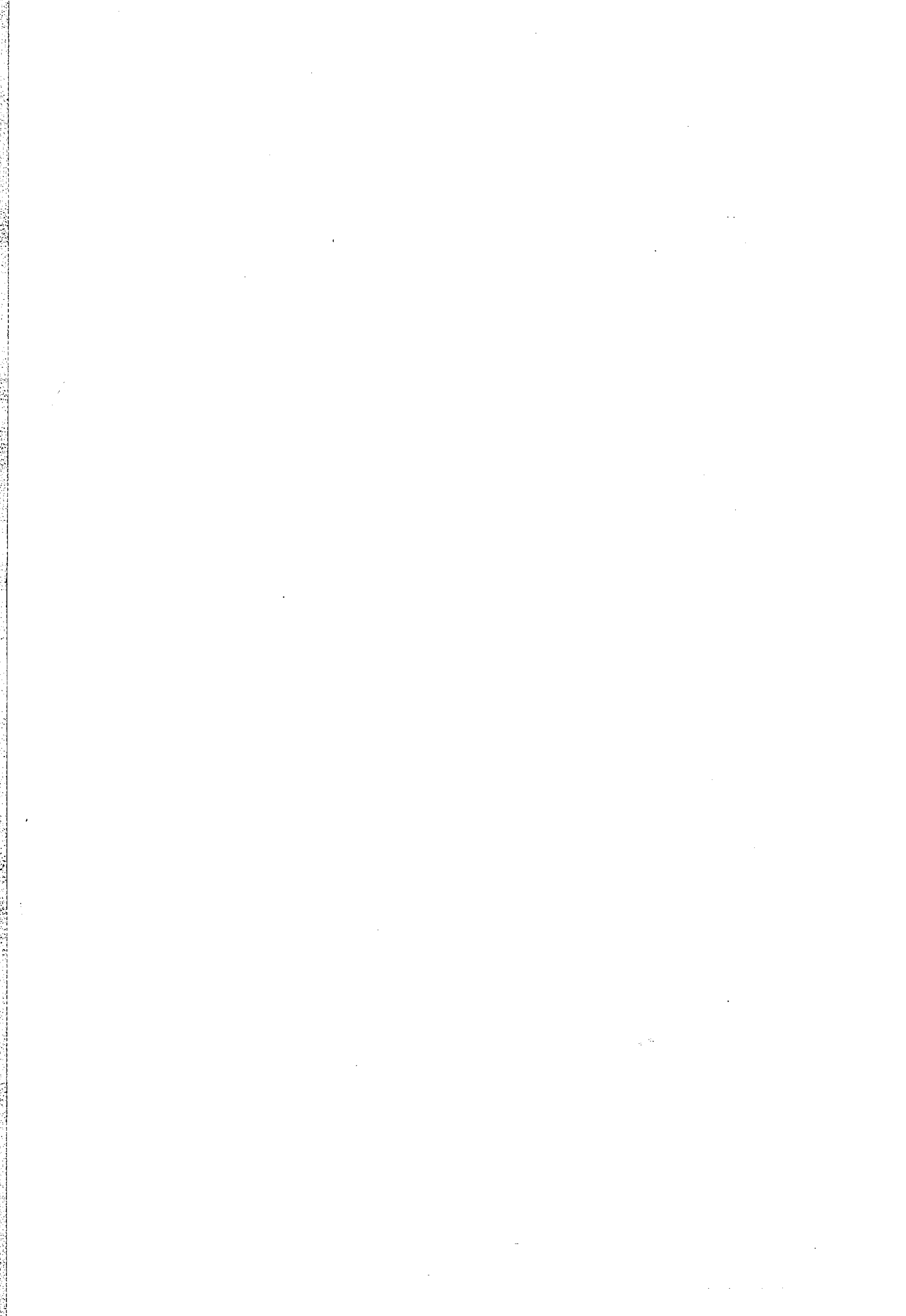
محمّد حسين فضل اللّه :

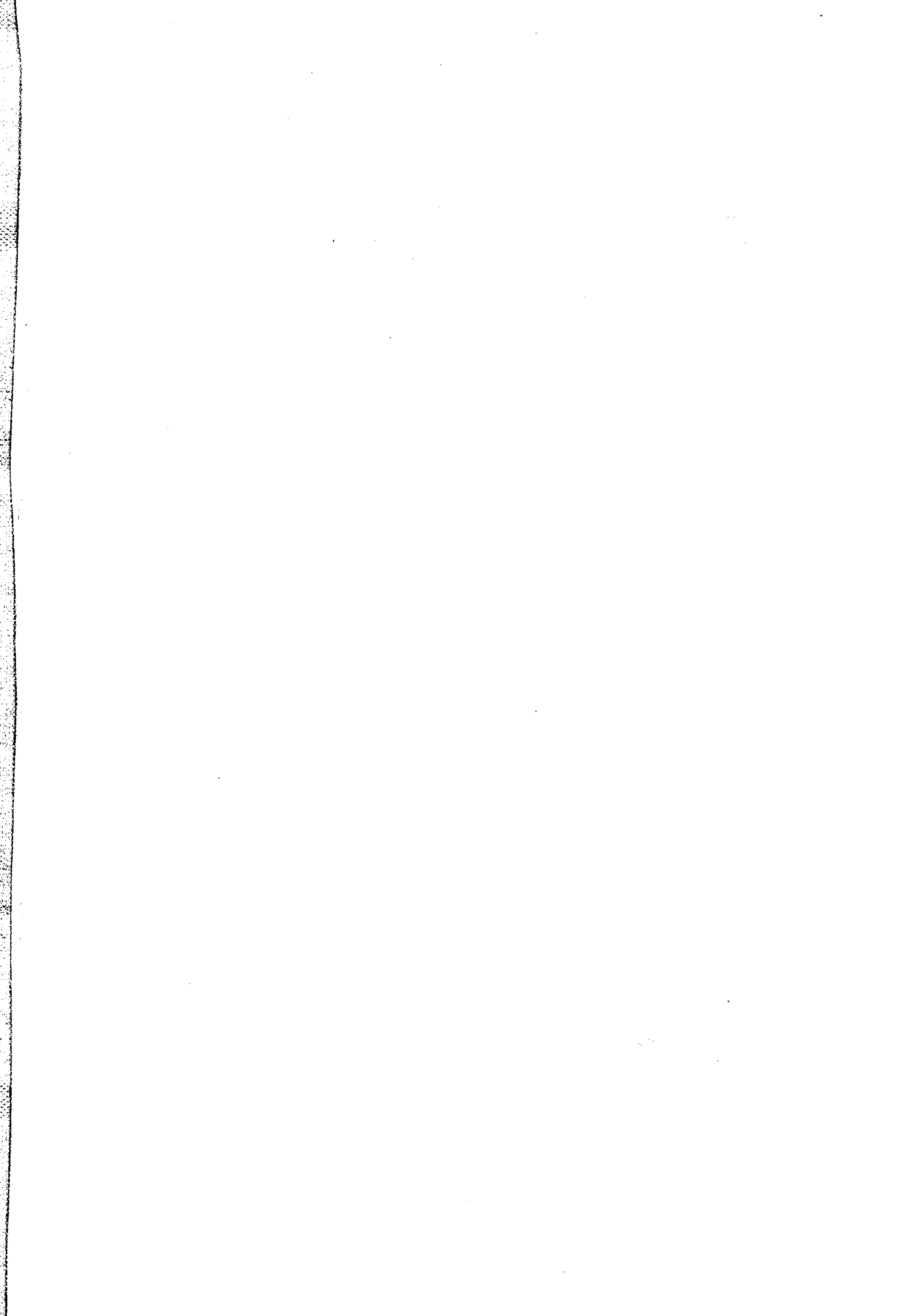
... إنّ الانحراف في التصوّر لفكرة اللّه كالإيمان بتجسّده في رجل كالمسيح، وكعليّ كما يعتقده الغلاة فيه. وهو مظهرٌ من مظاهر الكفر. وبذلك يلتقي الكفر -في مفهومه الإسلامي- بالعقيدة التي تجسّد اللّه في المسيح ليكون المسيح هو الربّ والإله، أو تحوّل إلى حقيقة واحدة، مؤلّفةٍ من ثلاثة أقانيم، كما هو في عقيدة الأب والابن والروح القدس، لأنّ كلاً من هذين التصوّرَين يُمثّل الانحراف عن

الخطّ الإسلامي للعقيدة. وقد عالج القرآن هذه الفكرة بعدّة أساليب، فنراه **في الآية الأولى** يشير إلى شهادة المسيح على نفسه بالعبوديّة في دعوته الناس إلى عبادة اللّه: "**وَقَالَ المسيحُ: يا بَنِي إسرائيلَ! اعبُدُوا اللّهَ رَبِّي وربَّكُم**" (٥/ ٧٢). فإنّ مَن كان الإلهُ متجسِّداً فيه، لا يكون له ربٌّ، بل هو الربّ... «إنّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ» (١٣/٣١) في ما يمثّله من إساءة لعظمة اللّه وحقّ في توحيد العقيدة والعبادة.

أمّا في الآية الثانية فقد أشار إلى فكرة التثليث، وأكّد انحرافها بالتأكيد على وحدانيّة اللّه بكلّ ما للوحدة من بساطة تمنع التركيب والتجزّؤ، وتنافي التعدّد. ثمّ وجّه إليهم الإنذار بقوله: "**إنّه مَن يُشْرِكْ باللّهِ فقَدْ حرَّمَ اللّهُ عليهِ الجنّةَ. ومأواهُ النّار. ومَا للظالِمينَ مِنْ أنصار**"؛ وذلك من دون أن يدخل معهم في جدل فكري أو نقاش علمي؛ لأنّ المسألة عندهم لم ترتكز على أساس القناعة الفكريّة والبحث العلمي؛ بل ارتكزتْ على أساس الاعتماد على النظرة السطحيّة الضبابيّة للأشياء، ممّا يجعل من كلّ أحاديث القرآن عن التوحيد وعن صورة عيسى البشريّة في ضعفها البشري، ردًا علميًا مبسّطاً على كلّ هذا اللّون من الفكر المنحرف...

وفي ضوء ذلك، جاءت الآيةُ الثانية لتدعو القائلين بالتثليث إلى الانتهاء عنه: «**لقَدْ كَفَر الذينَ قالُوا إنّ اللّهَ ثالِثُ ثلاثة**»، لأنّ التثليث ليس فكراً حقيقيًا ليلتزموا به من خلال الالتزام بالحقيقة؛ بل هو الفكر المنحرف الذي ينبغي لأصحابه أن يكتشفوا انحرافَه بالتأمّل والتدبّر والوعي الكامل العميق لفكرة التوحيد، «**وَمَا مِن إلهٍ إلاّ إلهٌ واحدٌ. وإنْ لمْ يَنتَهُوا عمّا يقُولون**"؛ بل انطلقوا في خطّ التعصّب، "**لَيَمَسّنَّ الذينَ كَفَروا مِنهُمْ عَذابٌ أليمٌ**". فعليهم أن ينتظروا العذاب الأليم جزاء كفرهم.





نصارى القرآن ومسيحيوه



نصارى القرآن

و

مسيحيّوه

(الجزء الثاني)

أ. جوزف قزي

دار لأجل المعرفة
ديار عقل - لبنان
٢٠٠٢

سلسلة "الحقيقة الصعبة"

دار لأجل المعرفة، ديارعقل-لبنان. قياس (١٧×٢٤)

١. **قسّ ونبيّ**، بحث في نشأة الإسلام، أبو موسى الحريري، ٢٠٠١، ٣١٤ ص.

٢. **نبيّ الرحمة** ، بحث في مجتمع مكّة، أبو موسى الحريري، ١٩٨٥، ٢٠٨ ص.

٣. **عالم المعجزات**، بحث في تاريخ القرآن، أ. موسى الحريري، ١٩٨٦، ٢٥٠ ص

٤. **أعربيٌّ هو؟** بحث في عروبة الإسلام، أبو موسى الحريري، ١٩٩٠، ٢٥٤ ص

٥. **العلويّون النّصَيريّون**، بحث في العقيدة والتاريخ، أ.م. الحريري، ٢٧٢ ص

٦. **بين العقل والنبيّ**، بحث في العقيدة الدرزيّة، أنور ياسين، ١٩٨١، ٤٦٤ ص.

٧. **رسائل الحكمة**، (كتاب الدروز المقدّس)، حمزة بن عليّ، إسمعيل التميمي، بهاء الدّين السّموقي، طبعة ٥، ١٩٨٦، ٨٦٤ صفحة.

٨. **مصادر العقيدة الدرزيّة**، حامد بن سيرين، ١٩٨٥، ٥٧٦ صفحة.

٩. **السلوك الدرزي**، أنور ياسين، ١٩٨٦، ٢١٨ صفحة.

١٠. **مذبحة الجبل**، (حسر اللّثام عن نكبات الشـام، تاريخ الحرب الأهليّة الدامية في لبنان سنة ١٨٦٠)، شاهين مكاريوس، ١٩٨٣، ٣١٠ صفحات.

١١. **المسيحيّة في ميزان المسلمين**، (ردّ على كتاب "الإسلام والمسيحيّة في الميزان" لـ شريف محمّد هاشم)، أبو موسى الحريري، ١٩٨٩، ٢٥٦ ص.

١٢. **نَزَعنا القناع**، (ردّ على كتاب "أنزعوا قناع بولس عن وجه المسيح"، لـ أحمد زكي)، ١٩٩٧، ٣٦٠ ص

١٣. **رغبات النفس والجسد**. (الحياة الجنسيّة في الإسلام)، أبو موسى الحريري، ٢٠٠٠، ٢٨٨ ص.

١٤. **موازين «الحقيقة الصعبة»**، (ردّ الحريري على ردود مسلمين)، ٢٠٠٠، ٢٣٦ صفحة.

١٥. **نصارى القرآن ومسيحيّوه**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ صفحة.

١٦. **المسيحيّة في ردود المسلمين**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ صفحة.

أمّا الآية الثالثة، فتجسّد بأسلوب التساؤل دعوة إلى التوبة والاستغفار والتراجع عن هذا الخط المنحرف، تماماً كما هي المعصية عندما يمارسها الإنسان المؤمن، "**أفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ**" لأنّ الانحراف في العقيدة أشدّ خطراً من الانحراف في العمل.

وتُفتح لهم أبواب الأمل بالمغفرة والرحمة من اللّه: "**واللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**"، يغفر لعباده انحرافاتهم الفكريّة والعمليّة إذا رجعوا عنها من موقع رحمته التي وسعت كلّ شيء.

وتأتي بعد كلّ هذا الوعيد والإنذار والدّعوة إلى التراجع، الصورةُ الحقيقيّةُ لعيسى ابن مريم: "**ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ مِن قَبْلِه الرسُلُ**". فهو رسول للّه أرسله إلى عباده بعد فترة من خُلُوٍّ الساحة من الرسل ليتجدّد به خطّ الرسالات وحركة الرسل،

"**وَأمُّهُ صِدِّيقَةٌ**" صدقت اللّهَ بإيمانها، وأخلصتْ للّه في العبادة والموقف، وواجهتْ كلَّ التحدّيات بروح المؤمنة الصادقة التقيّة، فلم يكن في عيسى أيُّ مظهرٍ من مظاهر الألوهيّة، أو أيُّ سرٍّ من أسرارها؛ بل كانت آيات اللّه الظاهرة على يديه، كالآيات الظاهرة على أيدي الرسل الذين سبقوه، من دون فرق إلاّ في الشكل، تبعاً للظروف التي تتنوّع من خلالها المعجزة.

ولم يكن في أمّه أيُّ سرٍّ من أسرار القداسة الغيبيّة التي توحي بعبادتها من قِبَلِ الناس؛ بل كانت قداستُها الروحيّة بإخلاصها للّه وصدقها في إيمانها به كأيّةِ مؤمنةٍ تقيّةٍ أخرى، ولكن بدرجةٍ أكبر وقيمةٍ أعلى، لأنّ اللّه فضّلها على نساء العالَمين.

"**كانَا يأكُلانِ الطَّعَامَ**"، كما يأكله بقيّة البشر، في نوعيّته وطريقته، فليس هناك أكْل إلهيّ، أو طريقة إلهيّة في الأكل. وذلك هو

دليل المادّيّة والحاجة والفاقة المنافية للألوهيّة، فكيف يؤلّهون مَن هذا شأنه؟ "**انْظُرْ كيفَ نُبَيِّنُ لهمُ الآياتِ. ثمَّ انظرْ أنَّى يُؤْفَكُون**"، يكذِّبون ويتبعون الإفك من دون شعورٍ بالمسؤوليّة في خطّ العقيدة والعمل.

ويستمرّ التساؤل ليؤكّد الصورة، وليعمّق الإحساس بالعبث في ما يمارسونه من شؤون الفكر، "**قلْ أتَعبُدُونَ مِن دونِ اللّهِ ما لا يَمْلِكُ لكُمْ ضَرّاً ولا نَفْعا**" فماذا يمكلك عيسى من مقوّمات القوّة الذاتيّة التي يستطيع من خلالها أن يمنحكم النفع أو يدفع عنكم الضرر؟ إنّه لا يملك شيئاً أكثر من ذلك إلاّ في ما أجراه اللّهُ على يدَيه من آياته، ممّا أرادَه اللّهُ من مواجهة الرسالة للتحدّي من أجل إخضاع الكفر والكافرين بطريقة المعجزة؛ ولكنّها شأنٌ من الشؤون التي لا تملك امتداداً ولا عمقاً في شخصيّته، فلها وقتها المعيّن، وحدودها الخاصّة.

ويتحرّك، بعد ذلك، الإنسانُ في عيسى بقدرته المحدودة التي لا تملك نفعاً ولا ضرًا لنفسها ولا لأحد، فكيف تسيرون في هذا الاتّجاه؟ وكيف تأمنون على أنفسكم المسؤوليّة غداً أمام اللّه الذي يسمع ما تقولون، ويعلم ما تضمرون "**واللّهُ هوَ السّميعُ العليمُ**".

"**قُلْ يا أهلَ الكتابِ! لا تَغْلُوا في دينِكُمْ غيرَ الحقِّ**" لماذا الغلوّ في شخصيّة السيّد المسيح؟ ولماذا هذا الانحراف؟ ماذا تستفيدون من ذلك كلّه؟ وما النتيجة الحقيقيّة في هذا الاتّجاه على مستوى ما تحصلون عليه من أرباحٍ في ابتعادكم عن الحقّ؟ لا شيء. لأنّ الأمر كلّه بيد اللّه الذي يدعوكم إلى الهدى. فاستجيبوا له بالسير على خطّ الحقّ. "**ولا تَتَّبِعُوا أهْواءَ قَومٍ قد ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ، وَأَضَلُّوا كَثيراً، وَضَلُّوا عن سَوَاءِ السَّبيلِ**"، لأنّهم لا يريدون لكم الخير والنجاة. فإذا

كـانوا قـد ضلّوا ولم يهـتدوا في الـطريق، فكيف يمكن أن يمنحـوكم الهدى، فـإنّ فاقـد الشيء لا يعطيـه؟ وإذا كانوا قد أضـلّوا كثيـراً من الناس قبلكم فكيف تأمنونهم على أنفسكم؟ ولا بدّ للإنسان العاقل من اتبّاع الـفكر الذي ينطلق به الآخرون، إذا اقـتنع به، فلا يتـبع أهواءهم في ما يحبّونه أو يبغضونه، لأنّ اتّباع هوى النفس يؤدّي إلى الضلال، لأنّه لا يرتكز على قاعدة، فكيف باتّباع هوى الآخرين؟

"**لُعِنَ الّذينَ كَفَـرُوا مِنْ بني إسرائيلَ على لسانِ داوُدَ وعـيسَى ابنِ مريَمَ**" . لقد عاش داود مع بني إسـرائيل من أجل أن يدعوهم إلى اللّه؛ وعـاش عـيسى مـعـهم من أجل أن يعلّمـهم الكتـابَ والحكمـة، ويُخـرجهم من الظلمـات إلى النّور، في طريق اللّـه. وكانت النتـيجـة لديهما، أنّهما واجها جمهـوراً كبيراً من الكافرين الذين وقفوا ضدّهما وضدّ رسالتهـما موقف جحود وكفران، وحـاولا قيادتهم إلى الحوار فلم يقبلوا، وأطلقا فـيهم دعوةً إلى الحقّ فلم يستجيبـوا، وأقاما عليهم الحجّة فلم يهتدوا. ولم تنفع كلّ التجارب معهم. فلمم يكن منهما إلاّ أن أطلقا اللّعنة في وجوههم، وطلبا من اللّه أن يبـعدهم عن رحمته لأنّهم لا يستحقّونها، "**ذلِكَ بِمَا عَصَوا وكانوا يَعتَدُونَ**".

(٥٥)

النصارى أقربهم مودّة للمسلمين

لَتَجِدَنَّ أشَـدَّ النّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنُوا اليَهُـودَ والّذينَ أشْرَكُوا. وَلَتَجِـدَنَّ أقْرَبَهُم مَـوَدَّةً للّذينَ آمَنُوا الّذينَ قَالُوا إنّا نَـصَارَى، ذلكَ بأنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانَاً وأنَّهُمْ لا يَسْـتَكبِرُونَ. وإذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَى

الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحقِّ. يَقُولُونَ: رَبَّنا! آمَنَّا. فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ: وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ باللّهِ وَمَا جَاءَنا مِنَ الحقِّ، وَنَطمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنا مَعَ القَومِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُوا: جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ، خَالِدِينَ فِيهَا. وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ (سورة المائدة ٥/ ٨٢-٨٥).

الطبري:

"**لَتَجِدَنَّ**"، يا محمّد، "**أشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً للَّذينَ آمَنوا**"، أي: صدّقوك واتّبعوك وصدّقوا بما جئتَهم به من أهل الإسلام، "**اليهودَ والَّذينَ أشْرَكوا**"، أي: عبدة الأوثان الذين اتّخذوا الأوثان آلهةً يعبدونها من دون اللّه. "**وَلَتَجِدَنَّ أقْرَبَهم مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنُوا**"، أي: للّذين صدّقوا اللّه ورسولَه محمّداً، "**الَّذين قالُوا إنّا نصارى، ذلك بأنَّ منهمْ قِسِّيسِينَ ورُهباناً وأنّهم لا يَسْتَكبِرُون**" عن قبول الحقّ واتّباعه والإذعان به.

قيل: نزلتْ هذه الآية في نَفَرٍ قدموا على رسول اللّه من نصارى الحبشة، فلمّا سمعوا القرآن أسلموا واتّبعوا رسول اللّه. وقيل: إنّها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابٍ له أسلموا معه.

هؤلاء القوم، "**إذا سَمِعوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسولِ تَرَى أعْيُنَهمْ تَفيضُ من الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا منَ الحقِّ**"، أي: لمعرفتهم بأنّ الذي يتلى عليهم من كتاب اللّه الذي أنزله إلى رسول اللّه حقّ. "**يقولونَ: رَبَّنا! آمَنَّا**"، أي أنّهم يقولون: يا ربّنا! صدقنا لما سمعنا ما أنزلتَه إلى نبيّك محمّد من كتابك، وأقررنا به أنّه من عندك، وأنّه الحق لا شكّ فيه. "**فاكْتُبْنا مع الشاهِدين**"، مع أمّة محمّد، لقوله: "وكذلك جعلناكم أمّةً

وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" (١٤٣/٢)، أو مع الذين يَشهدون لأنبيائك يوم القيامة أنّهم قد بلّغوا أممهم رسالاتك.

"**وما لنا لا نُؤْمِنُ باللّهِ**"، أي: لا نقرّ بوحدانيّة اللّه، "**وما جاءَنا منَ الحقّ**"، أي: وما جاءنا من عند اللّه من كتابه وآي تنزيله، ونحن "**نَطمَعُ**" بإيماننا بذلك "**أن يُدْخِلَنا ربُّنا مع القومِ الصّالِحينَ**"، أي: المؤمنين باللّه، المطيعين له، الذين استحقّوا من اللّه الجنّة بطاعتهم إيّاه.

ومعنى ذلك كله: ونحن نطمع أن يدخلنا ربُّنا مع أهل طاعته مداخلَهم من جنّته يوم القيامة، ويُلحق منازلنا بمنازلهم، ودرجاتِنا بدرجاتهم مع جنّاته.

"**فأثابَهُمُ اللّهُ بما قالوا جنّاتٍ**"، أي: بساتين، "**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا**"، أي: من تحت أشجارها "**الأنْهارُ، خَالِدِينَ فِيهَا**"، أي: دائماً فيها مكثُهم، لا يخرجون منها ولا يحولون عنها. "**وذلك جَزَاءُ المُحْسِنِينَ**"، وإحسان المحسن في ذلك أنْ يُوحّد اللّه توحيداً خالصاً مَحضاً لا شِرْك فيه، ويقرّ بأنبياء اللّه وما جاءتْ به من عند اللّه من الكتب، ويؤدّي فرائضه، ويجتنب معاصيه.

الرازي:

"**لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً لِلّذِينَ آمَنوا اليَهُودَ والّذِينَ أشْرَكُوا**"، لأنّ اليهود في غاية العداوة مع المسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدّة العداوة؛ بل نبّه على أنّهم أشدّ في العداوة من المشركين من جهة أنّه قدّم ذكرَهم على ذكر المشركين. ولعمري أنّهم كذلك.

"وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَـوَدَّةً لِلّذينَ آمَنوا الّذين قالوا إنّا نَصَارَى،".

قـيل: ألمراد بهـؤلاء النصــارى: النجـاشي وقومـه الذين قـدمـوا من الحبشة على الرسول، وآمنوا به. ولـم يُردْ جميعَ النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين.

وقال آخرون: مـذهب اليهود أنّه يجب عليهم إيـصال الشرّ إلى مَن يخالفــهم في الدين بأيّ طريق كان، فـإنْ قدروا على القـتل فذاك، وإلاّ فبغصب المال، أو بالسرقة، أو بنوعٍ من المكر والكيد والحيلة؛ وأمّا النصــارى فليس مذهبـهم ذاك، بل الإيذاء في دينهم حـرام. فهـذا هو وجه التفاوت بين اليهود والنصارى.

وسبب هذا التفاوت، **"ذلك بأنّ منهمْ قِسِّيسِينَ ورُهباناً وأنّهم لا يَسْتَكبِرون "**. يعني: أنّ اليهود مخصّـصون بالحرص الشديد على الدنيا، والدليل عليه قوله تعالى: "وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ على حياةٍ ومِنَ الذينَ أشْرَكوا يَوَدُّ أَحَـدُهُمْ لَو يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُـزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعَمَّـرَ. وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُـون " (٢/ ٩٦)، فقَرَنَهم في الحرص بالمشركين المنكرين للمعاد. والحرص معدن الأخلاق الذميمة، لأنّ من كان حريصاً على الدنيـا طرح دينه في طلب الدنيا، وأقدم على كلّ محظور ومنكر بطلب الدنيا. فلا جرم تشتدّ عداوتُه مع كلّ من نال مالاً أو جاهاً.

وأمّا النصــارى فإنّهم، في أكـثر الأمر، مـعرِضــون عن الدنيا مقـبلون على العبـادة وترك طلب الرياسة والتكبّـر والترفّع. وكلّ مَن كان كذلك فإنّه لا يحسد الناس، ولا يؤذيهم، ولا يخاصمهم، بل يكون ليّن العريكة في طلب الحقّ، سـهل الانقياد له.

فهذا هو الفرق بين هذين الفريقين في هذا الباب..

وههنا دقيقة نافعة في طلب الدين وهو أنّ كفر النصارى أغلظ من كفر اليهود، لأنّ النصارى ينازعون في الإلهيّات وفي النبوّات، واليهود لا ينازعون إلاّ في النبوّات. ولا شكّ في أنّ الأوّل أغلظ. ثمّ إنّ النّصارى، مع غلظ كفرهم، لمّا لم يشتدّ حرصهم على طلب الدنيا، بل كان في قلبهم شيء من الميل إلى الآخرة، شرّفهم اللّه "وَلَتجِدنّ أقربَهم مودّةً للّذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى". وأمّا اليهود، مع أنّ كفرهم أخف في جنب كفر النصارى، طردهم، وخصّهم اللّه بمزيد اللّعن. وما ذاك إلاّ بسبب حرصهم على الدنيا، وذلك ينبّهك على صحّة قول رسول اللّه: "حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة".

ثمّ إنْ قيل: كيف مدح اللّهُ القسّيسين والرّهبان مع قوله: "وَرَهْبَانِيَّةً ابتَدَعُوها" (٥٧/٢٧)، وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا رهبانيّة في الإسلام"؟ قلنا: إنّ ذلك صار ممدوحاً في مقابلة طريقة اليهود في القساوة والغلظة. ولا يلزم من هذا القدر كونه ممدوحاً على الإطلاق.

ثمّ قال تعالى: "**وإذا سَمِعوا**"، أي: القسّيسون والرهبان الذين آمنوا، "**ما أُنْزِلَ**"، يعني: القرآن "**إلى الرَّسولِ**"، يعني: محمّداً، "**تَرَى أعْيُنَهمْ تَفيضُ من الدَّمْعِ ممّا عَرَفُوا منَ الحقِّ**"، أي: ممّا نزل على محمّد وهو الحقّ. "**يقولونَ: رَبَّنا! آمَنَّا**"، أي: سمعنا وشَهِدْنا أنّه حقّ، "**فاكْتُبْنا معَ الشاهِدين**"، أي: مع أمّة محمّد، أو مع كلّ من شهد من أنبيائك ومؤمني عبادك بأنّك لا إله غيرك.

"**وما لنا لا نُؤْمِنُ باللّهِ ومَا جاءَنا منَ الحقِّ ونَطمَعُ أن يُدْخِلَنا رَبُّنا مع القومِ الصّالحينَ. فأثابَهُمُ اللّهُ بما قالوا جَنّاتٍ تَجري من تحتِها الأنْهارُ خالِدينَ فيها. وذلك جَزاءُ المُحْسِنينَ**". الآية دالّةٌ على أنّ

المؤمن الفاسق لا يبقى مخلداً في النار. وبيانه أنّه تعالى قال: "وذلك جزاءُ المحسنين". وهذا الإحسان لا بدّ وأن يكون هو الذي تقدّم ذكرُه من المعرفة، وهو قوله "ممّا عَرَفُوا مِنَ الحقّ"، ومن الإقرار به، وهو قوله: "فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِما قَالُوا". وإذا كان كذلك، فهذه الآية دالّة على أنّ هذه المعرفة وهذا الإقرار يوجب أن يحصل له هذا الثواب. وصاحب الكبيرة له هذه المعرفة وهذا الإقرار، فوجب أن يحصل له هذا الثواب. فأمّا أن يُنقَل من الجنّة إلى النّار وهو باطل بالإجماع، أو يُقال: يُعاقب على ذنبه ثم ينقل إلى الجنّة وذلك هو المطلوب.

القرطبي:

هذه الآيات نزلت في النجاشي وأصحابه لمّا قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى، خوفاً من المشركين وفتنتِهم، وكانوا ذوي عدد..

وقيل: نزلت بعد وقعة بَدْر، لمّا بعَث كفّارُ قريش رجلَين، هما عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، إلى الحبشة ليثأروا من قتلَى بدر.. فسمع النّبيّ بذلك فبعث عمرو بن أمَيّة الضّمْريّ، وكتب معه إلى النجاشيّ، فقدم على النجاشي، فقرأ كتابَ رسول الله. ثمّ دعا النجاشيّ جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرّهبان والقسّيسين فجمعهم. ثمّ أمرَ جعفرَ أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورةَ مريم، وقاموا تفيضُ أعينُهم من الدمع. فهم الذين أنزل فيهم الآية..

وقيل: نزلتْ لمّا قدم على النّبي عشرون رجلاً وهو بمكّة، أو قريب من ذلك، من النصارى حين ظهر خبرُه من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فكلّموه وسألوه، ورجالُ قريش في أنديتهم حول الكعبة. فلمّا فرغوا من مسئلتهم رسولَ الله عمّا أرادوا، دعاهم رسولُ الله إلى

اللّه، وتلا عليهم القرآن. فلمّا سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثمّ استجابوا له وآمنوا به وصدّقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره...

وقيل: إنّ النفر النصارى من أهل نجران، الذين فيهم نزلت هذه الآيات: "الّذين آتَينَاهمُ الكتَابَ مِنْ قَبْلِه، هُمْ بِهِ يُؤمِنُونَ.. " إلى قوله: " وإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَقَالُوا: لَنَا أعْمَالُنا وَلَكُمْ أعْمَالُكُمْ. سَلامٌ عَلَيكُمْ لا نَبْتَغِي الجَّاهِلِينَ" (٢٨/٥٢-٥٥).

وقيل: إنّ جعفراً وأصحابه قدم على النّبيّ في سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف، فيهم إثنان وستّون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وهم: بحيراء الراهب، وإدريس، وأشرف، وأبرهة، وثمامة، وقثم، ودريد، وأيمن، فقرأ عليهم رسول اللّه سورة "يس" إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمَنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان يَنزل على عيسى، فنزلتْ فيهم: "**لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنوا اليهودَ والّذينَ أشْرَكوا. وَلَتَجِدَنَّ أقْرَبَهم مَوَدَّةً للّذينَ آمَنوا الّذين قالوا إنّا نصارى**".

يعني: وفد النجاشي، وكانوا أصحاب الصوامع. وقال سعيد بن جبير: وأنزل اللّه فيهم أيضاً: "الّذين آتَينَاهمُ الكتَابَ مِنْ قَبْلِه، هُمْ بِهِ يُؤمِنُونَ.. " إلى قوله: "وإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَقَالُوا: لَنَا أعْمَالُنا وَلَكُمْ أعْمَالُكُمْ. سَلامٌ عَلَيكُمْ لا نَبْتَغِي الجَّاهِلِينَ".

وقال مقاتل والكلبي: كانوا أربعين رجلاً من أهل نجران من بني الحرث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية وستين من أهل الشام.

وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة عيسى. فلما بعث اللّهُ محمّداً آمنوا به فأثنى اللّه عليهم.

قوله تعالى: "**ذلك بأنّ منهمْ قِسِّيسِينَ ورُهباناً وأنّهم لا يَسْتَكبِرون**"، عن الانقياد إلى الحق. "**وإذا سَمِعوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسولِ تَرَى أعْيُنَهمْ تَفيضُ من الدَّمْعِ**"، أي بالدمع.. وهذا حال العلماء يَبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يموتون، كما قال تعالى: "أللّه نزَّلَ أحسَنَ الحديث كتاباً متَشابِهاً مَثانيَ تَقشَعِرُّ منه جُلودُ الذينَ يَخشَونَ ربَّهم. ثمّ تَلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ اللّه. ذلك هُدى اللّهِ يَهدي به مَن يشاءُ. ومَن يُضْلِلِ اللّه فما له من هادٍ" (٣٩/٢٣)؛ وقال: "إنّما المُؤمِنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللّهُ، وَجِلَتْ قلُوبُهم. وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زادَتْهُم إيماناً. وعلى ربِّهم يتوكّلُونَ" (٨/٢).

وبيّن اللّه سبحانه في هذه الآيات أنّ أشدّ الكفّار تمرّداً وعتوّاً وعداوة للمسلمين، أليهود؛ ويضاهيهم المشركون. وبيّن أنّ أقربهم مودّةً، ألنصارى. واللّهُ أعلم.

وقوله تعالى: "**فاكْتُبْنا معَ الشاهِدين**"، أي مع أمّة محمّد الذين يشهدون بالحقّ من قوله عزّ وجلّ: "وَكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ" (٢/١٤٣). وقال الحسن: الذين يشهدون بالإيمان. وقال أبو علي: الذين يشهدون بتصديق نبيّك وكتابك...

أبو حيّان الأندلسي:

قيل: "**اليَهُودُ**" هنا هم يهود المدينة لأنّهم الذين مالؤوا المشركين على المسلمين؛ وعطْفُ "**الّذينَ أشْرَكوا**" على اليهود جَعَلَهم

تُبَّعاً لهم في ذلك، إذ كان اليهود أشدّ في العداوة، إذ تباينوا هم والمسلمون في الشريعة لا في الجنس، إذ بينهم وشائج متّصلة من القرابات والأنساب القريبة.. ولأنّهم ليسوا على شريعة من عند الله فهم أسرع للإيمان من كلّ أحدٍ من اليهود والنصارى.. " **والنّاس** " هنا الكفّار.

" **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنوا الَّذين قالوا إنّا نصارى** "، أي: هم ألين عريكة، وأقرب وداً؛ ولم يصفهم بالودّ، إنّما جعلهم أقرب من اليهود والمشركين. وهي أمّة لهم الوفاء والخلال الأربع التي ذكرها عمرو بن العاص في صحيح مسلم: يعظّمون من أهل الإسلام من استشعروا منه ديناً وإيماناً؛ ويبغضون أهلَ الفسق؛ فإذا سَالَمُوا فسِلْمُهم صافٍ؛ وإذا حاربوا فحربُهم مدافعة. لأنّ شرعهم لا يأمرهم بذلك. وحين غلب الرومُ فارس، سرّ رسولُ الله لغلبة أهل الكتاب لأهل عبادة النار، ولإهلاك العدو الأكبر بالعدو الأصغر..

واليهود ليسوا على شيء من أخلاق النصارى؛ بل شأنهم الخبث، واللّيُّ بالألسنة. وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يترقّب ما يغتالك به. ألا ترى إلى ما حكى تعالى عنهم، ذلك بأنّهم قالوا: " **لَيسَ عَلَينَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** "؟ (٣/ ٧٥).

وفي قوله: " **الَّذينَ قَالوا إنّا نَصارى** " إشارة إلى أنّهم ليسوا متمسّكين بحقيقة النّصرانيّة؛ بل ذلك قولٌ منهم وزعم..

وظاهر الآية يدلّ على أنّ النصارى أصلح حالاً من اليهود، وأقرب إلى المؤمنين مودّة.. قال بعضهم: " وليس على ظاهره، وإنّما المراد أنّهم أكثر أسباب مودّة من اليهود، وذلك ذمٌّ لهم. فإنّ مَن كثرتْ أسبابُ مودّته كان تركُه للمودّة أفحش ". ولهذا قال أبو بكر الرازي:

" من الجهّال مَن يظنّ أنّ في هذه الآية مدحاً للنصارى وإخباراً بأنّهم خيرٌ من اليهود. وليس كذلك؛ لأنّ ما في الآية من ذلك إنّما هو صفة قوم قد آمنوا بالله وبالرسول، يدلّ عليه ما ذكره في نسق التلاوة من إخبارهم عن أنفسهم بالإيمان بالله والرّسول. ومعلوم عند كلّ ذي فطنة صحيحة أنعمَ في مقالتَي الطائفتَين، أنّ مقالة النصارى أقبحُ وأشدُّ استحالةً وأظهرُ فساداً من مقالة اليهود؛ لأنّ اليهود تقرّ بالتّوحيد في الجملة، وإنْ كان فيها مشبهة ببعض ما اعتقدته في الجملة من التوحيد بالتشبيه ".

والظاهر ما قاله المفسّرون وغيرهم من أنّ النصارى على الجملة أصلح حالاً من اليهود، وقد ذكر المفسّرون فيما تقدّم ما فضّل به النصارى اليهود من كرم الأخلاق، والدخول في الإسلام سريعاً. وليس الكلام وارداً بسبب العقائد، وإنّما بسبب الانفعال للمسلمين.

ثمّ أخبر أنّ من هذه الطائفة علماء، وزهّاداً، ومتواضعين، وسريعي استجابة للإسلام، وكثيري بكاء عند سماع القرآن؛ واليهود بخلاف ذلك. والوجود يصدق قرب النصارى من المسلمين وبُعد اليهود، " **ذلك بأنّ منهمْ قِسّيسِينَ ورُهباناً وأنّهم لا يَسْتَكبِرون** "، أي: منهم علماء وعبّاد، وأنّهم قوم فيهم تواضع واستكانة، وليسوا مستكبرين. واليهود، على خلاف ذلك، لم يكن فيهم قط أهل ديارات ولا صوامع وانقطاع عن الدنيا. بل هم معظمون متطاولون لتحصيلها، حتّى كأنّهم لا يؤمنون بالآخرة. ولذلك لا يُرى فيهم زاهد..

" **وَإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحقِّ** ". هذا وصف برِقّةِ القلوب والتأثّر بسماع

القرآن. والظاهر أنّ الضمير يعودُ على "قسّيسين ورهباناً"، فيكون عامّاً. ويكون قد أخبر عنهم بما يقع من بعضهم، كما جرى للنجاشي حيث تلا عليه جعفر سورة **مريم**، وسورة **طه**، فبكى، وكذلك قومه الذين وفدوا على الرسول حين قرأ عليهم **يس**، فبكوا.

"**يَقُولُونَ: رَبَّنا! آمَنَّا**"، أي: أنشأنا الإيمان الخاصّ بهذه الأمّة الإسلاميّة. "**فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**"، هم أمّة محمّد، كما قال: "لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" (٢/ ١٤٣). ويقول الزجّاج: هم الأنبياء والمؤمنون. "**فَاكْتُبْنَا**"، وهي الكتابة في اللّوح المحفوظ. ومعناه: ثبّتْنَا.

القاسمي:

"**لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنوا اليهودَ والّذينَ أشْرَكوا**"، وإنّما عاداهم اليهود لإيمانهم بعيسى ومحمّد، وعاداهم المشركون لتوحيدهم وإقرارهم بنبوّة الأنبياء. وقيل: لشدّة إبائهم، وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتّباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرّنهم على التمرّد والاستعصاء على الأنبياء، والاجتراء على تكذيبهم، ومناصبتهم لهم. لهذا قتلوا كثيراً منهم حتّى همّوا بقتل رسول اللّه غير مرّة، وسمّوه، وسحروه، وألّبوا عليه أشباههم من المشركين.

"**وَلَتَجِدَنَّ أقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً للّذينَ آمَنُوا الّذينَ قَالُوا إنّا نَصَارَى**"، للِين جانبهم، وقلّة غلّة قلوبهم. وما فيها من الرقّة والرأفة، كما قال: "وجَعَلْنا في قلوبِ الذين اتّبعوه (أي عيسى) رأفةً ورحمةً" (٥٧/ ٢٧). وليس القتال مشروعاً في ملّتهم.. ولأنّ من مذهب اليهود أنّه يجب إيصال الشرّ إلى مَن خالف دينهم بأيّ طريق كان، من القتل

ونهب المال ونحوهمـا. وهو عند النصارى حرام. فحـصل الفرق. عن ابن هُريرة قـال: قـال رسـول اللّه: "مـا خـلا يهـوديٌّ بمسلمٍ إلاّ هَمَّ بقتله".

ولكثرة اهتـمام النصارى بالعمل والتـرهب، ممّا يدعو إلى قلّة البغـضاء والحسد، ولين العـريكة، ذلك كونهم أقرب مـودّة للمؤمنين، وبسبب "**أنّ منهمْ قِسّـيسِينَ**"، أي علماء، "**ورُهباناً**"، أي عـبّـاداً متجرّدين، "**وأنّهم لا يَسْتكبِرون**"، أي لا يتكبّرون كاليهود.

محمّد حسين فضل اللّه :

"**لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والّذينَ أشْرَكُوا. وَلَتَجِـدَنَّ أقْرَبَهُم مَـوَدَّةً للّذينَ آمَنُوا الّذينَ قَالُوا إنّا نَـصَارَى، ذلكَ بأنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَـاناً وأنَّهُمْ لا يَسْتَكبِرُونَ**". لم يلتقِ النبيّ محـمّد أهلَ الكتاب في موقف صراع في مكّة، فقد كان المجـتمع المكّي مجتمعاً وثنيًا مشركـاً، إلاّ من بعض أفراد قلائل. ولذا لم نجد في الآيات، التي نزلت في مكّة، ما يشـير إلى أيّ جدال أو حـوار بينه وبينهم، لأنّه كان مشـغولاً بمـحاربة الشـرك والوثنيّة من جـهة، ولأنّهم لا يُعـتبـرون مشكلة إسلاميّة من جهة أخرى.

وربّمـا نلمح في البـداية، تعاطفـاً وتقاربـاً بينه وبين المجتـمع النصـرانـي في مكان آخـر، من خـلال مـشـروع هجـرة المـسلمين المضطهدين إلى الحبشـة فراراً بدينهم، أملاً في أن يجدوا هناك بعض الحرّيّة والطمأنينة في ممارسة عقيدتهم. وهذا ما حصل...

وهاجر الـنبيّ محـمّد إلى المدينة ليـشيّـد المجتمـع الإسلامي الجـديد على دعائم القـوّة والعلم والتـقوى، فـواجـه اليهـودَ من أهل

الكتاب هناك.. الذين مضوا يعدّون العدّة للوقوف بوجه الدعوة الجديدة والنبيّ الجديد.

... قد أشارت الآيات إلى هذه الناحية (الروحيّة عند النصارى)، واعتبرت وجود القسّيسين والرُّهبان ظاهرةً إيجابيّةً، في ما يُمثِّله هذا اللّون من الناس من انقطاعٍ للعبادة، وابتهالٍ للّه، وتواضعٍ للنَّاس، وابتعادٍ عن الاستكبار.

وتحدّثت عن التجربة الأولى للقاء، في الوقت الذي لم يكن فيه المجتمع النصراني قد عاش عقدة الصراع ضدّ الإسلام والمسلمين، نظراً إلى أنّ القضيّة كانت قضيّة الدعوة في بداياتها الأولى.

" **وإذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ** ". لقد تلقّى الذين استمعوا إلى آيات اللّه، آيات اللّه، بروحٍ منفتحة على الخير من كلمات البرّ، واعيةٍ لعمق الروح الإيماني، عائشةٍ للفرح الروحي المتدفّق من روحيّة الوحي الإلهي، منفعلين بالحقيقة الصافية المشرقة القائمة على التأمّل والإلهام، مرسلة نفوسهم دموع الخشوع فيّاضة، وامضة بإشارات المحبّة والسلام.

ويرتعد كيانهم ويقشعرّ لبرودة الإيمان وهيبة الموقف أمام عظمة اللّه تعالى، وتكرع أرواحُهم كأسَ الملاطفة من معين الذات الإيماني حتّى الثمالة. فإذا بهم أمام الحقّ الذي عرفوه، يبكون من الفرح " **مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ** "، تماماً كما هو فرح الأطفال بالهديّة الحلوة، في براءة الطفولة، فيبتهلون إلى اللّه في صلاة خاشعة، لأنّ الإيمان ليس مجرّد فكر يخضع للمعادلات العقليّة، ولكنّه فكرٌ وروحٌ وشعورٌ عامرٌ بحركة الحياة، فإذا به يقظة إحساس، ومنطلق روح، وصفاء قلب، وهزّة كيان، " **يَقُولُونَ: رَبَّنَا! آمَنَّا. فَاكْتُبْنَا مَعَ**

الشّاهِدِينَ"، الذين يعيشــون الحضور الدائم-مع اللّه، فيعــيشون، من خلال ذلك، الحضور الواعي لمسؤوليّة الحياة مع الآخرين.

(٥٦)

معجزات عيسى، والمائدة التي طلبها الحواريّون

إذْ قــالَ اللّهُ: يا عِـيسَى ابـنَ مريَمَ! اذْكُـرْ نِعْـمَـتي عَلَيكَ، وَعَلى وَالِدَتِكَ، إذْ أيَّدْتُكَ بِرُوحِ الـقُـدُسِ. تُكَلِّمُ النّاسَ في المَهْـدِ، وكَـهْـلاً. وإذْ عَلَّمْتُكَ الكتابَ والحِكْمَةَ والتَّوراةَ والإنجـيلَ. وإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإذْنِي فَتَنْفُخُ فيها فَـتكونُ طَيْراً بإذْني. وَتُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ بإذْني. وإذْ تُخْـرِجُ المَوتَى بإذْنــي. وإذْ كَفَـفْـتُ بني إسـرائيلَ عنكَ، إذْ جِئْتَهُم بالبَيِّنَاتِ.

فقالَ الّذينَ كَفَرُوا منْهُمْ: إنْ هَذا إلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ.

وإذْ أوحيتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أنْ آمِنوا بِـي وبرَسولي. قالوا: آمَنّا. واشْهَد بِأنَّنا مُسْلِمُونَ.

إذ قالَ الحَـوَرِيّونَ: يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ! هلْ يَسـتطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلينا مـائدَةً منَ السَّماءِ؟ قـال: اتَّقُوا اللّهَ إنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنينَ. قالوا: نُريدُ أنْ نَأكُلَ مِنْهـا. وَتَطْمَـئِنَّ قُلُوبُنا. وَنَعلَمَ أنْ قَـدْ صَدَقْـتَنا. وَنَكونَ عليـها منَ الشّـاهِدِينَ. قـالَ عيسى ابنُ مَرِيَمَ: اللّـهُمَّ رَبَّنا! أنْزِلْ عَلَينا مـائدةً من السَّمـاءِ. تَكونُ لَنا عِـيداً لأوَّلِنا وآخِـرِنا، وآيَةً منكَ، وارزُقْنَا وأنتَ خيرُ الرّازِقـينَ. قال اللّهُ: إنّي مُنَزِّلُها عَليكمْ. فَمَنْ يَكْفُـرْ بَعْدُ مِنكُم فإنّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أحَداً مِنَ العَالَمِينَ.

وإذْ قال الـلّهُ: يا عيسَى ابنَ مريمَ! أأنْتَ قُلْتَ للنّاسِ اتَّخِذُوني وأُمِّيَ إلَهَينِ مِنْ دونِ اللّه؟! قال: سُبْحانَكَ! ما يكونُ لي أنْ أقُولَ ما ليسَ لي بِحَقٍّ. إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ. تَعلَمُ ما في نفسي. ولا أعلمُ ما في نفسِكَ. إنّكَ أنتَ عَلاّمُ الغُيوبِ. ما قُلتُ لهُمْ إلاّ ما أمَرْتَني بِهِ: أنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي ورَبَّكُم. وكنتُ عليهِمْ شَهيداً ما دُمتُ فيهم. فلَمّا تَوَفَّيْتَني كنتَ أنتَ الرّقيبَ عليهِم. وأنتَ على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ. إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنّهُمْ عِبادُكَ. وإنْ تَغْفِرْ لهُمْ فإنّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ.

قالَ اللّه: هذا يومُ يَنفعُ الصّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. لهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأنْهارُ، خالِدينَ فيها أبَداً. رَضِيَ اللّهُ عنْهُمْ ورَضُوا عنهُ. ذلكَ الفَوزُ العَظيمُ (سورة المائدة ٥/ ١١٠-١١٩).

الطبري:

" ... **إذْ أيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ** (أي بجبريل)، **تُكَلِّمُ النّاسَ في المَهْدِ، وكَهْلاً** (أي: أيدّه بجبريل صغيراً في المهد، وكهلاً كبيراً). **وإذْ عَلَّمْتُكَ الكتابَ** (وهو الخطّ) **والحِكْمَةَ** (وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلتُه إليكَ، وهو الإنجيل)، **والتّوراةَ والإنجيلَ. وإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطّيرِ** (أي: كصورةِ الطّير) **بإذْني** (أي: بعونٍ منّي على ذلك وعلمٍ منّي به)، **فَتَنْفُخُ فيها. فَتَكونُ طَيْراً بإذْني. وتُبْرِئُ الأكْمَهَ** (وهو الأعمى الذي لا يبصر شيئاً المطموس البصر) **والأبْرَصَ بإذْني. وإذْ تُخْرِجُ المَوتَى بإذْني. وإذْ كَفَفْتُ بني إسرائيلَ عنكَ،** (وقد همّوا بقتلك) **إذْ جِئْتَهُم بالبَيِّنَاتِ** (أي: بالأدلّة والاعلام المعجزة على نبوّتك وحقيّة ما أرسلتُك به إليهم). **فقالَ الّذينَ كَفَرُوا منْهُمْ** (أي: جحدوا نبوّتَكَ وكذّبوك): **إنْ هَذا إلاّ سِحْرٌ مُبينٌ** (أي: يبينُ عمّا أتى به لمن رآه ونظر إليه أنّه سحر لا حقيقة له).

وإذْ أوحيتُ إلى الحَوَارِيِّينَ (أي: قذفتُ في قلوبهم، وألهـمتُهم، وألقيتُ إلـيهم) **أنْ آمِنوا بِي وبرَسولي** (أي: صـدِّقوا بي وبرسـولي عيسى). **قـالوا: آمَنَّا** (أي: صـدَّقْنا بما أمَرْتَـنا أن نؤمن به يا رَبَّنا). **واشْهَد** (علينا) **بأنَّنا مُسْلِمُونَ** (أي: خاضـعونَ لكَ بالذلّة سامـعون مطيعون لأمرك).

إذ قالَ الحَـوَرِيّونَ: يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ! هلْ يَسـتطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلينا مائدَةً منَ السَّـماءِ؟ (أي: هل يستجـيب ربُّكَ إنْ سألتَه ذلك ويُطيعك فيه؟) . **قال: اتَّقُوا اللّهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ.** (لا يشكّ الحواريّون بقـدرة اللّهِ، بل إنّهم لم يكونوا يعلمـون أنّ عـيسى قـد صدقـهم، ولا اطمأنّت قلـوبهم إلى حقيـقة نبـوّته. لهذا) **قالوا: نُريدُ أنْ نَـأْكُلَ مِنْها. وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا. وَنَعلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنا. وَنَكونَ عليها منَ الشّاهِدِينَ.**

قالَ عيـسى ابنُ مَريَمَ: اللّهُمَّ رَبَّنا! أنْزِلْ عَلَينا مائدةً مـن السَّماءِ (مائدة من ماد فلانٌ القومَ يميدُهـم مَيداً، إذا أطعمهم ومارهم)، **تكونُ لنا عِيداً** (اختلف أهل التأويل في تأويل "عيداً" . فقال بعضهم: معناه: نتّخذ اليـوم الذي نزلتْ فيه عيـداً نعظّمه نحن ومَن بعدنا. عن سـفيان قـال: تكون لنا عيـداً نصلّي فـيه.. وقـال آخرون: مـعناه: نأكل منهـا جميعاً. عن ابن عبّاس قال: أكلَ منها، يعني من المائدة حين وُضعتْ بين أيديهم، آخـرُ الناس، كمـا أكل منها أوّلهم. وقـال آخرون:معنـى قوله "عِيْداً" عائدة من اللّه تعالى علينا حجّةً وبرهاناً.

يقـول الطبري: وأولى الأقـوال بالصواب قـول من قال مـعناه تكون لنا عيداً نعبد ربَّنا في اليوم الذي تنزل فـيه، ونصلّي له فيه، كما يعيّد الناسُ في أعـيادهم.. وقوله: "**لأوّلنا وآخرنا**" أي: للأحياء منّا اليوم ومَن يجيء بعدنا منّا.

وقوله: " **وآيةً منك** " (أي: علامة وحجّة منك يا ربّ على عبادك في وحدانيّتك وفي صدقي على أنّي رسول إليهم بما أرسلتني به). " **وارْزُقنا وأنتَ خيرُ الرّازِقين** " (أي: وأعطنا من عطائك فإنّك يا ربّ خير مَن يعطي وأجود مَن تفضّل، لأنّه لا يَدخلَ عطاءَه مَنٌّ ولا نكدٌ).

وقد اختلف أهل التأويل في المائدة، هل أنزلتْ عليهم، أم لا؟ وما كانت؟. فقال بعضهم: نزلت. وكانت حُوتاً وطعاماً. فأكل القوم منها. ولكنّها رُفعَتْ بعدما نزلتْ بأحداثٍ منهم أحدثوها فيما بينهم وبين اللّه تعالى.. عن عطيّة قال: المائدة سمكة فيها طعم كلّ طعام.. عن أبي عبد الرحمن قال: نزلت المائدة خبزاً وسمكاً..

عن ابن عبّاس قال: نزلت على عيسى ابن مريم والحواريّين خوانٌ عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاءوا.. عن إسحق بن عبد اللّه: أنّ المائدة نزلتْ على عيسى عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ما شاءوا. فسرق بعضهم منها، وقال: لعلّها لا تنزل غداً فرُفِعَتْ.. عن عمّار بن ياسر قال: قال رسول اللّه: نزلت المائدة خبزاً ولحماً. وأُمِروا أن لا يخونوا، ولا يدّخروا، ولا يرفعوا لغدٍ. فخانوا وادّخروا ورفعوا، فمُسخوا قردة وخنازير..

وقال آخرون: كانت المائدة تنزل وعليها ثمر من ثمار الجنّة... وقال آخرون: كان عليها من كلّ طعام إلاّ اللّحم... وقال آخرون: لم ينزل اللّه على بني إسرائيل مائدة. ثمّ اختلف قائلو هذه المقالة، فقال بعضهم: إنّما هذا مَثَل ضربه اللّه لخلقه نهاهم به عن مساءلة نبيّ اللّه الآيات.. عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لمّا قيل لهم: " فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ " إلى آخر الآية، قالوا: لا حاجة لنا فيها. فلم تنزل..

والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال: إنّ اللّه تعالى أنزل المائدة على الذين سألوا عيسى.. وغير جائز أن يقول تعالى ذكرُه إنّي منزّلها عليكم ثم لا ينزّلها.. وأمّا ما كان على المائدة من مأكول فجائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون ثمراً من ثمر الجنّة. وغير نافع العلم به، ولا ضارّ الجهل به.

قال اللّهُ: إنّي مُنَزِّلُها عَلَيكمْ. فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أحَداً مِنَ العَالَمِينَ. يقول الطبري: ففعل القوم، فجحدوا وكفروا بعدما أُنزلتْ عليهم، فيما ذُكر لنا، فعُذِّبوا، فيما بَلَغَنَا، بأنْ مُسخوا قردة وخنازير.. عن عبد اللّه بن عمرو قال: إنّ أشدّ الناس عذاباً ثلاثة: المنافقون، ومَن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

وإذْ قال اللّهُ: يا عيسَى ابنَ مريمَ! أأنْتَ قُلْتَ للنّاسِ اتّخِذُوني وأُمّيَ إلَهَينِ مِنْ دونِ اللّهِ؟! (قال اللّه هذا الكلام لعيسى، حين رفعه إليه في الدنيا. وقال آخرون: قال له ذلك يوم القيامة.. عن ميسرة قال: إنّ عيسى أرعدت مفاصله وخشي أن يكون قد قالها.. لذلك قال): **سُبْحانَكَ! ما يكونُ لي أنْ أقُولَ ما ليسَ لي بِحَقٍّ؛** (أي: ليس لي أن أقول ذلك لأنّي عبد مخلوق وأُمّي أمَةٌ لك. فهل يكون للعبد والأمَة ادّعاء ربوبيّة)؟ **إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فقَدْ عَلِمْتَهُ. تَعلَمُ ما في نفسي. ولا أعلَمُ ما في نفسِكَ. إنّكَ أنتَ عَلاّمُ الغُيوب** (أي العالم بخفيّات الأمور التي لا يطّلع عليها سواك ولا يعلمها غيرك).

ما قُلتُ لهُمْ إلاّ ما أمَرْتَني بهِ (من القول أن أقوله لهم وهو أن قلتُ لهم): **أنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي وربّكُم. وكنتُ عليهمْ شَهيداً** (أي: وكنتُ على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم) **ما دُمتُ فيهم. فلَمّا تَوَفَّيْتَني** (أي: فلما قبضتني إليك) **كنتَ**

أنتَ الرَّقيبَ عليهم (أي: الحفيظ عليهم دوني، لأنّي إنّما شهدتُ من أعمالهم ما عملوه، وأنا بين أظهرهم. وفي هذا تبيان أنّ اللّه إنّما عرّفه أفعال القوم ومقالتهم بعدما قبضه إليه وتوفّاه). **وأنتَ على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ** (أي: وأنتَ تشهد على كلّ شيء، لأنّه لا يخفى عليك شيء).

إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنّهُمْ عِبَادُكَ (مستسلمون لك، لا يمتنعون ممّا أردتَ بهم، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا أمراً تنالهم به). **وإنْ تَغْفِرْ لهُمْ** (بهدايتك إيّاهم إلى التوبة منها فتستر عليهم) **فإنّكَ أنتَ العزيزُ** (في انتقامه ممّن أراد الانتقام منه لا يقدر أحد يدفعه عنه)، **الحكيمُ** (في هدايته من هدى من خلقه إلى التوبة وتوفيقه من وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب).

قالَ اللّه: هذا يومُ يَنفعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ (أي: قال اللّه هذا القول النافع، أو هذا الصدق النافع. فاليوم وقت القول والصدق النافع). **لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأنْهارُ، خَالِدينَ فيها أبَداً. رَضِيَ اللّهُ عنْهُمْ ورَضُوا عنه** (أي: رضوا هم عن اللّه في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إيّاه فيما أمرهم ونهاهم من جزيل ثوابه). **ذلكَ الفَوزُ العَظيمُ.**

الرازي:

إذْ قالَ اللّهُ: يا عِيسَى ابنَ مريَمَ! اذْكُرْ نِعْمَتي عَلَيكَ، وعَلَى وَالِدَتِكَ، (إنّ أشدّ الأمم إفتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنّهم أتباع عيسى، لأنّ طعْنَ سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء، وطعْنَ هؤلاء الملاعين تعدّى إلى جلال اللّه وكبريائه، حيث وصفوه بما لا يليق بعاقلٍ أن يصف الإله به، وهو اتّخاذ الزوجة والولد.. وإذا كان اللّه يعدّد أنواعَ نعَمِه على عيسى، بحضرة الرسل،

واحدة فواحدة، فالمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهم. فإنّ كلّ واحدة من تلك النِّعم المعدودة على عيسى تدلّ على أنّه عبدٌ وليس بإله. والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول هذه الآية على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم.

اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيكَ، وعَلَى وَالِدَتِكَ : (إنْ قيل: إنّ جميع ما ذكره تعالى من النّعم مختص بعيسى عليه السلام، وليس لأمّه بشيء منها تعلّق. قلنا: إنّ كلّ ما حصل للولد من النّعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل الضمن والتبع للأمّ. ولذلك قال تعالى: "وَجَعَلْنَا ابْـنَ مَرِيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً" (٢٣/ ٥٠)، فجعلهما معاً آيةً واحدةً لشدّة اتّصال كلّ واحد منهما بالآخر.

ومن نعم اللّه على عيسى قوله له: **إذْ أيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ** (ألروح: جبريل. والقدس: ألله تعالى. كأنّه أضافه اللّه لنفسه تعظيماً له). **تُكَلِّمُ النّاسَ في المَهْدِ، وكَهْلاً** (هذه خاصيّة شريفة كانت حاصلة له. وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده).

ومن نعمه أيضاً قوله: **وإذْ عَلَّمْتُكَ الكتابَ** (الخطّ أو جنس الكتب) **والحِكْمَةَ** (أي عبارة عن العلوم النظريّة والعلوم العمليّة) **والتَّوراةَ والإنجيلَ**

وإذْ أوحيتُ إلى الحَوارِيِّينَ أنْ آمِنوا بِي وبرَسولي (مَن قال إنّ الحواريّين كانوا أنبياء قال: ذلك الوحي هو الوحي الذي يوحى إلى الأنبياء. ومَن قال إنّهم ما كانوا أنبياء قال: ألمراد بذلك الوحي الإلهام والإلقاء في القلب، كما في قوله تعالى "وَأَوْحَينَا إلَى أُمِّ مُوسَى أنْ أَرْضِعِيهِ" (٢٨/ ٧)، وقوله: "وَأَوحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ" (١٦/ ٦٨).

قالوا: آمَنَّا. واشْهَد بأنّنا مُسْلِمُونَ (ذكر تعالى أنّه لمّا ألقى ذلك الوحي في قلوبهم، آمنوا وأسلموا. وإنّما قدّم ذكرَ الإيمان على الإسلام، لأنّ الإيمان صفة القلب، والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر. يعني: آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم).

إذ قالَ الحَوَرِيّونَ: يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ! هلْ يَستطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلينا مائدَةً منَ السَّماءِ؟ (ثمّة قراءة ثانية، وهي: هل تستطيع سؤال ربّك؟ ألقراءة الأولى توجب شكّهم في استطاعة اللّه؛ والقراءة الثانية توجب شكّهم في استطاعة عيسى.. ولا شكّ أنّ هذه أولى. والأُولى فيها إشكال، وهو أنّه تعالى حكى عنهم أنّهم "قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنَا مُسْلِمُونَ". وبعد الإيمان، كيف يجوز أن يقال إنّهم بقوا شاكّين في اقتدار اللّه تعالى على ذلك؟.

وثمّة مَن قال: لعلّ المراد بـ"**الرَّبِّ**" هو جبريل عليه السلام، لأنّه كان يربّيه ويخصّه بأنواع الإعانة. ولذلك قال تعالى في أوّل الآية: "إذْ أيَدتُكَ بروحِ القُدُس"، يعنى أنّه يربيك ويخطّك بأنواع الكرامة. فهل يقدر على إنزال مائدة في السماء عليك؟

ثمّ إنّه ليس المقصود في هذا السؤال كونهم شاكّين فيه، بل المقصود تقرير أنّ ذلك في غاية الظهور، كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول: هل يقدر السلطان على إشباع هذا؟ ويكون غرضه منه أنّ ذلك أمرٌ جليّ واضح، لا يجوز لعاقلٍ أنْ يشكّ فيه. فكذا ههنا.

قال: اتَّقُوا اللّهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمنينَ. قالوا: نُريدُ أنْ نَأكُلَ مِنْها. وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا. وَنَعلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنا. وَنَكونَ عليها منَ الشّاهِدِينَ. (والمعنى كأنّهم لمّا طلبوا ذلك، قال عيسى لهم: إنّه قد تقدّمتِ المعجزات الكثيرة فاتّقوا اللّه في طلب هذه المعجزة بعد تقدّم تلك المعجزات).

قالَ عيسى ابنُ مَريَمَ: اللّهُمَّ رَبَّنا! أَنْزِلْ عَلَينا مائدةً من السَّماءِ. تَكونُ لَنا عِيداً لأَوَّلِنا وآخِرِنا، (أي: نتّخذ اليومَ الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظّمه نحن ومن يأتي بعدنا. ونزلت يوم الأحد، فاتّخذه النصارى عيداً. والعيد في اللّغة إسم لِمَا عادَ إليكَ في وقتٍ معلوم. واشتقاقه من عاد يعود. فأصله هو العود. فسمّي العيد عيداً، لأنّه يعود كلّ سنة بفرحٍ جديد).

وآيَةً منكَ، (أي: دلالة على توحيدك وصحّة نبوّة رسولك). **وارزُقْنَا** (طعاماً نأكله)، **وأنتَ خيرُ الرّازِقينَ.**

قال اللّهُ: إنّي مُنَزِّلُها عَليكمْ. فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ.

اختلفوا في أنّه هل نزلتِ المائدة. فقال الحسن ومجاهد: ما نزلتْ. واحتجّوا عليه بوجهَين: ألأوّل: إنّ القوم، لمّا سمعوا قوله **عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ** استغفروا، وقالوا: لا نريدها. والثاني: إنّه وصف المائدة بكونها عيداً لبقي ذلك العيد إلى يوم القيامة. وقال أكثرُ المفسّرين: إنّها نزلتْ: **إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**. وهذا وعدٌ بالإنزال جَزْماً من غير تعليق على شرط. فوجب حصول هذا النزول.

روي أنّ عيسى لمّا أراد الدعاء لبس صوفاً، ثم قال: " **اَللّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا**" ، فنزلتْ سفرةٌ حمراء بين غمامتَين، غمامة فوقها وأخرى تحتها. وهم ينظرون إليها حتّى سقطتْ بين أيديهم. فبكى عليه السلام، وقال: أللّهمّ اجعلني من الشاكرين. أللّهمّ اجعلها رحمةً، ولا تجعلها مَثْلة وعقوبة. وقال لهم: ليقمْ أحسنُكم عملاً يكشفُ عنها، ويذكرُ اسمَ اللّه عليها، ويأكل منها. فقال شمعون رأسُ الحواريّين: أنتَ أولَى بذلك. فقام عيسى وتوضّأ وصلّى وبكى ثم كشف المنديل..

وإذْ قال اللّهُ: يا عيسَى ابنَ مريمَ! أأنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُوني وأمِّيَ إلَهَينِ مِنْ دونِ اللّهِ؟!. (منهم من قال: هذا الكلام إنّما يذكره لعيسى يوم القيامة. ومنهم من قال: إنّه تعالى قال هذا الكلام لعيسى حين رفعه إليه. والأوّل أصح).

قالَ اللّه: هذا يومُ يَنفعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. (أجمعوا على أنّ المراد بهذا اليوم يوم القيامة. والمعنى أنّ صدقهم في الدنيا ينفعهم في القيامة.. وصدق الكفّار في القيامة لا ينفعهم).

البيضاوي:

"**إذْ أيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ**"، أي: بجبريل، أو بالكلام الذي يحيا به الدين، أو النفس، حياةً أبديّة، ويطهر من الآثام، ويؤيّده قوله: **تُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ، وكَهْلاً... واشْهَد بأنَّنا مُسْلِمُونَ** أي: مخلصون.

إذ قالَ الحَوَرِيّونَ: يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ! هلْ يَستطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ علَينا مائدَةً منَ السَّماءِ؟ قيل: هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة، لا على ما تقتضيه القدرة. وقيل: ألمعنى: هل يُطيع ربّك؟ أي: هل يجيبك؟. واستطاع بمعنى أطاع، كاستجاب وأجاب. والـ**مَائدة** ألخوان إذا كان عليه الطعام، من ماد الماء يميد، إذا تحرّك، أو من ماده إذا أعطاه، كأنّها تميد مَن تُقَدَّم إليه.. **تَكونُ لَنا عِيداً لأوَّلِنا وآخِرِنا.** روي أنّها نزلت يوم الأحد، فلذلك اتّخذه النصارى عيداً.

ألقرطبي:

"**إذْ أيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ**" وجهان: أحدهما إنّها الروح الطاهرة التي خصّه اللّه بها، كما تقدّم في قوله: "وروحٌ مِنْه"؛ والثاني إنّه جبريل. وهو الأصح.

إذ قالَ الحَـوَرِيّونَ: يا عيـسَى ابنَ مَرْيَمَ! هلْ يَسـتطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلينا مـائدَةً منَ السَّمـاءِ؟ ليس بشكٍّ في الاسـتطاعة، وإنّمـا هو تلطّفٌ في السؤال وأدبٌ مع اللّه..

وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا. يحتـمل ثلاثة أوجه: أحدهـا - تطمئنُّ إلى أنّ اللّه تعالى بعَثكَ إلينا نبيّاً. ألثاني- تطمئنّ إلى أنّ اللّه تعالى قد اختارنا أعواناً لك. ألثالث- تطمئنّ إلى أنّ اللّه تعالى قد أجابنا إلى ما سألْنا.

تَكونُ لَنا عِيداً. والعيد واحـد الأعياد.. وقال الخليل: ألـعيد كلّ يوم يجمع كأنّهم عادوا إليه. وقال ابـن الأنباري: سمّي عيداً للعود في المَرَح والفَرَح، فهو يوم سرور الخلق كلّهم: ألا ترى أنّ المسجونين، في ذلك اليوم، لا يطـالَبون ولا يعاقَـبون؛ ولا يُصاد الـوحش ولا الطيور؛ ولا تُنفذ الصبيان إلى المكاتب.

وقيل: سمّي عيداً لأنّ كلّ إنسان يعود إلى قدر منزلته: ألا ترى إلى اختلاف مـلابسهم وهيئاتهم ومآكلهم؛ فـمنهم مَن يضيف ومنهم مَن يضاف، ومنهم من يَرحم ومنهم من يُرحم. وقيل: سمّي بذلك لأنّه يومٌ شريـف تشبيـهاً بالعـيد: وهو فـحلٌ كريم مـشهور عنـد العرب، ويُنسَبون إليه، فيقال: إبْلٌ عِيدِيَّةٌ...

وإذْ قال الـلّهُ: يا عيـسَى ابنَ مريمَ! أأنْتَ قُلْتَ للنّاسِ اتَّخِـذُوني وَأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِنْ دونِ اللّهِ؟! اختُلـف في وقت هذه المقالة. فـقال قـتادة وابن جُريج وأكـثرُ المفـسّرين: إنّمـا يقول له هذا يومَ القـيامـة. وقال السُّدي وقطرُب: قال له ذلك حين رفعـه إلى السماء. وقالت النصارى فيـه ما قالت.. والأوّل أصح. يدلّ عليـه ما قبله من قـوله: "يومَ يَجْمَعُ الرُّسُلَ" (٥/ ١٠٩) ومـا بعده: "هَذا يومُ يَنْفَعُ الصّـادِقِينَ صِدْقُـهُمْ" (٥/ ١١٩).

واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال، وليس هو باستفهام وإنْ خرج مخرجَ الاستفهام، على قَولَين: أحدهما: أنّه سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادّعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشدّ في التوبيخ والتقريع. الثاني: قصد بهذا السؤال تعريفه أنّ قومه غيّروا بعده، وادّعوا عليه ما لم يقلْه.

فإنْ قيل: فالنصارى لم يتّخذوا مريم إلهاً، فكيف قال ذلك فيهم؟ فقيل: لمّا كان من قولهم أنّها لم تَلِد بشراً وإنّما ولدت إلهاً لزمهم أن يقولوا إنّها لأجل البعضيّة بمثابة مَن ولدته، فصاروا حين لزمهم ذلك بمثابة القائلين له.

فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ. قيل: هذا يدلّ على أنّ اللّه توفّاه قبل أن يرفعه؛ وليس بشيء؛ لأنّ الأخبار تظاهرتْ برفعه، وأنّه في السماء حيّ، وأنّه ينزل ويقتل الدّجّال.. وإنّما المعنى: فلمّا رفعتني إلى السماء. قال الحسن: ألوفاة في كتاب اللّه على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: "أَللّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوتِها" (٣٩/ ٤٢)، يعني وقتَ انقضاء أَجَلِها؛ ووفاة النّوم، قال اللّه تعالى: "وَهُوَ الّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ" (٦/ ٦٠)، يعني الذي يُنيمكم؛ ووفاة الرَّفْع، قال اللّه تعالى: "يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ" (٣/ ٥٥).

أبو حيّان الأندلسي:

هلْ يَستطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلينا مائدَةً منَ السَّماءِ؟ لا يجوز لأحد أن يتوهّم أنّ الحواريّين شكّوا في قدرة اللّه، وإنّما هذا، كما يقول الإنسانُ لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي. وهو يعلم أنّه مستطيع له. ولكنّه يريد: هل يسهل عليك؟.. لم يشكّوا في قدرة اللّه، وإنّما سألوه سؤال مستخبرٍ: هل يُنزِّل أم لا. فإنْ كان يُنزِّل فاسألْه لنا.

قال: سُبْحانَكَ! لمّا سمع عيسى هذا المقال ارتعدت مفاصله وانفجرتْ من أصلِ كلّ شعرة عينٌ من دم.

فلَمّا تَوَفَّيْتَني. قيل: هذا يدل على أنّه توفّاه وفاة الموت، قبل أن يرفعه.. لأنّ الأخبار تظافرت برفعه حيّاً وأنّه في السماء حيّ وأنّه ينزل ويَقتل الدجّال. ومعنى تَوَفَّيْتَنِي: قبضتني إليك بالرفع.

ابن كثير:

يذكر تعالى ما مَنّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليه السلام، ممّا أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات، فقال: "**اذْكُرْ نِعْمَتي عَلَيكَ**"، أي: في خَلقي إيّاك من أمٍّ بلا ذَكَر، وجعْلي إيّاك آيةً ودلالةً قاطعةً على كمال قدرتي على الأشياء، "**وعَلَى وَالِدَتِكَ**"، حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها ممّا نَسَبَه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة، "**إذْ أيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ**"، وهو جبريل، وجعلتُك نبيّاً داعياً إلى اللّه في صغرك وكبرك، فأنطَقْتُكَ في المهد صغيراً، فشهدتَ ببراءة أمّك من كلّ عيب، واعترفتَ لي بالعبوديّة، وأخبرتَ عن رسالتي إيّاك، ودعوتَ إلى عبادتي..

وَإذْ تُخْرِجُ المَوتَى بإذْني، أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن اللّه وقدرته وإرادته ومشيئته.. عن أبي الهذيل قال: كان عيسى ابن مريم، إذا أراد أن يحيي الموتى، صلّى ركعتَين، يقرأ في الأولى: "تَبَارَكَ الّذي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ" (٦٧/ ١)، وفي الثانية: "آلم. تَنْزِيلُ" (٣٢/ ١). فإذا فرغ منهما، مدحَ اللّهَ وأثنَى عليه. ثمّ دعا بسبعة أسماء: يا قديم. يا خفي. يا دائم. يا فرد. يا وتر. يا أحد. يا صمد. وكان، إذا أصابته شديدة، دعا بسبعة أُخَر: يا حيّ. يا قيّوم.

يا أللّه. يا رحمن. يا ذا الجلال والإكرام. يا نور السمّوات والأرض وما بينهما وربّ العرش العظيم. يا رب.

وإذْ كَفَفْتُ بني إسرائيلَ عنكَ، إذْ جِئْتَهُم بالبَيِّنَاتِ. فقالَ الّذينَ كَفرُوا منْهُمْ: إنْ هَذا إلاّ سِحْرٌ مُبينٌ، أي: واذكر نعمتي عليك في كفّي إيّاهم عنك، حين جئتُهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوّتك ورسالتك من اللّه إليهم، فكذّبوك واتّهموك بأنّك ساحر، وسعوا في قتلك وصَلبك، فنجّيتُك منهم، ورفعتك إليّ، وطهّرتك من دنسهم، وكفيتك شرّهم. وهذا يدلّ على أنّ هذا الامتنان كان من اللّه إليه، بعد رفعه إلى السماء. أو يكون هذا الامتنان واقعاً يومَ القيامة.

وإذْ أوحيتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أنْ آمِنوا بِي وبرَسولي. وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً. ثمّ إنّ المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال تعالى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيه " (٢٨/٧)، وهو وحي إلهام بلا خلاف. وكما قال تعالى: " وَأَوْحَى ربُّكَ إلى النَّحْلِ " (١٦/ ٦٨). وهكذا قال بعضُ السَّلَف في هذه الاية، أي: أُلْهِمُوا ذلك فامتثلوا ما أُلْهِموا. وقال السّدّي: قذف في قلوبهم.. ويُحتمل أن يكون المراد: وإذْ أوحيتُ إليهم بواسطتك، فدعوتُهم إلى الإيمان باللّه وبرسله، واستجابوا لك، وانقادوا، وتابعوك. فـ " **قالوا: آمَنّا. واشْهَد بأنّنا مُسْلِمُونَ** ".

إذ قالَ الحَوَرِيّونَ: يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ! هلْ يَستطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلينا مائدَةً منَ السّماءِ؟. عن ابن عبّاس كان يحدّث عن عيسى أنّه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا للّه ثلاثين يوماً، ثم تسألوه، فيعطيكم ما سألتم؟ فإنّ أجر العامل على مَن عمل له. ففعلوا. ثم قالوا: يا معلّم الخير! قلتَ لنا إنّ أجرَ العامل على مَن عمل له،

وأمرتَنا أن نصوم ثلاثين يوماً. فـفعلنا. ولم نكن نعـمل لأحدٍ ثلاثين يوماً إلاّ أطعَـمَنا حين نفرغ طعـاماً. فهل يستطيع ربُّك أن ينزِّل علينا مائدةً من السماء؟ قال عيسى:

إتَّقُوا اللّه... لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِين. الآية. قـال: فأقـبلتِ الملائكةُ تطير بمائدةٍ من السـماء، عليها سبـعة أحوات وسبعـة أرغفة حـتّى وضعـتْهـا بين أيديهم. فأكل مـنها آخـر النّاس، كمـا أكل منهم أوّلهم.. عن عـمّار بن ياسـر عن النّبيّ قـال: نزلتِ المائدةُ من السمـاء، عليهـا خبـزٌ ولحمٌ. وأُمِروا أن لا يخونوا، ولا يرفـعوا لغـدٍ. وادّخَروا ورفعـوا. فمُسِخـوا قردةً وخنازير.. عن عمّار أيضـاً قال نزلت المائدة وعليـها ثمـر من ثمـار الجنّة. فأمـروا أن لا يخـونوا ولا يخبـأوا ولا يدّخروا. قـال: فخـان القوم وخبّـأوا وادّخروا. فمـسخـهم اللّهُ قردةً وخنازير..

عن عمّار كـذلك: قال: إنّ بني إسرائيل سألوا عـيسى ابن مريم مائدةً يكون علـيها طعـام يأكلون منه، لا ينفد. قال: فـقيل لهم: فـإنّها مُقيمة لكم ما لم تخبأوا أو تخونوا أو ترفعوا. فإنْ فعلتم فإنّي معذّبكم عذاباً لا أعـذّبه أحداً من العالمين. قـال: فما مـضى يومهم حتّى خـبأوا ورفعوا وخانوا فعذِّبوا عذاباً لم يعذّبه أحداً من العالمين...

عن سَلمان الخير أنّه قال: لمّا سـأل الحوريّون عيسى ابن مريم المائدةَ، كـرهَ ذلك جـدّاً. فقـال: اقنعـوا بما رزقكم اللّه في الأرض. ولا تسألوا المائدة من السماء. فـإنّها، إنْ نزلتْ عليكم، كانت آيةً من ربّكم. وإنّما هلكتْ ثمود حين سـألوا نبيّهم آية فابتلوا بهـا حتّى كان بوارُهم فـيهـا. فأبوا إلاّ أن يأتـيهم بهـا. فلذلك " **قالوا: نُريدُ أنْ نَـأْكُلَ مِنْها. وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا** " . فلمّا رأى عيسى أنْ قد أبَوا إلاّ أن يدعو لهم بها، قام،

فألقى عنه الصوفَ، ولبس الشعر الأسود، وجبّةً من شعر، وعباءةً من شعر، ثمّ توضّأ واغتسل ودخل مصلاّه، فصلّى ما شاء اللّه. فلمّا قضى صلاته، قام قائماً، مستقبلَ القبلة. وصفَّ قدمَيه حتّى استويا، فألصقَ الكعبَ بالكعب، وحاذى الأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغضّ بصره، وطأطأ رسه خشوعاً، ثم أرسلَ عينَيه بالبكاء. فما زالت دموعُه تسيل على خدَّيه، وتقطر من أطراف لحيته، حتّى ابتلَّت الأرضُ حيالَ وجهه من خشوعه. فلمّا رأى ذلك دعا اللّهَ فقال: "**اللّهُمَّ رَبَّنا! أَنْزِلْ عَلَينا مائدةً من السَّماءِ** ".

فأنزل اللّه عليهم سفرةً حمراء بين غمامتين: غمامة فوقها وغمامة تحتها. وهم ينظرون إليها في الهواء، منقضّةً من فلكِ السماء، تهوي إليهم. وعيسى يَبكي خوفاً من أجل الشروط التي أخذها اللّه عليهم فيها أنّه يعذِّبُ مَن يكفُرُ بها منهم بعد نزولها عَذاباً لم يعذِّبْه أحداً من العالمين. وهو يدعو اللّهَ في مكانه، ويقول: أللّهمَّ اجعلْها رحمةً لهم. ولا تجعلْها عذاباً. إلهي! كم من عجيبةٍ سألتُكَ فأعطيتني. إلهي! إجعلْنا لك شاكرين. أللّهمّ! إنّي أعوذ بك أن تكون أنزلتَها غضباً ورجزاً. إلهي! اجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنة ومثلة.

فما زال يدعو حتّى استقرّت السفرة بين يدي عيسى والحواريّين وأصحابه حوله، يجدون رائحةً طيّبةً لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط. وخرّ عيسى والحواريّون للّه سجّداً، شكراً له لِما رزقهم من حيث لم يحتسِبوا. وأراهم فيه آيةً عظيمةً ذات عجب وعبرة.

وأقبلت اليهودُ ينظرون، فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمداً وغمّاً. ثمّ انصرفوا بغيظ شديد.

وأقـبل عيـسى والحـواريّون وأصحـابه حـتّى جلسوا حـول السفرة. فإذا عليها منديل مغطّـى. فقال عيسى: مَن أَجْرَأُنَا على كشْف المنديل عن هذه السـفـرة؟ وأَوثقُنا بنفـسـه، وأحسَـنُنا بلاءً عند ربّه؟ فليكشف عن هذه الآية حتّى نراها، ونحمد ربّنا، ونذكّر باسمه، ونأكل من رزقـه الذي رزقنا؟ فـقال الحـواريّون: يا روحَ اللّه وكلـمتَـه! أنتَ أَولانا بذلك، وأحقُّنا بالكشف عنها.

فقام عـيسى، عليه السلام، واستـأنفَ وضوءاً جديداً. ثمّ دخل مصلاّه. فصلّى كـذلك ركعات. ثمّ بكى بكاءً طويلاً. ودعا اللّه أن يأذن له في الكشف عنها، ويجعل له ولقومه فـيها بركةً ورزقاً. ثمّ انصرف وجلس إلى السفـرة. وتناول المنديلَ، وقال: باسم اللّه خـير الرازقين. وكَشَفَ عن السفرة. فإذا هو عليها بسمكة ضخمة مشويّة، ليس عليها بواسير. وليس في جوفـها شوك. يسيل السمن منها سـيلاً قد تحدّقَ به بُقولٌ من كلِّ صنفٍ غير الكرّاث، وعند رأسـها خلٌّ، وعند ذنبها ملحٌ، وحول البـقول خـمسة أرغـفة، على واحـد منها زيتـون، وعلى الآخر تمرات، وعلى الأخر خمس رمّانات.

فقـال شمعون رأس الحـواريّين لعيسى: يا روحَ اللّه وكلمـتَه! أَمِن طعام الدنيـا هذا أم من طعام الجنّة؟ فـقال عيـسى: أما آن لكم أن تعتبـروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقير المسـائل؟ ما أخوفني عليكم أن تُعاقبـوا في سبب نزول هذه الآية. فقال له شـمعون: لا وإله إسرائـيل! ما أردتُ بهـا سؤالاً يا ابن الصـدّيقة. فـقال عـيسى عليـه السـلام: ليس شيء ممّا ترون من طعـام الدنيا، ولا من طعـام الجنّة. إنّما هو شـيء ابتدعـه اللّهُ في الهواء بالقدرة الغالبة القـاهرة. فقال له: كنْ فكان أسرعَ من طرفـة عين. فكُلوا ممّا سألتم باسم اللّه، واحـمدوا عليه ربّكم يمدّكم منه ويزدكم. فإنّه بديع قادر شاكر.

فقالوا: يا روحَ اللّه وكلمتَه! إنّا نحبّ أن يُرينا اللّهُ آيةً في هذه الآية. فقال عيسى: سبحانَ اللّه! أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألوا فيها آيةً أخرى؟

ثمّ أقبلَ عيسى، عليه السلام، على السمكة، فقال: يا سمكة عودي بإذن اللّه حيّةً طريّةً تلمظ كما يتلمظ الأسد، تدور عيناها لها بصيص. وعادت عليها بواسيرها. ففزع القوم منها وانحاسوا. فلمّا رأى عيسى منهم ذلك قال: ما لكم تسألون الآية، فإذا أراكموها ربُّكم كرهتموها؟ ما أخوفني عليكم أن تُعاقبوا بما تصنعون! يا سمكة عودي بإذن اللّه كما كنتِ. فعادتْ بإذن اللّه مشويّة كما كانت في خلقها الأوّل.

فقالوا: يا عيسى! كن أنتَ يا روح اللّه الذي تبدأ بالأكل منها. ثمّ نحن بعد. فقال عيسى: معاذَ اللّه من ذلك. يبدأ بالأكلِ مَن طلَبَها. فلمّا رأى الحواريّون وأصحابه امتناعَ عيسى منها خافوا أن يكون نزولها سخطةً وفي أكلها مثله. فتحاموها. فلمّا رأى ذلك عيسى منهم دعا لها الفقراء والزمنى. وقال: كُلوا من رزقِ ربّكم ودعوةِ نبيّكم. واحمدوا اللّه الذي أنزلها لكم، فيكون مَهنَؤها لكم وعقوبتُها على غيركم. وافتَتِحُوا أكلَكم باسم اللّه، واختموه بحمد اللّه. ففعلوا. فأكل منها ألف وثلثمائة إنسان بين رجل وامرأة، يصدرون عنها كلّ واحد منهم شبعان يتجشّأ. ونظر عيسى والحواريّون فإذا ما عليها كهيئته إذ نزلتْ من السماء لم ينقصْ منها شيء.

ثمّ إنّها رُفعتْ إلى السماء، وهم ينظرون. فاستغنى كلُّ فقير أكلَ منها، وبرئَ كلّ زَمِنٍ أكلَ منها. فلم يزالوا أغنياء أصحّاء حتّى خرجوا من الدنيا.

وندم الحواريّون وإصحابُهم الذين أبَوا أن يأكلوا منها ندامة، سالتْ منها أشفارهم وبقيت حسرتُها في قلوبهم إلى يوم الممات.

وكانت المائدة، إذا نزلت بعد ذلك، أقبل بنو إسرائيل إليها يسعون من كلّ مكان، يزاحم بعضهم بعضاً: الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والأصحّاء والمرضى. يركب بعضهم بعضاً. فلمّا رأى ذلك جعلَها نَوَباً بينهم. تنزل يوما ولا تنزل يوماً. فلبثوا على ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم عبّاً عند ارتفاع النهار. فلا تزال موضوعة يُؤكل منها حتّى إذا قالوا: ارتفعت عنهم إلى جوٍّ السماء بإذن اللّه، وهم ينظرون إلى ظلّها في الأرض، حتّى توارى عنهم.

فأوحى اللّه إلى نبيّه عيسى، عليه السلام، أن اجعلْ رزقي في المائدة للفقراء واليتامى والزّمنَى دون الأغنياء من النّاس. فلمّا فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من النّاس، وغمطوا ذلك حتّى شكّوا فيها في أنفسهم، وشككوا فيها الناس، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكَر، وأدرك الشيطانُ منهم حاجتَه. وقذف وسواسَه في قلوب الربّانيّين حتّى قالوا لعيسى: أخبرنا عن المائدة ونزولِها من السماء، أَحَقٌّ؟ فإنّه قد ارتاب بها منّا بشرٌ كثير!

فقال عيسى، عليه السلام، هلكتم. وإله المسيح! طلبتم المائدة إلى نبيّكم أن يطلبها لكم إلى ربّكم. فلمّا أن فعل وأنزلها عليكم رحمة لكم ورزقاً، وأراكم فيها الآيات والعبر، كذبتم وشككتم فيها. فأبشروا بالعذاب. فإنّه نازل بكم إلى أن يرحمكم اللّه.

فأوحى اللّه إلى عيسى إنّي آخذ المكذِّبين بشرطي. فإنّي معذِّبٌ منهم مَن كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين.. فلمّا أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم

آمنين، فلمّا كان في آخر اللّيل مسخهم اللّه خنازير، فأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات...

وكلّ هذه الآثار دالّة على أنّ المائدة نزلت على بني إسرائيل أيّام عيسى ابن مريم، إجابة من اللّه لدعوته. كما دلّ على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم: "**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**". الآية.

وقال قائلون: إنّها لم تنزل.. عن مجاهد قال: هو مَثَلٌ ضربَه اللّهُ ولم ينزل شيء.. وقد يتقوّى ذلك بأنّ خبرَ المائدة لا يعرفه النصارى، وليس هو في كتابهم. ولو كانت قد نزلت لكان ذلك ممّا تتوفّر الدواعي على نقله. وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً..

"**وإذْ قال اللّهُ: يا عيسَى ابنَ مريمَ! أأنْتَ قُلْتَ للنّاسِ اتّخِذُوني وأمّيَ إلَهَينِ مِنْ دونِ اللّهِ؟!**". وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد.

"**إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنّهُمْ عِبَادُكَ. وإنْ تَغْفِرْ لهُمْ فإنّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ.** هذا الكلام يتضمّن ردّ المشيئة إلى اللّهّ. فإنّه الفعّال لما يشاء. الذي لا يُسأل عمّا يَفعل وهم يُسألون. ويتضمّن التبرّي من النصارى الذين كذّبوا على اللّه وعلى رسوله. وجعلوا للّه نداً وصاحبةً وولداً. تعالى اللّه عمّا يقولون. وهذه الآية لها شأنٌ عظيم ونبأ عجيب...

قالَ اللّه: هذا يومُ يَنفعُ الصّادِقِينَ صِدْقُهُمْ عن ابن عبّاس قال: يوم ينفع الموحِّدين توحيدهم.

الآلوسي:

"**بِرُوحِ القُدُسِ**"، أي: جبريل، أو الكلام الذي يحيي به الدين، ويكون سبباً للطهر عن أوضار الآثام، أو تحيي بها الموتى، أو

النفوس، حياةً أبديّة، أو نفسه روحه عليه السلام، حيث أظهرها، سبحانه وتعالى، روحاً مقدّسةً طاهرةً مشرفةً نورانيّةً علويّة، وكون هذا التأييد نعمة عليه، عليه الصلاة والسلام، ممّا ترتّب عليه من براءتها ممّا نسب إليها وحاشاها وغير ذلك.

محمّد عبده:

" **قالوا: نُريدُ أنْ نَأكُلَ مِنْها. وَتَطْمَئِنَّ قُلوبُنا. وَنَعلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنا. وَنَكونَ عليها منَ الشّاهِدِينَ** ". أي نطلبها لأربع فوائد. **إحداها** إنّنا نريد أن نأكل منها، لأننا في حاجة إلى الطعام، ولا نجد ما يسدّ حاجتنا. **الثانية**، نريد أن تطمئن قلوبُنا بما نؤمن به من قدرة اللّه بمشاهدة خرقه للعادة.. **الثالثة**، أن نعلم هذا النوع من العلم، أي علم المشاهدة، أنّ الحال والشان معك هو أنّك قد صدقتنا ما وعدتنا من ثمرات الإيمان، كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات. **الرابعة**، أن نكون من الشاهدين على هذه الآية.. فيؤمن المستعد للإيمان ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

" **تَكونُ لَنا عِيداً لأَوَّلِنا وآخِرِنا** ". وكلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور، وبمعنى الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معيّن أو أيّام معيّنة من السنة للعبادة، أو لشيء آخر من أمور الدنيا..

سيّد قطب:

إنّها المواجهة بما كان من نعم اللّه على عيسى ابن مريم وأمّه.. من تأييده بروح القدس في مهده، وهو يكلّم الناس في غير موعد الكلام؛ يبرّئ أمّه من الشبهة التي أثارتْها ولادتُه على غير مثال؛ ثمّ

وهو يكلّمهم في الكهولة يدعوهم إلى اللّه.. وروح القدس، جبريل يؤيّده هنا وهناك.. ومن تعليمه الكتاب والحكمة؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئاً، فعلّمه الكتابة، وعلّمه كيف يحسن تصريف الأمور، كمّا علّمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل؛ والإنجيل الذي آتاه إيّاه مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة.

ثمّ من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشرٌ إلاّ بإذن اللّه. فإذا هو يصوّر من الطين كهيئة الطير بإذن اللّه، فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن اللّه.. وإذا هو يبرئ المولود أعمى بإذن اللّه.. ويبرئ الأبرص بإذن اللّه.. وإذا هو يحيي الموتى بإذن اللّه.. ثمّ يذكّره بنعمة اللّه عليه في حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البيّنات كلّها، فكذّبوه وزعموا أنّ معجزاته هذه الخارقة سحرٌ مبين.. ولم يريدوا التسليم بدلالتها عناداً وكبراً.. حمايته منهم فلم يقتلوه، كما أرادوا، ولم يصلبوه. بل توفّاه اللّه، ورفعه إليه.. كذلك يذكّره بنعمة اللّه عليه في إلهام الحواريّين أن يؤمنوا باللّه وبرسوله. فإذا هم ملبّون ومستسلمون، يشهّدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسَهم كاملة للّه...

إنّها النعم التي آتاها اللّه عيسى ابن مريم، لتكون له شهادةً وبيّنة.. ويستطرد السياق في معرض النعم على عيسى وأمّه إلى شيء من نعمة اللّه على قومه، ومن معجزاته التي أيّده اللّه بها وشهدها وشهد بها الحواريّون..

ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى.. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا (ص) فرق بعيد.. إنّهم الحواريون.. آمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم.. ومع هذا، فهم، بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقةً جديدة، تطمئنّ بها نفوسهم،

ويعلمون منها أنّه صدقهم، ويشهدون به له لمن وراءهم. فأمّا أصحاب محمّد فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم.. لقد آمنتْ قلوبُهم واطمأنّتْ منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان. ولقد صدّقوا رسولَهم، فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان. ولقد شهدوا له بلا معجزة إلاّ هذا القرآن.

وقصّة المائدة، كما أوردها القرآن الكريم، لم ترد في كتب النصارى. ولم تذكر في هذه الأناجيل التي كتبت متأخّرة بعد عيسى بفترة طويلة..

محمّد حسين فضل اللّه :

هناك عدّة نقاط أمام هذه الآيات:

النقطة الأولى : كيف تكون هذه الآيات المتعلّقة بعيسى نعمةً على والدتِه التي لم تشارك في ذلك؟

والجواب، أنّ من الممكن أن تكون النعمة على والدته من حيث إكرامها بالكرامة الإلهيّة في إظهار قدرة اللّه في خلق عيسى من خلالها، واصطفاء اللّه لها وتطهيرها ورعايته لها في كلّ حياتها، مع كون الآيات المذكورة في الآية مختصّة بعيسى. ومن الممكن أن تكون المسألة من حيث إنّ النعمة التي تصل إلى الولد هي نعمة على الأمّ أيضاً، لأنّه فرع منها. فما يصل إليه من الكرامة يصل إليها، لأنّ اللّه يكرم الأم بإكرام ولدها.

النقطة الثانية : لماذا هذا التكرار في كلمة "**بِإِذْنِيث**" أربع مرّات مع إمكان الاكتفاء بكلمة واحدة للدلالة على أنّ ما صدر عن عيسى ليس ناشئاً من قدرته الذاتيّة، بل هو ناتج عن قدرة اللّه سبحانه؟

والجواب، أنّ ذلك قد يـكون وارداً للتأكيـد على رفض النسـبة الذاتيّة الخـاصّة في صدور هذه المعاجـز المدهشة والقدرات العجـيبة إلى عيسى، باعتبارهما أقـرب إلى الأفعال الإلـهيّة.. وذلك لإبعاد فكرة الغلوّ فيه وادّعاء الألوهيّة له، كما حدث بعد ذلك..

النقطة الثالثة : إنّ اللّه يزوّد أنبياءَه وأوليـاءَه ببعض القدرات الخاصّـة.. إنّ القرآن لا يثـبت للأنبيـاء وللأولياء، إلاّ بعـض القدرات الخاصّـة التي تنتج أعمـالاً خاصّـة للحاجـة إليهـا في عالم التـحدّي والكرامة، ولم يثبت لهم أكثر من ذلك...

النقطة الرابعة : ما مـعنى إيحاء اللّه للحـواريّين؟ هل هو على طريقة الإيحاء للأنبياء بواسطة جبرائيل، أو أنّ للوحي هنا معنى آخر؟

ألظاهر، واللّه العالم، أنّ الإيحاء بمعنى الإلهام الخفي ...

النقطة الخامسة : لماذا بعث اللّهُ موسى بن عمران بيده البيضاء والعصا وآلة السـحر، وبعث عيسى بآلة الطبّ، وبعث مـحمّداً بالكلام والخطب؟

قـال أبو الحسن: إنّ اللّه لمّا بعـث موسى كـان الأغلب على أهل عـصره السـحر، فـأتاهم.. بما أبطل به سـحـرهم، وأثبت به الحجّـة عليهم؛ وإنّ اللّه بعث عـيسى في وقت ظهرت فـيه الزمانات، واحـتاج الناسُ إلى الطب، فأتاهم.. بما أحيى لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن اللّه، وأثبت الحـجّة عليـهم؛ وإنّ اللّه بعث محـمّداً في وقـت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام والشعر، فأتاهم من كتاب اللّه والموعظة والحكمة بما أبطل به قولَهم، وأثبت الحجّةَ عليهم.

(٥٧)

أهل الكتاب يعرفون محمّداً كما يعرفون أبناءهم

الّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ أبْنَاءَهُمُ الذينَ خَسِروا أنْفُسَهُمْ. فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (سورة الأنعام ٦/ ٢٠).

الطبري:

الّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ، التوراةَ والإنجيل، **يَعْرِفُونَه**، أي اللّه أنّه إله واحد، لا جماعة الآلهة، وأنّ الإسلام دين اللّه، وأنّ محمّداً نبيّ مبعوث يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، **كما يَعرِفونَ أبناءَهم؛ الذينَ خَسِروا أنْفُسَهُمْ**، أي أهلكوها وألقوها في نار جهنّم، بإنكارهم محمّداً أنّه للّه رسول مرسل. وهم بحقيقة ذلك عارفون. **فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**، فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون.

الخازن:

الّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ يَعْرِفُونَه كما يَعرِفونَ أبناءَهم. المراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن رسول اللّه، وذلك أنّ كفّار مكّة، لما قالوا للنّبيّ: إنّا سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنّه ليس لك عندهم ذكر. وأنكروا معرفته. بيّن اللّه أنّ شهادته له كافية على صحّة نبوّته. وبيّن في هذه الآية أنّهم يعرفونه، وأنّهم كذبوا في قولهم إنّهم لا يعرفونه. **الذينَ خَسِروا أنْفُسَهُمْ**، بكونهم جحدوا نبوّة محمّد، **فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**.

أبو حيّان الأندلسي:

"**الكتاب**"، قيل: القرآن. وقيل التوراة والإنجيل. "**يَعْرِفُونَه**"، قيل: ألضمير في يعرفونه يعود على الرسول. وقيل: على التوحيد، لقرب قوله: "قُلْ إنَّمَا هُوَ إلَهٌ وَاحِدٌ" (٦/ ١٩). وقيل: على القرآن، لقوله: "وَأُوْحِيَ إلَيَّ هَذَا القُرْآنُ" (٦/ ١٩). وقيل: يعود على جميع هذه الأشياء من التوحيد والرسول والقرآن.. وقيل: يعود على كتاب أهل الكتاب، أي يعرفون كتابهم وفيه ذكر نبوّة محمّد. وقيل: يعود على الدين والرسول. فالمعنى: يعرفون الإسلام أنّه دين اللّه، وأنّ محمّداً رسول اللّه.

محمّد عبده:

روي أنّ قريشاً أرسلتْ إلى المدينة مَن سأل اليهود عن النّبيّ، ورجعوا إلى مكّة فزعموا أنّ اليهود قالوا: ليس له عندنا ذكر. فلمّا صار لهم عهدٌ باليهود كان ممّا ردّ اللّه تعالى به عليهم في هذه السورة قوله بعدما تقدّم من الحجج: "**الّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ يَعْرِفُونَه كما يَعرِفونَ أبناءَهم**"، أي يعرفون محمّداً النّبيَّ الأمّيَّ خاتمَ الرسل، كما يعرفون أبناءهم؛ لأنّ نعته في كتبهم واضح ظاهر..

ثمّ بيّن تعالى علّةَ إنكار المكابرين منهم لما يعرفونه من أمر نبوّته، فقال: "**الذينَ خَسِروا أنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**". أي: الذين خسروا أنفسهم منهم فهم لا يؤمنون به، بل يكفرون كِبَراً وعِنَاداً. فهم لذلك ينكرون ما يعرفون.. أي وحدانيّةَ اللّه تعالى.. فخسروا أنفسهم لأنّهم يؤثرون ما لهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم، على الإيمان بالرسول النبيِّ الأمّيِّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم،

لعلمهم بأنّ هذا الإيمان يسلبهم تلك الرياسة ويجعلهم مساوين لسائر المسلمين في جميع الأحكام...

سيّد قطب:

لقد تكرّر في القرآن الكريم ذكرُ معرفة أهلِ الكتاب -وهم اليهود والنصارى- لهذا القرآن؛ أو لصحّة رسالة محمّد، وتنزيل هذا القرآن عليه من عند الله.. تكرّر ذكرُ هذه الحقيقة سواء في مواجهة أهل الكتاب أنفسهم، عندما كانوا يقفون من النّبيّ ومن هذا الدين وقفةَ المعارضة والإنكار والحرب والعداء، أو في مواجهة المشركين من العرب، لتعريفهم أنّ أهل الكتاب، الذين يعرفون طبيعة الوحي والكتب السماويّة، يعرفون هذا القرآن، ويعرفون صدق رسول اللّه في أنّه وحي أَوحَى به ربُّه إليه، كما أَوحَى إلى الرسل من قبله.

أهل الكتاب هؤلاء يعرفون القرآن كما يعرفون أبناءهم. وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به، فذلك لأنّهم خسروا أنفسهم. فهم لا يؤمنون ، شأنهم في هذا شأن المشركين، الذين خسروا أنفسهم، فلم يدخلوا في هذا الدين. والسياق، قبل هذه الآية وبعدها، كلّه عن المشركين، ممّا يرجّح مكّيّتها..

إنّ أهل الكتاب يعرفون أنّ هذا الكتاب حقّ من عند اللّه؛ ويعرفون، من ثمّ، ما فيه من سلطان وقوّة؛ ومن خير وصلاح؛ ومن طاقة دافعة للأمّة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها؛ وبالأخلاق التي تنبثق منها؛ وبالنظام الذي يقوم عليها. ويحسبون كلّ حساب لهذا الكتاب وأهله؛ ويعلمون جيّداً أنّ الأرض لا تسعهم وتسع أهلَ الدين!.. إنّهم يعرفون ما فيه من حقّ، ويعرفون ما هم فيه من باطل.. ويعرفون أنّ الجاهليّة التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع

قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدّين، أو يبقي عليها.. وأنّها، من ثمّ، معركة لا تهدأ حتّى تجلو الجاهليّة عن هذه الأرض، ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كلّه للّه.. أن يكون السلطان في الأرض كلّه للّه؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان اللّه في الأرض كلّها. وبذلك وحده يكون الدين كلّه للّه..

إنّ أهل الكتاب يعلمون جيّداً هذه الحقيقة في هذا الدين.. ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.. وهم، جيلاً بعد جيل، يدرسون هذا الدين دراسةً دقيقةً عميقةً؛ وينقّبون عن أسرار قوّته؛ وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها؛ ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوّة الموجّهة في هذا الدين؟ كيف يُلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله؟ كيف يحرّفون الكلم فيه عن مواضعه؟ كيف يصدّون أهله عن العلم الحقيقي به؟ كيف يحوّلونه من حركة دافعة تحطّم الباطل والجاهليّة، وتستردّ سلطان اللّه في الأرض، وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كلّه للّه.. إلى حركة ثقافيّة باردة، وإلى بحوث نظريّة ميّتة، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ؟

كيف يفرغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصوّرات غريبة عنه مدمّرة له، مع إيهام أهله أنّ عقيدتهم محترمة مصونة؟! كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصوّرات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى، ليجهزوا على الجذور العاطفيّة الباقية من العقيدة الباهتة؟

إنّ أهل الكتاب يدرسون هذا الدين درسة جادّة عميقة فاحصة؛ لا لأنّهم يبحثون عن الحقيقة -كما يتوهّم السذّج من أهل هذا الدين- ولا لينصفوا هذا الدين وأهله -كما يتصوّر بعض المخدوعين حينما

(٥٨)

عيسى، كسائر النّبيّين، من الصالحين

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (سورة الأنعام ٦/ ٨٥).

الطبري:

يقول تعالى ذكرُه: وهدينا أيضاً لمثل الذي هدينا له نوحاً من الهدى والرشاد من ذرّيته زكريا بن أزن ابن بركيا، ويحيى بن زكريّا، وعيسى ابن مريم ابنة عمران..، وإلياس. واختلفوا في إلياس. فكان ابن إسحق يقول إلياس بن يسّى بن فنحاص بن ألعيزار بن هرون بن عمران، إبن أخي موسى نبيّ اللّه. وكان غيره يقول: هو إدريس.. وأمّا أهل الأنساب فإنّهم يقولون: إدريس جدّ نوح.. وهو أخنوخ.. ونوح إبن إدريس عند أهل العلم...

البيضاوي:

في ذكره "**وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى**" دليل على أنّ الذرّيّة تتناول أولاد البنت.

أبو حيّان الأندلسي:

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ. قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد، والإعراض عن الدنيا... وقرن عيسى وإلياس لاشتراكهما في كونهما لم يموتا بعد..

الآلوسي:

في ذكره "عيسى" دليل على أنّ الذرّيّة تتناول أولاد البنات.. وبكونه بلا أب يُذكر في حيّز الذرّيّة، وفيه منع ظاهر. والمسألة

خلافـيّة. والذاهبون إلى دخـول ابن البنت في الذرّيّة يستـدلّون بهذه الآية. وبها احتجّ موسى الكاظم على ما رواه البعض عن الرّشيد...

القاسمي:

والمسـألة (أي مسـألة تناول الذرّيّة أولاد البنت) مختلف فـيها. والقائل بها استدلّ بهـذه الآية، وآية المباهلة، حيث دعا (النّبيُّ) الحسن والحسين بعدما نزل: "نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأبناءَكم" (٣/ ٦١).

محمّد حسين فضل الله:

وَزَكَـرِيًّا وَيَحْـيَى وَعِيـسَى وَإِلْيَـاسَ الذين تميّـزت حـيـاتهم بالروحـانيّة الـصافـية في أسـلوب العيش وفي حـركـة العلاقـات، وبالوداعـة الطاهرة التي كانت تتـفايض في عـيونهم إشـراقاً وحـبًّا ورحمةً للعالمين، وبالانقطاع عن زخارف الدنيا...

(٥٩)

لا بنات لله ولا بنون، لا صاحبة ولا وَلَد

وَجَعَلُوا للّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهـمْ وَخَرَقُوا لهُ بَنِينَ وَبنَاتٍ بِغَيرِ عِلْمٍ. سبْحَانَه وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ! بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ أنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ! وَلَمْ تَكُنْ لهُ صَـاحِـبَةٌ؟! وَخَلَقَ كُلَّ شَـيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ (سورة الأنعام ٦/ ١٠٠-١٠١).

الطبري :

وَجَعَلُوا لـلّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَـقَهمْ (كمـا قال: "وَجَـعَلُوا بينَه وبينَ الجِنَّةِ نَسَـباً" (٣٧/ ١٥٨). ومـعناه: وجـعلوا للّه الجنّ شركـاء

وهو خالقهم). **وَخَرَقُوا لَهُ** (أي: اختلقوا له) **بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ** (كما قالت العرب: الملائكة بنات اللّه؛ وقالت اليهود والنصارى: المسيح وعُزير إبنا اللّه). **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ**!.

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (أي: مبتدعها ومحدثها وموجدها بعد أن لم تكن). **أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ! وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ**؟! (والولد إنّما يكون من الذكر ومن الأنثى. ولا ينبغي أن يكون للّه سبحانه صاحبة فيكون له ولد)، **وَ**(ذلك أنّه هو الذي) **خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ**. (فإذا كان لا شيء إلاّ اللّه خلقه، فأنّى يكون للّه ولد ولم تكن له صاحبة فيكون له منها ولد!). **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (أي: واللّه الذي خلق كلّ شيء لا يخفى عليه ما خلق).

محمّد حسين فضل اللّه :

أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ لما يمثّله الولد من حاجة وضعف، فإنّ الإنسان، في تمنّيه للولد ينطلق من حاجة خفيّةٍ إلى الخلود، وهو ما لا يستطيع تحقيقه غالباً إلاّ عبر أولاده الذين تمثّل حياتهم امتداداً لحياته. واللّه هو الخالق الحيّ الأبدي السرمدي الذي لا معنى للحاجة لديه ولا معنى لمجرّد تصوّرها فيه.

وإذا كان الولد، في مفهوم الناس، هو نتيجة العلاقة بين الرجل والمرأة، فكيف يمكن نسبته إلى اللّه **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ**؟ فذلك لا معنى له أيضاً، لأنّ الحاجة إلى الصاحبة، في مسألة الولد، تنطلق من كونها وسيلة لإنجابه، فكيف يتصوّر ذلك في اللّه الخالق لكلِّ شيء الذي يخلق ما يريده بشكل مباشر **وَخَلَقَ كلَّ شيءٍ وهُوَ بكلِّ شيءٍ عَليمٌ** ممّا يوحي بالسيطرة المطلقة لما تعنيه الإحاطة بخفايا الأشياء والقدرة عليها.

(٦٠)

أهل الكتاب يعلمون أنّ القرآن منزّل بالحقّ

أفَغَيـرَ اللهِ أبْتَغِي حكَماً! وَهُوَ الّذي أنْزَلَ إليكُمُ الكتَابَ مُـفَصّلاً. والّذينَ آتَينَاهُمُ الكتَـابَ يَعلَمُـون أنّه مُنَزّلٌ مِنْ ربِّكَ بالحَقِّ. فـلا تكونَنَّ منَ المُمْتَرينَ (سورة الأنعام ٦/ ١١٤).

الطبري:

يقول تعالى ذكرُه لنبيّه محمّد: قل لهؤلاء العادلين باللّه الأوثانَ والأصنامَ، القائلين لكَ: "كُفَّ عن آلهـتنا، ونكفّ عن إلهك"، إنّ اللّهَ قد حكم عليّ بذكر آلهتكم بما يكون صـدّاً عن عبادتها: "**أفَغَيرَ اللهِ أبْتَغِي حكَماً!**"، أي قل: فليس لي أن أتـعـدّى حكمـه وأتجـاوزه، لأنّه لا حكم أعدل منه، ولا قائل أصدق منه، **وَهُوَ الّذي أنْزَلَ إليكُمُ الكتابَ مُفَصّلاً**، يعني القرآن، مبيِّناً فيه الحكمَ فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم..

ويقول تعـالى ذكره: إنْ أنكر هؤلاء العـادلون باللّه الأوثانَ من قومك تـوحيدَ اللّه، وأشـركوا مـعه الأنداد، وجـحدوا ما أنزلتُـه إليك، وأنكروا أن يكون حـقّاً وكـذبوا به، فـ"**الّذينَ آتَيناهُمُ الكتـابَ**"، وهو التوراة والإنجيل من بني إسرائيل، "**يَعلَمون أنّه مُنَزّلٌ من ربِّكَ**"، أي القرآن وما فيه، "**بالحَقِّ**"، أي: فَصلاً بين أهل الحقّ والباطل، يدلّ على صدق الصادق على اللّه، وكذب الكاذب المفتري عليه.

"**فـلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَـرِينَ**"، أي: فـلا تكوننّ، يا مـحمّـد، من الشاكّين في حقـيقة الأنباء التي جاءتك من اللّه في هذا الكتـاب، وغير ذلك ممّا تضمّنه، لأنّ الذين آتيناهم الكتـاب يعلمون أنّه منزل من ربّك بالحقّ.

الطبرسي:

"**والّذينَ آتَيناهُمُ الكتابَ**"، قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، أي التوراة والإنجيل. وقيل أيضاً: يعني بهم كبراء الصحابة وأصحاب بدْر. والكتاب هو القرآن. "**يَعلَمُونَ أنّه**"، أي القرآن، "**مُنَزَّلٌ من ربِّكَ بالحَقِّ**"، يعني ببيان الحقّ. أي يعلمون أنّ كلّ ما فيه بيان عن الشيء على ما هو به فترغيبه وترهيبه ووعده ووعيده وقصصه وأمثاله، وغير ذلك جميعه بهذه الصفة..

"**فلا تكونَنَّ منَ المُمْتَرينَ**"، أي من الشاكّين في ذلك. والخطاب للنّبي، والمراد به الأمّة. وقيل: الخطاب لغيره، أي: فلا تكن أيها الإنسان، أو أيّها السامع. وقيل الخطاب للنّبيّ، والمراد به الزيادة في شرح صدره، ويقينه وطمأنينة قلبه وتسكينه، كقوله تعالى: "فَلا يَكُنْ في صَدرِكَ حَرَجٌ منه" (٧/ ٢).

القرطبي:

"**والّذينَ آتَيناهُمُ الكتابَ**"، وهم رؤساء أصحاب محمّد: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي..

أبو حيّان الأندلسي:

"**أفَغَيرَ اللهِ أبْتَغِي حكَماً! وَهُوَ الّذي أنْزَلَ إليكُمُ الكتَابَ مُفَصَّلاً**"، قال مشركو قريش للرسول: إجعلْ بيننا وبينك حكَماً من أحبار اليهود، وإنْ شئتَ من أساقفة النّصارى، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك؟. فنزلتْ. وأجاب بأنّه لا فائدة في إظهار الآيات المقترحة لهم أنّهم لا يبقون مصرّين على الكفر بين الدليل على نبوّته بإنزال القرآن عليه، وقد عجز الخلق عن معارضته، وحكم فيه بنبوّته،

وباشتمال التوراة والإنجيل على أنّه رسول حقّ، وأن القرآن كتاب من عند اللّه حق.

ووجهٌ آخر: وهو أنّه، لمّا ذكر العداوة وتهدّدهم، قال: ما ذكرناه في سبب النزول وكان من عادتهم، إذا التبس عليهم أمرٌ واختلفوا فيه، جعلوا بينهم كاهناً حكَماً، فأمره اللّه أن يقول: أَفَغَيرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا؟ وهذا استفهام معناه النفي. أي: لا أبتغي حكَماً غير اللّه.. وكأنّه إشارة إلى حكم اللّه عليهم بأنّهم لا يؤمنون..

و "**مُفَصَّلاً**"، أي: موضحاً مزال الإشكال؛ أو مفصّلاً بالوعد والوعيد؛ أو مفصّلاً مفرّقاً على حساب المصالح، أي: لم ينزله مجموعاً، أو مفصّلاً بين الأحكام من النهي والأمر، والحلال والحرام، والواجب والمندوب، والضلال والهدى؛ أو مفصّلاً، مبيّناً فيه الفصل بين الحق والباطل، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء.. وبهذه الآية خاصمت الخوارجُ عليّاً في تكفيره بالتحكيم.

"**فلا تكونَنَّ منَ المُمْتَرينَ**" في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّه منزل من ربِّكَ بالحقّ ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم.

محمّد عبده:

"**والّذينَ آتَيناهُمُ الكتابَ يَعلَمون أنّه مُنَزَّلٌ من ربِّكَ بالحَقِّ**"، أي: والذين أعطيناهم علم الكتب المنزلة من قبله، كعلماء اليهود والنصارى، دون المقلِّدين، أنّ هذا الكتاب منزَل عليك من ربّك بالحقّ. وبيان هذا من وجهين:

أحدهما: أنّ العالم بالشيء يميّز بين ما كان منه وما لم يكن: فمَن ألّف كتاباً في علم الطبّ كان الأطبّاء أعلمَ الناس بكونه طبيباً؛

ومَن ألّف كتابــاً في النحو كان النحاة أعلمَ الناس بكونه نحــوياً، كذلك المؤمنون بالوحي، العالمون بما أَنْزَل اللّه على أنبــيائهم منه يعلمون أنّ هذا القــرآن من جنس ذلك الوحي، وفي أعلى مراتب الكمــال منه، وأنّ أوسع البشــر علماً لا يستــطيع أن يأتي بمثله، فكيف يستطيــعه رجلٌ أمّي لم يقرأ ولم يكتب قــبله شيئــاً: "وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِه مِنْ كـتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ المُــبْطِلون" (٢٩/٤٨)، ولذلك قال تعالى في آية أخرى "أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيةً أنْ يَعْلَمَه عُلَمَاءُ بَنِي إسْرَائِيلَ" (٢٦/ ١٩٧).

ثانيهــما: أنّ في الكتب الأخيــرة، كالتوراة والإنجــيل، بشــارات بالنبيّ، لم تكن تخــفى على علمائهــما في زمــن محــمّد، وقال تعــالى: "الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكتَابَ يَعرِفُونَه كَمَا يَعرِفُونَ أبْنَاءَهُم، وإنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكتُمُــونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (٢/١٤٦)، وقد اعترف المــنصفون من أولئك العلماء بذلك، وآمنوا، وكتم بعضُهم الحقّ وأنكروه بغياً وحسَداً.

سيّد قطب:

... إنّ الذين أوتوا الكتاب من قبل يــعلمون أنّ هذا الكتاب منزل من عند اللّــه. وهم أعــرف بالكتــاب لأنّهم مــن أهل الكتــاب: "**والّذينَ آتَيناهُمُ الكتابَ يَعلَمون أنّه مُنَزّلٌ من ربِّكَ بالحَقِّ**".

ولقــد كــانت هذه مــلابسة حــاضــرة في مكّة وفي الجــزيرة، يخاطب اللّهُ بهــا المشركين.. سواء أقرّ أهل الكتــاب بها وجهــروا –كما وقع من بعــضــهم ممّن شــرحَ اللّهُ صــدرَه للإســلام–، أو كتــمــوها وجحدوها –كــما وقع من بعضــهم–. فالأمــر، في الحالَين، واحد، وهو إخبار اللّه –وخبره هــو الصدق– أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّه منزل من ربّه بالحق.. فالحقّ محتواه؛ كما أنّ الحقّ متلبس بتنزيله من اللّه..

ومـا يزال أهل الكتـاب يعلمـون أنّ هذا الـكتـاب منزل من اللّه بالحقّ. وما يزالون يعلمون أنّ قـوّة هذا الدين إنّما تنبثق من هذا الحقّ الذي يتلبس به، ومن هـذا الحقّ الذي يحتـويه، ومـا يزالون -من أجل علمهم بهذا كلّه- يحاربون هـذا الدين، ويحاربون هذا الكتاب، حرباً لا تهدأ..

وأشدّ هذه الحـرب وأنكاها، هو تحويل الحَاكِـمِيَّةِ عن شـريعة هذا الكتاب، إلى شرائع كـتب أخرى من صنع البشر. وجـعل غير اللّه حَكَمـاً، حتى لا تقوم لكـتاب اللّه قائمـة، ولا يصبح لدين الـلّه وجود، وإقامة ألوهيّـاتٍ أخرى في البلاد التي كانت الألوهيّة فيـها للّه وحده؛ يوم كانت تحكمـها شريعة اللّه التي في كـتابه؛ ولا تشاركهـا شريعة أخرى، ولا يوجد إلى جوار كتاب اللّه كتب أخرى، تستمدّ منها أوضـاع المجتمع، وأصول التشـريعات، ويُرجع إليها ويُستشـهد بفـقراتها، كما يستشـهد المسلم بكتاب اللّه وآياته!

وأهلُ الكتـاب، من صليبـيّين وصـهيـونيّين، من وراء هذا كلّه؛ ومن وراء كلّ وضع وكلّ حَكَم يقام لمثل هذه الأهداف الخبيثة!

محمّد حسين فضل اللّه :

ويستنطق القرآنُ رسولَ اللّه، فيصوّره لنا في موقفه الرسـالي الذي يوحي للناس بالموقف الحاسم الرافض لكلّ الأشخاص والرموز الذين اعـتـادوا أن يتحـاكـمـوا إليهم عـندما يخـتلفـون ويتنازعـون ويتطلّبون القول الفصل والحكم العدل الذي يخضع له الجميع، فليس لأيٍّ واحدٍ منهم حقُّ الحاكميّة، وليس لأحدٍ منهم أن يتّخذ حكماً في أي أمـرٍ، لأنّهم لا يملـكون الصـلاحـيّـة في ذلك. فـهم مـخـلوقـون للّه، خاضعون له، محدودون في رؤيتهم وخبرتهم بالقضايا والأشياء.

ويطلق رسولُ اللّه صيحةَ الاستنكار لكلِّ رموز الشرك، ليؤكّد موقفه التوحيدي للّه تعالى، والرادّ كلّ أمر مهما كان إليه تعالى، كسنّةتقود العالم وتهديهم في مسيرة حياتهم كلّها. ومن خلال هذا كلّه يطرح الحاكميّة التي تعتبر القاعدة التي يرتكز عليها التوحيد، لأنّها السرّ العميق في روحيّة الاستسلام للّه؛ لأنّها تعني أنّ الإنسان لا يستقلّ بأيٍّ فكرٍ، أو حركةٍ، أو عملٍ، أو انتماءٍ؛ بل يُرجع ذلك كلّه إلى اللّه. فهو الحكَم في كلّ شيء.

... فاللّه هو القادر ، والقاهر، والحكيم، والخبير، والخالق، والعليم، والمنعم، فكيف أجعل غيرَه هو الحاكم في أيّ شيء؟ وماذا يملك غيرُه؟

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن ربِّكَ بِالحَقِّ؛ لأنّهم يعرفون دلائله الواضحة، في ما لديهم من الكتاب الذي أنزله على موسى وعيسى، وفي ما بشّر به من نبوّة محمّد؛ لكنّهم يظهرون الإنكارَ والشكّ والريبة، حسداً وحقداً وعداوةً...

(٦١)

تمنّي قريش أن يكون لهم كتاب كما كان لليهود والنصارى

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ على طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، وإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أو تَقُولُوا لو أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ. فَقَد جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَصَدَفَ عَنْهَا! سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (سورة الأنعام ٦/ ١٥٦–١٥٧).

الطبري:

"**أنْ تَقُـولُوا: إنّما أُنْزِلَ الكتـابُ على طائفَتَينِ مِنْ قَـبْلِنا**"، وهم اليهـود والنصارى، "**وإنْ كنّا عن دِرَاسَتِهِمْ**"، أي: وقد كنّا عن تلاوة الطائفتين الكتـابَ الذي أنزَلْتَ عليهم، "**لَغَافِلِين**"، أي لا ندري ما هي، ولا نعلم مـا يقرأون وما يقـولون وما أُنزِل إليـهم في كتـابهم؛ لأنّهم كـانوا أهله دوننا، ولم نعن به، ولم نُـؤمر بما فـيـه، ولا هو بلســاننا، فيتّخذوا ذلك حجّة. فقطع اللّه بإنزاله القـرآن على نبيّه محمّد حجّتَهم تلك...

"**أو تَقُولُوا لَو أنّا أُنْزِلَ عَلَينَا الـكتَابُ لَكُنّا أهْدَى مِنْهُمْ**"، أي: لو أنّا أُنزل علينا الكتاب كـما أُنزل على هاتَين الطائفتَين من قبلـنا، فأُمرنا فـيه، ونُهـينا، وبُيِّنَ لنا فيـه خطأ مـا نحن فيـه من صـوابه، لكنّا أشـدّ الناس استـقامة على طريق الحقّ، واتّبـاعاً للكتاب، وأحسن عـملاً بما فيه.

"**فَقَد جَاءَكُمْ**"، أي: جاءكم كتـابٌ بلسانكم عربيّ مـبين، حجّة عليكم واضحة "**بَيِّنَةٌ**" **مِنْ رَبِّكُمْ، وَهُدًى**"، أي: وبيان للحقّ، وفرقانٌ بين الصواب والخطأ، "**وَرَحْمَةٌ**" لمن عمل به واتّبعه.

الرازي:

"**أنْ تَقولوا**"، فيه وجوه: **الأوّل**: أنزلْناه لئلاً تقولوا.. **والثاني**: أنزلناه كراهــةَ أن تقولوا.. **والثالث**: يجوز أن يكون "**إنْ**" متـعلّقة بــ "اتَّقُوا"، والتأويل: واتّقوا أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب..

والمراد بهـذه الآيات إثبـات الحـجّـة علـى أهل قـريش، بإنزال القرآن على محمّد كي لا يقولـوا يوم القيامة إنّ التوراة والإنجيل أنزلا

على طائفتَين من قبلنا وكنّا غافلين عمّا فيهما، فقطع اللّه عذرَهم بإنزال القرآن عليهم. وقوله: " **وإنْ كنّا عن دِراستِهِمْ لَغافِلينَ** "، أي: لا نعلم ما هي، لأنّ كتابَهم ما كان بلغتنا.

" **أو تَقولوا: لو أنّا أُنْزِلَ علينا الكتابُ لَكُنّا أهْدَى منهمْ** "، مفسِّرٌ للأوّل في أنّ معناه: لئلاّ يقولوا ويحتجّوا بذلك. ثمّ يبيّن تعالى قطْعَ احتجاجهم بهذا، وقال: " **فقَد جاءَكمْ بَيِّنَةٌ من رَبِّكم** "، وهو القرآن وما جاء به الرسول. **وهُدًى ورحمةٌ. فمَن أظلَمُ ممَّن كَذَّبَ بآياتِ اللّهِ، وصَدَفَ عنها**، أي: منع عنها..

أبو حيّان الأندلسي:

" **أنْ تَقُولُوا إنّما أُنْزِلَ الكتابُ على طائفَتَينِ مِنْ قَبْلِنا، وإنْ كنّا عن دِراسَتِهِمْ لَغافِلينَ** ". ألخطاب متوجّه إلى كفّار قريش بإثبات الحجّة عليهم بإنزال هذا الكتاب لئلاّ يحتجّوا، هم وكفّار العرب، بأنّهم لم يكن لهم كتاب. فكأنّه قيل: وهذا القرآن، يا معشر العرب، أُنزِلَ حجّة عليكم لئلاّ تقولوا إنّما أُنزلَتِ التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا. ونحن لم نعرف ذلك. فهذا كتاب بلسانكم مع رجلٍ منكم.

إبن كثير:

" **وإنْ كنّا عن دِراسَتِهِمْ لَغافِلينَ** "، أي: وما كنّا نفهم ما يقولون، لأنّهم ليسوا بلساننا، ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عمّا هم فيه. وقوله: **أو تَقولوا لو أنّا أُنْزِلَ علينا الكتابُ لَكُنّا أهْدَى منهمْ**، أي: وقطعنا تعلّلَكم أن تقولوا: لو أنّا أُنْزِل علينا ما أُنْزِلَ عليهم، لكنّا أهدى منهم فيما أُوتوه، كقوله: " وأَقسَموا باللّهِ جَهْدَ أَيمانِهمْ: لئنْ جاءَهمْ نذيرٌ لَيَكونُنَّ أهدَى من إحدَى الأُمَمِ. فلمّا جاءهمْ نذيرٌ ما زادهُمْ إلاّ نُفُوراً "

(٣٥/٤٢). وهكذا قال ههنا: **فقد جاءكم بيّنة من ربّكم وهدًى ورحمةٌ.** يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمّد النّبي العربي، قرآنٌ عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله لعباده الذين يتّبعونه، ويقتفون ما فيه.

محمّد عبده:

"**أنْ تقولوا إنّما أُنْزِلَ الكتابُ على طائفتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا، وإنْ كنّا عن دِراسَتِهِمْ لَغافِلينَ**". معناه: قطْع طريق التعلّل والاعتذار. والمعنى: أنزلنا، لئلاّ تقولوا، أو كراهةَ أن تقولوا، أو منعاً لكم من أن تقولوا يومَ الحساب والجزاء، معتذرين عن شرككم وإجرامكم: إنّما أُنزِل الكتابُ الهادي إلى توحيد الله ومعرفته وطريق طاعته وتزكية الأنفس من دنس الشرك والرذائل، على طائفتَين من قَبلِنا، وهم اليهود والنصارى، وإنّ حقيقة حالنا وشأننا أننّا كنّا غافلين عن دراستهم وتعليمهم لجهلنا بلغاتهم، وغلبة الأمّيّة علينا..

"**أو تقولوا لو أنّا أُنْزِلَ علينا الكتابُ لَكُنّا أهْدَى منهمْ**"، أي أذكى أفئدة، وأعلى همّة، وأمضى عزيمة.. "**فقد جاءكمْ بيّنةٌ من ربّكم وهُدًى ورحمةٌ**". هذا هو الجواب القاطع لكلّ تعلّة وعذر. فإنّ القرآن بيّنة عظيمة كاملة من وجوه متعدّدة.. وهو مبيِّنٌ للحقّ في العقائد بالحجج والدلائل، في الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمّهات الأحكام بما تصلح به أمور البشر وشؤون الاجتماع، وهدى كامل لمن تدبّره، وتلاه حقّ تلاوته، فإنّه يجذبه ببيانه وبلاغته إلى الحقّ الذي قرّره، وإلى عمل الخير والصلاح الذي بيّن فوائده ومنافعه، ورحمة عامّة للبشر الذين تنتشر فيهم هدايته، وتنفذ فيهم شريعته، حتّى الخاضعين لأحكامها من غير المؤمنين به، فإنّهم يكونون آمنين في

ظلّها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم، مساوون للمؤمنين بها في حقوقهم ومعاملاتهم، عائشين في وسطٍ خالٍ من الفواحش والمنكرات، التي تفسد الأخلاق وتولّد الأمراض. وأمّا المؤمنون به فهو رحمة لهم في الدنيا والآخرة جميعاً. هكذا كان وهكذا يكون..

محمّد حسين فضل الله :

أنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكتَابُ على طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، إنّ هذا الكتاب المنزل المبارك يبطل مثل هذا القول، لأنّه لم يبقَ هناك فرقٌ بينكم وبين اليهود والنصارى، وهما الطائفتان اللّتان أنزل التوراة على إحداهما، والإنجيل على الأخرى، فقد أنزل عليكم كما أنزل عليهم، فلا مجال لأن تعللوا به، أو تقولوا: **وإنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِين**، لأنّكم لا تحتاجون إلى دراسة كتاب آخر ومعكم هذا الكتاب.

(٦٢)

ليس محمّد من أولئك الذين يفرّقون

إنَّ الّذينَ فَرَّقُوا دِينَهمْ وَكانوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهم في شَيءٍ. إنّما أمْرُهمْ إلى اللّهِ. ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (سورة الأنعام ٦/ ١٥٩).

الطبري :

إنَّ الّذينَ فَرَّقُوا دِينَهمْ وَكانوا شِيَعًا (أي: قد فرّق الأحزاب دينَ اللّه الذي ارتضاه لعباده، فتهوّد بعض، وتنصّر آخرون، وتمجّس

بعض. وذلك هو التفريق بعينه، ومصير أهله شيَعًا متفرّقين غير مجتمعين، فهم لدين اللّه الحقّ مفارقون.

وقال: عني بذلك اليهود والنصارى.. ذلك أنّ اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يُبعَث محمّد فتفرّقوا. فلمّا بُعث محمّد أنزل اللّه ما أنزل. ثمّ قال: إنّ اللّه أخبر نبيّه أنّه بريء ممّن فارق دينَه الحقّ، وفرّقه، وكانوا فرقاً فيه وأحزاباً شيعاً، وأنّه ليس منهم ولا هم منه؛ لأنّ دينه الذي بعثه اللّه به هو الإسلام دين إبراهيم الحنيفيّة، كما قال له ربّه وأمره أن يقول: "قُلْ: إنّني هَداني رَبّي إلى صراطٍ مستقيمٍ ديناً قيّماً مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كان منَ المُشرِكين" (٦/ ١٦١).

فكان مَن فارق دينه الذي بعث به صلّى اللّه عليه وسلّم من مشرك ووثنيٍّ ويهوديّ ونصرانيّ ومتحنّفٍ مبتدع قد ابتدع في الدين ما ضلّ به عن الصراط المستقيم والدين القيّم، ملّة إبراهيم المسلم، فهو بريء من محمّد، ومحمّد بريء).

لسْتَ مِنْهم في شَيءٍ. إنّما أمْرُهمْ إلى اللّهِ (أي: لم يؤمر بقتالهم، ثمّ نُسختْ، فأمر بقتالهم في سورة براءة). **ثُمّ يُنَبّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون** (أي: يُخبرهم في الآخرة ما كانوا يفعلون في الدنيا: ألمحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة).

محمّد حسين فضل اللّه :

في ذلك تنديد بإثارة الخلاف والتفرقة في الدِّين، إنطلاقاً من المطامع والأهواء، لأنّ النبيّ بريءٌ من كلّ الناس الذين يتحرّكون في حياتهم إنطلاقاً من هذه الخلفيّات الذاتيّة التي يحاول أصحابها أن يستخدموا القضايا العامّة في سبيل تحقيق المصالح الخاصّة.

(٦٣)

النّبيّ الأمّي مكتوب في التّوراة والإنجيل

الّذينَ يَتّـبِـعُـونَ الرّسُـولَ النّبيَّ الأُمّيَّ الّذي يَجِـدونَه مكتُـوباً عِنْدَهم في التّوراةِ والإنْجـيلِ، يأمرُهُم بالمَعْروفِ ويَـنْهاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، ويُحِلُّ لَهمُ الطّيِّـباتِ ويُـحَرِّمُ عَلَيـهم الخبـائث، ويَضَعُ عنهمْ إصْـرَهمْ والأغْلالَ التي كانتْ عَلَيهم. فالّذينَ آمَنوا بِهِ وعَزّرُوهُ ونَصَرُوه واتّبَعُوا النّورَ الذي أُنْزِلَ مَعَه أولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ. قُلْ: يَا أيُّها النّاسُ إنّي رسُولُ اللّهِ إليكُمْ جمـيعًا الذي لهُ مُلكُ السّمـواتِ والأرْضِ لا إلهَ إلاّ هُوَ، يُحْيي ويُميتُ. فـآمِنوا باللّهِ ورسولِهِ النّبيِّ الأُمّيِّ الذي يُؤمِنُ بـاللّهِ وكلِمَاته. واتّبِـعُوهُ لَعلّـكمْ تَهْتَـدُونَ. وَمِنْ قَـومِ مُوسَى أُمّـةٌ يَهْـدُونَ بالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (سورة الأعراف ٧/ ١٥٧-١٥٩).

الطبري :

عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبداللّه بن عمرو، فقلت: أخبرْني عن صفـة رسول اللّه في التـوراة! قال: أجل. واللّهِ إنّه لمـوصوف في التوراة كصفته في القـرآن: "يَا أيُّهَا النَّبيُّ إنّا أرْسَلْنَاكَ شاهِداً ومبشِّراً ونذيراً"، وحرزاً للأمّيّين، أنتَ عبدي ورســولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يَجزي بالسـيّئة السيّئة، ولكن يعـفو ويصـفح ولن نقبـضه حـتّى نقـيم به الملّة العوجـاء، بأنْ يقولوا: لا إله إلاّ اللّه، فنفتح به قلوباً غُلْفاً وآذاناً صُمّاً، وأعيناً عُمْيًا[١].

---

(١) رواه البـخاري في البـيـوع باب ٥٠؛ والدارمي في مـسنده، المقدّمـة باب ٢،

محمّد حسين فضل الله :

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ: لم يكن قوم موسى جميعاً ضالّين في ما يفكّرون به من الباطل، وما ينطلقون به من الظلم؛ بل كانوا فرقتَين: فللباطل فرقة جاحدة كافرة، وللحقّ فرقة مؤمنة مستقيمة.. **يَهْدُونَ بِالْحَقِّ**، فيحملون الدّعوة للحقّ في رسالات اللّه رسالةً يبشّرون بها وينذرون، من أجل هداية الناس. **وَبِهِ يَعْدِلُونَ**، أي وبالحقّ يقيمون العدل في ما يحكمون ويمارسون من علاقات ومعاملات وأوضاع متنوّعة تتّصل بالحياة العامّة والخاصّة.

وفضائل القرآن باب ١؛ وأحمد في المسند، حديث ٦٦٣٣؛ وابن كثير في التفسير ٢/٢٤٣. والسيوطي في الدر المنثور ٣/٥٧٥.

(٦٤)

الجزية من أهل الكتاب

قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنونَ باللّهِ ولا باليومِ الآخِرِ، ولا يُحَرِّمُونَ ما حرَّمَ اللّهُ ورسولُه، ولا يَدينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (سورة التوبة ٩/ ٢٩)

الطبري :

مِنَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ، وهم اليهود والنصارى؛ **حتّى يُعْطُوا الجِزْيَة**. والجزية: الفعلة من جَزَى فلانٌ فلاناً ما عليه، إذا قضاه، يجزيه.. ومعنى الكلام: حتّى يعطوا الخراج عن رقابهم الذي يبذلونه للمسلمين دفعاً عنها.

وأمّا قوله: **عَنْ يَدٍ** فإنّه يعني: من يده إلى يد من يدفعه إليه.وأمّا قوله: **وَهُمْ صَاغِرُونَ** فإنّ معناه: وهم أذلاّء مقهورون. يُقال للذليل الحقير: صاغر.واختلف أهلُ التأويل في معنى "الصغار". فقال بعضهم: أن يعطيها وهو قائم، والآخذ جالس.

وذُكر أنّ هذه الآية نزلتْ على رسول اللّه في أمْره بحربِ الروم، فغزا رسولُ اللّه بعد نزولها غزوة تبّوك.

الزمخشري :

عَنْ يَدٍ ، إمّا أن يُراد يد المعطي أو الآخذ. فمعناه على إرادة يد المعطي حتّى يعطوها عن يدٍ: أي عن يد مؤاتية غير ممتنعة؛ لأنّ مَن أبى وامتنع لم يعطِ يده بخلاف المطيع المنقاد. ولذلك قالوا: أعطى بيده، إذا

انقاد وأصحب.. حتّى يعطوها عن يدٍ إلى يدٍ نقداً غير نسيئة لا مبعوثاً على يد أحدٍ، ولكن عن يد المعطي إلى يد الاخذ. وأمّا على إرادة يد الآخذ فمعناه: حتّى يعطوها عن يدٍ قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم؛ لأنّ قبول الجزية منهم، وترْك أرواحَهم لهم نعمة عظيمة عليهم.

وَهُمْ صَاغِرُونَ تؤخذ منهم على الصغار والذلّ، وهو أن يأتي بها بنفسه، ماشياً غير راكب، ويسلّمها وهو قائم، والمتسلم جالس، وأن يتلتل تلتلة، ويؤخذ بتلبيبه. ويُقال له: أدِّ الجزية. وإنْ كان يؤدّيها ويزخ في قفاه..

الطبرسي :

الجزية من جزى يجزي، وهي عطيّة مخصوصة جزاء لهم على تمسّكهم بالكفر، عقوبةً لهم.. و**الصغار** الذلّ والنكال الذي يصغر قدر صاحبه.

حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ أي نقداً من يده إلى يد مَن يدفعه إليه من غير نائب. وقيل: معناه عن قدرة لكم عليهم وقهر لهم . **وهمْ صاغرون،** أي ذليلون مقهورون يُجرُّون إلى الموضع الذي يقبض منهم فيه بالعنف حتّى يؤدُّوها. وقيل: هو أن يعطوا الجزية قائمين والآخر جالس.

الخازن :

حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ، وهي ما يُعطي المعاهد من أهل الكتاب على عهده، وهي الخراج المضروب على رقابهم. سمّيت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم.

عَنْ يَدٍ، يعني: عن قهْـرٍ وغَلَبة. يُقال لكلّ مَن أعطى شيـئاً كرها من غير طيبِ نفسٍ أعطى عن يد. وقال ابن عـبهاس: يعطونها بأيديهم ولا يُرسلون بها على يد غيرهم. وقيل يعطونهـا نقداً لا نسيئة. وقيل: يعطونها مع إقرارهم بإنعام المسلمين عليهم بقبولها منهم.

وَهُمْ صَاغِرُونَ. من الصغار، وهو الذلّ والإهانة. يعنى يعطون الجـزية وهم أذلاّء مـقهـورون. وقـال عكرمـة: يعطون الجـزية وهم قائمون والقـابض جالس. وقال ابن عبّاس: تؤخـذ الجزية من أحدهم وتوطَأ عنقُـه. وقـال الكلبي: إذا أعطى يُـصفع قـفـاه، وهو أن يؤخـذ بلحيته ويُضرب في لهزمـتيه. ويقال له: أدِّ حقَّ اللّهِ يا عدوَّ اللّه. وقال الإمام الشافعي: ألصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم.

إبن كثير :

حتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ عن قهرٍ لهم وغلبة، **وَهُمْ صَاغِرُونَ**، أي ذليلون حـقيـرون مهـانون. فلهذا لا يجـوز إعزاز أهل الذمّـة، ولا رفعـهم على المسلمين؛ بل هم أذلاّء صغرة أشـقيا، كمـا جاءّ عن النبيّ قال: «لا تَبْـدَؤوا اليهـودَ والنصارى بالسـلام. وإذا لقيتُـمْ أحدَهم في طريق فاضْطَرُّوهم إلى أضيَقه». ولهذا اشترط عليهم عمر بن الخطّاب تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم[٢].

الآلوسي:

قال القطـب: إنّ المقصود من أخـذ الجزية ليس تقـريرهم على الكفر؛ بل إمـهال الكافـر مدّة ربّمـا يقف فيهـا على محـاسن الإسلام

---

(٢) ينقل ابن كثير الشـروط العمريّة، كما هي في تفسـير القرآن العظيم، جزء ٢؛ ص ٣٩٠-٣٩١.

وقوّة دلائله فيُسلْم. وقال الاتقاني: إنّ الجزية ليست بدلاً عن تقرير الكفر، وإنّما هي عوض عن القتل والاسترقاق الواجبَين، فجازت كإسقاط القصاص بعوض؛ أو هي عقوبة على الكفر والاسترقاق...

الطباطبائي:

أمّا **الجزية** فهي عطيّة ماليّ مأخوذة منهم، مصروفة في حفظ ذمّتهم وحسن إدارتهم. ولا غنى عن مثلها لحكومة قائمة على ساقها، حقّة أو باطلة. **عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**، أي: حتّى يعطوا الجزية عن قدرةٍ وسلطةٍ لكم عليهم، وهم صاغرون غير مستعلين عليكم ولا مستكبرين.

المراغي:

حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ، أي قاتلوا مَن ذُكروا حين وجود ما يقتضي القتال، كالاعتداء عليكم أو على بلادكم، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم وسلامتكم، كما فعل بكم الروم؛ وكان ذلك سبباً لغزوة تبّوك - إلى أن تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية بشرط أن تكون صادرة عن يدٍ، أي من قدرة واسعة، فلا يُظْلَموا ولا يُرهَقوا، وأن يخضعوا لسيادتكم وحكمكم. وبذا يسهل السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام، بما يشاهدون من عدلكم وفضائلكم التي يرونها رأي العين.

فإنْ أسلموا عمّ الهدى والعدل؛ وإنْ لم يُسلِموا وأعطَوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وإعطاؤهم حرّيّتهم في دينهم ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». ويحرّم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون، ويُسمَّون حينئذٍ أهل

الذمّة، إذ كلّ هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمّة اللّه وذمّة رسوله. أمّا الذين يُعقَد بيننا وبينهم صلح بعهد وميثاق يعترف به الطرفان فيُسَمَّون المعاهَدين أو أهل العهد.

القاسمي:

الجزية: من الجزاء كأنّها جَزَتْ عن قتله. وقيل بمعنى القضاء. يُقال جزيته بما فعل، أيْ جازيته. أو أصلها الهمز من الجزء والتجزئة، لأنّها طائفة من المال يُعطَى.

وقوله: **عَن يَدٍ** بمعنى الاستسلام والانقياد. يقال: هذه يدي لك، أي استسلمت إليك، وانقدت لك. وأعطى يده أي انقاد. كما يقال في خلافه: نزع يده من الطاعة، لأنْ مَن أبَى وامتنع لم يعطِ يدَه بخلاف المطيع المنقاد. وإمّا بمعنى النقد، أي حتّى يعطوها نقداً غير نسيئة.

و **عَنْ** بمعنى الباء، أي: لا يبعثون بها عن يدِ أحدٍ، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ. وإمّا بمعنى: عن طيبة نفس.. هذا إذا أُريد بها يد المعطي، وإنْ أُريدَ بها يد الآخذ، فاليد إمّا بمعنى القوّة، أي: عن يدٍ قاهرة مستولية. ويقولون: ما لي به يدٌ، أي: قوّة؛ وإمّا بمعنى النعمة، أي عن إنعام عليهم بذلك، لأنّ قبول الجزية وترْك أنفسهم عليهم نعمة عليهم؛ وإمّا بمعنى الغنى.

وهم صَاغِرُون: أي تؤخذ الجزية بإهانة، فيجلس الآخذ، ويقوم الذمّي، ويطأطئ رأسَه، ويَحني ظهرَه، ويضعها في الميزان، ويقبض الآخذُ لحيتَه، ويضرب لهزمتَيه.

يقول القاسمي: إنّها سيّئة قبيحة، تأباها سماحة الدين والرفق المعلوم منه. هذا كلّه ممّا لا دليل عليه. ولا هو من مقتضى الآية، ولا

نُقل عن رسول الله، ولا عن أصحابه. والصواب: أنّ الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الله تعالى عليهم، وإعطاء الجزية.

قال أبو عبيد: ثبتت الجزية على اليهود والنصارى بالكتاب، وعلى المجوس بالسنّة.. وقيل: لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء.. وقيل: نزلت بعد دخول العرب في دين الله أفواجاً.. ولوكان بأرض العرب مشركون لكانوا أولى بالغزو من الأبعدين...

محمّد رشيد رضا :

وصفَ أهلَ الكتاب الذين بيّن حكم قتالهم بأربع صفات سلبيّة هي علّة عداوتهم للإسلام ووجوب خضوعهم لحكمه في داره، لأنّ إقرارَهم على الاستقلال وحمْل السلاح فيه يفضي إلى قتال المسلمين في دارهم ومساعدة مَن يهاجمهم فيها، كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبيّ إيّاهم وجعلهم حلفاء له، وسمح لهم بالحكم فيما بينهم بشرعهم فوق السماح لهم بأمور العبادة؛ وكما فعل نصارى الروم في حدود البلاد العربيّة (في غزوة تبّوك).

وهذه الأمور الأربعة التي أسند إليهم تركها هي أصول الدِّين الإلهي عند كلّ أمّة، كما بيّنه تعالى في (٢/٦٢). وقد أمر هنا بقتال الذين لا يقيمونها عندما يقوم السبب الشرعي لقتالهم حتّى يعطوا الجزية بشرطها. فذكر: الإيمانَ بالله، واليوم الآخِر، ووضع تركهم لتحريم ما حرّم الله ورسولُه، وترْك الخضوع لدين الحقّ.

حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ. هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها إذا كان الغلب لنا. أي قاتلوا مَن ذُكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال، حتّى تأمنوا عدوانَهم بإعطائكم الجزية في الحالَين اللّذين قُيِّدَتْ بهما:

فالقيد الأوّل لهم، وهو أن تكون صادرة عن يدٍ، أي قدرة وسعة، فلا يُظلمون ويُرهَقون. والثاني لكم، وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم.

وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التي يرونكم أقرب بها إلى هداية أنبيائهم منهم. فإنْ أسلموا عمّ الهدى والعدل والاتّحاد. وإنْ لمْ يُسلموا كان الاتّحاد بينكم وبينهم بالمساواة في العدل..

محمّد حسين فضل الله "

ألجزية: ما يُؤخذ من أهل الذمّة. وتسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن دمهم. **صاغِرون**: ألصاغر هو الراضي بالمنزلة الدنيّة.

أقرّ الإسلام التعايش الإسلامي-المسيحي في مجتمع واحد؛ ولكنّه أراد لحكمه أن يكون في المواقع المتقدّمة التي تحكم الساحة كلّها، من أجل المحافظة على قوّة القاعدة وسلامة خطّ السير، واستمرار حركة العقيدة في أجواء الدعوة والعمل، من ندون حواجز ثابتة، أو مواقف معقّدة. لقد سمح للمجتمع أن يتنوّع في تصوّراته التفصيليّة للدين، مع عدم الموافقة على بعض هذه التصوّرات؛ ولكنّه لم يسمح له أن يكون خارج سلطته وحكْمه؛ لأنّ المجتمع الذي تتعدّد فيه السلطات، سوف يكون محكوماً للتمزّق والضعف والفساد. وهذا ما لم يمكن للإسلام أن يسمح به؛ لأنّه يؤدّي إلى الخراب والدمار. فلا بدّ من وحدة السلطة. ولا بدّ من التقاء جميع أفراد الشعب على أساس الخضوع لتلك السلطة. فكيف يكون الخضوع؟

يكون من خلال ضوابط عمليّة، كالجزية، تحدّد لهم حدودَهم، وتعرّفهم أصول العلاقات التي تربطهم بالمجتمع الإسلامي.

(٦٥)

اتّخذ النصارى المسيحَ ابناً لله والرهبان أرباباً

وَقَالَتِ اليَهُودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللّه. وَقَالَتِ النَّصَارَى: المَسِيحُ ابْنُ اللّه. ذَلِكَ قَولُهُمْ بِأفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَولَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ. قَاتَلَهُمُ اللّهُ أنّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّه، والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ. ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً وَاحِداً. لا إلَهَ إلاّ هُوَ. سُبْحَانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ (سورة التوبة ٩/ ٣٠-٣١).

الطبري:

" **وقالَتِ اليَهُودُ: عُزَيْرٌ ابنُ اللّه** ". اختلف أهلُ التأويل في القائل: عُزَيْرٌ ابن اللّه. فقال بعضهم كان ذلك رجلاً واحداً، وهو فنحاص.. وهو الذي قال: إنّ اللّه فقير ونحن أغنياء. وقال آخرون: بل كان ذلك قول جماعة منهم.. قالوا أنّ عُزيراً كان من علمائهم، فدعا اللّهَ وابتهل إليه أن يردّ إليه الذي نُسخ من صدره من التوراة. فبينما هو يصلّي مبتهِلاً إلى اللّه نزل نور من اللّه فدخل جوفَه فعاد إليه الذي كان ذهبَ من جوفه من التوراة.. وبدأ يعلّمهم.. فقالوا: واللّه ما أوتي عُزير هذا إلاّ أنّه ابن اللّه...

" **وَقَالتِ النَّصارى: المَسِيحُ ابنُ اللّه. ذلكَ قولُهُمْ بِأفْواهِهِمْ يُضاهِئُونَ** (أي يشبهون) **قولَ الّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ. قَاتَلَهُمُ اللّهُ** ". عن ابن عبّاس قال: لعنهم اللّه. وكلّ شيء في القرآن قتْلٌ فهو لعْن. وهو كقول العرب: شاقاه اللّه ما باقاه، أي: أشقاه اللّه ما أبقاه "**أنّى يُؤْفَكُونَ**"، أي: أيّ وجهٍ يذهب بهم ويحيدون.

" **اتَّخَذوا أحْبَـارَهمْ ورُهْبَانَهم أرباباً مِنْ دُونِ اللّهِ** "، أي: سادةً لهم من دون اللّه، يطيعونهم في معاصي اللّه، فيحلّون ما أحلّوه لهم ممّا قد حرّمه اللّه عليهم، ويحرّمون ما يحرّمونه عليهم ممّا قد أحلّه اللّه لهم. " **والمَسيحَ ابنَ مريمَ** "، أي: اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أرباباً من دون اللّه.

" **ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً** "، أي: وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتّخذوا الأحبار والرهبان والمسيح أرباباً إلاّ أن يعبدوا معبوداً واحداً، وأن يُطيعوا إلاّ ربّاً واحداً دون أرباب شتّى، وهو اللّه الذي له عبادة كلّ شيء وطاعة كلّ خلْق. " **لا إلهَ إلاّ هُوَ** " أي: لا تنبغي الألوهة إلاّ لواحد، الذي أمر الخلق بعبادته، ولزمتْ جميعَ العباد طاعتُه.

" **سُبحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ** "، أي: تنزيهاً وتطهيراً للّه عمّا يشرك في طاعته وربوبيّته القائلون عُزير ابن اللّه والقائلون المسيح ابن اللّه، المتّخذون أحبارهم أرباباً من دون اللّه.

الزمخشري:

إنّ سبب قول اليهود: " **عُزَيْرٌ ابنُ اللّهِ** ". أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى، فرفع اللّهُ عنهم التوراة، ومحاها من قلوبهم. فخرج عُزَير، وهو غلامٌ يسيح في الأرض، فأتاه جبريل، فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم. فحفّظه التوراة. فأملاها عليهم عن ظهر لسانه، لا يخرم حرفاً. فقالوا: ما جمع اللّهُ التوراة في صدره، وهو غلام، إلاّ لأنّه ابنُه. والدليل على أنّ هذا القول كان فيهم أنّ الآية تُليتْ عليهم فما أنكروا ولا كذّبوا مع تهالكهم على التكذيب...

وَكذلك أيضاً **قَالَتِ النّصارى: " المَسيحُ ابنُ اللّه "**.

"**ذلكَ قولُهُمْ بِأفْواهِهِمْ**". فيه وجهان: أحدهما أنْ يُراد أنّه قولٌ لا يعضده برهان، فما هو إلاّ لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته.. والثاني: أن يُراد بالقول المذهب، كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبَه، وما يقول به. كأنّه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنّه لا حجّة معه حتى يؤثّر في القلوب.

"**يُضاهِئُونَ قَولَ الّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ**". أي: إنّ الذين كانوا في عهد رسول اللّه من اليهود والنصارى يضاهي قولُهم قولَ قدمائهم. يعني أنّه كفر قديم فيهم غير مستحدث. أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات اللّه.. وقيل: الضمير للنصارى، أي: يضاهي قولُهم المسيحَ ابن اللّه قولَ اليهود عُزير ابن اللّه، لأنّهم أقدم منهم..

الرازي:

"**وقالَتِ اليَهُودُ: عُزَيْرٌ ابنُ اللّهِ. وَقالتِ النّصارى: المَسيحُ ابنُ اللّه**". في هذا القول أثبت اليهودُ والنصارى للّه ابناً. ومَن جوّز ذلك في حقّ الإله فهو في الحقيقة قد أنكر الإله. وأيضاً بيّن تعالى أنّهم بمنزلة المشرِكين في الشرك، وإنْ كانت طرق القول بالشرك مختلفة، إذ لا فرق بين مَن يعبد الصنم وبين مَن يعبُد المسيح وغيره؛ لأنّه لا معنى للشرك إلاّ أن يتّخذ الإنسانُ مع اللّه معبوداً. فإذا حصل هذا المعنى فقد حصل الشرك.

بل إنّا، لو تأمّلنا، لعلمنا أنّ كفْرَ عابِدِ الوثَن أخفُّ من كفْر النصارى، لأنّ عابدَ الوثن لا يقول إنّ هذا الوثن خالق العالم وإله العالم، بل يجريه مجرى الشيء الذي يتوسّل به إلى طاعة اللّه؛ أمّا النّصارى فإنّهم يُثبتون الحلولَ والاتّحادَ. وذلك كفْرٌ قبيحٌ جداً. فثبت أنّه لا فرق بين هؤلاء الحلوليّة وبين سائر المشركين. وأنّهم إنّما

خصّهم بقبول الجزية منهم، لأنّهم في الظاهر ألصقوا أنفسهم بموسى وعيسى، وادّعوا أنّهم يعملون بالتوراة والإنجيل. فلأجل تعظيم كتابَيهما وتعظيم أسلاف هؤلاء اليهود والنصارى، بسبب أنّهم كانوا على الدِّين الحقّ، حكم اللّه تعالى بقبول الجزية منهم، وإلاّ ففي الحقيقة لا فرق بينهم وبين المشركين.

وأمّا حكاية اللّه عن النصارى أنّهم يقولون: "**ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ**"، فهي ظاهرة، لكن فيها إشكال قويّ، وهي إنّا نقطع أنّ المسيح وأصحابه كانوا مبرئين من دعوة الناس إلى الأبوّة والبنوّة. فإنّ هذا أفحش أنواع الكفر، فكيف يليق بأكابر الأنبياء؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يعقل إطباق جملة محبّي عيسى من النصارى على هذا الكفر؟ ومَن الذي وضع هذا المذهب الفاسد؟ وكيف قدر على نسبته إلى المسيح؟

قال المفسّرون في الجواب عن هذا السؤال: إنّ أتباع عيسى كانوا على الحقّ بعد رفْع عيسى، حتّى وقع حربٌ بينهم وبين اليهود. وكان في اليهود رجلٌ شجاع يقال له **بولس**، قتَلَ جمعاً من أصحاب عيسى. ثمّ قال لليهود: إنْ كان الحقّ مع عيسى فقد كفرنا، والنارُ مصيرُنا، ونحن مغبونون إنْ دخلوا الجنّة ودخَلْنا النار. وإنّي أحتال فأضلّهم. فعرقبَ فرسَه، وأظهر الندامة ممّا كان يصنع، ووضع على رأسه التراب، وقال: نوديتُ من السماء: ليس لك توبة إلاّ أن تتنصّر. وقد تبْتُ. فأدخله النصارى الكنيسة، ومكث سنةً لا يخرج. وتعلّم الإنجيل. فصدّقوه وأحبّوه.

ثمّ مضى إلى بيت المقدس، واستخلف عليهم رجلاً اسمه نسطور، وعلّمه أنّ عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة. وتوجّه إلى

الروم، وعلّمهم اللاّهوت والنّاسوت. وقال: ما كان عيسى إنساناً ولا جسماً، ولكنّه اللّه. وعلّم رجلاً آخر يقال له يعقوب ذلك. ثم دعا رجلاً يقال له ملكاً[1]، فقال له: إنّ الإله لم يزل ولا يزال عيسى. ثمّ دعا لهؤلاء الثلاثة، وقال لكلّ واحد منهم: أنتَ خليفتي. فادع الناس إلى إنجيلك. ولقد رأيتُ عيسى في المنام، ورضي عنّي. وإنّي غداً أذبح نفسي لمرضاة عيسى. ثمّ دخل المذبح فذبح نفسه. ثمّ دعا كلَّ واحد من هؤلاء الثلاثة الناس إلى قوله ومذهبه.

فهذا هو السبب في وقوع هذا الكفر في طوائف النصارى. هذا ما حكاه الواحدي رحمه اللهّ تعالى.

والأقرب عندي أن يقال: لعلّه ورد لفظ الابن في الإنجيل على سبيل التشريف، كما ورد لفظ الخليل في حقّ إبراهيم على سبيل التشريف.

ثمّ إنّ القوم، لأجل عداوة اليهود، ولأجل أن يقابلوا غلوّهم الفاسد في أحد الطرفين بغلوّ فاسد في الطرف الثاني، فبالغوا وفسّروا لفظ الابن بالبنوّة الحقيقيّة. والجهّال قبلوا ذلك. وفشا هذا المذهب الفاسد في أتباع عيسى. واللّه أعلم بحقيقة الحال..

"**ذلكَ قولُهُمْ بِأفْواهِهِمْ**" . وفيه وجوه:

الأوّل: أن يُراد به قولٌ لا يعضده برهان. فما هو إلاّ لفظ يفوهون به، فارغ من معنى معتبَر لحقه. والحاصل أنّهم قالوا

---

(١) يسمّي الرازي زعماء الفرق المسيحيّة الثلاث: نسطور، ويعقوب، وملك، علي أنّهم تلاميذ القديس بولس. و "ملك"، بالنسبة إليه، وكأنّه إسم علم لمؤسّس "الملكانيّة"، إحدى الفرق الثلاث. وهو خطأ تاريخيّ واضح.

باللّسان قولاً؛ ولكن لم يحصل عند العقل من ذلك القول أثر؛ لأنّ إثبات الولد للإله، مع أنّه منزّه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة، قولٌ باطل، ليس عند العقل منه أثر. ونظيره قوله تعالى: " وَيَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيسَ فِي قُلُوبِهِمْ " (٣/ ١٦٧).

والثاني: إنّ الإنسانَ قد يختار مذهباً، إمّا على سبيل الكناية، وإمّا على سبيل الرمز والتعريض. فإذ صرّح به وذكره بلسانه، فذلك هو الغاية في اختياره لذلك المذهب، والنهاية في كونه ذاهباً إليه قائلاً به. والمراد ههنا أنّهم يصرّحون بهذا المذهب ولا يخفونه البتّة.

والثالث: أنّ المراد أنّهم دعوا الخلق إلى هذه المقالة حتّى وقعتْ هذه المقالة في الأفواه والألسنة. والمراد منه مبالغتهم في دعوة الخلق إلى المذهب.

يُضاهِئونَ (أي: يُضاهون، بمعنى: يشابهون) **قولَ الّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ.** فيه وجوه:

الأوّل: إنّ المراد أنّ هذا القول من اليهود والنصارى يضاهي قول المشركين بأنّ الملائكة بنات اللّه.

الثاني: إنّ الضمير للنصارى، أي قولهم المسيح ابن اللّه يضاهي قول اليهود عُزَير ابن اللّه، لأنّهم أقدم منهم.

الثالث: إنّ هذا القول من النصارى يضاهي قول قدمائهم. يعني أنّه كفر قديم. فهو غير مستحدث.

" **قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ** ". أي: قاتلهم اللّه ما أعجب فعلهم! أنّى يؤفكون: ألإفك الصرف. يقال أفك الرجل عن الخير، أي: قلب وصرف. ورجل مأفوك أي: مصروف عن الخير. المقصود: كيف

يصدّون ويصرفون عن الحقّ بعد وضوح الدليل، حتّى يجعلوا للّه ولداً!

"اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ" . ألحَبْر، أو الحِبْر، أحبار: ألفقهاء. قال أهل المعاني: الحبر العالم الذي بصناعته يحبر المعاني، ويحسن البيان عنها. والراهب الذي تمكّنت الرهبةُ والخشية في قلبه، وظهرت آثار الرهبة على وجهه ولباسه. وفي عرف الاستعمال، صار الأحبار مختصّاً بعلماء اليهود من ولد هرون، والرهبان بعلماء النصارى أصحاب الصوامع.

"أرباباً مِنْ دُونِ اللّه" . ألأكثرون من المفسّرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنّ اليهود والنصارى اعتقدوا فيهم أنّهم آلهة العالم؛ بل المراد أنّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم. نقل أنّ عدي بن حاتم كان نصرانيّاً فانتهى إلى رسول اللّه وهو يقرأ سورة براءة (أي التوبة)، فوصل إلى هذه الآية، قال: فقلتُ لسنا نعبدهم. فقال: "أليس يحرّمون ما أحلّ اللّه فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم اللّه فتستحلّونه!" فقلت: بلى. قال: "فتلك عبادتهم".

"ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً. لا إلهَ إلاّ هُوَ. سُبحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ" . أي سبحانه من أن يكون له شريك في الأمر والتكليف، وأن يكون له شريك في كونه مسجوداً ومعبوداً، وأن يكون له شريك في وجوب نهاية التعظيم والإجلال.

ألقرطبي:

"ذلكَ قولُهُمْ بِأفْواهِهِمْ" . قال أهل المعاني: إنّ اللّه سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلاّ وكان قولاً زوراً، كقوله:

أُمرَ به. فإذا الـشيخ. فقال له: افـتح فمَكَ. فتحَ فمَـه. فألقى فيه شـيئاً كهيـئة الجمر العـظيمة ثلاث مرّات. فـرجع عُزير وهو من أعلم الناس بالتوراة. فقـال: يا بني إسرائيل! قد جئتُكم بالتوراة. فـقالوا: يا عُزير! ما كنتَ كذّاباً. فعمد فربط على أصـبعٍ من أصابعه قلماً، وكتب التوراة بأصبعـه كلّها. فلمّا تراجع الناس من عَدْوِهم، ورجع العلمـاء، أخبروا بشأن عُـزير، فاستـخرجوا النّسخ الـتي كانوا أودعوها في الجـبال، وقابلوها بها، فوجـدوا ما جاء به صحيحاً. فقـال بعضُ جهلتهم: إنّما صنع هذا لأنّه ابن اللّه.

وأمّـا ضلال النـصارى في المسـيح فظاهر. ولهـذا كـذّب اللّه سبحانه الطـائفتَين. فقال: "**ذلكَ قولُهُمْ بِأفْواهِهِمْ**"، أي: لا مستند لهم فيما ادّعوه سوى افـترائهم واختلافهم؛ "**يُضاهِئونَ**"، أي يشابهون "**قولَ الّذينَ كَفَـرُوا مِنْ قَبْلُ**"، أي من قبلهم من الأمم ضلّوا كـما ضلّ هؤلاء. "**قَاتَلَهُمُ اللّه**". قال ابن عبّاس: لعنهم اللّهُ. "**أنّى يُؤْفَكُونَ**"، أي: كيف يضلّون عن الحقّ وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل.

"**اتَّخَـذوا أحْـبَـارَهمْ ورُهْـبَـانَهمْ أرباباً مِنْ دُونِ اللّهِ**"، أي: اتّبعـوهم فيـما حلّلوا وحـرّموا. وقـال السدي: اسـتنصحـوا الرجال ونبذوا كـتاب اللّه وراء ظهـورهم. ولهذا قـال تعالى: "**ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً. لا إلهَ إلاّ هُوَ. سُـبحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ**". أي: تعالى وتقدّس وتنزّه عن الشركـاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد. لا إله إلاّ هو، ولا ربّ سواه.

روي عن عدي بن حاتم أنّه، لمّا بلغتْـه دعوة رسـول اللّه، فرّ إلى الشـام، وكان قد تنصّر في الجاهليّة. فأُسِرتْ أختُه وجماعةٌ من قومه، ثمّ منّ رسولُ اللّه على أختـه وأعطاها. فرجعتْ إلى أخيها فـرغّبتْه في

الإسلام وفي القدوم على رسول اللّه. فقَدِم عديّ إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم. فتحدّث الناس بقدومه. فدخل على رسول اللّه، وفي عنق عديّ صليب من فضّة، وهو يقرأ هذه الآية: "اتَّخَذُوا أحْبارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ". قال: فقلت: إنّهم لم يعبدوهم. فقال: "بلى. إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام. فاتّبَعوهم. فذلك عبادتهم إيّاهم". وقال رسول اللّه: "يا عديّ! ما تقول؟ أيضرّكَ أن يُقال: اللّه أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من اللّه؟ ما يضرّك؟ أيضرّك أن يقال: لا إله إلاّ اللّه؟ فهل تعلم إلهاً غير اللّه؟". ثمّ دعاه إلى الإسلام. فأسلم. وشهد شهادة الحقّ. قال: فلقد رأيتُ وجهه استبشر. ثم قال: "إنّ اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالّون".

هذه الرواية عن عديّ بن حاتم، وردت عند الطبري، والخازن، والأندلسي، والآلوسي، والقاسمي، والجوهري... ومعظم المفسّرين.

الشوكاني:

"**وَقالتِ النّصارى: المَسيحُ ابنُ اللّه**". قالوا هذا لمّا رأوا من إحيائه الموتى، مع كونه من غير أب، فكان ذلك سبباً لهذه المقالة. والأولَى أن يقال: إنّهم قالوا هذه المقالة لكون الإنجيل وصَفَه تارة بابن اللّه، وتارة بابن الإنسان.. ولم يفهموا أنّ ذلك لقصد التشريف والتكريم؛ أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرضٍ من الأغراض الفاسدة. قيل: وهذه المقالة إنّما هي لبعض النصارى،

"**اتَّخَذوا أحْبَارَهمْ ورُهْبَانَهم أرباباً مِنْ دُونِ اللّهِ**". أي: أنّهم، لمّا أطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه، كانوا بمنزلة المتّخِذين لهم

أرباباً، لأنّهم أطاعوهم كما تُطاع الأرباب. وقوله: "**والمَسيحَ ابنَ مريمَ**" معطوف على رهبانهم. أي: اتّخذه النصارى معبوداً.

القاسمي:

يقول عن "**عُزَيْر**" أنّ غلاة اليهود، أو جهلتهم، يتفوّهون بهذه الكلمة الشنعاء. وأمّا بقيّتهم فيعتبرونه في مقام موسى، ويحترمون دائماً ذكره، ويعتقدون أنّ اللّه قد أقامه لجمْع التوراة المبدَّدة، ولتجديد الملّة الموسويّة، وإرجاعها إلى عهدها، وإصلاح ما فسد من آدابها وعوائدها، بإلهام. فإنّ نسخة التوراة الأصليّة، وبقيّة أسفارهم، فُقِدَتْ لمّا أغار أهلُ بابل، جندُ بختنصّر، على بيت المقدس، وهدّموه، وَسَبَوا أهلَه إلى مملكتهم بابل، وأقاموا هناك سبعين سنة. ثمّ لمّا نبغ فيهم "عُزَير" واشتهر، واستعطف أحدَ ملوكهم في سراحهم، فأطلقَ له الملِكُ الإجازة، فعاد من بابل بمَن بقي من اليهود إلى بيت المقدس، وجدّد ما اندثر من الشريعة الموسويّة.

قال بعض الكتابيّين في قاموس له: زعم اليهود أنّ أئمّتهم عقدوا مجمعاً في عهد "عَزْرا"[٢]، وجمعوا الأسفار العبرانيّة في قانون متعارف عندهم اليوم، وضمّوا إليه ما لم يكن فيه من قبل جلاء بابل.

وفي "الذخيرة" من كتبهم ما نصّه: أجمع القوم على أنّ "عزرا" الذي كان خبيراً بآثار وطنه وقدمِها، وماهراً بمعرفة الطقوس اليهوديّة، وبارعاً بالعلوم المقدّسة، هو أوّل مَن قرّر هذا

---

(٢) كاهن يهوديّ. عمل على استقرار شعبه في أورشليم بعد الجلاء. له سفر عزرا. القرن الخامس ق.م.

القانون، وأثبتَ أجزاءه المختلفة، بعد الأسر البابلي في نحو السنة ٥٤٣ ق.م.، ولمّا تفرّقت التوراة آن الجلاء، قام "عزرا" وجمع ما وجد من النسخ المتناثرة، وألّف منها نسخةً صحّحها ونقّحها ما استطاع، وبدّل أسماء الأماكن التي انتسخ، ثمّ استعمالها بأسماء أخرى أشهر في عَرْفهم، ونسق الكلّ نسقاً محكماً، واتّفق الجميع على أنّه اعتاض في كلّ الأسفار عن حروف الخط العبراني بحروف كلدانيّة، ألِفَ استعمالَها اليهود مدّةَ أسْرهم الذي استمرّ سبعين سنة. اه.

فلهذا العمل المهم عندهم دعوه "ابناً"، وفيه من الجراءة على المقام الرّبّانيّ ما فيه. ولو زعموا إرادة المجاز في ذلك، فلا مناص لهم من لحوق الكفر بهم...

أمّا إسم "عُزَير" الذي نجده في القرآن فـ «لفظه الأصلي: "عزراء"، أو "عزريّا"، لفظان عبرانيّان. معنى الأوّل: مُعين. والثاني: ألله مساعد..

محمّد عبده:

"**وقالَتِ اليَهُودُ: عُزَيْرٌ ابنُ اللّهِ**". عزير هذا هو الذي يسمّيه أهل الكتاب "عَزرا". والظاهر أنّ يهود العرب هم الّذين صغّروا بالصيغة العربيّة للتحبيب، وصرّفوه. وعنهم أخذ المسلمون. والتصرّف في أسماء الأعلام المنقولة من لغة إلى أخرى معروف عند جميع الأمم، حتّى أنّ إسم يسوع قلبتْه العرب فقالت: عيسى.

وجملة القول أنّ اليهود كانوا وما زالوا يقدِّسون عُزيراً هذا حتّى إنّ بعضهم أطلق عليه لقب ابن اللّه. ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما، أم بالمعنى

الذي سيأتي قريباً عن فيلسوفهم "فيلو"، وهو قريب من فلسفة وثنيّي الهند التي هي أصل عقيدة النصارى.

"**وَقالتِ النَّصارى: المَسيحُ ابنُ اللّه**". هذا القوَل كان يقوله القدماء منهم ويعتقدون به معنى مجازيًا، كالمحبوب والمكرّم؛ ثمّ سرتْ إليهم فلسفة الهنود في "كرشنا" وغيرهم من قدماء الوثنيّين؛ ثمّ اتّفقت عليه فرَقُهم المعروفة في هذه الأزمنة على أنّه حقيقة لا مجاز.. هذا تعليم الكنائس الذي قرّرتْه المجامع الرسميّة، بتأثير الفلسفة الروميّة. ولكن بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون. ويخالفه خلقٌ كثير منهم، أعظمهم شأناً الموحِّدون والعقليّون. والكنائس الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة والبروتستنتينيّة لا تعتد بنصرانيّتهم ولا بدينهم..

"**ذلكَ قولُهُمْ بِأفْواهِهِمْ يُضاهِئُونَ قولَ الّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ**". أي: إنّه قولٌ لا يعدوها ولا يتجاوزها إلى شيء في الوجود. فهو، كما يقول العوام، "كلام فارغ".

"**قَاتَلَهُمُ اللّهُ أنّى يُؤْفَكُونَ**". والمعنى هنا: كيف يصرفون عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق، وهو الذي تجزم به العقول، والذي بلّغه عن اللّه كلُّ رسول. فهو جمع بين المعقول والمنقول. ويقولون هذا القول الذي لا يقبله عقل، ولم يصحّ به أنبياء اللّه ورسله نقْل؟ فأينَ عُزير والمسيح من ربّ العالمين؟ الخالق لهذا الكون العظيم؟ الذي وصل من عجائب سعته إلى علم البشر القليل؟ إنّ بعض شموسِه لا يصل نورُها إلى الأرض إلاّ بعد قطْع الملايين من السنين النوريّة. فهل يليق بعاقلٍ من هذه الدواب التي تعيش على هذه الذرّة الصغيرة منه، وهي الأرض، أن يجعل لخالقه كلّه، ومدبّر أمره، ولداً وعائلةً من جنسه؟ وأن يرتقي به الغرور إلى أن يجعل واحداً منهم هو الخالق له

والمدبِّر لأمـره، مع الـعلم بأنّه وُلد من امـرأة، وكـان يأكل ويشـرب ويتـعب ويتألّم.. إلخ. "وَمَـا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَـدْرِه. والأرضُ جمـيعـاً قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ. والسمـواتُ مطويّاتٌ بيَمِينِه. سُبحانَهُ وتعالى عمّا يُشْرِكُونَ" (٣٩/ ٦٧). "وَقَالُوا اتَّخذَ الرّحمَـنُ وَلَداً. سُبحانَه بل عِبادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بالقَـولِ وهُمْ بأمْرِهِ يَعمَلُونَ. يَعلَمُ ما بينَ أيدِيهِم ومَا خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَـعُونَ إلاّ لِمَن ارتَضَى وهمْ من خَشْيَتِه مُـشْفِقُون. ومَن يَقُل منهم إنّي إلهٌ مـن دونِه، فذلكَ نَجـزِيهِ جـهنَّمَ. كذلك نَجـزي الظّالِمين" (٢١/ ٢٦-٢٩).

"**اتَّخَذوا أحْبَارَهمْ ورُهْبَانَهم أرباباً**"... والرهبان جمْع راهب، ومعناه، في اللّغة، الخائف. وهو عند النصارى المتبتّل المنقطع للعبادة. والرهبانيّة، في النصرانيّة، بدْعةٌ، كما قال تعالى: "وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهم" (٥٧/ ٢٧). وكانتْ نيّتُـهم صالحة، كما قال تعالى: "إلاّ ابتِغاءَ رِضْـوَانِ اللّه"؛ ذلك لأنّ الأصل فيها تأثيـر مواعظ المسيح في الزهد والإعـراض عن لذّات الدنيا. ثـمّ صار أكـثر منتـحليهـا من الجاهلين والكسـالى، فكانت عبادتُهم صوريّةً، أعـقبتهم رياء وعـجباً وغـروراً بأنفسـهم، وبتعظيم الـعامّـة لهم. ولذلك قال تعـالى: "فما رَعَوها حقَّ رِعايَتِها".

ولمّا صـارت النصرانيّـة ذات تقاليـد منظّمة في القـرن الرابع، وضع رؤساؤهم نـظماً وقوانين للرهبـانيّة ولمعـيشتـهم في الأديار. وصار لهم عندهم فِـرَقٌ كثيـرة يشكو بعض أحرارهم من مفـاسدهم فيـها. فكان ذلك مصداقـاً لقوله تعالى في سلفـهم المخلصين: "فَآتَينَا الّذين آمَنُوا أجْرَهُمْ"، وفي خلفهم المرائين: "وَكَثِـيرٌ منْهُمْ فاسِقون".. وقد نهى النّبيّ عن الرّهبانيّة في الإسلام...

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين. فاتّخاذُهم أرباباً يستلزم اتّخاذ مَن فوقهم مِن الأساقفة والمطارنة والبطاركة بالأولى.

فالرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوّناً كان أو غير مدوّن.

والعوام يخضعون لتشريع الرهبان، ولو غير مدوّن، سواء قالوه بالتبع لمن فوقهم، أو من تلقاء أنفسهم، لثقتهم بدينهم. وكذلك اتّخذوا المسيح بن مريم ربّاً وإلهاً...

وانفرد النصارى، دون اليهود، من اتّخاذهم المسيح ربّاً وإلهاً يعبدونه... ومنهم مَن يعبد أمّه عبادة حقيقيّة ويصرّحون بذلك. وجميع الكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القدّيسين: يتوسّلون بهم، ويتّخذون لهم الصور والتماثيل في كنائسهم. ولكنّهم لا يسمّون هذا عبادة في الغالب..

واليهود لم يقتصروا في دينهم على أحكام التوراة، بل لم يلتزموها، بل أضافوا إليها من الشرائع اللّسانيّة عن رؤسائهم ما كان خاصّاً ببعض الأحوال من قبل أن يدوّنوه في المشنة والتلمود..

أمّا النصارى فقد نسخ رؤساؤهم جميعَ أحكام التوراة الدينيّة والدنيويّة على إقرار المسيح لها. واستبدلوا بها شرائع كثيرة في العقائد والعبادات والمعاملات جميعاً. وزادوا على ذلك انتحالهم حقّ مغفرة الذنوب لمن شاءوا حرمان مَن شاءوا من رحمة اللّه وملكوته. وهذه حقّ اللّه وحده: "وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ اللّهُ" (٣/ ١٣٥)، أي لا أحد. والقول بعصمة البابا رئيس الكنيسة في تفسير الكتب الإلهيّة ووجوب طاعته في كلّ ما يأمر به من العبادات وتحريم المحرّمات..

الجوهري:

كتب العهد الجديد.. لا يوثق بها. فإنّ النصارى قد أضاعوا أكثر ما كتب من إنجيل المسيح في عصره. ثمّ رَفَضَتْ مجامعُهم الرسميّة بعد دخول التعاليم الوثنيّة فيهم من قِبَل الرومانيّين، أكثر ما وُجد عندهم من الأناجيل التي كانت تعدّ بالعشرات. واعتمدت أربعاً منها فحسب. وهذا مصداق قوله تعالى: "وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ" (٥/ ١٣).

سيّد قطب:

في هذه الآية يبيّن السياق القرآني ضلال عقيدة أهل الكتاب؛ وأنّها تضاهئ عقيدة المشركين من العرب، والوثنيّين من قدامى الرومان وغيرهم. وأنّهم لم يستقيموا على العقيدة الصحيحة التي جاءتْهم بها كتبُهم. فلا عبرة، إذن، بأنّهم أهل كتاب، وهم يخالفون في الاعتقاد الأصلَ الذي تقوم عليه العقيدة الصحيحة في كتبهم..

وقول النصارى: "**الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ**" معلوم مشهور. وما تزال عليه عقائدهم حتّى اللّحظة، منذ أن حرَّفَها **بولس**. ثمّ تمّ تحريفُها على أيدي المجامع المقدسّة.. فأمّا قول اليهود: "**عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**" فليس شائعاً ولا معروفاً اليوم..

ومن هذا البيان يتّضح ما وراء حكاية القرآن لقول اليهود هذا. فهي تقرير حقيقة ما عليه فريقٌ من أهل الكتاب من فساد الاعتقاد، الذي لا يتّفق معه أن يكونوا مؤمنين باللّه، أو أن يكونوا يدينون دين الحقّ. وهذه هي الصفة الأساسيّة التي قام عليها حكْمُ القتال. وإنْ يكن القصد من القتال ليس هو إكراههم على الإسلام، وإنّما هو كسر

شوكتهم التي يقفون بها في وجه الإسلام، واستسلامهم لسلطانه ليتحرّر الأفراد، في ظلّ هذا الاستسلام، من التأثّر بالضغوط التي تقيّد إرادتهم في اختيار دين الحقّ من غير إكراه من هنا أو من هناك.

محمّد حسين فضل الله :

وَقَالَتِ النَّصَارَى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللّه بسبب ما شاهدوه من الخوارق للعادة في معجزاته، فلم يعتبروها مظهراً للّطف المرتبط بحركة الرسالة في مواجهة التحدّي؛ بل اعتبروها امتيازاً ذاتيًا يستمدّ قوتّت ومعناه من العلاقة العضويّة باللّه، بالمعنى الجسدي، على بعض المعاني، وبالمعنى الروحي على البعض الآخر.

ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، كوجهٍ بارزٍ من وجوه التأثّر الفكري بالتيارات الكافرة الموجودة في حياتهم، ممّا يدفعهم إلى التشبّه بهم في الشكل والمضمون. وهذا لونٌ من ألوان الضعف الذي يعيشه الإنسان إذا وقف أمام الآخرين، الذين يملكون القوّة.. **قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** أي يصرفون..

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ، فيستسلمون لهم بكلّ شيء.. وهم يرون فيهم الأنانيّة والتعصّب والانحراف والعناد، فيخضعون لهم، ويطيعونهم في كلّ أمرٍ أو نهيٍّ صادرٍ منهم.

والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، الذي اعتبروه التجسيد الحيّ للّه في العقيدة العامّة للنصارى. **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً،** لا شبيه له في عظمته ولا شريك له في خلقه. **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ،** لأنّ كلّ ما عداه هو مخلوق له، فكيف يكون شريكاً له، وهو الخالق للوجود كلّه، فلا يستحقّ العبادة أحدٌ سواه. **سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**من هذه المخلوقات.

(٦٦)

إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبان يأكلون أموال النّاس

يا أيّهـا الّذينَ آمَنوا! إنّ كثـيراً من الأحبـارِ والرُّهبانِ لَيَـأكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بالباطِلِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللّه، والّذينَ يَكْنِزُونَ الذّهَبَ والفِضَّـةَ، ولا يُنْفِقُونَهـا في سبيلِ الـلّهِ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَذابٍ أليمٍ (سورة التوبة ٩/ ٣٤).

الطبري:

"**يا أيّهـا الّذينَ آمَنوا**"، أي: يا أيّهـا الذيـن صـدَّقـوا عن اللّه ورسوله، وأقرّوا بوحدانيّة ربّهم، "**إنّ كثيراً من الأحبارِ والرُّهبانِ**"، أي: العلماء والقرّاء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى، "**لَيَأكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بالباطِلِ**"، أي يأخذون الرشى في أحكامـهم، ويحرّفون كـتـاب اللّه، ويكـتـبـون بأيديهم، ثم يقـولون: "هذه مـن عند اللّه"، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سَفَلتهم، "**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللّهِ**"، أي يمنعون من أراد الدخول في الإسلام الدخول فيه، بنهيهم إيّاهم عنه.

"**والّذينَ يَكْنِزُونَ الذّهَبَ والفِضّةَ، ولا يُنْفِقُـونَها في سبيلِ اللّهِ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَذابٍ أليمٍ**"، أي: بشّر الكثيرَ من الأحـبار والرهبان الذين يأكلون أمـوالَ النّاس بالبـاطل، والذين يكنزون الذهب والـفضّـةَ، ولا ينفقونها في سبيل اللّه، بعذاب أليم لهم يوم القيامة، مُوجع من اللّه.

الرازي:

... إعلم أنّه تعالى، لمّا وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبّر والتجبّر، وادّعاء الربوبيّة، والترفّع عن الخلق؛ وصفهم، في هذه الآية،

بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس، تنبيهاً على أنّ المقصود، من إظهار تلك الربوبيّة والتجبّر والفخر، أخذ أموال الناس بالباطل. ولَعَمري! مَن تأمّل أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا، وجد هذه الآيات كأنّها ما أُنزلتْ إلاّ في شأنهم، وفي شرح أحوالهم. فترى الواحدَ منهم يدّعي أنّه لا يلتفت إلى الدنيا، ولا يتعلّق خاطره بجميع المخلوقات، وأنّه، في الطهارة والعصمة، مثل الملائكة المقرّبين، حتّى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه، ويتحمّل نهايةَ الذلّ والدناءة في تحصيله.

"**إنّ كثيراً**"، أي معظمهم وليس كلّهم، "**من الأحبارِ والرُّهبانِ لَيأكُلُونَ أمْوَالَ النَّاسِ**"، سمّى الأخذ بالأكل، لأنّ مَن أخذ أموال الناس، إذا طولب بردّها، قال: أكلتُها، وما بقيتْ، فلا أقدر على ردِّها.

واختلفوا في تفسير "**بالباطِلِ**" على وجوه:

الأوّل: أنّهم كانوا يأخذون الرشا في تخفيف الأحكام والمسامحة في الشرائع.

والثاني: أنّهم كان يدعون عند الحشرات، ألعوام منهم، أنّه لا سبيل لأحد إلى الفوز بمرضاة اللّه إلاّ بخدمتهم وطاعتهم، وبَذْل الأموال في طلب مرضاتهم. والعوام كانوا يغترّون بتلك الأكاذيب.

والثالث: ألتوراة كانت مشتملة على آيات دالّة على مبعث محمّد، فأولئك الأحبار والرهبان كانوا يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة، ويحملونها على محامل باطلة، وكانوا يطيّبون قلوب عوامهم بهذا السبب، ويأخذون الرشوة.

والرابع: أنّهم كانوا يقرّرون عند عوامهم أنّ الدين الحقّ هو الذي هم عليه، فإذا قرّروا ذلك قالوا، وتقوية الدين الحقّ واجب. ثم

قالوا: ولا طريق إلى تقويته إلاّ إذا كان أولئك الفقهاء أقواماً عظماء أصحاب الأموال الكثيرة والجمع العظيم. فبهذا الطريق يحملون العوام على أن يبذلوا في خدمتهم نفوسَهم وأموالَهم.

فهذا هو **الباطل** الذي كانوا به يأكلون أموال الناس. وهي بأسرها حاضرة في زماننا، وهو الطريق لأكثر الجهّال والمزوِّرين إلى أخْذ أموال العوام والحمقى من الخلق.

ثم قال: "**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**"، لأنّهم كانوا يقتلون على متابعتهم، ويمنعون عن متابعة الأخيار من الخلق والعلماء في الزمان. وفي زمان محمّد، كانوا يبالغون في المنع عن متابعته بجميع وجوه المكر والخداع.

قال المصنّف: غاية مطلوب الخلق في الدنيا: المال والجاه. فبيّنَ تعالى، في صفة الأحبار والرهبان، كونهم مشغوفين بهذين الأمرين. فالمال هو المراد بقوله: "ليأكلون أموال الناس بالباطل"؛ وأمّا الجاه فهو المراد بقوله: "ويصدّون عن سبيل الله"، فإنّهم، لو أقرّوا بأنّ محمّداً على الحقّ لزمهم متابعته؛ وحينئذ فكان يبطل حكمُهم، وتزول حرمتُهم. فلأجل الخوف من هذا المحذور، كانوا يبالغون في المنع من متابعة محمّد، ويبالغون في إلقاء الشبهات، وفي استخراج وجوه المكر والخديعة، وفي منع الخلق من قبول دينه الحقّ، والاتباع لمنهجه الصحيح.

"**والّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، ولا يُنْفِقُونَها في سبيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أليمٍ**". في قوله: "**والّذين**" احتمالات ثلاثة: يحتمل أن يكون المراد أولئك الأحبار والرهبان؛ ويحتمل أن يكون المراد منه مانعو الزّكاة من المسلمين؛ ويحتمل أن يكون المراد منه كلّ مَن كَنَزَ

المال، ولم يُخرج منه الحقوق الواجبة، سواء كان من الأحبار والرهبان، أو كان من المسلمين. فلا شكّ أنّ اللّفظ محتمل لكلّ واحد من هذه الوجوه الثلاثة..

القرطبي:

"**بالباطل**" قيل: إنّ الأحبار والرهبان كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، ممّا يوهمونهم أنّ النفقة فيه من الشرع والتزلّف إلى اللّه، وهم، خلال ذلك، يحجبون تلك الأموال...

وقيل: كانوا يأخذون من غلاّتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع.

وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، كما يفعله اليوم كثيرٌ من الولاة والحكّام. وقوله "بالباطل" يجمع ذلك كلّه.

"**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**" أي: يمنعون أهلَ دينهم عن الدخول في دين الإسلام، واتّباع محمّد.

أبو حيّان الأندلسي:

لّما ذكر أنّهم اتّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون اللّه، ذَكَرَ ما هو كثيرٌ منهم، تنقيصاً من شأنهم وتحقيراً لهم، وإنّ مثل هؤلاء لا ينبغي تعظيمهم، فضلاً عن اتّخاذهم أرباباً، لما اشتملوا عليه من أكل المال بالباطل، وصدّهم عن سبيل اللّه، واندرجوا في عموم الذين يكنزون الذهب والفضة، فجمعوا بين الخصلتَين المذمومتَين: أكل المال بالباطل وكنز المال، إنْ ضنّوا أن ينفقوها في سبيل اللّه...

إبن كثير:

الأحبـار من اليهـود، والرهبان مـن النصارى والقـسّيـسون علماؤهم.. والمقـصود التحذير من علمـاء السوء، وعبّاد الضـلال، كما قال سفـيان بن عينية: مَن فسد من عـلمائنا كان فيه شبـه من اليهود؛ ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى...

" **لَيَـأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بالبـاطِل** ". وذلك أنّهم يأكلون الدنيـا بالدين ومناصبـهم ورياستهم في الناس. يأكلون أموالهم بـذلك، كما كـان لأحبـار اليهـود على أهل الجـاهليّـة شرف، ولهم عندهم خـرج وهدايا وضـرائب تجيء إليهم. فلمّـا بُعث رسول اللّه اسـتمـرّوا على ضلالهم وكـفرهم وعنادهم طمـعاً منهم أن تبقى لهـم تلك الرياسات. فأطفـأها اللّه بنور النبوّة، وسلبـهم إيّاها، وعوّضـهم الذلّ والصِـغار، وباأوا بغضب من اللّه.

" **وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِـيلِ اللّهِ** ". أي: وهم مع أكلهم الحـرام، يصدّون الناس عن اتّبـاع الحقّ، ويلبسون الحقّ بالبـاطل، ويَظهرون، لمن اتبعهم من الجهلة، أنّهم يدْعون إلى الخيـر، وليسوا، كما يزعمون؛ بل هم دعاةٌ إلى النار. ويوم القيامة لا يُنصرون.

" **والّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِـضَّـةَ، ولا يُنْفِقُـونَهـا في سبـيلِ اللّهِ** ". هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس. فإنّ الناس عالة على العلماء وعلى الـعبّاد وعلى أرباب الأمـوال. فإذا فسـدتْ أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلاّ المُلُوكُ   وَأَحْبَارُ سوءٍ ورُهْبَانُها؟!

محمّد عبده:

" يا أيّها الّذينَ آمَنوا! إنّ كـثيراً من الأحبارِ والرُّهبـانِ لَيَأكُلُونَ أمْوَالَ الـنَّاسِ بالباطِلِ، وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِـيلِ اللّهِ ". استـعمل "أكْل الأموال" بمعنى أخذها، والتصرّف فيهـا بوجوه الانتفاع التي يُعدّ ما يُبتاع بها للأكل أعم أنواع الاستعمال والتصرّفات. وقد تقدّم مثل هذا التعبير في قوله تعالى: "وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ، وَتُدْلُوا بِهَا إلَى الحُكّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقـاً مِنْ أَمْوَالِ النّاسِ بالإثْمِ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (٢/ ١٨٨)؛ وقـوله تعـالى: "يا أيُّهَا الّذِيـنَ آمَنُوا! لا تَأْكُلُوا أمْـوَالَكُمْ بَينَكُمْ بالبَاطِلِ " (٤/ ٢٩).

محمّد حسين فضل اللّه :

" يا أيّها الّذينَ آمَنوا! إنّ كـثيراً من الأحبارِ والرُّهبـانِ لَيَأكُلُونَ أمْوَالَ الـنَّاسِ بالباطِلِ، وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِـيلِ اللّهِ "، يقدّم لنـا القرآن هؤلاء الذين يملكون الصـفة الرسميّـة للدين، ويجعلون من أنفـسـهم هُداةً للناس، في ما يحملونه من علم الكتـاب، أو في ما يمارسونه من تدرّبٍ على الجـهاد الداخلي، بالعـزلة الروحيّة الـتي يفرضـونهـا على حياتهم، أو بالتقشّف القاسـي الذي يُخـضـعون له أجسادَهم، أو بالبعد عن شـهوات الحـياة وزخارفها، ومـا إلى ذلك من أوضاعٍ وممارساتٍ تجـعل منهم القـدوة المثلى في نظر الناس، بحـيث يخـيّل إليـهم أنّهم وكـلاء اللّه على الأرض. فهم الذين يتـقـرّب الناسُ بهم إلى اللّه، وهم الذين يملكـون توزيع حـصص الجنّة عـليـهم، كـمـا يمـلكون توزيع حصص النار لمن لا يرضون عنهم.

وهكذا يستطيع هذا الانطباع الذي يحمله الناس عنهم، أن يؤكّد تأثيرهم في المجـتمع وسـيطرتهم عليه. وبذلك اسـتطاعوا أن يطوّروا

الأساليب من أجل استغلال مراكزهم، للاستيلاء على أموال الناس بطرقٍ غير شرعيّة، تتنوّع حسب تنوّع المراحل والأجيال. فقد كان البعض منهم يبيع أراضي الجنّة، وبعضهم يبيع صكوك الغفران، وبعضهم يمهّد للظَلَمَة أن يبسطوا سلطانهم على المستضعفين من الناس..

وذلك من خلال ما يتيحه لهم مركزهم الديني المتّصل بالغيب الذي يخيّل للناس من خلاله أنّهم يملكون عالم الغيب كلّه، فيفرضون عليهم باسم الغيب ما يريدون أن يحصلوا عليه منهم من أموالٍ وشهواتٍ، مستغلّين سذاجة الناس وطيبتهم وجهلهم.

(٦٧)

وَعد اللّه في التوراة والإنجيل لمن يحارب من أجله

إنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمنِينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوَالَهمْ بأنّ لَهُمُ الجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ في سَبيلِ اللّه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَليهِ حَقًّا في التّورَاةِ والإنْجيلِ والقُرآنِ. وَمَنْ أوفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ! فاستَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذي بايَعْتُمْ بهِ. وذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظيمُ(سورة التوبة ٩/ ١١١).

الطبري

يقول تعالى ذكره: إنّ اللّه ابتاع من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنّة وعداً عليه حقًّا أنْ يوفي لهم به في كتبه المنزّلة التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وفوا بما عاهدوا اللّه فقاتلوا في سبيله ونصرةِ دينه أعداءه فَقَتلوا وقُتلوا.. ومَن أحسن وفاء بما ضمن

وشرط من اللّه.. فـاستبـشِروا أيّها المؤمنون الذين صـدقوا اللّه فيـما عاهدوا ببيـعِكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتـموها من ربّكم. فإنّ ذلك هو الفوز العظيم.

محمّد حسين فضل الله :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَـرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْـوَالَهِمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ. فهناك عـمليّة بيع وشراء مع اللّـه. فالمؤمن هو البائع الذي باع نفسَه وماله للّه؛ واللّه هو المشتري الذي جعل الجنّةَ عوضاً عن ذلك.. هذا هو خط الجهاد.. فإنّ العبد سيفوز بالجنّة لقاء ما يدفعه ثمناً لها. **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**، ويجاهدون بالمال والروح، **فَيَقْتُلُونَ** أعداءَ اللّه، **وَيُقْتَلُونَ** بأيديهم في معركة الكفر والإيمان.

وَعْداً عَلَيـهِ حَقًّا ثابتاً لا يمكن الـتراجع عنه أو التردّد فـيه، **فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ**. فليست القضيّـة وقفاً على أهلِ دينٍ بعينه، أو جماعة بعينها، أو مرحلة زمنيّة محدودة؛ بل هي شاملة لكلِّ الأديان والجـماعـات والأزمنة. فـقد أنزل اللّهُ ذلك عـلى موسى في التـوراة، وعلى عـيسى في الإنجـيل، وعلى محـمّد في القـرآن، لتتحـرّك خطّة الجهاد على مراحل يتّصل بعضها بـبعض، ويقوِّي بعضـها بعضاً، ممّا يوحي بأنّ الجـهادَ هو شريعـة اللّه في كلّ العصـور وبرنامج الرسل في كلّ مراحل التّاريخ.

فالـلّه يريد القوّةَ للحقّ الذي أنزله. ولا قـوّة بدون جـهاد. ولا جهاد بدون استعدادٍ للعطاء والتضحية.

(٦٨)

قالوا: اتَّخَذ اللَّهُ وَلَداً. سُبْحَانَهُ!

قَالُوا: اتَّخَذَ اللَّـهُ وَلَداً. سُبْحَانَهُ! هُوَ الغَنِيُّ. لَهُ مَـا فِي السَّمَوَاتِ وَمَـا فِي الأرْضِ. إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَـذَا؟ أتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَـا لا تَعْلَمُـونَ؟ قُلْ: إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَـى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَـتَاعٌ فِي الدُّنْيَا، ثمَّ إلَينَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نُذيقُـهُمُ العَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كانُوا يَكْفُرُونَ (سورة يونس ١٠/٦٨-٦٩).

الطبري:

قَالُوا (أي اليهود والنصارى ومَن زعم أنّ الملائكةَ بنات اللّه: يا محمّد!): "**اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً**". وذلك قولهم: ألملائكة بنات اللّه. يقول اللّه منزِّهاً نفسَه عـمّا قـالوا وافـتَروا عليـه من ذلك: "**سُبْـحَانَهُ**"!، أي: سبحان اللّه تنزيهاً للّـه عمّا قالوا وادّعوا على ربّهم: "**هُوَ الغَنِيُّ**"، أي: غنيّ عن خلقه جمـيعاً. فلا حاجة به إلـى وَلَد، لأنّ الولد إنّما يطلبه مَن يطلبه ليكون عَوناً له في حياته، وذِكْراً له بعد وفاته. واللّه عن كلّ ذلك غنيٌّ فلا حـاجة به إلى مـعين يعينه على تدبيـره، ولا يَبيـد فيكون به حاجة إلى خَلَفٍ بعده.

"**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ**". أي: للّه ما في السموات وما في الأرض ملكاً. والملائكـة عباده وملكه. فكيف يكون عـبد الرّجل وملْكه له ولداً؟.. أفَلا تَعْقُلُونَ أيّهـا القوم خطأ ما تقولون؟ "**إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا**"؟ أي: ما عندكم، أيّها القـوم بما تقولون وتدّعون من أنّ الملائكة بنات اللّه من حجّة تحتجّون بها، وهي السلطان. "**أتَقُولُونَ**

عَلَى اللّهِ" قَولاً "**لا تَعْلَمُونَ**" حقيقـتَه وصحّتَه وتُضيـفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه، جهلاً منكم بما تقولون بغير حجّة ولا برهان؟

"**قُلْ**" يا محمّـد لهم: "**إنَّ الّذينَ يَفْـتَـرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ**"، فيقولون عليـه الباطل، ويدّعون له ولداً، "**لا يُفْلِحُونَ**"، أي: لا يبقون في الدنيا، ولكن لهم **متاعٌ في الدنيا** يمتّعون به، وبلاغ تبلّغون به إلى الأجل الذي كُتب فناؤهم فيه. **ثمّ إلينا مرجِعُهم**، ومصيرهم ومنقلبهم. **ثمّ نُذيقهم العـذاب الشديد.** وذلك إصلاؤهم جهنّم **بما كَانوا يَكفُرونَ** باللّه في الدنيا، فيكذّبون رسله، ويجحدون آياته..

الرازي:

"**قَالُوا: اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً**". يُحتمَل أن يكون المراد حكاية قول من يقـول: الملائكة بنات الـلّه. ويُحتـمَل أن يكون المراد قـول من يقـول: الأوثان أولاد اللّه. ويُحتـمَل أن يكون قد كان فيهم قـومٌ من النّصارى قالوا ذلك.

ثمّ إنّه تعالى لمّا استنكر هذا القول قال بعده: "**هُوَ الغَنِيُّ. لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ**". واعلمْ أنّ كونَه تعالى غـنيّاً مالِكاً لكلّ ما في السموات والأرض يدلّ على أنّه يستحيل أن يكون له ولد... "**إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا**"؟ منبِّهاً بهـذا على أنّه لا حجّة عندهم في ذلك البـتّـة. ثم بالغ في ذلك الإنكار فـقـال: "**أتَقُـولُونَ عَلَـى اللّهِ مَـا لا تَعْلَمُونَ**"؟

البيضاوي:

"**إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَـذَا**"؟: نفيٌ لمعـارِضِ مـا أقامـه من البرهان، مبالغةً في تجهيلهم، وتحقيقاً لبطلان قولهم.. "**أتَقُولُونَ عَلَى**

اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ "؟: توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم. وفيه دليل على أنّ كلَّ قولٍ لا دليل عليه فهو جهالة، وأنّ العقائد لا بدّ لها من قاطعٍ، وأنّ التقليد فيها غيرُ سائغٍ.

" **قُلْ: إنَّ الَّذينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ** "، باتّخاذ الولد وإضافة الشريك إليه، " **لا يُفْلِحُونَ** "، أي: لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنّة.

إبن كثير:

" **إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا** "؟، أي: ليس عندكم دليل على تقولونه من الكذب والبهتان. " **أتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** "؟: إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كقوله تعالى: " وَقَالُوا: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. لَقدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إدّاً. تَكادُ السّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ، وتَنْشَقُّ الأرْضُ، وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً: أنْ دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَداً. وَمَا يَنْبَغِي للرّحمَنِ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً. إنْ كُلُّ مَن في السّمَوَاتِ والأرْضِ إلاّ آتِي الرّحمَنَ عَبْداً. لَقد أحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً. وكُلُّهُمْ آتِيهِ يومَ القِيامَةِ فَرْداً" (١٩/٨٧-٩٥).

محمّد عبده:

" **قَالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً. سُبْحَانَهُ! هُوَ الغَنِيُّ. لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ** "، أي: هو الغني بذاته عن الولد؛ لأنّ كلّ ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملكٌ وعبيدٌ له، لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كلُّ شيء، ولا يشبهه، أو يجانسه منها شيء. فالإنسان يحتاج إلى الولد لأمور: منها بقاء ذِكره به وبذرّيته؛ ومنها أنّه قوّة وعصبة له يعتزّ به هو وعشيرته؛ ومنها أنّ وجودَه زينةٌ له في داره يلهو بها في صغره ويفاخر به أقرانَه في كبره؛ ومنها أنّه قد يحتاج

إليه لقضاء مصالحه وتنمية ثروته، وقد يحتاج إلى رفده وبره، عند عجزه أو فقره. واللّه تعالى لا يحتاج إلى شيء من هذه المنافع، لأنّه هو الغنيّ عن كلّ شيء بذاته لذاته أزلاً وأبداً.

"**إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا**". ألجملة تجهيل لهم وردٌّ عليهم. أي: ما عندكم أي نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلّق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي، تعارضون به هذا البرهان العقلي، وهو تنزيه اللّه وغناه المطلق عن الولد وغيره، وكونه المالك لكلّ شيء ممّا في السموات والأرض.

"**أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**"؟ هذا استفهام تبكيت وتوبيخ على أقبح الجهل والكفر، وهو قولهم على اللّه ما ليس لهم به علم، ولا سيّما بعد مجيء ما ينقضه من العلم البرهاني والوحي الإلهي.

قُلْ: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ"، اتّخاذهم الشركاء له، أو بزعمهم اتّخاذه ولداً لنفسه، أو بغير ذلك من التحليل والتحريم، وغيرهما من مسائل التشريع، أو بدعوى ولايتهم، وإطلاعه إيّاهم على أسرار خلقه، وتصريفه لهم في ملكه.

"**لا يُفْلِحُونَ**"، أي: لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتّع بنعيمها بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتّخذوهم له تعالى، أو فدائهم لهم من عذاب النار.

سيّد قطب:

"**إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا؟ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ؟**". وقول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق؛ فكيف إذا كان

هذا القول بلا علم على اللّه؟! إنّه جريمة أكبر من كلّ جريمة... وكلّ ما ابتدعه الكهنة لأنفسهم في الوثنيّات من سلطان؛ وكلّ ما ابتدعتْه الكنيسة لها من سلطان، إنّما نشأ عن تصوّر العلاقة بين اللّه وبناته الملائكة، أو بين اللّه وعيسى بن مريم من صلة الأبوّة والبنوّة، وحكاية الخطيئة، ومنها نشأت مسألة الاعتراف، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس بأبي المسيح، بزعمهم.. إلى نهاية السلسلة التي، متى بدأتِ الحلقةُ الأولى فيها بفساد تصوّر العلاقة بين الخالق والمخلوق، فسدتِ الحلقاتُ التالية في كلّ ضروب الحياة.

فليست المسألة مجرّد فساد في التصوّر الاعتقادي، ولكنّه مسألة الحياة برمّتها. وكلّ ما وقع، بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عداء انتهى إلى تخلّص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلّصه من سلطان الدين نفسه، إنّما نشأ من هذه الحلقة، حلقة فساد تصوّرِ العلاقة بين اللّه وخلقه، وجرَّ في ذيوله شرّاً كبيراً تعاني البشريّة كلّها ويلاته في التيّارات المادّيّة وما وراءها من بلايا وأرزاء.

ومن ثمّ كان حرص العقيدة الإسلاميّة على تجلية هذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إبهام..

أللّه خالق أزلي باقٍ، لا يحتاج إلى الولد. والعلاقة بينه وبين الناس جميعاً هي علاقة الخالق بخلقه دون استثناء. وللكون والحياة والأحياء سنن ماضية لا تتخلّف ولا تحابي. فمن اتّبع هذه السنن أفلح وفاز، ومن حاد عنها ضلّ وخسر..

ألنّاس في هذا كلُّهم سَواء. وكلّهم مرجعهم إلى اللّه. وليس هنالك من شفعاء، ولا شركاء. وكلّهم آتيهِ يومَ القيامة فرداً. ولكلِّ نفسٍ ما عملتْ. ولا يَظلم ربُّك أحداً.

(٦٩)

أهلُ الكتاب يفرحون بالقرآن

والّذينَ آتَينَاهُمُ الكتَابَ يَفْرَحُونَ بمَا أُنْزِلَ إلَيكَ. ومِنَ الأحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ. قُلْ: إنّما أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللّهَ ولا أُشْرِكَ بهِ. إليهِ أدْعُو وإليهِ مَآبِ (سورة الرعد ١٣/٣٦).

الطبري:

" **والّذينَ آتيناهُمُ الكتابَ** "، ممّن آمنَ بكَ واتّبعكَ، يا محمّد، " **يَفْرَحونَ بما أُنْزِلَ إليكَ** " منه. " **ومِنَ الأحْزَابِ** "، أي: ومن أهل الملل المتحزِّبين عليك، وهم أهل أديان شتّى، " **مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ** "، أي: بعض ما أنزل إليك. فـ" **قُلْ** " لهم: " **إنّما أُمِرْتُ** "، أيّها القوم، " **أنْ أعْبُدَ اللّهَ** " وحدَه دون ما سواه، " **ولا أُشْرِكَ بهِ** "، فأجعل له شريكاً في عبادتي، فأعبد معه الآلهة والأصنام، بل أُخلص له الدين حنيفاً مسلماً. و " **إليهِ أدْعُو** "، إي إلى طاعته وإخلاص العبادة له أدعو الناس. " **وإليهِ مَآبِ** "، أي: وإليه مصيري.

الرازي:

ألمراد بـ" **الكِتَاب** " قولان: **الأوّل:** أنّه القرآن. والمراد أنّ أهلَ القرآن يفرحون بما أنزل على محمّد من أنواع التوحيد والعدل والنبوّة والبعث والأحكام والقصص. ومن الأحزاب، أي الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفّار، من ينكر بعضَه.. **والقول الثاني:** أنّ المراد بالكتاب التوراة والإنجيل.

وفي هذا القول أيضاً قولان: **الأوّل:** الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا بالرسول من أهل الكتاب، كعبد اللّه بن سلام وكعب وأصحابهما، ومَن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، وإثنان وثلاثون بأرض الحبشة؛ وفرحوا بالقرآن، لأنّهم آمنوا به وصدّقوه. والأحزاب هم بقيّةُ أهل الكتاب وسائر المشركين.. **والثاني:** والذين آتيناهم الكتاب اليهود أُعطوا التوراة، والنصارى أُعطوا الإنجيل، يفرحون بما أنزل في هذا القرآن، لأنّه مصدّق لما معهم. ومن الأحزاب مَن ينكر بعضه..

القرطبي:

" **والّذينَ آتَينَاهُمُ الكتَابَ يَفْرَحُونَ بمَا أُنْزِلَ إليكَ** "، أي: بعض مَن أوتي الكتاب يفرح بالقرآن.. وقال مجاهد: إنّهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبَهم.

وقال أكثر العلماء: كان ذكر " الرحمن " في القرآن قليلاً في أوّل ما أُنزل. فلمّا أسلم عبد اللّه بن سلام وأصحابه ساءهم قلّةُ ذكرِ " الرحمن " في القرآن، مع كثرة ذكره في التوراة. فسألوا النّبي عن ذلك؛ فأنزلَ اللّهُ تعالى: " قُلِ ادْعُوا اللّهَ، أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ. أيّاً مَا تَدْعُوا فلَهُ الأسماءُ الحُسْنَى " (١٧/ ١١٠). فقالت قريش: ما بالُ محمّد يدعو إلى إلهٍ واحد، فأصبح اليومَ يدعو إلهَين: اللّه والرحمن؟ واللّهِ ما نعرفُ الرحمن إلاّ رحمن اليمامة، يعنون مسَيلَمة الكذّاب. فنزلت: " وَهُمْ بِذِكْرِ الرّحمَنِ هُمْ كَافِرُون " (٢١/ ٣٦)؛ " وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرَّحْمَنِ " (١٣/ ٣٠)؛ ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن، فأنزل اللّه تعالى: " **والّذينَ آتَينَاهُمُ الكتَابَ يَفْرَحُونَ بمَا أُنْزِلَ إليكَ** ".

"**ومِنَ الأحْزَاب**"، أي: مشركي مكّة، ومَن لـم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس. وقيل: هم العـرب المتحزّبون على النّبي. وقيل: ومن أعداء المسلمين "**مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ**"، أي: بعض ما في القرآن، لأنّ فيهم مَن كان يعترف ببعض الأنبـياء، وفيهم من كان يعترف بأنّ اللّه خالق السموات والأرض.

"**قُلْ: إنّمـا أُمِـرْتُ أنْ أعْـبُـدَ اللّهَ ولا أُشْـرِكَ بِهِ**"، أي: أفـرده بالعبادة وحـدَه لا شريك له، وأتبرّأ من المشركين، وممّـن قال: ألمسيح ابن اللّه وعُزير ابن اللّه، ومَن اعتقد التشبيه كاليهود. "**إليهِ أدْعُو وإليهِ مَآبِ**"، أي: إلى عبـادته أدعو النّاسَ. "**وإليهِ مَآبِ**"، أي أرجع أموري كلّها.

أبو حيّان الأندلسـي:

"**مَن يُنْكِرُ بَعْـضَهُ**"، لأنّهم، أي أهل الكتـاب، كانوا لا ينكرون الأقاصـيص وبعضَ الأحكام والمعـاني ممّا هو ثابتٌ في كتـبهم غـيرُ محـرَّف. وكانوا ينكرون مـا هو نعت الإسـلام، ونعت رسـول اللّه ممّا حرّفوه وبدّلوه..

ابن كثير:

"**والّذينَ آتَينَاهُـمُ الكتَـابَ يَفْـرَحُـونَ بمَا أُنْزِلَ إليكَ**"، أي: من القرآن، لِمَا في كتـبهم من الشواهد على صدقه والبشـارة به، كما قال تعـالى: "الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُـونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَـاسِرُونَ" (٢/ ١٢١)؛ وقال أيضاً: ".. إنّ الّذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَـبْلِهِ، إذَا يُتْلَى عَلَيـهِمْ يَخِرُّونَ للأذْقَـانِ سُجَّـداً. وَيَقُولُونَ: سُبْحَانَ رَبِّنَا!.." (٢/ ١٢١).

(٧٠)

اللّه إله واحد لا إثنان ولا أكثر

وَقَالَ اللّهُ: لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ. إِنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (سورة النحل ١٦/ ٥١).

الطبري:

" **وَقَالَ اللّهُ** " لعباده: " **لا تَتَّخِذُوا** " لي شريكاً، أيّها النّاس! ولا تعبدوا معبودَين. فإنّكم، إذا عبدتم معي غيري، جعلتم لي شريكاً. ولا شريك لي. " **إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** "، ومعبود واحد. وأنا ذلك. " **فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** "، أي: فاتّقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إيّاي إنْ عصيتموني وعبَدْتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً.

القاسمي:

" **وَقَالَ اللّهُ: لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ. إنّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ". إعلام بنهيه الصريح عن الإشراك، وبأمره بعبادته وحده. وإنّما خصّص هذا العدد لأنّه الأقلّ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة.. وقيل: ذكْر العدد للإيماء بأنّ الإثنَينيّة تنافي الألوهيّة، فهو في معنى قوله: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاّ اللّهُ لَفَسَدَتَا" (٢١/ ٢٢).

(٧١)

الله لا ولد له، ولا شريك، ولا وليّ

وَقُلِ الحَمْدُ للَّهِ الّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ. وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (سورة الإسراء ١٧/ ١١١).

الطبري:

"**وَقُلِ**" يا محمّد: "**الحَمْدُ للَّهِ الّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً**"، فيكون مربوباً لا ربّاً، لأنّ ربّ الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد. "**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ**"، فيكون عاجزاً ذا حاجة إلى معونة غيره، ضعيفاً. ولا يكون إلهاً مَن يكون محتاجاً إلى معين، ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان. "**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّل**"، أي: ولم يكن له حليف حالفه من الذلّ به، لأنّ من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره فذليل مهين. ولا يكون من كان ذليلاً مهيناً يحتاج إلى ناصر، إلهاً يُطاع. "**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً**". أي: وعظّم ربّك يا محمد بما أمرناك أن تعظّمه به من قول وفعل، وأطعْه فيما أمرك ونهاك.

الآلوسي:

"**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذلِّ**"، أي: لم يكن له وليّ من أهل الذلّ، والمراد بهم اليهود والنصارى.

القاسمي:

"**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ**"، أي: ناصر من الذلّ ومانع له منه، لاعتزازه به. أو: لم يوالِ أحداً من أجل مذلّة به، ليدفعها بموالاته.

(٧٢)

إنذار للذين قالوا للّه ولداً

وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ. كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ إنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِباً. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أسَفاً (س. الكهف ١٨ / ٤-٦).

الطبري:

" **وَيُنْذِرَ** "، أي: يحذّر محمّدٌ القومَ " **الَّذينَ قَالوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً** " من مشركي قومه وغيرِهم، بأسَ اللّه وعاجِلَ نقمته، وآجِلَ عذابه، على قيلهم ذلك. " **ما لهم به من عِلْمٍ** "، أي: ما لقائلي هذا القول من علمٍ. بل لجهلهم باللّه وعظمته قالوا ذلك، " **ولا لآبائهمْ** "، أي: ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مثل الذي هم عليه اليوم كان لهم باللّه وبعظمته علم.

" **كَبُرَتْ كَلِمَةً** "، أي: عظمت الكلمةُ كلمةً " **تَخرُجُ من أفواهِهِمْ** "، أي أفواه هؤلاء القوم الذين قالوا اتّخذ اللّه ولداً والملائكة بنات اللّه. " **إنْ يقولونَ إلاّ كَذِباً** ". أي: ما يقول هؤلاء القائلون اتّخذ اللّه ولداً بقيلهم ذلك إلاّ كذباً وفريّة افتروها على اللّه.

" **فَلَعَلَّكَ** " يا محمّد " **بَاخِعٌ نَفْسَكَ** "، أي: قاتل نفسك ومهلكها " **على آثارهم** "، أي: آثار قومك الذين قالوا لك لن نؤمن لك حتّى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً، تمرّداً منهم على ربّهم، " **إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بهَذا الحَديثِ أسَفاً**، أي: إنْ همْ لمْ يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلتُه عليك،

فـيصـدّقـوا بأنّه من عند اللّه، حـزناً وتلهّـفـاً ووجـداً بإدبارهم عنك وأعراضـهم عمّا أتيتهم به وتركهم الإيمان بك.

الرازي:

"**وَيُنْذِرَ الّذيـنَ قَـالوا اتَّخَـذَ الـلّهُ وَلَداً. مـا لهم بـه من عِلْمٍ ولا لآبائهم**"، أي: ولا أحد من أسلافهم. وهذا مبـالغة في كون تلك المقالة باطلة فاسدة. "**كَبُـرَتْ كلِمةً**"، أي: كبـرت كذباً أو جهلاً أو افـتراءً.. والنصب في "**كَلِمَةً**" أقوى وأبلغ من الرّفع، وفيه معنى التعجّب، كأنّه قيل: ما أكـبرها كلمة. "**تَخرُجُ من أفواهِهمْ**". يدلّ على أنّ هذا الكلام مسـتكره جدّاً عند العقل.. فكأنّه شـيء يجري به لسانهم على سـبيل التقليد.

"**إنْ يقولونَ إلاّ كَـذِباً. فلَعَلّكَ باخِعٌ نفسَكَ**، أي: لا يعظم حزنك وأسفك بسـبب كفـرهم، فإنّا بعثناك منذراً ومـبشّـراً. فأمّا تحـصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه. بَخَعَ الرجلُ نفسَه إذا قتلَها غيظاً من شدّة وجْده بالشيء. وأصل البخع الجـهد. يقال: بخعتُ لك نفسي، أي جهدتُهـا. عن عائشة قالت عن عمر: بخع الأرضَ، أي جـهدَها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك. "**وَبَاخِعٌ نَفْسَكَ**"، أي: ناهكها وجاهدها حتى تهلكها. "**عَلَى آثَارِهِمْ**"، أي: من بعدهم. يقال مات فلان على أثر فلان، أي بعده. "**إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الحَدِيثِ**"، أي: القرآن. **أسَفاً**". ألأسف ألمبالغة في الحزن.

البيضاوي:

"**وَيُنْذِرَ الّذينَ قَـالُوا اتَّخَـذَ اللّهُ وَلَداً. مَـا لَهُـمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ، وَلا لآبَائِهِمْ**"، أي: بالولد، أو باتّخاذه، أو بالقول. والمعنى: أنّهم يقولون عن

جهلٍ مفرط، وتوهّمٍ كاذب، أو تقليدٍ لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به..

كَبُرَتْ كلِمةً تَخرُجُ من أفواهِهِمْ. أي: عظمت مقالتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريك وإيهام احتياجه تعالى إلى ولدٍ يُعينه ويَخلفه..

إبن كثير:

" **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً** ". قال تعالى مسلِّياً لرسوله في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: " فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ " (٣٥/٨)، وقال: " وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ " (١٥/٨٨)، وقال: " لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ " (٢٦/٣)؛ باخِع، أي مهلك نفسك بحزنك عليهم.. والمعنى: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة اللّه. فمن اهتدى فلنفسه، ومَن ضلّ فإنّما يضلّ عليها. ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

الشوكاني:

" **وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً** "، وهم اليهود والنصارى وبعض كفّار قريش. " **ما لهم به من عِلْمٍ** "، أي بالولد، أو اتّخاذ اللّه إيّاه. والمعنى: ما لهم بذلك علم أصلاً، " **وَلا لآبَائِهِمْ** " علم. بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة. وقلّدهم أبناؤهم فضلّوا جميعاً. " **كَبُرَتْ كلمةً** "، أي: كبرت مقالتهم، هي قولهم اتّخذ اللّه ولداً، " **تَخْرُجُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ** "، تفيد استعظام اجترائهم على التفوّه بها. ثمّ زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال: " **إنْ يَقُولُونَ إلاّ كَذِباً** "، أي: ما يقولون إلاّ كذباً.

النســاء أبِأنْ تقوِّيني على مــا ضعــفتُ عنه من ذلك، وتجعل زوجــتي ولوداً، فإنّك القــادر على ذلك وعلى ما تشاء؟ أم بأن أنكح زوجــةً غيرَ زوجتي العاقر؟ **وكانتِ امْرَأتي عَــاقِراً، وقد بلَغْتُ منَ الكِبَرِ عِـتِيًا** (أي بلغتِ النّهاية في الكِبَرِ واليَبس والجفاف).

٩. **قال** (اللّه لزكريّا) : **كَذلكَ** (أي: هكذا الأمر كمــا تقول من أنّ امرأتك عاقر، وأنّك قد بلغتَ من الكِبــر العتيّ. ولكن ربّك يقول: خلْقُ ما بشّرتُك به من الغــلام الذي ذكرت لك أنّ اسمــه يحيى): **هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ. وقَدْ خَلَقْتُكَ منْ قَبْلُ ولمْ تَكُ شَيئًا.**

١٠. **قالَ** (زكريّا) : **رَبِّ! اجْعَلْ لي آيَةً** (أي: علماً دليــلاً على ما بشّرَتْني به مــلائكتُك من هذا الغلام عن أمرك ورســالتك، ليطمئنّ إلى ذلك قلبي).

قال (اللّه) : **آيَتُكَ** (لذلك) **ألاّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثلاثَ لَيَــالٍ سَوِيًا** (أي علامــتك لذلك، ودليلك عليــه أن لا تكلّم الناس ثلاث ليال وأنــت سويّ صحيح، لا علّة بك من خرس ولا مرض يمنعك من الكلام)[٤].

١١. **فَخَرَجَ** (زكريّا) **على قَومِــه مِنَ المِحْراب** (مصلاّه، حين حُبس لسانُه عن كلام النّاس)[٥]. **فَأوحَى إليهِمْ** (أي: أشار إليهم باليد وبالكتاب[٦] وبغيــر ذلك ممّا يفهم به عنــه ما يريد) **أنْ سَبِّــحُوا** (أي: صلّوا) **بُكْرَةً وعَشِيًا.**

---

(٤) ثلاث لَيــال، أو، كمــا في ٣/ ٤١، ثلاثة أيّام. ولكن بحــسب لوقا، بقي زكــريّا أبكمَ طوالَ مدّة الحبل بيحيى.

(٥) المحراب: هنا وفي ســورة آل عمران٣/ ٣٧. وهو " مقدم كل مــجلس ومصلّى، وهو سيّد المجالس وأشرفها وأكرمها ".

(٦) الأنسب كتب لهم في كتاب، لأنّه كان قد أصبح أخرس، لا يكلّمهم.

(...) يقول تعالى ذكره: فولد لزكـريّا يحيى. فلمّا وُلد، قال اللّه له):

١٢. **يا يَحيَى! خُذِ الكتَابَ** (أي: كـتاب اللّه الذي أنزله على موسى، وهو التوراة) **بِقُوَّةٍ** (أي: بجدٍّ)[٧]. **وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا** (عن معمر قـال: بلغني أنّ الصبيان قالوا ليحيى: إذهـب بنا نلعب. فقال: ما للعب خُلقتُ. فأنزل اللّه: وآتيناهُ الحُكمَ صَـبيًّا)، ١٣. **وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا** (ورحمةً منّا ومـحبّة له) **وَزَكَاةً** (أي الطهارة من الذنوب، واستـعمال بدنه في طاعة ربّه). **وكانَ تَقِيًّا** (أي: كان للّه خـائفاً مؤدّيًا فـرائضه، مجتنبًا محارمه مسارعًا في طاعته).

١٤. **وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ** (أي: كان مسارعـاً في طاعتهما ومحبّـتهما، غيـر عاقّ). **وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً** (مســتكبراً عن طاعـة ربّه وطاعة والدَيه، ولكنّه كان للّه ولوالديه متواضعاً متذلّلاً، يأتمر لما أُمر به، وينتهي عمّا نُهي عنه)، **عَصِيًّا** (أي: لا يَعصي ربَّه ولا والدَيه).

١٥. **وَسَلامٌ عَليهِ يومَ وُلِدَ** (أي: وأمان من اللّه يوم وُلِدَ من أن يناله الشـيطان من السـوء، بما ينال به بـني آدم، وذلك أنّه روي عن رسول اللّه أنّه قال: "كلُّ بني آدمَ يأتي يومَ القيامةِ وله ذَنْبٌ إلاّ ما كان مِن يحيَـى بنِ زكريّا")، **ويومَ يَمُوتُ** (أي: وأمان من اللّه من فَـتّانَي القبر ومن هول المطلع)، **ويومَ يُبْعَثُ حَيًّا** (أي: وأمان له من عذاب اللّه يومَ القيـامة، يومَ الفزع الأكبـر، من أن يروّعه شـيء، أو أن يفزعـه ما يُفزع الخلق).

---

(٧) أي تعلّم التوراة بقوّة وجدّ وحرص واجتهاد (إبن كثير).

(٧٤)

البشارة بمريم وولادة عيسى

١٦. واذْكُرْ فِي الكتَابِ مَرْيَمَ إذِ انْتَبَذَتْ مِنْ اَهْلِها مكاناً شَرقيّاً.

١٧. فاتّخَذَتْ من دُونِهِمْ حِجَاباً. فأرْسَلنا إليها رُوحَنَا. فَتَمَثّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًا.

١٨. قالتْ: إنّي أعُوذُ بالرَّحْمَنِ منْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًا.

١٩. قال: إنّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لك غُلاماً زَكِيًا.

٢٠. قالتْ: أنّى يكونُ لي غُلامٌ؟ ولمْ يَمْسَسْني بَشَرٌ. ولمْ أكُ بَغِيًا.

٢١. قال: كـذلكَ قالَ رَبُّكِ. هُوَ عليَّ هَيِّنٌ. وَلِـنَجْعَلَهُ آيةً للنّاسِ ورَحْـمَةً منّا. وكانَ أمْراً مَقْضِيًا.

٢٢. فَحَمَلَتْهُ. فانْتَبَذَتْ بهِ مكاناً قَصِيًا.

٢٣. فَأجَـاءَها المَخَاضُ إلى جِـذْعِ النَّخْلَةِ. قالتْ: يا لَيْتَـني مِتُّ قَبْلَ هذا. وكُنتُ نَسيًا مَنْسِيًا.

٢٤. فَنادَاها مِنْ تَحْتِها: ألاّ تَحْزَني. قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكَ سَرِيًا.

٢٥. وَهُزِّي إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَليكِ رُطَباً جَنِيًا.

٢٦. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإمّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أحداً. فَقولي: إنّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوماً. فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَومَ إنْسِيًا.

٢٧. فَأتَتْ بِهِ قَومَها، تَحْمِلُهُ. قَالوا: يا مَرْيَمَ! لَقَدْ جِئْتِ شَيئاً فَرِيًا.

٢٨. يا أُخْتَ هَارُونَ! ما كانَ أبوكِ امْرأ سَوْءٍ. وما كانتْ أُمُّكِ بَغِيًا.

٢٩. فَأشَارَتْ إليهِ. قَالوا: كَيفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ في المَهْدِ صَبِيًا؟

٣٠. قال: إنّي عَبْدُ اللّه. آتَانِيَ الكتابَ وَجَعَلَني نَبِيًا.

٣١. وَجَعَلَني مُبَارَكاً أيْنَمـا كُنْتُ. وأوصَاني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًا.

٣٢. وَبَرًا بوَالِدَتي. ولَمْ يَجْعَلْني جَبّاراً شَقِيًا.
٣٣. والسَّلامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ، ويَومَ أمُوتُ، ويومَ أُبْعَثُ حَيًا.
٣٤. ذلكَ عِيسَى ابنُ مَريَمَ قَوْلَ الحَقِّ الّذي فِيهِ يَمْتَرُونَ.
٣٥. ما كانَ للّهِ أنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ. سُبْحَانَهُ! إذا قَضَى أمْرًا فإنّما يَقولُ لَهُ: كُنْ فَيَكونُ.
٣٦. وإنَّ اللّهَ رَبّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ. هذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ.
٣٧. فَاخْتَلَفَ الأحْزَابُ مِنْ بَينِهِمْ. فَوَيلٌ للّذينَ كَفَرُوا مِن مَشْهَدِ يومٍ عَظيمٍ (سورة مريم ١٩/١٦-٣٧).

الطبري:

واذْكُرْ (يا محمّد) **في الكتابِ** (الذي أنزله اللّه عليك بالحقّ) **مَرْيَمَ إذِ انْتَبَذَتْ** (أي اعتزلت) **مِنْ أهْلِها** (وانفردت عنهم) **مكاناً شَرقيّاً** (من الهيكل إلى جانب المحراب، وذلك لحيضٍ أصابها) **فاتَّخَذَتْ من دُونِهِمْ** (أي من دون أهلها) **حِجاباً** (ستراً يسترها عنهم وعن الناس).

فأرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا (أي جبريل). **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًا** (أي تَشَبَّهَ لها في صورة آدميّ معتدل الخلق). **قالتْ: إنّي أعُوذُ بالرَّحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًا** (أي، لمّا رأتْه فزعت منه، وظنّته رجلاً يريدها على نفسها. فقالت: إنّي أعوذ أيّها الرجل بالرحمن منك، أي: أستجير بالرحمن منك أن تنال منّي ما حرّمه عليك، إنْ كنتَ ذا تقوى له تتّقي محارمه وتجتنب معاصيه، لأنّ من كان للّه تقيّاً، فإنّه يجتنب ذلك).

قال: إنّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ لأهَبَ لكِ غُلامًا زَكِيًا (أي طاهراً من الذنوب). **قالتْ: أنّى يكونُ لي غُلامٌ؟** (أي: من أيِّ وجهٍ يكون لي غلام؟ أمِنْ قِبَلِ زوجٍ أتزوّجه فأُرزَقُه منه؟ أم يبتدئ اللّهُ في خلقه ابتداءً)، **ولَمْ يَمْسَسْني بَشَرٌ** (من ولد آدم بنكاحٍ حلال. **ولَمْ أكُ** (إذا لم

يمسسني منهم أحـد على وجه الحلال) **بَغِيًا** (أي زانية). **قال: كذلكَ** (أي: هكذا الأمر كما تصفين من أنّك لم يمسسك بشرٌ ولم تكوني بغياً ولكن)، **قالَ رَبُّكِ: هُوَ عليَّ هَيِّنٌ** (أي: خلْقُ الغلام، لا يتعـذّر عليّ خلقه، وهبـتُه لكِ من غـير فـحلٍ يفتـحلك). **ولِنَجْعَلَهُ آيةً للنّاسِ** (أي علامـة وحجّة على خلقي)، **ورَحْمَةً منّا** (لكِ ولمن آمن به وصدّقه. أخلقُه منكِ)، **وكانَ أمْراً مَقْضِيًا** (أي إنّ اللّه قد عزم على ذلك فليس منه بدّ).

يقـول الطبري هنا: في الكلام مـتروكٌ تُرِكَ ذكـرُه استـغناء.. ويفتـرض، مع وهب بن منبّه اليمـاني، أنّ جبريل لما قال: "كـذلك قال ربّك هو عليّ هيّن"، استسلمتْ لأمر اللّه، فنفخ في جيبها، ثمّ انصرف عنها. وعن السدي قال: طَرحتْ عليها جلبـابها، لما قال جبريل ذلك لها، فأخذ جبريل بكمّيها، فنفخ في جيب درعها، وكان مشقوقاً من قدّامها، فدخلتِ الـنّفخةُ صـدرَها، فحـملتْ. فأتَتْهـا أختُـها امرأةُ زكـريّا، ليلة تزورها. فلمّا فتحتْ لهـا الباب التزمتها. فقالت امـرأةُ زكريّا: أشَعرْتِ أنّي حُبلى؟ قالت مـريم: أشعرتِ أيضاً أنّي حبلى؟ قـالت امرأة زكريّا: إنّي وجدتُ ما في بطني يسجدُ لِما في بطنِك.

فَحَمَلَتْهُ. فانْتَـبَذَتْ بهِ مكاناً قَصِيًا (أي: فاعتزلتْ بالّذي حملتْه، وهو عـيسى، وتـنحّت به عن النّاس مكاناً نائيـاً قـاصيـاً). **فَأجَـاءَها المَخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ**. واختلفـوا في أيّ المكان الذي انتبـذت مريم بعيسى لوضـعه، وأجاءها إليهـا المخاض: فقال بعـضـهم: كان ذلك في أدنى أرض مصـر، وقال آخـرون: في أرض الشـام. وذلك أنّهـا هربتْ من قومها لمّا حملتْ. فتوجّهتْ نحو مصر هـاربةً منهم.

عن وهب بن منبّه قال: لمّا اشتملت مـريم على الحمْل، كان معها قرابةٌ لها يقال له يوسف النّجّـار. وكانا منطلقَين إلى المسجد الذي عند

جبل صهيون. وكان ذلك المسجد يومئذٍ من أعظم مساجدهم في ذلك الزمان. وكان لخدمته فضل عظيم. فرغبا في ذلك.. فكان أوّل مَن أنكر حمْلَ مريم صاحبَها يوسف. فلمّا رأى الذي بها استفظعه، وعظُم عليه، وفظع به فلم يدرِ على ماذا يضع أمرَها. فإذا أراد يوسف أن يتّهمها ذَكَرَ صلاحَها وبراءَتها، وأنّها لم تغبْ عنه ساعةً قط. وإذا أراد أن يبرّئها رأى الذي ظهر عليها.

فلمّا اشتدّ عليه ذلك، كلّمها. فكان أوّل كلامه إيّاها أنْ قال لها: إنّه قد حدث في نفسي من أمرك أمرٌ قد خشيتُه، وقد حرصتُ على أن أميتَه وأكتمَه في نفسي، فغلبني ذلك، فرأيتُ الكلامَ فيه أشفى لصدري. قالت: فقل قولاً جميلاً. قال: ما كنتُ لأقول لكِ إلاّ ذلك. فحدِّثيني: هل ينبتُ زرعٌ بغير بَذْرٍ؟ قالت: نعم. قال: فهل تنبتُ شجرةٌ من غير غَيثٍ يُصيبها؟ قالت: نعم. قال: فهل يكون وَلَدٌ من غير ذَكَرٍ؟ قالت: نعم.

ثم قالت: ألمْ تعلم أنّ اللّهَ تبارك وتعالى أنبتَ الزرعِ يوم خلقه من غير بذر، والبذر يومئذٍ إنّما صار من الزرع الذي أنبتَه اللّه من غير بذر. أو لم تعلم أنّ اللّه بقدرته أنبتَ الشجرَ بغير غيث، وأنّه جعل بتلك القدرة الغيثَ حياةً للشجرة بعدما خلق كلّ واحد منهما واحدة. أم تقول: لن يقدر اللّه على أنْ ينبت الشجر حتّى استعان عليه بالماء. ولولا ذلك لم يقدر على إنباته.

قال يوسف لها: لا أقول هذا. ولكنّي أعلم أنّ اللّه تبارك وتعالى، بقدرته على ما يشاء، يقول لذلك كن فيكون.

قالت مريم: أوَ لمْ تعلم أنّ اللّه تبارك وتعالى خلق آدم وامرأته من غير أنثى ولا ذَكَر؟ قال: بلى.

فلمّـا قالت له ذلـك وقع في نفسـه أنّ الذي بهـا شيءٌ من اللّه تبـارك وتعـالى، وأنّه لا يسـعـه أن يسـألَهـا عنه. وذلك لِمـا رأى من كتمانها لذلك.

ثمّ تولّى يوسف خـدمة المسجـد وكفـاها كلَّ عملٍ كانـت تعمل فيه. وذلك لِما رأى من رقّـة جسمها، واصفرار لونهـا، وكلف وجهها، ونتوء بطنها، وضعف قـوّتها، ودأب نظرها. ولم تكن مريم، قبل ذلك، كذلك.

فلمّا دنا نفـاسُها أوحى اللّه إليها أنِ اخـرجي من أرض قومك. فإنّهم، إن ظفـروا بكِ عيّروك، وقتلـوا ولدَك. فأفضتْ ذلك إلى أختـها، وأختُها حينئـذٍ حبلى، وقد بُشِّرتْ بيحيى. فلمّا التـقيا وَجَدتْ أمٌّ يحيى ما في بطنها خرَّ لوجهه ساجداً معترِفاً لعيسى.

فاحـتملها يوسف إلى أرض مـصر، على حمـارٍ له، ليس بينها حين ركـبتْ وبين الإكـاف شيء. فانطـلق يوسف بهـا. حتّى إذا كـان مـتاخِـماً لأرض مـصر في منقطع بلاد قـومهـا، أدرك مريمَ النفـاسُ ألجـأها إلى آريِّ حمـار، يعني مـذود الحمـار وأصل نخلة، وذلك في زمان أحسـبه برداً، أو حرّاً (ألشك من أبي جـعفر). فاشتـدّ على مريم المخاض. فـلمّا وجـدتْ منه شدّةً التـجأتْ إلى النخلة، فـاحتـضنتْـها. واحتوَشتْها الملائكة وقاموا صفوفاً محدِقين بها.

عن ابن عبّاس قال: ليس إلاّ أنْ حملتْ فولدت.

قـالتْ: يا لَيْـتَني مِتُّ قَـبْلَ هذا (الكرب الذي أنا فـيه والحـزن بولادتي المولود من غـير بعل)، **وكُنتُ نَسيًـا مَنْسِيًا** (أي: ليتني كنت الشيء الذي أُلقِي فتُرِكَ ونُسي.. فلا يُرى لي أثر ولا عين).

فَنادَاها مِنْ تَحْتِـها (اختلف أهل التـأويل في هويّة مَن هو هذا الذي ناداها؟ فـمنهم من قال إنّه جـبريل ناداها من بين يديهـا؛ ومنهم من قال إنّ عيسى ناداها من تحتـها بعدما ولدته.. ومنهم من قال: أي من تحت النخلة): **ألاَّ تَحْزَني. قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًا** (واختلف أهل التـأويل في المعنيّ بالسريّ فـي هذا الموضـع، فقـال بعضـهم عني به النهر الصغـير.. وقال آخرون إنّه عيـسى نفسه). (وقال لها): **وَهُزِّي إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ** (ذُكر أن الجذع كان يابسـاً، وأمرها أن تهزّه، وذلك في أيّام الشتاء)، **تُسَاقِطْ عَليكِ رُطَباً جَنِيًا. فَكُلِي** (من هذا الرُّطب الذي يتساقط عليك)، **وَاشْرَبِي** (من ماء السريّ هذا الذي جعله ربُّك تحتك. ولا تخشَي جوعاً ولا عطشاً)، **وَقَرِّي عَيْناً** (أي: وطيبي نفْساً وافرحي بولادتك إيّاي) **فَإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَـشَرِ أحَداً** (أي: فإنْ رأيتِ من بني آدم أحـداً يكلّمـك، أو يسـائلك عن شيء من أمْـرك وأمْـرِ وَلَدِكِ وسـبب ولادته)، **فَقولي: إنّي نَذَرْتُ للرَّحْـمَنِ صَوماً** (أي: فقولي إنّي أوجبتُ على نفسي للّه صمتاً)، **فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَومَ إنْسِيًا** (أي: لا أكلّم أحداً من بني آدم اليوم. فلمّـا قال ذلك عيسى لأمّـه، اطمأنّتْ نفسُهـا، وسلّمتْ لأمر اللّه، وحملتْه). **فَأتَتْ بِهِ قَومَها، تَحْمِلُهُ. قَالـوا: يا مَرْيَمَ! لَقَدْ جِئْتِ شَيئاً فَرِيًا** (عظيماً).

يا أُخْتَ هَارُونَ! (اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل لهـا يا أختَ هارون؟ ومن كان هارون هذا الذي ذكره اللّه وأخـبر أنّهم نسبوا مريم إلى أنّها أخته. فـقال بعضـهم: قيل لها يا أختَ هارون نسـبةً منـهم لها إلى رجل صـالحٍ في بني إسـرائيل يسـمّى هارون، فشبّهوها به. فقالوا: يا شـبيهة هارون في الصلاح؛ لأنّ أهل الصلاح فيـهم كان يسـمّون هارون وليس بـهارون أخي موسـى... وذُكر أنّه شَيَّع جنازتَـه يومَ مات أربعون ألفـاً.. وقال بعضـهم: عني به هارون

أخو موسى، ونسبتْ مريم إلى أنّها أخته، لأنّها من ولده. كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر... وقال آخرون: بل كان ذلك رجلاً فاسقاً معلن الفسق فنسبوها إليه. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما جاء به الخبر عن رسول اللّه الذي قال لرسوله إلى أهل نجران الذين اعترضوا على تعبير "أخت هارون". قال: "ألا أخبرتهم أنّهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم!"). **ما كانَ أبوكِ امْرأَ سَوْءٍ** (يأتي الفواحش). **وما كانتْ أُمُّكِ بَغِيًا** (أي زانية).

فأشارَتْ إليهِ (أنْ كلّموه. أي أمرتْهم بكلامه). **قالوا: كيفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ في المَهْدِ صَبِيًا؟** (وظنّوا أنّ ذلك منها استهزاء بهم. عن السديّ قال: لمّا أشارتْ لهم إلى عيسى غضبوا وقالوا لسخريّتها بنا حين تأمرنا أنْ نكلّم هذا الصبيّ أشدّ علينا من زناها). **قال: إنّي عَبْدُ اللّه. آتانِيَ الكِتابَ وَجَعَلَني نَبِيًا. وَجَعَلَني مُبارَكاً** (اختلف أهل التأويل في معنى ذلك. فقال بعضهم: وجعلني نفّاعاً.. وقال آخرون: كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وقال آخرون: أي جعلني معلّم الخير)، **أيْنَما كُنْتُ. وأوصاني بالصّلاةِ والزّكاةِ ما دُمْتُ حَيًا. و** (جعلني أيضاً) **بَرًا بوالِدَتي. ولَمْ يَجْعَلْني جَبّاراً شَقِيًا** (أي: مستكبراً على اللّه فيما أمرني به ونهاني عنه، ولكن ذلّلني لطاعته وجعلني متواضعاً).

والسّلامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ، ويَومَ أمُوتُ، ويومَ أُبْعَثُ حَيًا (أي: الأمنة من اللّه عليّ من الشيطان وجنده يومَ ولدت أن ينالوا منّي ما ينالون ممّن يولد عند الولادة من الطعن فيه، ويوم أموت من هول المطلع، ويوم أبعث حيّاً يوم القيامة، أن ينالني الفزع الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوال ذلك اليوم).

ذلكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ (أي: وهذا الذي بيّنتُ لكم صفتَه، وأخبرتكم خبره من أمر الغلام الذي حملتْه مريم، هو عيسى ابن مريم. وهذه الصفة صفته. وهذا الخبر خبره. وهو " **قَوْلَ الحَقِّ** " (يعني أنّ هذا الخبر الذي قصصته عليكم قول الحق، والكلام لذي تلوتُه عليكم قول اللّه، وخبره لا خبر غيره الذي يقع فيه الوهم والشك والزيادة والنقصان على ما كان يقول اللّه تعالى ذكرُه: فقولوا في عيسى أيّها الناس هذا القول الذي أخبركم اللّه به عنه، لا ما قالته اليهود الذين زعموا أنّه لغير رشدة، وأنّه كان ساحراً كذّاباً، ولا ما قالته النصارى من أنّه كان للّه ولداً، وإنّ اللّه لم يتّخذ ولداً ولا ينبغي ذلك له). **الّذي فيهِ يَمْتَرُونَ** (أي: الذي فيه يختصمون ويختلفون، من قولهم: ماريتُ فلاناً إذا جادلته وخاصمته). **ما كانَ للّهِ أنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَد. سُبْحَانَهُ! إذا قَضَى أمْرًا فإنّما يَقولُ لهُ: كُنْ فَيَكونُ. وإنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** (أي: إنّي وإيّاكم عبيد اللّه، فاعبدوه، ولا تعبدو غيره). **هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ** (أي هذا الذي أوصيتكم به وأخبرتكم أنّ اللّه أمرني به، هو الطريق المستقيم الذي مَن سلكه نجا، ومَن ركبه اهتدى، لأنّه دين اللّه الذي أمر به أنبياءه).

الزمخشري:

الحجاب: قيل: .. إنّ مريم، إذا حاضتْ تحوّلت إلى بيت خالتها؛ وإذا طهرتْ عادتْ إلى المسجد. فبينا هي في مغسلتها، أتاها المَلَكُ في صورة آدمي، شاب أمرد، وضيء الوجه، جعد الشعر، سويّ الخلق، لم ينتقص من الصورة الأدميّة شيئاً، أو حسن الصورة مستوى الخلق. وإنّما مَثُل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه. ولو بدا لها في الصورة المَلَكيّة لَنفرتْ ولم تقدرْ على استماع

كلامه. ودلّ على عفافها وروعها أنّها تعوّذتْ باللّه من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن. وكان تمثيله على تلك الصفة إبتلاءً لها وسَبراً لعفّتها.

وقيل: كانت في منزل زوج أختها زكريّا، ولها محراب على حِدة، تسكنه. وكان زكريّا، إذا خرج أغلق عليها الباب...

وقيل: قام بين يديها في صورة ترْبٍ لها، إسمه يوسف مِن خَدَمِ بيت المقدس.

وقيل: إنّ النّصارى اتّخذت المشرق قبلةً لانتباذ مريم مكاناً شرقيّاً.

الروح: جبريل، لأنّ الدين يحيا به، ويوحيه. أو سمّاه اللّه روحَه، على المجاز، محبّةً له، وتقريباً؛ كما تقول لحبيبك: أنتَ روحي..

وقيل: كان مدّة الحمل: ستة أشهر، وسبعة أشهر. وقيل: ثمانية. ولم يعشْ مولودٌ وُضع لثمانية إلاّ عيسى. وقيل ثلاث ساعات: حملتْه في ساعة، وصُوِّر في ساعة، ووضعتْه في ساعة حين زالت الشمس من يومها. وعن ابن عبّاس: كانت مدّة الحمل ساعة واحدة، كما حملتْه نبذته. وقيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة. وقيل بنت عشر. وقد كانت حاضت حيضتَين قبل أن تحمل. قالوا: ما من مولود إلا يستهلّ غيره (؟).

"**قصيّاً**": بعيداً من أهلها وراء الجبل. وقيل: أقصى الدار. وقيل: كانت سُمِّيَتْ لابنِ عمٍّ لها اسمه يوسف. فلما قيل حملتْ من الزنى، خاف عليها قتْلَ الملِك، فهرب بها. فلمّا كان ببعض الطريق، حدّثتْه نفسُه بأنْ يقتلَها. فأتاه جبريل، فقال: إنّه من روح القدس. فلا تقتلْها. فتركها.

جِذع النَّخلة: طلبت الجـذع لتتسـتّر به، وتعـتـمد عليـه عند الولادة. وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة. وكان الوقتُ شتاءً.

مِنْ تَحْتِها: هو جبـريل عليه السلام. قـيل كان يقبل كـالقابلة. وقيل هو عيسى. وقيل تحتهـا أسفل من مكانها. وقيل كان أسفل منها تحت الأكمه، فصاح بها: لا تحزني. وقيل: الضمير في تحتها للنّخلة.

تُساقِطْ: فيـه تسع قراءات: بإدغـام التاء. وتَتَسـاقَطْ بإظـهار التـاءَين. وتَسَـاقَطْ بطـرح الثـانيـة. ويَسَّـاقَطْ باليـاء وإدغـام التـاء. وتُسَـاقِطْ، وتُسْقِطْ، ويُسْـقِطْ، ويَسْقُطْ، وتَسْـقُطْ، ألتاء للنخلة، والـياء للجذع.

إنّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوماً. فَلَنْ أُكَلّمَ اليَومَ إنْسِيّا. في مصـحف عبداللّه: صمتاً، وعن أنس بن مالك، مثله. وقيل: صياماً. إلاّ أنّهم كانوا لا يتكلّمون في صيامهم. وقـد نهى رسولُ اللّه عن صوم الصمت لأنّه نُسخ في أمّـته. أمـرها اللّه بأن تنذر الصـوم لئلاّ تشـرع مع البشـر المتّهـمين لها في الكلام لمعنَيَين: أحدهمـا أنّ عيسى يكفيـها الكلام بما يبرّئ به ساحتهـا. والثاني كراهة مجادلة السفهاء ومناقـشتهم. وفيه أنّ السكوت عن السفيه واجب. ومِن أذلِّ الناسِ سفيهٌ لم يَجِدْ مسافِهاً. قيل: أخـبرتهم بأنّهـا نذرت الصومَ بالإشـارة. وقيل: سُـوِّغ لها ذلك بالنطق.

يا أُخْتَ هَارُونَ! كان أخـاها من أبيهـا من أمثل بني إسـرائيل. وقيل هو أخـو موسى. وعن النّبيّ إنّما عنـوا هارون النّبيّ، وكانت من أعقابه في طبـقة الأخوة، وبينها وبينه ألف سنة وأكـثر. وعن السدي: كانت من أولاده. وإنّمـا قيل: يا أخت هارون كـما يقال يا أخـا همدان،

أي: يا أحداً منهم. وقيل رجل صالح، أو طالح في زمانها شبّهوها به. أي: كانت عندنا مثله في الصلاح؛ أو شتموها به. ولم ترد أخوّة النسب. ذكر أنّ هارون الصالح تبع جنازتَه أربعون ألفاً كلّهم يسمّى هارون تبرّكاً به وباسمه. فقالوا: كنّا نشبّهك بهارون هذا.

قيل: احتمل يوسف النّجار مريمَ وابنَها إلى غار، فلبثوا فيه أربعين يوماً حتّى تعلّتْ من نَفاسها. ثم جاءت تحمله. فكلّمها عيسى في الطريق. فقال: يا أمّاه! أبشري. فإنّي عبد الله ومسيحه. فلمّا دخلت به على قومها، وهم أهل بيت صالحون، تباكوا. وقالوا ذلك. وقيل: همّوا برجمها حتّى تكلّم عيسى. فتركوها.

فَأَشَارَتْ إِلَيهِ، أي: هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه. وقيل: كان المستنطق لعيسى زكريّا. وعن السدّي: لمّا أشارت إليه غضبوا وقالوا: لسخريّتها بنا أشدّ علينا من زناها. وروي أنّه كان يرضع. فلمّا سمع ذلك ترك الرضاع، وأقبل عليهم بوجهه، واتّكأ على يساره، وأشار بسبابته. وقيل: كلّمهم بذلك ثم لم يتكلّم حتّى بلغ مبلغاً يتكلّم فيه الصبيان.. أنطقه الله أوّلاً بأنّه **عَبْدُ الله** ردّاً لقول النصارى.

آتَانِيَ الكِتابَ، أي: الإنجيل. **وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**. اختلفوا في نبوّته. فقيل: أُعطيها في طفوليّته؛ أكمل اللّهُ عقلَه، واستنبأه طفلاً.. وقيل: معناه: أنّ ذلك سبقَ في قضائه، أو جعلَ الآتي لا محالة كأنّه قد وُجِد.

الرازي:

انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكاناً شَرقِياً. اختلف المفسّرون في مكان انفرادها على وجوه: **الأوّل**: إنّها لمّا رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة، لكي تنتظر الطهر، فتغتسل وتعود. فلما طهرت جاءها

جبريل. **الثاني**: إنّها طلبت الخلوة لئلاّ تشتغل عن العبادة. **الثالث**: قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها. **الرابع**: إنّها كان لها في منزل زوج أختها زكريّا محراب على حدة تسكنه، وكان زكريّا، إذا خرج، أغلق عليها، فتمنّت على اللّه أن تجد خلوة في الجبل لتفلّي رأسها. فانفرج السقف لها، فخرجت إلى المفازة، فجلست في المشرقة وراء الجبل، فأتاها الملَك. **خامسها**: عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقي. واعلم أنّ كلّ هذه الوجوه محتمل وليس في اللّفظ ما يدلّ على ترجيح واحد منها.

فَأَرْسَلنا إليها رُوحَنَا. فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًا. واختلف المفسّرون في هذا الروح، فقال الأكثرون: إنّه جبريل عليه السلام. وقال أبو مسلم: إنّه الروح الذي تصوّر في بطنها بشراً. والأوّل أقرب، لأنّ جبريل يسمّى روحاً. قال اللّه تعالى: "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ" (٢٦/١٩٣). وسمّي روحاً لأنّه روحاني. وقيل خلق من الروح. وقيل لأنّ الدين يحيا به. أو سمّاه اللّه تعالى بروحه المجاز محبّةً له، وتقريباً، كما تقول لحبيبك: روحي...

واختلفوا في أنّه كيف ظهر لها: **فالأوّل**: إنّه ظهر لها على صورة شابٍّ أمرد، حسن الوجه، سويّ الخلق. **والثاني**: إنّه ظهر لها على صورة تربٍ لها إسمه يوسف من خَدَمِ بيت المقدس. وكلّ ذلك محتمل ولا دلالة في اللفظ على التعيين. **فَحَمَلَتْهُ**، وذلك بواسطة النّفخ، إذ قال في مكان آخر: "فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" (٦٦/١٢)، أي في عيسى، كما قال لآدم: "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي" (١٥/٢٩).

واختلفوا في النّافخ. فقال بعضهم: كان النّفخ من اللّه تعالى، لقوله: "فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" (٦٦/١٢)؛ وظاهره يفيد أنّ النافخ

هو اللّه، لقــوله: "إنَّ مَـثَلَ عـيـسَـى عندَ اللّهِ كَـمَـثَلِ آدَمَ خَـلَقَـهُ من تُراب" (٣/ ٥٩).. وفي حقّ آدم، ألنافخ هو اللّه لقـوله: "وَنَفَخْتُ فِـيْهِ مِنْ رُوحِي" (١٥/ ٢٩). فكذا هـهنا. وقـال آخرون: ألنافخ هو جـبريل، لأنّ الظاهر من قول جبريل: "**لِأَهَبَ لَكِ**"، أنّه أمرٌ مكوَّنٌ مِن قِبَلِه، حتّى يحصلَ الحمْلُ مريمَ. فلا بدّ من إحالة النّفخ إليه.

ثمّ اخـتلفوا في كـيـفيّـة ذلك النّفخ: **ألأوّل:** قول وهب إنّه نفخَ جبريل في جيـبها حتى وصلت إلى الرّحم. **ألثاني** في ذيلها فوصلت إلى الفرج. **ألثالث:** قول السـدّي: أخذ بكمِّـها فنفخ في جنب درعـها، فدخلت النفخة صدرَها، فحملتْ. فجاءتْها أختُها امرأةُ زكريّا، تزورها، فالتزمتها. فلمّا التزمتْهـا علمتْ أنّها حبلى. وذكرت مريم حالَها. فقالت امرأة زكريّا: إنّي وجدتُ مـا في بطني يسجد لما في بطنك.. **ألرابع:** إنّ النفخة كانت في فيها، فوصلت إلى بطنها، فحملتْ في الحال.

إذا عـرفتَ هذا ظهـر أنّ في الكلام حـذفاً، وهـو: "وكان أمـراً مقضياً، فنفخ فيها، فحملته...".

واختلفـوا في عمر مـريم عند حمْلهـا. فقيل: حـملته وهي بنت ثلاث عشـرة سنة، وقيل: بنت عشرين. وقـد كانت حاضتْ حيـضَتَين قبل أن تحمل. وليس في القرآن ما يدلّ على شيء من هذه الأحوال.

فانْتَبَذَتْ بِهِ مـكاناً قَصِيًا. اختلفوا في علّة الانتـباذ على وجوه. **ألأوّل** مـا ورد على لســان وهب بن منبـه، وقد ذكـرناه عند الطبـري. **ثانيها:** إنّهـا استحـيتْ من زكـريّا فذهبتْ إلى مكان بعـيد لا يعلم بـها زكريّا. **ثالثها:** إنّها كانت مشهـورة في بني إسرائيل بالزهد لنذر أمّها وتكفّل زكريّا بها، ولأنّ الرزق كان يأتيـها من عند اللّه. فلمّا كانت في نهاية الشهر استحيـتْ من هذه الواقعة، فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم

بها زكريّا. **رابعها:** إنّها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين أظهرهم. واعلم أنّ هذه الوجوه محتملة، وليس في القرآن ما يدلّ على شيء منها.

واختلفوا في مدّة الحمل: منهم من قال تسعة أشهر، كما في سائر النساء.. ومنهم ثمانية أشهر، ولم يعشْ مولودٌ وُضع لثمانية إلاّ عيسى.. ومنهم: سبعة أشهر. ومنهم: ستّة. ومنهم ثلاث ساعات. ومنهم: كانت مدّة الحمل ساعة واحدة لسببَين: **الأوّل**: لقوله تعالى: "فَحملته، فَانتبذت به. فَأجاءَها المخاض. فَناداها من تحتها". **والفاء** للتعقيب. فدلّت هذه **الفاءات** على أنّ كلّ واحد من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل.. **والثاني**: لقوله تعالى في وصف عيسى: "إنّ مَثَلَ عيسَى عند اللّهِ كَمَثَلِ آدم، خَلقه من تراب. ثمّ قال له: كنْ فيكون" (٣/ ٥٩). وهذا ممّا لا يُتصوّر فيه مدّة الحمل، وإنّما تُعقل تلك المدّة في حقّ من يتولّد من النطفة.

واختلفوا في أين هو المكان القصي: فقيل: أقصى الدار. وقيل: وراء الجبل. وقيل: سافرت مع ابن عمّها يوسف..

فَنادَاها مِنْ تَحْتِها. اختلفوا في المنادي: منهم من قال إنّه عيسى. ومنهم من قال إنّه جبريل وإنه كان كالقابلة للولد.. ومنهم من قال: "مَنْ" فيكون الذي تحتها عيسى، ومَن قال "مِنْ" لا يقتضي قوله أن يكون جبريل؛ لأنّ الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة وذلك لا يليق بالملائكة.

يا أُخْتَ هَارُونَ! .. وأمّا هارون ففيه أربعة أقوال: **الأوّل**: أنّه رجل صالح من بني إسرائيل يُنسب إليه كلّ من عُرف بالصلاح. والمراد أنّكِ كنتِ في الزهد كهرون، فكيف صرت هكذا؟.. ذُكر أن

هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلّهم يسمّون هارون تبرّكاً به وباسمه. **الثاني:** أنّه أخو موسى، وعن النّبي إنّما عنوا هارون النّبي وكانت من أعقابه، وإنّما قيل أخت هارون، كما يقال: يا أخا همدان، أي: يا واحداً منهم. **الثالث:** كان رجلاً معلَنا بالفسق فنُسبتْ إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة. **الرابع:** كان لها أخٌ يسمّى هارون من صلحاء بني إسرائيل فعيّرت به. وهذا هو الأقرب.. وذلك، أنّ في وصف أبويها بالصلاح، يكون التوبيخ أشد، لأنّ مَن كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش.

قال: إنّي عَبْدُ الله. آتَانِيَ الكِتابَ وَجَعَلَني نَبِيًا. وَجَعَلَني مُبَارَكاً أيْنَما كُنْتُ. وأوصَاني بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ ما دُمْتُ حَيًا. وَبَرًا بوَالِدَتي. ولَمْ يَجْعَلْني جَبّاراً شَقِيًا. والسَّلامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ، ويَومَ أمُوتُ، ويومَ أُبْعَثُ حَيًا.

قال : إعلم أنّه وصف نفسه بصفات تسع:

الصفة الأولى: إنّي عَبْدُ الله، وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: إنّ الكلام منه في ذلك الوقت كان سبباً للوهم الذي ذهبت إليه النصارى. فلا جرم أوّل ما تكلّم إنّما تكلّم بما يرفع ذلك الوهم.. **الفائدة الثالثة**: إنّ الذي اشتدّت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنّما هو نفي تهمة الزنا عن مريم. ثمّ إنّ عيسى لم ينصّ على ذلك، وإنّما نصّ على إثبات عبوديّة نفسه، كأنّه جعل إزالة التهمة عن الله أولى من إزالة التهمة عن الأم. فلهذا أوّل ما تكلّم إنّما تكلّم بها. **الفائدة الرابعة**: وهي أنّ التكلّم بإزالة هذه التهمة عن الله يفيد إزالة التهمة عن الأمّ.. وأمّا التكلّم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله.

ثمّ يبطل الرازي قول النصارى في قولهم ببنوّة عيسى للّه، وبألوهيّته، فيقول: ولنا في إبطال قول النصارى وجوه أخر:

أحدها: قالوا: إنّ الكلمة حلّت في عيسى. والمراد من الكلمة العلم. نقول: ألعلم، لمّا حلّ في عيسى ففي تلك الحالة، إمّا أن يقال إنّه بقي في ذات اللّه، أو ما بقي فيها. فإنْ كان الأوّل لزم حصول الصفة الواحدة في محلَّين. وذلك غير معقول، ولأنّه، لو جاز أن يقال ألعلم الحاصل في ذات عيسى هو العلم الحاصل في ذات اللّه بعينه، فلم لا يجوز في حقّ كلّ واحد ذلك، حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات اللّه؟ وإنْ كان الثاني لزم أن يقال إنّ اللّه لم يبقَ عالِماً بعد حلول علمه في عيسى. وذلك ممّا لا يقوله عاقل.

وثانيها: مناظرة جرت بيني وبين بعض النصارى. فقلت له: هل تسلّم أنّ عدم الدليل يدلّ على عدم المدلول أم لا؟ فإنْ أنكرتَ لزمكَ أن لا يكون اللّه قديماً، لأنّ دليلَ وجوده هو العالم. فإذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول، لزم من عدم العالم في الأزل عدم الصانع في الأزل. وإنْ سلّمتَ أنّه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فنقول: إذا جوّزت اتّحاد كلمة اللّه بعيسى، أو حلولها فيه، فكيف عرفتَ أنّ كلمة اللّه ما دخلت في زيد وعمرو؟ بل كيف أنّها ما حلّت في هذه الهرّة وفي هذا الكلب؟ فقال لي: إنّ هذا السؤال لا يليق بك، لأنّا إنّما أثبتنا ذلك الاتّحاد أو الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص...

وثالثها: إنّا نقول دلالة أحوال عيسى على العبوديّة أقوى من دلالتها على الربوبيّة، لأنّه كان مجتهداً في العبادة. والعبادة لا تليق إلاّ بالعبيد. فإنّه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها،

حتّى قالت النصارى: إنّ اليهود قتلوه. ومن كان في الضعف هكذا، فكيف تليق به الربوبيّة.

ورابعها: ألمسيح، إمّا أن يكون قديماً أو محدَثاً. والقول بقدمه باطل، لأنّا نعلم بالضرورة أنّه وُلد، وكان طفلاً، ثمّ صار شابّاً، وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر. وإنْ كان محدَثاً مخلوقاً ولا معنى للعبوديّة إلاّ ذلك. وإنْ قيل ألمعنى بإلهيّته أنّه حلّتْ صفةُ الإلهيّة فيه، قلنا: هب أنّه كان كذلك، لكنّ الحال هو صفة الإله، والمسيح هو المحل، والمحل محدث مخلوق. فما هو المسيح إلاّ عبد محدَث، فكيف يمكن وصفه بالإلهيّ!

وخامسها: إنّ الولد لا بدّ وأنْ يكون من جنس الوالد. فإنْ كان للّه ولدٌ فلا بدّ وأن يكون من جنسه، فإذن، قد اشتركا من بعض الوجوه. فإنْ لم يتميّز أحدهما عن الآخر بأمرٍ ما، فكلّ واحد منهما هو الآخر، وإنْ حصل الامتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك. فيلزم وقوع التركيب في ذات اللّه. وكلّ مركّب ممكن، فالواجب ممكن. هذا خلفٌ. محال هذا كلّه على الاتّحاد والحلول.

ألصفة الثانية، قوله : "آتاني الكتابَ" .. **والصفة الثالثة**، قوله: "وجَعَلَني نبيّاً" .. **والصفة الرابعة**، قوله: "وَجَعَلَني مُبَارَكاً" . ذكروا في تفسير البركة وجوهاً: **أحدها:** إنّ البركة في اللّغة هي الثبات. وأصله من بروك البعير. فمعناه جعلني ثابتاً على دين اللّه مستقرّاً عليه. **وثانيها:** إنّه إنّما كان مباركاً لأنّه كان يعلّم الناسَ دينَهم، ويدعوهم إلى طريق الحقّ. فإنْ ضلّوا فمِن قِبَلِ أنفسهم، لا من قبله... **وثالثها**: ألبركة الزيادة والعلو. فكأنّه قال: جعلني في جميع الأحوال غالباً مفلحاً منجحاً، لأنّي ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير

مستعلياً بالحجّة. فإذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله بالرفع إلى السماء. و **رابعها:** مبارك على النّاس بحيث يحصل بسبب دعائي إحيائي الموتى وإبراء الأكمه والأبرص..

والصفة الخامسة، قوله: "وأَوصَاني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًا". والصفة السادسة، قوله: "وَبَرًا بوَالِدَتي".. والصفة السابعة، قوله: "ولَمْ يَجْعَلْني جَبّاراً شَقِيًا"..

والصفة الثامنة، قوله: "والسَّلامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ، ويَومَ أمُوتُ، ويومَ أُبْعَثُ حَيًا".

"**هذا صِراطٌ مُستَقيمٌ**". يعني القول بالتوحيد، ونفي الولد والصاحبة صراط مستقيم، وأنّه سمّى هذا القول بالصراط المستقيم تشبيهاً بالطريق لأنّه المؤدّي إلى الجنّة...

إبن عربي:

واذْكُرْ في الكتابِ مَرْيَمَ إذِ انْتَبَذَتْ مِنْ اَهْلِها مَكاناً شَرقيّاً. ألمكان الشرقي، هو مكان العالم القدسي لاتّصالها بروح القدس عند تجرّدها.. **والحجاب** الذي اتّخذته من دونهم، وهو حظيرة القدس الممنوع من أهل عالم النفس.. وما لم تترقّ إلى العالم القدسّ بالتجرّد لم يمكن إرسال روح القدس إليها، كما أخبر عنه تعالى في قوله: "**فأرْسَلنا إليها رُوحَنا**".

وإنّما تمثّل لها بشراً سويّ الخلق، حسن الصورة، لتتأثّر نفسُها به، وتستأنسَ، فتتحرّك على مقتضى الجبلة، ويسري الأثر من الخيال في الطبيعة، فتتحرّك شهوتها فتنزل كما يقع في المنام من الاحتلام، وتنقذف نطفتها في الرحم، فيتخلّق منه الولد.

قال: إنّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ لأهَبَ لكِ غُـلامًا زَكِيًا. قال: فدنا منها، فنفخ في جـيب الدرع، أي البدن، وهو سـبب إنزالهـا. والمعانقـة التي كثـيراً مـا تصيـر سبباً للإنزال... والحقّ أنّه روح القـدس، لأنّه كان السبب الفاعلي لوجود عيسى، كما قال: "لأهَبَ لكِ غُلاماً زَكِيّاً".

فَحَـمَلَتْهُ. فانْتَـبَذَتْ بِهِ مكاناً قَصِـيًا، أي بعيداً من المكان الأوّل الشرقـي، لأنّها وقعت به فـي المكان الغربي، الذي هو عـالم الطبيـعة، والأفق الجسماني...

فَقولي: إنّي نَذَرْتُ للرَّحْـمَنِ صَوماً، أي: لا تكلّميـهم في أمرك شيئاً، ولا تماديهم فيما لا يمكنهم قبوله، حتّى ينطق هو بحاله.

الآلوسي:

واذْكُرْ في الكتابِ (أي: في السورة الكريمة لا القرآن) **مَرْيَمَ إذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أهْلِهـا مكاناً شَرقيّاً** (من بيت المقدس، أو من دارها لتختلي هناك للعبادة). ١٧. **فاتَّخَذَتْ من دُونِهِمْ حِجـاباً. فأرْسَلْنا إليها رُوحَنَا** (أي جبريل. قـرأ النقّاش: رُوحَنّا، وهو إسم ملاك). **فَتَمَـثَّلَ لَهَا بَشَـراً سَوِيًا** (وذلك لتهيّج شهوتها فتنحـدر نطفتها إلى رحمها). ١٨. **قالتْ: إنّي أعُوذُ بالرَّحْـمَنِ مِنْكَ** (قال بعض المتـأخّرين: إنّ اسـتعاذتهـا بالله تنبئ عن تهييج شهوتها وميلانها إليه ميلاً طبيعيّاً).

قال: إنّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ (أي: لستُ ممّن يُتوقّع منه ما توهّمتِ من الشرّ) **لأهَبَ لكِ غُلامًـا زَكِيًا** (أي: إنّ الغلام من الملاك، فـهو الذي يَهب لا الله. ولو كـان الله لقال: لِيَـهَبَ لك. على ما قرأ بـعض القرّاء). ٢٠. **قالتْ: أنّى يكونُ لي غُلامٌ؟ ولمْ يَمْسَسْني بَشَرٌ** (وكأنّها ترغب في الغلام، وترغب في مَن يمسّها حلالاً، أي بنكاحٍ شرعي).

قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ (قيل: تحت أمرك إنْ أمرتِ بالجري جرى، وإنْ أمرتِ بالإمساك أمسك) **سَرِيًا. ٢٥. وَهُزِّي إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَليكِ رُطَباً جَنِيًا** (في أمرها بالهزّ إشارة إلى أنّ السعي في تحصيل الرزق مطلوب، وهو لا ينافي التوكّل).

القاسمي:

قال : قال بعضهم: أصل كلمة "عيسى" يسوع. فحرّفه اليهود إلى "عيسو"، تهكّماً، فحوّله العرب إلى "عيسى"، تشبّهاً باسم موسى.

المراغي:

فاتَّخَذَتْ من دُونِهمْ حِجَاباً. فأرْسَلنا إليها رُوحَنَا. فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًا. أي: فاتّخذتْ من دون أهلها ستاراً يسترها عنهم وعن الناس، فأرسلنا إليها جبريل، فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق، ليُعلّمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى من غير أب، إذ ربّما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسىً وغمّاً. وإنّما مَثّل لها بهذا المثال، لتأنس بكلامه، وتتلقّى منه ما يُلقي إليها من كلماته، ولأنّه، لو بدا لها على الصورة الملكيّة، لَنفرتْ منه، ولم تستطعْ محاورته.

محمّد حسين فضل الله :

وجاءت قصّة ولادة مريم (ع) لعيسى (ع) لتخرق هذا القانون الطبيعي بقوّة، ولتعرف البشريّة مخلوقاً وُلد من أمّ دون أب، ولتفرض ولادته تصوّراً جديداً في أجواء العقيدة، من خلال التعمّق في فهم سرّ قدرة الله في عمليّة الإيجاد المتنوّع في كلّ مظاهره، الدّالّة على وحدانيّة الله وقدرته...

وقد جـعل اللّهُ السـيّدة العذراء مـريم (ع) عنوان القـصـّة، لأنّ حركة الخلق انطلقت منها ومعها، وحملت أكثر الملامح اتّصالاً بها، من حيث المضـمون والموقف، ومن حيث الإيحـاءات الروحيّة في مـسألة تقديم النمـوذج الأمثل للمرأة من خـلال الإنسانة المؤمنة التي يتـحوّل ضعـفها الأنثـوي، بفضل الإيمان والرعايـة الإلهيّة، إلى عنصـر قوّة وثبات.

فَـاخْـتَلَفَ الأحْـزَابُ مِنْ بَينِهِمْ في أمـر عـيـسى، هل هو إله متجسّد، أو هو ابن اللّه، أو هو ابن نبيّ مرسل، أو هو شـخص مزيّف؟ فلكلٍّ واحـد مـقال يـختلف فـيـه عن الآخـر. وهكذا كـان منهم المحقّ، والمبطل، والمؤمن، والكافر. **فَوَيلٌ للّذينَ كَفَرُوا مِن مَشْهَدِ يومٍ عَظيم.**

(٧٥)

"دَعَوا للرحمن ولداً. وما ينبغي للرحمن أن يتّخذ ولداً"

٨٨. وقالوا: اتّخَذَ الرّحـمَنُ وَلَداً. ٨٩. لقد جِئْتُمْ شـيئًا إدًا. ٩٠. تكادُ السّمواتُ يَتَفَطّرْنَ منهُ وَتنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًا. ٩١. أنْ دَعَوْا للرّحْمَنِ وَلَداً. ٩٢. وما يَنْبَـغي للرّحْمَنِ أنْ يَتّخِذَ وَلَداً. ٩٣. إنْ كُلُّ مَنْ في السّـمواتِ والأرضِ إلاّ آتِي الرّحـمَنِ عَبْـداً. ٩٤. لقدْ أحْصَـاهُم وَعَدّهُمْ عَدًا. ٩٥. وَكُلُّ آتيهِ يَومَ القِيَامَةِ فَرْداً (مريم ١٩/٨٨-٩٥).

الطبري:

وقالوا (أي الكافرون باللّه): **اتّخَذَ الرّحمَنُ وَلَداً. لقد جِئْتُمْ شيئًا إدًا** (شيئاً عظيـماً من القول منكَراً). **تكادُ السّمواتُ يَتَفَطّرْنَ منهُ** (أي:

يتشقّقن قِطَعاً من قيلهم)، **وَتنْشَقُّ الارضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًا** (أي يسقط بعضها على بعض سقوطاً.. قال رسول اللّه: والذي نفسي بيده، لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهنّ وما بينهنّ وما تحتهنّ، فوُضِعْنَ في كفّة الميزان، ووضعتْ شهادة أن لا إله إلاّ اللّه في الكفّة الأخرى، لرجحتْ بهنّ).

انْ دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَداً. وما يَنْبَغي للرَّحْمَنِ انْ يَتَّخِذَ وَلَداً (أي: وما يصلح للّه أن يتّخذ ولدا، لأنّه ليس كالخلق الذين تغلبهم الشهوات، وتضطرّهم اللّذات إلى جماع الإناث، ولا ولد يحدث إلاّ من أنثى. واللّه يتعالى عن أن يكون كخلقه).

إنْ كُلُّ مَنْ في السّموات والارضِ إلاّ آتِي الرَّحمَنِ عَبْداً (يقول: إلاّ يأتي ربّه يوم القيامة عبداً له، ذليلاً خاضعاً، مقرّاً له بالعبوديّة، لا نسب بينه وبينه). ٩٤. **لقدْ أحْصَاهُم وَعَدَّهُمْ عَدًا** " (أي: لقد أحصى الرحمن خلقَه كلّهم، وعدّهم عدّاً، فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم، وعرف عددهم، فلا يغرب عنه منهم أحد). **وَكُلُّ آتيهِ يَومَ القِيَامَةِ فَرْداً** (بلا مالٍ ولا نصيرٍ يمنعه).

الرازي:

وقالوا: اتَّخَذَ الرَّحمَنُ وَلَداً. ٨٩. لقد جِئْتُمْ شَيئًا إدًا. تكادُ السَّمواتُ يَتَفَطَّرْنَ منهُ وَتنْشَقُّ الارضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًا: انْ دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَداً. (وذلك استعظاماً لهذه الكلمة، وتهويلاً من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين، وهدمها لأركانه وقواعده).

وما يَنْبَغي للرَّحْمَنِ انْ يَتَّخِذَ وَلَداً. (أي هو محال. أمّا الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها، وأمّا التبنّي فلأنّ الولد لا بد وأن يكون

شبيهاً بالوالد، ولا مشـبِّه للّه؛ ولأنّ اتّخاذ الولد إنّما يكون لأغراضٍ لا تصحّ في اللّه من سروره به، واستعانته به، وذكر جميله. وكلّ ذلك لا يليق به).

إنْ كُلُّ مَنْ في السّمواتِ والأرضِ إلاّ آتِي الرّحـمَنِ عَبْداً. والمراد أنّه ما من مـعبـود لهم في السمـوات والأرض من الملائكة والنّاس إلاّ وهو يأتي الرحمن، أي يـأوي إليه، ويلتجئ إلى ربوبيّـته عبـداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً، كما يفعل العبيد.

لقدْ أحْصَاهُم وَعَدَّهُمْ عَدّاً. أيّ كلّهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته. فهو سـبحانه محيط بهم، ويعلم مجمل أمـورهم وتفاصيلها. لا يفوته شيء من أحوالهم، وكلّ واحد منهم يأتيـه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد. وهم براء منه.

الخازن:

وقالوا (أي: اليهود والنصارى): **اتّخَذَ الرّحمَنُ وَلَداً. لقد جِئْتُمْ شيـئًا إدًا. تكادُ السّمـواتُ يَتَفَطّرْنَ منهُ وَتنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِـبالُ هَدًا. أنْ دَعَوْا للـرّحْمَنِ وَلَداً.** (أي: إنْ قلتَ ما معنى انـفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجـبال؟ ومن أين تؤثّر هذه الكلمة في هذه الجمادات؟ قلتُ: فيه وجهـان: أحدهما: أنّ اللّه يقول: كدتُ أن أفعل هذا بالسموات والأرض والجـبال عند وجود هذه الكلمة، غـضَباً منّي على مَن تفوّه بـها، لولا حلمي، وإنّي لا أعجّـل بالعقوبة. الثـاني: أن يكون استعظامـاً للكلمة، وتهويلاً من فظاعتهـا، وتصويراً لأثرها في الدين، وهدمها لأركانه، وقواعده. قـال ابن عبّاس: فزعت السموات والأرض والجـبال وجـميع الخـلائق، إلاّ الثقلَين، وكـادت أن تزول، وغضـبت الملائكة، واستعرتْ جهنّم حين "قَالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً".

سيّد قطب :

... هذه مقـولة منكرة من مـقولات المشركين، ذلك حـين يقول المشركون من العرب: ألملائكة بنات اللّه، والمشـركون من اليهود: عُزير ابن اللّه، والمشركـون من النصارى: ألمسيح ابن اللّه.. فـينتفض الكونُ كلُّه لهذه المقولة المنكَرة التي تنكرها فطرتُه، وينفر منها ضميرُه..

أنّ جرْسَ الألفاظ، وإيقـاع العبارات ليشـارك ظلال المشـهد في رسم الجـوّ: جوّ الغـضب والغيـرة والانتـفاض! وإنّ ضـميـرَ الكون وجوارحَه لتنتفض، وترتعش، وترجف من سـماع تلك المقولة النابية، والمساس بقـداسة الذات العليّـة، كما ينتـفض كلّ عضو وكلّ جـارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته، أو كرامة مَن يحبّه ويوقره.

هذه الانتفاضــة الكونيّة للكلمة النابية تـشترك فيهـا السموات والأرض والجـبـال. والألـفـاظ بإيقـاعـهـا ترسم حـركـة الزلزلة والارتجاف... إنّ كلّ مَن في السموات والأرض إلاّ عـبدٌ يأتي معبودَه خاضـعاً طائعـاً، فلا وَلَد، ولا شَـريك، إنّما خلقٌ، وعـبيد. وإنّ الـكيان البشـري ليرتجف وهو يتصـوّر مدلول هذا البيـان. فلا مجـال لهرب أحد، ولا لنسيان أحد..

(٧٦)

إسألوا أهلَ اليهودَ والنصارى عن الرّسل

ومَا أرْسَلْنا قَبْلَكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إلَيْـهِمْ. فَاسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (سورة الأنبياء ٢١/٧).

الطبري:

" **ومَا أرْسَلْنا** "، يا محـمّد، " **قَبْلَكَ** "، رسولاً إلى أمّةٍ من الأمم التي خلتْ قبلَ أمّتِكَ " **إلاّ رِجَالاً** "، مثلهم، " **نُوحِي إلَيْهِمْ** "، ما نريد أن نوحيه إليهم من أمرنا ونهـينا، لا ملائكة، فماذا أنكروا من إرسالنا لك إليهم، وأنت رجل كسائر الرسل الذين قبلك إلى أممهم.

" **فاسألوا أهلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعلَمون** ". يقول للقائلين لمحمّد في تناجيـهم بينهم: هل هذا إلاّ بشَرٌ مـثلكم: فإنْ أنكرتُم وجـهلتم أمرَ الرّسل الذين كانوا من قبل محمّد، فلـم تعلموا أيها القوم أمرَهم، إنساً كانوا أم مـلائكة، فاسـألوا أهلَ الكتب من التـوراة والإنجيل مـا كانوا يخبروكم عنهم.

الرازي:

" **فاسـألوا أهلَ الذِّكْرِ** ". فالمعنى: أنّه تعـالى أمرهم أن يسألوا أهلَ الذكر، وهم أهلَ الكتاب، حتّى يُعلِموهم أنّ رُسُلَ اللّه الموحَى إليهم كانوا بشَـراً ولم يكونوا ملائكة. وإنّما أحـالهم على هؤلاء لأنّهم كانوا يتابعون المشركين في معاداة رسـول اللّه. قال: " وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الّذِينَ أشْرَكُوا أذًى كَثِيراً " (٣/١٨٦).

فـإنْ قيل: إذا لم يوثق باليـهـود والنصارى، فكيف يجـوز أن يأمرهم بأن يســألوهم عن الرّسل؟. قلنا: إذا تواتر خبـرُهم، وبلغ حدَّ الضرورة، جاز ذلك، كما قد يُعمل بخبر الكفّار إذا تواتر، مثل ما يُعمل بخبر المؤمنين.

ومن الناس من قال: المراد بأهل الذكر أهلَ القـرآن، وهو بعيد، لأنّهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول..

وهذه الآية متعلّقة باليهود والنصارى على التعيين.

الطبرسي:

اختلف في المعني بـ"**أَهْلَ الذِّكْرِ**" على أقوال: فـروي عن علي أنّه قـال: نحن أهل الذّكر. وروي عن أبي جـعـفر أنّ اللّه سـمّى النّبيّ ذكـراً ورسولاً. وعن الحـسـن وقـتـادة قالا: أهل الذكـر أهل التـوراة والإنجيل. وقـيل: هم أهل العلم بأخبار مَن مـضـى من الأمم. وقال أبو زيد: هم أهل القرآن. والذكر هو القرآن. وهم العلماء بالقرآن.

أبو حيّان الأندلسي:

والظاهر أنّ "**أهل الذكر**" هم أحبار أهل الكتـابَين، وشهادتهم تقوم بها الحجّة.. فشهـادتهم لا مطعن فيها.. قال ابن عطيّة: لا يصلح أن يكون المسؤول أهل القرآن في ذلك الوقت، لأنّهم خصومهم. وقيل: أهل الذكـر هم أهل التوراة. وقـيل: أهل العلم بالسّـيَر وقَـصص الأمم البائدة والقرون السالفة، فإنّهم كانوا يفحصون عن هذه الأشياء.

وإذا كان أهل الذكر أُريد بهم اليهـود والنصارى، فإنّهم، لمّا بلغ خبرُهم حدَّ التواتر، جاز أن يُسألوا. ولا يقدح في ذلك كونهم كفّاراً.

(٧٧)

قال الكافرون: اتّخذ الرّحمن ولداً

وَقَالُوا: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. سُبْحَانَهُ! بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَه بالقَوْلِ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (سورة الأنبياء ٢١/٢٦-٢٧).

الطبري:

" **وَقَالوا** (أي: هؤلاء الكافرون بربّهم): **اتّخذَ الرّحمَنُ وَلَداً** (من ملائكته. فقال جلّ ثناؤه، استعظاماً ممّا قالوا وتبرّياً ممّا وصفوه به): **سُبْحانَه!** (أي: تنزيها له عن ذلك. ما ذلك من صفته)؛ **بل عِبَادٌ مُكْرَمُونَ** (أي: ما الملائكة، كما وصفهم به هؤلاء الكافرون، من بني آدم، ولكنّهم عباد مكرمون، أكرمهم اللّه.. وقالت اليهود: إنّ اللّه تبارك وتعالى صاهر الجنّ، فكانت منهم الملائكة. فقال اللّه تكذيباً لهم وردّاً عليهم: "بل عِبادٌ مُكرَمون"). **لا يَسْبِقُونَه بالقَوْلِ** (أي: لا يتكلّمون إلاّ بما يأمرهم به ربّهم، ولا يعملون عملاً إلاّ به). **وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ".

الرازي:

" **وَقَالوا** (أي: بنو خزاعة قالوا: الملائكة بنات اللّه، وأضافوا إلى ذلك أنّه تعالى صاهرَ الجِنَّ، على ما حكى اللّه عنهم فقال: "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً" (٣٧/١٥٨): **اتّخذَ الرّحمَنُ وَلَداً. سُبْحانَه!** (لأنّ الولد لا بدّ وأن يكون شبيهاً بالوالد. فلو كان للّه ولد لأشبهه من بعض الوجوه، ثمّ لا بدّ وأن يخالفه من وجه آخر. وما به المشاركة غير ما به المايزة. فيقع التركيب في ذات اللّه. وكلّ مركّب ممكن. فاتّخاذه للولد يدلّ على كونه ممكناً غير واجب، وذلك يُخرجه عن حدّ الإلهيّة، ويدخله في حدّ العبوديّة. ولذلك نزّه نفسَه عنه).

بل عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (والعبوديّة تنافي الولادة. إلاّ أنّهم مكرمون مفضلون على سائرالعباد). **لا يَسْبِقُونَه بالقَوْلِ** (أي يتبعونه في قوله، ولا يقولون شيئاً حتّى يقوله، فلا يسبق قولُهم قولَه، وكما أنّ قولهم تابع لقوله، فعملهم أيضاً كذلك مبنيّ على أمره، لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به. ولذلك قال): **وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**".

الطبرسي:

"**وَقَالُوا: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً**"، يعني: من الملائكة، الذين هم "**عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**" أي: ليسوا أولاد اللّه، كما يزعمون، بل هم عباد مكرمون أكرمهم اللّه واصطفاهم. "**لا يَسْبِقُونَه بالقَوْلِ**"، أي: لا يتكلّمون إلاّ بما يأمرهم به ربّهم. فكلّ أقوالهم طاعة لربّهم. "**وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**". ومن كان بهذه الصفة لا يوصف بأنّه ولد.

محمّد حسين فضل اللّه :

الادّعاء بأنّ للّه ولداً : إنّ التخلُّف في فهم الأمور هو المسؤول عن انحراف العقيدة، وإنّ الاستغراق في تضخيم الأشخاص من خلال ما يوحيه من تصوّرات، ويثيره من انفعالات هو الأساس في عبادة الشخصيّة، ولو بطريقة غير مباشرة، ممّا يفرض على العاملين الحذر في إثارة الحديث عن صفات العظماء في تقييم شخصيّتهم، وذلك باعتماد النظرة الموضوعيّة الهادئة، بعيداً عن النظرة الانفعاليّة الحادّة.

والولد يعني الحاجة، ويعني المحدوديّة، والجسميّة، تعالى اللّ عن ذلك علوّا كبيراً.

فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا (في الكلام إشكال ظاهر: لأنّه يدل على إحياء مريم؛ فـيما الحقـيقة، معناه أوّلاً: فنفـخنا الروح في عيسى فيـها، أي أحييناه في جوفها. وثانيـاً: فعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل، لأنّه نفخ في جيب درعها، فوصل النفخ إلى جوفها).

ثمّ بيّن تعـالى بأخصـر الكلام ما خصّ به مـريم وعيـسى من الآيات، فـقال: "**وَجَعَـلْنَاهَا وابْنَهَا آيَةً للعَـالَمِينَ**". أمّا مـريم فآياتـها كثيرة: **أحدها**: ظهور الحبل فيها لا من ذَكَـر، فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة. **وثانيها**: إنّ رزقَها كـان يأتيها به الملائكة من الجنّة (٣/٣٧). **وثالثهـا ورابعها**: قال الحسن: إنّهـا لم تلتقم ثدياً يوماً قط. وتكلّمت هي أيضاً في صباها، كما تكلّم عيسى.. وأمّا آيات عيسى فقد تقدّم بيانها..

فـإنْ قيل: هلاّ قـيل آيتَين، كـمـا قال: "وَجَـعَلْنَا اللَّيلَ والنَّهَـارَ آيَتَيْنِ" (١٧/١٢)؟ قلنا: لأنّ حـالَهما بمجـموعهمـا، آيةٌ واحدةٌ، وهي ولادتها إيّاه من غير فحل.

إبن عربي:

"**فَنَفَخْنَا فيها مِنْ رُوحِنَا**"، من تأثير روح القدس، بنفخ الحياة الحقيقيّـة، فولدت عيسى القلب، "**وَجَعَلْنَاهَا**" مع القلب علامة ظاهرة وهداية واضحة "**للعَالَمِيْنَ**" من القوى الروحانيّة والنفوس المستعدّة المستبصرة، يهديهم إلى الحقّ وإلى الصراط المستقيم.

(٨٠)

هو اللّه الذي يفصل بين الأديان كلّها

إنّ الّذين آمَنُوا، وَالّذينَ هَادُوا، وَالصَّابِئِينَ، وَالنَّصَارَى، وَالمَجُوسَ، وَالّذين أشْرَكُوا: إنّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَومَ القِيامَةِ. إنّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ (سورة الحج ١٧/٢٢).

الطبري :

يقول تعالى ذكره: **إنّ** (الفصل بين هؤلاء المنافقين): **الّذينَ آمَنُوا** (أي يعبدون اللّه على حرف والذين أشركوا باللّه فعبدوا الأوثان والأصنام)، **وَالّذينَ هَادُوا** (أي اليهود)، **وَالصَّابِئِينَ** (وهم طائفة من اليهود)، **وَالنَّصَارَى، وَالمَجُوسَ** (الذين عظّموا النيران وخدموها)، **وَالّذينَ أشْرَكُوا** (باللّه فعبدوا الأوثان والأصنام) : **إنّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَومَ القِيامَةِ** (بعدلٍ من القضاء وفصله بينهم: إدخاله النار الأحزاب كلّهم، والجنّة المؤمنين به وبرُسله. فذلك هو الفصل من اللّه بينهم). **إنّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ** (من عملهم) **شَهِيدٌ** (أي عالِم به).

عن قتادة قال: ألصابئون قوم يعبدون الملائكة، ويصلّون للقِبلة، ويقرأون الزبور؛ والمجوس يعبدون الشمس والقمر والنيران؛ والذين أشركوا يعبدون الأوثان. وألأديان ستّة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن.

الزمخشري:

"**إنّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ**" في الأحوال والأماكن جميعاً، فلا يجازيهم جزاءً واحداً بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد.

وقيل: ألأديان خمسة: أربعة للشيطان، وواحد للرّحمن. جعل الصابئين مع النصارى لأنّهم نوع منهم. وقيل: يفصل بينهم، أي: يقضي بينهم، أي: بين المؤمنين والكافرين.

الشوكاني:

"**والصابِئينَ**" قوم يعبدون النجوم. وقيل: هم من جنس النصارى. وليس ذلك بصحيح، بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملّة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء.

محمّد حسين فضل الله :

وَالصَّابِئِينَ الذين هم عبدة الكواكب من الوثنيّين، أو هم قومٌ متوسِّطون بين اليهوديّة والمجوسيّة. ولهم كتاب ينسبونه إلى يحيى ابن زكريّا النبيّ..

(٨١)

مريم وابنها آية من آيات الله

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ آيَةً. وآوَيْنَاهُمَا إلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (سورة المؤمنون ٢٣/ ٥٠).

الطبري:

" **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ** (أي عيسى) **وأُمَّهُ** (مريم) **آيَةً** (لم يقل آيتَين لأنّ الأية فيهما واحدة: ولادته من غير زواج). **وآوَيْنَاهُمَا إلَى رَبْوَةٍ** (أي: مكان مرتفع من الأرض على ما حوله.

واختلف أهل التأويل في المكان الذي وصفه اللّه بهذه الصفة، وآوى إليه مريم وابنَها. فقال بعضهم: هو الرملة من فلسطين.. وقال آخرون: هي دمشق.. وقال سعيد بن المسيب: ربوة من ربى مصر.. وقال آخرون: هي بيت المقدس.. وكان كعب يقول: بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً..

وأولى هذه الأقوال: إنّها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر؛ وليس كذلك صفة الرملة لأنّ الرملة لا ماء بها معين).

وقوله: "**ذَاتِ قَرَارٍ**" (أي: أنّها أرض منبسطة، وساحة، "**وَمَعِينٍ**" (أي وذات ماء ظاهر جارٍ تراه العين. عن ابن عبّاس قال: المَعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال اللّه "قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً" (١٩/ ٢٤).

الرازي:

" **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ آيَةً** "، (لأنّ نفس الإعجاز ظهر فيهما، لا أنّه ظهر على يدهما.. إنّه تعالى قال: " **آية** "، ولم يقل آيتَين.. وذلك هو أمْر الولادة لا المعجزات التي كان عيسى مستقلاً بها)..

الطبرسي:

" **وآوَيْنَاهُمَا إلَى رَبْوَة** " (قيل: الرملة من فلسطين، وقيل دمشق، قيل مصر، وقيل بيت المقدس، قيل حيرة الكوفة وسوادها. والقرار مسجد الكوفة. والمعين الفرات. والمعين: ماء جارٍ ظاهر العيون).

الآلوسي:

إعلم أنّ الذي أجمع عليه الإسلاميّون أنّه ليس لمريم ابنٌ سوى عيسى.. وزعم بعض النصارى، قاتلهم اللّه تعالى، أنّها، بعد أن ولدتْ عيسى، تزوّجتْ بيوسف النّجّار، وولدتْ منه ثلاثة أبناء. والمعتمد عليه عندهم أنّها كانت في حال الصغر خطيبة يوسف النّجّار، عقد عليها ولم يقربْها. ولمّا رأى حملَها بعيسى همّ بتخليتها، فرأى في المنام مَلَكاً أوقفه على حقيقة الحال. فلمّا ولدتْ بقيتْ عنده مع عيسى، فجعل يربّيه ويتعهّده مع أولاد له من زوجةٍ غيرها. فأمّا هي فلم يكن يقربها أصلاً. والمسلمون لا يسلّمون أنّها كانت معقوداً عليها ليوسف. ويسلّمون أنّها كانت خطيّبته، وأنّه تعهّدها وتعهّد عيسى. ويقولون: كان ذلك لقرابته منها.

محمّد حسين فضل اللّه :

رَبْوَة في فلسطين التي ولد فيها السيّد المسيح، **ذَاتِ قَرَارٍ** يستقرّ فيه الإنسان ويطمئنّ ويهدأ، **وَمَعِينٍ**، أي وماء جارٍ يرتوى منه.

(٨٢)

ليس لله من ولد، ولا إله آخر معه

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ. وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ. وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ! عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ. فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (سورة المؤمنون ٢٣/ ٩١-٩٢).

الطبري:

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ. وَمَا كانَ معهُ (أي: ما للّه من ولد، ولا كان معه في القديم، ولا حين ابتدع الأشيـاء، تصلح عباد ته، ولو كان معه في القديم، أو عند خلقه الأشـياء، مَن تصلح عبادته) **مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ** (أي لاعـتـزل كلُّ إلهٍ منهم) **بِمَـا خَلَقَ** (من شـيء، فـانفـرد به، ولَتغالَبوا)، **وَلَعَلاَ بَعْـضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** (وغلب القويّ منهم الضعيف، لأنّ القوي لا يرضى أن يعلوه ضعـيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً). فـ **سُـبْحَـانَ اللَّهِ عَـمَّـا يَصِفُـونَ** (أي: عـمّا يصـفـه به هؤلاء المشركون، من أنّ له ولداً، أو شـريكاً، أو أنّ معه في القدم إلهـاً يعبد). **عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ** (أي ما غاب وما شوهِد). **فَتَعَالَى** (اللّه وتعظّم) **عَمَّا يُشْرِكُونَـ** (ـه معه).

الرازي:

إعلم أنّه سبحانه ادّعى أمـرين: أحدهما قوله: **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ**، وهو كالتنبـيه على أنّ ذلك من قول هؤلاء الكفّار.. والثـاني قوله: "**وَمَا كَـانَ معـهُ مِنْ إِلَهٍ**"، وهو قـولهم باتّخاذ الأصنام آلهـة.. ثمّ إنّه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله: "**إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ. وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**"، (ألشرط محذوف وتقديره: ولو كان معه

آلهة، لَـذَهَبَ كلُّ إلهٍ بما خَلَق). والمعنى: لانفرد على ذلك كـلّ واحد من الآلهـة بخلقـه الذي خلقـه واستـبـدّ به، ولرأيتم مُلكَ كلٍّ واحـدٍ منهم متـميّزاً عن ملـك الآخر، ولَغلبَ بعضــهم على بعض، كمـا ترون حالَ ملوك الدنيا: ممالكهم متميّزة، وهم متغالبون...

أمّا قـوله: "سُـبْحَـانَ اللّهِ عَـمَّـا يَصِفُـونَ " (من إثبات الولد والشرك). **عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ** (أي: سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة. وغيرُه، وإنْ علم الشهـادة، فلن يعلم معها الغيب). **فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ".

الطبرسي:

أكّد سبحانه ما قـدّمه من أدلّة التوحيد بقوله: " **مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَدٍ** "، أي: لم يجعل ولدَ غـيرِه ولدَ نفسِه.. واتّخـاذ الولد هو أن يجعل الجاعل ولدَ غـيرِه يقوم مقـام ولده لو كان له. وكذلك التـبنّي إنّما هو جعل الجـاعل ابنَ غيره مَن يصحُّ أن يكونَ ابناً له مـقامَ ابنه. ولذلك لا يقال تبنّى شابٌ شيخاً، ولا تبنّى الإنسانُ بهيمةً، لَما استحال أن يكون ذلك ولداً له.

وَمَا كانَ مَـعهُ مِنْ إلَهٍ. إذاً (لو كان معـه إلهٌ آخر)، **لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ** (أي: لميّز كلّ إلهٍ خلْقَـه عن خلْقِ غيرِه)، " **وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** " (أي: لطلب بعـضـهم قهـرَ بعض ومغـالبتَـه، ولقاتل بعـضـهم بعضاً.. ولمنعَ بعضاً عن بعض. وهو مثل قوله: "لَوْ كانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاّ اللّهُ لَفَسَـدَتَا" (٢١/ ٢٢). وفـي هذا دلالة عـجـيـبـة في التـوحـيـد فـ" **سُبْحَانَ اللّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** " ، (أي: عمّـا يصفه به المشـركون من اتّخاذه الولد والشريك). **عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ** (أي: يعلم ما غاب وما

حضر. فلا يخفى عليه شيء)، **فَتَعَالَى** (اللّه) **عَمَّا يُشْرِكُونَ**" (أي أنّه عالـم بما كان، وبما سـيكون، وبما لم يكن، إنْ كان كـيف يكون. ومَن كـان بهـذه الصـفـة لا يكون له شـريك لأنّه الأعـلى من كلّ شيء في صفته)...

محمّد حسين فضل اللّه :

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وليس لهؤلاء الذين يعتقدون بمثل ذلك أيٌّ دليل.. ولكن هذا التفكيـر لا يخلو من السذاجة، فـإنّ البنوّة تمثّل نوعاً من أنواع المحـدوديّة والحـاجة الـتي يستـحـيل وجـودها في واجب الوجود، وهو الغنيّ عن عبـاده في كلّ شـيء، وليس هناك أيٌّ فراغٍ في ذاته لتسدّه مثل هذه الأمور.

وَمَـا كَانَ مَـعَـهُ مِنْ إِلَهٍ وليس لدى من يدّعـون ذلك أيّة حجّـة وبرهان عليه سوى تخيّلاتهم المرضـيّة المعقّدة التي توحي لهم ببعض الأخيلة الفـكريّة التي تنسجهـا نقاط الضـعف الشعوريّـة الناتجة عن رواسب تاريخيّة وبدائيّة، أو عن بعض الأفكار المتخلّفة التي تضخّم ما لا يملك أيّة ضـخامـة فـعليّة، وتمنح بعض الأشـخـاص أو التمـاثيل صفات وهميّة لا واقع لها.

(٨٣)

ليس لله ولدٌ ولا شريك

الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ. وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ. وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ. فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (س. الفرقان ٢٥/٢).

الطبري:

"**الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرضِ**" (أي: الذي له سلطان السموات والأرض، ينفذ في جميعها أمرَه وقضاءه، ويمضي في كلّ أحكامه. فحقّ على مَن كان كذلك أن يطيعه أهلُ مملكته، ومَن في سلطانه، ولا يعصوه.. واعلموا بما جاءكم به نذيري إليكم من الحق، وهو: "**وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً**" (وذلك، تكذيب لمن أضاف إليه الولد، أو قال: الملائكة بنات اللّه. ومَن أضاف إليه ولداً فقد كذّب وافترى على ربّه)، "**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ**" (وذلك أيضاً، تكذيب لمن كان يضيف الألوهة إلى الأصنام، ويعبدها من دون اللّه من مشركي العرب). **وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ. فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**" (أي: فسوّى كلّ ما خلق، وهيّأ لما يصلح له. فلا خلل فيه ولا تفاوت).

الزمخشري:

"**فَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ. فَقَدَّرَهُ تَقْدِيْراً**". المعنى أنّه أحدث كلّ شيء إحداثاً، مراعىً فيه التقدير والتسوية. فقدّره وهيّأه لِما يصلح له. مثاله أنّه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدّر المسوّى الذي تراه، فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة في بابَي الدين والدنيا. وكذلك كلّ حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدّرة بأمثلة الحكمة

والتدبير، فقدّره لأمرٍ ما، ومصلحة، مطابِقاً لِما قدِّر له، غير متجافٍ عنه.. والله لا يُحدث شيئاً لحكمته إلاّ على وجه التقدير من غير تفاوت.. وجعل له غاية ومنتهى، فقدّره للبقاء إلى أمَدٍ معلوم...

الرازي:

... سبحانه وصف ذاتَه بأربع أنواع من صفات الكبرياء:

أوّلها قوله: "**الّذي لَهُ مُلْكُ السّمَوات والأرضِ**". وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه، لأنّه لا طريق إلى إثباته إلاّ بواسطة احتياج أفعاله إليه. فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات، كالأمر الواجب، وقوله: "له ما في السّموات والأرضِ" (١١٦/٢)، إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيّتها وفي وجودها، وأنّه هو المتصرّف فيها كيف يشاء.

وثانيها، قوله: "**وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً**"، فبيّن سبحانه أنّه هو المعبود أبداً، ولا يصحّ أن يكون غيره معبوداً ووارثاً للملك عنه، فتكون هذه الصفة كالمؤكِّدة لقوله "تبارك"، ولقوله "الذي له ملك السموات والأرض". وهذا كالردّ على النّصارى.

وثالثها قوله: "**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ**". والمراد أنّه هو المنفرد بالإلهيّة. وإذا عَرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكلّ. ولا يبقى مشغول القلب إلاّ برحمته وإحسانه. وفيه الردّ على الثنويّة، والقائلين بعبدة النّجوم، والقائلين بعبادة الأوثان.

ورابعها قوله: "**وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**"، أي: أحدث كلّ شيء إحداثاً يراعي فيه التقدير والتسوية. فقدّره تقديراً وهيّأه لما يصلح له، مثاله أنّه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدّر المستوي الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في باب الدين والدنيا.

(٨٤)

أهل الكتاب آمنوا بالقرآن، وكانوا من قبله مسلمين

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِه، هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا: آمَنَّا بِهِ. إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (سورة القصص ٢٨/ ٥٢-٥٣).

الطبري:

الَّذِينَ آتَيناهُمُ الكتابَ مِن قَبْلِه، هم بِهِ يؤمِنونَ يعني بذلك تعالى ذكرُه قوماً من أهل الكتاب آمنوا برسوله وصدّقوه. فقال الذين آتيناهم الكتابَ من قبْلِ هذا القرآن، هم بهذا القرآن يؤمنون، فيقرّون أنّه حقّ من عند اللّه، ويكذّب جهلةُ الأمّيّين، الذين لم يأتهم من اللّه الكتاب.

عن قتادة قال: كنّا نحدّث أنّها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحقّ، يأخذون بها، وينتهون إليها، حتّى بعث اللّه محمّداً، فآمنوا به، وصدّقوا به، فأعطاهم اللّه أجرَهم مرّتَين، بصبرهم على الكتاب الأوّل، واتّباعهم محمّداً، وصبرهم على ذلك. وذُكر أنّ منهم سَلمان، وعبد اللّه بن سلام.

"**وَإِذَا يُتْلَى**" هذا القرآن "**عَلَيْهِمْ**"، أي على الذين آتيناهم الكتاب من قبل نزول هذا القرآن، "**قَالُوا: آمَنَّا بِهِ**"، أي صدّقنا به. "**إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا**"، يعني من عند ربّنا نزل. "**إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ**"، أي من قبل نزول هذا القرآن، "**مُسْلِمِينَ**"، وذلك أنّهم كانوا مؤمنين بما

جاء به الأنبياء قبل مجيء نبيّنا محمّد، وعليهم من الكتب، وفي كتبهم صفة محمّد ونعته، فكانوا به وبمبعثه وبكتابه مصدّقين قبل نزول القرآن. فلذلك قالوا: "إنّا كُنّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ".

القرطبي:

"**الّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ مِن قَبْله، هم بِهِ يؤمِنونَ**". أخبر أنّ قوماً ممّن أُوتوا الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن، كعبدالله بن سلام وسلمان. ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة: إثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمّة النصارى. منهم: بحيراء الراهب، وأبرهة، والأشرف، وعامر، وأيمن، وإدريس، ونافع...

وإذا يُتلَى عليهِمْ قالوا: آمَنّا بِه. إنّه الحقّ مِن رَبِّنا. إنّا كُنّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ، أي من قبل نزول القرآن، أو من قبل بعثة محمّد، مسلمين، أي موحِّدين، أو مؤمنين بأنّه سيُبعث محمّد ويُنزَل عليه القرآن.

إبن كثير:

"**الّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ مِن قَبْله، هم بِهِ يؤمِنونَ.** يُخبر تعالى عن العلماء والأولياء من أهل الكتاب أنّهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: "الّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَه حقَّ تِلاوتِهِ. أولئكَ يُؤمِنُونَ بِه. ومَنْ يَكْفُرْ بِهِ فأولئكَ هُمُ الخَاسِرون" (٢/ ١٢١)؛ وقال تعالى: "وإنَّ مِنْ أهلِ الكتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ باللّهِ ومَا أُنْزِلَ إليكُمْ وما أُنْزِلَ إليهِمْ خاشِعِينَ لِلّهِ، لا يَشْتَرُونَ بآياتِ اللّهِ ثَمَناً قَليلاً. أولئكَ لهُمْ أجْرُهُمْ عندَ

ربِّهِمْ. إنّ اللّهَ سريعُ الحِسابِ" (٣/ ١٩٩)؛ وقال تعالي: "قُلْ آمِنُو بهِ، أو لا تُؤْمِنُوا إنّ الّذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِه، إذا يُتْلَى عليهِمْ يَخِرّونَ للأذْقانِ سُجَّداً. ويقولونَ: سبحانَ ربِّنا إنْ كانَ وَعدُ ربِّنا لَمَفْعُولاً" (١٧/ ١٠٧-١٠٨)؛ وقال تعالي: "لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النّاس عَدَاوةً للّذينَ آمَنُوا الذينَ أشركوا. ولَتَجِدَنَّ أقرَبَهمْ مَوَدَّةً للّذينَ آمَنوا الذينَ قالوا إنّا نصارى، ذلك بأنّ منهم قِسّيسينَ ورُهباناً، وأنّهمْ لا يَستكْبِرونَ. وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلى الرّسولِ تَرى أعيُنَهمْ تَفيضُ من الدَّمْعِ ممّا عَرَفُوا منَ الحقِّ. يقولون: رَبَّنا آمَنّا فاكْتُبْنا مع الشاهدين" (٥/ ٨٢-٨٣).

"**مُسْلِمينَ**"، أي موحِّدين مخلصين للّه، مستجيبين له.

الألوسي:

الّذينَ آتَينَاهُمُ الكتابَ مِن قَبْلِه، أي من قبل نزول القرآن **هم بهِ يؤمِنونَ. وإذا يُتلَى عليهمْ قالوا: آمَنّا بهِ. إنّه الحقّ من رَبِّنا. إنّا كُنّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمينَ**. بيان لكون إيمانهم به أمراً متقادم العهد لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدّمة وأنّهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن ويكفي في كونهم على دين الإسلام قبل نزوله إيمانهم به إجمالاً.

وفي **الكشّاف** و**البحر** أنّ الإسلام صفة كلّ موحّد مصدِّق بالوحي. والظاهر عليه أنّ الإسلام ليس من خصوصيّات هذه الأمّة من بين الأمم.

وذهب **السيوطي**، عليه الرحمة، إلى كونه من الخصوصيّات، وألّف في ذلك كرّاسة، وقال في ذيلها: لمّا فرغتُ من تأليف هذه الكرّاسة واضطجعتُ على الفراش للنوم، وردَ عليّ قولُه تعالى:

"**الّذينَ آتَينَاهُمُ الكتابَ مِن قَبْلِه**" (الآية)، فكأنّما ألقي عليّ جبلٌ لِما أنّ ظاهرها الدلالة للقول بعدم الخصوصيّة. وقد أفكرت فيها ساعة، ولم يتّجه لي فيها شيء. فلجأتُ إلى اللّه تعالى، ورجوتُ أن يُفتح بالجواب عنها. فلمّا استيقظتُ وقتَ السحر، إذا بالجواب قد فُتح، فظهر عنها ثلاثة أجوبة:

الأوّل: أنّ "**مسلمين**" إسم فاعل، مراد به الاستقبال، كما هو حقيقة فيه دون الحال والماضي والتمسّك بالحقيقة هو الأصل. وتقدير الآية: إنّا كنّا من قبْل مجيئه عازمين على الإسلام به، إذا جاء، لما كنّا نجده في كتبنا من بعثه ووصفه. ويرشّح هذا أنّ السياق يُرشد إلى أنّ قصدَهم الأخبار بحقّيّة القرآن، وأنّهم كانوا على قصد الإسلام به، إذا جاء به النّبي، وليس قصدهم الثناء على أنفسهم في حدّ ذاتهم بأنّهم كانوا بصفة الإسلام أولاً لنبوّ المقام عنه، كما لا يخفى.

الثاني: أن يقدر في الآية: إنّا كنّا من قبله مسلمين به. فوصْف الإسلام سببه القرآن لا التوراة والإنجيل. ويرشّح ذلك ذكرُ الصلة فيما قبل، حيث قال سبحانه: "همْ بهِ يُؤمنون". فإنّه يدلّ على أنّ الصلة مرادة هنا أيضاً إلاّ أنّها حذفت كراهة التكرار.

الثالث: أنّ هذا الوصف منهم بناء على ما هو مذهب الأشعري من أنّ من كتب اللّه تعالى أن يموت مؤمناً فهو يسمّى عنده تعالى مؤمناً، ولو كان في حال الكفر. وإنّما لم نطلق نحن هذا الوصف عليه لعدم علمنا بما عنده تعالى. فهؤلاء ، لّما ختم اللّه تعالى لهم بالدخول في الإسلام، أخبروا عن أنفسهم أنّهم كانوا متّصفين به قبل؛ لأنّ العبرة في هذا الوصف بالخاتمة. ووصْفهم بذلك أولى من وصف

الكافر الذي يعلم اللّه أنّه يموت على الإسلام به لأنّهم كانوا على دين حقّ. وهذا معنى دقيق استفدناه في هذه الآية من قواعد علم الكلام".

ولا يخفى ضعف هذا الجواب، وكذا الجواب الأوّل. وأمّا الجواب الثاني فهو بمعنى ما ذكرناه في الآية. وقد ذكره البيضاوي وغيره، وجوّز أن يراد بالإسلام الانقياد، أي إنّا كنّا قبل نزوله منقادين لأحكام اللّه تعالى، الناطق بها كتابه المنزل إلينا، ومنها وجوب الإيمان به، فنحن مؤمنون به قبل نزوله.

سيّد قطب:

قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسّيسين بعثهم النجاشي. فلمّا قدموا إلى النّبي قرأ عليهم: "**يس. والقُرآنِ الحكيمِ**" حتّى ختمها، فجعلوا يبكون. وأسلموا. ونزلتْ فيهم هذه الآية الأخرى: "**الّذينَ آتَينَاهُمُ الكتابَ مِن قَبْلِه، هم بِهِ يؤمِنونَ. وإذا يُتلَى عليهِمْ قالوا: آمَنّا بِهِ. إنّه الحقُّ من رَبِّنا. إنّا كُنّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمينَ**".

وروى محمّد بن إسحق في السيرة: "ثمّ قدِم على رسول اللّه، وهو بمكّة، عشرون رجلاً، أو قريباً من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلّموه، وسألوه، ورجالٌ من قريش في أنديتهم، حول الكعبة. فلمّا فرغوا من مساءلة النّبي عمّا أرادوا، دعاهم إلى اللّه تعالى، وتلا عليهم القرآن. فلمّا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع. ثمّ استجابوا للّه، وآمنوا به، وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلمّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام، في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيّبكم اللّه من ركب! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم

ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتّى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؟ ما نعلم ركباً أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً".

ويقال: إنّ النفر النصارى من أهل نجران.

وقال الزهري: ما زلت أسمع من علمائنا أنّهنّ نزلن في النجاشي وأصحابه..

"**الّذينَ آتَيناهُمُ الكتابَ مِن قَبْلِه**". هذه إحدى الآيات على صحّة القرآن. فهو كلّه من عند اللّه، فهو متطابق. مَن أُوتي أوّله عرف الحق في آخره، فاطمأنّ له، وآمن به، وعلم أنّه من عند اللّه الذي نزّل الكتاب كلّه.

"**وإذا يُتلَى عليهِمْ قالوا: آمَنّا بهِ. إنّه الحقُّ من رَبِّنا. إنّا كُنّا مِن قَبْلِه مُسْلِمينَ**". فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته، فيعرف الذين عرفوا الحقّ من قبل أنّه من ذلك المعين، وأنّه صادر من ذلك المصدر الواحد الذي لا يكذب. "إنّه الحَقُّ من ربِّنا".. "إنّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمين". والإسلام للّه هو دين المؤمنين بكلّ دين.

(٨٥)

أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن

ولا تُجَادِلُوا أهلَ الـكتَابِ إلاّ بالّتي هِيَ أحْسَنُ، إلاّ الـذينَ ظَلَمُوا منْهُمْ. وَقُولُوا: آمَنّا بالّذي أُنْزِلَ إليْنَا وأُنْزِلَ إليكُمْ، وإلَهُنَا وإلهُكُمْ وَاحِدٌ. وَنَحْنُ لهُ مُسْلِمُـونَ. وَكَذَلكَ أنْزَلْنَا إليكَ الكتَابَ. فـالّذينَ آتَيناهُمُ الكتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. ومِنْ هَؤلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ. وَمَـا يَجْحَدُ بآيـاتِنَا إلاّ الكَافِرُونَ (سورة العنكبوت ٢٩/٤٦-٤٧).

الطبري:

"**ولا تُجَـادِلُوا**" أيّهـا المؤمنون باللّه وبـرسـوله، أليـهـود والنصارى، وهم "**أهل الكتَابِ إلاّ بالّتي هيَ أحْسَنُ**" أي: إلاّ بالجميل من القول، وهو الدعاء إلى اللّه بآياته، والتنبيه على حُججه.

وقـوله: "**إلاّ الّذينَ ظَلَمُـوا مِنْهُم**". إخـتلف أهل الـتـأويل في تأويله، فـقـال بعـضـهـم: معناه: إلاّ الّـذين أَبَوا أن يُقـرّوا لكم بإعطاء الجزية، ونصبـوا دون ذلك لكم حرباً، فإنّهم ظَلَمة. فـأولئك جادلوهم بالسيف حتّى يُسلموا، أو يُعطوا الجزية.

وقال آخـرون: معنى ذلك: الذينَ قـد آمنوا به، واتّبعـوا رسوله فيـما أخـبروكم عنه ممّـا في كتبـهم "**إلاّ بالّتي هيَ أحْسَنُ، إلاّ الّذينَ ظَلَموا مِنْهُم**"، فأقاموا على كفرهم، وقالوا: هذه الآية مُحْكمة، وليست بمنسوخة. عن ابن زيد قـال: لا ينبغي أن تجادل مَن آمن منهم، لعلّهم يُحسنون شيئاً في كتـاب اللّه، لا تعلمه أنت. فلا تجادله، ولا ينبغي أن

تجادل إلاّ الّذين ظلموا، المُقيم منهـم على دينه. فقال: هو الذي يُجادَل، ويُقال له بالسيف. قال: وهؤلاء يهـود. قال: ولم يكن بدار الهجرة من النصارى أحد، إنّما كانوا يهـوداً هم الذين كلّموا وحالفوا رسول اللّه، وغدرت النضير يوم أُحُد، وغدرت قُريظة يوم الأحزاب.

وقال آخـرون: بل نزلت هذه الآية قبل أن يؤمَر النّبي بالقـتال. وقالوا: هي منسوخة، نسخَها قولُه: " قاتلوا الّذين لا يُؤمنون باللّهِ ولا باليومِ الآخِرِ " (٩/ ٢٩). قال قتادة: " ولا مجادلة أشدّ من السيف " .

يقول الطبري: وأُولى هذه الأقوال بالصواب، أي: الّذين امتنعوا من أداء الجزية، ونصبوا دونها الحرب.

يقـول تعالـى ذكرُه للمـؤمنين به وبرسـوله، الذين نهـاهم أن يجادلـوا أهلَ الكتاب إلاّ بالتي هي أحـسن: إذا حدّثكم أهلُ الكتـاب عن كتبِهم، وأخبروكم عنها بما يمكن ويجوز أن يكونوا فيه صادقين، وأن يكونوا فيه كـاذبين، ولم تعلموا أمرهم وحالهم في ذلـك، فقولوا لهم: " **آمَنَّا بالّذي أُنْزِلَ إليـنا وأُنْزِلَ إليكُمْ** " ، ممّا في التـوراة والإنجـيل، " **وإلَهُنا وإلهُكم واحد** " ، أي: ومعبودنا ومـعبودكم واحد. " **ونحنُ لهُ مُسْلِمُون** " ، أي خاضعون متذلّلون بالطاعة فيما أمرَنا ونهانا.

عن عبداللّـه بن مسعود قال: لا تسـألوا أهلَ الكتاب عن شـيء، فإنّهم لن يهدوكم وقد ضلّوا. إمّـا أن تكذبوا بحقّ، أو تصدقوا بباطل، فـإنّه ليس أحـد من أهل الكتـاب إلاّ وفي قلبـه تاليـة تدعـوه إلى دينه كتالية المال.

وعن مجاهد قال: " **الّذِينَ ظَلَمُوا** " ، هم الذين قالوا: مع اللّه إله، أو له ولد، أو له شريك، أو يدُ اللّه مغلولة، أو اللّه فقير، أو آذُوا محمّداً.

" **وكذلكَ أنزَلْنا إليكَ الكتابَ. فالّذينَ آتَينَاهُمُ الكتابَ يُؤْمِنونَ بِهِ. ومِنْ هؤلاءِ مَن يُؤمِنُ بِهِ** ". يعني: كما أنزلنا الكتب على مَن قبلك، يا محمّد، من الرسل، كذلكَ أنْزَلْنا إليكَ هذا الكتابَ. فالّذينَ آتينَاهُمُ الكتابَ من قبلك من بني إسرائيل، يُؤْمِنونَ بِهِ. ومِنْ هؤلاءِ مَن يُؤمِنُ بِهِ؛ أي: ومن هؤلاء الذين هم بين ظهرانيك اليوم مَن يؤمن به كعبدالله بن سلام، ومن آمن برسوله من بني إسرائيل.

وقوله: " **وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلاّ الكافِرُونَ** "، أي: وما يجحد بأدلّتنا وحججنا إلاّ الذي يجحد نعمنا عليه، وينكر توحيدَنا وربوبيّتنا على علمٍ منه عناداً لنا.. عن قتادة قال: إنّما يكون الجحود بعد المعرفة.

الزمخشري:

" **إلاّ بالّتي هيَ أحْسَنُ** "، وهي مقابلة الخشونة باللّين، والغضب بالكظم، والسَّورة بالأناة، " **إلاّ الّذينَ ظَلَموا** " فأفرطوا في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النّصح، ولم ينفع فيهم الرفق،فاستعملوا معهم الغلظة. وقيل: إلاّ الذين آذوا رسولَ اللّه. وقيل: إلاّ الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد اللّه مغلولة. وقيل: معناه: ولا تجادلوا الداخلين في الذمّة، المؤدّين للجزية، إلاّ بالتي هي أحسن، إلاّ الذين ظلموا، فنبذوا الذمّة، ومنعوا الجزية. فإنّ أولئك مجادلتهم بالسيف.. " **وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلاّ الكافِرُونَ** "، أي المتوغّلون في الكفر المصمّمون عليه.

الطبرسي:

" **ولا تُجَادِلُوا أهْلَ الكتَابِ** "، وهم نصارى نجران. وقيل: اليهود والنصارى. " **إلاّ بالّتِي هِيَ أحْسَنُ** "، أي بالطريق التي هي

أحسن. وإنّما يكون "أحسن" إذا كانت المناظرة برفق ولين لإرادة الخير والنفع بها. ومثله قوله: "**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى**" (٢٠/٤٤).

"**ونحنُ لهُ مُسْلِمُونَ**"، أي مخلصون طائعون.

الخازن:

"**ولا تُجَادِلُوا أهلَ الكتابِ**"، أي: ولا تخاصموهم "**إلاّ بالّتي هيَ أحْسَنُ**"، أي القرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه. وأراد بهم مَنْ قَبِل الجزية منهم. "**إلاّ الّذينَ ظَلَموا مِنْهُمْ**"، يعني: أبَوا أن يعطوا الجزية، ونصبوا الحرب، فافجئوهم بالسيف حتّى يُسلموا، أو يعطوا الجزية. "**وقولوا**"، أي: للذين قبلوا الجزية، إذا حدّثوكم بشيء ممّا في كتبكم: "**آمَنّا بالّذي أُنْزِلَ إلينا وأُنْزِلَ إليكُمْ، وإلَهُنا وإلهُكم واحدٌ. ونحنُ لهُ مُسلِمُونَ... ومِنْ هؤلاءِ**"، يعني: أهل مكّة، "**مَن يُؤمِنُ بِهِ. وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلاّ الكَافِرُونَ**". وذلك أنّ اليهود عرفوا أنّ رسول الله نبيّ، والقرآن حقّ، فجحدوا.

القرطبي:

"**إلاّ الّذينَ ظَلَموا**"، أي: جعلوا لله ولداً، وقالوا: "يدُ الله مغلولة" (٥/٦٤)، و "إنّ اللّهَ فَقِيرٌ" (٣/١٨١). فهؤلاء المشركون الذين نصبوا الحرب ولم يؤدّوا الجزية، فانتصروا.

إبن كثير:

عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانيّة ويفسّرونها بالعربيّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله: "لا

تصــدّقـوا أهلَ الكتــاب ولا تكذّبوهـم. "**وَقُـولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلينا وأُنْزِلَ إِليكُمْ، وإِلَهُنا وإِلهُكم واحدٌ. ونحنُ لهُ مُسْلِمُونَ**".. وهذ الحديث تفرّد به البخاري.

عن الزهري قال: "ليعلـم أنّ أكثر ما يتحـدّثون به (أي اليهود) غالبه كذب وبهتان، لأنّه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل. وما أقلّ الصدق فيه. ثمّ ما أقلّ فائدة كثيرٍ منه لو كان صحيحاً".

عن ابن عـبّاس، جاء في الـبخاري: قـال: "كيف تسـألون أهلَ الكتـاب عن شـيء وكتـابكم الذي أنزل إليكـم على رسول اللّه أحـدث، تقرؤونه مـحضاً لم يشب، وقـد حدّثكم أنّ أهل الكتاب بدّلوا وغـيّروا وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقـالوا هو من عند اللّه ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم مـا جاءكم من العلم عن مـسألتهم؟ لا واللّهِ، مـا رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم...

سيّد قطب:

"**الذين ظلموا منهم**" فانحرفـوا عن التوحيد الـذي هو قاعدة العقيدة الباقية؛ وأشركـوا باللّه، وأخلّوا بمنهجه في الحياة. فهؤلاء لا جدال مـعهم ولا محـاسنة. وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسـلام عندما قامت له دولة في المدينة.

وإنّ بعضـهم لَيـفتري على رسول اللّه أنّه حـاسَنَ أهلَ الكتاب، وهو في مكّة، مطاردٌ من المشركين. فلمّـا أن صـارتْ له قوّةٌ في المدينة، حاربهم، مـخالفاً كلّ ما قـاله فيهم، وهو في مكّة! وهو افـتراء ظاهر، يشـهد هذا النصّ المكّي عليه. فمجـادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على مَن لم يـظلم منهم، ولم ينحـرف عن ديـن اللّه، وعن التـوحـيـد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات.

(٨٦)

أخذ الله من النّبيّين ميثاقاً غليظاً

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (سورة الأحزاب ٣٣/٧).

الطبري:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ. يقول تعالى ذكرُه: كان ذلك في الكتاب مسطوراً. إذْ كتبنا كلّ ما هو كائن في الكتاب. ويعني بالميثاق: ألعهد. "**وَمِنكَ**"، يا محمّد، "**وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا**". يقول: وأخذنا من جميعهم عهداً مؤكّداً أن يصدق بعضهم بعضاً. وعن سبب ذكر محمّد قبل النّبيّين، ما جاء عن قتادة: قال رسول اللّه : "كنت أوّلَ الأنبياء في الخلق وآخرَهم في البعث"

إبن عربي:

"**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ**"، وخصوصاً الخمسة المذكورة، لاختصاصهم بمزيد المرتبة والفضيلة ميثاق التوحيد، والتكميل، والهداية بالتبليغ عند الفطرة، وهو الميثاق الغليظ المضاعف بالكمال والتكميل.. وقدّم في الاختصاص بالذكر نبيّنا عليه السلام لتقدّمه على الباقين في الرتبة والشرف.

(٨٧)

اللّه لا ولد له

لَوْ أَرَادَ اللّهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشَاءُ. سُبْحَانَه! هُوَ اللّهُ الواحِدُ القَهّارُ (سورة الزّمر ٣٩/ ٤).

الطبري :

لَوْ أَرَادَ اللّهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (كما قالوا: "اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً" (٢١/ ٢٦) -ولا ينبغي له ذلك-)، **لاصْطَفَى مِمّا يَخْلُقُ ما يَشَاء** (أي لكان اتّخذ ولداً غيرَ مَن قالوا). **سُبْحَانَه!** (أي: تنزيهاً للّه عن أن يكون له ولد، وعمّا أضاف إليه المشركون)، **هُوَ اللّهُ** (الذي يعبده كلّ شيء. ولوكان له ولد لم يكن له عبداً. فالأشياء كلّها له مِلْك، فأنّى يكون له ولد!)، وَ**هُوَ الوَاحِدُ** (الذي لا شريك له في مُلكه وسلطانه)، **القَهّارُ** (لخلقه بقدرته. فكلّ شيء له متذلّل، ومن سطوته خاشع).

الزمخشري:

"لَوْ أرَادَ اللّهُ أن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمّا يَخْلُقُ ما يَشاء".

يعني: لو أراد اتّخاذ الولد لامتنع. ولم يصحْ لكونه محالاً. ولم يتأتَّ إلاّ أن يصطفي من خلقه بعضه، ويختصّهم ويقرّبهم، كما يختصّ الرجل ولده ويقرّبه. وقد فعل ذلك الملائكة فافْتُتِنْتُم به، وغرّكم اختصاصُه إيّاهم، فزعمتم أنّهم أولاده، جهلاً منكم به وبحقيقته.. كأنّه قال: لو أراد اتّخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه، وهم الملائكة. إلاّ أنّكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم

اتّخاذهم أولاداً، ثمّ تماديتم في جهلكم وسفهكم، فجعلتموهم بنات، فكنتم كذّابين، كفّارين، متبالغين في الافتراء على اللّه وملائكته، غالين في الكفر. ثمّ قال: **سُبْحَانَه**. فنزّه ذاتَه عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء.

الرازي:

ألمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزَّهاً عن الولد. وبيانه من وجوه: **ألأوّل:** إنّه لو اتّخذ ولداً لَمَا رضي إلاّ بأكمل الأولاد، وهو الابن، فكيف نسبتم إليه البنت؟! **ألثاني:** إنّه سبحانه واحد حقيقي، والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد..

إبن كثير:

"**لَوْ أَرَادَ اللّهُ أن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ**"، أي: لَكانَ الأمرُ على خلاف ما يزعمون. وهذا شرط لا يلزم وقوعُه ولا جوازه؛ بل هو محال، وإنّما قصدَ تجهيلَهم فيما ادّعوه وزعموه... كلّ هذا من باب الشرط. ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلّم.

"**سُبْحَانَه هُوَ اللّهُ الواحِدُ القَهّارُ**". أي: تعالى وتنزّه وتقدّس عن أن يكون له ولدٌ فإنّه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كلّ شيء عبدٌ لديه فقيرٌ إليه. وهو الغنيّ عمّا سواه الذي قد قهر الأشياء، فدانت له وذلّتْ وخضعتْ تبارك وتعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون عُلُوّاً كَبِيراً.

(٨٨)

دين واحد لجميع الأنبياء

شَرَعَ لكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً، وَالَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. كَبُرَ على المُشْرِكِينَ مَا تَدعُوهُمْ إليهِ. اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهدِي إِلَيهِ مَنْ يُنِيبُ (سورة الشورى ٤٢/ ١٣).

الطبري :

شَرَعَ لكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً (وهو أوّل مَن نزل عليه شريعة)، **وَالَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيكَ** (في القرآن)، **وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ** (في الصحف العشر)، **وَمُوسَى** (في التوراة) **وَعِيسَى** (في الإنجيل) : **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** (كلّ هذا الذي أوحينا به إلى هؤلاء الأنبياء دينٌ واحدٌ للجميع. وهو دين يجمع بينهم ولا يفرّق واحداً عن واحد). **كَبُرَ** (أي عظم) **على المُشْرِكِينَ مَا تَدعُوهُمْ إليهِ** (من الدين الواحد). **اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيهِ** (أي: إلى دينه) **مَنْ يَشَاءُ وَيَهدِي إِلَيهِ مَنْ يُنِيبُ** (أي يُقبِل إلى طاعته).

الرازي:

ألمعنى: شرع اللّهُ لكم، يا أصحابَ محمّد، من الدّين ما وصّى به نوحاً ومحمّداً وإبراهيم وموسى وعيسى.. وخصّ هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر، لأنّهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة. إلاّ أنّه بقي في لفظ الآية إشكالات:

أحدها: إنّه قال في أوّل الآية "ما وصّى به نوحاً"، وفي آخرها: "وما وصّينا به إبراهيم"، وفي الوسط: "والذي أوحينا إليك". فما الفائدة في هذا التفاوت؟

وثانيها: إنّه ذكر نوحاً على سبيل الغيبة، فقال: "ما وصّى به نوحاً"، والقسمين الباقيين على سبيل التكلّم، فقال: "والذي أوحينا إليك، وما وصّينا به إبراهيم"؟!

وثالثها: إنّه يصير تقدير الآية: شرع اللّهُ لكم من الدين الذي أوحينا إليك؛ فقوله: "شرع لكم" خطاب الغيبة؛ وقوله: "والذي أوحينا إليك" خطاب الحضور. فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد. وهو مشكل...

وبالجملة، فالمقصود من الآية أنّه يقال: شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحّته. وأقول: يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام. وذلك لأنّها مختلفة متفاوتة. قال تعالى: "لِكلٍّ جَعَلْنا منكم شِرعَةً ومِنْهاجاً" (٤٨/٥)، فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهي الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخِر؛ والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، والسعي في مكارم الأخلاق، والاحتراز عن رذائل الأحوال.

ويجوز عندي أن يكون المراد من قوله: "**وَلا تَتَفَرَّقوا**"، أي: لا تتفرّقوا بالآلهة الكثيرة، كما قال يوسف: "أأَرْبابٌ مُتَفَرِّقون خيرٌ أمِ اللّهُ الواحدُ القَهّار؟!" (٣٩/١٢).

"**كَبُرَ على المُشرِكينَ**" أي: عظم عليهم، وشقّ عليهم، "**ما تَدعوهم إليه**"، من إقامة دين اللّه على سبيل الاتّفاق والإجماع، بدليل

أنّ الكفّار قالوا: "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً! إنّ هذا لَشَيءٌ عُجَابٌ" (٣٨/ ٥٠). وههنا مسائل:

المسألة الأولى: احتجّ نفاة القياس بهذه الآية فقالوا...: إنّ فتح باب القياس يُفضي إلى أعظم أنواع التفرّق والمنازعة. فإنّ الحسّ شاهدٌ بأنّ هؤلاء الذين بنوا دينهم على الأخذ بالقياس تفرّقوا تفرّقاً لا رجاء في حصول الاتّفاق بينهم إلى آخر القيامة. فوجب أن يكون ذلك محرّماً ممنوعاً عنه.

المسألة الثانية: هذه الاية تدلّ على أنّ هذه الشرائع قسمان: منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء؛ ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان...

المسألة الثالثة: قوله تعالى: "**أنْ أقِيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيهِ**" مشعرٌ بأنّ حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل. وبيان منفعته من وجوه: **الأوّل**: إنّ للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحدٍ قَوِيَ التأثير. **الثاني**: إنّها، إذا توافقت، صار كلّ واحد منها مُعيناً للآخر.. أمّا إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفتْ، فلا يحصل المقصود. **الثالث**: إنّ حصول التنازع ضدّ مصلحة العالَم، لأنّ ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب. فلهذا السبب أمرَ اللّهُ تعالى في هذه الاية بإقامة الدّين على وجهٍ لا يفضي إلى التفرّق. وقال في آية أخرى: "**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا**" (٨/ ٤٦).

ثمّ قال تعالى: "**اللّهُ يَجْتَبي إليه مَن يشاءُ**". أي: إنّ اللّه بيّن أنّه يخصّ مَن يشاء بالرسالة، ويلزم الانقياد لهم، ولا يعتبر الحسب

والنسب والغنى. بل الكلّ سَواء في أنّه يُلزمهم اتّباع الرسل الذين اجتباهم اللّه. "**ويَهدي إليه مَن يُنيب**"، أي: كما روي في الخبر: "مَن تقرّبَ منّي شِبراً تقرّبتُ منه ذراعاً. ومَن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً"، أي: مَن أقبل إليّ بطاعته أقبلتُ إليه بهدايتي وإرشادي بأنْ أشرحَ له صدرَه وأسهّلَ أمرَه.

إبن عربي:

"**شَرَعَ لكُمْ منَ الدِّينِ**" المطلق الذي وصّى جميعَ الأنبياء بإقامته، واجتماعهم عليه، وعدم تفرّقهم فيه، وهو أصل الدين، أي: التوحيد والعدل وعلم المعاد..، دون فروع الشرائع التي اختلفوا فيها بحسب المصالح..، كما قال تعالى: "لكلٍّ جَعَلْنا منكم شِرعَةً ومِنْهاجاً" (٥/٤٨). فالدِّين القيّم هو المتعلّق بما لا يتغيّر من العلوم والأعمال؛ والشريعة هي المتعلّقة بما يتغيّر من القواعد والأوضاع.

الآلوسي:

... قال الحافظ أبو بكر بن العربي: لم يكن مع آدم إلاّ بنوه. ولم يُفرض له الفرائض، ولا شرعت له المحارم، وإنّما كان منبَّهاً على بعض الأمور، مقتصراً على بعض ضروريّات المعاش. واستمرّ الأمر إلى نوح، فبعثه اللّه بتحريم الأمّهات والبنات، ووظف عليه الواجبات، وأوضح له الأدب في الديانات. ولم يزل ذلك يتأكّد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء، واحداً بعد واحد، وشريعةً إثر شريعة، حتّى ختمه سبحانَه بخير الملل على لسان أكرم الرسل.

فمعنى الآية: شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ديناً واحداً في الأصول، وهي: التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج،

والتقرّب بصالح الأعمال، والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وتحريم الكبر، والزنا، والإيذاء للخلق، والاعتداء على الحيوان، واقتحام الدناءات، وما يعود بحرم المروءات. فهذا كلّه مشرعٌ ديناً واحداً، وملّةً واحدةً، لم يختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفتْ أعدادُهم.

(٨٩)

ما تفرّق أهل الكتاب إلاّ من بعد ما جاء محمّد بالقرآن

وَمَا تَفَرَّقُوا إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ. وَلَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إلَى أجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ. وَإنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ. فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ. وَلا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ. وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ، وأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَينَكمُ. اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ. لَنَا أعْمَالُنَا وَلَكُمْ أعْمَالُكُمْ. لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ. اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا. وَإلَيهِ المَصِيرُ (س. الشورى ٤٢/ ١٤-١٥).

الطبري:

"**وما تَفَرَّقُوا**"، أي المشركون باللّه في أديانهم فصاروا أحزاباً. "**إلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْم**"، بأنّ الذي أمرهم اللّهُ به، وبعث به نوحاً، هو إقامة الدين الحقّ، وأنْ لا تتفرّقوا فيه.

"**بَغْياً بينَهم**"، أي: بَغياً من بعضكم على بعض حسداً وعداوة على طلب الدنيا. "**ولولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ من ربِّكَ إلى أجَلٍ مُسَمًّى**"، أي: ولولا قولٌ سبق، يا محمّد، من ربِّك، لا يعاجلهم بالعذاب، ولكنّه أخّر ذلك إلى أجلٍ مسمّى، وذلك الأجل المسمّى فيما ذُكر: يوم القيامة.

"**لَقُضِيَ بينهم**"، أي: لفرغ ربُّك من الحكم بين هؤلاء المختلفين في الحقّ الذي بعث به نبيَّه نوحاً من بعد علمهم به، بإهلاكه أهلَ الباطل منهم، وإظهارِه أهلَ الحقّ عليهم.

"**وإنّ الذينَ أُورِثُوا الكتابَ منْ بَعدِهِمْ**"، أي: وإنّ الذين أتاهم اللّه من بعد هؤلاء المختلفين في الحق كتابه التوراة والإنجيل، "**لَفي شَكٍّ منه مُريبٍ**"، أي: لفي شكٍّ في الدين الذي وصّى اللّهُ به نوحاً، وأوحاه إليك يا محمّد، وأمركما بإقامته، مريب.

"**فلذلكَ**"، أي: إلى ذلك الدين الذي شرع لكم، ووصّى به نوحاً، وأوحاه إليكَ، يا محمّد، "**فادْعُ**" عبادَ اللّه، "**واستَقِمْ**" على العملِ به، ولا تَزغ عنه، وأثبت عليه "**كما أُمِرْتَ**"، أي: كما أمرك ربّك بالاستقامة.

"**ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهمْ**"، أي: ولا تتّبع، يا محمّد أهواء الذين شكّوا في الحق الذي شرعه اللّه لكم من الذين أورثوا الكتاب من بعد القرون الماضية قبلهم، فتشكّ فيه كالذي شكّوا فيه. "**وقُلْ آمَنْتُ بما أنْزَلَ اللّهُ من كتَابٍ**"، أي: وقل لهم، يا محمّد، صدّقتُ بما أنزل اللّه من كتاب كائناً ما كان ذلك الكتاب، توراةً كان أو إنجيلاً أو زبوراً، أو صحفَ إبراهيم، لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه، معشر الأحزاب، وتصديقكم ببعض.

"**وأُمِرْتُ لأعدِلَ بينَكمُ**"، أي: وقل لهم يا محمّد: وأمرني ربّي أن أعدلَ بينكم، معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعاً بالحقّ الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه.. والعدلُ ميزانُ اللّه في الأرض، به يأخذ للمظلوم من الظالم، وللضعيف من الشديد، وبالعدل يصدق اللّه الصادق، ويكذب الكاذب، وبالعدل يردّ المعتدي ويوبّخه.

وإبراهيم وموسى وعيسى ومن بعد أحبارهم لفي شكٍّ من القرآن، أو من محمّد، مؤدٍ إلى الريبة... وقوله: "**لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**"، أي: لا خصومة بيننا وبينكم. والمعنى: أنّ الحقّ قد ظهر، فسقط الجدال والخصومة..

القرطبي:

"**وما تَفَرَّقُوا**، يعني: قريشاً، **إلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ**، يعني: محمّد. وكانوا يتمنّون أن يُبعث إليهم نبيّ، دليله قوله تعالى: "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ" (٣٥/ ٤٢)، يريد نبيّاً؛ وقوله: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ، أي أمم الأنبياء، مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ" (٢/ ٨٩).

وقوله: "**لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**"، لا خصومة بيننا وبينكم، لأنّ البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلاّ العناد. وبعد العناد لا حجّة ولا جدال.

أبو حيّان الأندلسي:

"**لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**"، أي: فلا حاجة إلى إظهار حجّة بعد ذلك.

إبن كثير:

"**لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**"، أي: نحن براء منكم، نظير قوله: "وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ: لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ. أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" (١٠/ ٤١).

(٩٠)

الرسل جميعاً، قبل محمّد، عبدوا إلهاً واحداً

واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا من قَبْلِكَ مِن رُسُلِنا: أَجَعَلْنَا مِنْ دونِ الرَّحمَنِ آلِهَةً يُعْبَدون؟ (سورة الزخرف ٤٣/ ٤٥).

الطبري:

اختلف أهل التأويل في معنى قوله: "**واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا من قَبْلِكَ مِن رُسُلِنا**"، ومَن الذين أُمِر رسول اللّه بمسألتهم ذلك؟ فقال بعضهم: مؤمنو أهل الكتابَين: التوراة والإنجيل. عن قتادة قال: سَل أهلَ التوراة والإنجيل: هل جاءتْهم الرسل إلاّ بالتوحيد أن يوحّدوا اللّه وحده؟ عن ابن مسعود: سل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك". وقال آخرون: بل الذين أمر بمسئلتهم ذلك الأنبياء الذي جُمعوا له ليلة أُسري به ببيت المقدس.

وقوله: "**أَجَعَلْنَا مِنْ دونِ الرَّحمَنِ آلِهَةً يُعْبَدون**"؟ يقول: أأمرناهم بعبادة الآلهة من دون اللّه فيما جاءوهم به، أو أتوهم بالأمر بذلك من عندنا؟.

الزمخشري:

«سل الأرض مَن شقّ أنهارَك، وغرس أشجارَك، وجنى ثمارَك، فإنّها إنْ لم تجبْك حواراً أجابتك اعتباراً. وقيل إنّ النّبي جمعَ له الأنبياء، ليلةَ الإسراء، في بيت المقدّس، فأمّهم، وقيل له: سَلْهم. فلم يشكّك. ولم يسأل. وقيل: معناه: سل أمم مَن أرسلنا، وهم أهل

الكتابين التوراة والإنجيل. وعن الفراء: هم إنّما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنّه سأل الأنبياء.

القرطبي:

عن ابن عبّاس: فصلّوا خلف رسول اللّه سبعة صفوف: المرسلون ثلاثة صفوف، والنبيّون أربعة. وكان يلي ظهرَ رسول اللّه إبراهيمُ خليلُ اللّه، وعلى يمينه إسماعيل، وعلى يساره إسحق، ثمّ موسى، ثمّ سائر المرسلين، فأمّهم ركعتَين. فلمّا انفتل قام فقال: "إنّ ربيّ أوحى إلي أن أسألكم: هل أُرسل أحدٌ منكم يدعو إلى عبادة غير اللّه؟ فقالوا: يا محمّد! إنّا نشهد إنّا أُرسلنا أجمعين بدعوةٍ واحدة: أنْ لا إله إلاّ اللّه، وأنّ ما يعبدون من دونه باطلٌ، وأنّك خاتم النّبيّين وسيّد المرسلين. قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيّانا، وأن لا نبيّ بعدك إلى يوم القيامة إلاّ عيسى بن مريم، فإنّه مأمور أن يتبع أثرك"..

عن قتادة قال: "سألهم ليلةَ أُسري به، لقي الأنبياء ولقي آدم ومالك خازن النار".

(٩١)

عيسى عبدٌ أنْعمنا عليه

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً، إذَا قَومُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا: آآلِهَتُنَا خَيْرٌ أمْ هُوَ؟. ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً. بَلْ هُمْ قَومٌ خَصِمُونَ. إنْ هُوَ إلاَّ عَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَيهِ، وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إسْرَائِيلَ (سورة الزخرف ٤٣/٥٧-٥٩).

الطبري:

" **ولَمَّا ضُــرِبَ ابنُ مرْيَمَ مَـثَلاً** ". يقول الله تعـالى ذكرُه: ولمّا شبَّهَ اللّهُ عيسَى، في إحداثِه وإنشائه إيّاه من غير فحل، بآدم؛ فمثّله به بأنّه خلقه من تراب من غير فحل، " **إذا قَومُكَ** " ، يا محمّد، " **منْهُ** " ، أي من ذلك، " **يَصِدُّونَ** " ، أي يضجّون ويقولون: ما يريد محمّد منّا إلاّ أنْ نتّخذَه إلهاً نعبده، كما عبدت النصّارى المسيح!!!

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك. فقال بعضهم بنحو الذي قلنا فيه. عن مجـاهد.. وقتادة.. قالا: قالت قريش: إنّمـا يريد محمّد أن نعبده كما عبد قوم عـيسى عيسى... وقال آخرون: بل عنى بذلك قول اللّه: "إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّـهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ" (٢١/٩٨) قيل المشركين عند نزولها: قـد رضينا بأن تكونَ آلهتنا مع عيسى وعُزير والملائكة؛ لأنّه كلّ هؤلاء ممّا يُعبَد من دون اللّه.. عن ابن عبّاس قال: يعني قريشاً...

" **وَقَالُوا** " ، أي: مشركو قومك يا محمّد: " **أآلِهَتُنا** " التي نعبدها " **خَيرٌ أمْ هُوَ** " ، أي محمّد، فنعبد محـمّداً، ونترك آلهتَنا!! وقال آخرون: بل عنى بذلك: آلهتنا خير أم عيسى؟ " **ما ضَرَبُوهُ لكَ إلاّ جَدَلا** " ، أي ما مثّلوا لكَ هذا المثل يا محمّد، ولا قـالوا لك هذا القول إلاّ ليخاصموك به. " **بلْ هُمْ قَومٌ خَصِمُونَ** " ، أي يلتمسون الخصـومة بالباطل. وذُكر عن النّبي أنّه قـال: " ما ضلَّ قـومٌ عن الحقِّ إلاّ أُوتُوا الجَـدَل " .. وعن أبي أمـامـة قـال: "إنّ رسول اللّـه خرجَ علـى الناس وهم يتنازعـون في القرآن، فغـضبَ غضباً شـديداً حتّى كأنّما صُبَّ على وجـهه الخلّ. ثم قال: لا تضـربوا كتـابَ اللّه بعضه ببـعض. فإنّه مـا ضلّ قوم قط إلاّ أُوتُوا الجدل. ثم تلا: " **ما ضَرَبُوهُ لكَ إلاّ جَدَلاً. بلْ هُمْ قَومٌ خَصِمُون** " .

"**إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَيهِ**"، يقول تعالى ذكرُه: فما عيسى إلاّ عبدٌ من عبادنا أنعمنا عليه بالتوفيق والإيمان، "**وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لبَنِي إسرائيلَ**"، أي: وجعلناه آيةً لبني إسرائيل، وحجّة لنا عليهم بإرسالنا إليهم بالدعاء إلينا. وليس هو، كما تقول النصارى، من أنّه ابن اللّه. تعالى اللّه عن ذلك.

الرازي:

... والمفسّرون ذكروا فيه وجوهاً كلّها محتملة:

فالأوّل: إنّ الكفّار لّما سمعوا أنّ النصارى يعبدون عيسى قالوا: إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خيرٌ من عيسى. وإنّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا يعبدون الملائكة.

الثاني: "**وَلَمَّا ضُرِبَ**" (عبداللّه بن الزبعري عيسى) "**ابنُ مرْيَمَ مَثَلاً**" (وجادلَ رسولَ اللّه بعبادة النصارى إيّاه)، "**إذا قَومُكَ**" (قريش) "**مِنْهُ**" (أي من هذا المثل) "**يَصِدُّونَ**" (أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وجدلاً وضحكاً بسبب ما رأوا من إسكات رسول اللّه)، "**وَقالوا: آآلِهَتُنا خَيرٌ أمْ هُوَ؟**" (يعنون أنّ آلهتنا عندك ليست خيراً من عيسى.

الوجه الثالث في التأويل: وهو أنّ النّبيّ، لّما حكى أنّ النصارى عبدوا المسيح، وجعلوه إلهاً لأنفسهم، قال كفّار مكّة: إنّ محمّداً يريد أن يجعل لنا إلهاً، كما جعل النصارى المسيح إلهاً لأنفسهم. ثمّ عند ذلك قالوا: آآلِهَتُنا خَيرٌ أمْ هُوَ؟ يعني: آآلهتنا خير أم محمّد؟ وذكروا ذلك لأجل أنّهم قالوا: إنّ محمّداً يدعونا إلى عبادة نفسه.وآباؤنا زعموا أنّه يجب عبادة هذه الأصنام. وإذا كان لا بدّ من أحد هذين الأمرين

فعبادة هذه الأصنام أولى، لأنّ آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه. وأمّا محمّد فإنّه متّهم في أمرنا بعبادته، فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى. ثمّ إنّه تعالى بيّن أنّا لم نقلْ إنّ الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن، بل هو كلام باطل. فإنّ عيسى ليس **هو إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنا عليه**. فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إنّ محمّداً يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه.

ثمّ قال تعالى: "**ما ضَرَبُوهُ لكَ إلاّ جَدَلاً**"، أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلاّ لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الفرق بين الحق والباطل. "**بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**"، أي: مبالغون في الخصومة... ألقائلون بذمّ الجدل تمسّكوا بهذه الآية..

ثمّ قال تعالى: "**إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنا عليهِ**"، يعني: ما عيسى إلاّ عبد كسائر العبيد، أنعمنا عليه، حيث جعلناه آيةً، بأنْ خلقناه من غير أب، كما خلقنا آدم، وشرّفناه بالنبوّة، وصيّرناه عبرةً عجيبة.

ألقاسمي:

"**ولَمّا ضُرِبَ ابنُ مرْيَمَ مَثَلاً**"، أي في كونه كآدم، كما أشارت له آية "إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ. فَيَكُونُ" (٣/٥٩). والمعنى: لمّا بيّنَ وصْفَه الحقَّ من أنّه عبدٌ مخلوقٌ منعَمٌ عليه بالنبوّة، عبادتُه كفرٌ، ودعاؤه شرْكٌ، إذ لم يأذنِ اللّهُ بعبادة غيره. "**إذَا قَومُكَ مِنْهُ**"، أي من مَثَلِهِ المضروب ووصفِهِ المُبَيَّنِ "**يَصِدُّونَ**"، أي: يعرضون ولا يعون.

"**وَقَالوا: آآلِهَتُنَا خَيرٌ أمْ هُوَ؟**"، يعنون بآلهتهم الملائكة الذين عبدوهم، زعماً منهم أنّهم بنات اللّه، كما ذكر عنهم ذلك في أوّل

السورة، أي: إنّهم خيرٌ من عيسى وأفضل، لأنّهم من الملأِ الأعلى والنّوعِ الأسمى. فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة! كأنّهم يقرّرون على شركِهم أصولاً صحيحة! ويبنون على تمسّكهم أقيسةً صريحة! وغفلوا، لجهلهم، عن بطلان المقيس والمقيس عليه. وأنّ البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى، وعلى استحالة التوالد في ذاته العليّة.

وإذا اتّضح الهدى فما وراءه إلاّ الضلال، والمشاغبة بالجدال، كما قال تعالى: "**ما ضَرَبُوهُ لكَ إلاّ جَدَلاً**"، أي: ما ضربوا لك هذا القول إلاّ لأجل الجدل والخصومة، لا عن اعتقاد، لظهور بطلانه. "**بَلْ هُمْ قَومٌ خَصِمُونَ**"، أي: شديدو الخصومة بالباطل، تمويهاً وتلبيساً... ثمّ جلى شأنَ عيسى بما يرفع كلّ لبس، بقوله سبحانه: "**إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَيه**"، بالنبوّة والرسالة، "**وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لبَني إسْرَائيلَ**"، أي آية لهم وحجّة عليهم، بما ظهر على يديه، ممّا أيّد نبوّته ورسالته وصدق دعواه.

(٩٢)
عيسى يُقرّ بأنّ اللّهَ ربُّه وربُّهم

وَلَمّا جَاءَ عِيسَى بِالبَيِّنَاتِ قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ بالحِكْمَةِ، وَ لأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الّذي تَخْتَلِفُونَ فِيه. فَاتَّقُوا اللّهَ وَأطِيعُونِ. إنّ اللّهَ هُوَ رَبّي وَرَبُّكُمْ. فَاعْبُدُوهُ. هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (س. الزخرف ٤٣/٦٣-٦٤).

الطبري:

وَلَمّا جاءَ عيسَى بالبَيِّنَاتِ (أي بالواضحات من الأدلّة؛ أو الإنجيل)، **قالَ: قَدْ جِئْتُكُم بالحِكمةِ** (أي النبوّة)، **وَ لأُبَيِّنَ لكم بعضَ**

الذي تَخْتَلِفُونَ فيه (من أحكام التوراة؛ لأنّه قد كان بينهم اختلاف كثير في أسباب دينهم ودنياهم؛ فقال لهم: أبيّن لكم **بعض** ذلك، وهو أمر دينهم دون ما هم فيه مختلفون من أمر دنياهم). **فاتّقوا اللّهَ وأَطِيعونِ.** (أي: فاتّقوا ربّكم، أيّها الناس، بطاعته، وخافوه باجتناب معاصيه). **إنّ اللّهَ هُوَ ربّي وربُّكم. فاعْبُدُوهُ** (وحدَه ولا تشركوا معه في عبادته شيئاً) **. هذا صِراطٌ مُستَقِيمٌ** (وهو دين اللّه الذي لا يُقبل من أحد من عباده غيره).

الرازي:

وَلَمّا جاءَ عيسَى بالبَيِّنَاتِ (أي بالمعجزات وبالشرائع البيّنات والواضحات)، **قالَ: قَدْ جِئْتُكُم بالحِكمةِ** (وهي معرفة ذات اللّه وصفاته وأفعاله)، **وَلأُبَيِّنَ لكم بعضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فيه** (يعني أنّ قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتّفقوا على أشياء، فجاء عيسى ليبيّن لهم الحقّ في تلك المسائل الخلافيّة. وبالجملة فـ**الحكمة** معناها أصول الدين، و**بعض** الذي يختلفون فيه معناه فروع الدين. فإنْ قيل: لِمَ لَمْ يبيّنْ لهم كلَّ الذي يختلفون فيه؟ قلنا: لأنّ الناس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها، فلا يجب على الرسول بيانها. ولمّا بيّن الأصول والفروع، قال: **فاتّقوا اللّهَ** في الكفر به والإعراض عن دينه، **وأَطِيعونِ** في ما أبلّغه إليكم من التكاليف. **إنّ اللّهَ هُوَ ربّي وربُّكم. فاعْبُدُوهُ. هذا صِراطٌ مُستَقِيمٌ.**

القرطبي:

وَلَمّا جاءَ عيسَى بالبَيِّنَاتِ (قال ابن عبّاس: يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام، وخَلْق الطير، والمائدة، وغيرها، والإخبار بكثير من

الغيوب)، **قالَ: قَدْ جِئْتُكُم بالحِكمةِ** (قال ابن عبّاس: أي علم ما يؤدّي إلى الجميل، ويكفّ عن القبيح)، **وَلأُبَيِّنَ لكم** (في الإنجيل) **بعضَ الذي تَختلِفُونَ فيه** (من تبديل التوراة، وهو كقوله: "وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الّذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ" (٣/ ٥٠). **فاتَّقوا اللّهَ** (أي: اتّقوا الشــرك ولا تعبدوا إلاّ اللّه وحده. وإذا كان هذا قول عـيسى فكيف يجوز أن يكون إلهاً أو ابن إله؟!). **وأَطِيعونِ** (فيمـا أدعوكم إليه من التوحيـد وغيره). **إنّ اللّهَ هُوَ ربّي وربُكم. فاعْـبُدُوهُ. هذا صِراطٌ مُســتَقِيمٌ** (أي: عبـادة اللّه صراط مستقيم، وما سواه معوّج لا يؤدّي بسالكه إلى الحقّ).

سيّد قطب:

وَلَمّا جاءَ عيسَى بالبَيِّنَاتِ (أي بالبيّنات الواضحات، سواء من الخوارق التي أجـراها اللّه على يديه، أو من الكلمات والتوجـيهات الى الطريق القويم)، **قالَ** (لقومه) : **قَدْ جِئْـتُكُم بالحِكمةِ** (ومَن يؤتِ الحكم فقد أوتي خيـراً كثيراً، وأمِنَ الزلل والشطط أمْنَه للتفريط والتـقصير، واطمأنّ إلى خطواتــه في الطريق على اتّزان وعلى نور.. وجاء لِيُـبَيِّنَ لَهمْ بَعْضَ الّذي يخْـتَلِفُونَ فِـيهِ. وقـد اختلفـوا في كثـير من شـريعة موسى، وانقســموا فرقاً وشــيعاً. ودعاهم إلى تقوى الـلّه وإلى طاعته فيما جـاءهم به من عند اللّه. وجهر بكلمة التوحيـد، خالصـة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض..).

إنّ اللّهَ هُوَ ربّي وربُكم. فــاعْبُـدُوهُ (ولم يقل: إنّه إله. ولم يقل: إنّه ابن اللّه. ولم يشر، من قـريب أو بعيد، إلى صلةٍ له بربّه غـير صلة العبوديّة من جـانبه، والربوبيّة من جانب اللّه ربِّ الجـميع. وقال لهم: إنّ) **هذا صِراطٌ مُستَقِيمٌ"** (لا التواء فيه ولا اعوجاج، ولا زلل فيه ولا ضلال. ولكنّ الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزاباً، كما كان الذين من

قبله مختلفين أحزاباً. اختلفوا ظالمين لا حجّة لهم ولا شبهة: " فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَومٍ أَلِيْمٍ " (٤٣/ ٦٥).

لقد كانت رسالة عيسى إلى بني إسرائيل؛ وكانوا ينتظرونه ليخلّصهم ممّا كانوا فيه من الذلّ تحت حكم الرومان. وقد طال انتظارهم له. فلمّا جاءهم نكروه وشاقّوه، وهمّوا أن يصلبوه!

ولقد جاء المسيح فوجدهم شِيعاً ونِحَلاً كثيرة، أهمّها أربع فرق أو طوائف: طائفة الصدوقيّين.. وطائفة الفرّيسيّين.. وطائفة السامريّين.. وطائفة الأسينيّين... وهناك غير هذه الطوائف نِحَلٌ شتّى فرديّة، وبلبلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل الراضخين لضغط الأمبراطوريّة الرومانيّة، المستذَلّين المكبوتين، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلّص المنتظر من الجميع.

فلمّا أن جاء المسيح بالتوحيد الذي أعلنه: **إنّ اللّهَ هُوَ ربّي وربُّكم. فاعْبُدُوهُ**، وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليّات والطقوس، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرّد الأشكال والطقوس...

ثمّ ذهب المسيح إلى ربّه، فاختلف أتباعه من بعده. اختلفوا شِيَعاً وأحزاباً. بعضها يؤلّهه، وبعضها ينسب للّه سبحانه بنوّته، وبعضها يجعل اللّه ثالث ثلاثة أحدها المسيح ابن مريم. وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى. وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربّهم ويعبدوه مخلصين له الدين.

(٩٣)

ليس لله وَلَد

قُلْ: إنْ كَانَ للرَّحْمَنِ وَلَـدٌ فَأنَا أوَّلُ العَابِدِينَ (سورة الزخرف ٤٣/ ٨١).

الطبري:

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "**قُلْ: إنْ كَانَ للرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأنَا أوَّلُ العَابِدِينَ**".

فقال بعضهم: معنى ذلك: قل، يا محمّد، إنْ كان للرحمن ولدٌ في قولكم وزعمكم أيّها المشركون، فأنا أوّل المؤمنين بالله في تكذيبكم، والجاحدين ما قلتم من أنّ له ولداً. عن مجاهد: قال: قلْ إنْ كان لله ولد في قولكم؛ فَأنَا أَوَّلُ مَن آمن بالله وعبده ووحّده وكذّبكم. فقولوا ما شئتم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قلْ ما كان للرحمن ولد، فأنا أوّل العابدين له بذلك. عن ابن عبّاس قال: "**قُلْ: إنْ كَانَ للرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأنَا أوَّلُ العَابِدِينَ**". يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أوّل الشاهدين.

وقال آخرون: بل معنى ذلك نفي وجحد. وتأويل ذلك: ما كان ذلك ولا ينبغي أن يكون. عن قتادة قال: وهذه كلمة من كلام العرب: "إنْ كان للرحمن ولد"، أي: إنّ ذلك لم يكن، ولا ينبغي. مثل قوله: "وإنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ" (١٤/ ٤٦)، أي: ما كان مكرهم لتزولَ منه الجبال.. و"إنْ" هي "مَا". تقول العرب: "إنْ كانَ"، أي: "ما كانَ"...

وقال آخرون: معنى "**إنْ**" في هذا الموضع معنى المجازاة. قالوا: لو كان للرحمن ولد، كنت أوّل مَن عبده بذلك.. عن السدّي قال: لو كان له ولد كنت أوّل من عبده بأنّ له ولداً، ولكن، لا ولد له.

وقال آخرون: معنى ذلك: "**قُلْ: إنْ كَانَ للرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأنَا أوَّلُ العَابِدِينَ**"، أي الآنِفين ذلك. ووجّهوا معنى العابدين إلى المنكِرين الآبين، من قول العرب: قد عَبِدَ فلان من هذا الأمر، إذا أنِفَ منه وغضب وأباهُ، فهو يعبَد عَبَداً...

ويقول الطبري: إنّ معنى الكلام: قل، يا محمّد، لمشركي قومك الزّاعمين أنّ الملائكة بنات اللّه: إنْ كان للرحمن ولد فأنا أوّل عابديه. ولكنّه لا ولد له، فأنا أعبده بأنّه لا ولد له. ولا ينبغي أن يكون له.

الرازي:

والمعنى أنّه تعالى قال: "**قُلْ** يا محمّد: **إنْ كَانَ للرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأنَا أوَّلُ العَابِدِينَ**" لذلك الولد، وأنا أوّل الخادمين له. والمقصود من هذا الكلام بيان أنّي لا أنكر ولدَه لأجل العناد والمنازعة، فـ"**إنْ**" بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد، كنت مقرّاً به معترفاً لوجوب خدمته، إلاّ أنّه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتّة، فكيف أقول به؟ بل الدليل القاطع قائم على عدمه. فكيف أقول به؟ وكيف أعترف بوجوده؟ وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به البتّة إلى التأويل والعدولِ عن الظاهر.

إبن كثير:

يقول تعالى: "**قُلْ**" يا محمّد: "**إنْ كَانَ للرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأنَا أوَّلُ العَابِدِينَ**"، أي: لو فُرض هذا لعبدتُه على ذلك لأنّي عبدٌ من عبيده،

مطيعٌ لجميع ما يأمرني به. ليس عندي استكبار، ولا إباء عن عبادته. فلو فُرض هذا لكان هذا. ولكن هذا ممتنع في حقّه تعالى. والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال عزّ وجلّ: "لَو أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ. سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ" (٣٩/ ٤).

(٩٤)

صحابة محمّد هم كما قال عنهم الإنجيل

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ، أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ. تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً. سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ. ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ. وَمَثَلُهم فِي الإِنجِيلِ: كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَآزَرَهُ، فاسْتَغْلَظَ، فاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ. وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (سورة الفتح ٤٨/ ٢٩).

الطبري:

محمَّدٌ رسولُ اللَّهِ و (أتباعه من أصحابه) **الَّذينَ** (هم) **معه** (على دينه)، **أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ**، (غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم)، **رُحَمَاءُ بينَهُمْ**، (أي: رقيقة قلوب بعضهم لبعض، ليّنة أنفسهم لهم، هيّنة عليهم لهم).

تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً. سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ.

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوراة، ومَثَلُهم في الإنجيلِ: كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، (أي: وَصِفة أتباع محمّد في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخَه، أو نباتَه، أو سنبلَه، يعني: أصحاب محمّد يكونون قليلاً، ثمّ يزدادون ويكثرون ويستغلظون). **فآزَرَهُ**، (أي: شدّه وأعانه)، **فاسْتَغْلَظَ**، (أي: أصبح غليظاً نامياً صلباً)، **فاسْتَوَى على سُوقِهِ**، (أي: الذي يحمله)، **يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ.**

وَعَدَ اللّـهُ الذينَ آمَنوا وعَـمِـلوا الصّـالِحـاتِ منهُمْ، (أي: من الشطء)، **مَغْفِرَةً وأجْراً عظِيماً**".

الزمخشري:

"**كَزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ، فآزَرَهُ، فاسْتَـغْلَظَ، فاسْتَوَى على سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفّار**". عن عكرمة: أخرجَ شطأه بأبي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثـمان، فاستوى على سُوقه بعليّ. وهذا مثل ضـربه اللّه لـبـدء أمـر الإسـلام وترقّـيـه فـي الزيادة إلى أن قـوي واستحكم...

إبن كثير:

... كما قال تعالى: "يَا أيُّها الّذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الّذينَ يَلُونَكمْ مِنَ الكُفّارِ وَلْيَـجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً" (٩/ ١٢٣). وقـال النّبي: "مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحـمهم كمـثل الجسد الواحـد، إذا اشـتكى منه عـضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمى السّهر". وقال أيضـاً: "ألمؤمن للمؤمن كـالبنيان يشـدّ بعـضُه بعـضاً". وشـبك صلّى اللّه عليـه وسلّم بين أصابعه..

من هذه الآية انـتـزع الإمـام مـالـك في رواية عنه بتكفـيـر الرّوافض الذين يبـغضـون الصحـابة. وقال: لأنّهم يغـيظونهم. ومَن غاظ الصـحابة فهو كـافر.. عن أبي هُريرة قال: قـال رسول اللّه: "لا تسبّوا أصحابي. فوالذي نفـسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه".

وقال آخرون: بل هم قوم جاؤوا من بعد الذين ابتدعوها، فلم يرعوها حقّ رعايتها، لأنّهم كانوا كفّاراً، لكنّهم قالوا: نفعل كالذي كانوا يفعلون من ذلك أوّليّاً، فهم الذين وصف اللّه بأنّهم لم يرعوها حقه رعايتها.

عن ابن عبّاس قال: كانت ملوك بعد عيسى بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل. فقيل لملكهم: ما نجد شيئاً أشدّ علينا من شتمٍ يشتمناه هؤلاء. إنّهم يقرؤون "وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ" (٥/ ٤٤). هؤلاء الآيات مع ما يعيبوننا به في قراءتهم، فادعهم فليقرؤا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا به.

قال: فدعاهم فجمعهمم وعرض عليهم القتل، أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلاّ ما بدّلوا منها. فقالوا: ما تريدون إلى ذلك فدعونا. قال: فقالت طائفة منهم: إبنوا لنا أسطوانة، ثمّ ارفعونا إليها. ثمّ أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا. فلا نرد عليكم. وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض، ونهيم ونشرب كما تشرب الوحوش. فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا. وقالت طائفة: إبنوا لنا دوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، وتحترث البقول، فلا نردّ عليكم. ولا نمرّ بكم. وليس أحد من أولئك إلاّ وله حميم فيهم. قال: فعلوا ذلك فأنزل اللّه جلّ ثناؤه: "**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا. مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللّهِ. فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**".

ألآخرون قالوا: نتعبّد كما تعبّد فلان. ونسيح كما ساح فلان. ونتّخذ دُوراً كما اتّخذ فلان. وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم. قال: فلمّا بُعث النّبيّ ولم يبق إلاّ قليل، انحطّ رجلٌ

(٩٥)

"ورهبانيّة ابتدعوها"

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا. وَقَفَّيْنَا بعيسَى ابْنِ مَريَمَ. وَآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ. وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَذينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً، وَرَحْمَةً، وَرَهْبَانيَّةً ابْتَدَعُوهَا. مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللّه. فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا. فَآتَيْنَا الَذينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ. وَكَثِيرٌ منهُمْ فاسِقُونَ (سورة الحديد ٥٧/٢٧).

الطبري:

يقول تعالى ذكرُه: **ثُمَّ قَفَّيْنَا** (أي أتبَعنا) **عَلَى آثَارِهِمْ** (أي على آثار نوح وإبراهيم) **بِرُسُلِنَا. وَقَفَّيْنَا** (أتبعنا) **بعيسَى ابْنِ مَريَمَ. وَآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ. وَجَعَلْنا في قُلوبِ الَذينَ اتَّبَعُوهُ** (أي الذين اتّبعوا عيسى على منهاجه وشريعته)، **رَأْفَةً** (وهو أشدّ الرحمة)، **وَرَحْمَةً، وَرَهْبَانيَّةً** (هي رفض النساء والزهد واتّخاذ الصوامع) **ابْتَدَعُوهَا** (أي: أحدثوها من قِبَلِ أنفسهم). **مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ** (أي: ما افترضنا تلك الرهبانيّة عليهم)، **إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللّهِ** (أي أنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الللّه)، **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** (أي: لم يقوموا بها، ولكنّهم بدّلوا وخالفوا دينَ اللّه الذي بعث به عيسى، فتنصّروا وتهوّدوا).

واختلف أهل التأويل في الذين لم يرعوا الرهبانيّة حقّ رعايتها:

فقال بعضهم: هم الذين ابتدعوها ولم يقوموا بها، ولكنّهم بدّلوا وخالفوا دينَ اللّه الذي بعث به عيسى، فتنصّروا وتهوّدوا.

من صومعته، وجاء سائحٌ من سياحته، وجاء صاحب الدار من داره، وآمنوا به وصدّقوه. **فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ**. وهم الذين آمنوا بي، وصدّقوني. "**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**". فهم الذين جحدوني وكذّبوني.

وبالجملة يقول الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصحّة أن يقال: إنّ الذين وصفهم اللّه بأنّهم لم يرعوا الرهبانيّة حقّ رعايتها، بعض الطوائف التي ابتدعتْها، وذلك أنّ اللّه جلّ ثناؤه أخبر أنّه آتى الذين آمنوا منهم أجرَهم. فدلّ بذلك على أنّ منهم مَن قد رعاها حقّ رعايتها. فلو لم يكن منهم من كان كذلك لم يكن مستحق الأجر الذي قال جلّ ثناؤه: "**فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ**". إلاّ أنّ الذين لم يرعوها حقّ رعايتها ممكن أن يكونوا كانوا على عهد الذين ابتدعوها، وممكن أن يكونوا كانوا بعدهم. "**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**".

الزمخشري:

والرهبانيّة ترهّبهم في الجبال، فارّين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة. وذلك أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى، فقاتلوهم ثلاث مرّات، فقُتِلوا حتّى لم يبقَ منهم الإّ القليل. فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرّهبانيّة.. أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولم نفرضها نحن عليهم؛ "**فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**".

الرازي:

قال القاضي: ألمراد بذلك أنّه تعالى لطف بهم حتى قويتْ دواعيهم إلى الرّهبانيّة التي هي تحمُّلُ الكلفة الزائدة على ما يجب من

الخلوة واللباس الخشن... والمراد من الرهبانيّة ترهّبهم في الجبال، فارّين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة، ومتحملين كلفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد في الغِيران والكهوف...

روى ابن مسعود أنّه عليه السلام قال: "يا ابن مسعود! أما علمتَ أنّ بني إسرائيل تفرّقوا سبعين فرقة. كلّها في النار إلاّ ثلاث فرق: فرقة آمنت بعيسى وقاتلوا أعداء اللّه في نصرته حتّى قُتلوا؛ وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال، فأُمروا بالمعروف ونُهوا عن المنكَر؛ وفرقة لم يكن لها طاقة بالأمرَين، فلبسوا العباء، وخرجوا إلى القفار والفيافي؟!".

لم يعنِ اللّهُ بـ"**ابْتَدَعُوهَا**" طريقة الذمّ، بل المراد أنّهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولذلك قال تعالى: "ما كتبناها عليهم".

أمّا قوله: "**إلاّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللّهِ**" ففيه قولان: **أحدهما**: إنّه استثناء منقطع، أي: ولكنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان اللّه. **والثاني**: إنّه استثناء متّصل، أي: إنّا ما تعبّدناهم بها إلاّ على وجه ابتغاء مرضاة اللّه. والمراد أنّها ليست واجبة. فإنّ المقصود من فعل الواجب دفعُ العقاب وتحصيل رضا اللّه؛ أمّا المندوب فليس المقصود من فعله دفع العقاب، بل المقصود منه ليس إلاّ تحصيل مرضاة اللّه.

أمّا قوله تعالى: "**فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**"، ففيه أقوال:

أحدها: إنّ هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانيّة ما رعوها حقّ رعايتها، بل ضمّوا إليها التثليث والاتّحاد، وأقام أناسٌ منهم على دين عيسى حتّى أدركوا محمّداً، فآمنوا به، فهو قوله: "**فَآتَيْنَا الّذينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أجْرَهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنهُمْ فاسِقُونَ**".

و**ثانيها**: إنّا ما كتبنا عليهم تلك الرهبـانيّة إلاّ ليتوسّلوا بها إلى مرضـاة اللّه؛ ثمّ إنّهم أتَوا بتلك الأفعـال، لكن لا لهذا الوجـه، بل لوجه آخر، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة.

و**ثالثها**: إنّا لمّا كتبناها عليهم تـركوها؛ فيكون ذلك ذمّاً لهم من حيث أنّهم تركوا الواجب.

و**رابعها**: إنّ الذين لم يرعـوها حقّ رعايتـها هم الذين أدركـوا محمّداً ولم يؤمنوا به..

الخازن:

"**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا**"، أي: بعثنا رسولاً بعد رسول إلى أن انتهت الرسـالة إلى عيسى، وهو قوله: "**وَقَفَّيْنَا بـعيسَى ابنِ مريَمَ. وآتَيْنَاهُ الإنْجيلَ. وَجَعَلْنا في قُلوبِ الّذينَ اتَّبَعُوهُ**"، أي على دينه "**رَأْفَةً ورَحْمَةً**"، أي: أنّهم كانوا مودّين بعـضـهم لبعض، "**ورَهْبَانيَّةً ابتَدَعُوهَا**". ليس هذا عطفـاً على ما قـبله. والمعنى أنّهم جاءوا بهـا من قِبَلِ أنفـسـهم، وهي ترهّبهم في الجـبال والكهوف والغِـيران والديرة، فرّوا من الـفتنة، وحمّلـوا أنفسَهم المـشاق في العبـادة الزائدة، وترك النكاح، واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس، مع التقلل من ذلك.. "**مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ**"، أي: ما فرضناها نحن عليهم... فذلك قوله تعالى: "**فَآتَيْنَا الّذينَ آمَنُوا منْهُمْ أجْرَهُمْ**"، وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح؛ "**وَكَثِـيرٌ منهُمْ فاسِـقُونَ**"، وهم الذين تركوا الرهبـانيّة، وكفروا بدين عيسى..

عن ابن مسعود قال: كنتُ رديفَ رسـول اللّه على حمار، فقال لي: "يا ابنَ أمّ عبد! أتدري ما رهبـانيّة أمّتي؟ قلتُ: ألّلهُ ورسولُه أعلم.

قال: ألهجرة والصلاة والجهاد والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع ". وروي عن أنَس عن النّبي قال: "إنّ لكلّ أمّةٍ رهبانيّة ورهبانيّة هذه الأمّة ألجهاد في سبيل اللّه ".

" **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا** " يعني: ابتدعها الصالحون، " **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** "، يعني: الآخرين الذين جاءوا من بعدهم، " **فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ** "، يعني: الذين ابتدعوها "**ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ.. وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** "، وهم الذين جاءوا من بعدهم. فلمّا انحط رجلٌ من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب دير من ديره، فآمنوا به وصدّقوه، فقال اللّه: "يا أيّها الّذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللّهَ وآمِنُوا برسوله، يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ" (٥٧/٢٨)، أجرَين بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمّد وتصديقهم له. وقال: "ويَجْعَل لكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بهِ" (٥٧/٢٨): القرآن واتّباعهم النّبيّ. وقال: "لئلاّ يَعلَمَ أهلُ الكِتابِ" (٥٧/٢٩) الذين يتشبّهون بكم "ألاّ يَقْدِرُونَ على شيءٍ مِنْ فَضْلِ اللّهِ" (٥٧/٢٩).

عن ابن عبّاس قال: قال قومٌ: انقطع الكلام عند قوله " **وَرَحْمَةً** "، ثم قال: " **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا** "، وذلك أنّهم تركوا الحقّ فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان...

ألقرطبي:

" **وَجَعَلْنا في قُلوبِ الّذينَ اتَّبَعُوهُ رَأفَةً، ورَحْمَةً، ورَهْبَانِيَّةً. ابْتَدَعُوهَا.** قيل: "ورهبانيّة ابتدعوها" من قِبَلِ أنفسهم.. وقيل: "ورهبانيّةً" معطوفة على الرأفة والرحمة. والمعنى على هذا أنّ اللّه تعالى أعطاهم إيّاها فغيّروا وابتدعوا فيها.

ابتدعها (هؤلاء الصالحون)، "**فَمَا رَعَوْهَا**" (المتأخّرون) "**حَقَّ رِعَايَتِهَا. فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ**" (يعني الذين ابتدعوها أوّلاً ورعوها). "**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**"، (يعني المتأخّرين. فلمّا بعث اللّهُ محمّداً ولم يبقَ منهم إلاّ قليل، جاءوا من الكهوف والصوامع والغيران فآمنوا بمحمّد.

عن أبي أمامة الباهلي قال: خرجنا مع رسول اللّه في سَرِيّةٍ من سراياه، فقال: مَرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيء من ماء، فحدّث نفسَه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء، ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلّى عن الدنيا. قال: لو أنّي أتيتُ النّبيَّ فذكرتُ ذلك له! فإنْ أذِنَ لي فعلتُ. وإلاّ لم أفعلْ. فأتاه فقال: يا نبيَّ اللّه! إنّي مررتُ بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل. فحدثتني نفسي بأنْ أقيم فيه، وأتخلّى من الدنيا. قال: فقال النّبي: إنّي لم أُبْعَثْ باليهوديّة ولا بالنصرانيّة. ولكنّي بعثتُ بالحنيفيّة السمحة. والذي نفس محمّد بيده لَغَدْوَةٌ أو رَوْحَةٌ في سبيل اللّه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولَمُقامُ أحدِكُم في الصفّ الأوّل خيرٌ من صلاته ستّين سنة".

"**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا**" ومن آمن بي واتّبعني فقد "**رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**". ومَن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون، يعني الذين تهوّدوا وتنصّروا. وقيل: هؤلاء الذين أدركوا محمّداً فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون. وفي الآية تسلية للنّبيّ، أي إنّ الأوّلين أصرّوا على الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إنْ أصرّوا على الكفر.

أبو حيّان الأندلسي:

"**وَرَهْبَانِيَّةً**" معطوف على ما قبله. فهي داخلة في الجمل. "**ابْتَدَعُوهَا**"، جملة في موضع الصفة لرهبانيّة. وخصّت الرّهبانيّة

بالابتداع، لأنّ الرأفة والرحمة في القلب لا تكسّب للإنسان فيها بخلاف الرهبانيّة، فإنّها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع للتكسّب. قال قتادة: ألرأفة والرحمة من اللّه، والرهبانيّة هم ابتدعوها.

محمّد حسين فضل اللّه :

وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا. مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللّه

فقد عاشوا معاني التأمّل والتفكير في اللّه، واندمجوا بالعبادة الخاشعة الخاضعة المستسلمة لعبوديّتهم له، واستغرقوا في ذلك كلّه حتّى تحوّلت لديهم إلى حالةٍ من العزلة والانقطاع عن الناس، ليتفرّغوا إلى الغاية العظيمة، وهي الحصول على رضا اللّه والوصول إلى أعلى مراتب القرب لديه، فكانت الرهبانيّة نتيجةً لذلك، في ما تصوّروه من نتائجها.

وهكذا ابتدعوها كقاعدة للسلوك العملي العبادي، وكمنطلق للسموّ الروحي، فلم تكن فرضاً من اللّه عليهم، ولم تنزل كشريعةٍ عباديّة في التشريع العبادي الذي يحدّد للعبادة فروضها وطقوسها؛ ولكنّها كانت استيحاءً فكريًا وروحيًا من القيم الكبيرة التي أكّدتْها مفاهيم الإنجيل، في ما لم يرد فيه منعٌ خاصٌ، فانطلقوا فيه من خلال رغبتهم في رضا اللّه.

ولكن المشكلة.. أن تبقى لها (الرهبانيّة) روحيّتُها.. فما الذي حدث بعد ذلك؟

لقد تحوّلت إلى طقوسٍ وعاداتٍ وشعائرَ خاليةٍ من الروح، وابتعدتْ عن التوازن في الجانب الواقعي العملي في حاجات الإنسان الخاصّة، **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**، لأنّ الإنسان الذي يريد رضا اللّه لا بدّ له من أن يعرف الطريق إليه، فلا يبتدعه من نفسه..

(٩٦)

عيسى يبشّر برسول من بعده إسمه "أحمد"

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (سورة الصف ٦١/٦).

الطبري:

عن رياض بن سارية قال: سمعتُ رسولَ اللّه يقول: إنّي عند اللّه مكتوب لَخاتم النّبيّين، وإنّ آدم لَمنجدل في طينته. وسأخبركم بأوّل ذلك: دعوة إبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، الرؤيا التي رأت أُمّي، أنّها رأت، حين وضعتني، أنّه خرج منها نور أضاءتْ منه قصورَ الشام.

الزمخشري:

عن كعب الأحبار، أنّ الحواريّين قالوا لعيسى: يا روحَ اللّه! هل بعدنا من أمّة؟ قال: نعم. أمّة أحمد. حكماء. علماء. أبرار. أتقياء. كأنّهم من الفقه أنبياء. يرضون من اللّه باليسير من الرزق. ويرضى اللّه منهم باليسير من العمل.

الرازي:

"**أَحْمَدُ**" يحتمل معنيَين: أحدهما: ألمبالغة في الفاعل، يعني أنّه أكثر حمداً من غيره. وثانيهما: ألمبالغة في المفعول، يعني أنّه يُحمد بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر ما يُحمد غيره.

الطبرسي:

" **اسمُه أحْمَد** ". عن المطعم عن أبيه قال: قال رسول اللّه: "إنّ لي أسماء: أنا أحمد. وأنا محمّد. وأنا الماحي الذي يمحو اللّهُ بي الكفرَ. وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي. وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبيّ". أورده البخاري في الصحيح.

وقد تضمّنت الآية أنّ عيسى بشّر قومَه بمحمّد وبنبوّته، وأخبرهم برسالته. وفي هذه البشرى معجزة لعيسى عند ظهور محمّد، وأمر لأمّته أن يؤمنوا به عند مجيئه. " **فلمّا جاءهم** " أحمد " **بالبيِّنات** " أي الدلالات الظاهرة والمعجزات الباهرة، " **قالوا: هذا سِحْرٌ مُبينٌ** "، أي ظاهر.

الخازن:

" **وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ ياتي مِنْ بَعدي اسمُه أحْمَدُ** ". عن أبي موسى قال: "أَمَرَ رسولُ اللّه أصحابَه أن يأتوا النجاشي". وَذَكَرَ الحديث. وفيه قال: "سمعتُ النّجاشي يقول: أشهدُ أنّ محمّداً رسول اللّه وأنّه الذي بشّر به عيسى. ولولا ما أنا فيه من الملك، وما تحمّلتُ من أمر الناس، لأتيتُه حتّى أحملَ نعلَيه".

" **فلمّا جاءهم بالبيِّناتِ** "، قيل: هو عيسى. وقيل: هو محمّد.

القرطبي:

" **اسمُه أحْمَدُ** ". و"أحمد" إسم نبيّنا. وهو إسم عَلَم منقول من صفة لا من فعل. فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل.. والأنبياء كلّهم حامدون اللّه، ونبيّنا أحمد أكثرهم حمداً. وأمّا "محمّد" فمنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى محمود. ولكن فيه معنى المبالغة

والتكرار. فالمحمّد هو الذي حُمِدَ مرّةً بعد مرّة.. فاسم "محمّد" مطابق لمعناه. واللّهُ سبحانَه سمّاه قبل أن يُسمِّي به نفسه. فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوّته، إذ كان اسمه صادقاً عليه.

فهو محمود في الدنيا لِمَا هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرّر معنى الحمد كما يقتضي اللّفظ.

ثمّ إنّه لم يكن محمّداً حتّى كان أحمد. حمِدَ ربَّه فنبّأه وشرّفه. فلذلك تقدّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمّد. فذكره عيسى فقال: "اسمه أحمد". وذكره موسى حين قال له ربُّه: تلك أمّة أحمد. فقال: أللّهمّ اجعلني من أمّة أحمد.

فبأحمد ذَكَرَه قبل أن يَذكره بمحمّد، لأنّ حمده لربّه كان قبل حمد الناس له. فلمّا وُجد وبُعث كان محمّداً بالفعل. وكذلك في الشفاعة يحمد ربّه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربّه، ثم يشفع فيُحمَد على شفاعته.

وروي أنّ النبيّ قال: إسمي في التوراة أَحيد، لأنّي أَحِدّ أمّتي عن النار؛ واسمي في الزبور الماحي محا اللّه بي عبدة الأوثان؛ واسمي في الإنجيل أحمد؛ واسمي في القرآن محمّد، لأنّي محمود في أهل السماء والأرض".

أبن كثير:

ألآية تعني: أنّ التوراة قد بشّرتْ بي، وأنا مصداق ما أخبرتُ عنه؛ وأنا مبشّر بمن بعدي، وهو الرسول النّبيّ الأمّيّ العربيّ المكّيّ أحمد. فعيسى هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني

إسرائيل مبشّراً بمحمّد، وهو أحمد، خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوّة...

محمّد حسين فضل اللّه :

والنبيّ عيسى وجهٌ أصيلٌ مشرقٌ في تاريخ الرسل، ورسالته هي النافذة الرساليّة التي تطلّ على الماضي والمستقبل. فهي، من جهةٍ، تصدّق التوراة ككتاب منزل من اللّه، لم يستنفد مفاهيمه وتشريعاته بمرور الزمن، لولا بعض الأحكام التي حرّمها اللّه، وجاء عيسى ليحلّلها في ما نقله اللّه عنه «وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيكُمْ» (٣/ ٥٠)، وهي، من جهة ثانية، تبشّر بالرسول محمّد الذي يأتي من بعده؛ ممّا يعني الانفتاح الكامل الذي لا يوحي بأيّة عقدة تعصّب للمؤمنين بموسى، لأنّه يؤكّد لهم إيمانهم، ولا يثير أي تعصّب مستقبلي لدى المؤمنين به من ناحية الرسالة القادمة. ولكنّ المجتمع الإسرائيلي وقف ضدّه، كما وقفت المجتمعات الأخرى ضدّ الأنبياء الآخَرين.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ! إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيكُمْ، فقد كان منهم من ناحية أمّه، كما كان جزءًا من مجتمعهم، ممّا يجعل من مسألة أنّه رسول اللّه إليهم، مسألةً تتّصل بالواقع الذي تعيشه الرسالة من حيث الزمان والمكان، لا باختصاص مهمّته الرساليّة بهم.

(٩٧)

الحواريون أنصار عيسى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! كُونُوا أَنْصَارَ اللَّه، كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّه. فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ. فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (سورة الصف ٦١/ ١٤).

الطبري:

"**يا أيّها الّذينَ آمَنُوا! كونوا أنْصارَ اللّهِ**". عن قتادة قال: "قد كانت للّه أنصار من هذه الأمّة تجاهد على كتابه وحقّه. وذكر لنا أنّه بايعه ليلة العقبة إثنان وسبعون رجلاً من الأنصار. وذكر لنا أنّ بعضهم قال: هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرّجل؟ إنّكم تبايعون على محاربة العرب كلّها أو يسلموا. ذكر لنا أنّ رجلاً قال: يا نبيّ اللّه! إشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: أشترط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا منعتم منه أنفسكم وأبناءكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ اللّه؟ قال: لكم النصر في الدنيا، والجنّة في الآخِرة. ففعلوا. ففعل اللّه".

مَنْ أنصاري إلى اللّهِ؟ (أي: مَن يتبعني إلى اللّه؟). **قال الحَواريّون: نحنُ أنصارُ اللّه. فآمَنتْ طائفةٌ من بني إسرائيل،** (أي بعيسى)، **وكفرتْ طائفة** (منهم به).

عن ابن عبّاس قال: لمّا أراد اللّه أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج إلى أصحابه وهم في بيت إثنا عشر رجلاً من عين في البيت، ورأسُه يقطر ماء. قال: فقال: إنّ منكم مَن سيكفر بي اثنتي عشرة مرّة

بعد أن آمن بي. قال: ثم قال: أيّكم يلقى عليه شبهي فيُقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شابٌ من أحدثهم سناً. قال: فقال: أنا. فقال له: إجلس. ثمّ أعاد عليهم. فقام الشاب. فقال: أنا. قال: نعم أنت ذاك. قال: فألقى عليه شبه عيسى. ورُفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود. وأخذوا شبهه. فقتلوه. وصلبوه. وكفر به بعضهم إثنتَي عشرة مرة بعد أن آمن به.

فتفرّقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء. ثمّ صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبيّة. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء. ثمّ رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطوريّة. وقالت فرقة: كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء. ثمّ رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون.

فتظاهرت الطائفتان على المسلمة، فقتلوها. فلم يزل الإسلام طامِساً حتّى بعث الله محمّداً فآمنت طائفة من بني إسرائل. وكفرت طائفة. يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى. والطائفة التي آمنت في زمن عيسى.

" **فأيّدْنا الذينَ آمَنوا على عدوِّهمْ، فأصْبَحوا ظاهِرين** " . أي: فقوّينا الذين آمنوا من الطائفتَين من بني إسرائيل على عدوّهم الذين كفروا منهم بمحمّد لتصديقه إيّاهم أنّ عيسى عبدالله ورسوله، وتكذيبه من قال هو إله، ومن قال هو ابن الله. فأصبحوا ظاهرين، فأصبحت الطائفة المؤمنون ظاهرين على عدوّهم الكافرين منهم.

القرطبي:

أكّد أمرَ الجهاد، أي: كونوا حواريّ نبيّكم ليظهركم الله على مَن خالفكم، كما أظهر حواريّ عيسى على من خالفهم.

"يا أيّها الّذينَ آمَنُوا! كـونوا أنْصـارَ اللّه" ، أي: أثبتـوا وكونوا أعواناً للّه بالسيف على أعدائه.

ابن كثير:

يقـول تعـالى آمِراً عـبـاده المؤمنين أن يكونوا أنصـارَ اللّه في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفـسـهم وأموالهم، وأن يستجيبوا للّه ولرسـوله، كـما اسـتجـاب الحـواريّون لعـيسـى حين قـال: **"مَنْ أنصـاري إلى اللّه؟"** ، أي: مَن مـعـيني في الدعـوة إلى اللّه؟ **قـال الحَواريّون: نحنُ أنصارُ اللّه.**

فآمَنتْ طائفةٌ من بني إسرائيل، بما جاءهم به، **وكفرتْ طائفةٌ،** وضلّتْ فخرجت عمّا جاءهم به. وجحدوا نبوّته ورموه وأمّه بالعظائم. وهم اليهـود، عليهم لعائن اللّه المتـتابعة إلى يوم القـيامة. وغلتْ فـيه طائفة ممن اتّبعـه حتى رفعوه فوق ما أعطاه اللّه من النبـوّة، وافترقوا فرقاً وشـيعاً. فمن قائـل منهم إنّه ابن اللّه، وقائل إنّه ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، ومن قائل إنّه اللّه.

"فـأيّدْنا الذينَ آمَنوا على عـدوِّهمْ" ، أي: نصـرناهم على مَن عاداهم من فرق النصارى، **"فأصبْحوا ظاهِرين"** ، أي: عليهم. وذلك ببعثـه محمّداً... فـأمّة محمّـد لا يزالون ظاهرين على الحقّ حتّى يأتي أمر اللّه. وهم كـذلك، وحتّى يقاتل آخـرُهم الدجّالَ مع المسيح عـيسى ابن مريم، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح. واللّه أعلم.

الشوكاني:

عن قتادة في قـوله تعالى: **"يا أيّها الّذينَ آمَنُوا! كـونوا أنْصارَ اللّهِ"** ، قال: قد كـان ذلك بحمد اللّه جاءه سـبعون رجلاً فبـايعوه عند

جبريل في جيب الدرع ومدّه بإصبعيه ونفخ فيه.. وقيل: أحصنتْ، أي تكلّفتْ في عفّتِها. والمحصّنة العفيفة. . **فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا**، أي: في فـرج ثوبها... وقـوله: "**فيـه**"، أي: في عـيسى.. وقـيل بالـ"**نفخ**" لسرعة دخوله فيه نحو الريح.

إبن عربي:

إنّ النفس المتزيّنة بفضيلة العفّة، المشـار إليها بإحصان الفرج، هي القابلة لفـيض روح القدس، الحاملة بعـيسى القلب، المتنوّرة بنور الروح، المصدّقة بكلمات الرّب، من العقـائد الحكميّة، والشرائع الإلهيّة المطيـعة للّه، مـطلقاً علمـاً وعـملاً، سـرّاً وجهـراً، المنخـرطة في سلك التوحيد جمعاً وتفصيلاً، باطناً وظاهراً.

الشوكاني:

"**الّتي أَحْصَنَتْ فَـرْجَهَا**"، عن الفواحش. وقـال المفسّرون: إنّه أراد بالفرج هنا الجيب؛ لأنّه قال: "**فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا**". وجبريل إنّما نفخ في جَيْبها ولم ينفخ فـي فرجها. وهي في قراءة أُبَيّ "فنفَخْنا في جَيـبهـا من روحنا".. ويحتـمل أن تكون أحصـنت فرجهـا ونفخ الروح في جـيبـها. "**من روحِنا**"، أي: روحاً من أرواحنا، وهي روح عيسى.

الآلوسي:

"**الّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**"، أي صانتْه ومنعتْه من الرجال. وقيل: منعـتْـه عن دنس المعـصـيـة. والفرج مـا بين الرِّجـلَين، وكنِّي به عن السوءة... "**فَنَفَخْنَا**"، النافخ رسولـه تعالى وهو جبـريل.. وضـمـير "**فِيهِ**" للفرج. واشتـهر أنّ جبريل نفخ في جَيْبِـها فوصل أثرُ ذلك إلى

الفرج... وجوز في ضمير "فيه" رجوعه إلى الحمل، وهو عيسى.. وقرأ عبدالله: "فيها"، كما في سورة الأنبياء، فالضمير لمريم.

والإضافة في قوله تعالى: "**مِنْ رُوحِنَا**" للتشريف. والمراد من روحٍ خلقناه بلا توسّط أصل. وقيل: لأدنى ملابسة وليس بذاك.

محمّد حسين فضل الله :

وهكذا بقيت هذه الإنسانة الطاهرة (مريم) مَثَلاً لكلِّ الناسِ في الطهر والإيمان والتصديق برسالات اللّه، والسير على خطّ طاعته، لتكون النموذج الأمثل الذي يعبّر عن قدرة المرأة التي تعيش القرب من اللّه، أن تنتصر على كلّ نوازع الضعف التي توحي لها بالانحراف، فتتمرّد عليها بالإيمان الخالص والإرادة القويّة، ليقتدي بها الرجال والنساء، من المؤمنين والمؤمنات في كلّ زمان ومكان.

(٩٩)

اَللّه جَدُّ رَبِّنا مع أنّه لم يكن له صاحبة

وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً. وَأَنَّهُ كَانَ يَقولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (سورة الجن ٧٢/٣-٤).

الطبري:

"**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا**" . اختلف أهل التأويل في معنى ذلك. فقال بعضهم: معناه: فآمنّا به ولن نشركَ بربِّنا أحداً. وآمنّا بأنّه تعالى أمْرُ ربِّنا وسلطانُه وقدرته. عن ابن عباس، وقتادة، قالوا: "جَدُّ ربّنا"، أي: فعله وأمره وقدرته.

وقال آخرون: عني بذلك: جلال ربّنا وذكره. عن عكرمة ومجاهد وقتادة قالوا: أي: تعالى أمر ربّنا، تعالتْ عظمته.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تعالى غِنَى ربِّنا..

وقال آخرون: عُني بذلك الجَدّ هو أبو الأب. قالوا: ذلك كان من كلام جهلةِ الجِنِّ..

وقال آخرون: عُني بذلك "ذكره".

وقال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول مَن قال: عُني بذلك: "تعالتْ عظمة ربّنا وقدرته وسلطانه". وذلك لأنّ للجدّ في كلام العرب معنيَين: أحدهما الجدّ الذي هو أبو الأب، أو أبو الأم.. والمعنى الآخر: ألجدّ الذي بمعنى الحظّ، يقال: فلان ذو جدّ في

هذا الأمر: إذا كان له حظٌ فيه، وهو الذي يقال له بالفارسيّة: البخت. وهذا المعنى الذي قصده هؤلاء النفر من الجنّ.. وإنّما عنوا (أيضاً) أنّ حظوته من المُلك والسلطان والقدرة والعظمة عالية، فلا يكون له صاحبة ولا ولد.. فقال النفر من الجنّ: علا مُلك ربّنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطرّهم الشهوة إلى اتّخاذ صاحبة، أو وِقاع شيء يكون منه ولد: " **مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً. وَأَنَّهُ كَانَ يَقولُ سَفِيهُنَا،** (أي: إبليس) **عَلَى اللَّهِ شَطَطاً** ".

الطبرسي:

" **وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا** ". والمعنى: تعالى جلال ربّنا وعظمته عن اتّخاذ الصاحبة والولد، عن الحسن ومجاهد. وقيل: معناه تعالت صفات اللّه التي هي له خصوصاً، وهي الصفات العالية التي ليست للمخلوقين، عن أبي مسلم. وقيل: معناه جدّ ربّنا صفاته، فلا يجوز عليه صفات الأجسام والأعراض، عن الجبائي. وقيل: تعالت قدرة ربّنا، عن ابن عبّاس. وقيل: تعالى ذكره، عن مجاهد. وقيل: فعله وأمره، عن الضحّاك. وقيل: علا ملك ربّنا، عن الأخفش. وقيل: تعالت آلاؤه ونعمه على الخلق، عن القرظي. والجميع يرجع إلى معنى واحد وهو العظمة والجلال..

وقال الربيع بن أنس أنّه قال: ليس للّه تعالى جَدّ، وإنّما قالتْه الجنّ بجهالة، فحكاه سبحانه كما قالت. وروي ذلك عن أبي جعفر الباقر، وأبي عبداللّه..

القرطبي:

" **وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً** ". قيل: إنّهم عَنَوا بذلك الجَدّ الذي هو أب الأب، ويكون هذا من قول الجنّ.. وقال

القشيري: ويجوز إطلاق لفظ الجدّ في حقّ اللّه تعالى، إذ لو لم يجز لما ذُكر في القـرآن، غير أنّه لفظ مـوهم، فتجـنُّبُه أولى.. ويروى عن ابن السَّمَيقع وأبي الأشـهب "جد ربنا" هو الجدوي والمنفعة.

الآلوسي:

"**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا**".. والجد العظمة والجلال. يقال جدّ في عـيني أي عظم.. وقـيل الملك والسـلطان. وقـيل الغني... والجـد، على جميع هذه الأوجه، مستعار من الجدّ الذي هو البخت...

محمّد حسين فضل اللّه :

وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا، أي حظّه من العظمة والعلوّ والمجد والتنزّه عن مماثلة الآخـرين له. **مَـا اتَّخَـذَ صَاحِـبَـةً وَلا وَلَداً**، لأنّ ذلك شأن المخلوق في حاجـته الطبيعـيّة إلى ذلك، لا شأن الخالق الذي لا يحـتاج إلى شيء، لأنّه الغنيّ عن الحاجات، من خلال غناه في ذاته.

(١٠٠)

ما تفرّق أهل الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم القرآن

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ. وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ. وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، حُنَفَاءَ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ. وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدِينَ فِيهَا. أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (سورة البيّنة ٩٨/ ١-٦).

الطبري:

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: "**لم يكنِ الذينَ كَفَروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ مُنفكِّينَ حتّى تأتيَهُمُ البيِّنةُ**". فقال بعضهم: معنى ذلك: لم يكن هؤلاء الكفّار، من أهل التوراة والإنجيل، والمشركون من عبدة الأوثان "**منفكّين**"، أي منتهين، حتّى يأتيهم هذا القرآن. عن مجاهد قال: لم يكونوا لينتهوا حتّى يتبيّن لهم الحقّ. عن قتادة قال: منتهين عمّا هم فيه..

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنّ أهل الكتاب، وهم المشركون، لم يكونوا تاركين صفة محمّد في كتابهم، حتّى بُعث. فلمّا بعث تفرّقوا.

تلك هي **البيّنة: رسولٌ منَ اللّه، يَتْلو**، أي: يقرأ **صُحُفاً مُطَهَّرَةً** من الباطل. **فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**، أي: كتب من اللّه قيّمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ، لأنّها من عند اللّه.

وقوله: **وما تَفَرَّقَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ**، أي اليهود والنصارى في أمر محمّد، فكذّبوا به، **إلاّ منْ بَعْدِ ما جاءَتْهُم**، يعني: من بعد ما جاءت هؤلاء اليهود والنصارى **البَيِّنَة**، أي: بيان أمر محمّد أنّه رسول بإرسال اللهّ إيّاه إلى خلقه. يقول: فلمّا بعثه اللّه تفرّقوا فيه، فكذّب به بعضهم، وآمن بعضهم، وقد كانوا قبل أن يبعث غير مفترقين فيه أنّه نبيّ.

وقوله: **وما أُمِرُوا**، أي وما أمر اللّهُ هؤلاء اليهود والنصارى، الذين هم أهل الكتاب، **إلاّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ له الدينَ**، أي: مفردين له الطاعة، لا يخلطون طاعتهم ربَّهم بشرك، فأشركتِ اليهود بربّها بقولهم إنّ عزيراً ابن اللّه، والنصارى بقولهم في المسيح مثل ذلك، وجحودهم نبوّة محمّد...

وقوله: **وذلكَ دينُ القَيِّمَةِ**، يعني: أنّه هذا الذي ذكر أنّه أمر به هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، هو الدين القيِّمة. ويعني بالقيّمة: المستقيمة العادلة.

وقوله: **إنَّ الّذينَ كَفَروا** باللّهِ ورسوله محمّد، فجحدوا نبوّتَه، **من أهلِ الكتابِ**، أي: من اليهود والنصارى، **والمشركين** جميعهم **في نارِ جَهَنَّمَ، خالِدِينَ فيها**، أي ماكثين لابثين فيها أبَداً، لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها. **أولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ**" . أي: هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، هم شرّ مَن برأه اللّه وخلَقَه.

الزمخشري:

كان الكفّار من الفريقين: أهل الكتاب وعبدة الأصنام، يقولون، قبل مبعث النّبي: لا ننفكّ ممّا نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتّى

يُبعثَ النّبيُّ الموعود الذي هو مكتوب في التوراة واالإنجيل، وهو محمّد. فحكى اللّه تعالى ما كانوا يقولونه. ثم قال: **وما تَفَرَّقَ الذينَ أوتُوا الكتابَ**، يعني أنّهم كانوا يَعِدُون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحقّ إذا جاءهم الرسول. ثمّ ما فرّقهم عن الحقّ ولا أقرّهم على الكفر إلاّ مجيء الرسول.. والمعنى: أنّهم متشبِّثون بدينهم لا يتركونه إلاّ عند مجيء **البَيِّنَة**. والبيّنة ألحجّة الواضحة. **رَسُولٌ** بدل من البيّنة.

صُحُفاً قراطيس **مُطَهَّرَةً** من الباطل. **فيها كُتُبٌ** مكتوبات **قَيِّمَة**، أي مستقيمة ناطقة بالحق والعدل.

وما أُمِرُوا، أهلُ الكتاب في التوراة والإنجيل إلاّ بالدين الحنيفي، ولكنّهم حرّفوا وبدّلوا. **وذلكَ دينُ القَيِّمَةِ**، أي: دين الملّة القيّمة.

فإنْ قلتَ: ما وجه قوله: **وما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللّه**؟ قلتُ: معناه: وما أُمروا بما في الكتابَين إلاّ لأجل أن يعبدوا اللّه على هذه الصفة..

الرازي:

"لم يكنِ الذينَ كَفَروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ مُنْفَكِّينَ حتَّى تأتِيَهُمُ البيِّنَةُ: رسولٌ منَ اللّه يَتلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً، فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ. وما تَفَرَّقَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ إلاّ منْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ" .

إعلم أنّ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي في كتاب البسيط: هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً. وقد تخبّط فيها الكبار من العلماء. ثمّ إنّه رحمه اللّه تعالى لم يلخِّصْ كيفيّةَ الإشكالِ فيها.

.. **الثانية:** مناقضة في الظاهر. هذا منتهى الإشكال فيما أظنّ. والجواب عنه من وجوه:

أوّلها وأحسنها الوجه الذي لخّصه صاحب الكشاف (الزمخشري. أنظره أعلاه)..

وثانيها: أنّ تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكّين عن كفرهم، وإنْ جاءتْهمُ البيّنة. وعلى هذا التقدير يزول الإشكال. هكذا ذكره القاضي. إلاّ أنّ تفسير لفظة **حَتَّى** بهذا ليس من اللّغة في شيء.

وثالثها: إنّا لا نحمل قوله " **مُنْفَكِّينَ** " على الكفر، بل على كونهم منفكّين عن ذكر محمّد بالمناقب والفضائل. والمعنى لم يكن الذين كفروا منفكّين عن ذكر محمّد بالمناقب والفضائل حتّى تأتيهم البيّنة. قال ابن عرفة أي: حتّى أتتْهم. فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضي.. والمعنى: أنّهم ما كانوا منفكّين عن ذكر مناقبه. ثمّ لمّا جاءهم محمّد تفرّقوا فيه. وقال كلّ واحد فيه قولاً آخر رديّاً، ونظيره قوله تعالى: "وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الّذينَ كَفَرُوا. فَلَمّا جاءَهُمْ مَا عَرَفوا كَفَرُوا بِهِ" (٢/ ٨٩).

الطبرسي:

مُخْلِصِينَ له الدينَ، حُنَفَاءَ، أي: مائلين عن جميع الأديان إلى دين الإسلام، مسلمين مؤمنين بالرسل كلّهم. قال عطيّة: إذا اجتمع الحنيف والمسلم كان معنى الحنيف الحاج، وإذا انفرد كان معناه المسلم.. وقال ابن عبّاس: حنفاء أي حجّاج. وقال ابن جبير: لا تسمّي العرب حنيفاً إلاّ من حجّ واختتن. قال قتادة: ألحنيفيّة الختان وتحريم البنات والأمّهات والأخوات والعمّات والخالات وإقامة المناسك.

سيّد قطب:

"**إنَّ الّذينَ كَفَروا من أهلِ الكتابِ والمشركين في نارِ جَهَنَّمَ، خالدِينَ فيها. أولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ**". حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال. مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، بهذه الرسالة الأخيرة، وبهذا الرسول الأخير. لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح، المقطوعة الاتّصال بمنهج اللّه الثابت القويم...

(١٠١)

الله أحد صمد لم يلد ولم يولد

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. ولَمْ يَكُنْ له كُفُواً أَحَدٌ (سورة الإخلاص ١١٢/١-٤).

الطبري:

"**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**". ذكر أن المشركين سألوا رسول اللّه عن نسب ربّ العزّة، فأنزل اللّه هذه السورة جواباً لهم. وقال بعضهم: بل نزلتْ من أجل أنّ اليهود سألوه، فقالوا له: هذا اللّه خلق الخلق، فمن خلق اللّه؟ فأنزلتْ جواباً لهم...

واختلف أهل التأويل في معنى "**الصَّمَد**". فقال بعضهم: هو الذي ليس بأجوف، ولا يأكل ولا يشرب، عن ابن عبّاس. وعن مجاهد والحسن والضحّاك وعكرمة : ألصمد المصمت الذي لا جوف له. عن الشعبي: الصمد الذي لا يطعم الطعام ولا يشرب الشراب. عن سعيد بن المسيب قال: الصمد الذي لا حشوة له...

وقال آخرون: هو الذي لا يخرج منه شيء. عن عكرمة: لم يخرج منه شيء ولم يلد ولم يولد..

وقال آخرون: هو الذي لم يلد ولم يولد. عن أبي العالية قال: الصمد الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلاّ سيورث، ولا شيء يولد إلاّ سيموت...

وقال آخرون: هو السيّد الذي قد انتهى سؤدده...

وقـال آخرون: بـل هو الباقي الـذي لا يفنى. عن قـتادة قـال: ألصمد الدائم. قال أبو جعفر: ألصمد عند العرب هو السيّد الذي يصمد إليه الذي لا أحد فوقه...

" **وَلَمْ يَكُنْ له كُفُـواً أحَدٌ** ". اختلف أهل التـأويل في معنى ذلك. فقـال بعضـهم: معنى ذلك: ولـي يكن له شبـيه، ولا مثـل، ولا عدل، وليس كمثله شيء.. وقال آخرون: معنى ذلك أنّه لم يكن له صاحبة.

ألزمخشري:

" **قُلْ هُوَ** (ضمير الشأن) **اللّهُ أحَدٌ** (أي: الشأن هذا وهو أنّ اللّه واحد لا ثاني له). **اللّهُ الصَّمَد** (من صمد إليـه أي إذا قصده. والمعنى: هو اللّه الذي تـعـرفـونه وتقـرّون بأنّه خـالق السـمـوات والأرض وخالقكم، وهو واحد متوحّد بالإلهيّة لا يشارَك فيها، وهو الذي يصمد إليه كلّ مـخلوق لا يستـغنون عنه وهو الغني عنهم). **لَمْ يَلِدْ** (دلّ على هذا المعنى بقوله: "أنّى يكونُ له وَلَدٌ ولم تكنْ له صـاحبةٌ" (٦/ ١٠١). **وَلَمْ يُولَدْ** (لأنّ كلّ مـولود محدَث وجـسم، وهو قديم لا أوّل لـوجوده وليس بجسم؛ " **وَلَمْ يَكُنْ له كُفُواً أحَدٌ** " (أي: ولم يكافئْه أحد؛ أي: لم يماثله ولم يشـاكله. ويـجوز أن يـكون من الكفـاءة في النكاح نفـياً للصاحبة).

ألرازي:

روى أُبَيّ قـال: قال رسـول اللّه: " من قرأ سـورة «قل هو اللّه أحد»، فكأنّمـا قرأ ثلث القرآن. وأعطي من الأجـر عشر حـسنات بعدد من أشرك بالـلّه وآمن باللّه " . وقال عليـه الصلاة والسـلام: " من قرأ «قل هو اللّه أحد» مرّةً واحدة أعطي من الأجر كمن آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله. وأعطي من الأجر مثل مائة شهيد " ...

في سبب نزولها وفيه وجوه:

الأوّل: إنّهـا نزلت بسبب سـؤال المشركين: قـال الضحّـاك إنّ المشركين أرسلوا عـامر بن الطفيل إلى النّبي وقـالوا: شققتَ عـصانا، وسببتَ آلهتنا، وخالفتَ دينَ آبائـك. فإنْ كنتَ فقيراً أغنيناك، وإنْ كنتَ مـجنوناً داويناك، وإنْ هويتَ امرأةً زوّجـناكهـا. فقـال عليه الصـلاة والسلام: لست بـفقيـر، ولا مجنون، ولا هويتُ امـرأةً. أنا رسول اللّه أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبـادته. فأرسلوه ثانيةً، وقالوا: قلْ له بيّن لنا جنس مـعبودك. أمِنْ ذَهَبٍ أو فـضّةٍ؟ فأنزل الـلّهُ هذه السورة. فقالوا: ثلثـمائة وستّون صنماً لا تقوم بحـوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحـوائج الخلق؟ فنزلت: "وَالصَّـافَّاتِ.. إلى قـوله: إنَّ إلَهَكُمْ لَوَاحِـدٌ" (٣٧/١-٤). فأرسلوه أخرى. وقالوا: بيّن لنا أفعاله. فنزل: "إنَّ رَبّكم اللّهُ الّذي خلق السموات والأرض" (٧/٥٤).

الثاني: إنّها نـزلت بسبب سؤال الـيهود. عن عكرمـة عن ابن عبّاس قال: إنّ اليهود جاءوا إلى رسول اللّه ومعهم كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمّد! هذا اللّه خلق الخلق. فمَنْ خلقَ اللّه؟ فغضب نبيّ اللّه، فنزل جبريل فـسكّنه. وقال أخفض جناحَك يا مـحمّد! فنزل: "**قلْ هوَ اللّهُ أحد**". فلمّا تلاه عليهم قالوا: صفْ لنا ربّك، كـيف عضده، وكيف ذراعه؟ فـغضب أشـدّ من غضبـه الأوّل، فأتاه جـبريل بقـوله: "وَما قَدَرُوا اللّهَ حقَّ قَدْرِهِ" (٦/٩١).

الثالث: أنّها نزلتْ بسبب سؤال النّصـارى. عن ابن عبّاس قال: قـدمَ وفدُ نجـران، فقـالوا: صفْ لنا ربّك، أمِنْ زبرجد، أو ياقـوت، أو ذَهَبٍ، أو فـضّةٍ؟ فـقال: إنّ ربّي ليس من شـيء، لأنّه خـالق الأشيـاء. فنزلت: "**قلْ هوَ اللّهُ أحدٌ**". قالوا: هو واحد، وأنتَ واحـد. فقال: ليس

كمثله شيء. قالوا: زدْنا من الصفة. فقال: "**اَللّٰهُ الصَّمَدُ**". فقالوا: ما الصَّمَد؟ فقال: ألذي يصمد إليه الخلق في الحوائج. فقالوا: زدنا. فنزل: "**لَمْ يَلِدْ**"، كما ولدت مريم، "**وَلَمْ يُولَدْ**" كما ولد عيسى، "**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا اَحَدٌ**"، يريد نظيراً من خلقه.

"**قُلْ هُوَ اللّٰهُ اَحَدٌ**": إنّ الواحد والأحد ليسا إسمَين مترادفَين. قال الأزهري: لا يوصف شيء بالأحديّة غير اللّه. لا يقال: رجلٌ أحد، ولا درهم أحد، كما يقال: رجل واحد. بل أحد صفةٌ من صفات اللّه استأثر بها فلا يشركه فيها شيء.

ثمّ ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً: **أحدها**: إنّ الواحد يدخل في الأحد، والأحد لا يدخل فيه. **وثانيها**: إنّك إذا قلت فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يُقال: لكنّه يقاومه إثنان، بخلاف الأحد. فإنّك لو قلت: فلان لا يقاومه أحد، لا يجوز أن يقال: لكنّه يقاومه إثنان. **وثالثها**: إنّ الواحد يستعمل في الإثبات، والأحد في النفي. تقول في الإثبات: رأيتُ رجلاً واحداً. وتقول في النفي: ما رأيتُ أحداً، فيفيد العموم.

والمسألة التالية: لماذا "**أحد**" نكرة؟ قال الماوردي فيه وجهان: أحدهما: حذف لام التعريف على نيّة إضمارها، والتقدير: قلْ هو اللّه الأحد. والثاني: إنّ المراد هو التنكير على سبيل التعظيم.

"**اَللّٰهُ الصَّمَدُ**". فيه وجهان: ألأوّل: إنّه فعل بمعنى مفعول من صمد إليه، إذا قصده. وهو السيّد المصمود إليه في الحوائج... والقول الثاني: إنّ الصمد هو الذي لا جوف له. ومنه يقال لسداد القارورة: الصمّاد. وشيء مصمد أي صلب، ليس فيه رخاوة.. وقال بعض المتأخّرين من أهل اللّغة: ألصمد هو الأملس من الحجر الي لا يقبل

الغبار، ولا يدخله شيء، ولا يخرج منه شيء... والصمد صفة الأجسام المتضاغطة.. وذلك لأنّ الجسم الذي يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثّر عن الغير، وذلك إشارةً إلى كونه، سبحانه، واجباً لذاته، ممتنعَ التغيّر في وجوده وبقائه وجميع صفاته.

والصمد هو ١- الغني. ٢- والذي ليس فوقه أحد. ٣- والذي لا يأكل ولا يشرب. ٤- والباقي بعد فناء خلقه. ٥- ألذي لم يزل ولا يزال ولا يجوز عليه الزوال كان ولا مكان، ولا أين ولا أوان، ولا عرش ولا كرسي، ولا جنّيّ ولا إنسيّ، وهو الآن كما كان. ٦- ألذي لا يموت ولا يورَث. وله ميراث السموات والأرض.٧- ألذي لا ينام ولا يسهو. ٨- الذي لا يوصف بصفة أحد. ٩- ألذي لا عيب فيه. ١٠- الذي لا تعتريه الآفات. ١١- إنّه الكامل في جميع صفاته وفي جميع أفعاله. ١٢- إنّه الذي يغلب ولا يُغلب. ١٣- إنّه المستغني عن كلّ أحد. ١٤- إنّه الذي أيس الخلائق من الاطلاع على كيفيّته. ١٥- هو الذي لا تدركه الأبصار. ١٦- هو الذي لم يلد ولم يولد، لأنّه ليس شيء يلد إلاّ سيورث، ولا شيء يولد إلاّ وسيموت. ١٧- إنّه الكبير الذي ليس فوقه أحد. ١٨- إنّه المنزّه عن قبول الناقصات والزيادات، وعن أن يكون مورداً للتغيّرات والتبدّلات، وعن إحاطة الأزمنة والأمكنة والآنات والجهات.

وقوله: "**ألله الصمد**" يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى اللّه.. فقوله: "ألله أحد" إشارة إلى كونه واحداً، بمعنى أنّه ليس في ذاته تركيب ولا تأليف.. وقوله: "اللّه الصمد" إشارة إلى كونه واحداً، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد.

ألسؤال الأوّل: لِمَ جاء "أحد" منكَّراً، وجاء "الصمد" معرَّفاً؟

الجواب:.. إذا كانت الأحديّة مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق، وكانت الصمديّة معلومة الثبوت عند جمهور الخلق، لا جرم جاء لفظ "أحد" على سبيل التنكير، ولفظ "الصمد" على سبيل التعريف.

السؤال الثاني: ما الفائدة في تكرير لفظة "**الله**" في قوله: "**اللَّهُ أحَدٌ. اللَّهُ الصَّمدُ**"؟ **الجواب**: لو لم تكرّر هذه اللفظة لوجب في لفظ "أحد" و"صمد" أن يردا، إمّا نكرتَين، أو معرّفتَين. وذلك غير جائز.

الطبرسي:

"**قُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ**. قيل: إنّما قال "أحد"، ولم يقل "واحد"، لأنّ الواحد يدخل في الحساب ويضم إليه آخر، وأمّا الأحد فهو الذي لا يتجزّأ ولا ينقسم في ذاته ولا في معنى صفاته. ويجوز أن يفعل للواحد ثانياً، ولا يجوز أن يجعل للأحد ثانياً، لأنّ الأحد يستوعب جنسه بخلاف الواحد. ألا ترى أنّك لو قلت: فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقاومه اثنان، ولمّا قلت: لا يقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان، ولا أكثر. فهو أبلغ..

"**اللَّهُ الصَّمَدُ**". عن الحسين بن علي قال: ألصمد الذي قد انتهى سؤدده. والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال. والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب. والصمد الذي لا ينام.. والصمد السيّد المطاع الذي ليس فوقه آمر ولا ناه. ألصمد القائم بنفسه الغنيّ عن غيره. ألصمد المتعالي عن الكون والفساد. الصمد الذي لا يوصف بالنظائر.. ألصمد الذي لا شريك له... إنّ الله سبحانه قد فسّر الصمد، فقال: "**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. ولَمْ يَكُنْ له كُفُواً أحَدٌ**".

"**لم يلدْ**" أي: لم يخرج منه شيء كثيف كالولد.. ولا شيء لطيف كالنفس.. تعالى أن يخرج منه شيء... "**ولمْ يُولَدْ**" ، أي: اللّه الصمد الذي لا من شيء، ولا في شيء، ولا على شيء، مبدع الأشياء وخالقها، ومنشيء الأشياء بقدرته. يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه... "**وَلمْ يكنْ له كُفُواً أحدٌ**" ، من خلقه.

الصمد خمسة أحرف: " **فالألف**" دليل على آنيّته.. و" **اللاّم** " دليل على إلهيته بأنّه هو اللّه.. وأمّا "**الصاد**" فدليل على أنّه سبحانه صادق، وقوله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى اتّباع الصدق بالصدق، ووعدنا بالصدق، وأراد الصدق. وأمّا "**الميم**" فدليل على ملكه، وأنّه الملك الحقّ.. وأمّا "**الدال**" فدليل على دوام ملكه، وأنّه دائم تعالى عن الكون والزوال...

إبن عربي:

"**قُلْ هُوَ اللّهُ أحَـدٌ**" . ألفرق بين الأحد والواحد أنّ الأحد هو الذات وحدها، بلا اعتبار كثرة فيها، أي: الحقيقة المحضة التي هي منبع العين الكافوري، وهو الوجود من حيث هو وجود بلا قيد عموم وخصوص، وشرط عروض ولا عروض. والواحد هو الذات مع اعتباركثرة الصفات

"**اللّهُ الصَّمَدُ**" أي: الذات في الحضرة الواحديّة.. فهو الغني المطلق المحتاج إليه كلّ شيء.

أبو حيّان الأندلسي:

هذه السورة مكّيّة في قول عبداللّه، والحسن، وعكرمة، وعطاء، ومجاهد، وقتادة؛ مدنيّة في قول ابن عبّاس، ومحمّد بن كعب،

وأبي العالية، والـضحّاك. ولَمَّا تقدّم، فـيما قبلهـا، عداوة أقرب النّاس إلى الرسول، وهو عـمّه أبو لهب، ومـا كان يقاسي من عـبّاد الأصنام الذين اتّخذوا مـع اللّه آلهة، جاءتْ هذه السـورة مصرِّحـةً بالتوحـيد، رادّةً على عبّاد الأوثان، والقائلين بالثنـويّة، وبالتثليث، وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد.

اَللّه الصـمد: مـبتـدأ وخبـر. والأفـصح أن تكون هذه جمـلاً مستقلّة. قال أبيّ بن كعب : ألصمـد يفسّره ما بعده، وهو قوله: لم يلد ولم يولد. وقال الحسن: الصمـد المصمت الذي لا جوف له.. وقال ابن الأنباري: الصـمد هو السيِّـد الذي ليس فوقـه أحد، الذي يصمـد إليه النّاس في أمورهم وحوائجهم..

إبن كثير:

ألصـــمــد: الذي لم يـلد ولم يولـد، لأنّه ليس شـيء يولَد إلاّ سيموت، وليس شيء يموت إلاّ سـيورث، وإنّ اللّه، عزّ وجلّ، لا يموت ولا يورث.. عن أبي هُريرة، قـال: قال رسـول اللّه: لكلّ شيء نسـبة، ونسبة اللّه: "**قُلْ هُوَ اللّهُ أحَدٌ. اللّهُ الصَّمَدُ**" . والصمد ليس بأجوف... وقال ابن مسعود، وابن عبّاس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبداللّه بن بريدة، وعكرمـة أيضاً، وسـعيـد بن جـبيـر، وعطاء بن أبي رياح، وعطيّة العوفي، والضحّاك، والسدي: **ألصمد** الذي لا جوف له. وقال سفيان عن منصور عن مجاهد: **ألصمد** ألمصمت الذي لا جوف له.

عن أبي هُريرة عن النّبي قال: "قـال اللّه، عزّ وجلّ، كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك. وشـتـمني ولم يكن له ذلك. فـأمّـا تكذيبـه إيّاي فـقـوله: لن يعـيدَنـي كمـا بدأني. وليس أوّل الخـلق بأهون عليّ من

إعادته. وأمّا شتمه إيّاي فقوله: اتّخذ اللّهُ ولداً. وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد".

الآلوسي:

فرّق ثعلب بين "**أحد**" و "**واحد**"، بأنّ أحداً لا يُبنى عليه العدد ابتداءً، فلا يقال: أحد وإثنان، كما يقال: واحد وإثنان. ولا يقال: رجل أحد، كما يقال رجل واحد. ولذلك اختصّ به سبحانه.

وفرّق بعضُهم بينهما أيضاً بأنّ الأحد في النّفي نصّ في العموم بخلاف الواحد فإنّه محتمل للعموم وغيره. فيقال: ما في الدار أحد، ولا يقال: بل إثنان. ويجوز أن يقال: ما في الدار واحد بل إثنان.

ونقل عن بعض الحنفيّة إنّه قال التفرقة بينهما: أنّ الأحديّة لا تحتمل الجزئيّة والعدديّة بحال، والواحديّة تحتملها لأنّه يقال: مائة واحد، وألف واحد. ولا يقال: مائة أحد، ولا ألف أحد.

وبنى على ذلك مسألة الإمام محمّد بن الحسن التي ذكرها في الجامع الكبير: إذا كان لرجلٍ أربعُ نسوة ولم يجزْ أن يقرب واحدة منهنّ إلاّ بكفّارة. ولو قال: واللّه، لا أقرب إحداكنّ، لم يصر مواليّاً إلاّ من إحداهنّ. والبيان إليه.

وفرّق الخطابي بأنّ الأحديّة لتفرّد الذات، والواحديّة لنفي المشاركة في الصفات..

ألفصل الثاني

ألنصرانية والإسلام المكّي

أوّلاً – ألإسلام المكّي إسلام بيبلي

ثانياً – في عيسى ابن مريم

ثالثاً – في الفروض والعبادات

رابعناً – في الحسنات والصدقات

خامساً – في أحوال المَعاد

سادساً – في أمثال الإنجيل والقرآن



مقدمة

نستعرض في هذا الفصل نصرانيّة القرآن ومعتقداتها بحسب موضوعاتها، وفي الفصل الثالث نتكلّم على المسيحيّة في القرآن: ألنصارى أصحاب مودّة وإحسان؛ فيما المسيحيّون كفّار مشركون، «غلوا في دينهم»، وقالوا في اللّه ثلاثة، وفي المسيح أنّه ابنٌ له؛ وحرّفوا الإنجيل. فيجب قتالهم.

في هذا الفصل ، كلامٌ على «النصارى»، وتعاليمهم في بشارة زكريّا بابنه يحيى، وبشارة بنت عمران بمولد مريم، وعناية اللّه بمريم هذه، وبشارة مريم بعيسى، وميلاد عيسى، وسيرته، ومعجزاته، وتعاليمه، وصلبه، ورفعه... وقد جاء القرآن مصدِّقاً للتوراة والإنجيل وتعاليم النصرانيّة؛ كما جاء محمّد يكمّل رسالة الأنبياء، ويختم رسالات السماء إلى الأرض.

وفي الفصل التالي، تكفيرٌ «للمسيحيّين»، بسبب إيمانهم في الثالوث، وروح القدس، وألوهيّة المسيح، وبنوّته للّه، وتحريفهم التوراة والإنجيل، واختلافهم مع اليهود في كلّ شيء...

هذه في القرآن المدني، ومن أواخر حياة النبيّ محمّد، عندما تعرّف إلى وفد نجران النسطوري. وقد كان له منه موقف سياسيّ عدائيّ، وتعاليم دينيّة مرفوضة.

ولكن تعترضنا، في التمييز بين نصارى القرآن ومسيحيّيه، صعوبات أربع :

الأولى صعوبة معرفة هويّة «أهل الكتاب» في القرآن؛ فتارةً هم اليهود، وطوراً هم النصارى، وطوراً آخر هم اليهود والنصارى معاً[1]؛ وطوراً ثالثاً هم «المسيحيّون». والاختلاف بين المفسّرين أيضاً واضح في هويّة كلٍّ من هؤلاء. والذي يحدّد الهوّيّة الحقّة هو معرفتنا بحقيقة التمييز بين «النّصارى» و«المسيحيّين»[2]، إنطلاقاً من معلومات بيبليّة وكنسيّة.

أمّا الصعوبة **الثانية** ففي معرفةِ ما هو مكّي وما هو مدنيّ في القرآن. لقد مرّ القرآن بمراحل متطوّرة بالنسبة إلى فهم النصرانيّة ومعتقداتها، وإلى اتّخاذ مواقف منها مختلفة، وإلى القول بآياتٍ ناسخة لآيات منسوخة؛ حتّى بتنا لا نعرف إنْ كان النصارى "أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا" (٥/ ٨٢)، أم هم «الَّذِينَ

---

(١) يرد تعبير "أهل الكتاب" في القرآن **٣١** مرّة. راجع السوَر التالية : ألبقرة ٢/ ١٠٥ و١٠٩؛ آل عمران ٣/ ٦٤ و٦٥ و٦٩ و٧٠ و٧١ و٧٢ و٧٥ و٩٨ و٩٩ و١١٠ و١١٣ و١٩٩؛ ألنساء ٤/ ١٢٣ و١٥٣ و١٥٩ و١٧١؛ ألمائدة ٥/ ١٥ و١٩ و٥٩ و٦٥ و٦٨ و٧٧؛ ألعنكبوت ٢٩/ ٤٦؛ ألأحزاب ٣٣/ ٢٦؛ ألحديد ٥٧/ ٢٩؛ ألحشر ٥٩/ ٢ و١١؛ ألبيّنة ٩٨/ ١ و٦.

(٢) ألمعروفون في التاريخ بالـ Judéo-chrétiens، وقد نشأوا منذ أوائل الكنيسة. وكان الخلاف بينهم وبين المسيحيّين Les Chrétiens في وجوب إقامة شريعة التوراة أم لا، أي في الحفاظ على السبت والأحد معاً، وفي ممارسة الختان والمعموديّة معاً، وفي اعتبار يسوع المسيح جاء مكمِّلاً لموسى أم الإيمان به وحده يكفي. وغير ذلك.

قَـالُوا إنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَة "[٣]، وهم، بالتـالي، كفّـارٌ ومشـركون. وعلى المسلمين قتلهم: " فَـاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيثُ وَجَـدْتُمُوهُمْ "[٤]. وهم، في الآخرة، في نار جهنّم[٥].

والصعوبة **الثالثة** تقوم على معرفة ما يعود إلى مختلف " الشِّيَع " النّصرانيّة التي كانت موجودة في بيئة مكّة ومجتمع محمّد، زمن نشأة الإسلام و" جمْع " القرآن. هذه الشِّيَع معروفة في تاريخ الكنيسة، بأسمائها وتعاليمها. وهي كانت في أساس معرفة محمّد للنصرانيّة وتعاليمها. من هذه الشِّيَع: الإبيونيّة، والأريوسيّة، والقِيرَنْثِيّة، والكسائيّة، والصابئة، والغنوصيّة، وغيرها. وفي القرآن من تعاليمها الكثير[٦].

والصعوبة **الرّابعة** تقوم على معرفة التمييز بين نصرانيّة مكّة ومسيحيّة نجران وبلاد الشام ومناطق الفتح الإسلاميّ. تعاليمُ نصرانيّةِ مكّة هي نفسها تعاليم القرآن؛ فيما تعاليم مسيحيّة بلاد الشام تختلف اختلافاً كبيراً عن تعاليم القرآن. ولقد خلط معظم الباحثين في الإسلام بين هاتَين " النصرانيّة " و" المسيحيّة ". وكذلك معظم المستشرقين الذين ترجموا الكلمتَين بكلمةٍ واحدة: Le christianisme.

---

(٣) سورة المائدة ٥/ ٧٣.
(٤) سورة التوبة ٩/ ٥؛ أنظر: ٩/ ٣٦: " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كافَّةً ".
(٥) سورة البيّنة ٩٨/ ٦.
(٦) راجع في ذلك كلّه كتاب " قسّ ونبيّ ".

وللحــال نقــول: إنّ نصارى مكّــة هم يهودٌ–مــتنصّــرون، Judéo-Chrétiens يُقِيمُونَ التَّورَاةَ والإنْجِيلَ مــعاً، بحسب تعبير القرآن: "قُلْ: يَا أَهْلَ الكِتَابِ! لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّورَاةَ وَالإنْجِـيلَ وَمَا أُنْـزِلَ إِلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُم" (٥/٦٨). وهم يعــتبــرون المسيحَ ابنَ مريمَ نَبِيّاً مُرْسَلاً من اللّه، لا إلهاً، أو إبناً للّه، تماماً كما يقول القــرآن، لا كمــا يقول مــسيحــيّو نجــران وبلاد الشام؛ ولا أيضــاً إنسانــاً عــاديّاً، كمــا يقــول اليهــود. هؤلاء ظالمون، وأولئك مــغــالون. أمّــا النَّصــارى فــهم «أُمَّة وســط»، أي هم الذين آمنوا برسالة محمّد: "وَكَذَلِـكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" (٢/١٤٣)؛ وهم أيضــاً "أُمَّةٌ مُـقْـتَصِـدَةٌ" (٥/٦٦) في عقيدتها، وعلى «دِين القَيِّمَة» (٩٨/٥)، أي «الدِّين القَيِّم»[٧]. فذلك هو الصِراط المستقيم[٨].

إنّ التمــييــز بين نصرانيّــة مكّة ومسيــحيّــة نجران وبلاد الشام[٩] هو من أسس معرفــة مواقف محمّــد والقرآن والإسلام والمسلمين من مسيــحيّي اليوم. والخلط بين «مكّة» و«المدينة» هو الذي أفسَد المواقف كلَّها.

---

(٧) سورة التوبة ٩/٣٦؛ سورة يوسف ١٢/٤٠؛ سورة الروم ٣٠/٣٠ و٤٣.

(٨) يرد تعبير «الصراط المستقيم» ٣١ مرّة، و«صراطاً مستقيماً» ٦ مرّات.

(٩) باعتــبار أنّ مــحمّــداً تعرّف إلى "المسيــحيّــة"، ولأوّل مرّة، من وَفــد نجران المؤلّف من ستّين شــخصــاً، بينهم الأسقف والسيّــد والعالم. واســتطاعوا أن يأخذوا من مــحمّد أمــاناً موقّتــاً، حتى يبقــوا على إيمانهم، شرط أن يدفــعوا "الجزية"، وأن يخضعوا لشروط عديدة.

في هذا الفصل نتناول موضوعاتٍ نصرانيّة كان القرآن لها مُوافِقاً، ولو اختلفَ في التعبير عنها بعضَ الشيء. موقف القرآن من هذه الموضوعات هو نفسه موقف نصارى مكّة وشِيَعها، وبنوع خاص الشيعة الإبْيُونِيّة Ebionisme التي هي أهمّ شيع «اليهود-المتنصّرين» Les Judéo-Chrétiens، المعروفة في التاريخ الكنسي معرفةً جيّدة.

وعليه، فإنّنا نتناول أهمّ الموضوعات العائدة إلى النصرانيّة كما عرفتْها مكّة، وتعرّف إليها النبيّ محمّد، وتأثّر بها وبكثيرٍ من الرهبان والأحبار والقسّسين في مجتمعه. وموضوعات الوفاق عديدة؛ حتّى إنّه يسعنا القول بأنّ ما بين نصرانيّة مكّة والإسلام خلافاً في الإسم لا غير؛ وبين «إنجيل القسّ وَرَقَة العبراني» و«قرآن محمّد عربي» مقاربة حتّى يكاد يكون هذا نقلاً لذاك.

فلنبدأ بالبداية:

أوّلاً – إسلام مكّة إسلام بيبلي

معنى كلمة «إسلام» ومشتّقاتها في القرآن غير معناها الذي أصبح لها في ما بعد القرآن وفي التاريخ الإسلامي اللاّحق. والمعنى القرآني أوّل وأولى، وهو المقبول؛ أمّا المعنى اللاّحق ففيه نظر.

"الإسلام"، في القرآن، يعني دينَ النّبيّين السابقين، ودينَ أولئك الذين اتّبعوا محمّداً من دون أن يفرّقوا بين نبيّ ونبيّ، أو بين كتاب وكتاب. إنّه دين الذين وحّدوا اللّه، ورفضوا الشرك. والمسلمون الحقيقيّون هم الذين لا يزالون على إيمان مَن أسماهم القرآن "أهل كتاب"، قبلَ أن يتفرّقوا شيَعاً وفرَقاً وأحزاباً. قال: "قلْ: يا أهلَ الكتاب! لستُمْ على شيءٍ حتّى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليكم من ربِّكم" (سورة المائدة ٥/٦٨) :

فالنّبي **نوح،** أوّلُ رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض، قال: "أُمِرتُ أن أكونَ **من المسلمين**" (١٠/٧١).

وإبراهيم، "ما كانَ إبراهيمُ يهوديّاً، ولا نَصرانيّاً. ولكن كانَ حنيفاً **مُسْلِماً**. وما كان من المشرِكين" (٣/٦٧).

وقال في إبراهيم أيضاً: «إذ قال له ربُّه: **أسلمْ**. قال: **أسلمتُ** لربّ العالمين» (٢/١٣١).

وهو وابنُه **إسماعيل** يصلّيان إلى اللّه ويعلنان إسلامَـهما: "ربَّنا! تقبّلْ منّا. إنّكَ السميعُ العليم. ربّنا! واجعلنا **مسلمَين** لكَ. ومن ذرّيتنا أُمّةً **مُسلمةً** لكَ" (٢/١٢٧-١٢٨).

وعن إبراهيم وابنه اسماعيل قال أيضاً: «فلمّا **أسْلما** وَتَلَّهُ للجبين (أي صرعه عليه)» (٣٧/١٠٣).

(وقرى **قوم لوط**)، "ما وجَدْنا فيها غيرَ بيتٍ من **المسْلِمين**" (هو بيت لوط وابنتَيه) (٥١/٣٦).

ويعقوب أيضاً يوصي بنيه قُبيل موته قائلاً: "يا بَنيَّ! إنّ اللّه اصطفى لكم الدّينَ. فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم **مسلِمون**" (٢/١٣٢)

وبنو يعقوب كانوا لأبيهم أوفياء فاستجابوا وصيّته، وقالوا: "نعبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبائكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ إلهاً واحداً. ونحن له **مسلمون**" (٢/١٣٣).

ويوسف الصدّيق يصلّي إلى ربّه قائلاً: "ربِّ!.. أنتَ وليّي في الدنيا والآخرة. تَوَفَّني **مسلماً**، وألحِقْني بالصالحين" (١٢/ ١٠١).

وموسى أيضاً يقول لشعبه: "إنْ كنتم آمنتم باللّه فعليه توكّلوا إنْ كنتم **مسلمين**" (١٠/ ٨٤).

وكذلك **فرعون**، الذي حاول أن يتوب إلى اللّه قبل أن يدركَه الغَرَق، قال: "لا إلهَ إلاّ الذي آمنتْ به بنو إسرائيل. **وأنا من المسلمين**" (١٠/ ٩٠).

و**السحرة** اعترفوا أمام فرعون: "... ربَّنا أفْرِغْ علينا صبراً. وتَوَفَّنا **مُسلمين** " (٧/١٢٦).

وكذلك **الجِنّ** منهم مسلمون ومنهم جائرون. قال: «وأنّا مِنّا المُسْلِمونَ، ومِنّا القاسِطونَ[١٠]. فمَنْ أسْلَمَ فأولئكَ تَحَرَّوا رَشَداً[١١]. وأمّا القاسِطونَ فكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً[١٢].

وقال **سليمان:** "وأوتينا العلمَ من قبلِها (أي قبل بلقيس ملكة اليمن) وكنّا **مسلمين** " (٢٧/٤٢).

وقال أيضاً: "إنّه مِن سُليمانَ وإنّه بسم اللّه الرحمن الرحيم، ألاّ تَعلُوا عليَّ وأْتُوني **مُسْلِمِين** " (٢٧/ ٣٠-٣١).

وقال أيضاً: "يا أيّها الملأ! أيُّكم يأْتيني بعرشِها قبلَ أنْ يأتوني **مُسْلِمِينَ** " (٢٧/٣٨).

وبلقيس ملكة اليمن، التي آمنت بسليمان، أعلنت إسلامَها فقالت: "ربِّ! إنّي... **أسْلَمتُ** مع سليمان للّهِ ربِّ العالَمين" (٢٧/ ٤٤).

و **أنبياء بني إسرائيل** الذين أسلموا يحكمون على ما نزل في التوراة. قال: "إنّا أنزَلْنا التوراةَ فيها هدى ونورٌ. يحكم بها النبيّونَ الّذينَ **أسلموا** للذين هادوا..." (٥/ ٤٤).

---

(١٠) **القاسط** وهو الجائر عن الحقّ، بخلاف المُقسط فإنّه العادل.

(١١) أي: قصدوا طريق الحقّ وتوخّوه. أو طلبوا لأنفسهم النّجاة.

(١٢) **القاسطون**، الجائرون عن طريق الحقّ، هم لجهنّم وقود:٢/ ٢٤.

وقال عن **حواريّي عيسى** الإثني عشر، الذين شهّدوا عيسى على إسلامهم: "فلمّا أحسّ عيسى منهم الكُفرَ، قال: مَن أنصاري إلى اللّه؟ قال الحواريّون: نحن أنصارُ اللّه. آمَنّا باللّه. واشهدْ (يا عيسى) بأنّا **مسلمون**" (٣/ ٥٢).

وفي المعنى نفسه، قال: "وإذْ أوحيتُ إلى الحواريّين أنْ آمنوا بي وبرسولي (عيسى). قالوا: آمَنّا. واشهدْ (يا عيسى) بأنّنا **مسلمون**" (٥/ ١١١).

ويبدو أنّ **"أهلَ الكتاب" كلَّهم**، بحسب ما جاء في القرآن، يهوداً كانوا أم نصارى، وعلى مختلف شيعهم، كانوا مسلمين. قال: "قلْ يا أهلَ الكتاب! تعالَوا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننا وبينَكم: ألاّ نعبُدَ إلاّ اللّهَ. ولا نُشرِكَ به شيئاً. ولا يتّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون اللّه. فإنْ تَوَلَّوا فقولوا: إشْهدوا بأنّا **مسلمون**" (٣/ ٦٤).

وقال أيضاً عن أهل الكتاب الذين "قالوا: لن يَدخُلَ الجنّةَ إلاّ مَن كان هوداً -أو نصارى-. تلك أمانيُّهم... بلى مَن **أسْلَمَ** وجهَهُ للّهِ وهو محسنٌ فله أجره عند ربّه..." (٣/ ٥٢).

وأيضاً: "ومَن أحسنَ ديناً ممّن **أسْلم** وجهَه للّه وهو محسنٌ، واتّبعَ ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً، واتّخذ اللّهُ إبراهيمَ خليلاً" (٤/ ١٢٥).

وأيضاً: "ومَن **يُسْلمْ وجهَه** إلى اللّه وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوُثقى. وإلى اللّه عاقبةُ الأمور" (٣١/ ٢٢)؛

ويؤمنون برسالة النبّيّين السابقين جميعهم، ولا يفرّقون بينهم. والمسلمون، في تعريف القرآن، هم الذين "يوحّدون" و"لا يفرّقون"، وهم الذين "يقيمون الكتاب كلّه" ولا يميّزون، وهم الذين يؤالفون بين الشيع والأحزاب ولا يتحزّبون. من هذه الآيات:

قال أهلُ الكتاب : "إنّا كنّا من قبْله (أي من قبْل القرآن) **مسلمين**" (س القصص ٢٨/ ٥٢).

وجاء في القرآن : "هو سَمّاكم **المسلمين** من قبل وفي هذا (القرآن)" (س الحج ٢٢/ ٧٨).

وقال اللّه لمحمّد : "وما أرسلناكَ إلاّ رحمةً للعالمين. قل: إنّما يُوحَى إليّ إنّما إلهكم إله واحد. فهل أنتم **مسلمون**؟" (٢١/ ١٠٧-١٠٨).

وقال النّبيُّ لأتباعه: "ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلاّ بالتي هي أحسنُ إلاّ الذين ظلموا منهم. وقولوا: آمنّا بالذي أُنْزِلَ إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد. ونحن له **مسلمون**" (٢٩/ ٤٦).

وقال اللّه لمحمّد : «وما أرسلناكَ إلاّ رحمةً للعالمين. قل: إنّما يُوحَى إليّ إنّما إلهكم إله واحد. فهل أنتم **مسلمون**؟» (٢٧/ ٩١).

وفي النتيجة، إنّ اللّهَ "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذي أَوْحَيْنَا إلَيكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّيْنَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ" (٤٢/ ١٣).

وثمّة آيات أخرى أيضاً تدلّ على أسبقيّة الإسلام البيبلي على الإسلام العربي. وهي تشير إلى أنّ النّبيّ محمّد نفسَه أعلنَ انضمامَه إليه، ودعا إلى إقامةِ أحكامه، والالتحاقِ بأتباعه. وهو، على ما يبدو، أمرٌ إلهيّ (؟).

قال : "وأُمِرْتُ (؟) أنْ أكونَ منَ **المسْلِمين**، وأنْ أتلوَ القرآنَ" (٢٧/ ٩١-٩٢).

وقال : "أُمِرتُ (؟) أن **أُسلِمَ** لربِّ العالَمينَ" (٤٠/ ٦٦).

ثم اشتدّ عليه الأمر (؟)، ودعا (؟)هُ إلى أن يكون رأسَ المسلمين، وإمامَهم، والمسؤولَ عنهم، وسيّدَهم، وقائدَهم، ووليَّ أمرِهم، وبكلمة: أوّلَهم. قال: "وأُمِرتُ (؟) لأنْ أكونَ **أوّلَ المسلمين**" (٣٩/ ١٧).

وقال أيضاً : "وإنّي أُمِرتُ (؟) أن أكونَ **أوّلَ مَن أسلمَ**" (٦/ ١٤).

وقال أيضاً : "وبذلك **أُمِرْتُ** (؟) **وأنا أوّلُ المسلمين**" (٦/ ١٦٣).

هذه **الأولويّة**، كما هو واضح، ليست **أوّليّة** زمنيّة، بل هي أولويّة في المقام والمسؤوليّة. ويُستبعد جداً أن تكون أوّليّة زمنيّة بعدما أثبت القرآنُ نفسُه أسبقيّةَ الإسلام البيبلي على الإسلام العربي؛ وأسبقيّة إسلام النبيّين وأهل الكتاب كافّةً على إسلام محمّد وأتباعه.

وهذا **الأمر**، المتواتر على محمّد، هل هو من اللّه مباشرة؟ أم من شخصٍ آخر يتكلّم باسم اللّه؟! يبدو أنّ القسّ وَرقة بن نَوفل، ابن عمّ السيّدة خديجة، زوج النبيّ، وأقرب المقرّبين إلى محمّد، وخبير بمعرفة ناموس موسى وعيسى، وقد تنبّأ مراراً على ما سيكون عليه محمّد... هو الذي قام بـ**الأمر**، أمرِ التبليغ والإنذار[١٧].

لهذا، ليس للمسلمين اليوم حجّةٌ في أن يضيّعوا على الإسلام الحقيقي زمناً سابقاً على الزمن الذي حدّدوا فيه نشأته. وليس لهم أن يدّعوا الإسلام كأنّه أعطي لهم من دون سواهم. وليس لهم أخيراً أن يكونوا على غير ما كان عليه محمّد وصحبُه.

***

هذا **الإسلام السابق**، أي دين هو؟

إذا تفحّصنا جيّداً تعاليمَ الإسلامِ وتعاليمَ النصرانيّة التي كانت تعيش في الجزيرة العربيّة آنذاك، نجدها تعاليم واحدة مشتركة.

ألإسلام المكّي لا يختلف عن النّصرانيّة العربيّة في شيء، بل هو هذه النّصرانيّة عينها : يعتقد معتقدَها، يُقيم كتبَها، يدعو دعوتَها، يتّبع أنبياءَها، يؤمن إيمانَها، يرفع شعارَها، يسير بموجب شريعتها، يمارس فروضَها، واحداً فواحداً[١٨].

---

(١٧) رَ : كتاب قسّ ونبيّ، ففيه بحث وافٍ عن دور القسّ ورقة.

(١٨) يُراجع كتاب **قسّ ونبيّ** في ذلك، والقسم الثاني من هذا البحث.

والأجدر القول: إنّ النصرانيّة والإسلام دين واحد باختلاف الإسم. أو قل: إنّ الإسلامَ هو الاسمُ العربيّ للنصرانيّة المكّية.

هذا الإسلام-النصراني هو الدّين الذي ارتضاه اللّه لعباده: ".. أليومَ أكملتُ لكم دينَكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم **الإسلامَ** ديناً" (٥/ ٣).

ولا دين عند اللّه مقبول سواه: "مَن يبتغِ غيرَ **الإسلام** ديناً فلن يُقبَلَ منه" (٣/ ٨٥)، و"إنّ الدّينَ عند اللّه **الإسلام**" (٣/ ١٩). و"من يُرِدِ اللّهُ أن يهديَه يشرحْ صدرَه **للإسلام**" (٦/ ١٢٥). و"هو على نورٍ من ربِّه" (٣٩/ ٢٢). وهو نعمةٌ من اللّه يُمَنّ عليها: "لا تَمَنّوا عليّ **إسلامكم**، بل اللّهُ يَمَنُّ عليكم" (٤٩/ ١٧).

هذه الآيات وغيرها، حيث ترد لفظة "**إسلام**"، تدلّ، مرّة أخرى، على أنّ الإسلام، في نظر القرآن، ليس ديناً مستقلاً عن "النصرانيّة" حتّى يتصارعا؛ ولا هو يهادن "المسيحيّة" حتّى يتحاورا. إنّ الإسلام المكّي كان قبل الإسلام الذي يقول به المسلمون؛ وإنّ الوحي فيه استمرارٌ للوحي البيبلي؛ وتعاليمه وطقوسه هي نفسها تعاليم النّصرانيّة وطقوسها.

فبهذا المعنى، نقول إنّ للإسلام المكّي مع "النصرانيّة" نشأة واحدة، معتقدات مشتركة، وطقوساً متشابهة، وتراثاً واحداً.

والمسـيحـيّون اليـوم، لا يسعـهم التـبرّؤ من هذا التـراث الواحد المشـترك بينهم وبين المسلمين. على هذا يتحـتّم عليهم أن يتـعاملوا مع الإسـلام تعاملهم مع حـركة روحـيّة إجـتمـاعيّـة تصحيحيّة ثوريّة فـي مجتمع مكّة. ويجب على المسلمين أيضاً أن يتـعاملـوا مع الإسلام المكّي علـى أنّه جزء من تراث الـنصرانيّـة وتعاليمها الدينيّة والاجتماعيّة..

بهذا الاعـتبـار يُصبح **الصراع** بين المسيـحيّـة والإسلام صراعاً سيـاسيّاً لا أكثر ولا أقلّ. وبالاعتـبار أيّاه يصبح **الحوار** بين المسيـحيّـة والإسلام كحـوار مَن يكلّم نفسَـه... وبالتالي، لا مكان بين النصرانيّة والإسلام، لا للصراع السياسي، ولا للحوار الديني..

ونردّد، فنقـول: إنّ كلّ مـا في الإسـلام ممّا لا يـقـبل به المسيحيّون اليوم، وكلّ ما في المسـيحيّة ممّا لا يقبل به المسلمون اليومَ أيضاً، يعـود إلى تلك الشيع النّصرانيّة العـربيّة التي كانت في أنحاء الجزيرة العربيّة، وإلى ذاك المجتمع الناشئ الذي أسّسه محمّد بموجب معطيات ذاك الزمان.

وإذا شاء أحدُنا أن يفـهم حقيقة الأمـور، عليه أن يعود إلى تلك البـدايات، ويتخطّى "تـنزيلات جبـريل"، إلى تلك الأسبـاب التاريخيّة والاجتماعـيّة والدّينيّة التي نشأ الإسلام في ظلّها. عند ذاك تبدأ مسيرةٌ جدّيّة، جديدةٌ، جديرةٌ بالبقاء.

ثانياً - في عيسى ابن مريم

معتـقدات النصارى، وتعاليمهـم، وممارساتهم الدينيّة في القرآن هي نفسـهـا معتقدات المسلمين، وتعاليـمهم، وممارساتهم. والمقـارنة بين المـصـادر النصـرانيّـة، من نـصـوص الأناجـيل والرسائل وأعـمال الرسل والرؤى وأقوال آباء الكنيسـة والشيع النصرانيّـة عبر التاريخ، وما في الـقرآن يُنبئ عن مقاربة كـبيرة جدًا.

هذه المقاربة تشـدّنا إلى القول بأنّ دعوة القـرآن لا تختلف عن دعـوة النصـارى في أيٍّ شيء. فلنبـدأ ببدايـة الموضوعـات النصرانيّـة، أي بالكلام على زكريّا وابنه يحـيى، ثم بمولد مريم، وبشارتها بعيـسى، ثمّ بحياة عيسى ومعجزاته، وتعـاليمه.. كلّها يؤيّدها القرآن ويدعو دعوتها.

١ - في زكريّا ويحيى

يرد إسم زكـريّا في القـرآن، ٧ مـرّات[١]، واسم يحـيى ٥ مرّات[٢]. لقـد كان زكـريّا، أحد شـيوخ بني إسـرائيل، في زمن

(١) في الآيات التـالية: آل عـمران ٣/ ٣٧ (مـرّتين) و ٣٨؛ الأنعام ٦/ ٨٥؛ مـريم ١٩/ ٢ و٧؛ الأنبياء ٢١/ ٨٩.

(٢) في الآيات التالية: ٣/ ٣٩؛ ٦/ ٨٥؛ ١٩/ ٧ و١٢؛ ٢١/ ٩٠.

المسيح، شيخاً طاعناً في السنّ، وقد شارف على الموت من دون ذرّيّة، بسبب عقم زوجته. وكان يصلّي إلى ربّه ليرزقه ولداً، فَلا يَبقى وحيداً: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ: رَبِّ! لا تَذَرْنِي فَرْدًا. وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ» (٢١/ ٨٩).

فبشّره اللّهُ بما أراد: «يا زَكَريّا! إنّا نبشّرُكَ بغلامٍ اسمُه يحيَى» (١٩/ ٧)؛ «فاستَجَبْنَا لَهُ. وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى. وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوجَهُ (أي: فأتتْ بالولد بعد عقمها)»[٣]. ولمّا عسر على زكريّا، بسبب كِبرِ سنّه وعقر زوجته، تصديق ذلك، طلبَ من ربّه "آية" على ذلك. فكانت الآية أن «لا يكلّم الناس ثلاثة أيّام»[٤].

ووُلد الولد. وسُمِّي "يَحيى"، «وَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا» (١٩/ ٧)؛ كما في إنجيل لوقا حيث «قيل لأمّه: لا يُدعَى أحدٌ من أقاربكِ بهذا الاسم»[٥]؛ فاختاره اللّهُ له نبيّاً؛ كما في لوقا حيث يقول: «وأنتَ، أيّها الطِّفل، نبيَّ العليِّ تُدعى»[٦]؛ وآتاه الحكمة والنّبوّة وهو لم يزل صبيًّا (١٩/ ١٢). وميّزه بالتّقوى والبتوليّة فجعله «سيِّداً وحَصُورًا» (٣/ ٣٩)؛ كما في لوقا حيث «كانت يدُ الربِّ حقًّا معه»[٧].

---

(٣) سورة الأنبياء ٢١/ ٩٠؛ أمّا في سورة آل عمران ٣/ ٣٩ فالملائكة هي التي نادتْ زكريّا.

(٤) كما في آل عمران ٣/ ٤١؛ أمّا في مريم ١٩/ ١٠ فـ"ثلاث لَيالٍ".

(٥) إنجيل لوقا ١/ ٦١.

(٦) إنجيل لوقا ١/ ٧٦.

(٧) إنجيل لوقا ١/ ٦٦.

ويحيى وعيسى هما النّبيّان الوحيدان، بين الأنبياء كلّهم، اتّخذا الزّهد والبتوليّة مسلكاً في حياتهما. وقد رفع القرآن من شأنه، فجعله كزكريّا وعيسى والياس، «من الصالحين» (٦/ ٨٥). والمقارنة بين يحيى وإيليّا في الأناجيل واضحة جدًّا. قال يسوع: «وإنْ شِئْتُم أن تُصَدِّقُوا فيُوحنّا هو إيليًّا المنتَظَر»[٨].

وأخيراً ألقي عليه سلامَ اللّه في قوله: «سَلامٌ عَلَيه يَومَ وُلِدَ، ويَومَ يموتُ، ويَومَ يُبعَثُ حيّاً»[٩]. هذا المديح ليوحنّا لا يقلّ عمّا في الأناجيل حيث كان يقول يسوع عنه: «أقول لكم: إنّ يوحنّا أكثر من نبيّ»[١٠]؛ و«سيكون عظيماً في عين الربّ، لا يشرب خمراً، ولا مسكراً، ويمتلئ روحاً قدُساً وهو بعدُ في حشا أمّه»[١١]؛ و«ليس في مواليد النساء أعظم من يوحنّا»[١٢].

٢ – في مولد مريم

نظرة القرآن والنّصارى إلى مريم أمّ عيسى واحدة. وبسببها يفترقان عن اليهود الّذين يتّهمهم القرآن بالكفر وقول الزور: «وَبِكُفْرِهِم وَقَولِهم عَلى مريمَ بُهتاناً عظيماً» (٤/ ١٥٦).

---

(٨) متى ١١/ ١٤؛ رَ: متى١٧/ ١٠–١٣؛ مر ٩/ ١١–١٣؛ لوقا ١/ ١٧؛ يوحنّا ١/ ٢١.

(٩) مريم ١٩/ ١٥؛ راجع في ما يخصّ زكريّا ويحيى: مريم ١٩/ ٢–١٥؛ الأنبياء ٢١/ ٨٩–٩٠؛ آل عمران ٣/ ٣٨–٤١؛ الأنعام ٦/ ٨٥.

(١٠) متى ١١/ ٩ و١١؛ ١٤/ ٥؛ ١٦/ ١٤؛ ٢١/ ٢٦؛ لوقا ١/ ٧٦.

(١١) لوقا ١/ ١٥؛ رَ: لوقا ١/ ٤١.

(١٢) لوقا ٧/ ٢٨.

تحتلّ مريم في القرآن مـقاماً رفيعاً جدّاً. إنّـها المرأة الوحيدة التي ورد اسمُهـا فيه[١٣]. وعادة ما يُسمّى عـيسى بابن مريم بخلاف التسميات السامـيّة التي تنسب الابن إلى أبيه، ممّا يدلّ، من جهة، على ولادته المعجزة؛ ومن جـهة ثانية، على شرف أمّـه ومكانتها. وهي وابنها آية من آيات اللّه (٢٣/ ٥٠).

١. يعترف القرآن والنّصـارى بكثرة الإنعامات التي خصّ اللّهُ بها **أجداد مريم**، وكان لهم ذلك بسببها. وكلاهما يقدّم إثباتاً لائقاً بشرف انتسابها إلى سلاسـة الأنبيـاء: من آدم إلى نوح وذرّيّة إبراهيم وآل عمران:

في القـرآن «إنّ اللّهَ اصْطَفَى آدمَ ونوحـاً وآل إبراهيمَ وآلَ عِـمرانَ على العـالمين: ذرّيّة بعـضهـا من بعض... اذ قالت امـرأة عِمران: رَبِّ إنّي نذرتُ ما في بطني»(٣/ ٣٣).

وفي المصادر النصرانيّة، «نقرأ في تواريخ أسباط إسرائيل الإثني عشر... وذلك ليتبيّن لنا شـرف انتساب المسيح وأمّه مريم إلى ذريّة يعقوب»[١٤]...

٢. أمّا عن **مولد مريم** العجائبيّ فيقول القرآن: «قالت امرأة عِمـران: «ربّ نذرتُ لك ما في بـطني مُحّـرراً. فتقـبّل مني» (٣/ ٣٥). ويُضيف: ولما وضـعتها قـالت: «ربّ وضعتـها أنثى. واللّهُ

(١٣) يرد اسم مريم في القرآن ٣٤ مرّة. وهوالاسم النسائي الوحيد.

(١٤) Protévangile de Jacques, 1, 1.

أعلم بما وضعتْ. وليس الذَّكَر كالأنثى. وإنّي سمّيتُها مريم. وإنّي أُعيذها بك وذرّيتَها من الشيطان الرجيم. فتقَبّلَها ربُّها بقبولٍ حسن. وأنبتَها نباتاً حسناً» (٣/ ٣٦-٣٧).

وفي المصادر النّصرانيّة: قال ملاك الرب: «حَنّة، حنّة، لقد استجاب الربُّ صلاتك. إنّك ستحبلين وتلدين. وسيُتحدَّث عن ذرّيتك في الأرض كلّها». قالت حنّة: «حَيٌّ الربّ. إنْ وضعتُ للعالم ولدًا، صبيّاً كان أم ابنة، سأقدّمه للربِّ الأله. وسيكون في خدمته طول أيّام حياته».

(وبعدما ولدت) «قالت للقابلة: ماذا وضعتُ للعالم؟ أجابتِ القابلة: ابنةً. وأعطت حنّة لابنتها اسم مريم».

(وصلّى يواكيم قائلاً:) أيّها الربّ، أنظر إلى ابنتك هذه، وتقبّلها، وحلّ عليها بركتك»[١٥] «وكانت الصبية تنمو يوماً بعد يوم»[١٦]

٣. وعن **دخول مريم إلى الهيكل** واحتجابها فيه، يقول القرآن: «واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذتْ من أهلها مكانًا شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً (١٩/ ١٦-١٧). ثم يقول: و«كفّلها زكريّا. كلّما دخل عليها زكريّا المحرابَ وجد عندها رزقاً. قال: يا مريم: أنّى لكِ هذا؟ قالت: هُو من عند اللّه. إنّ اللّه يرزق من

---

(١٥) Protév. de Jq. 4, 5, 6.

(١٦) المرجع نفسه، ٦.

يشاء» (٣/٣٧). ويقول: «وما كنتَ (يا محمد) لديهم إذْ يُلقون أقلامَهم أيّهم يكفل مريم» (٣/٤٤).

وفي المصادر النصرانيّة: يواكيم يقود ابنتَه مريم إلى الهيكل. وكان لها من العمر ثلاث سنوات. وكلّف ملاكُ الرّبِ زكريّا رئيس الكهنة، ليجد لمريم، زوجاً. واستشار زكريّا حكماء اليهود.. وكانت مريم تحصل على رزقها من عند ملاك الربّ"(١٧).

مريم هذه اصطفاها اللّهُ وطّهرها، منذ صغرها. ولمّا شبّتْ نذرتْ نفسَها للّه، واتّخذتْ لها مَكاناً شَرقيّ الهيكل. وأحصنتْ فرجها؛ وجعل اللّهُ لها مَن يكفلها، وهو زكريّا: «وَمَا كنتَ (يا محمّد) لدَيهمْ إذْ يُلْقُونَ أقْلامَهُمْ (في الماءِ يقترعون ليظهر لهم) أيُّهُمْ يَكْفَلُ مريمَ. وَما كنتَ لَدَيهِمْ إذْ يَخْتَصِمُونَ (في كفالتها فتعرف ذلك فتخبر به) (٣/٤٤).

وروتِ المنحولاتُ قصّةَ الكفالة هذه (ليوسف لا لزكريّا) كما يلي: «فدخلَ الكاهنُ قدسَ الأقداس، وقد لبس رداءَه ذا الإثنَي عشر جُرَيساً، وأخذ يصلّي. وإذا بملاكٍ للربِّ ظهر قائلاً: "يا زكريّا! يا زكريّا! أُخْرُجْ واستَدْعِ كلَّ أراملِ الشعب. وليأتِ كلُّ واحدٍ بقلَمٍ. ومَن يُظهر له الربُّ علامةً يجعلُ منها امرأتَه. وتفرَّقَ بُشَراءُ في بلاد اليهوديّة كلِّها، ودوّى بوقُ الربِّ فإذا بهم يهرعون كلُّهم. ورمى يوسفُ فأسَه ومضى هو أيضاً ينضمُّ إلى الجماعة. وتوجّهوا معاً إلى عند الكاهن مع أقلامهم. فأخذ الكاهنُ

---

(١٧) Protév. de Jq. 78.

الأقلامَ، ودخلَ الهيكلَ وصلّى. وإذ أنهى صلاتَه استعادَ الأقلامَ. وتلقّى يوسفُ قلَمَه أخيراً؛ وإذا بحمامةٍ طارتْ من قلمِهِ وحطّتْ على رأسه. إذّاك قال الكاهنُ: "يا يوسف! يا يوسف! أنتَ المختارُ. فأنتَ الذي سيأخذ عذراءَ الربِّ"»(١٨).

وبحسب القرآن، «كلَّما دَخلَ علَيها زكريّا المِحْرابَ وجَدَ عندَها رِزْقاً. قالَ: يا مريم! أنَّى لَكِ هذا؟ قالتْ: هو مِنْ عندِ اللّه»(١٩)

أمّا بحسب الأناجيل المنحولة فجاء عن طعام مريم العجائبي: «وكانت مريمُ مُرَبَّاةً كحمامةٍ في هيكل الربّ. وكانتْ تتلقّى طعامَها من يدِ ملاك»(٢٠).

٣ – في بشارة مريم بميلاد عيسى

١. في شأن **بشارة الملاك لمريم** بمولودها وهي في الهيكل، جاء في القرآن: «فأَرْسَلْنا إليها روحَنا، فتمثّل لها بشراً سويًا» (١٩/١٧). وجاء أيضاً : «وإذ قالتِ الملائكة: يا مريم إنّ اللّهَ اصطفاكِ على نساء العالمين» (٣/٤٢). وجاء كذلك: «إذ قالت الملائكة: يا مريم إنّ اللّه يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين. ويكلّم الناس في المهد وكهلاً من الصالحين» (٣/٤٥).

---

(١٨) إنجيل يعقوب التمهيدي، ٨/٣-٩/١؛ رَ: متّى المزعوم، ٨/٢-٣.
(١٩) سورة آل عمران ٣/٣٢.
(٢٠) إنجيل يعقوب التمهيدي، ٨/١؛ هذا الموضوع موجود كذلك في منحولَين آخرَين هما إنجيل متّى المزعوم (٧/٣)، وأسئلة برتلماوس (٤/٢١).

وقالت مريم: «إنّي أعوذ بالرحمن منكَ إنْ كنتَ تقيًا» (١٩/ ١٨). ثمّ قال الملاك: «إنّما أنا رسولُ ربِّك لأهبَ لك غلامًا زكيًا» (١٩/١٩). فقالت مريم: «ربّ، أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشرٌ» (٣/٤٧). أو: «أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر، ولم أك بغيًا» (١٩/ ٢٠).

قال: «كذلك اللّه يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كنْ فيكون» (٣/٤٧). أو: «قال: كذلك قال ربُّكِ وَهُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ. ولنجعله آيةً للنّاس ورحمةً منّا وكانَ أمرًا مقضياً» (١٩/ ٢١).

وفي المصادر النّصرانيّة: «أرسل اللّهُ الملاكَ جبرائيل للعذراء يقول لها: لا تخافي، إنّكِ وَجَدتِ عند اللّه نعمةً، وستحبلين بكلمته. والمولود منكِ يُدعى ابن العليّ، وتسمّيه يسوع»[٢١].

وفي لوقا ما يشبه ذلك. يقول: ودخل إلى العذراء ملاك يقول لها: السلام عليكِ يا ممتلئة نعمة. الربّ معك.. واضطربت لهذا الكلام، وقالت في نفسها: ما معنى هذا السلام.. قال الملاك: لا تخافي يا مريم، قد نلتِ حظوة عند اللّه..

«فقالت مريم للملاك: أنّى يكون هذا ولا أعرف رجلاً.. فأجابها الملاك: إنّ الروح القدس يحلّ بك وقدرة العليّ تظلّلكِ، لذلك يكون المولود قدوساً وابن العليّ يدعى.. قالت مريم : فليكن لي كما قلت»[٢٢].

---

(٢١) Protévengile de Jq. 11.

(٢٢) أنظر إنجيل لوقا ١/٢٦-٣٥.

كانت البشارة كما يلي: ظهر الملاكُ جبريل، بصورة بشريّة، على مريم عندما كانت شرقيَّ الهيكل تتعبّد للّه، معتزلةً النّاس، وراء حجاب. فاضطربت مريم، واستعاذتْ بالرحمن منه. بشّرها بأنّها ستكونُ أمّاً لغلامٍ زكيّ طاهر من كلّ عيب ونجس. فتعجّبتْ كيف يكون لها هذا وهي لا تعرف رجلاً (١٩/١٦-٢٠)

٢. وعن **ميلاد يسوع** يقول القرآن: ولمّا آن المخاض، «حملتْه فانتبذتْ به مكاناً قصيّاً»، أي: في البريّة حيث وجدتْ شجرةً جلستْ تحتها تنتظر مولودَها. «فَأجاءها المخاض إلى جذع نخلة. قالتْ: يا ليتني متُّ قَبل هذا وكنتُ نسياً منسيًّا». وناداها صوتٌ (؟) مِنْ تَحتِها: «لا تحزني. قد جَعل ربُّك تحتكِ سريّا»[٢٣]، أي ينبوع ماء يجري، وهزّي إليكِ بجذع النّخلة تَسّاقَطُ عليكِ رطْباً جنيّا (١٩/٢٢-٢٥).

وفي المصادر النّصرانيّة، جاء في سفر التكوين عن هاجر إمرأة إبراهيم التي تاهت في البرية، ونفذ معها الماء، فطرحت

---

(٢٣) يختلف المفسّرون في شخصيّة الذي نادى مريم: أهو مولودها أم الملاك، فالنص القرآني مبهم تماماً... إلاّ أنّ المقابلة بين ما ورد في القرآن وما نرى في سيرة هَاجَر وابنِها اسمعيل يرجّح أنّ اللّهَ تكلّم بواسطة ملاكه مع مريم، كما تكلّم مع هاجر. ويثبت ذلك انتقال القرآن من متابعة الكتب النصرانيّة إلى متابعة أخبار هَاجَر امرأة ابراهيم. فولادة عيسى القرآني أشبه ما تكون بولادة إسمعيل، لا في «مذود» كما في لوقا ٢/٧، ولا في «مغارة» كما في الأناجيل المنحولة، بل في البريّة، كما هو حال إسمعيل الذي اهتمّ بسقايته ملاك الرب، فأوجد له بئراً ليشرب (وهو بئر زمزم الذي لا يزال يشرب منه الحجّاج للتبرك)، كما أوجد لعيسى ينبوع ماء، كما ترى في متن النّص.

إسمعيل ابنها تحت الشجـرة. وجلست قبالته حزينةً. بكت وبكى الغـلام. وسـمع اللّهُ بكاء الغـلام، وقال لـها: مـا لك يا هاجـر! لا تخافي، فـإنّ اللّه قد سـمع صوت الغـلام. قومي فـخذي ابنك... فرأت بئر ماء وسقت الغلام وكان اللّه معه (٢٤).

وفي كتـب النصارى، كمـا في التفـاسيـر الإسلامـيّة، إنّ النخـيل انحنى لمريم وتدانى منهـا يقدم لهـا الثمـر الطيّب لتطعم ابنها في سفرها إلى مصر(٢٥).

٣. في القرآن، **اضطرب زكريّا**، من حبل مـريم وولادتها من غـير رجل؛ أمّـا في المصـادر النّصـرانيّة فـيـوسف هو الذي اضطرب. وعـبثاً حـاول يوسف أن يبرّئ نفسه، وقـد عهـد إليه شيوخ بني إسرائيل حمايتهـا؛ فتخلّف عن هذه الحماية. فهو، من جهة، يعرف امرأتَه عَفيفة، وأكبر من أن تزلّ كسائر النسـاء.

وتجول مخيّلة مؤلّفي روايات الحبل والولادة فتضفي على الواقع مسـحة أسـاطير الأقدمين؛ أوجـزها القرآن بلومـةِ عارفٍ ببراءة مـريم في قوله: «يَا أختَ هَارون! ما كان أبوكِ امـرأ سوءٍ. ومَا كانتْ أمُّكِ بَغِيًا» (١٩/ ٢٨).

وفي المصادر النصرانيّة، «نـهضَ يوسفُ عن كيسه ونادى مريم: "أنتِ مُدَلَّةُ اللّهِ! ماذا صنعتِ؟ لِمَ ألْحَقْتِ العارَ بنفسكِ؟ أنتِ

---

(٢٤) سفر التكوين ٢١/ ١٤-٢٠.

(٢٥) Protév. de Jq. 11.

التي رُبِّيتِ في قدسِ الأقداس، وتلقَّيتِ الطعامَ من يد الملاك؟! " »[٢٦]؛ لهذا «نوى طلاقَها سِرًّا»[٢٧].

لقد كانت الولادة، بحسب القرآن، في الصحراء، عند جذع نخلة، حيث وضعتْ مريمُ مولودَها من دون أوجاع. أمّا في الأناجيل فكانتِ الولادة في بيت لحم: «وَبَينا كانا (أي يوسف ومريم) هناك (في بيت لحم)، حان وقتُ مريمَ لتَلدَ مولودَها. فولدتِ ابنَها البكر، وقمّطَتْه، وأضْجَعَتْه في مَعلَف؛ لأنّه لم يكن لهما موضعٌ في قاعةِ الضيوف»[٢٨].

يَجمع القرآن، في شأن ولادة يسوع، بين التوراة التي تروي قصّة هاجر، خادمة إبراهيم، التي أساءتْ سيّدتُها معاملتها، والتي هربت إلى الصحراء، حيث كادت تموت عطشاً قبل أن يُنقذَها نبعٌ عجائبي"[٢٩]، وبين قصّة الأناجيل المنحولة التي تتكلّم على النخلة التي انحنتْ لتُقدِّم رُطَباتها لمريم، والنبع الذي يتفجّر من أسفل النخلة؛ وذلك أثناء هربها إلى مصر[٣٠].

ولمّا جاءتْ مريمُ أهلَها ومولودُها في حضنها. دُهشوا ممّا رأوا: «يَا مريم! لقد جئتِ شيئًا فَرِيًّا. يا أختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ

---

(٢٦) إنجيل يعقوب التمهيدي، ١٣/٢.

(٢٧) إنجيل متّى ١/١٩.

(٢٨) إنجيل لوقا ٢/٦-٧. وثمّة تقليد آخر يقول بأنّ يسوع ولد في مغارة. وهذا يعود إلى القديس يوستينوس (١١٠-١٦٣).

(٢٩) سفر التكوين ٢١/١٧-١٩.

(٣٠) إنجيل متّى المزعوم، ٢٠/١-٢.

امرأَ سوءٍ ومَا كانتْ أمُّكِ بَغِيًا» (١٩/ ٢٨). وللحال همّوا في قتلها لظنّهم أنّها اقترفتْ إثماً فظيعاً. وللحال أيضاً أشارتْ إلى ابنها بأنْ يكلّمَهم عن براءتها. فكلّمهم عيسى وهو لا يزال في المهد. كلّمهم عن نفسه، مَن هو ومَن سيكون، وعن أمّه وبراءتها وطهارتها.

وكلام يسوع عن أمِّه وعن نفسه موجود في الأناجيل المنحولة حيث يقول يسوع: «لا تعتبراني طفلاً؛ لأنّني كنتُ دائماً رجلاً كاملاً»[٣١].

قال عن نفسه: إنّه عبد اللّه، ونبيّه، ورسوله، وكلمته، وروح منه. آتاه اللّه بالإنجيل، مصدّقا لما بين يديه من التوراة. وهو مبارك أينما وُجد. أوصاه ربُّه بالصلاة والزّكاة، أي بتسبيح اللّه وعمل البرّ. وقد عرف سلامَ اللّه عليه من ولادته حتى موته، ثمّ قيامته حيّاً، ورفعِه إلى السماء (س. مريم ١٩/ ٢٣-٣٣).

وقال عن أمّه: إنّها بارّة، تقيّة، طاهرة. تخافُ اللّه. وتسمع كلمته. وهي خير المطيعين له. لم تأتِ بشيء منكَر. بل هي خير من اختار اللّه من بين البشر. إنّها وابنها آية للعالمين[٣٢]. ومع هذا لم تكن، لا هي ولا ابنها، إلهَين (٥/ ١١٦). إنّما هما وُجدا بأمر

---

(٣١) إنجيل متّى المزعوم، ١٨/ ٢؛ راجع أيضاً إنجيل الطفولة العربي.

(٣٢) رَ: آل عمران ٣/ ٣٦ و٤٢ و٤٤؛ النساء ٤/ ١٥٦؛ المائدة ٥/ ١٧ و١١٠؛ مريم ١٩/ ١٦ و٢٧؛ المؤمنون ٢٣/ ٥٠؛ التحريم ٦٦/ ١٢.

اللّه وكلمته الخالقة: كنْ[٣٣]. ويستطيع اللّهُ «أن يُهلك المسيحَ ابنَ مريم وأمّه» (٥/ ١٧).

نقل أوريجينوس عن الإنجيل العبراني قولاً للمسيح: «حَملتْنِي أُمّي الروح القدس»[٣٤]. ويعلّق القديس جيروم مفسّراً: «ممّا يدل على اعتقادهم (أي الإبيونيّين) بأنّ الرّوح القدس هو أمّ المسيح»[٣٥].

ومردّ هذا الخلط هو أنّ «الروح القدس» في اللّغة الأراميّة السريانيّة مؤنّث؛ فيما هو في «العربيّة» مذكّر. ومع هذا، شاعت جنسيّة «الرّوح القدس» المؤنّثة وأمومتُه للمسيح في أوساطٍ عربيّةٍ عديدةٍ ومتنوعة؛ فنجد اليعقوبي، مَثَلاً، يقول: «فلمّا عمّدَه (يحيى بن زكريّا) خرجتْ رُوحُ القُدُسِ على الماء»[٣٦]؛ كما هو مكتوب تماماً في إنجيل العبرانيّين: «ألروح القدس تخاطب يسوع في عماده بقولِها: أنت ابني الحبيب»[٣٧]. ونجد أيضاً عند أفراهات، أحدِ آباء الكنيسة السريانيّة، هذا القول: «إنّ الرجل يُحبّ اللّهَ أباه، والرُّوحَ القدس أمّه»[٣٨].

---

(٣٣) سورة مريم ١٩/ ٢٣-٣٥؛ سورة آل عمران ٣/ ٤٢-٤٤ و٤٨.

(٣٤) Pseudo Mt., 10-11.

(٣٥) Origène, Comm. sur Jérémie, 15, 14.

(٣٦) تاريخ اليعقوبي، ١/ ٧٢.

(٣٧) Jérôme, Com. sur Isaïe, 11, 2. Voir aussi Com. sur Miché 7, 6.

(٣٨) أفراهات، البيّنات، ١٨/ ١٠.

فـالـروح القـدس، إذاً، من جـنس «المؤنّث»، وهو، بسـبب علاقته الحـميمة باللّه، اعتبر «أمّ المسيح» وكـأحد الأقانيم الثلاثة مع الأب والابن. ومن هنا، يجب أن نفـهم مـا جاء في القـرآن عن لوم اللّه عيسَى قـائلاً: «أأَنْتَ قلتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأُمِّي إلَهَينِ مِنْ دُونِ اللّه» (٥/١١٦).

فـاللّه، في القـرآن العـربي، يردّ، إذاً، عـلى الذين يؤلّهـون الرّوحَ القـدس، ويعـتـبرونه ثـالثَ ثلاثة؛ لا على الذين يؤلّهـون مريم، كـما يزعم مفسّـرو القرآن، إبتداءًا من الطبري، حـتّى آخر واحدٍ منهـم..؛ علماً بأنَّ مريم كـرّمهـا المسيحـيّون، وقـدّسوها، ومجّدوهـا، وعظّموها جدّاً، حتّى قـدّم بعضُهم لها القـرابين، مثل «الكْلِيـريّينَ»، من «كلّيـرس» اليـونانيّـة التي تعني أقـراصـاً من الرقاق... إلاّ أنّ هذه القلّة لم يكن لها أثر ولا انتشـار ولا كتاب. ولا التكريم كان تأليهاً.

ثمّ طمْأنَ جـبريل مـريمَ بأنّ كلّ ذلك إنّما يكون بقـدرة اللّه العليّ. والمولود منها سـيكون آيةً للنّاس ورحمـة. وهو كلمة اللّه، وروحٌ منه. يكون وجيهاً في الدّنيـا والآخرة، ومن أقرب المقرّبين. يكلّم الناس في المهد، ويعلّمه الكتـابَ والحكمة والتوراة والإنجيل (٣/٤٢-٤٨).

٤ – سيرة عيسى ومعجزاته

ترد لفظة "المسيح" في القرآن ١١ مرّة: ٣ مرّات: "ألمسيح عيسى ابن مريم"(٣٩)؛ و٥ مرّات: "ألمسيح ابن مريم"(٤٠)؛ ومرّة واحدة: "ألمســيح ابن اللّه"(٤١)؛ ومرّتَين: "ألمســيح" من دون أيٍّ إضـافة(٤٢).

وترد لفظة "عـيـسى" ٢٥ مرّة: منهـا ١٦ مـرّة: بإضافـة "عيسى ابن مريم"(٤٣)، و٩ مرّات: "عيسى" من دون إضـافة(٤٤).

ونستعرضُ فيما يلي مفــهومَ القرآن للمسيح؛ وهو مفهوم لا يختلف عمّا يعتقده "نصارى" مكّة والحجاز آنذاك. يقول:

١. ألمســيح في القرآن هو «عـيسى ابن مــريم»(٤٥)، «بشرٌ سويّ» (١٩/١٧)، وُلد كسائر الناس، إذ خلـقه اللّه، كما خلَق آدم من تراب (٣/٥٩)، وإنْ بطريقة معجزة(٤٦).

---

(٣٩) سورة آل عمران ٣/٤٥؛ سورة النساء ٤/١٥٧ و ١٧١.

(٤٠) المائدة ٥/١٧ (مرّتين)؛ ٥/٧٢؛ ٥/٧٥؛ سورة التوبة ٩/٣١.

(٤١) سورة التوبة ٩/٣٠.

(٤٢) سورة النساء ٤/١٧٢؛ سورة المائدة ٥/٧٢.

(٤٣) **٢**/٨٧ و٢٥٣؛ **٣**/٤٥؛ **٤**/١٥٧ و١٧١؛ **٥**/٤٦ و٧٨ و١١٠ و١١٢ و١١٤ و١١٦؛ **١٩**/٣٤؛ **٣٣**/٧؛ **٥٧**/٢٧؛ **٦١**/٦ و١٤.

(٤٤) **٢**/١٣٦؛ **٣**/٥٢ و٥٥ و٥٩ و٨٤؛ **٤**/١٦٣؛ **٦**/٨٥؛ **٤٢**/١٣؛ **٤٣**/٦٣.

(٤٥) سورة البقرة ٢/٧٨... ورد تعبير «ابن مريم» في القرآن ٢٣ مرّة.

(٤٦) آل عمران ٣/٤٥؛ الأنبياء ٢١/٩١؛ مريم ١٩/١٧.

وهو كذلك في النّصرانيّـة: ألمسيح هو يسوع ابن مريم[٤٧]، و «بشر بين البـشر»[٥١]، ولد كسـائر الناس[٥٢]، وخُلق كآدم من تراب[٥٣]، وإنْ بطريقة معجزة[٥٤].

٢. ومع كـون مـسيح القـرآن بشـراً فـ هو نبيٌّ ورسـولٌ «خَلَتْ من قبـلِه الرسل» (٥/ ٧٥)؛ بل هو أسمى من الأنبـياء لأنّه «مؤيّد من الـرّوح القدس»[٥٥]، وهو «كلمة اللّه»[٥٦]، و«روح منه» (٤/ ١٧١)، آتاه اللّهُ البيّنات (٢/ ٨٧ و٢٥٣)، وصنع المعـجزات: فتكلّم وهو بَعـد في المهد[٥٧]، وخلق من الطين كـهيئـة الطير[٥٨]، وشفى الأكمه والأبرص، وأخرج الموتى من القبور[٥٩]...

والإبيونيّون يقولون الشـيء نفسه: ألمسيح «نبيٌّ أسمى من الأنبيـاء جميـعاً، لأنّ فـيه روحاً مـلائكياً»[٦٠]. لم يكن في البداية مسيحاً، بل «صار مـسيحاً على الاصطفاء»[٦١]، لهذا فهم ينكرون

---

(٤٧) Actes de St. Jean. Ev. de St. Pierre.

(٥١) Justinien. Dialogue avec Triphon 28.9.

(٥٢) Origène, Contre Cels. 5/61.

(٥٣) Irénée, Contre les Hérésies, 3/26.

(٥٤) Origène. Contre Cels. 5/65.

(٥٥) سورة البقرة٢/ ٨٧ و٢٥٣؛ سورة المائدة ٥/ ١١٠.

(٥٦) سورة النساء٤/ ١٧١؛ سورة آل عمران٣/ ٤٥.

(٥٧) سورة مريم ١٩/ ٢٩؛سورة المائدة ٥/ ١١٠.

(٥٨) سورة آل عمران٣/ ٤٩ ؛ سورة المائدة ٥/ ١١٠.

(٥٩) ألمراجع السابقة نفسها.

(٦٠) Tertullien, Du Corps du Christ, 14/5.

(٦١) Justinien, Dial. Avec Triphon. 29/1.

أزليّةَ المسـيح وألوهيّتَه، فـهو لم يولد من اللّه[٦٢]، وينسبـون إليه معجزات، بعضـها نراه في الأناجيل القانونيّة الرسميّة، مثل شفاء الأبرص والأعـمى وإقامـة الموتى، وبعضـهـا، كخلقـه من الطين كهيئة الطير[٦٣]، لا أثر له إلاّ في كتبهم الخاصة.

لقد جاء عـيسى « مُصَدِّقـاً لما بَينَ يَدَيه من التّوراة. وآتَينَاهُ الإنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ، ومُـصَدِّقًا لما بَينَ يَدَيه من التّوراة، وَهُدًى ومَوعِظةً للمُتَّقين»[٦٤].

وجـعلَه اللّهُ قـدوةً و«مَـثَـلاً لِـبَنِي إسْـرَائيلَ» (٤٣/ ٥٩)، " يُسـتَدَلُّ به على قـدرة اللّه تعـالى على ما يشـاء "[٦٥]وهو «مِنَ الصَّـالِحِينَ» (٦/ ٨٥). وأيّده اللّهُ، منذ ولادته بروح القـدس (٢/ ٨٧ و٢٥٣). وهي نعمة من اللّه عليـه وعلى والدته: «اذْكرْ نعمتي عليكَ وعلى والدتكَ إذْ أيَّدْتُكَ بروحِ القدس» (٥/ ١١٠).

بل عـيسى نفـسه هو مـرسَل من اللّه وكلمتـه وروح منه: «إنّمـا المسيحُ عـيسَى ابنُ مـريمَ رسولُ اللّه، وكلمـتُه ألقـاها إلى مريم، وروحٌ منه» (٤/ ١٧١).

٣. في القرآن أيضاً إنكار تامّ لبنوّة المسيح للّه[٦٦]، لأنّ اللّه

---

(٦٢) Origine, Contre Cels, 5/65; Epiphane, Panarion, 30/6.

(٦٣) Ev. arabe de l'enfance, 26/1-2.

(٦٤) سورة المائدة ٥/ ٤٦؛ رَ. أيضاً الصفّ ٦١/ ٦؛ الحديد ٥٧/ ٢٧.

(٦٥) تفسير الجلالَين على سورة الزخرف ٤٣/ ٥٩.

(٦٦) المائدة ٥/ ١٧ ؛ سورة مريم١٩/ ٣١ ؛ سورة يونس ١٠/ ٦٨.

لم يلد ولم يولد (٣/١١٢). يقول بأن المسيح هو «عبد اللّه»، ومن بين الملائكة المقرّبين: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أنْ يَكونَ عَبداً للّه ولا الملائكة المقرّبين» (٤/ ٧٠)، وهو من المقرّبين (٣/ ٤٥)، ويستطيع اللّه أن يهلكه (٥/ ١٧)...

وهو رأي صريح للإبيونيّين كما ورد عنهم في كتاب أبيفان: «إنّ المسيح ليس مولوداً من اللّه الآب، بل مخلوقاً، وهو أحد رؤساء الملائكة، المالك على الملائكة وعلى كل أعمال القدير»[٦٧]. وفيه أيضاً: «ليس المسيح، بنظرهم، سوى ملاك»[٦٨]، أو «أوّل رؤساء الملائكة»[٦٩]. ويشبه ذلك قول راعي هرمس: «إنّ اللّه، لمّا أراد أن يخلق الملائكة المقرّبين من نار على عدد سبعة، قضى أن يجعل أحدَهم ابنه»[٧٠].

ولمّا شبّ عيسى، وابتدأ برسالته، اختار له أنصاراً هم الحواريّون[٧١]، وقد شهد بأنّهم «مُسلمُون»: «قال: مَن أنصاري إلى اللّه؟ قال الحَوارِيُّون: نحنُ أنصارُ اللّه. آمَنّا باللّه. واشهدْ (يا عيسى) بأنّا مُسلِمُون» (٣/ ٥٢). وفي المعنى نفسه، قال: «وإذْ أوحيتُ إلى الحواريّين أنْ آمنوا بي وبرسولي (عيسى). قالوا: آمَنّا. واشهدْ (يا عيسى) بأنّنا مُسلِمون» (٥/ ١١١)..

---

(٦٧) Epiphane, Panarion, 30/4, 6.

(٦٨) Irénée, PG. 1031-1043.

(٦٩) Origène, PG. 12,207-208. Justin, PG, 6, 773-778.

(٧٠) Pasteur d'Hermas, 9/12, 7.

(٧١) لفظة "حواريّون" ٥ مرّات: ٣/ ٥٢؛ ٥/ ١١١ و١١٢؛ ٦١/ ١٤ (مرّتين).

وعيسى نفسه بشّر بمحمّدٍ رسولاً يأتي من بعده: «وَمُبَشِّراً بِرَسولٍ يَأتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» (٦١/٦).

يتميّز عيسى بمعجزاتٍ لم تكن لأحدٍ غيره من النّبيّين الذين يذكرهم القرآن. فهو أكثرهم إتياناً بها؛ وأعظمهم بمعجزاتٍ لم يقم بها سواه.

فهو الذي قال عن نفسه بأنّ اللّه أيّده بروح القدس، فكلّم النّاسَ وهو طفل في المهد[٧٢]، وعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل[٧٣].

وخلق من الطينِ كهيئة الطير، فنفخ فيه: «جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُم (هي) أنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً بِإِذْنِ اللّهِ»[٧٤].

هذه المعجزة ترويها المصادر النصرانيّة بقولها: «وإذْ جَبل طيناً، أخذه ليصنع اثنَي عشر طائراً. وكان يوم سبت. وكان هناك أطفال آخرون كثر، يلعبون معه. فمضى فوراً أحدُ اليهود، وقد رأى ما كان يفعله يسوع، وأنّه كان يلعب يوم السبت، وقال لأبيه يوسف: "ها إنّ ابنَك على حافّةِ الساقية، وقد صنع اثني عشر طائراً من الطِّين، ودنّس السبت". وجاء يوسف إلى ذلك الموضع، وإذ رأى ما فعل يسوع، صاح: "لِمَ فعلتَ، يومَ السبتِ، ما هو

(٧٢) رَ: سورة آل عمران ٣/٤٦؛ والمائدة ٥/ ١١٠؛ مريم ١٩/ ٢٩.
(٧٣) سورة آل عمران ٣/٤٨؛ رَ: ٥/ ٤٦ و١١٠.
(٧٤) سورة آل عمران ٣/٤٩؛ رَ: المائدة ٥/ ١١٠.

محظورٌ فعله؟". فصفّق يسوع بيدَيه، وقال للطيور: "هيّا».
فطارت مغرِّدةً»[٧٥].

ومن معجزات يسوع أيضاً في القرآن أنّه أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى، ونبّأ الناسَ بما يأكلُونَ وما يَدَّخرونَ في بيوتهم، وكفّ بني إسرائيل عنه عندما همّوا بقتله[٧٦]. مثل هذه المعجزات يملأ صفحات الأناجيل.

وأخيراً سوف ينزل عيسى عند حدوث الساعة الأخيرة، ويكلّم الناس مجدَّداً، قبل الدينونة العامّة: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ (أي تعلمُ الساعةُ الأخيرة بنزوله). فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا (أي تشكّنَّ فيها). و (قل لهم) اتَّبِعُونِ (على التوحيد). هَذَا (الذي آمركم به) صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»[٧٧].

٥ - القتْل. والصّلْب. والرّفْع

١. يعتقد الإبيونيون أنّ «المسيح نزل على يسوع يوم عماده في الأردنّ، وفارقه قبل استشهاده»[٧٨]، ويقولون في ذلك: «إنّ يسوع هو الذي صُلب عندما ارتفع المسيح عنه قبل استشهاده، والمسيح فارق يسوع ابن مريم قبل موته على

(٧٥) إنجيل توما الإسرائيلي، ٢؛ الأناجيل المنحولة،؛ ص٢٢. هذه الرواية نفسها توجد في إنجيل الطفولة العربي، عد ٣٦؛ ص ٧٠ من المرجع نفسه.
(٧٦) سورة آل عمران ٣/ ٤٩؛ ٥/ ١١٠.
(٧٧) سورة الزخرف ٤٣/ ٦١ بتفسير الجلالَين.
(٧٨) Irénée, Ad. Haer, 3/3, 4.

الصليب»[٧٩]. إلاّ أنّ بعضهم يقول: «إنّ المسيح يتحوّل برضاه من صورة إلى صورة. فقد ألقى في صلبه شبهةً على سمعان، وصُلب سمعان بدلاً منه، فيما هو ارتفع حيّاً إلى الذي أرسله، ماكراً بجميع الذين مكروا، للقبض عليه، لأنّه كان غيرَ منظورٍ للجميع»[٨٠]. وإذا كان موت المسيح، برأيهم، استشهاداً، وقيامتُه رَفْعاً إلى السماء، فإنّه «ليس له صفة الفادي والمخلّص»[٨١].

هذه العقيدة واضحة في القرآن: إنّ المسيح لم يُقتل ولم يُصلب، بل وقعَ الشَبَه على الّذين قالوا بذلك(٤/١٥٧)، ومكر اللّهُ بهم وهو خير الماكرين[٨٢]. وينكر القرآن أن يكون المسيح قام بذاته من الموت وبقوّته، في حين أنّه يقول بأنّ اللّهَ رفعه إليه[٨٣]. ولهذا ليس له أيّ دور في خلاص الإنسان وافتدائه، وليس على أيِّ إنسان أن يطلب شفاعته. «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون» (١٩/ ٣٤).

جاء في سورة النساء (٤/ ١٥٧-١٥٩) إنّ اليهود قالوا بأنّهم قتلوا المسيحَ رسولَ اللّه. لكنّهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن ألقى اللّهُ عليهم شبهَه فظنّوه إيّاه. وهكذا نجّاه اللّهُ من أيديهم. وها هم، إلى اليوم، يتبعون ما يظنّون ويتخيّلون.

---

(٧٩) Actes de St. jean, 99; Ev. de St. Pierre.

(٨٠) Irénée, Ad.Haer., 1/24, 4; Epiphane, Panarion, 1/2.

(٨١) Irénée 3/33; 5/8.

(٨٢) سورة آل عمران٣/ ٥٤؛ الرعد ١٣/ ٤٢؛ ألنحل١٦/ ٢٦...

(٨٣) ألنساء٤/ ١٥٨؛ آل عمران٣/ ٥٥.

فالمسيح لم يُقتل، ولم يُصلب. بل شُبِّه لليهود ذلك. إنّ القتلَ والصلبَ وقعا على غير عيســى، أي على شخصٍ يشبهه. وحاشا للمســيح أن يُقتل، أو يُصلب على أيدي اليــهود أو الرومــان، بهذا الشكل المهين واللّعين، كما تروي الأناجـيل. فاللّهُ لا يُرسِلُ أنبياءَه إلى النّاس لينتصرَ الناسُ عليه. أللّهُ هو الغالب.

إنّ مقـولة نفي الصلب عن عيـسى ليست خاصـّةً بالقرآن، فـثمّـة تعـاليم لبعض الشـيع النصــرانيّـة، وبنوع خاص، شــيع "الظاهريّة"، و"الأبّولونيّة"، و"الدّوسِت"، تقول بأنّ عيسى لم يُقتل ولم يُصلب. بل وقع القتل والصلب على الشَّبَه...

جاء في «أعمال يوحنّا» المنحول قولُ يسوع ليوحنّا: «لَستُ كذلك مَــن هو على الصليب. أنا الذي لا تراه الآن؛ بل تسمــع فقط صوته. لقـد اعتُـبِرتُ ما لستُ أنـا. وأنا لستُ ما أنا، بالنســبة إلى الجمهور. وأكثر من ذلك، إنّ ما سيـقولون في شأني حقير وغير جــدير بي... وهكذا لمْ أتعــذَّبْ أيًّا من العــذابات التي ســـوف ينسبـونها إليّ... أنتَ تسمع القولَ أنّني تعـذَّبتُ، والحال أنّني لم أتعذَّبْ؛ أنّني طُعِنْتُ، والحال أنّني لم أُضْرَبْ؛ أنّني عُلِّقتُ، والحال أنّني لم أُعَلَّقْ؛ أنّ دمـاً ســال منّي، والحــال أنّه لم يَسِلْ منّي. وفي اختصار، إنّ ما يقوله هؤلاء الناس عنّي، لم أُعانِه...»(٨٤).

---

(٨٤) أعمال يوحنّا، عدد ٩٩؛ الأعمال والرسائل المنحولة، نسبَيه ١٩٩٩؛ ص ٦٨.

ثمّ إنّ اللّهَ، الذي نجّى عيسى من القتل، رفعَه إليه. واختلفوا في ما إذا رفَعَه بعد موت، أم من دون موت. في سورة النساء من دون موت: "وَمَا قَتَلُوهُ يَقِـينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللّهُ إِلَيه "(٨٥)؛ وفي سورة آل عمران بعدَ موت: "إذْ قالَ اللّهُ: يَا عيسَى! إنّي مُتَوَفّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ. وَمُطَهِّـرُكَ مِنَ الّذينَ كَفَـروا "(٨٦)؛ وكذلك في سـورة المائدة: "فَلَمّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أنتَ الرَّقِيبَ عَلَيهِمْ "(٨٧).

غير أنّ "الوَفاة" في هذه الآيات، لا تعني، بالحـقيقة، موتاً؛ بل تعني كمال الحيـاة والأخلاق والصفات واستيفاء مـا فيها من قِيمٍ وفضائل. وها هو اللّه يطهِّر عيـسى بعد وفاته؛ ويكون رقيباً على الكافـرين به بعـد وفاته أيـضاً. فـالوفـاة، إذاً، ليستْ مـوتاً ونهايةً، بل استيفاءً وكمالاً.

---

(٨٥) سورة النساء ٤/١٥٦-١٥٧.

(٨٦) سورة آل عمران ٣/٥٥.

(٨٧) سورة المائدة ٥/١١٧.

ثالثاً - في الفروضِ والعبادات

ما في تعاليم النصرانيّة في شأن العبادات والشعائر الدينيّة هو نفسه في القرآن المكّيّ. وحقيقة ذلك واضحة في ما يلي من موضوعات

١. **ألختان،**

٢. **ألغسل والوضوء والتطهير،**

٣. **تحريم الخمرة،**

٤. **تحريم لحم الخنزير،**

٥. **أمور الزواج والحياة الرهبانيّة،**

نضيف هنا، على ما جاء في كتاب «قسّ ونبيّ» عن الحياة الرهبانيّة ما يلي:

أمّا في ما يعود إلى **ألحياة الرّهبانيّة** فترد لفظة "رهبانيّة" ومشتقّاتها ٤ مرّات: مرّتَين يشيد القرآن بالرّهبان وبصفاتهم الحميدة؛ ومرّتَين يتّهم النصارى باتّخاذ رهبانهم أرباباً من دون اللّه.

يقول والقول ناطق واضح في مدح الرّهبان: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى، ذلكَ بأنَّ مِنْهُمْ

قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكبِرُونَ» (٥/ ٨٢-٨٥).

ثمّ يقول أيضاً: صحيحٌ أنّ الرّهبانيّة ليستْ من صنع اللّه، بل من صنع النصارى الذين ابتدعوها؛ ولكنّهم ابتدعوها من أجل رضوان اللّه. فحسناً صنعوا؛ ولكنّهم أيضاً ابتدعوها ولم يرعَوها حقَّها. والذين رعوها حقّها آتاهم اللّه أجراً عظيماً. قال:

«ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا. وَقَفَّيْنَا بعيسَى ابْنِ مَريَمَ. وَآتَيْنَاهُ الإنْجيلَ. وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الّذينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً، وَرَحْمَةً، وَرَهْبَانيَّةً ابْتَدَعُوهَا. مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ إلاّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ. فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا. فَآتَيْنَا الّذينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ. وَكَثِيرٌ منهُمْ فاسِقُونَ» (٥٧/ ٢٧).

أمّا الآيات الطاعنة بالرهّبان فتطعن، لا بالحياة الرهبانيّة نفسها، بل بالنصارى الذين اتّخذوا رهبانهم أرباباً من دون اللّه. قال: «اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ، والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ. ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً وَاحِداً. لا إلَهَ إلاّ هُوَ. سُبحَانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ» (٩/ ٣١).

ومرّة أخرى، ليست الحياة الرّهبانيّة هي المطعون بها، بل الرهبان الذين لم يحسنوا سيرتهم فيها، أولئك الذين يأكلون أموال الناس، ويصدّونهم عن كلّ عمل صالح، ويكنزون الأموال، ولا يصرفونها في سبيل اللّه واليتامى. قال:

«يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا! إنّ كَثِيراً مِنَ الأحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بِالبَاطِلِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالّذينَ يَكْنِزُونَ

٨. وكان الوعيد كبيرًا جدّاً، أي في هذه الدّنيا وفي الآخرة.

٩. وعـيدٌ بعـذابٍ جسـيمٍ، لا يطال إلاّ الذين يكفرون بهـذه الآية الإلهيّة، والذين ينكرونها، أو لا يقدّسونها حقَّ قداستها.

١٠. ولكنّ خطر هذه الآية الإلهيّة العظيمة كان على الرّسل، قبل غيرهم، من أجل أنّهـم ما استطاعوا، بسببهـا، إلاّ أن يعتبروا عـيسى إلهـاً. فأنّبـهم على ذلك. وكلّمـه اللّهُ مـعاتبـاً: "أأنتَ قلتَ للناس اتّخذوني وأمّي إلهين"!

١١. أنكر عيســى، بالرغم من عِظم الآية وبعدِها الإلهي، أن يكونَ قال لرسله ما ظنّوه فيه.

١٢. ومع هذا، طلب عيسى من رسله، بعـد هذه المعجزة، أن يكونوا تحت رقابة اللّه وعنايته: "أنتَ الرّقيب عليهم".

١٣. إنّ هذه الآية الإلهيّة العظيمة سينتفعُ المؤمنون بها يومَ القيـامة. فلكأنَّهم، لمّا أكلوا مـنها واطمأنّت قلوبُـهم، اتّخذوها زاداً لهم وعربوناً لقيامتهم في اليوم الأخير.

١٤. وبسببـها، أيضاً، ستكون سعـادة قصوى للّذين أكلوا منها. وسعادتهم "جنّات تجري من تحتـها الأنهار"؛ جنّات فيها فواكه كثيرة، وظلال، وعسل، ولبن، وخـمر معتّقة، ورضوان اللّه عليهم. فلكأنّه، بها، حصلوا، على خيرات أرض الوعد والميعاد.

١٥. وبسببها أخـيراً، سيكون لهم "الفوز العظيم". وقد لا يكون لهم فوزٌ إنْ لمْ يؤمنوا بهذه المائدة السماويّة.

١٠. بيت الكعبة والبيت المعمور،

١١. الحجر الأسود والطواف حولَه

١٢. آثار الكعبة.

الختان، والتطهير، وتحريم الخمرة والخنزير، وإقامة الصلاة والصيام، وتقرير الزواج والطلاق، ووضْع المرأة، والحياة الرهبانيّة، وتقديس الكعبة والحجر الأسود...

(يراجع، في موضوع الفروض والعبادات وشعائر الدين، كتاب «قس ونبيّ. بحث في نشأة الإسلام، سلسلة الحقيقة الصعبة، رقم ١؛ طبعة ١٤؛ ٢٠٠١؛ صفحة ١٩٢-٢٠٦)

رابعاً – في الحسنات والصدَقات

إنّ تعاليم القرآن العربي في موضوع الحسنات والصدقات وأعمال البرّ هي تعاليم نصرانيّة إبيونيّة في كلّ شيء. وأولى السّور القرآنيّة، بحسب تسلسلها الزمني، هي التي دعتْ إلى الاهتمام بالفقراء والمساكين، وإطعام الجياع، ومساعدة اليتامى والأرامل والضعفاء، وسدّ عوز المحتاجين، وأبناء السبيل، والعناية بأصحاب الفاقه، وفرض الصدقة والحسنة، وعمل الصالحات...

ومن لم يأخذ بهذه التعاليم فهو من عداد الهالكين لا محالة. ومن يحبس أحشاءه عن إغاثة المحتاجين يحرم نفسه من جنّة النّعيم. والذين لا يعملون الصالحات، مثل «الّذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها، لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبْوابُ السَّمَاءِ، ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ» (٧/ ٤٠)، تمامًا كما يعلّم الإنجيل في قوله: «لأن يدخل الجمل في سَمِّ الإبرة أيسر من أن يدخل الغني ملكوت السماوات»[1].

هذه التعاليم في وجوب صنع الحسنات والصدقات تؤلّف لبّ عقيدة الإبيونيّين. ومنها كان إسمهم، من قول المسيح: «طوبى

---

(١) إنجيل متّى ١٩/ ٢٤؛ إنظر أيضاً: Origène, Com sur Mt. 15, 14

للإبْيـونيّين»، أي «طوبى للفـقـراء»[٢]. وعنهم قـال إبيفـان: «إنّ الأبيونيّين كـانوا يفتخرون بفـقرهم، ويتراءون أمام الناس فـيه، ويتبـاهون ببيـع أملاكهم وخـيراتهم وتوزيعـها على المـساكين، وعلى بعضـهم بعضاً»[٣]. وقال فـيهم كتـاب «الكرازة» المنسوب الى القـديس بطرس:«إنّهم كـانـوا يمدحـون الفـقـر ويذمّـون الملكيّة»[٤]، و«يشدّدون على اقتلاع شـهوات الغنى من النفس أكثر منه من اليد»[٥].

واسـتنار الإبيـونيّـون في تـعالـيـمـهم هذه باليـهـوديّة والمسيحيّة على السواء، بالتوراة والإنجيل معاً.

لقد علّمتِ التـوراة والأنبياء بـ «أنْ تَكْسرَ للجـائع خبزَكَ، وأنْ تُدخِل البـائسين المطرودين بيـتَك. وإذا رأيتَ العـريان أن تكسوه... حـينئذ يسير برّك أمـامك... وحينئذ تدعـو فيستـجيب الرب... إذا أبرزتَ نفسك للجائع، وأشبعتَ النفسَ المعنّاة... يَهديك الربُّ في كلِّ حين، ويُشبع نفسَك»[٦].

وأمرتِ الحكمةِ بأنْ «أبسطْ يدك للفقير»[٧].

---

(٢) متى ٥/٣.

(٣) Epiphane, Panarion, XXX, 17.

(٤) Kérygme de St. Pierre, Hom. XV, 7.9...

(٥) Kérygme de St. Pierre, Hom. XV, 10...

(٦) أشعيا ٥٨/٧-١١، أنظر أيوب ٢٢/٦-٨.

(٧) سفر يشوع بن سيراخ ٧/٣٦.

وعلّم التلمود بـ «أنَّ العالَمَ يُبنى على ثلاثة أشياء: التّوراة، وعبادة اللّه، وأعمال البرّ»[٨].

وأناطتِ المسيحيّةُ الخـلاصَ بـ «الإيمان العامل بالمحبة»[٩]، أي بإطعام الجائع، وإرواءالعطشان، واستضافة الغرباء، وإكساء العريان، وزيارة السجين، وعيادة المريض[١٠].

ويولي يعقـوب الرّسول عمَلَ الصـالحات أهميّةً قـصوى، لدرجة أنّ «الإيمان بدون الأعمال ميت»[١١].

ويشدّد آباء الكنيسة، على مختلف ألوانهم، على ممارسة أعمال البرّ. فكان باخوميوس يقول: «ليس من رجاء للإنسان في هذا العالم إنْ لم يَصنعِ الخير قبل أن يتركَ جسده»[١٢].

وأفـرام السـرياني يعلّم: «طـوبى للّذين يسـهـرون في الصـدقات»[١٣]، وأيضـاً «إنّنا نُرسلُ، قـبلَ ذهابِنا إلى القـضـاء، أعمالَنا الصـالحة لتستقبلَنا عند وصـولنا إلى مدينة القدس»[١٤]، «بالدموع والصدقات نستطيع محو الشكاوى المكتوبة علينا»[١٥].

---

(٨) Le Talmud, Pirké Aboth, 1, 2; Cohen, p. 176..

(٩) أنظر غلاطية ٥/٦؛ ١ تسا ١/٣؛ ٢ تسا ١/١١... وغيرها

(١٠) أنظر إنجيل متى ٢٥/٣٧-٤٦؛ ١ قور ١٣/٢؛ ١ يوحنا ٣/١٧.

(١١) رسالة يعقوب ٢/١٤-٢٦.

(١٢) حياة باخوميوس ١٧/٣٨١.

(١٣) Op. Gr. , II, 22...

(١٤) Op. Gr., II, 152...

(١٥) Op. Gr., II, 215...

واكليمنضوس الإسكندري كان يقول: «ما أحسنها تجارة! وما أجمله سوق إلهي! إنّنا نبتاع الأبديّة بأشياء زائلة من هذا العالَم»[١٦].

وعادة ما كانَ يستعمل آباء الكنيسة السريان تعبير «تجارة مع الله»[١٧]، للدلالة على الرّبح الذي يناله المتصدّقون بأموالهم...

وفي القرآن أيضاً دعوة إلى «تجارة مع الله»، لا تكسد ولا تبور، وتنجّيهم من عذابات النّار. قال: «يا أيُّها الّذينَ آمَنوا! هل أَدُلُّكُمْ عَلى تِجَارَةٍ تنجّيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَليمٍ؟ تُؤْمِنُونَ باللّهِ وَرَسُولِه، وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ. ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٦١/ ١٠)[١٨].

(يراجع، في موضوع الحسنات والصدقات وأعمال البرّ، كتاب «قس ونبيّ. بحث في نشأة الإسلام. سلسلة الحقيقة الصعبة، رقم ١؛ طبعة ١٤؛ صفحة ٢٠٧-٢١٩).

---

(١٦) Cl.ément D'Alexandrie. Stromates 32.

(١٧) Syn. Or., Canon XIX...

(١٨) أنظر: سورة التوبة ٩/ ٢٤؛ سورة فاطر ٣٥/ ٢٩...

خامساً - في أحوال المَعاد

بين القرآن العربي والتقاليد النصرانيّة، في ما يخصّ أحوال المَعَاد[1]، اتّفاقٌ تامّ : فأوصاف اليوم الأخير، وأحوال الجنّة والنار، والإيمان بالقيامة العامّة، والاعتقاد بالحساب والعقاب، ، هي نفسُها في النصرانيّة والإسلام.

حتّى الصورُ والتعابير والأمثال والرموز والأسلوب والألفاظ تكاد تكون واحدة في القرآن العربي والتوراة والأناجيل الرسميّة والمنحولة والتقاليد النصرانيّة. لكأنّ القرآن العربي ينقل عنها مباشرة. وحسبنا أن نقابل في ما يلي من موضوعات

(يراجع، في موضوع الجنّة والنار واليوم الآخير وأحوال المعاد، كتاب «قسّ ونبيّ. بحث في نشأة الإسلام؛ من سلسلة الحقيقة الصعبة، رقم ١؛ طبعة ١٤؛ ٢٠٠١؛ صفحة ٢٢٠-٢٥٥).

---

(١) أعني بـ «المعاد»: Eschatologie

سادساً - في أمثال الإنجيل والقرآن

بين القرآن العربي والمصادر النّصرانيّة صُور وتعابير وتشابيه وأمثال وألفاظ مشتركة ومتشابهة. إنْ وضعنا بعضها إزاء بعض نتأكّد، لا من معرفة محمّد بالأجواء النصرانيّة وحسب، بل من اعتماده إنجيلاً مكتوباً كان «بين يديه». هذا الاعتماد يقوم، لا على النقل الحرفي، كما هو مألوف اليوم، بل على حريّة التصرّف، والـ «تصريف»، و«التفصيل»، والشرح، والتفسير... لكأنّ القرآن، في نقله، يعلّق على الإنجيل، ويفسّر لسامعيه، ويُذكِّرهم ما يعرفون: «ذَكِّرْ إنّما أنْتَ مُذَكِّر»(١).

وأكثرُ ما نرى المقارنةَ بين المصادر النّصرانيّة والقرآن العربي في موضوع «الأمثال» الإنجيليّة التي نجدها في القرآن. غير أنّه قد يشمل مثَلٌ قرآنيٌّ واحد أمثالاً عديدة من الإنجيل؛ أو ينشر مَثلاً إنجيليّاً واحداً في مواضع عديدة من القرآن. وقد يستلهم محمّد، في شرحه وتفسيره، أخباراً وأمثالاً وقَصصاً من بيئته المكّيّة، ومن أخبار قبائل عربيّة، ومن قَصص وروايات نصرانيّة متداولة في مجتمعه، كقصة «أبناء الكهف»، وقصة الإسكندر المكدوني، وأخبار عاد وثمود، وروايات العهد القديم،

(١) سورة الغاشية ٨٨/ ٢١.

كرواية الخلق والتكوين، وسقطة آدم وحــواء وغواية إبليس لهما، وأخبار الأسباط والنّبيّين، وما إلى ذلك...

ولا يغـيب عن القارئ مـا نردّده دائمـاً بأنّنا نعرفُ مـا في الإنجيل العبراني من خلال إنجيل متّى الآرامي أصل كلّ الأناجيل الرسمية والمنحولة. وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً وبالتفصيل... وها نحن، الآن، نثبتُ في الأمـثال ما فـيه أكثـر من دليلٍ على اعتـماد القرآن على مصادر نصرانيّة كانت متوفّرةً لديه و«بين يديه».

١. في الإنجيل، كـما في القرآن، إنْ الاعـتماد على الأمـثال لتعليم النّاس هو من الأساليب الأدبيّة المألوفة:

جاء فـي القرآن العـربي: «وَتِلكَ الأَمْثَـال نَضْرِبُهَـا للنّاسِ» (٢٩/ ٤٣). «ويضرب اللّه الأَمْثَـالَ للنّاس» (١٤/ ٢٥).«وضربنا لكم الأَمْـثَالَ» (١٤/ ٤٥). و«ضــرب اللّهُ مَـثَـلاً... للّذِين كَفَـروا» (٦٦/ ١٠). «وضرب اللّهُ مَثَلاً للّذين آمَنوا» (٦٦/ ١١).

وفي الإنجـيل، «أخذ (يســوع) يضرب لهم الأمـثال» مـتى ١٣/ ٣). وقال يسوع: «إنّما أخاطبــهم بالأمثال» (متى ١٣/ ١٣). وقال متّى: «وضربَ لهم مثلاً آخر» (١٣/ ٢٤). وأيضاً: «وضرب لهم مَثَلاً آخر» (١٣/ ١٣). «ثم قال لهم مَثَلاً آخر» (١٣/ ٣٣).

(يراجع، في موضوع الأمثـال، كتاب «قسّ ونبيّ. بحث في نشأة الإسلام؛ من سلسلة الحـقيقة الصعبـة، رقم ١؛ طبعة ١٤؛ ٢٠٠١؛ صفحة ٢٥٦-٢٧٢).

الفصل الثالث

المسيحية والإسلام المدني

أوّلاً – تحريف التوراة (والإنجيل)

ثانياً – الثالوث

ثالثاً – المسيح عيسى ابن الله

رابعاً – روح القدس

خامساً – الجهاد المقدّس

نتناول في هذا الفصل موضوعات الخلاف بين الإسلام والمسيحيّة. وهي تعود إلى الفترة المدنيّة من حياة النبيّ محمّد (٦٢٢-٦٣٢)؛ بل إلى السنتَين الأخيرتَين منها، حيث تعرّف النبيّ إلى وفد نجران المسيحيّ، وإلى مسيحيّي مُؤْتَة وتَبُّوك، وبلاد الشام التي حاول فتحَها، ولم يتوفّق إلاّ مع خلفائه.



أوّلاً – تحريف التوراة (والإنجيل)

ترد لفظة "الإنجيل"، في القرآن، ١٢ مرّة[١]، دائماً معرّفة بالألف واللاّم، ودائمــاً بصيــغة المـفرد: مـعطوفة على التـوراة ٨ مــرّات، و٤ مرّات بمفــردها... وترد لفظة "التوراة" ١٨ مــرّة[٢]، معرّفــةً بالألف واللاّم. وهي الكتاب الذي أُنزل على موســى، كما الإنجيل أُنزل على عيسى، والقرآنُ على محمّد.

والإنجيل، في القرآن، كتابٌ واحدٌ، براوية واحدة. وما عند النصارى من رواياتٍ لأناجـيلَ متعـدّدة، كإنجيل مـتّى، ومرقس، ولوقا ويوحنّا، هو تحريف لإنجيل عيسى الحقيقي. هذه الروايات المتعدّدة ليست هي الإنجيل الحـقيقي الذي حُرِّفَ وضاع، وأُخفِي كلّه أو بعضه.

لقـد لحق التحـريفُ بالتـوراة والإنجيل مـعًا، كـما يقـول المسلمون اليوم ولم يسلم من هذا التحـريف إلاّ القرآن. لقد حفظه اللّهُ من كلّ تحـريـف: «إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْـرَ وإنّــا لَهُ لَحَـافِظُون» (١٥/٩). والقرآن كان عند اللّه «فِي لَوحٍ مَحْفُوظٍ» (٨٥/٢٢).

---

(١) رَ: ٣/٣ و٤٨ و٦٥؛ ٤٦/٥ و٤٧ و٦٦ و٦٨ و١١٠؛ ١٥٧/٧؛ ١١١/٩؛ ٢٩/٤٨؛ ٢٧/٥٧.

(٢) رَ: ٣/٣ و٤٨ و٥٠ و٦٥ و٩٣ (مــرّتين)؛ ٤٣/٥ و٤٤ و٤٦ (مــرّتين) و٦٦ و٦٨ و١١٠؛ ١٥٧/٧؛ ١١١/٩؛ ٢٩/٤٨؛ ٦/٦١؛ ٥/٦٢.

ألتحـريفُ في التوراة واضح، بحسب ما جـاء في القرآن؛ ولكنّه في الإنجيل ليس كذلك. وآيات تحريف التوراة هي هذه :

١. «**مِنَ الّذِين هَادُوا (أي اليـهود)**[٣] **يُحَرِّفُونَ** (يغيّرون) **الكَلِمَ** (الذي أنزلَ اللّهُ في الـتـوراة) عَنْ مَـوَاضِـعِـهِ (التي وُضع عليـهـا)؛ ويَقولونَ (للـنّبيِّ إذا أمرهم بـشـيء): سَمِـعْنَا (قـولَكَ) وعَـصَـيْنَا (أمرَكَ). واسْـمَعْ غـيـرَ مُـسْمَعٍ (أي: لا سـمـعت)، وَ (يقولون): رَاعِنَا (وهي كلمة سبّ بلغة اليـهود) لَيًّا (أي: تحريفاً) بألسِنَتِهِمْ وَطَعْناً (أي: قـدْحاً) في الدِّينِ (أي: الإسلام). ولو انّهُمْ قالوا سَمِـعْنَا وأَطَعْنَا (بدل "وعَصَيْنَا"). وَاسْـمَعْ (فقط) وانظُرْنَا (أي: أنظر إلينا بدل "رَاعنَا")، لَكَانَ خَيرًا لَهُمْ (ممّا قالوه)، وَأَقْوَمَ (أي: أعـدل منه)؛ وَلَكِنْ لَعَـنَهُمُ اللّهُ (أي: أبعـدهم عن رحـمـتـه) بِكُفـرِهِمْ. فَـلاَ يُـؤْمِنُونَ إلاّ قَلِيـلاً (منهم كـعـبـد اللّه بن سـلام وأصحابه)»[٤].

٢. ويقول أيضاً: «**يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ** (الذي في التوراة) عَن مَوَاضِعِـهِ (أي يبدِّلُونَه). وَنَسُوا حظًّا ممَّـا ذُكِّرُوا (أُمِروا) به (في التوراة من اتّباع محمّـد). وَلا تَزَالُ (يا محمّد) تَطَّلِعُ (تظهر) عَلَى خَـائِنَةٍ (أي: خيـانة) مِنْهُمْ (بنقـض العهـد) إلاَّ قَلِيـلاً مِنْهُمْ (ممّن أسلم)، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ. إنّ اللّهَ يُحِبُّ الُمحْسِنِينَ»[٥].

---

(٣) ألتفاسير، ضمن هلالَين، من تفسير الجلالَين الذي هو من تفسير الطبري.

(٤) سورة النساء ٤/٤٦.

(٥) يعلّق تفسير الجلالَين: «وهذا منسوخ بآية السّيف». سورة المائدة ٥/١٣.

٣. وكـذلك يقـول في تحـــريف آية الجلْد: «.. **وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا** سَمَّـاعُونَ للكَذِبِ (من أحـبارهم)، سَـمَّاعُونَ (مـنك) لِقَومٍ آخَرِينَ (من اليـهود) لَمْ يَأْتُوكَ (وهم أهل خَيـبر)، **يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ** (الذي في التوراة)، مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِـهِ (التي وضعه اللّه عليها، أي يبـدّلونه). يَقُـولُونَ (لِمَنْ أرْسَلُـوهم): إنْ أُوتيـتُـمْ هَذَا (الحكم المحرّف، أي الجلد) فَـخُذُوهُ (فـاقبلوه)؛ وَإنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ (بل أفـتاكم بخلافه) فَاحْذَرُوا (أنْ تَقبلوه). وَمَنْ يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ (إضلالَه) فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَـيئًـا (في دفـعهـا). أولَئكَ الّذينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أنْ يُطَهِّـرَ قُلُوبَهُمْ (من الكفـر. ولو أراده لكان) لَهُمْ فِي الـدُّنْيَا خِـزْيٌ (ذلّ بالفضيحة والجزية). وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ» (٥/٤١).

٤. **واليهود يُخفـون كثيراً** ممّا نزل في التوراة. يقول: «يَا أهْلَ الكِتَابِ! قَد جَاءَكُمْ **رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيـرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ** (أي: تكتمون) **مِنَ الكِتَابِ** (التوراة)، وَيَعْـفُو عَنْ كَثِـيرٍ (من ذلك، فلا يبيّنه إذا لم يكن فـيه مصلحة إلاّ افتضـاحكم). قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ (وهو النّبيّ مـحمّد)، وَكِـتَابٌ (أي: قـرآن) مُبِينٌ (أي بيّن ظاهر)» (٥/١٥).

٥. ويقول في **تحريف الأحبار للتوراة**: «أَفَتَطْمَعُونَ (أيّها المؤمنون!) أَنْ يُؤمِنُوا لَكُمْ (أي اليهود)! وَقَـدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُـمْ (أي أحبـارُهم) يَسْمَـعُونَ كَلاَمَ اللّـهِ (في التّوراة)، **ثُمَّ يُحَـرِّفُونَه** (أي يُغيّرونه) مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ (أنّهم مفترون)»[٦].

---

(٦) سورة البقرة ٢/ ٧٥.

٦. **وبعض اليهود** يختلقون كثيراً من عندهم. يقول: «**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** (أي مختلقاً من عندهم). ثُمَّ يَقُولُونَ: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً (من الدنيا، وهم اليهود غيّروا صفة النّبيّ في التوراة وآية الرّجم وغيرهما، وكتبوها على خلاف ما أُنزل). فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيدِيهِمْ. وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (من الرّشا)» (٢/ ٧٩).

٧. ويقول أيضاً **إنّ فريقاً من اليهود** يزيدون في التوراة من عندهم: «وَإِنَّ مِنْهُمْ (أي من اليهود) لَفَرِيقًا **يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتَابِ** (أي يعطفونها بقراءته عن المنزل إلى ما حرّفوه من نعت النّبي محمّد ونحوه) لَتَحْسَبُوهُ (أي المحرّف) مِنَ الكِتَابِ (الذي أنزله اللّه)، وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ. وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ. وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ. وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (أنّهم كذّابون)» (٣/ ٧٨).

٨. ويقول كذلك **إنّ اليهود كتبوا التوراة في دفاتر** فأخفوا فيها ما أخفوا: «.. تَجْعَلُونَه (أي كتاب التوراة) قَرَاطِيسَ (أي تكتبونه في دفاتر مقطّعة)، تُبْدُونَها (أي ما تحبّون إبداءَه منها) **وَتُخْفُونَ كَثِيرًا** (ممّا فيها كنعت محمّد)، وَعُلِّمْتُمْ (أيّها اليهود في القرآن) مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ (من التوراة ببيان ما التبس عليكم واختلفتم فيه). قُلِ اللّهُ (أنزله. إنْ لم يقولوه لا جواب غيره). ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوضِهِمْ (باطلهم) يَلْعَبُونَ»[٧].

---

(٧) سورة الأنعام ٦/ ٩١ب.

٩. ويقول أخيراً: **إنّ اليهود وضعوا في التوراة أشياء من صنع أيديهم** غير الذي كان فيها في الأصل: «**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً** (ابتدعوه من عند أنفسهم) غَيرَ الذي قِيلَ لَهُمْ (في التوراة). فَأَرْسَلنَا عَلَيهِمْ رِجْزًا (عذابًا) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ»[8].

***

هذا كلّ ما في القرآن من إشارات إلى التحريف؛ وهو واضحٌ أنّ اليهود هم الذين حرّفوا في التوراة وبدّلوا. ولا يوجد في القرآن أيّ تلميح إلى أنّ النصارى، أو المسيحيّون، فعلوا فعلةَ اليهود هذه.

وإذا ما كان بعضُ المسلمين يقول إنّ في الإنجيل تحريفاً، فتعود هذه التهمة، لا إلى القرآن، ولا إلى النصارى إطلاقاً، بل إلى الكنيسة والمجامع المسكونيّة، وعلى رأسهم بولس الرسول، الذي حرّف وبدّل وزوّر وأضاف وأنقص، على ما يقوله المفسِّرون المسلمون جميعهم.

ويقول المسلمون أيضاً إنّ الكنيسة «أضاعتْ» و«خبّأت» إنجيل عيسى الحقيقي.. وكان وقتٌ ظهرت منه نسخةٌ، هي إنجيل برنابا، الذي خالف تعاليم بولس وانفصل عنه، وكتب إنجيلاً مخالِفاً، هو، بنظر المسلمين، أقرب ما يكون إلى إنجيل عيسى.

---

(٨) سورة الأعراف ١٦٢/٧.

ثانياً - ألثالوث

موقف القرآن من الثالوث مـوقف تكفيرٍ للّذين يقولون بأنّ اللّه ثالث ثلاثة. إنّهم مشـركون. ويجب قتالهم حتّى يقولوا: "لا إلهَ إلاّ اللّه [٤٥]"، و"مَن إلهٌ غير اللّه" [٤٦]، و"ما اتّخذ اللّهُ من ولد وما كان معه من إله" [٤٧]... إلى ما هنالك من تعابير توحيديّة، في خلفيّتها تكفيرٌ لكلّ قول بالثالوث، أو بأنّ للّه أولاداً أو بنات.

هوذا نصّ القرآن في شأن مَن يقول بالثالوث:

١٧١. «**يا أهلَ الكتابِ! لا تَغْلُوا** (أي تتجاوزوا الجدّ) **فِي دِينِكُمْ. وَلا تَقُولُوا عَلَى اللّهِ إلاّ** (القولَ) **الحقَّ** (من تنزيهه عن الشريك والولد): **إنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا** (أوصلها اللّه) **إلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ. فَآمِنُوا باللّهِ وَرُسُلِه. وَلا تَقُولُوا** (الآلهة) **ثَلاثَةٌ** (أللّه وعيسى وأمّه). **انْتَهُوا** (عن ذلك وأتوا) **خَيراً لَكُمْ** (منه وهو التوحيد). **إنَّمَا اللّهُ إلهٌ وَاحدٌ. سبحانه** (تنزيهاً له عن) **أنْ يكونَ له وَلَدٌ. لَهُ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا فِي**

---

(٤٥) يرد هذا التعبير، وما شابهه، في القرآن، مئات المرّات. ولا مجال هنا لذكر مراجعها. فليراجع "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم".

(٤٦) سورة القصص ٢٨/ ٧١ و٧٢..

(٤٧) سورة المؤمنون ٢٣/ ٩١.

الأرضِ (خَلْقاً ومُلْكاً وعـبيداً. والملكيّـة تنافي البنوّة). **وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيـلاً** (شـهـيداً على ذلك). **١٧٢. لَنْ يَسْتَنْكِفَ** (يتكبّر ويأنف) **المَسِيحُ** (الذي زعمـتم أنّه إله عن) **أنْ يَكُونَ عَبْـداً للَّهِ، وَلا الملائكَةُ المقَرَّبُونَ** (عند اللّه لا يسـتنكفون أن يكونوا عـبيـداً للّه. وهذا من أحسن الاستطراد، ذكـر للردّ على مَن زعم أنّها آلهة، أو بنات اللّه، كـمـا ورد بما قـبـله على النصـارى الزاعـمـين ذلك. ألمقـصـود خطابهم). **وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَـسَيَحْشُرُهُمْ إلَيهِ جَميعاً** (في الآخرة)» (٤/ ١٧١–١٧٢).

وقال أيـضـاً: «**لَقَـد كَفَـرَ الذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِـيحُ ابنُ مَرْيَمَ. لَقَدْ كَفَـرَ الذِينَ قَالُوا إنّ اللّهَ ثَالِثُ** (آلهة) **ثَلاثَةٍ** (أي أحدها والآخَران عيسى وأمّـه. وهم فرقة من النصارى). **وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاّ إلهٌ واحِدٌ. وإنْ لَـمْ يَنتَهُـوا عَمّا يَقُـولُونَ** (من التثلـيث ويوحّدوا) **لَيَمَسَّنَّ الذينَ كَفَرُوا** (أي ثبتوا على الكفر) **مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (مؤلم وهو النار)» (٥/ ٧٢–٧٣).

وقال أيضاً : «**وَإذْ قَالَ اللَّهُ: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ! أأَنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّي إلَهَينِ مِنْ دُونِ اللّه!**» (٥/ ١١٦).

فهناك، إذاً، بحسب القرآن، ثالوثُ آلهةٍ: الأب، والأمّ، والابن؛ أي: اللّه الأب، وعيسى المسيح، ومريم أمّه.

ويعتبر القرآن:

١. القول بالثالوث "غلوّ" في الدّين.

٢. وما المسيح إلاّ «رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم».

٣. وهو أيضاً «روح منه».

٤. بل هو «عبدٌ للّه»، لا شريك معه ولا إبنٌ له.

٥. لم يكن للّه صاحبة حتّى يكون له منها ولد.

٦. ويستطيع اللّه أن يهلكه وأمَّه ومَن في الأرض جميعاً.

٧. واللّهُ، بالتالي، ليس "أبَ" أحدٍ، ولا هو أيضاً "إله محبّة"، كما يقول المسيحيّون.

٨. ومَن يقول مثل هذه الأقوال فهو كافر، وله في الآخرة عذاب أليم.

هكذا، يردّد القرآن ويكرّر إيمانَه بوحدانيّة اللّه بتعابير، تكاد لا تخلو منها صفحة من صفحات القرآن، وربّما فاقتْ ٢٨٤٠ مرّة. وكذلك يدعو القرآن إلى محاربة الشرك، وإلى قتال المشركين. ثمّ يتوعّدهم بعذاب أليم، وبنار خالدة أعدّتْ لهم.

يبقى أن نشير إلى قول القرآن في أمّ عيسى على أنّها إحدى الآلهة الثلاثة. هذا القول مأخوذ بوضوح ممّا ورد في إنجيل العبرانيّين المنحول: «قال المخلِّص: "إنّ أمّي، التي هي الروحُ القدس، رَفَعَتْني بشعرةٍ من شعر رأسي، ونَقَلَتْني إلى جبل طابور العالي"»(٤٨). يشرح أوريجانوس ذلك بقوله: إنّ كلمة "روح" في العبريّة، من الجنس المؤنّث. فالتبس الأمرُ على القرآن العربي، معتقداً بأنّ الروح القدس هو نفسه مريم.

---

(٤٨) أوريجانوس، في تفسيره على يوحنا ٢، ٦؛ في الأناجيل المنحولة، نسبيه ١٩٩٩، ص ٢٢٩.

وأخيراً، وراء رفض محمّد للثالوث جهله كيفيّةَ الرّبط بين وحدانيّة الطبيعة الإلهيّة وثالوثيّة الأشخاص الإلهيّة. فالطبيعة واحدة؛ أمّا أشخاصها فثلاثة، يؤلّفون ألوهيّةً واحدة، كاملة في كلّ منهم؛ تماماً كالطبيعة الإنسانيّة الواحدة فهي كاملة في كلّ إنسان. وفي عالَم الكمال والمطلق، لن يكون فرقٌ بين أشخاصه، كما هو الحال في عالم النقص والنسبيّ.

لقد اعتبرَ محمّد الوحدانيّة والثالوثيّة متناقضَتَين، فقصّر عن إدراكهما معاً، واختار له البسيطَ الأسهل، وهو القول بالتوحيد، وبالتوحيد فقط؛ وذلك في صيغٍ مكرّرة آلاف المرّات.

هذه العقيدة السهلة والبسيطة، في توحيد اللّه، قال بها محمّد من أجل غاية إجتماعيّة فكريّة عظيمة، ألا وهي التوحيد بين الشيع والأحزاب؛ لأنّه، كلّما سهلت العقيدة سهلت الوحدةُ بين الناس.

ثالثاً – ألمسيح عيسى ابن الله

ألمسيح عيسى لم يكن إلهاً، ولا إبناً للّه: «مَا كانَ للّهِ أنْ يتّخذَ مِنْ وَلَدٍ. سبحانَه»[٤٩]؛ «سبحانه أن يكون له ولد»[٥٠]؛ بل هو الذي قـال: «إنّي عبـدُ اللّهِ. آتاني الكتـابَ. وجَـعَلَني نبـيّاً.. وأوصـاني بالصـلاة والزّكاة»[٥١]. وهو، عند اللّه، كـمَثَلِ آدم، خلقَـه اللّهُ من تُرابٍ، من دون رجل. إنّما خُلق بكلمةٍ «كنْ» (٣/ ٥٩).

وعلى المسيـحيّين ألاّ يغلوا في دينهم، وألاّ يقـولوا على اللّه إلاّ الحقّ. والحقّ هو : ألمسـيح عيـسى هو ابن مريم، رسـولٌ للّه، وعبدٌ، كان يـأكل الطعام، لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعـاً، مثله مثل سائر الناس. وعلى المؤمنين به ألاّ يغلوا في إيمانهم.

قال: «لَقَدْ كَفَرَ الّذينَ قَـالُوا إنّ اللّهَ هُوَ المسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...مَا المسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدّيقَةٌ كَـانَا يَأكُلانِ الطَّعَـامَ.. قُلْ أتَعبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَـا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَـرّاً وَلا نَفْـعـاً.. قُـلْ يَا أهْلَ الكتَـابِ! لا تَغْلُوا فِي دِيـنِكُمْ غَـيـرَ الحَقِّ»[٥٢].

---

(٤٩) سورة مريم ١٩/ ٣٥.

(٥٠) سورة النساء ٤/ ١٧١.

(٥١) سورة مريم ١٩/ ٣٠.

(٥٢) سورة المائدة ٥/ ٧٢ و٧٤ و٧٧–٧٨.

فالمسيح ليس ولداً للّه، ولا ابناً، ولا شريكاً، ولا ينتسب إليه على غير ما ينتسب البشر. واللّه لم يكن له لا أولاد، ولا بنون، ولا بنات، ولا شركاء. وهو لم يلد ولم يولد.

لقد نفى القرآن عن اللّه كلّ ذلك. وجاء نفيُه في أكثر من عشرين آية. ومعظمها موجّه إلى "المسيحيّين" الذين اعتبروا المسيحَ ابناً للّه، أو ولداً؛ فيما "النصارى" يعتبرونه إنساناً نبيًا ورسولاً.

أربع وعشرون آية تنسب بنوّة المسيح عيسى إلى مريم[٥٣]. وثماني عشرة آية تنفي عنه أن يكون «ولداً» للّه. وهذه معظمها:

قال: «إنّما اللّهُ إلهٌ واحدٌ. سبحانَه أنْ يكونَ لَهُ **وَلَد**»[٥٤].

وقال: «أنّى يكون له **وَلَدٌ** ولمْ تكنْ له صاحبةٌ»[٥٥].

وقال: «مَا كَانَ اللّهُ أنْ يتّخذَ مِن **وَلَد**. سبحانَه»[٥٥].

وقال: «ما اتّخذ اللّه من **وَلَد**. وما كانَ معهُ مِن إله»[٥٦].

---

(٥٣) «ألمسيح عيسى ابن مريم» و«المسيح ابن مريم»؛ رَ: ٢/ ٨٧ و٢٥٣؛ ٣/ ٤٥؛ ٤/ ٣٦ و١٥٧ و١٧١؛ ٥/ ١٧ (مـرّتين) و٤٦ و٧٢ و٧٥ و٧٨ و١١٠ و١١٢ و١١٤ و١١٦؛ ٩/ ٣٠ و٣١؛ ١٩/ ٣٤؛ ٢٣/ ٥٠؛ ٢١/ ٩١؛ ٣٣/ ٧؛ ٤٣/ ٥٧؛ ٥٧/ ٢٧؛ ٦١/ ٦ و١٤.

(٥٤) سورة النساء ٤/ ١٧١.

(٥٥) سورة الأنعام ٦/ ١٠١.

(٥٥) سورة مريم ١٩/ ٣٥.

(٥٦) سورة المؤمنون ٢٣/ ٩١.

وقال: «قلْ إنْ كان للرحمَن **وَلَد**. فأنا أوّل العابِدين»[٥٧].

وقـال: «وَقَالُوا: اتَّخَـذَ اللّهُ **وَلَداً**. سُـبْحَـانَه! بَلْ لَهُ مَـا فِي السّمَوَاتِ والأرْضِ. كُلٌّ لَهُ قَانِـتُونَ. بَدِيعُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ. وَإذا قَضَى أمْراً فإنّما يَقولُ له: كُنْ فيكُونُ»[٥٨].

وقال مكفّراً كلّ مَن اعتـبر أنّ للّه شركاء من الجنّ، وكلّ مَن قال أنّ له بنين وبنات. فاللّه لم يكن له ولدٌ ولا صـاحبة ولا بنات: «وَجَعَلُوا للَّهِ شُـرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُم وَخَرَقوا لهُ بَنِـينَ وَبنَاتٍ بِغَيرِ عِلْمٍ. سُبحَانَه وَتَعَالَى عَمّـا يَصِفُون! بَديعُ السّمَوَاتِ والأرْضِ أنَّى يَكُونُ لهُ **وَلَدٌ**! وَلَمْ تَكُنْ لهُ صَـاحِبَـةٌ؟! وَخَلَـقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ»[٥٩].

واللّه غنيٌّ عن كلّ ولد أو شريك أو صاحـبة؛ لأنّ كلّ ما في الأرض والسـموات ملكـه؛ فلماذا، إذاً، يخـتصّ بالولد والشـريك والصاحبة؟!. قـال: «قَالُوا: اتّخَذَ اللَّهُ **وَلَداً**. سُبْحَانَهُ! هُوَ الغَنِيُّ. لَهُ مَـا فِي السَّـمَـوَاتِ وَمَا فِـي الأرْضِ. إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَـذَا؟ أتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ»[٦٠]؟

وقال أيضاً: «وَقُلِ الحَمْدُ للَّهِ الّذي لَمْ يَتَّخِذْ **وَلَداً**. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ» (١٧/ ١١١).

---

(٥٧) سورة الزخرف ٤٣/ ٨١.
(٥٨) سورة البقرة ٢/ ١١٦-١١٧.
(٥٩) سورة الأنعام ٦/ ١٠٠-١٠١.
(٦٠) سورة يونس ١٠/ ٦٨-٦٩.

«وَيُنْذِرَ الّذينَ قَالُوا اتّخَذَ اللّهُ **وَلَداً**. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ. كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ إنْ يَقُولُونَ إلاّ كَذِباً»[٦١].

وقال: «وَقَالُوا: اتّخَذَ الرّحْمَنُ **وَلَداً**. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيئًا إدًّا. تَكَادُ السّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتنْشَقُّ الأرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا. أنْ دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَداً. وما يَنْبَغِي للرَّحْمَنِ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً»[٦٢].

وقال: «وَقَالُوا: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ **وَلَداً**. سُبْحَانَه»[٦٣].

وقال: «مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ **وَلَدٍ**. وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلَه إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَه بِمَا خَلَقَ. وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. سُبْحَانَ اللّهِ عَمَّا يَصِفُونَ! عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ. فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»[٦٤].

وقال: «الّذي لَهُ مُلْكُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ. وَلَمْ يَتَّخِذْ **وَلَداً**. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ. وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ. فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً»[٦٥].

وقال: «لَوْ أرَادَ اللّهُ أنْ يَتَّخِذَ **وَلَداً** لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ. سُبْحَانَه! هُوَ اللّهُ الواحِدُ القَهّارُ»[٦٦].

وقال: «قُلْ: إنْ كَانَ للرَّحْمَنِ **وَلَدٌ** فَأنَا أوّلُ العَابِدِينَ»[٦٧].

---

(٦١) سورة الكهف ١٨/ ٤-٦.
(٦٢) سورة مريم ١٩/٨٨-٩٥.
(٦٣) سورة الأنبياء ٢١/٢٦-٢٧.
(٦٤) سورة المؤمنون ٢٣/ ٩١-٩٢.
(٦٥) سورة الفرقان ٢٥/ ٢.
(٦٦) سورة الزّمّر ٣٩/ ٤.
(٦٧) سورة الزخرف ٤٣/ ٨١.

وقال: «وَأنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا **وَلَداً**. وَأنَّهُ كَانَ يَقولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً»[٦٨].

وقال: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**. ولَمْ يَكُنْ له كُفُواً أحَدٌ»[٦٩].

***

ليست كلّ هذه الآيات تطعن بالمسيحيّين؛ بل منها آيات تطعن بالوثنيّين الذين اتّخذوا، هم أيضاً، للّه بنين وبنات. فاللاّة والعزّة ومناة ثلاثة آلهة تنتسب بعضها إلى بعض انتساباً عائليّاً؛ والملائكة يعتبرها بعضُ أهلِ قريش بناتاً للّـه؛ واليهود يعتبرون «عُزَيرا»، وهو النبي «عزرا»، إبناً للّه..

غير أنّ «المسيحيّين» يبقون أكثر المقصودين في تكفير القرآن لهم. وهم، بما يقولون، مشركون حقًّا. وعلى المسلمين قتالهم أينما وجدوهم. هؤلاء، إذاً، ليسوا طائفةً من أهل الكتاب لتجري عليهم الجزية، أو ليعامَلوا كذمِّيِّين، ويعيشون، بالتالي، في دولة الإسلام بأمان وسلام.

---

(٦٨) سورة الجنّ ٧٢/٣-٤.

(٦٩) سورة الإخلاص ١١٢/١-٤.

رابعاً - روح القدس

فَهِمَ المفسِّرون المسلمون من القرآن إنتقادَه الشديد لمقولة " الرّوح القدس " الذي، بحسب المسيحيّين، يؤلّف مع الأب والابن الأقانيمَ الإلهيّة الثلاثة. وهو يحتلّ مكانةً أساسيّة في المعتقد المسيحيّ. به يصبحون مسيحيّين. وبه ينالون الأسرارَ. وبه يحصلون على النّعم الإلهيّة كلّها... وإذا ما طار الروح القدس من حياتهم، فلا شيء عندهم ينفع: لا قداسة لهم بدونه، ولا وحي، ولا كتب مقدّسة، ولا قيامة، ولا خلاص، ولا سعادة، ولا كنيسة، ولا مقدّسات... وباختصار، لا مسيحيّة.

غير أنّ «روح القدس» في القرآن ليس أقنوماً إلهيًّا. والقرآن، الذي يذكر «روح القدس» أربع مرّات، و«الروح» ١٧ مرّة، لا يرفضه بكونه أقنوماً إلهيًّا، ولا يقول فيه كما يؤمن به المسيحيّون. ألروح القدس، أو الرّوح، غالب الأحيان، هو الملك جبريل، أو الوحي الذي جاء به جبريل، أو القرآن نفسه، أو الحياة التي بها يُحيي اللّه البدن، أو هو نور اللّه، أو رحمته...

وآيات «الروح» في القرآن، مع تفاسيرها هي هذه:

١و٢. «..وآتَينَا عيسَى ابنَ مريم البيّنات. **وأيّدناه بروحِ القدس** (أي جبريل)» (٢/ ٨٧ و٢٥٣).

٣. «أذكُرْ نِعمَتي عليكَ وعلى والدتكَ إذ **أيّدتُكَ بروحِ القدس** (أي جبريل)» (٥/ ١١٠).

٤. «قل **نَزّله رُوحُ القُدس** (أي جبريل) من ربّك بالحقّ، ليُثبِّتَ الذين آمنوا» (١٦/ ١٠٢).

٥. «وإنّهُ لَتَنزيلُ رَبِّ العالَمين. **نَزَلَ به الرُّوحُ الأمين** (أي جبريل)، على قلبكَ، لتكونَ من المنذرين، بلسانٍ عَربيٍّ مُبين» (٢٦/ ١٩٤).

٦. "يُنَزِّلُ الملائكةُ (جبريل) **بالرُّوح** (أي بالوحي) **مِنْ أمْرِهِ** (أي بإرادته) على مَن يشاءُ من عباده (أي الأنبياء)» (١٦/ ٢)

٧. «تَعْرُجُ الملائكةُ **والرّوح** (أي جبريل) إليهِ في يومٍ كَانَ مِقدارُه خمسينَ ألفَ سَنَة» (٧٠/ ٤).

٨. «يومَ يقومُ **الرُّوحُ** (جبريل) والملائكةُ صَفّاً، لا يتكلّمُون إلاّ مَن أذِنَ له الرحمَن، وقالَ صوَاباً» (٧٨/ ٣٨-٣٩).

٩. «تَنزَّلُ الملائكةُ **والرُّوحُ** (أي جبريل) فيها بإذنِ ربِّهم مِن كلِّ أمرٍ» (٩٧/ ٤).

١٠. «واذكُرْ في الكِتابِ (القرآن) مريمَ، إذ انتبَذَتْ مِن أهلها مكاناً شرقيّاً. فاتّخَذَتْ من دونِهم حِجاباً. **فأرسَلْنا إليها رُوحَنا** (أي جبريل)، فتمثّلَ لها بَشَراً سويّاً. قالتْ: إنّي أعوذُ بالرّحمن منكَ إنْ كنتَ تقيّاً. قال: إنّما أنا رسولُ ربِّكِ لأَهَبَ لكِ غلاماً زكيّاً» (١٩/ ١٦-١٨).

١١. «والتّي أحصنتْ فـرجَها، **فنفَخْنا فـيها مِن روحنا** (أي جبريل). وجعلناها وابنَها آيةً للعالَمِين» (٢١/ ٩١).

١٢. «ومريمَ ابنةَ عِمرانَ التّي أحـصنتْ فرجَها، **فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا** (أي جبريل)، وصدَّقتْ بكلماتِ ربِّها وكُتُبِه. وكانتْ من القانتين» (٦٦/ ١٢).

١٣. «يا أهلَ الكتـاب! لا تَغلوا فـي دينِكمْ. ولا تَقـولوا على اللّهِ إلاّ الحقّ. إنّما المسـيحُ ابنُ مريمَ رسولُ اللّهِ و**كلمتُه** ألقاها إلى مريمَ، **ورُوحٌ مِنْه** (؟). فـآمنوا باللّه ورسـولِه. ولا تقـولوا ثلاثةٌ. انتهوا خيراً لكم. إنّما اللّهُ إلهٌ واحد» (٤/ ١٧١).

١٤و١٥. «ويَسـألونكَ عن **الرُّوحِ**؟ قل **الرّوحُ مِنْ أمْـرِ رَبِّي** (؟). ومَا أُوتيتُم من العلمِ إلاّ قليلاً» (٤٠/ ١٥)

١٦. «رفـيعُ الدّرَجـات (أي اللّهُ عـظيمُ الصـفـات، أو رافعُ درجات المؤمنين في الجَنّة)، ذو العرْشِ، يُلْقِي **الرّوحَ** (أي الوحي) **مِنْ أمْرِهِ** على مَن يشاء من عبـاده، لِيُنْذِرَ يومَ التّلاقِ(ي)» (٤٠/ ١٥).

١٧. «لا تجدُ قومـاً يؤمنونَ باللّهِ واليومِ الآخرِ يُوَادُّونَ (أي يصـادِقون) مَن حـادَّ (أي خالـف) اللّهَ ورسولَه، ولو كـانوا (أي المخالفـون) آباءَهم، أو أبناءَهم، أو إخوانَـهم، أو عَشيـرَتَهم. أولَئكَ (أي الذين لا يخـالفـون) كَـتَبَ (أي أثبتَ) في قلـوبهم الإيمانَ، **وأيَّدَهُم برُوحٍ** (أي بنورٍ) **مِنه**، ويُدخِلُهم جَنّاتٍ تَجـري من تحتِـها الأنهارُ، خالدينَ فيها» (٥٨/ ٢٢).

١٨. «ومـا كان لبَـشَرٍ أنْ يُكلِّمَـه اللّهُ إلاّ وَحْيـاً، أو مِن وراءِ حِجـاب، أو يُرسلَ رسولاً (مـلاكاً كـجبـريل)، فيُوحيَ بـإذْنِه ما يشاءُ. إنّه عليٌّ حكيم. وكذلك **أوْحَينَا إليكَ** (يا محـمّد) **رُوحًا** (أي القرآن) **مِنْ أمْـرِنَا**. مـا كنتَ تدري ما الكتـابُ ولا الإيمان. ولكنْ جعلناهُ نوراً نَهدي به مَن نشاء من عِبادِنا" (٤٢/ ٥١-٥٢).

١٩. «ثمّ سَوَّاهُ (أي خلق آدم)، **وَنَفَخَ فِـيهِ مِنْ رُوحِـهِ** (؟)» (٣٢/ ٩).

٢٠ و٢١. «.. فإذا سوَّيتُه، **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي** (؟)»[٧٠].

***

يرفض المسلمين كافّةً أن يكونَ «الروح» في القـرآن كما هو عند المسيحيّين، أي أقنوماً إلهيّـاً. والقرآن، في الحقيقة، يعرج بين أن يكون «الروح» الذي يتكلّم عليـه، ملاكاً مُـرسَلاً من اللّه، أو أن يكون من ذات اللّه[٧١]. وجبريل في التقليـد اليهودي-النصراني، الذي عنه أخـذ القرآن، هو ملاك الـبشارات السـارّة، وهو لم يكن يوماً، ملاكَ وحـي: فهو، مثلاً، عند دانـيال، يقوم بتفسـير الرؤية للنّبيّ[٧٢]؛ وهو الذي بشّـر زكريّا بولادة يحـيى[٧٣]؛ وبشّـر مريم

---

(٧٠) سورة الحجر ١٥/ ٢٨-٢٩؛ مثلها سورة ص ٣٨/ ٧١-٧٣.

(٧١) رَاجع بحثاً مطوَّلاً بعنوان: «الروح القدس في الإسلام».

(٧٢) أنظر: دانيال ٨/ ١٦-٢٦؛ ٩/ ٢١-٢٧.

(٧٣) أنظر: لوقا ١/ ١١-٢٠.

بميلاد عيسى[٧٤]؛ ويذكره أخنوخ بين الملائكة، وينيط به مـهمّات كثيرة[٧٥]...

فـمن أين جاء المفـسّـرون المسلمون جـبـريلَ، إذاً، بمهمّـة الوحي والتنزيـل؟! هذا وإنّنا لا نجـد، في المرّات الثـلاث التي يَرِدُ فيها اسم جِبْرِيل، أيّة علاقة له بالوحي القرآني:

الآية الأولى (سورة البقرة ٢/٩٧) : «**قُلْ** (يا محمّد ليهود المدينة الذين كـفروا بك وبالقـرآن الذي نزل عليك مصـدِّقاً لما بين أيديهم من التوراة): **مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ** (فهو "كافر"[٧٦]؛ أو "فليمت غيظاً")؛ **فَإِنَّهُ** (أي جبـريل) **نَزَّلَهُ** (أي القرآن) **عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ** (أي بأمر) **اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** (أي لما قبله من الكتب)، **وَهُدًى** (من الضـلالة) **وَبُشْرى** (بالجنّة) **لِلْمُؤْمِنِينَ**».

يُجمع المفسِّرون على أنّ اليهـود هم أعداءجبريل. وبالتالي، هم أعداءُ محـمّد، وأعداء اللّه أيضـاً، وأعـداء الوحي، والقرآن، وكلّ ما في الإسلام...

نقول : **١.** لم يردْ في التوراة ولا في التـقاليد اليـهوديّة أنّ اليهود كانوا أعداء اللّه، أو أيٍّ من الملائكة. فهل بسبب العداوة بين محمّد واليهود، أصبح اليهودُ أعداءَ اللّه وجبريل؟!

---

(٧٤) أنظر: لوقا ١/٢٦-٣٧.

(٧٥) أنظر كتاب أخنوخ ٩/١ وما يلي؛ ١٠/٩؛ ٢٠/٧؛ ٤٠/٩.

(٧٦) أنظر هذه الإضافة في ترجمة "بلاشِير" الفرنسيّة.

فـ «الرّوح»، إذاً، ليس جبريل؛ وجبريل ليس ملاك وحي وتنزيل؛ والوحي القرآن يأخذ عن الوحي الإنجيلي؛ والإنجيل يعتبر الروحَ روحَ اللّه الذي رافق يسوع المسيح من البشارة بميلاده حتّى آخر حياته، وحتّى بعد مماته وقيامته وصعوده. وهو الروح نفسه الذي أرسله يسوع، بعد ارتفاعه، إلى تلاميذه.

فلذلك نقول: إنّ القرآن الذي جزم في رفضه الثالوث، لم يجزم في هوّيّة الرّوح. بل لم يستطع أن يرفض ألوهيّته، كما لم يستطع أن يقرّ بها. وربّما خشي قول المسيح: «مَن يجدّف على الرّوح القدس فلا يُغفر له»!

خامساً - ألجهاد المقدّس

يأمر القرآن بقتال المشركين أينما وُجدوا. والمشركون هم الذين يُشركون مع اللّه الواحد آلهةً أخرى، أو الذين يقولون بأنّ اللّه ثالثَ ثلاثة، أو الذين يعتبرون اللّه هو المسيح عيسى ابن مريم، أو الذين يقولون بعيسى وأمّه إلهَين مِن دون اللّه، أو الذين يقولون إنّ الملائكة بنات اللّه، وإنّ الجنّ شركاؤه...

ولا يظنّن أحد بأنّ ألمسيحيّين اليوم ليسوا مشركين؛ وبالتالي، ليسوا هم «مِنْ أهل الكتاب» الذين حظوا بسماح الإسلام والمسلمين. فـ "أهل الكتاب" بالأمس ليسوا "مسيحيّي" اليوم.. هؤلاء، بكلٍّ بساطة ووضوح، يقولون بإلهٍ مثلَّث الأقانيم؛ فهم، إذاً، مشركون. وأولئك يقولون بإله واحدٍ، وما المسيح عيسى إلاّ نبيٌّ، وروح القدس هو المَلَك جبريل؛ فهم، إذاً، "مُسْلِمون".

هذا، في نظر المسلمين. والنتيجة معروفة: قتال "المسيحيّين" إلى آخر الدّهر؛ لأنّهم "مشركون"، غَلَوا في الدِّين. وآيات القتال، في القرآن، عديدة، واضحة، لا تحتاج إلى تفسيرٍ أو تأويل. بها يأخذ المسلمون، وعليها يعتمدون في مواقفهم من المسيحيّين.

وإذا ما هادنوا اليوم قليلاً فلأنّ مانعاً ما يمنعهم مِن تحقيق مأربهم؛ أو لأنّهم يبدون أكثر تسامحاً من اللّه نفسه، وأكثر مودّةً من الكتاب الذي يُجيز قَتْلَهم، وأفضل سيرة من الرسول الذي يعمل من أجل اللّه أكثر ممّا يعمل من أجل الإنسان.

فلنبدأ من حيث انتهى الوحي، أي من سورة التوبة التي هي آخر الوحي القرآني وتمامه، والذي «نَسَخَ» ما سبق. لقد أمر اللّه فيها بالقتال:

«قَاتِلُوا الّذينَ لا يُؤمِنُونَ باللّهِ ولا باليَومِ الآخِرِ، ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللّهُ ورَسولُه، ولا يَدِينُونَ دينَ الحَقِّ مِنَ الّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" (٩/ ٢٩).

لقد كانتْ هذه الآية آخر ما قرّره الوحي القرآني بالنسبة إلى المسيحيّين واليهود، كما «كانت مستند الّذين يُحَبِّذونَ استعمالَ القوّة لحلِّ مشكلِ تواجد النّصارى، خاصّة في البلاد الإسلاميّة»(٧٨).

والدّعوة إلى السيف والقتال متواترة في القرآن المدني.

قال: «فَاقْتُلُوهمْ حيثُ ثَقَفْتُمُوهُم (أي : وجدتموهم)»(٧٩).

وقال: «فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيثُ ثَقَفْتُمُوهُم» (٤/ ٩١).

---

(٧٨) عبد المجيد الشرفي، **الفكر الإسلامي...**، ص ١٢١.

(٧٩) سورة البقرة ٢/ ١٩١.

وقال: «فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيثُ ثَقَفْتُمُوهُم. وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًا وَلا نَصِيرًا» (٤/ ٨٩).

وقال: «.. فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكَينَ حَيثُ وَجَدْتُمُوهُمْ. وَخُذُوهُمْ. وَاحْصُرُوهُمْ. وَاقْعُدُوا لَهُمْ كلَّ مَرْصَد» (٩/ ٥).

وقال: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» (٩/ ٣٦).

وقال: «فَقَاتِلُوا أَئمَّةَ الكُفْرِ. إنّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ... قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ، وَيُخْزِهِمْ، وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيهِمْ، وَيَشْفِ صُدورَ قَومٍ مُؤْمِنِين» (٩/ ١٢-١٤).

وقال بشكلٍ عامّ: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ» (٢/ ٢٤٤).

وقال: «كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتَالُ وهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ. وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ» (٢/ ٢١٦).

وقال: «يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا! قَاتِلُوا الّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ (أي الأقرب فالأقرب). وَلْيَجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً (شدّة)» (٨/ ١٢٣).

وقال: «وَأَنْزَلَ الّذينَ ظاهَرُوهُمْ من أهلِ الكتابِ (أي قريظة) مِنْ صَيَاصِيهِمْ (حصونهم)، وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمِ الرُّعْبَ: فَرِيقًا تَقْتُلُونَ، وتَأْسِرُونَ فَرِيقًا. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ، وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤوها» (٣٣/ ٢٦-٢٧).

وقال: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الّذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ، حتّى إذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ (أي أكثرتم فيهم القتل) فَشُدُّوا الوَثَاقَ (أي ما يوثق به الأسرى)» (٤٧/ ٤).

وقـال: «فَلا تَهِنُوا (أي تضعفوا) وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ (أي الصلح مع الكفّار)، وأَنْتُمُ الأَعْلَونَ (أي الأغلبون القاهرون)» (٤٧/ ٣٥).

وقال: «إنّ اللّهَ يُحِبُّ الّذينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبيلِه صَفًّا كأنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ» (٦١/ ٤).

وقال: «وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ في سَبيلِ اللّهِ» (٤/ ٧٥).

وقال: «فَقَاتِلُوا أوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ» (٤/ ٧٦).

وقال: «.. فلمّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتَالُ.. قَالوا: رَبَّنَا! لِمَ كَتَبْتَ عَلَينَا القِتَالَ؟ لولا (أي: هلاّ) أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ!) قُلْ (لَهمْ): مِتَاعُ الدُّنْيَا قَليلٌ، والآخِرةُ خَيرٌ» (٤/ ٧٧).

وقـال: «سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الّذينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَاضْرِبُوا فَوقَ الأَعْنَاقِ، وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (أي أطراف اليدين والرجلين)... فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ. وَلكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ. وَمَا رَمَيتَ إذْ رَميتَ ولكنَّ اللّهَ رَمى» (٨/ ١٢-١٧).

وقال: «وَقَاتِلُوهُمْ حتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ (أي شرك). وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للّهِ (وحده ولا يُعبد غيره)» (٨/ ٣٩).

وقال: «يَا أَيُّهَا النّبِيُّ! جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عليهِمْ» (٩/ ٧٣).

وقـال: «يَا أيُّهَا النَّبيُّ! جَاهِدِ الكُفّارَ (بالسيف) والمنَافِقِينَ (باللّسان والحجّة)، وَأَغْلُظْ عَلَيهِمْ (بالانتهار والمقت)» (٩/ ٦٦).

وقال: «فَقَاتِلْ (يا محمّد) في سَبيلِ اللّه. لا تُكَلَّفُ إلاّ نَفْسَكَ. وَحَرِّضِ المؤْمِنينَ (أي حثّهم على القتال ورغّبهم فيه). عسَى اللّهُ أنْ يَكُفَّ بَأسَ الذِينَ كَفَرُوا. واللّهُ أشَدُّ بَأْسًا وأشَدُّ تَنْكِيلاً» (٤/ ٨٤).

وقال: «يَا أيُّها النَّبِيُّ! حَرِّضِ المؤْمِنينَ عَلى القِتَالِ» (٨/ ٦٥).

***

فالجهاد المقدّس، بحسب القرآن المدني، والمفسِّرين المسلمين كافّة، هو قاعدة أساسيّة في الإسلام وانتشاره. وهو، عند بعض المسلمين، ركن سادس للدِّين، بالإضافة إلى الشهادتَين، والصوم، والصلاة، والزّكاة، والحجّ.

وقد عبّر الفقه الإسلامي في مختلف مذاهبه، عن ضرورة القيام بالجهاد المقدّس لانتشار الإسلام، بتقسيمهم العالم إلى ثلاثة دُور: دار سلم حيث تطبّق الشريعة الإسلاميّة، ودار حرب حيث لا تُطبَّق الشريعة الإسلاميّة، ودار هدنة، إذا كان المسلمون لا يزالون ضعفاء؛ أمّا إذا أصبحوا أقوياء فعليهم أن ينقضوا الهدنة لتصبح دارها دار سلم. وفي كلّ حال يجب ألاّ تطول الهدنة إلى أكثر من عشرة أعوام.

أمّا "الجزية" التي فرضها الإسلام على بعض أهلِ الكتاب، وبالتحديد، على وفد نجران المسيحي، فهي تدبير موقّت إلى أن

يصبحوا مسلمين.. لهذا، عندما جاء عمر بن الخطاب، طالبهم حتّى جلا بعضهم عن دياره، وقتل منهم مَن قتل، واعتنق الإسلامَ مَن اعتنق.

هذا كلّه كان تطبيقاً للشريعة الإسلاميّة ولأحكام اللّه في القرآن. وفي هذا أساس التعامل مع العالم؛ وبنوع خاصّ، مع بعضٍ "مِنْ أهل الكتاب"، أي "المسيحيّين".

***

والجهاد، في النتيجة، هو «أفضل من تطوّع الحج والعمرة، وأفضل من تطوّع الصلاة والصيام... فيه ينتظم كلّ لون من ألوان العبادات... فيه من عبادات الباطن: ألزهد في الدنيا، ومفارقة الوطن، وهجرة الرّغبات، حتّى سمّاه الإسلام: "الرهبنة"، في حديث: "رهبانيّة أمّتي الجهاد"... وفيه من عبادات الظاهر: التضحية بالنفس والمال وبيعهما للّه. وهو ثمرة من ثمار الحب والإيمان واليقين والتوكّل، في قوله: «إنّ اللّهَ اشترَى من المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنّةَ يقاتلونَ في سبيلِ اللّه فيَقتلون ويُقتلون» (٩/ ١١١)»[٨٠].

وفي الأحاديث النبويّة كلام كثير على فضل الجهاد. منها :

«ألجهاد أفضل العمل»[٨١]؛

---

(٨٠) ألسيّد سابق، فقه السنّة، ٢/ ٦٢٨.

(٨١) بخاري، جهاد، ١؛ إمارة ١١٠؛ حجّ ٤؛ صيد ٢٦؛ ترمذي، فضائل الجهاد ١؛

«دُلَّني على عملٍ يَعدِل الجهاد. قال: لا أجده»[٨٢].

«إنّ في الجنّة مائة درجة أعدّها اللّهُ للمجاهدين»[٨٣].

وسُئل النّبيّ: «أيّ النّاس أفضل؟ فقال رسول اللّه: مؤمن مجاهد»[٨٤].

وقد جعل اللّهُ الجهاد مقياساً لصدق إيمان المسلم[٨٥].

وعلى المسلم أن يتذكّر أنّ النبيّ قام بنفسه في ٢٧ غزوة، وأمر أصحابَه بالقيام بـ ٤٧ سريّة. فيكون معدّل الوقائع التي حدثت أكثر من عشر في السنة.

ولهذا السبب اعتبر الخوارج أنّ النبيَّ الذي قضى حياتَه كلّها تقريباً في الحرب، يعتبر الجهاد فرضاً واجباً يتحتّم على كلّ مؤمن أن يؤدّيه. ولهذا اعتبروه ركناً سادساً من أركان العبادات في الإسلام.

٢؛ نسائي، جهاد ١٧؛ حجّ ٤؛ حنبل ٢/ ٣٤٤ و٤٢٤ و٤٣٨ و٤٥٩ و٤٦٥.

(٨٢) بخاري، جهاد ١؛ مسلم، إمارة ١١٠؛ ترمذي، فضائل الجهاد ١: ٢؛ نسائي، جهاد ١٧؛ حنبل ٢/ ٣٤٤ و٤٢٤ و٤٣٨ و٤٥٩ و٤٦٥.

(٨٣) ألبخاري، ألجهاد ٤؛ توحيد ٢٢؛ ألنسائي، ألجهاد ١٨؛ حنبل ٢/ ٣٣٥ و٣٣٩.

(٨٤) ألبخاري، ألجهاد ٢.

(٨٥) أنظر سورة الحُجُرات ٤٩/ ١٥: «إنّما المؤمنون الذينَ آمنوا باللّهِ ورسولِه، ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيل اللّه، أولئك همُ الصادقون».



خاتمة الكتاب

وَعَدنا القارئ بأنْ لا نتدخّل، أو نبدي رأياً في نقلنا لتفاسير المفسِّرين. وهكذا كان في القسم الأوّل من بحثنا. فإنّنا لم نكن مع القرآن ولا ضدّه، ولا مع المفسِّرين ولا ضدّهم. ولم نحكم عليه ولا عليهم، ولم نقوّم طروحاته وآراءه ولا طروحاتهم وآراءَهم. لقد نقلنا الآيات وتفاسيرها نقلاً صادقاً وأميناً.

ولكن، أجزنا لأنفسنا، في حواشي الصفحات، توضيح بعض ما استعصى، والوقوف على ما نقله المفسِّرون أنفسُهم عن اختلاف الصحابة، وأهل التأويل، بعضهم عن بعض. إلاّ أنّنا بقينا معهم في اختيارهم أيّ تفسير.

ويتأكّد القارئ بأنّ الآيات التي نقلناها هي كلّ الآيات التي تتكلّم على أهل الكتاب عامّة، والنّصارى خاصّةً، وعلى معتقداتهم التي يقف منها القرآن موقفَ قابلٍ أو رافض، وعلى اختلافاتهم بعضهم مع بعض، يهوداً ونصارى ومسيحيّين.

بهذا يتأكّد القارئ، مرّة أخرى، لا من شموليّة ما جاء عن النّصارى في القرآن فحسب؛ بل، وأيضاً، من صحّة تفاسير

المفسِّرين للآيات، وأخذِ المسلمين اللاّحقين بها وبتفاسيرها. وليس من خلاف بين المفسِّرين في ما يعود إلى الموضوعات النصرانيّة. فالكلّ مجمع على فهمها. وحتّى ما يعود إلى «روح القدس»، الذي أشرنا إلى الخلاف الواسع فيه؛ إلاّ أنّهم، في نهاية الأمر، لا يقولون به كما يقول المسيحيّون.

***

أمّا في ما جاء في القسم الثاني من بحثنا، وهو يقوم على ترتيب الآيات بحسب موضوعاتها، فهو أيضاً، وإنْ كان من ترتيبنا وتبويبنا، فإنّنا لم نتدخّل في الحكم على مضمونها، ولم نكن معها أو ضدّها؛ بل كنّا لها ناقلين.

ومع هذا، لا يغيب عن القارئ بأنّ في الترتيب والتبويب نفسَيهما، لا بدّ من إبداء رأي، مهما كان مجرَّدًا وموضوعيّاً، يظلّ خاضعاً لثقافةٍ شخصيّة وميولٍ ذاتيّة. وقد لا يكون البحثُ في مثل هذا الموضوعات الحسّاسة، بحثاً مجرَّداً بالتمام.

لهذا، على القارئ أن يحكم، وأن لا يبقى مجرَّدًا عن كلِّ رأيٍ أو حكم. عليه أن يكون معنا أو ضدّنا، أن يقبل أو يرفض، أن يحكم علينا، أن يقوِّم بحثنا.. فالموضوع موضوع إيمانيٌّ وحياتيّ؛ بل مصيريّ، يهمّه ويعنيه، أمسلماً كان أم مسيحيًا.

إنّ نظرةَ القرآن إلى النصارى ومعتقداتها هي فيه موضوع أساسي، بل هو الموضوع الأساس. ولسنا نجد موضوعاً حسّاساً سواه يتناول مختلف نواحي الحياة الدينيّة والإنسانيّة

والاجتماعيّة، ويطال الحياة الآخِرة التي هي نهاية كلّ شيء. وليس من موقف في القرآن حاسم وصارم وجازم من أحد كموقفه من اليهود والنصارى والمسيحيّين.

لهذا ابتدأنا، في أبحاثنا، حيث يجب علينا أن نبتدئ. فهو البداية والنهاية لكلّ موقفٍ مسلمٍ من أهل الكتاب. فحوله كان حوارٌ وكان صراع؛ وبالنسبة إليه كان النصارى أصحابَ مودّة؛ وكان المسيحيّون مشركين يجب قتالهم. وما سوى ذلك مسائل جانبيّة، وتشريعات تنظيميّة لمجتمع ناشئ.

وقد نقول أيضاً بأنّ الإسلامَ ما كان دِيناً ينتمي إلى الأديان لولا مآخذه ومواقفه من اليهوديّة والنصرانيّة والمسيحيّة. في هذه كان الإسلامُ «ديناً»؛ وفي تنظيماته وتشريعاته وسائر تعاليمه كان «دولةً».

لِما أخذ الإسلامُ عن النصرانيّة ، ولما أخذ على اليهوديّة، ولما كفّر في المسيحيّة يدخل في صميم الإيمان. أمّا ما سوى ذلك من تعليم وتنظيم وتشريع في أمور الدنيا وشؤون المجتمع فالإيمان بها غير ضروريّ. فأكثر ما في القرآن لا يقتضي إيماناً؛ لأنّه من «الفطرة» وفي متناول العقل.

***

من أجل هذه النظرة، أنشأنا هذا البحثَ، ويتلوه آخر. إنّها نظرة تختلف عن نظرة معظم الباحثين. إنّها تفسير يختلف جذريًا عن تفاسير المفسِّرين المسلمين جميعهم. ولولا اختلافنا هذا لما

أقدمنا على هذا العمل المضني، ولِما خضنا عباب الخطر. ومع هذا لا بدّ من المغامرة في قول الحقيقة مهما كانت صعبة.

ولئلاّ نترك القارئ معلَّقًا بين تفاسير المفسِّرين المسلمين وتفسيرنا نحن، نطالبه بأن يتمهّل قليلاً في الحكم، فإنّ لنا أيضاً «قراءتنا للقرآن»، كما للمسلمين «قراءتهم». وكذلك لكلٍّ منّا «قراءته في المسيحيّة». وأحسن القراءات تلك التي تعتمد على معطيات التاريخ، لا على تنزيلات جبريل.

وبكلام أصعب، نقول: إذا ما شِئنا أن نكون مؤمنين حقًّا، مسيحيّين ومسلمين، علينا، كما يقول القرآنُ نفسُه، أن نتخطّى "أَنْبَاءَ الغَيْبِ"[1]، و«تنزيلات جبريل». ونعتمد على مجريات التاريخ وأحداثه، وعلى معطَيات المجتمع والبيئة. فيُمسي الإسلامُ، والحال هذه، حركةً عظيمةً في صميم النّصرانيّة العربيّة، ومن تراثها. ويكون القرآن قراءَةً عربيّةً لكتابٍ أعجميّ.

هذه من مفاجآت الأبحاث في الإسلام، التي تخضع للعقل لا للنقل، للبحث لا للوحي، للعلم لا للتنزيل، للحقيقة لا للتأويل، للحقِّ لا لجبريل..

ما نقوله يدعونا إلى عبادة اللّه إستنادًا إلى ما عندنا من نورٍ إلهيٍّ. وأمّا الذين يريدون عبادةَ اللّه استناداً إلى ما في الكتب من وحيٍ وتنزيل، فلا يقبلون به بحالٍ من الأحوال.

---

(١) سورة آل عمران ٣/ ٤٤؛ هود ١١/ ٤٩؛ يوسف ١٢/ ١٠٢.

فهرس الكتاب

الجزء الأوّل

الجزء الثاني

